المرآة لحقائق بعض الأحاديث والآيات

تصنيف العلاّمة العارف باللّه تعالى المحقق

الشيخ إسماعيل حقي البرسوي

المتوفى 1137هـ

ويليه

اللطائف فيما جرى على لسان الشيخ عثمان الجلوتي من المعارف الإلهية للمصنف

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي

shaziliaassemia.com

تقديم

بسم اللَّه الباطن بأحديته والظاهر بواحديته، المتجلي بأسمائه وصفاته على قلوب أوليائه، كان ولم يكن شيء غيره، وهو الآن على ما عليه كان، الغني القائم بنفسه والمقوِّم لغيره، أوجد الأشياء على غير مثال سبق، أخرجهم من الغيب إلى الشهادة وما يزال يمسكهم ويمدهم بالوجود.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المجلى الكامل الجامع لجوامع الكلم الأسمائية الجلالية والجمالية سيدنا محمد سيد ولد آدم، الأول بروحه والآخر بجسده، المبعوث رحمة للعالمين بما جاء لهم به من إسلام ملكي وإيمان ملكوتي وإحسان جبروتي.

وبعد ففي إطار نشر كتب التصوّف الإسلامي بما فيها من تربية وسلوك وعلم توحيد دليل وبرهان وشهود وعيان، نقدم للقراء الكرام مخطوطاً نفيساً في الحقائق والتجليات الإلهية لإمام في هذا الشأن هو العارف باللَّه تعالى المحقق الشيخ إسماعيل حقي البروسوي قدِّس سرُّه. والمخطوط هو (المرآة لحقائق بعض الأحاديث والآيات).

والكتاب عبارة عن اختصار لأسرار القرآن الكريم حيث أخذ المصنف من كل سورة بعض آياتها وسبح في أنوارها الملكوتية وأسرارها الجبروتية) مما أبداها اللَّه تعالى لقلبه وفتح عليه به.

هذا ومما لا شك فيه أن كتب التصوّف الإسلامي تساعد المُريد على الاطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى اللَّه تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: الآية: 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛

الشريعة والطريقة والحقيقة؛ المُلْك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

كما ونرجو اللَّه تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا اللَّه به على لسان نبيّه ﷺ: مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآيتان 3، 4] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية 69] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة اللَّه تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيتان 22، 23].

كتبه الشيخ الدكتور

عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة المصنف الشيخ إسماعيل حقي البروسوي قدَّس سرُّه(*)

هو الإمام العلامة الشيخ إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الجلوتي بالجيم وقيل الخلوتي بالخاء، المولى أبو الفداء، مفسر، صوفي من كبار مشايخ الصوفية في علمي الإشارة والحقيقة ومشربه مشرب وحدة الوجود وفلسفة الإنسان الكامل على مذهب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي والشيخ عبد الكريم الجيلي قدِّس سرُّهما.

ولد في مدينة آيدوس بتركيا سنة 1063 هجرية وسكن في مدينة استنبول (القسطنطينية) وانتقل إلى مدينة بروسة وكان من الصوفيين المتابعين للطريقة الجلوتية بالجيم وقال الدكتور محمد أحمد درنيقة إنه من أتباع الطريقة الخلوتية بالخاء.
أوذي وامتحن ونفي إلى مدينة تكفورطاغ. مات في مدينة بروسة سنة 1137 وقيل سنة 1127 كما ذكر ذلك الدكتور أحمد درنيقة في كتابه (معجم المؤلفين الصوفيين).

مؤلفاته: ترك الشيخ قدّس سرّه مؤلفات عدة هي: روح البيان في تفسير القرآن، تمام الفيض، الرسالة الخليلية في التصوّف، تسهيل طريق الأصول لتيسير الوصول في التصوّف، كتاب التوحيد، كتاب النجاة، شجرة اليقين في التصوّف باللغة التركية، الفروقات، المرآة لحقائق بعض الأحاديث والآيات وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، روح الكلام في شرح صلوات المشيشي عبد السلام، فرح الروح في شرح المحمدية ليازيجي زاده ثلاث مجلدات، شرح الآداب، نخبة اللطائف، نفائس المسائل، نقد الحال، نوادر الصوم، واردات حقي من سنة 1114 إلى آخر سنة 1115 هـ، شرح بند نامة للعطار، شرح شعب الإيمان للقيصري، شرح الكبائر، شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر، الأنوار في شرح منظومة كتاب التوحيد، الكنز

(*) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي [1/ 313] وهدية العارفين للبغدادي (1/ 118) وإيضاح المكنون (2/ 2/ 702).

المخفي، أسرار الحج، التحجي في حروف التهجي، تحفة إسماعيلية، تحفة خاصكية، تحفة خليلية، تحفة رجبية، تحفة عطائية، تسهيل طريق الأصول، جامع مهمات الطلاب، مزيل الأحزان، حاشية على تفسير سورة النبأ للبيضاوي مجلدين، الحجة البالغة، الحق الصريح والكشف الصحيح، ديوان شعر باللغة التركية، الرسالة البرقية، الرسالة الجامعة، كتاب الخطاب، روح المثنوي، سلوك الملوك، مجموعة الأبرار ووسيلة المرام.

الورقة الأولى من المخطوط

shaziliaassemia.com

الورقة الثانية من المخطوط

shaziliaassemia.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب مرآة الحقائق في تأويل بعض الأحايث والآيات مما أبداه الله القدير لقلب عبده الفقير الشيخ: إسماعيل حقِّي شرَّفه بالتجلِّي الحقي، ومزيد الترقِّي، ووقع البدء في أواسط سنة 1125هـ.

{سورة الفاتحة}

قال الله تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 1].

اعلم أن الحمد في مقام النعمة؛ بمعنى الشكر كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**اللّهم لك الحمد شكراً، ولك المنَّة فضلاً**»[1].

فإن قوله: (**شكراً**)؛ كالتفسير للحمد، وكذا قوله: (**فضلاً**)؛ كالتفسير للمنَّة.

فإن المنَّة قد تكون بمعنى الامتنان، وقد تكون بمعنى الإفضال كما في قولهم: المنَّة لله، فإنه بمعنى الحمد لله؛ بل بمعنى الشكر لله، فالفرق بين الحمد والشكر: إن الشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة كما سبق، فيُطلب زيادتها بالشكر، ولا يكون في مقابلة المحنة؛ لأن الشكر في معنى طلب المزيد.

كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7].

ولا معنى لطلب زيادة المحنة؛ بل هو منهي عنه كما دلَّ عليه قوله: «**لا تتمنوا لقاء العدو**»[2]، وقوله: «**واسألوا الله العافية**»[3]، بخلاف الحمد، فإن الله تعالى يُحمد على السرَّاء والضرَّاء، فيؤول إلى معنى الصبر بمعنى: إن العبد ينبغي أن يصبر

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن اسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه كعب، حديث رقم (316) [19/ 144] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، أول من يدعا إلى الجنة الذين يحمدون اللَّه في السراء والضراء، حديث رقم (4391) [4/ 96] ورواه غيرهما.

(2) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما باب النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، حديث رقم (2804) [3/ 1082] ورواه مسلم في صحيحه، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، حديث رقم (1742) [3/ 1362] ورواه غيرهما.

(3) نفس الحديث السابق ونصه كاملاً: عن أبي النضر عن كتاب رجل من أسلم من أصحاب النبي ﷺ=

على المحنة؛ فإنها من الله تعالى، وفي ظهورها ظهور كمال الله تعالى.

والله تعالى يُحمد على كماله سواء كان في صورة النعمة أو لا، فإن كان الحامد من الأكامل؛ فيجوز أن يكون حمده على المحنة شكراً؛ لشهوده فيها النعمة؛ بل يكون حمده إظهار الكمال لله تعالى من غير ملاحظة النعمة والمحنة؛ لغيبته عن كل منهما، واستغراقه في الله تعالى.

قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

ولم يقل: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الأُلوهية دون العكس؛ فإن الأُلوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مَظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مَظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال تربيتهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الأُلوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن.

والحاصل: أن الأُلوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم؛ فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضاً، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الأُلوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفاتحة: 3] في الظاهر، فيعمُّ رحمته الكافر، والأعضاء والآفاق، فإن كل ذلك داخل تحت حيطة الاسم الظاهر.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 3] في الباطن، فتعمُّ رحمته المؤمن

= يقال له عبد اللَّه بن أبي أوفى فكتب إلى عمر بن عبيد اللَّه حين سار إلى الحرورية يخبره أن رسول اللَّه ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا اللَّه العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قام النبي ﷺ وقال اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم.

والقوى والأنفس، كما تعمَّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعاً فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها.

وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، وتظهر الآخرة على صورتها؛ فتكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهرة؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطناً، والقلب ظاهراً، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

ومن العجائب في هذا المقام أن الكافر باطن المؤمن؛ لأن باطن المؤمن مَظهر الجلال، كما أن ظاهره مَظهر الجمال، فللمؤمن رحمة لظاهره وباطنه في الدنيا والآخرة، فالكافر لا يقنط من رحمة ربه إلا أن الرحمة له في صورة النعيم في الدنيا كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**».

وفي صورة الجحيم في الآخرة كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: 23] أي: في العذاب في تلك المدة؛ وهو مذهب أهل الحقائق، وله في القرآن شواهد أُخر لا تُذكر هنا، فظن خيراً، ولا تسأل عن الخبر، والله قادر على أن ينبت جرجيراً في قعر النار، وإن كان ذلك الجرجير ليس من جنس ما ينبت في قعر الجنة؛ إذ ليس في النار نعيم، فاعرف هذه الدقيقة، وكن مع أهل الحقيقة.

فإن مذهبهم ليس بمخالف لمذهب أهل الشريعة، وإن كان أهل الرسوم يسيئون الظن بهم؛ لعدم وقوفهم على الحقائق، ولنا في هذا المقام كلام عريض لا يقتضي المقام استيفاؤه، واعتقادنا على أن أهل النار مخلَّدون فيها، وليس لهم نعيم كنعيم أهل الجنة من أكل، وشرب، ولباس ونكاح، ونحو ذلك، فهم كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56] الآية.

قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4].

دلَّ هذا على أن اليوم في الأصل كان يوماً بلا ليل، ثم ظهر الليل بحسب الأجرام النيِّرة وغروبها، وكذا هو يوم واحد في الفرع بلا ليل؛ لأن الآخرة لا ليل لها.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ليس لغيره في ذلك الملك يد إلا بطريق الخلافة والعارية، فإن الدين المجازاة، وهي جارية في الدِّارين، فهو تعالى مالك يوم الدنيا، ويوم الآخرة، ومالك المجازاة فيهما، فظهر أن قيامة العارفين دائمة؛ لكونهم مع الله تعالى في كل نَفس من الأنفاس، ومحاسبون أنفسهم في كل لحظة من اللحظات، فهم مملوكون لله تعالى؛ لأنهم أحرار عمَّا سواه تعالى، وقائمون لربهم بالخدمة في كل حين.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

أراد بالعبادة المبنية على التوحيد، فإن العبادة بلا توحيد عبادة المشركين، فلا تعود إلى الله، وإنما تعود إلى الآلهة الذين اتَّخذوها معبودين من دون الله، دلَّ على هذا تقديم المعمول الدال على القصر، فإذا كانت العبادة مخصوصة به تعالى؛ كانت الاستعانة أيضاً كذلك، إذ لا يستعين المرء إلا بمعبوده.

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] أي: ثبِّتنا على صراط تخصيص العبادة والاستعانة بك.

قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7] في الأزل، فكانوا على شكر النعمة في جانب الأبد.

قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]؛ هم الذين استعانوا بغير الله، ولمَّا كان أثر الغضب أشدَّ من أثر الضلال؛ قدَّمه عليه.

وفيه إشارة إلى أن غاية الأمر بالنسبة إلى المستعين بغير الله هو الحيرة؛ إذ لا يتم ولو قاسى كل الشدائد، وإنما يتم منه إذا لم يكن ذلك الغير غير الحسب لشهوده الحق في كل مظهر من المظاهر.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: 15].

أي: سواء كان إحياء حكم إلى السلطان مثلاً في الظاهر، أو إلى مَن دونه، وهذا الضلال الذي هو الحيرة بالاستعانة بغير الله؛ هو الضلال البعيد، والحيرة المذمومة.

وأمَّا الضلال الذي هو التلوُّن بتجليَّات الله تعالى، والتقلُّب في شهوده وشؤونه؛ فذلك حيرة ممدوحة كما عليه الكُمَّل نسأل الله الثبات في مقام الإيمان، والحيرة في مقام الإحسان، اللّهم تفضَّل علينا به في كل حين آمين.

{سورة البقرة}

قال الله سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: 1].

أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لمَّا خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط.

فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذاً المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

وأخبر ذكر هو من بين سائر الأذكار؛ لكون الهاء مادة من المبدأ إلى المنتهى الذي هو مرتبة الواو؛ كالميم فهي آخذة من كل المراتب الجزئية والكلية خاصتها، فكانت بمنزلة الإنسان الكامل المار بجميع الأطوار، ففي لفظ هو من الجمعية في الإنسان، فمَن غلب عليه الفناء، وجمع الحقيقة؛ فليذكَّر بذكر هو هو، ومَن غلب عليه البقاء، وفرْق الشريعة؛ فليذكَّر بذكر لا إله إلا الله، فإن الشارع أخبر أنه أفضل الأذكار؛ لغلبة أهل الفرق وكثرتهم، ولا شك أن لسان الشارع؛ إنما هو لسان الشرع الذي يقتضي التعميم لا التخصيص.

والحاصل: كما أن الإنسان آخر الكائنات؛ فكذا لسان الشرع آخر الألسنة، وفوق لسان الشريعة لسان الطريقة، وفوقه لسان المعرفة، وفوقه لسان الحقيقة، ولكل مقام مقال رجال.

فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أبهموا ما أبهم الله، وفصلوا ما فصل الله.

ولم يكن أحد من أولياء هذه الأمة مأذوناً لإظهار بعض الأسرار، إلا حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأذفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر، ومن عداه أُمروا بالسكوت، أو بالرموز لا غير، وكذا فوق مرتبة الإنسان مرتبة المواليد، ثم مرتبة العناصر، ثم مرتبة الطبيعة الكلية، ثم مرتبة الأرواح، ثم مرتبة الأعيان الثابتة، ثم مرتبة الشؤون الذاتية الغيبية، ولا اسم ولا رسم، ولا نعت ولا وصف فوقها.

وبعبارة أُخرى: فوق مرتبة الإنسان الخاص، وهي مرتبة الولاية، وفوقها مرتبة الإنسان الأخص، وهي مرتبة النبوة، وفوقها مرتبة الإنسان الذي هو أخص الأخص، وهي مرتبة الرسالة، وفيما بعد المرتبة الأولى يظهر الإنسان في صورة الحق بالفعل، فهو إذاً حق خلق.

وأما في المرتبة الأولى فهو وإن كان ظاهراً في صورة الحق، لكن بالقوة لوجود الحجاب والجهل والغفلة، كشف الله من بصائرنا ذلك الحجاب آمين.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2].

أي: الإنسان الذي هو القرآن الفعلي، المشتمل على حروف الشؤون، وكلمات الأرواح، وآيات المثال، وصور الأجسام، كما قال تعالى:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ [الطور: 1، 2]، فإنه إشارةٌ إلى الوجود الحق، المسطور، آثاره في التعينات كلها.

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2] أي: في كونه كتاباً مسطوراً، وقرآناً فعليًّا، وتنزيلاً تكوينيًّا عند أهل الفهم عن الله تعالى دون غيرهم، ولذا وقع الغافلون في الجدل والإنكار، ولم يزل الأمر على هذا إلى آخر الزمان، وسيجيء زمانٌ يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، مكذبين منكرين، وما ينفعهم القسم الكاذب إذ ذاك، والله الصادق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: 26].

يعني: إن ضرب المثل بالبعوضة حقٌّ موافق للحقيقة، وإنما يعلمه المؤمنون الكاملون الذين وصلوا إلى مرتبة شهود الحقائق.

وأمَّا الكافرون الساترون وجود الحق بوجود الخلق، فيستعظمون ذلك بناءً على جهلهم بالحقائق.

ولذا كان ضرب المثل هداية للمؤمنين إلى معرفة الحقائق في مراتبها، وشهود الحق في مرائيه، وضلالة للكافرين حيث زاغوا عن طريق المعرفة، وانحرفوا عن الاستقامة، وذلك أن البعوضة بعض من أجزاء العالم، وكل أجزاء الآفاقي أجزاء العالم الأنفسي من غير نقصان، فضرب المثل بالبعوضة ضرب له ببعض أجزائها.

ولا شك أن الإنسان أشدُّ انتقالاً منه؛ لأنه أعرف بنفسه وبأجزائه، وذلك التمثيل لا ينافي عظمة الله تعالى وجلالته؛ لأن له مراتب كثيرة ومجالاتٍ متعددة، فقد يظهر سرُّه في صورة الفيل والعنقاء، وقد يظهر في صورة النمل والبعوضة، وأيضاً يظهر في صورة الشمس، وفي صورة الهباء، والله بكل شيء محيط.

فكما أنه غنيٌّ عن العالمين في مرتبة غيب ذاته وهويته بحيث لا يُضاف إليه التعيُّن، ولا تعيُّن؛ لأن كل منهما من الأمور الإضافية التي لا تناسب إطلاقه الحقيقي الذاتي، فيكون إطلاق مثل ذلك عليه كفراً في الحقيقة؛ لأنه من قبيل التقييد والتجرُّد الذاتي، عالٍ غنيٌّ عنه فكذا إنه تعالى رب العالمين، فأضاف نفسه إلى العالمين بياناً لارتباطه بهم من حيث التجلِّي الأحدي الساري في جميع الموجودات.

فكما أن الأم تربِّي الطفل بلبنها الفائض من بطنها؛ فكذا إن الله تعالى يربِّي العالمين من حيث اسمه الباطن جسماً يساعده الظاهر، فإن التربية تابعة للمربين المربِّي، فيجيء التأثير من الباطن إلى الظاهر، ويظهر أنواع الأغذية بحسب تأثيره وخلاقيته بحيث ينمو كل شيء إلى أن ينتهي إلى غايته في الكمال الجسماني والروحاني كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50].

وهذا الظهور بحسب التجلِّي العام: استدعى ألا يستحيي الله تعالى من ضرب المثل بالبعوضة؛ لأن البعوضة صورة من صور تجليَّاته، وداخلة تحت أسمائه وصفاته، وإن كان اسمها من الأسماء الجزئية الداخلة تحت الأسماء الكلية، فكما أن السلطان سلطان، وهو جالس على سريره؛ فكذا أقل خُدَّامه وهو قائم بين يديه، فإن المضاف إلى السلطان سلطان، ولو حكماً، فإنه صورة من صور أسمائه.

ألا ترى إلى مراتب رجال السلطنة حيث إن ملك المراتب مراتب للسلطان في الحقيقة ظهر فيها بصورة أسمائه وخُدَّامه، فإذا كان الله هو المتجلِّي نوره في وجه

البعوضة في بعض مراتب التنزُّلات؛ فالتمثيل إذاً بالأصلي والأدنى سواء؛ لأن كل شيء، ففي قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [البقرة: 26] تحقيراً للممثِّل الذي هو نور الله تعالى، وسرُّه العظيم الظاهر في الصورة الحقيرة، فالحقارة راجعة إلى ظاهرها بحسب تعيُّنها لا إلى باطنها بحسب المتعيِّن فيها، فاعرف فإنه من لباس المعرفة، ومَن تنبَّه لأمثاله، وهي لا تُحصى، ومَن انكشفت بصيرته؛ رأى الله في كل شيء قبل كل شيء، ومع كل شيء، وبعد كل شيء، عجباً من المحجوبين كيف غفلوا عن الحقائق وهي حاضرة لديهم؟

ألا ترى إلى السلطان مثلاً إذا أحضروا ولده الصغير بين يديه كيف يعامله؟ هل يعامله بحسب مقامه من القبض والهيبة؟ أم بحسب مقام الصغير من الانبساط والأُنس؟ ومَن رأى انبساطه معه لا يقول إنه سقط عن رتبة السلطنة؛ حيث لا يليق به هذه المعاملة، فإن رتبة الصغير لا تقتضي إلا إياها، فالسلطان سلطان على حاله، وإن تنزَّل إلى مرتبة الصغير في معاملة الانبساط.

وقد أخبر لسان الشرع عن مثل هذا كالفرح، والضحك، والمجيء، والذهاب والتعجُّب، ونحو ذلك، فمَن أوَّله فقد خرج عن طريق السداد وهم العلماء المحجوبون، فإن الله تعالى بحسب قُدس ذاته، وإن كان لا يتَّصف بمثله لكن إذا أضافه إلى نفسه في بعض مراتب تنزُّلاته وتجليَّاته وجب أن يُفوِّض الأمر إليه في ذلك، وإبقاؤه على ظاهره من غير تأويل، فإنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فله سمع وبصر بحسب ما يعلمه، ولا يخرجه ذلك عن مرتبة غناه عن العالمين.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام كان قد يظهر في صورة دحية مع بقائه على حقيقته الملكية، فهو ذو لحية، وشعر، وله كلام بشري، ويد، ورجل ونحو ذلك في تلك الصورة، وهو عارضها في صورته الحقيقية، وأمثلة هذا المقام كثيرة؛ لكنه لا ينفع العسل للممرور، أذاقنا الله وإياكم حلاوة العلوم، والمعارف، وجعلنا من أهل الحِكَم، والحقائق، واللطائف.

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: 54].

إشارة إلى القوى النفسانية والطبيعية العاصية، كما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه: 90] أي: بعبادة عجل الطبيعة الذي اتخذه سامري الهوى، مع أنه لا بد من ذبحه.

كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: 58]؛ وهي أمانات الأمر والنهي، وأهلها القلب والقوى الروحانية، وبوصولها إليها والحركة بالعمل بمقتضياتها؛ ينكسر سورة النفس والطبيعة، وتموت القوى الفاسدة الحاملة لموت القلب، وحياة النفس.

وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: 67]؛ فهذه البقرة باقية في العالم ما دام الجهاد باقياً ماضياً إلى يوم القيامة، فمَن أهلَّ النفس أبقاها، ومَن أهلَّ القلب ذبحها، فإنه القوي المتين.

وفيه إشارة إلى أن ما سوى الله تعالى كله فتنة للإنسان؛ ومنه وجوده وما يتبعه سوى سرٍّ سرِّه الذي هو مظهر الوجود والإطلاق الغيبي كما ورد: «**سرُّ الإنسان سرِّي، وسرِّي سرُّه**» أي: سرُّه ظاهر سرِّي، وسرِّي باطن سرِّه، فافهم جداً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: 67].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: 29].

أمر الله تعالى في الآية الأولى من طريق الإشارة بذبح بقرة الطبيعة والنفس؛ لأنهما واحدة في الحقيقة، ومختلفتان ببعض الخصائص؛ حيث إن الطبيعة محلُّ الشهوة الجسمانية، واللَّذَّة النفسانية، والنفس محلُّ الهوى، والميل إلى ما سوى المولى، ونهى في الآية الثانية عن قتل الأنفس، والتوفيق بينهما هو أن المراد بالأنفس في الآية الثانية؛ هو الأرواح، ومعنى قتلها المباشر بأسباب تؤدي إلى مفارقتها عن الأبدان، واضمحلال آثارها عنها بالكلية وهو المراد بقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [الأنبياء: 35]، [العنكبوت: 57] أي: مفارقة لبدنها بانقطاع عن ظاهره، وباطنه، والمراد بالنفس في إشارة الآية الأولى؛ هي القوة المخصوصة الباعثة على الهوى، والانقياد إلى الطاغوت كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23]، فالهوى له مطاع بالنسبة إلى أهل الهوى.

ومعنى ذبحها: إزالة شهوات الطبيعة في مرتبة الشريعة، وقطع بلعوم الهوى في مرتبة الطريقة، فظهر من هذا أن الذي يليق بالذبح والقتل؛ هو قوة الطبيعة والنفس دون الروح، فإنه من نفخ الله تعالى.

ولا شك أنه حيٌّ بذاته أبداً، وكذا محيٍ لغيره، وما له حياة ذاتية لا يموت، ولا يفنى، ولا يُعذَّب، فإن العذاب هو الروح الحيواني الذي هو مبدأ الحركة

والحس وهو الذائق لألم الموت، وعليه يدور سكراته، وكذا جميع الأوجاع المتعلِّقة بالبدن في الدنيا، وكذا هو العاصي حتى إن الله تعالى نزع الروح المحمَّدي عن آدم عليه السلام حينما عصى، وذلك أن لكل شخص خصَّة من ذلك النور رُشَّت عليه حينما خلقه الله، فمَن أطاع الله والرسول؛ فقد حفظه، ومَن عصاه، وخالف الرسول، فقد أضاعه، وبقي في ظلمة الروح الحيواني، والظلمة لا تجيء منها إلا الظلمة.

والحاصل أن الروح وإن كان حيًّا بحياة ذاتية ليس عندها موت من قِبل الطبيعة والنفس، لكن لا يظهر ذلك إلا بعد إماتة الطبيعة والنفس، فمن أحياه بقتلهما؛ فكأنما أحيى الناس جميعاً، وهي الحواس الظاهرة في بدن الإنسان، ومَن قتله بإحيائهما؛ فكأنما قتل الناس جميعاً.

وذلك أن الأمر الوجود يدور عليه، فإذا كان حيًّا موجوداً كان الوجود كله حيًّا موجوداً، وإذا كان ميتاً مفقوداً؛ كان الوجود كله كذلك.

فإن قلتَ: قولهم إفناء الروح يدل على أنه حي لا بد من إماتته.

قلتُ: المراد ما بذله في طريق الحقّ بكل ما يمكن من الحركات.

وأمَّا قطع التعلُّق به فإنه حجاب نوراني، ونوره أقل، إذ هو كالشمس في إنارة عام الوجود، ولكن الشمس والقمر ينخسفان يوم القيامة، وتكون الجنة مُنوَّرة بنور ذاته الإلهي، لا يغرب أبداً، وهو نور السرِّ في الدنيا بالنسبة إلى أهل التجلِّي من الكُمَّل، فإنه غير غارب، وهذا المقام يقتضي زيادة البسط لكن اكتفينا بهذا المقدار لما يقتضيه الوقت والحال، فعليك بقتل نفسك، فإن فيه حياتك، ولك أجر عليه عظيم.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 105].

هذه الرحمة الاختصاصية غير الرحمة الوجوبية التي كتبها على نفسه بمقابلة عمل عبده، فإن الرحمة الاختصاصية؛ إنما هي من عين المنَّة والفضل؛ وهو الإحسان الابتدائي الغير الموقوف على شيء من الأشياء، وعلى سبب من الأسباب، وعلى علَّة من العلل، وإن كانت المنح الإلهية، والأعطيات الرحمانية كلها من باب المنَّة بالنسبة إلى مَن وصل إلى العين، ودخل من الباب، ولم يقف في البيْن، ولم يكن له نسبة كون، ولا أين؛ فله تعالى رحمة وجوبية يرحم بها عباده بإعطاء الدرجات بمقابلة أعمالهم.

وله تعالى رحمة امتنانية يرحم بها عباده؛ بإعطائهم درجات أخرى لا بمقابلة أعمالهم؛ بل من عين المنَّة والفضل، ويتصل بها رحمة التوريث في الجنة، فإنه تعالى يرحم بها عباده المؤمنين؛ بإعطائهم مقامات الكفار على تقدير إيمانهم وطاعتهم، فلهم جنات ثلاث؛ جنة العمل، وجنة الميراث، وجنة الاختصاص.

لطيفة: ومن هنا ورد الخطاب الإلهي لهذا الفقير في سحر ليلة السبت الحادي عشر من شهر مولد النبي ﷺ من سنة ثلاثين ومائة وألف، وأنا في الشام حيث قال لي من غير واسطة بيني وبينه من الوجه الخاص بهذه العبارة: «**ولي مراتب أخرى بحسب كرمي**».

يعني: كما أن للعبد مراتب بحسب استعداده، وسؤاله، وعمله؛ وهي المراتب الكونية؛ فكذا لله تعالى مراتب بحسب إفاضته الاستعداد، وجوده، وكرمه؛ وهي المراتب الإلهية.

فجوده: عطاؤه قبل السؤال؛ وهو الفيض الامتناني الرحماني.

كرمه: عطاؤه بعد السؤال عن طيب نفس لا عن حياء إلا عن تخلُّق إلهي، وطلب مقام رباني، وهو الفيض الرحماني.

وهيبته: وعطاؤه، لينعم خاصته أي: لينعم المعطى له، ويعيش طيِّباً لا لأمر آخر أي: لا يقترن معه طلب جزاء، وتكليف عِوض مَن شكر باللسان، وعمل بالجنان، والأركان، ووجوب شكر المنعِم؛ إنما هو لأجل العبودية المعطى له، لا لتكليف الواهب؛ فهو من العبد عمله لحق الربوبية، لا للجزاء.

والعطاء، هو هبة الأصل، والمنح، هو هبة المنفعة، والمنح، هو التمليك فقط، والعطاء يعمَّه، والإباحة.

ثم قوله تعالى: (**بحسب كرمي**): إشارة إلى أن المنَّة قد تكون بسؤال لسان الاستعداد الكلِّي المفاض من الحق تعالى بحسب الفيض الأقدس، ولسان الاستعداد الجزئي المفاض منه تعالى بحسب الفيض المقدَّس.

فإنه تعالى يقول: «**يا عبدي قد حصل لك مراتب عملك، ودرجات سعيك، وبقيت مراتب جودي، ودرجات كرمي**»؛ التي هي عين المنَّة والفضل، فإن الأُلوهية مما تقتضيه جداً.

ألا ترى أن السلطان قد يجود على جنوده، ويعطي لهم عطايا لا بمقابلة أعمالهم من الحرب مع الأعداء ونحوه؛ بل من عين المنَّة، فلهم عطيَّتان؛ عطية هي أجرهم بمقابلة أعمالهم، وعطية هي من باب الفضل.

ولا شك أن الخلق الإنساني الامتناني مأخوذ من الخلق الرحماني الامتناني، فالله تعالى أَوْلى بالامتنان من عبده، فليكن العبد على التسليم، والرضا، والله خير وأبقى، وإليه المنتهى، وما ربك بظلَّام للعبيد؛ بل هو المحسن المتفضل، ذو العرش المجيد.

في سورة البقرة: قال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 149].

أراد بحيث الأماكن المختلفة الصورية شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، فكما إذا خرج الإنسان إلى جانب القِبلة؛ كانت قِبلته تلقاء المسجد الحرام، فكذا إذا خالفه بالإدبار ونحوه، وذلك الاختيار.

وأمَّا في وقت الاضطراب فيتوجه إلى حيث أمكن، فظاهر الاضطرار، وباطن الاختيار يكون أمراً واحداً هو التوجُّه الوحداني من غير تقيُّد بجهة من الجهات، وسرُّ ذلك أن باطن الاختيار أيضاً اضطرار عند مَن له كشف وشهود؛ لأن الاختيار خبر في الحقيقة، وليس المحرِّك إلا الله تعالى.

وإنما شرَّع التوجه إلى القِبلة في الظاهر؛ لأن الكعبة عندها الهمم، ففيه القوة على أنه من باب الأدب؛ لأن الإنسان من جهة ظاهره مقيَّد بالقيود، فلا بد له من التحديد، وذلك لا ينافي الإطلاق المعنوي.

وقد جعل الله الكعبة المساجد؛ كمدار العالم، فكما أن نقاط الدائرة تتوجه إلى المركز؛ فكذا المساجد تتوجه إلى أُم المساجد؛ لكن التوجه إلى ميزاب الرحمة أقوى من التوجه إلى سائر الجهات؛ لأنه حاله ﷺ في أواخره.

وفيه إشارة إلى الأسفار المعنوية من جهة الأسماء الإلهية من حيث إنه لابد في تلك الأسفار من التوجه إلى المسمَّى؛ لأنه مدار الأسماء كلها؛ ولكن لمَّا كان المسمَّى من حيث إطلاقه لا يمكن التوجه إليه؛ جُعل القلب في المعنى بمنزلة المسجد الحرام في الظاهر؛ فهو مظهر المسمَّى، ومن تلك الجهة يمكن التوجه إليه؛ فهو بيت لله تعالى في الحقيقة، وإليه توجُّهات الأسماء في الأسفار.

كما قال تعالى: «**يا داود فرِّغ لي بيتاً أسكنه**»[1].

أراد به قلب داود، وتضريعه، قطع تعلُّقاته، وتخلِّيه عن الخواطر ونحوها، ولأن القلب متوجه الأسماء كلها جمالية وجلالية؛ كان أهل القلب أقوى من أهل الروح؛ لأن أهل الروح أهل الجمال فقط، فمَن كان دعوته من مقام القلب؛ كان قومه أطوع، ومَن كان دعوته من مقام الروح؛ كان قومه أعدل، ومَن كان دعوته من مقام السرِّ؛ كان قومه أنكر كقوم نوح عليه السلام، ولذا قلَّ الإيمان مع تمادي مدة الدعوة، وفي كل ذلك حكمة إلهية.

فكما أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على مشارب مختلفة من الجمال، والجلال، والهيبة، والأُنس؛ فكذا أقوامهم على استعدادات متفاوتة من القبول؛ إذ جميع مراتب الدعوة من الأفعال، والصفات، والذات، لم ينله إلا هذه الأمة المرحومة؛ لكمال استعدادها، ولكون النبي ﷺ قلب العالم بُعث في مكة التي هي قلب البلاد؛ لكن أُمر بالهجرة؛ ليبقى التوجه إلى الله تعالى، فإن حرم الله لا يشاركه فيه أحد كائن مَن كان.

فاعرف الغيرة الإلهية، فتقرر أن توجه القلب إنما هو إلى المسجد الحرام؛ لأنه في صورة مسمَّى الله، وأمَّا النبي ﷺ؛ فهو سرٌّ للمسمَّى، فالحجر الأسود يدُ الله صورة، واليد النبوية يدُ الله معنى، وكذا أيدي الورثة الكبار.

الحاصل أن المساجد كلها قبلة، والكل متوجه إلى صورة الكعبة، وكذا أبدان مَن صلَّى فيها ووجوههم، وإن القلوب كلها قِبلة، والكلُّ متوجه إلى سرِّ الكعبة، وهو النبي ﷺ في الظاهر، ومسمَّى الله الأحدي في الباطن، فمَن مشى على المراتب، لم ينحرف في القبلة لا ظاهراً ولا باطناً، ومَن لم يعرف المراتب؛ بقي أعمى عن السمت؛ فهو لا يدري أي صلاة يُصلِّي، وأي قِبلة يستقبل، والله البصير، وهو العليم الخبير.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 149].

أي: المأمور به الذي هو تولية الوجه إلى الكعبة وهو الثابت في علم الله تعالى من مقام الربوبية؛ يعني: إن تولية الوجه إليها من باب التربية الإلهية؛ لأنه رب العالمين، واللائق به إيصالهم إلى كمالهم الذي هو المستعدُّون له، ومنعه عنهم

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

إبطال لاستعدادهم، وفي ذلك بُطلان لهم، فظهر أن صورة الكعبة حق، وإن كانت الصورة من باب الخيال، كما قال بعض العارفين:

إنــمــا الــكــون خــيــال وهــو حــق فــي الــحــقــيــقــة[1]

وذلك أن الخيال كظل، وهو وإن كان تابعاً لذي الظل في الوجود؛ لكنه له وجود في الجملة، وإلا لما كان تابعاً له، فوجود التابع وجود اعتباري، ووجود المتبوع وجود حقيقي، فإن شئت جعلت له وجوده بالكافي وجوده باعتبار الشهود والجمع، وإن شئت جعلت له وجود في الجملة باعتبار الحجاب والفرق، والكل من باب الحقائق بالنسبة إلى مقامه، فإذا كانت صورة الكعبة حقاً ثابتاً بحيث وجب التوجه إليها بالوجه الظاهري، فكذا سرُّها، وهو القلب سواء كان قلوب الوسائط، أو قلب النبي ﷺ حق ثابت بحيث لزم الإقبال إليه بالوجه الباطني، والحق واحد في البين، وإنما التعدُّد باعتبار الظاهر، والباطن، وهو لا ينافي الاتحاد في الحقيقة؛ لأن العين واحدة.

ولذا قال: هو الأول؛ فجعل الكعبة أول بيت وُضع للناس، وهو الآخر؛ فجعل التوجه إليها آخر التوجهات، وهو الظاهر؛ فجعل الكعبة بحيث يراها الأحباب والأعداء، وهو الباطن؛ فجعل السرَّ الذي استئومنت عليه بحيث لا يراها إلا أولو الأبصار؛ ولذا قال: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198] أي: لأن الأعمى لا يُبصر في الحقيقة، وهم عمي القلوب، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، ولو كان العمى الظاهر حجاباً عن الحق؛ لكان منعه عن مجلس أهل الحق واجباً، وقد عاتب الله تعالى فيه نبيه حيث قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: 1، 2].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 149].

إشارة إلى أن الله تعالى مع عبده في الصورة والمعنى؛ لأن كلاً منهما مضاف إليه تعالى، فعمل الصورة هو التوجه الصوري إلى القبلة الصورية، وعمل المعنى هو التوجه إلى القِبلة الحقيقية، ونفي الغفلة عنه تعالى إرشاد إلى مقام المراقبة الذي هو

---

(1) أحد بيتين للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ذكرهما في كتاب فصوص الحكم في فص حكمة رحمانية في كلمة سليمانية والبيت الثاني هو:

والــذي يــفــهــم هــذا حــاز أســرار الــطــريــقــة

مقام الإحسان والشهود، وفيه وعد للمؤمنين المكاشفين بأن لهم من الله الأجر الأخروي في التوجه الصوري؛ لأنه من عمل البدن؛ فله الجنة ونعيمها، وبأن لهم منه تعالى النور في التوجه المعنوي؛ لأنه من عمل الروح والسر؛ فله الجنة في الجنة ونعيمها؛ وهو كشف الحجاب عن وجهه فعلاً وصفةً وذاتاً، وإراءته لهم الحقائق، والملكوت على ما هي عليها.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الواصلين إلى العين دون القائمين عند الأثر، والواقفين عند الباب.

وفيه: إن الغافل عن المرتبتين، والتوجه اللائق بكل منهما محجوب عن الحق تعالى صورة، ومعنى جميعاً؛ وهو تارك الصلاة الشرعية، والغافل عن المرتبة الحقيقية محجوب عنه تعالى معنى؛ فهو إنسان في صورة الحيوان؛ لأنه له نعيماً جسمانياً بحسب روحه الحيواني، وليس النعيم الروحاني بحسب روحه الإضافي.

والروح الحيواني بالنسبة إلى الروح الإنساني كالظل بالنسبة إلى ذي الظل، فحق النعيم إنما هو لذي الظل، ألا فذوقوا من هذا المذاق حتى لا تجدوا الحسرة يوم التلاقي، والله الخلّاق والرزَّاق.

وقال الله سبحانه: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 209].

اعلم أن الزَّلل؛ إمَّا زلل في الشريعة، وإمَّا زلل في الطريقة.

وكذا البينات أي: الشواهد والحجج.

فزلل الشريعة: وجود المنكرات والمعاصي، فإن وقع ذلك من بعد ما جاءت الأوامر والنواهي؛ فإن الله ينتقم منه بالعذاب الجسماني الصوري، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة، وإمَّا في كلتيهما؛ لأن ما وقع في الدنيا فإنما هو في مقدمات ما سيقع في الآخرة، ومبادئها لا نتائجه وحقائقه.

وزلل الطريقة: وجود الكسل، والفتور، وعدم الرياضات والمجاهدات، فإن وقع ذلك من بعد ما جاءت الإشارات، والدَّلالات؛ فإن الله ينتقم منه بالعذاب الروحاني هو الحسرة والحرقة الباطنة التي تفوق الاحتراق بالنار الصورية؛ لأن الروح لطيف، والجسم كثيف، فقد لا يتحمَّل اللطيف ما يتحمَّله الكثيف.

ولذا اشتدَّ الموت الطبيعي على الأنبياء والأولياء على تقدير بقائهم بالبشرية في

تلك الحال، فلا بدَّ من الامتثال للأمر الإلهي على ألسنة أُولي الأمر من العلماء، والمشايخ؛ حذراً عن الوقوع في ورطة الانتقام على أن القيام بالشرائع يُورِّث المعارف؛ لأن مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم، فمَن تركه؛ عُوقِب بالحرمان عن المعارف الإلهية التي هي الجنة المعنوية.

وإن القيام بالطرائق يُورِّث الحقائق؛ لأن المجاهدات تُورِّث المشاهدات، فمَن لا شريعة له؛ لا معرفة له، ومَن لا طريقة له؛ لا حقيقة له، فلكل منزل طريق، ولكل طريق سالك، فمَن مشى على طريقه؛ وصل إلى مراده بإعانة الله تعالى وتوفيقه، فظهر أن الآية خطاب إلى كلا الفريقين عبارة وإشارة، وقد يحصل إلهام من الله في أمر من الأمور بدل فعله، أو تركه، ويحصل له شواهد أيضاً.

فذلك الإلهام يجب أن يعمل به؛ لأنه إلهام ربَّاني وإلقاء رحماني، وإن لم يحصل له شواهد؛ فذلك مما يترك، ولا يعمل به؛ لأنه خاطرة نفسانية، ووسوسة شيطانية، وعلى هذا أجرى أهل الله تعالى في كل عصر، ومصر يعني: عملوا بما أُمروا به؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، ولا للنفس الأمَّارة عليهم استيلاء سواء كان المأمور به الهجرة من دار إلى دار، أو غير ذلك من الأمور الشاقَّة على غيرهم.

فإن غيرهم يلعبون بنفوسهم وطبائعهم، فلهم الاستئناس بالأمور البشرية الحسِّية، ولهم التعلُّق بالأشياء الفانية الصورية، وذلك الاستئناس والتعلُّق يمنعهم عن التجرُّد والتبتُّل؛ فهو الذي يُقال له: الحجاب.

ولعلماء الرسوم حظٌّ وافر من ذلك، فإنهم إذا تقلَّدوا مدرسة في بلدة، أو نالوا غيرها من الحظوظ العاجلة ورأوا أنهم مُفخَمون في عيون الناس، ولهم أحباب وطلبة يتردَّدون إليهم صباحاً ومساءً؛ فهم أعلق بتلك البلدة من علاقة العلقة ببدن الإنسان أو الحيوان، فلا طريق لهم إلى الحق إلا عند الموت، وذلك من جهة الجبر لا من طريق الاختيار، عصمنا الله وإياكم من التعلُّقات الموجبة للانتقام، وشرَّفنا بالقيام بالحق في كل مقام.

وورد أيضاً قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 149].

يعني: توجه بقلبك، وقالبك إلى جهة القبلة؛ وهي الشام، فقمة رضاء الله تعالى، ثم دفع الإذن الصريح من جهة الشيخ أيضاً، ولله الحمد على نعمه الجليلة

ظاهراً وباطناً، فالنعمة الظاهرة وقوع الاتفاق بين أرواح الكُمَّل للإذن بالهجرة والنعمة الباطنة صدور الإذن من الله تعالى بخصوصه.

ووقع ذلك في أواسط السنة التاسعة والعشرين بعد المائة وألف، فوقوعه، في الأواسط يدلُّ على أن خير الأمور أوسطها، وأن لا خير إلا في الوسط، والتسع إشارة إلى الإذن جاء من فوق الأفلاك التسعة، ورمز إلى قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 1، 2].

والعشرون: إشارة إلى العشرة المتوسطة، فإنه تعالى، وكذا حضرة الشيخ في عالم المعنى قال لي: عشر في الدنيا، وفي الشام عيش وسط فإنه خير لك، وأمَّا المائة والألف فتلويح إلى حصول الإمداد من الأسماء خصوصاً وعموماً، فخصوصها: المائة فإن التسعة والتسعين مع الأحدية مائة، وعمومها: الألف، وليس فوقها إلا المكرر.

وفيه إشارة إلى أن في هذه السنة المباركة إذناً من الله تعالى، ودعوةً وفتحاً من جانب جنابه ونصره، فالوقت طيب، والروح صافٍ، والعلم باقٍ، والفيض جارٍ، والله معي، وهو حاضري وشاهدي.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: 245]، قدَّم القبض لأنه أكثر، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2]، وهو قد يكون قبض المال كما في ظواهر العامة، وقد يكون قبض الحال كما في بواطن الخاصة، وقبض المال للحماية الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: 27]، وقبض الحال لتشديد المحنة، وتميز الممكور من غيره، وتحقيق الشكر إذا ظهر المزيد، وتهيئة الاستعداد البسط، وقسْ على هذا البسط.

ومنه يُعلم أن كمال الإنسان تدريجي، لا يحصل في الأوقات القليلة، دلَّ عليه أنه تعالى حمَّر طينة آدم، وكمَّلها أربعين سنة، كل يوم من السنة ألف سنة على ما رحمةً للعالمين، وصلَّى عليه بصلاةٍ لم يهتدِ بسرها العارفون، وإن بلغوا غاية القصور في المعرفة.

ومنه يعلم أن بعض الأسرار مخصوص بأهله، لا يتجاوز إلى غيره، فهو على حالة مجهولة، ينتقل من الدنيا، وفي ذلك حكمة خفية، وغيرة من الله تعالى؛ لأنه قد تجلَّى بكل مستعدٍ بما يناسب حاله، فلا يجعل طعمة العنقاء للعصفور، وذلك

راجعٌ إلى أحوال الشأن الأزلي الذاتي، فمن وجد خلوًّا فليحمد الله، ومن وجد خلاف ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه، وليصبر وليقف في مقامه المعلوم، كالملائكة وكجبريل، فإنه لا يجاوز السدرة قدر أنملة فاعرف.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256].

رأيت في المنام: كأن العلماء اختلفوا في أن الفعل أَوْلى أم الترك، ثم لقيت في الطريق بعض مَن يَعدُّ نفسه من الأولياء، فقلت له: الفعل أَوْلى أم الترك؟ فقال: الفعل؛ فأعرضت عنه؛ لأن هذا الجواب مخالفٌ للواقع.

ألا ترى أن الله تعالى قدَّم الكفر بالطاغوت؛ وهو من باب الترك الذي يقال له التخلية بالمهملة؛ فكان الترك أقدم وأَولى من الفعل، ومن ثم قال بعض الكبار: ما لم يكن كافراً؛ لم يكن مؤمناً، وما لم يكن مؤمناً؛ لم يكن كافراً، فعليك بالأول، وإياك والثاني انتهى كلامه.

ومن ثَمَّ أيضاً قُدِّم التسبيح على التحميد في قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: 130]، فإن التسبيح الذي هو التنزيه من باب التخلية بالمعجمة، والنفي والتحميد من باب التحلية بالمهملة والإثبات.

ولا شك أن النفي مُقدَّم على الإثبات في كلمة التوحيد.

وكذا قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 2]، فإنه اكتفى بالإنذار في أول الأمر؛ لكونه أقدم، ثم قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: 119]، فقدَّم البشارة لشرفها لوجود الإيمان بالفعل، والتنزيل أيضاً، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، فقدَّم الكافر؛ لكثرة أهل الطاغوت، فهذه الآيات متقاربة في المعنى.

وهذا المعنى الذي ذكرناه، عناه مَن قال: وجنة الفردوس للكافر، فخصَّ بالذكر جنة الفردوس التي هي أعلى الجنَّات، ومقام المقرَّبين؛ لأنه لا ينالها إلا أهل الكفر بالطاغوت؛ وهم أقل القليل؛ لأنهم الذين أُشير إليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

وبقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: 8]، وبقول مَن قال: خُطوتان، وقد وصلت؛ حيث أراد بالخُطوة الأولى: الإعراض الكلي عمَّا سوى الله تعالى الذي هو من باب الترك، وبالثانية: الإقبال على الله تعالى الذي هو من باب الفعل.

فهاتان الخُطوتان نوران بينهما نار هي نار العشق، فإنه لا يتم الإعراض والإقبال إلا بهذه النار، فمَن لم يذق من العشق والمحبة شيئاً؛ فهو لم يذق شيئاً من الحلوى، ولم يدر ما هي، فإن مَن لم يذق؛ لم يعرف، فبعض أهل الرسوم تتَبّعوا كتب أهل الأذواق، وضبطوا المقامات بقدر وسعة عقولهم، كما رأينا بعضهم في الشام وفي غيرها، فشرعوا في التكلُّم من اصطلاحاتهم، ووقعوا في الدعوى العريضة، وهم كما هم على حالهم الأولى لم يذوقوا شيئاً من الحالات أصلاً.

فكانوا علومهم بمنزلة الجهل؛ لأنه لا يفيد العلم بلا عمل، والعمل إذا صحَّ على وجه السُنَّة، وانضم إليه السلوك؛ أدَّى إلى العلم بالله الذي ذاقه أهل تلك الاصطلامات، وإنما قلنا بانضمام السلوك؛ لأنه لا يصحُّ الكفر بالطاغوت إلا بتسليك المسلك، وبعزٍّ مَن ناله بلا واسطة من الوسائط؛ وهم المجذوبون على أن المجذوبين محتاجون إلى السلوك أيضاً، نعم إذ كان المجذوب أُويسياً؛ فرب العالمين مربيه ومعلمه إلى أن يحصل له التمكين والرسوخ في الطريقة، فعليك بالاعتقاد، ثم بالعمل، كما ذكرنا حتى تنال إلى ما آل إليه الخواص، ومن الله الرشيد التوفيق والاختصاص.

وقال تعالى: ﴿كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269].

اعلم أن التذكُّر: إنما هو لأولي الألباب، والتفكُّر لذَوي العقول، فإن العقل محجوب، محاط بالأفكار، فلا يحصل المطلوب له إلا بعد التفكُّر، وإحضار الدلائل الكثيرة.

وأمَّا اللُبُّ: فلكونه خالصاً عن شوائب الأوهام، والخيالات، مجرَّداً عن القشور، والتعلُّقات؛ كان المطلوب حاصلاً له بأدنى التذكُّر، والإشارات؛ وهو صفة الراسخين في العلم المذبذبين فيه.

والحاصل: أن العقول الصافية القدسية يَكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فكيف إذا مسَّه شرر من ذلك؟ وفيه إشارة إلى قربهم بقبول الدعوة من غيرهم؛ كحال الصديق رضي الله عنه، وغيره هذا، وقد ختمنا الكلام في هذه المجموعة بهذه الآية الكريمة لما أن الله تعالى ألقاها على هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقِّي شرَّفه الله تعالى بمزيد التَرقِّي صباح يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر المولد النبوي من سنة

ثلاثين بعد المائة والألف، إشارة إلى الختم بها، فكان الأمر على السمع، والطاعة، والحمد لله على الإتمام، ولرسوله أفضل التحية والإكرام، وآله وصحبه ذَوي الاحترام.

هذه المجموعة تمَّت في ست سنين، لما أن الأسفار رمَتني من أرض إلى أرض، والأقدار ألقتني إلى طول بعد عرض، فجالت العوائق بيني وبينها، فالله يفعل ما يشاء لا أن كلمات الله نفدت حاشا، والله عليم بذات الصدور.

تتمة:

وجود الإنسان الكامل بظاهره وباطنه؛ كشجرة السرِّ وبأصلها وفرعها، وظاهرها باقٍ لا يتغيَّر بالموت، فإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، والصدِّيقين، والشهداء، وذلك كفرع «السرو»[1] فإنه لا يتغيَّر بعصوف الرياح؛ بل يبقى على حاله في الربيع والخريف؛ وكذا باقي الفصول، وكذا أصلها ثابت لا ينقعر؛ كسائر الأشجار الضعيفة.

ومثله في المتانة والتمكين؛ اعتقاد الإنسان الكامل، ويقينه، فإن اليقين هو الاستقرار؛ ولذا يُقال: علم اليقين إذا استقر العلم في القلب، وعين اليقين إذا استقر المعنى في الفؤاد، وحق اليقين إذا استقر الحق في الروح والسر، وليس حال غيره مثله في ذلك.

ألا ترى إلى علماء الرسوم، فإنهم لا يقفون عند حدٍّ، وإن كانوا أعلم أهل زمانهم؛ تكون علومهم مُشوْبة بالشكوك، وإدراكاتهم مخلوطة بالأوهام، فيناقضون أنفسهم في معلوماتهم، وينتقلون من طور إلى طور، ولو كانوا على علم صحيح لما تغير حالهم، وإن عاشوا ألف سنة.

وكذا حال أهل الكشف، فإن الكشف ما لم يكن صريحاً؛ لم يأمن صاحبه عن الغوائل، وكم رأينا في عصرنا من أهل الدعاوى حاروا في أمورهم، ورجعوا إلى القدح في الله تعالى حتى خرقوا المصاحف، وتركوا الفرائض ظنًّا أن الله تعالى ما صدق فيما أخبرهم به، ولو كان كشفهم عن عين اليقين، وحق اليقين لما انقلب

---

(1) شجرة (السَّرو) دائمة الخضرة هرمية الشكل يصل إرتفاعها إلى ثلاثين متراً ذات أوراق صغيرة شبيهة بالحراشف، خضراء غامقة دقيقة ومخاريط ذكرية وأنثوية،. خشبها عطري جداً، وهو بطيء النمو (النت، موسوعة ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

الحال، وإنما كوشفوا في عالم الخيال، أو أخبرهم الوسواس؛ فظنُّوا ما ظنُّوا.

والله تعالى يقول الحق، ويهدي السبيل، ومَن أصدق من الله قيلاً، فمَن وجد خيراً؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه، جعلنا الله وإياكم من الراسخين في العلم، والمتمكنين في الكشف، وعصمنا من غوائل النفس، والشيطان والتغيُّر في العلم والعرفان، إنه هو الهادي إلى منزل اليقين، والسائق إلى منهل التمكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

لطيفة: قيل لي ليلة الجمعة السابع عشر من شهر مولد النبي من سنة 1130 من الهجرة: الإنسان أصل المبنى أي: الأصل الذي هو المبنى، فإن الأصل هو الذي يُبنى عليه الفرع، كالمبنى الذي يُبنى عليه البناء، وكاللفظ يُبنى عليه المعنى، ونحو ذلك، أو المعنى أن الإنسان هو أصل البناء، فالمبنى مصدر بمعنى البناء، وذلك أن أول الأرواح؛ هو العقل، والروح المحمَّدي، كما أن أول الأجسام؛ العرش، وما يليه إلى أن ينتهي الأمر إلى المولِّدات، وإلى عالم الإنسان.

ففي الكلام معنيان:

الأول: إن أُسَّ الكائنات؛ هو العقل الذي ظهر في صورة الروح أولاً، ثم في صورة النفس، ثم في صورة الجسم، ثم في صورة تعيُّنه المخصوص، ودار في العوالم دوراً كلياً وجزئياً؛ ليحرز كمال كل موطن من المواطن، ويتجلَّى بجمال كل عالَم من العوالم.

والثاني: إن الغرض الأصلي من الخلق أي: ما تدور عليه الحكمة والمصلحة؛ هو الإنسان؛ لأن به يحصل الجلاء والاستجلاء التام لظهوره بحقائق اسم الله الأعظم، فكان نتيجة الظهورات، وثمرة شجرة الكائنات؛ والمراد من إخبار هذا المعنى مع ظهوره؛ تذكير النعمة الإلهية في ذلك، والحمل على الشكر، والترغيب فيما يحصل به الكمال الإنساني من الوسائل، والأسباب، والتنفير عن البطالة، والفتور، والاحتجاب، أيقظنا الله تعالى، وإياكم يا أولي الأبصار، وجعلنا من الأنوار، وأهل الأسرار.

لطيفة: وقيل لي ليلة الجمعة السابع عشر من شهر مولد النبي من سنة 1130 من الهجرة: بالبرِّ تستعبد المعاني، البرُّ هو التوسُّع في فعل الخير؛ لكن أطلق على الاعتقاد، وأكمل فرضاً كان أو نفلاً، وعلى الإحسان إلى الوالدين، ونحو ذلك.

وأُريد به هاهنا نوافل العبادات أينما كانت، فإن بالنوافل يحصل القرب الإلهي: «**ومَن تقرَّب إليه تعالى شبراً؛ تقرَّب الله إليه ذراعاً**»(1)، كما ورد في الحديث القدسي.

وذلك القرب عبارة عن الفيض الكثير، وإليه الإشارة بالمعاني في هذا المقام؛ فمعناه: أن الإنسان إذا توسَّع في نوافل العبادات؛ استعبد المعاني، والحكم، وقيد الرقائق، واللطائف، وحكم على عالم الملكوت حسبما يساعد حاله في نوافله.

كما أنه بالبر والإحسان يستعبد الحر أي: يصير الحر بسبب الإحسان؛ كأنه عبد المحسن، والمحسن في الحقيقة؛ هو الله تعالى، فالكل من المحسن، والمحسن إليه من عبيد الله تعالى، جعلنا الله وإياكم من المشغولين بالنوافل، والفرائض، وجعلنا من المقبولين عنده، والفائزين بأسرار ذاته، وصفاته، وأفعاله، والمنوَّرين بأنوار جماله.

اعلم أن كلاًّ من الغيبة، والخطاب، والتكلُّم في هو وأنت وأنا، نسبة من نسب الكلام والكل بمعنى واحد، وإنما التفاوت بحسب المقام الذي يقتضي التخصيص، فقولهم: أنا الحق، وهو الحق، وأنت الحق على نسق واحد في المعنى.

وقد قال تعالى من الشجرة أنا الله، والإنسان أفضل منها، فإذا قال أهل التجلِّي: أنا الحق؛ فهو في مقابلة أنا الباطل.

ولا شك أن الوجود كله حق، ولا بطلان إلا بالإضافة؛ كبطلان مظاهر اسم المضلِّ بالنسبة على حقيَّة مظاهر اسم الهادي دلَّ على ما قلنا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 85].

فالكل؛ هو الحق المخلوق به، وهذا الحق لا يفنى ولا يزول أبداً؛ لأنه تجلٍّ إلهي أحدي سار في جميع الكائنات كما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] أي: كل شيء من الأشياء

(1) يشير إلى قوله ﷺ: «عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال قال النبي ﷺ يقول اللَّه تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». رواه البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي اللَّه. . ، حديث رقم (6970) [6/ 2694] ورواه غيره.

الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هي الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوٍ على الشرع الشريف، ومحلُّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلًّا من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.

فلك الرحمة والقلب، فلك الحياة، فكل منهما استوى على عرشه، فكان الإنسان صورة العالم من كل وجه، ومَن نازع في الذي ذكرناه؛ فعليه كلامه؛ لأن الإنكار من سوء الفهم؛ وهو حال العقل القاصر، والقلب السقيم، رحمنا الله وإياكم برحمته مطلقاً، وجعل إيماننا وتصديقنا يقيناً حقاً.

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأنعام: 30].

هذه المقولة إمَّا روحانية؛ فتكون بلسان الروح كما في البرزخ بعد الممات، فإن الأرواح تتكلَّم في عالم البرزخ باللسان المناسب لها كما في عالم الخيال في الدنيا معنوية؛ فتكون تصويراً لما يدلُّ عليه مقامهم من الإقرار والتصديق.

وإمَّا حسِّية على تقدير التمثيل في صورة الذَّر، فإن الشيء إذا تمثَّل في صورة أخذ حكم تلك الصورة؛ كجبريل عليه السلام كان يتمثَّل على صورة دحيه، فإنه وإن لم يخرج عن حقيقته الملكية حينئذٍ إلا أنه كان يأخذ حكم البشر في التكلُّم ونحوه.

فالمتروحن يتكلَّم بلسان بادٍ، ضلَّ فيه من الصورة، وقول الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] الآية، محمول على واحد من المعاني المذكورة الثلاثة، وأيًّا ما كان فقولهم ثابت محقق لا ريب فيه، فيكون عدواً لهم في الدين عن مقتضاه من غلبة الحجب الكونية، وخروج الطبع عن الاعتدال، وذلك الانحراف أيقن مقتضياً بمفهومهم الذاتية، وما كلمهم الله فإنه الخلاف.

لما سألوا عنه بلسان الاستعداد، ثم إن السؤال الإلهي كان مبدوءاً بالهمزة حيث قال: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172] لأنه المبدىء الأول، والجواب

الخلقي كان مبدوءاً بالباء حيث: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأنعام: 30]: لأن الباء هو التعيُّن الأول، والنقطة تحتها؛ إشارة إليه للتمييز بين مفيض الجود، والمستفيض؛ ولذا قال مَن قال: «أنا النقطة التي تحت الباء»[1].

❊ ❊ ❊

(1) نسب الإمام الغزالي هذا القول في الإحياء إلى الإمام الشبلي (إحياء علوم الدين كتاب ذم الكبر والعجب، [3/ 289].

{سورة آل عمران}

قال الله سبحانه: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ [آل عمران: 43].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ [الآية: 43]؛ إشارة إلى أن النفس المطمئنة، الصدِّيقة، الراضية المرضية، الفانية، الباقية، ولذا مَن رأى في المنام مريم ابنة عمران؛ دلَّ على أن نفسه تلبَّست بلباس الصدِّيقية الذي هو بمنزلة الشعار بعد التلبُّس بلباس الصلاح الذي هو بمنزلة الدِّثار.

فالأول: لباس الحقيقة.

والثاني: لباس الشريعة.

وكل مَن له اللباس الأول؛ فله اللباس الثاني؛ لأن كل حقيقة ردَّتها الشريعة؛ فهي ردٌّ بدون العكس أي: ليس كل مَن له اللباس الثاني متلبِّساً بالأول بالفعل؛ لوجود الحجاب، وإمَّا بالقوة ففي كل ذرة ما في الكل؛ لأن الأسماء الإلهية يشتمل بعضها بعضاً، وإن لم يكن حكمه ظاهراً بالفعل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [الآية: 43].

أراد بالقنوت: دوام الطاعة تطبيقاً للاسم المسمَّى؛ لأن مريم بمعنى العابدة، والأسماء والكنى تنزل من صوب السماء، فلها تأثيرات في المسمَّى؛ ولذا نهى عن الأسماء التي يُتطيَّر بها، وتدلُّ على المعاني الخسيسة؛ كالحقير، والمضطجع، والكليب، والمفتون، ونحو ذلك.

ثم إن دوام الطاعة: إشارة إلى مرتبة الشريعة؛ وهي ما يتعلَّق بالظواهر، وما يُعالج بالأبدان، والحواس الظاهرة، وهي ذرائع الكمالات الباطنة.

فكل ما هو وسيلة إلى الكمال في نفسه؛ كعلم الظاهر، والعمل به؛ فإنه وسيلة إلى العلم اللَّدني على ما دلَّ عليه قوله: «**مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»[1].

---

(1) أورده ابن كثير في التفسير، سورة إقرأ، [4/ 529] وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2542) [2/ 347] وأورده غيرهما.

فمَن لا عمل له بالشريعة على الدوام أي: إلى آخر العمر فهو الذي يُقال له: الملحد، فإن دعا إلى إلحاده؛ فهو مقتول بسيف الشريعة والحقيقة جميعاً؛ لأن الله تعالى ما جعل التجليَّات الوجودية إلا للتجليَّات الشهودية.

فمَن طلب الثمر بلا شجر، ولا ورق، والسمن والزُبْد بلا حلبٍ، ولا لبنٍ؛ فقد ضرب حديداً بارداً، وخرج عن حدِّ الحكمة، وصار أكفر من الحمار.

وأورد الاسم الرب؛ لأن الطاعة مما توجبه الربوبية، فإن الذي يربِّي عبد لا بدَّ وأن يكون مشكوراً كما قال ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1].

وقدَّم مرتبة الشريعة التي هي مرتبة الطاعة؛ لأنها مِفتاح باب الحقيقة، فلن يدخل هذا الباب أحد إلا بهذا المِفتاح، وعليه جميع الأنبياء والأولياء مَن طلبه بغيره؛ بقى خارج الباب، ولم يكن على طائل أصلاً.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْجُدِى﴾ [الآية: 43].

إشارة إلى مرتبة الحقيقة؛ فإن السجدة عبارة عن الفناء في الله؛ فكأنه تعالى يقول: يا مريم اعملي عمل الشريعة؛ وهي الطاعة بالبدن، واعملي عمل الحقيقة وهي التوجه بالقلب، وداومي على ذلك، فإن أفضل الأعمال أدومها، ويعبِّر عن ذلك التوجه الدائم بالذكر الكثير الذي عليه الكُمَّل.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [الآية: 43].

كما أنك سجدت مع الساجدين، فإن كلًّا من الركوع، والسجود صورة، ومعنى دائم قد قام به في كل عصر كثيرون في عصر هذه الأمة أكثر؛ لأن الأولياء اليوم عدد الأنبياء؛ بل أزيد لكمال استعداد الأمة.

وأشار بالركوع إلى نوع من أنواع الفناء، فإن السجدة إشارة إلى فناء الإنسان، والملك، والجن، والركوع إشارة على انقيادهم، وانقياد كل ذي روح أيضاً، فإنهم عند العلماء بالله عقلاء، علماء، أحياء.

وأثبت السجود والركوع على معيَّة الساجدين والراكعين؛ لأن للإنسان جمعية الأسماء، فهو يوافق كل مسبِّح في تسبيحه بخلاف قوله: ﴿ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها باب قيام النبي ﷺ، حديث رقم (1078) [1/ 380] ورواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (2819) [4/ 2171] ورواه غيرهما.

[الأنبياء: 79]، فإن الجبال والطير ونحوهما ما وافقت داود عليه السلام إلا في تسبيحه المخصوص بيَّن كون مريم مع الساجدين والراكعين، وكون الجبال ونحوها مع داود.

وحاصله أن الإنسان يشارك جميع الأشياء في أسمائها المخصوصة؛ لجمعية نشأته بخلاف جميع الأشياء، فإن كلاًّ منها إنما يشارك الإنسان في اسم مخصوص بحسب ما تقتضيه مرتبته، فللإنسان ما للكل، وليس لكل واحد من الكل ما للإنسان أي: بالفعل، وإن كان له ذلك بالقوة.

ومعنى القوة أن الله تعالى أودع في كل نوع من الأشياء سرَّ اسم من الأسماء كلية أو جزئية؛ لكن أودع في ذلك الاسم أيضاً أسرار سائر الأسماء؛ لأن المسمَّى إذا كان واحداً؛ فجميع الأسماء يدور معه سواء كان حكمها ظاهراً بالفعل؛ كالإنسان الكامل، أو لم يكن كما لغيره من الأشياء، فكل ظهور وبطون إنما هو لله تعالى.

ومعدن كل فعل إنما هو القوة، ولولا القوة لَما خرج إلى الفعل شيء من الأشياء، وبهذه القوة لا يُفضل بعض الأشياء على بعض، فليس للسلطان على أدنى رعية من رعاياه فضل بخلاف الفعل.

ألا ترى أن الصلحاء لا يدركون درجة الشهداء، وهم لا يصلون إلى مرتبة الصدِّيقين، وهم لا يبلغون منزلة الأنبياء، ثم المرسلون فوق الأنبياء، وفوقهم أولو العزم، وفوقهم نبينا ﷺ.

وقد يظهر القوة إلى الفعل من غير الإنسان أيضاً؛ كتكلُّم الجماد وتسبيحه على ما سمعه المكاشفون، ومنه يظهر أن كلاًّ من الإنسان المكاشف، والأشياء المسبِّحة يستأنس أحدهما بذكر الآخر دون الإنسان المحجوب؛ فإنه غافل عن تسبيح الأشياء، وربما يحمله على المعنى المجازي الذي هو الدلالة، فمقامه مع الله؛ كمقامه مع الأشياء حيث إن الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد.

ويشهد من قريب وبعيد؛ لكن العبد المحجوب لا يشهده، وكذا لا يكاشفه تسبيح الأشياء، وإن كان مع الأشياء في الظاهر، فالأشياء تشاهد المحجوب، وتسمع تسبيحه، وتستأنس به، وهو غافل عن الأشياء وتسابيحها؛ ولذا كان أضلَّ من الأنعام؛ لأنها وجميع الأشياء على صراط مستقيم في سلوكها بخلافه؛ فإنه على تقدير الاهتداء إلى الشريعة، ضالٌّ عن الحقيقة، ومما قرر يعرف سرَّ قوله ﷺ:

«كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»[1]
يعني: إنه قبل كونه يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، أو نحو ذلك؛ كان على الفطرة بالفعل؛ وهي الجبلة التي جبله الله عليها في أول إيجاده بحيث لو تركه على تلك الفطرة من غير اعتراض العوارض؛ كان من شأنه التحلِّي بالإيمان، وسائر الكمالات الإنسانية.

وأمَّا بعد كونه يهوديًّا أو نحوه؛ فقد أفسد تلك الفطرة بالفعل، وبقى الإيمان ونحوه في القوة، وبتلك القوة صحَّ تكليفه بالإيمان، وسائر الأحكام، إذ لولا ذلك؛ لكان التكليف عبثاً، ومنه يعرف سرُّ قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: 6].

فإنه لولا العصيان من شأنهم بالقوة؛ لِما أخبره الله عنهم بعدم العصيان ومدحهم به؛ إذ لا يمدح المرء بالممتنع، كما إذا قيل: فلان لا يأكل الحجر، والميت لا يعصي الله، ومعنى إمكان العصيان في حقهم: إنه لولا الامتناع بالغير؛ وهي العصمة؛ لصدر عنهم العصيان كما من عصاة البشر؛ لكن لا يصدر عنهم ذلك؛ لحصول العصمة، ولكونهم طُبعوا من النور، وهي لا تقتضي الظلمة.

فمَن قال بعصيان هاروت وماروت فقد عصى الله؛ بل كفر بالله؛ لتكذيبه النص، ويقرب منه القول بعصيان الأنبياء؛ لأنهم معصومون، وما صدر عنهم، فعلى التأويل، وترك الأَولى الذي يقال له الزلة، فاعرف.

قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: 35].

اعلم أن من الأعمال ما هو أقبح؛ وهو الشرك، وما هو قبيح؛ وما عداه من المعاصي صغائر أو كبائر، ومنها ما هو أحسن؛ وهو التوحيد، وما هو حسن؛ وهو الطاعات فرائض أو نوافل.

فإذا كفر الله بسبب التصديق الأسوأ والأقبح فبالحري أن يُكفِّر السوء والقبيح، فإن الإيمان يجُبُّ ما قبله مطلقاً ما عدا الحقوق المتعلِّقة بالغير، وكذا

(1) رواه البحاري في صحيحه، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (1319) [1/ 465] وفيه [ما من مولود] بدل [كل مولود] ورواه مسلم في صحيحه، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. . .، حديث رقم (2658) [4/ 2047] ورواه غيرهما.

أعطاهم الأجر بالأحسن، فجدير أن يعطيهم إياه بالحسن؛ لأنه كما أن القبيح تابع للأقبح؛ فكذا الحسن تابع للأحسن لكنه صرَّح بالأسوأ في جانب التفكير؛ إشارة إلى أنه لا اعتداد بالسوء في جنب تفكير الأسوأ حتى يحتاج أيضاً إلى التكفير، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 48]، وقول شريح القاضي: يا رب ليس في صحيفتي شركٌ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه.

وصرَّح بالأحسن في جانب الجزاء؛ إشارة إلى أن كل واحد من الأحسن، والحسن معتدٌّ به على حدة، وأنه يجازي الحسن بما يجازي به الأحسن؛ فيكون الحسن في حكم الأحسن فضلاً من الله تعالى وكرماً، وتصريح العمل في الأول؛ لاستقباحه، والمعنى إشارة إلى أنه مضى ما مضى.

فلا ينبغي أن يعود تصريحه في الثاني، لاستحسانه، وصيغة الاستمرار، والمضارع، إشارة إلى أن لهم عملاً أحسن بعد عمل أحسن على الاستمرار؛ لوقوفهم على حسنه الزائد حيث إنه يزيد في الدرجات، كما أن العلم الزائد يزيد في القرب المعنوي.

وفيه إشار إلى أن العلم والعمل ينبغي أن يكونا على قدم واحدة بحيث إن العلم حيث يبلغ يحب أن يبلغه العمل، كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: 17]؛ يعني: حيث وصل إليه العلم؛ وصل العمل؛ وهو صفة الكُمَّل؛ لأنهم يطيرون على جناحين، فمَن استهان بالعمل، وقصَّر فيه؛ فلا اعتداد بعلمه، ولو تجاوز العوالم كلها.

والحاصل أن النبي ﷺ سار ليلة المعراج بالعلم والقدم جميعاً، فمَن أراد السير الروحاني، والمعراج المعنوي؛ فلا بد له من القدم أيضاً، فمَن لا قدم له؛ لا سير له إلا في مرتبة الخيال، لا اعتداد به عند أهل السير القلبي؛ لأنّه يصل إليه الممكور وغيره بخلاف السير القلبي، فإن الوحي، والإلهام الصحيح إنما ينزل على القلب لا على الخيال، فمَن لا قلب له؛ لا وحي، ولا إلهام له على وجه يُعتدّ به.

ونعم ما قال بعض الأكابر: إن المعارف الإلهية إنما تحصل من طريق العمل الصالح، والسلوك، والتقوى، وكثير من المغرورين الذين لا صحبة لهم مع أهل التسليك وقعوا في الدعوى، وكذَّبهم أفعالهم الفاسدة، وأعمالهم الكاسدة، فالله

الله، و«**اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله**»[1] وهي الفراسة الحقيقية الكاشفة عن السرائر لا الفراسة الطبيعية الكاشفة عن الظواهر.

وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: 9].

وهذا اليوم: يوم الميعاد بالنظر القاصر، ويوم المعاش بالنظر الكامل.

إن قيمة العارفين دائمة فما ينكشف يوم المعاد لأهل الظواهر؛ فقد كشف الله يوم المعاش لأهل البواطن فسيَّرهم سيراً على الدوام، وإن لم يقف عليه العوام، والله عليم بذات الصدور، وكذا مَن ارتضى من رسول، ووارث الرسول، وذلك بالتعريف الإلهي دلَّ عليه قوله: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري**»[2] أي: مَن أُتصف بالغيرية، وأمَّا مَن تخلَّص عن شوائب الغيرية؛ فالله لا يُخفى سرُّه عنه.

في الجامع الصغير: كان ﷺ إذا شهد جنازة؛ رؤيت عليه كآبة، وأكثر حديث الكآبة الحزن، وقلب كئيب حزين؛ والمراد: باكياً.

وحديث النفس: طول التفكُّر، ومن أماراته: إطراق الرأس غالباً.

فإن قلت: إنه ﷺ كان دائم الأحزان، طويل الفكر، فما معنى رؤية الكآبة عليه وقت شهود الجنازة؟ قلت: لا شك أنه كان متهلِّل الوجه عند خروجه إلى أصحابه، فكان لا يُرى عليه أثر الحزن إلا عند موجب قوي، كشهود الجنازة على أنه فرق بين حزن وحزن، فحزنه عند شهود الجنازة كان أقوى من حزنه في غيره.

فإن قلت: على ما يحزن ويبكي وهو من أهل الملكوت؟ فلا يزال يشهد الأرواح، قلت: قد صحَّ عند أهل الله أن الحزن من المقامات العالية، فهو أقوى في قلوب الأنبياء مما في قلوب الأولياء.

كما أن في قلوب الأولياء أشدُّ مما في قلوبهم من دونهم من الصلحاء، ولكل موطن من مواطن الدَّارين حكم مختصٌّ به.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام بكى على فراقه ﷺ حين انتقاله إلى الآخرة مع أنه لا يزال يطوف حوله في عالم البرزخ، وأن الإنسان الكامل، وإن كان ممَن يحب

(1) رواه الترمذي في السنن، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (3127) [5/ 298] ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3254) [3/ 312] وحديث رقم (7843) [8/ 23] ورواه غيرهما.

(2) أورده علي القاري في مرقاة المفاتيح، باب الرياء والسمعة [9/ 186] وأورده المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف، باب الميم، فصل اللام.

لقاء الله؛ لكن قد يكون بحيث يكره الموت بحسب الطبع البشري لا بحسب الحقيقة، فإن الموت تحفة المؤمن، وإن ريحه له كريح قميص يوسف ليعقوب ـ عليهما السلام ـ.

والله تعالى يكرهه كراهة عبده له، وإن كان لا بد له من ذلك، كما ورد في الحديث، والمحقق لا ينظر إلى صورة الموت؛ بل يكاشف حين شهد الميت، ولا يتحقق إلا بتجلِّي الأسماء الجلالية؛ كالقهَّار، والقدير، والمريد، والمميت، ونحو ذلك، ولا ريب أن المحققين قائمون في مقام الهيبة، والعظمة، والجلال؛ لقوة شهودهم، واطلاعهم على الحقائق، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18].

فإن مجرَّد مطالعة أصحاب الكهف من غير كشف الحقائق والسرائر؛ لا يقتضي الامتلاء بالرعب.

ألا ترى أن العوام أثبت عند رؤية الأهوال من الخواص؛ لأنهم مستغرقون في الحسِّ، ليس لهم اطلاع على المعنى، ومن ثم كان ﷺ يقوم للجنازة، ويأمر بالقيام عند شهودها، فإنه قيام لرب العالمين؛ لظهور سطوته وبطشه من تجلِّي الاسم القهَّار، والمميت فلا يقوم مَن يقوم إلا للمميت دون الميت، ففي القيام له تهويل للموت، وتعظيم لرب العالمين؛ فإنه فيه سر القيامة الكبرى.

ألا ترى إلى قوله: «**مَن مات؛ فقد قامت قيامته**»[1].

ولا شك أن قيام الساعة إنما هو لإقامة العدل، وهو يقتضي القصاص، والمقابلة، وإعطاء كل ذي حق حقه، فهو ما ينقبض عنه النفس، ويتنفَّر الطبع، ويُعظَّم عند القلب.

وقد رُوي: إن الأنبياء عليهم السلام يجثون على ركبهم في المحشر عند ظهور تجلِّي القهر والغضب، فقد حصل من إشارة ما قررنا أنه إذا وجب القيام للميت بالموت الصوري؛ كان ذلك أوجب لأهل الفناء المعنوي، فإنهم أهل الجلال، والهيبة الظاهرة والباطنة بخلاف غيرهم ممَن بقى مع نفوسهم إلا أن يقال: إن المكاشف إذا اطَّلع على الجلال الظاهر في النفوس الجلالية المحجوبة؛ كان من

(1) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة زياد بن عبد الله النميري، [6/ 267] وأورده ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه عبد الواحد، [37/ 214].

شأنه أن يقوم له، وينحني، فإنه إنما يقوم وينحني في الحقيقة للجلال الباطن في نفسه، كما صدر من بعض أهل الفناء؛ لكن المحققين على المنع من الانحناء؛ لأنه انحناء لنفسه، فلا يقوم به الكُمَّل، ويجرون في ذلك مع أهل الشرائع، والأحكام، وفيه السلامة والسلام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: 106، 107].

اعلم أن الإيمان؛ إمَّا إيمان بالقوة، وإمَّا إيمان بالفعل، وكذا الكفر.

فالإيمان بالقوة: هو ما كان في علم الله، حيث كانت الأشياء أعياناً ثابتة فيه، ويُقال له: الإيمان الإمكاني أيضاً، وإن لم يكن في العلم إلا واجب، أو مستحيل على ما يعلمه العلماء بالله.

والإيمان بالفعل: هو ما كان في العين الخارجي؛ إمَّا في مرتبة الأرواح كما في العهد الميثاقي حيث قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك إيمان وكفر في الحقيقة؛ لكن لمَّا كان في صورة السؤال والجواب، وفي صورة الذر؛ عُدَّ إيماناً بالفعل، وإمَّا في مرتبة الأجسام كما وقع عين التبليغ والدعوة حيث قالوا: آمنا.

فالخلق متفقون في الإيمان في مرتبة الأرواح، ومختلفون في مرتبة الأجسام، فمنهم مؤمن، ومنهم كافر، ثم الإيمان في مرتبة الأجسام إمَّا أن يتعقَّبه الكفر والارتداد أو لا، فإن تعقَّبه؛ فالإيمان الميثاقي عارض لا يُعتدَّ به؛ لأنه من وراء الحجاب، وصاحبه شقى شقاوة أزلية، وإلا فهو أصليٌّ مُعتدٌّ به؛ لأنه إيمان عياني لا يطرأ عليه ما يضاده، وصاحبه سعيد سعادة أزلية، وإن عُرض له الكفر في البيْن.

فقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: 106].

إشارة إلى الكفر المستمر في مرتبة الأجسام بعد الإيمان الميثاقي في مرتبة الأرواح، وإلى الكفر الحاصل بعد الإيمان في تلك المرتبة؛ يعني: إنكم آمنتم يوم الميثاق؛ ثم كفرتم في الدنيا إلى وقت الخروج منها، أو آمنتم في ذلك اليوم، وكذا بعد بلوغ الدعوة في الدنيا، ثم كفرتم، واستمرَّ ذلك منكم إلى وقت الخروج منها.

والكفر أحبط الإيمان، كما أن الإيمان جَبَّ ما قبله؛ لكن لمَّا يعقبه الكفر؛ لم ينفعه ذلك، فكان الكفر مستمر غير مجبوب ومقطوع بالإيمان أصلاً، فظهر أن

الإيمان الذاتي لا يتغيَّر بالعارض، وكذا الكفر الأصلي؛ فالإيمان هو الإيمان في علم الله، وفي بطن الأمم، وكذا الكفر.

وأمَّا الإيمان والكفر في لوح المحو والإثبات، وفي عين الخارجي، فلا يُعتدَّ بهما، فإن السابقة واللاحقة على حد سواء، ولمَّا كان الإيمان الذاتي لا يغيِّره الكفر العارض؛ لم يقل في جانب الذين ابيضَّت وجوههم؛ أكفرتم بعد إيمانكم ثم آمنتم على تقدير توسُّط الكفر؛ لأن الإيمان يَجبُّ ما قبله، وليس على المؤمن توبيخ عليه أبداً، فوجوههم المعنوية بيضاء في علم الله، ووجوههم الصورية بيضاء في العين الخارجي سواء كان عالم الأرواح، أو عالم الأجسام؛ فهم في رحمة الله أزلاً وأبداً.

ووجوه أضدادهم المعنوية سوداء في العالمين جميعاً علماً وعيناً؛ فهم في غضب الله أزلاً وأبداً على ما تقتضيه المقابلة؛ لكن لم يجز في الآية الأولى على سُنن الآية الثانية؛ إشارة إلى سرٍّ دقيق يعرفه مَن يعرف سرَّ قوله تعالى: «**سبقت رحمتي غضبي**»، فالعذاب الذي هو جزاء الكفر مقرر متحقق، وأهله خالدون في النار، لابثون فيها أحقاباً.

وقال في موضع آخر: في أحد الزهراوين: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106].

ابيضاض الوجوه، واسودادها محمولان على الحقيقة عند أهل الحقيقة؛ لأن الآخرة عالم الصفة؛ فلا يظهر فيها إلا ما هو الغالب على الإنسان في هذه النشأة الدنيوية، وخُصَّت الوجوه بذلك؛ لأنها مرآة الحقيقة الإنسانية، فيظهر سعادته وشقاوته فيها.

فمن آثار السعادة؛ الابيضاض، وفيه بهجة السرور وانشراحه.

ومن آثار الشقاوة: الاسوداد، وفيه انكسار الحزن، وانقباض الخوف.

وهذا الابيضاض حاصل في الدنيا أيضاً؛ لكن لا يشاهده إلا أهل البصيرة؛ لأن مَن تجلَّى الله لقلبه؛ كان أحسن وجهاً، وكذا الاسوداد؛ لأن مَن احتجب الله عنه؛ كان أقبح وجهاً؛ وذلك لأن معنى التجلي: إنما هو ظهور الحق تعالى من حيث اسمه النور.

ومعنى الاحتجاب: استتاره من تلك الحيثية، فكلَّما ظهر نور الحق في قلب

العبد؛ كان ليله نهاراً، وسرى نوره من قلبه إلى قالبه، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: 69].

وكلَّما اختفى ذلك النور؛ كان نهاره ليلاً، وسرت ظلمته من باطنه إلى ظاهره كما قال تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ [النحل: 58].

لأن الاسوداد أثر الكآبة التي هي صفة الباطن، فتظهر في صورة الظلمة؛ لأن النور والسرور من الجنان، والجنان والظلمة والغم من النيران والطبائع، فالكل إمَّا يظهر بحسب صفته الغالبة، وليس ذلك من الخارج؛ ولذلك أُسند الابيضاض إلى الوجوه لا التبييض إلى الله تعالى.

فإن معنى تبييض الله أيضاً: إظهار آثار ابيضاض الوجوه من حيث ما هي متصفة به في نفسها، لا إظهار أمر خارج عن نفسها، وكذا التسويد، ونكَّر الوجوه؛ إشارة إلى كثرتها في نفسها، وإن كانت الوجوه البيض أقل بالنسبة إلى الوجوه السود؛ فهم أكثر بحسب شرفهم وفضلهم، وإن كانت السود أكثر من ذواتهم، كما قيل: الواحد على الحق هو السواد الأعظم، وإن بعث النار تسعمائة وتسعة وتسعون من ألف، وذلك مما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ولذا كان القطب في كل عصر واحداً؛ وهو الإنسان الكامل ومعه تحت لوائه مائة وأربعة وعشرون ألفاً من الأولياء؛ بل أزيد وأما الأعداء فلا يُحصى عددهم.

ثم إن ظهور السعادة إنما كان من خلق الملائكة، كما أن ظهور الشقاوة إنما كان من خلق الشياطين، والجمع بينهما من خلق البشر، وكان العالم في أول خلقته خالياً من آثار السعادة والشقاوة، وهكذا في انتهاء أمره فتُرجع النهاية إلى البداية بعد انقراض البشر، ثم يظهر أمر آخر في النشأة الآخرة يعرفه أهله، والعلم عند الله تعالى.

ومعنا كلام آخر في غاية الغموض وهو:

إن الوجوه البيض إشارة إلى الأبرار، والوجوه السود المقربين، كما ورد: «**الفقر سواد الوجه في الدَّارين**»[1].

فهو سواد السيادة لا سواد الفضاحة، فالآية من قبيل الترقي ثم الابتداء بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ﴾ [آل عمران: 106] أي: من قبيل تقديم الأفضل.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1837) [2/ 113].

فإذا كان الأبرار في رحمة الله وجنته؛ فالمقربون الذين ستروا وجوداتهم المجازية بالوجود الحقيقي في قربة الله، ووصلته؛ التي هي أعذب من الجنة الحسية؛ لأنها جنة في جنته، ولا شك أن الطبقة العليا خير من الطبقة السفلى، فكن مسوداً بنورٍ أسود؛ وهو أصل الأنوار، ولا أصل له أصلاً.

وقال الله سبحانه: ﴿كُنتُمْ﴾ [آل عمران: 110]؛ يا أمة محمد في علم الله تعالى: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

لم يقل: أُخرجت للأمم مع مطابقته لما قبله؛ لأن الأمة هم المتبعون لنبيٍّ من الأنبياء، ومن بني آدم مَن ليس كذلك، فكان إخراج الأمم لبعض النّاس غالباً، وإخراج هذه الأمة لجميع الناس، سواء كانوا متبعين لنبيٍّ من الأنبياء، أو لا، فالمتبعون للأنبياء من الناس هم أهل الأُنس بالضم، وخير المتبعين هم أهل الوحشة والنسيان؛ ولهذه الأمة يدٌ عليهم كلهم، لما في استعداداتهم من الكمالات التي ليست هي في غيرهم؛ ولذا كانوا خيراً منهم؛ إذ الأشياء متساوية في ذواتها؛ ولذا لم يلزم الإيمان بالملائكة من حيث ذواتهم؛ بل من حيث رسالتهم ووساطتهم.

فالخيرية: إنما هي بالشرف في الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة: 31]؛ لأن الأسماء في الحقيقة هي الحقائق المتعيِّنة في هذا العالم، وبتعليمها كان آدم عليه السلام أفضل من الملائكة.

ومن تلك الحقائق: القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110].

والمعروف: هو الله تعالى.

كما أن المنكر: هو ما سوى الله تعالى.

والأمر به إرشاد إليه من جهة توحيد الأفعال، والصفات، والذات، ولم يتفق الإرشاد من جهة هذه التوحيدات الثلاثة لغير هذه الأمة المرحومة، لِما أن الإرشاد إليها موقوف على التحقق بحقائقها، وقد تحقق بغير توحيد الذات ما عدا أمة إبراهيم عليه السلام.

وأمَّا أمة إبراهيم عليه السلام: فإنهم وإن تحققوا بتوحيد الذات، وقبلوا إرشاد إبراهيم؛ لكن كان ذلك من وراء الحجاب، وبالإجمال بل بالقوة، وإلا كانوا خير الأمم وخاتمتهم، فبقى هذا الكمال بالفعل لهذه الأمة؛ ولذا كانوا خير الأمم

وخاتمتهم، إذ لم يبقَ شيء يحتاج الناس إلى دعوته ظاهراً وباطناً، قوةً وفعلاً، إجمالاً وتفصيلاً، إلا وهم دعوهم إليه بما لا مزيد عليه، فكان مراتب يقينهم أعلى من مراتب غيرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

مع أن جميع الأمم منهم مَن آمن؛ لكن إيمانهم ليس كإيمان هذه الأمة، فإن إيمان هذه الأمة كشفي عياني، ليس فوقه كشف وعيان يغتبط به ويشرأب إليه، فكما أنه (ليس في عالم الإمكان أبدع مما كان)[1]، فكذا ليس في الأمم أعجب من هذه الأمة وأجمع وأكمل.

وقال تعالى: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: 151].

أي: بسبب إشراكهم بالله آلهة لم ينزل بإشراكها حجة؛ والمراد أنه ليس هناك حُجة، ولا تنزيلها، فإن القضية السالبة قد تصدَّق بأن يكون الموضوع فيها موجوداً متصفاً بانتفاء المحمول عنه، وقد تصدَّق بانتفاء الموضوع عن أصله فلا يتَّصف بالمحمول راساً ما لا يكون له موضوع لا يكون له محمول.

فظهر أن الشرك الحقيقي؛ وهو ما كان عن اعتقاد ليس له برهان سماوي إذ لا وجود له في الحقيقة؛ ولذا لا يغفره الله، ولا يستره بخلاف الشرك الصوري؛ وهو ما لم يكن عن اعتقاد؛ بل كان إكراهاً وإجباراً، فإن له سلطان، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106].

فإذا كان الشرك الإجباري مغفوراً؛ كان العصيان الاضطراري مغفوراً أيضاً؛ كأكل الميتة حال المخمصة، وشرب الخمر حال الغصة ونحو ذلك؛ فإن له برهاناً سماوياً أيضاً، كما عرف في القرآن. وبالجملة: إنما أُضيف إلى الله تعالى؛ فهو إيمان ولو في صورة الشرك، وما أُضيف إلى العبد فهو شرك ولو في صورة الإيمان، نعم قد يكون إضافة المعصية إلى النفس توحيداً لما يقتضيه طريق الأدب، وإن كان كل الأفعال صادرة بخلق الله تعالى وتأثيره.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

باء السببية وما بعدها: تشير إلى أن رحمة الله تعالى ذاتية أصلية، ليست بجعل جاعل أو بسبب من الأسباب.

(1) مقولة اشتهرت عن الإمام حجة الإسلام الغزالي وأثارت جدلاً ما بين مؤيد لها ومعارض.

أمَّا الأول: فلأنه لو كانت بالجعل، يقتضي تقدُّم الجاعل عليه تعالى، والله تعالى هو الأول والآخر.

وأمَّا الثاني: فلأن كونها بالسبب، يقتضي العلل في الصفات الإلهية، وإلى أن رحمة العبد عَرضية فرعية، لكن هذا يتصور على وجهين:

الأول: أن يكون العبد مجبولاً عليها في الفطرة الأولى.

والثاني: أن يتصور ذلك بحسب الأمور الخارجة عن ذات الراحم.

فرحمة النبوة من الرحمة الأولى الجبلية؛ لأنها وإن كانت عارضة لذاته لاحقة لها من قبل الله تعالى؛ لكنها لمَّا كانت الذات مجبولة عليها في الفطرة الأولى؛ جُعلت كأنها ذاتية ليس من الخارج أصلاً، وهو المناسب لشأن النبوة.

وأمَّا رحمة غير النبوة: فقد تكون ذاتية، وقد تكون بالممارسة، ورياضة النفوس وتعليمها، والمباشرة بأسباب الرحمة، فظهر أن كون النبي ﷺ ليِّن الجانب لأمته؛ وإنما هو من آثار الرحمة الذاتية التي أودعها الله تعالى فيه لا من آثار الرحمة الفرعية التي تحصل بالممارسة والإدمان، فإنها على تقدير قوتها في النفس ليست بمنزلة الرحمة الأولى، ولذا مُدح العرب بالسخاء؛ لأنه جبلي لهم غالباً.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُشير إلى أن ذلك من باب الفضل والامتنان لا من باب العدل في مقابلة العمل المستلزم لذلك.

ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58].

فقد أشار بالفضل والرحمة إلى أن وجود النبي ﷺ فضل من الله، ورحمة للخلق، فعليهم أن يفرحوا بذلك، فإن كان من قبيل الفضل والرحمة؛ لا بدَّ وأن يسري فضله ورحمته في الخلق، ومن جملة ذلك كونه ليِّن الجانب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ [آل عمران: 159].

الفظُّ في الأصل: ماء الكَرش، وذلك مكروه شربه لا يُتناوَل إلا في أشدِّ ضرورة، فاستُعير للكَرِيه الخلق.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ [آل عمران: 159].

عمم الخلق الكريه، ثم أشار إلى منشئه وهو غلظة القلب وجفوته وقسوته، فإن مَن كان قاسي القلب لا يأتي منه خُلق حسن، ولا فعل جميل إلا نادراً لا يُعتدُّ به.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

أي: تفرَّقوا من مجلسك.

وفيه إشارة إلى أمرين:

الأول: إن فرض المحال جائز، وذلك أن كونه ﷺ مُتَّصفاً بالخلق الكريه ممتنع؛ لأنه معصوم، ومعنى: العصمة الامتناع بالغير، فلو خلاه ونفسه؛ لصدر عنه ما صدر عن غيره.

ولذا قال: «**اللّهم لا تكلْنِي إلى نفسي طُرفة عين، ولا أقل من ذلك**».

ومن ذلك قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53] أي: من شأنها ذلك لولا العصمة.

كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: 24].

والأمر الثاني: أن الله تعالى خلق الخلق برحمته ولرحمته، وجعل الصورة النبوية مظهراً لذلك، والرحمة من الأمور الجالبة لا من الأحوال السالبة، فإذا ظهر كونه تعالى غفوراً رحيماً، وكونه ﷺ رؤوفاً رحيماً؛ فاعرف هذا السرَّ، فإن الله تعالى لا يردُّ عبده، وهو معه وعنده.

في آل عمران: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [163]: **(هُمْ)** أي: متبعو رضوان الله تعالى بالطاعة، وقسمهم من أهل المعاصي درجات بحذف المضاف أي: ذوو درجات عند الله أي: في علمه وحكمه، كما يُقال: هذه المسألة عند أبي حنيفة كذا، وعند الشافعي كذا؛ بمعنى: إنهم متفاوتون في علم الله تعالى في مراتب الثواب والعقاب.

فالمطيعون لهم درجات بحسب أعمالهم قلة وكثرة، وكذا العاصون لهم دركات بحسب أعمالهم قلة وكثرة أيضاً، فالعمال بجميع الأعمال الصالحة أرفع درجة، كما أن العامل بجميع المعاصي أسفل دركة؛ ولذا قال بعض العارفين: لا تقنع بعفو الله؛ بل ارغب في إحسانه بأن يزيدك هنا عملاً ومراقبة؛ فيزيدك عنده جاهاً وحرمة، والله بصير بما يعملون عالم بإيمانهم ودرجاتهم؛ فيجازيهم بحسبها خيراً أو شراً؛ وإنما فُسِّر البصير بالعلم؛ لأنه لا معنى لكونه تعالى سميعاً بصيراً سوى العلم بالمتبوعات والمبصرات، ولمَّا كان تعلُّق علمه بأعمال الغير مما لا ريب فيه عمل على المحازاة [. . . .].

فعلى العاقل أن يجتهد في أن يكون من أهل الدرجات لا من أهل الدركات، والله تعالى جعل في كل جنة مائة درجة بعدد الأسماء الحسنى، والاسم الأعظم؛ هو الناظر لدرجة الوسيلة خاصة، وله في كل جنة حكم كما له حكم كل اسم إلهي؛ ولذا جعل شجرة طوبى في المقام المحمَّدي إذ كما أنه تشعب كل كمال في الدنيا من الحضرة النبوية؛ فكذا ينشعب كل مراد في الآخرة من تلك الشجرة؛ إذ في كل مقام من الجنة غصن مظلل عليه يتكون منه ما يريد صاحب المقام من الحُلل، والحُلى، والبراق، والطيور، والحور، والغلمان، وجميع الآلاء.

فطوبى لعبدٍ كان نَسبه متصلاً بنَسب النبي ﷺ من حيث الديانة والتقوى؛ ولذا دعا ﷺ بالمغفرة لكل مَن كان صِهراً له، وكان هو صهراً له فافهم الإشارة، ولا تُضيِّع القرابة، فأنت النسيب لذلك الجناب العالي، ولك منه عِرق متصل، وأنت لا تدري، فإن كنت تريد شعبة من شعب شجرة طوبى؛ فاحفظ شعبة نوره في الدنيا بمحافظة الأعضاء والقوى.

وقد ثبت أن أبواب الجنة ثمانية على أعضاء التكليف، فلكل عضو باب، والأعضاء الثمانية؛ العين، والأذن، واللسان، واليد، والبطن، والفرج، والرجل، والقلب، فقد يقوم الإنسان في زمن واحد بأعمال هذه الأعضاء كلها؛ فيدخل من أبواب الجنة الثمانية في زمان واحد على ما يليق بموطن الآخرة، فإن الآخرة من عالم اللطافة؛ كالبرزخ، وكباطن الإنسان الكامل.

ومن الأزمنة المباركة شهر الله رجب.

فالراء رحمة الله العامة.

والجيم جمال الله؛ وهي النعمة الخاصة.

والباء برُّ الله تعالى ظاهراً وباطناً؛ وإنما كان الجيم إشارة إلى ما ذكرنا لِما أطبق عليه المكاشفون من أن الله تعالى تجلَّى لنبيه ﷺ بنور تجلِّي الأفعال بعد صلاة المغرب من ليلة الجمعة الأولى منه، فصلِّى شكراً لتلك النعمة الجليلة اثنتي عشرة ركعة؛ لِما أن تقرُّبه إلى الله تعالى كان بالسجدة دائماً لِما في الصلاة من ذوق المكاشفة والمشاهدة.

فالصلاة حظ القلب فلا يرغب فيها إلا أهل القلوب والأذواق.

وقد كان السلف على مداومة صلاة الغائب في الوقت المذكور اقتداءً

بالنبي ﷺ، فمَن كان من أهل التجلِّي؛ فلا كلام فيه، ومَن كان من أهل الاستتار؛ فتقليده بأهل التجلِّي من الأمور الواجبة عند القوم، أو بالتقليد الصحيح يتجلَّى أنوار التحقيق، ومن الله الإرشاد والتوفيق.

وقد قالوا: التوبة سبب الرضا؛ لأن الله تعالى يحب التوَّابين، ويرضى عنهم، والمراقبة سبب العصمة؛ لأن الحاضر مع الله تعالى لا يُعصى، والخوف سبب الأمن إذ لا يأمن إلا الخائف؛ ولذا يُقال يوم القيامة: لا تخافوا، والرجوع إليه تعالى سبب الصلح إذ الاختيار باقٍ بعد، والاعتذار سبب العفو على ما عليه الكرماء، والندامة سبب القبول، فإذا حصل القبول أذن للدخول، وإذا أذن للدخول؛ فُتح باب القربة والوصول، وإذا حصل الوصول؛ حصل الرؤية على الوجه المأمول؛ لأن الله تعالى لا يحجب ذاته عن أهل الجنة، وهم في الدنيا؛ أهل القلوب.

فعليك بطريقتهم وسيرتهم في كل ما يأتون وما يذرون، ومَن لم يكن له أدب؛ لا يصحُّ الاقتداء به، فيُحترم إن كان من أهل الجذبة والحال، فإذا كان تارك الأدب لا يصلح للاقتداء؛ فما ظنك بتارك الأحكام، وقد قال تعالى: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: 189]، وهي الشرائع الظاهرة أولاً. ثم الرياضات والمجاهدات، فعندها تنفتح بيوت المعارف والحقائق على ما هو العادة الإلهية، ومن الأسباب إحياء الليالي؛ إذ فيه شهود مولى الموالي، والوصول إلى أعلى الأعالي، رزقنا الله وإياكم.

وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

الآثم: اسم للفاعل المبطئة من الثواب، وله حسن موقع مع الإملاء الذي هو الإمداد والإمهال والتأخير.

واعلم أن الله تعالى جعل لكل إنسان أجلاً معلوماً؛ ليبلغ كماله الذي قُدِّر له، فإن كان من السعداء؛ فكماله في الدين، والسير، والسلوك؛ يحصل في مدة أربعين سنة غالباً، وإن كان له عمر آخر طويل بحسب الإرث المحمَّدي ونحوه.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**طُوبى لمَن طال عمره، وحسن عمله**»[1].

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف من كلام سليمان بن داود عليهما السلام، حديث رقم (34265) [7/ 70] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب 3 طوبى لمن طال عمره وحسن عمله، حديث رقم (6317) [3/ 371] ورواه غيرهما.

يعني أن طول العمر؛ إنما هو لكسب حسن العمل، وهو للوصول إلى العلم الوهبي كما ورد: «**مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»(1) أي: بما علم من الشرع لا بكل ما عمل أيًّا كان.

فإن الفلاسفة، والحكماء المتقدِّمين، وأمثالهم أنفوا عن الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام، والعمل بشرائعهم اعتماداً على عقولهم، وعلومهم، ورياضاتهم، فحرموا عن علم المواهب والإرث، إذ لم يتجاوزوا عن حدِّ ذوق؛ كأفلاطون، وأين هو من أذواق أهل المقامات الخارجين عن طور الكون، والحدوث الروحاني، الداخلين في مرتبة الوجوب والقدم الربَّاني من حيث السير؟

فقوله: «**علم ما لم يعلم**»: إشارة إلى هذا العلم الذي هو نتيجة التقوى المأخوذة من الشرع، لا نتيجة الأمور الموضوعة من طريق العقل.

ومن هنا ذمَّ الوضع مطلقاً؛ لأنه عقيم، ومدح الشريعة؛ لأنها ولود، والولود وإن كانت سوداء؛ فحسنة مع أن الشريعة بيضاء صورة، ومعنى.

وكما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**تركتكم على المحجة البيضاء**»(2).

والعقيم إذا كانت حسنة بيضاء؛ فقبيحة سوداء؛ ولذا أمرنا بإكثار النكاح؛ لتكثير الذُّريَّة، وبثَّ النسل؛ ليظهر كمال الدين، وحقيقة التوحيد، وإمداد السواد الأعظم؛ وهم هذه الأمة المرحومة القاصرة أعمارها في الظاهر، الكاملة أنوارها في الباطن، فإنهم جاؤوا وقت الأصيل، وظل هذا الوقت ممدوداً فأعرف ذلك.

وإن كانت من الأشقياء؛ فإنما يُستكمل له أمره في مدة سبعين سنة غالباً؛ لأن قعر جهنم إنما يبلغه في هذه المدة، كما عُرف في قصة الهدَّة، وكما أن القصب ينمو أُنبوباً فأُنبوباً فكذا الإنسان في باب الخير والشر.

فإن قلت: فقد يكون بحيث لا يبلغ الإنسان إلى المدة التي ذكرت؟

قلت: إن الله تعالى إنما ذكر الإملاء في حق الذين وصفهم بالخبث الزائد، فلكل من أهل السعادة والشقاوة مراتب مراتب، فطيب وأطيب، وخبيث وأخبث.

وقوله: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ إشار إلى أن الإهانة إنما جاءت في الحقيقة من

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) ورد بلفظ: «تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك». أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [1/ 68].

قِبل الأسباب الخارجية؛ كطول العمر، والغنى، والجاه، ونحو ذلك.

وقد ثبت أن النبي ﷺ خشي على أمته من المال، وسعة الدنيا، وجعل حب الجاه آخر ما يخرج من رؤوس الصدِّيقين، فأمثال ذلك قد تحصل للعبد؛ لكن من طريق المكر والاستدراج، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ [الشورىٰ: 27] الآية، وقوله الحق والعمل به واجب، والحذر من المكر لازم، وتفويض الأمر إليه فرض، وطلب الكمال الحقيقي قدم صدقٍ.

في أواخر سورة آل عمران: قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن بعض أدعية الأخيار: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193].

اعلم أن المعيَّة في الأصل بمعنى المعية الزمانية، ومن الظاهر أن توفيهم إنما هو على سبيل التعاقب لا على سبيل المعية، فحملها العلماء على المعية، والمقارنة بأحوالهم الشريفة، وصفاتهم اللطيفة، فإن هذا التوفِّي كالتوفِّي معهم، وبصحبتهم حكماً في هذا المقام معنى أدق مما ذُكر؛ وهو أن جميع الأبرار كانوا في الصف الأول في عالم الأرواح لم يكن لأحدهم تقدم على الآخر؛ فكأنهم الحلقة المفرغة، ثم لمَّا خرجوا إلى العين اقتضت الحكمة الإلهية التدريج في الظهور الخارجي، فكان الزمان قد جرى على أشباحهم، وصورهم الجسدانية على حقائقهم، وصورهم الروحانية؛ لأنه لم يكن في عالم الأرواح ليل ولا نهار.

فقد توفَّاهم الله تعالى من حيث جسدانيتهم في أزمنة مختلفة، وما توفَّاهم من حيث روحانيتهم إلا في زمان واحد؛ لأن الزمان لا يجري على الأرواح الغير المتحيزة، فكما أنهم كانوا قبل وجود الزمان من حيث أرواحهم؛ كحلقة مفرغة لا يُدرى أين طرفاها؟ فكذا كانوا بعد وجود الزمان من حيث تعلُّق أرواحهم بأبدانهم على هيئة واحدة في الحقيقة، فكانوا كأنهم توفُّوا على وجه المعية، ثم إن قولهم: وآتنا ما وعدتنا على رسلك.

وأراد بمقتضى الوعد يعني: إذا كان لسان الربوبية قد أعطاهم الوعد، فلسان العبودية قد أعطى السؤال، وإلا فالله تعالى لا يخلف الميعاد، ولا حاجة للسؤال عند حضور الكريم؛ ولكن من أفراد يعطون جميع المراتب حقَّها.

{سورة النساء}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

اعلم أن الله تعالى خلق آدم من الطين؛ كإنشاء الفاخوري كوزاً أو نحوه منه، وخلق حواء من آدم أي: من ضلع من أضلاعه اليسرى؛ وهي القُصيري أسفل الأضلاع؛ كإنشاء النجَّار شيئاً من الخشب بنحته وإصلاحه، ولمَّا كانت حواء مخلوقة من ضلع منحنية إنحناء الحاء المفردة في الرسم؛ جُعلت الحاء في اسمها؛ لتدل على الوحدة الواحدية، كما أن آدم خُلق من الأرض البسيطة بساطة الألف؛ جُعلت الألف في اسمه؛ لتدل على الوحدة الأحدية.

فآدم هي النفس الواحدة التي خُلق منها فروعه، كما أن الألف هو المبتدأ الأول الذي تُفصَّل منه سائر الحروف بتغيير الصورة؛ لأن كل حرف من حروف التهجِّي رجع إلى صورة الألف؛ بل إلى صورة النقطة في الحقيقة؛ لأن الألف مركب من نقاط ثلاث، أو خمس، أو سبع عدد المعاني الثلاثة التي هي التعيُّن الأول الذاتي، والتعيُّن الثاني الصفاتي، والتعيُّن الثالث الأفعالي، أو عدد الحضرات الخمس، أو عدد الصفات السبع، فإذا غيرت صورة الألف المركبة من تلك النقاط؛ صارت: **(أ ب ج د)** إلى آخر الحروف، فالاختلاف في الصورة لم يقدح في الاتحاد في المعنى؛ ولذا قالوا: أصل العالم أمر واحد.

فحواء صورة آدم في المعنى، وإن كانت مغايرة له في الخارج ببعض الكيفيات لأمر تقتضيه الحكمة الإلهية، إذ لا ظهور للحقائق المختلفة ما دامت الصور متفقة، ولأمر ما خلق الله آدم أولاً، ثم خلق حواء منه ثانياً؛ لتظهر الحقيقة الفاعلية والقابلية في أصل واحد، ومن ثم ضلَّ من المفسرين مَن جعل حواء مخلوقة من بقية تراب آدم؛ لأنهما إذاً وإن كانا يرجعان إلى أصل واحد؛ وهو الطين، لكن حينئذٍ لا يظهر سر حنو أحدهما إلى الآخر؛ لأن خلقتهما من الطين من القرابة البعيدة لا من القرابة القريبة، كما في صورة الخلق من الضلع؛ لأن انحناء الضلع دلَّ على الحق، وكون تلك الضلع ضلعاً من أضلاع آدم؛ دلَّ على جزئية حواء لآدم؛ ولذا مال إليها ميلاً كلياً ميل الكل إلى جزئه.

ومنه حُبب إلى رسول الله ﷺ النساء، وظهرت المحبة في آدم دون حواء؛ لأن آدم موطن حواء، والمرء لا يتحد بموطنه اتحاد الكل بجزئه، فاقتضت صفة الحياء المأخوذة من الحي؛ وهو آدم إخفاء المحبة من جانب حواء.

ولمَّا ذكرنا من سرِّ الأحدية والواحدية؛ أنزل الله تعالى حروف التهجِّي على آدم، فكما أن الألف كانت أول الحروف اللفظية، ثم منها تركَّب سائر الحروف على اختلاف هيئاتها. فكذا آدم كان أول حرف معنوي بدأ الله تعالى به سائر الحروف المعنوية؛ فاشتمل على نقطة، وحرف، وكلمة، وآية، وسورة.

فكان في مرتبة الشؤون الغيبية نقطة، وفي مرتبة الأعيان الثانية حرفاً، وفي مرتبة الروحانية كلمة، وفي مرتبة المثالية آية، وفي مرتبة الحس والجسم سورة، وكان أوله البسملة والفاتحة المبدوءة بالله، وآخره الناس، ففيه سر الأُلوهية والربوبية مع كونه في صورة الناس، إذ لا اعتبار بالصورة؛ بل بالحقائق، فعليك بالوصول إلى أصلك البسيط ففيه سر اسم المحيط، وعليك بصلة أمك الواحدية أكثر من صلة أبيك الأحدية؛ لأنها الواسطة.

وقال الله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ [النساء: 4] أي: آتوا أيها الأزواج مهور النساء اللآئي أردتم نكاحهن، كما قال تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ [النساء: 24]؛ حال كون الصدقات عطية من جانب هذا.

أحد الوجوه في الآية: فإن قلت: لا شك أن المهور واجبة على الأزواج فكيف عبر عن إيتائها بالنحلة، وجعلها من قبيل العطية؟ قلت: إن النحلة أخص من الهبة؛ لأنها عطية على سبيل التبرُّع من طيب نفس بلا توقع عوضٍ؛ فأشار بالنحلة إلى أن الإيتاء ينبغي أن يكون عن كمال الرضا، وطيب الخاطر؛ وذلك لا ينافي أن تكون المهور واجبة في نفسها؛ فهي فرض نافلة فأفهم جداً.

وفيه إشار إلى أن السنن في حكم الفرائض، فمَن اقتصر على الفرائض، وترك السنن والنوافل؛ فهو لم يأتِ بشيء تقتضيه الحكمة، وذلك أن الفرائض في مقابلة شكر وجود الواجب، والنوافل في مقابلة شكر وجود الممكن؛ لأن الممكن مرآة الواجب، وللإنسان سرُّ الحقيقة الفاعلية التي تُبنى عن الوجوب، وسرُّ الحقيقة القابلية التي تُفصح عن الإمكان.

فلمَّا كانت نشأته جامعة لهذين السرين؛ اقتضت الحكمة الإلهية أداء الفرائض

لأمر الواجب، وأداء الحق الوجود الواجبي، وكذا أداء النوافل امتثالاً لأمر الممكن اقتضاءً لحق الوجود الإمكاني؛ فكانت الفرائض فرائض صورة ومعنى، والنوافل نوافل صورة وفرائض معنى، وللصورة هنا حكم المعنى عند أهل التحقيق يعني: إن للنوافل حكم الفرائض؛ ولذا كانوا يسارعون في نوافل الخيرات، فمَن لم يعرف سرَّه الوجوب في صورة الجواز؛ مال عن هيئته الروحانية، وانحرف عمَّا تقتضيه نشأته الإنسانية.

ثم إن النساء إشارة إلى النفوس، كما أن الأزواج إشارة إلى الأرواح، والأرواح مزدوجة بالنفوس تحصيلاً لولد القلب الذي هو خليفة الله في أرض الوجود، ولا بد كذلك للأزواج من المهر؛ وهو إعطاؤها حق التزكية، وإلا كان قربانه لها زناً وفحشاً؛ لأنه بغير أمر الشرع لبقاء الرياء والمجازية، وبغير أمر الحقيقة لبقاء الميل إلى الأجانب والأغيار.

ولهذا السرِّ قال ﷺ: «**وُلدت من نكاح لا من سفاح**»[1] أي: من نكاح صحيح في تشريفه وتحقيقه؛ ولذا كان كل تولُّد منه من الأقوال، والأفعال، والأحوال، نتائج حقيقية ينبغي التلقي بقبولها، والعمل بها في جميع المراتب، وهكذا حكم الكُمَّل.

وأمَّا مَن له نكاح شرعي دون حقيقي؛ فحاله الموافقة للشرع، ولا ينبغي الاقتداء في كل ما صدر عنه إلا بحسب الصورة الشرعية؛ لأنه صادر عن نفس وشهادة، لا عن قلب وغيب، ومنه يعلم أن التزكية واجبة لكل مكلَّف، كما أن المهر واجب لكل ناكح، فكما أن النكاح بلا مهر زناً، فكذا مقاربة النفوس بلا تزكية فحشاً حقاً؛ فعليك بالتزكية، وإياك والبقاء بتعينات النفس؛ فإنها تعينات فاسدة يجب إصلاحها؛ بل إزالتها، فإنه إذا زالت تعيناتها الفاسدة؛ بدَّلها الله تعالى بالتعينات الصالحة؛ وهي التعينات التي يتجلَّى فيها بحقائق أسمائه وصفاته؛ فتكون حقه، والحق لا يصدر عنه إلا الحق، كما أن الباطل لا يصدر عنه إلا الباطل، ومن هنا ظهر الحقيقة والمجاز، والوجوب والجواز، والحق والباطل، والله المفضل العادل.

---

(1) أورده ابن كثير في التفسير، سورة آل عمران، [1/ 469] وأورده ابن الملقن الأنصاري في خلاصة البدر المنير، برقم (1982) وقال رواه البيهقي من رواية ابن عباس بلفظ خرجت [2/ 198]، وأورده غيرهما.

قال في سورة النساء: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: 24].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: 50].

فالمال المفروض في حقِّ الأزواج؛ هو المهر، وكان الإيجاب من الله تعالى، والبذل من الناس، وسُمِّي المبذول مالاً لأن الإنسان يميل إلى المال بالطبع، ويدَّخره لوقت الحاجة، فإنه فقير بالذات، محتاج إلى قضاء الحاجات، وما هو بالطبع لا ينفك عنه؛ ولذا مال إليه الخواص أيضاً؛ بمعنى أنهم جعلوه من قبيل الوسائل، والخُدَّام، لا من قبيل المقاصد والمخاديم كما دلَّ عليه العوام؛ ولذا ادَّخروه.

وأمَّا الخواص فقد بذلوه، وأنفقوه لِما أن الله تعالى جعلهم مستخلفين فيه، ففي بذله، وإنفاقه انقطاع عن العلاقة العائقة عن الحق تعالى، ولمَّا كان الاعتدال مما يُغتبط به عند أهل الله تعالى أشار إليه ﷺ بقوله: «**أجوع يوماً وأشبع يوماً**»[1].

فالجوع يومين تفريط، والشبع يومين إفراط، والميزان الاعتدال؛ وهو مساواة الكفتين؛ ولذا كان أكثر أهل الله يفطرون كل ليلة لكن على الاعتدال، ولا يعملون بالوصال إلا أن يقتضيه الحال.

ثم إن البذل وإن كان له متعلِّقات كثيرة شرعية فرضاً ونفلاً؛ لكن لمَّا كان النكاح أفضل النوافل عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وكذا عند أهل الله؛ كان بذل المال له أحبَّ وأَوْلى، وإنما احتاج النكاح إلى البذل؛ لبيان الحرمة، وصيانة المرأة عن الابتذال؛ لأنها مطلوبة، وللمطلوب مطلقاً احترام لا يتحقق إلا بالبذل غالباً، فكان أشرف من المال حتى بُذل له.

ولمَّا كانت المرأة إشارة إلى سرِّه المكنون، ومكان حصوله مما يتوقَّف على بذل الوجود، وما يتعلَّق به الذي يميل إليه الإنسان، ويبخل في بذله؛ فرض الله على طالب الحق أن يطلب ذلك السرَّ المصون ببذل الوجود الذي كان يميل إليه، وهو له علاقة قوية، وحجاب كثيف؛ ولذا قال مَن قال من الأكابر: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهاراً علناً.

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (10410) [7/ 310] ونصه كاملاً: «عن أبي أمامة الباهلي أن رسول اللَّه ﷺ قال عرض علي ربي عز وجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يا رب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا شبعت حمدتك وشكرتك وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك». وروى الحديث غير البيهقي أيضاً.

ولمَّا كان للنبي ﷺ درجة زائدة على أمته؛ أحلَّ الله تعالى له المرأة التي وهبت نفسها له أي: ملَّكته بضعها بلا مهر، فكان ذلك خاصاً له من دون المؤمنين من أمته الحقيقية والحكمية.

وأعني بالحكمية: الأمم المتقدِّمة، والقرون الماضية، حتى يُروى أن الله تعالى جعل مهر حواء ـ عليها السلام ـ عشر صلوات على نبينا ﷺ.

فإن قلت: فما فضل الله تعالى وإنعامه على عباده في ذلك إذا كان الكل مطلوباً بالمال مع أنه ذو الوجود والمنَّة؟

قلت: لا شك أن المرأة المنكوحة تُبتغى بالمال، وأمَّا الملك فقد يكون بغير المال، كما إذا كانت الجارية موروثة أو موهوبة، فالله تعالى يهب لمَن يشاء ما يشاء من العلوم الفاضلة، والحقائق الزائدة التي من حور مقصورات في الخيام، فللعبد ما يملكه، ويبتغيه بالمال.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39].

وهو في مرتبة الشريعة، والطريقة الحاصلة بالنفس، والقالب وسعيهما، وله أيضاً ما ينال إليه بدونه.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: 19].

فإن النور إشارة إلى ما ذكرنا، والله يختص برحمته من يشاء.

وقال الله سبحانه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26]؛ فيه إشارة إلى الهداية الخاصة التي اختص بها المقربون؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أُريد به الأفراد الكاملون، وسنن الخواص خاصة اختصاصية من قبل الله تعالى، فكانت الهداية إليها هدايةً خاصةً.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] أي: اقتدِ بأقوالهم الحسنة، وأفعالهم المرضية، وأحوالهم الشريفة، فإن الأنبياء كانوا صادقين في أقوالهم؛ ولذا لم يكذِّبهم أحد إلا هلك، وعلى هديٍّ في أفعالهم؛ ولذا مَن اقتدى بهم في ذلك؛ اهتدى إلى الدرجات العالية، وارتقى إلى المراقي الصاعدة، وعلى حقيقة في أفعالهم الباطنة.

ولذا مَن اتبعهم على بصيرة في رياضاتهم ومجاهداتهم؛ تشرَّف بأنواع المكاشفات والمشاهدات والمعاينات التي هي نتائج التجلِّي الأفعالي، والصفاتي،

والذاتي، ومنه التجلِّيات كلهاع حاصلة لجميع الأنبياء، والمرسلين، ومَن تبعهم من الكُمَّل.

وأمَّا أمم الأنبياء فمتفاوتون في الدرجات، وهذه الأمة المرحومة أعلى طبقة منهم أجمعين؛ لأن منهم مَن وصل إلى التجلِّي الذاتي بالفعل والتفضيل بخلاف خواص سائر الأمم، فإن الواصل منهم إلى تلك المرتبة الجليلة إنما وصل من مقام الإجمال والقوة، فأين هم من هذه الأمة؟

ولذلك لا يقتضي نقصاناً لأنبيائهم، فإن الدعوة حاصلة في جميع المراتب؛ لكن لمَّا كانت الاستعدادات متفاوتة وناقصة؛ لم يحصل من الدعوة إلا بعض آثارها، فذلك يرجع إلى نقصان في استعدادهم لا إلى نقصان غيرهم.

إذ ليس للداعين نقصان في ذلك أصلاً؛ إذ الدعوة إنما هي بعد الوصول إلى الله تعالى في جميع المراتب، نعم فرق بين نبي ونبي، وكذا نبي ورسول، وكذا بين رسول وبين واحد من أولي العزم، وكذا بين نبينا وبين سائر الأنبياء عليهم السلام، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ﴾ [البقرة: 253].

ثم إن هدى الأولين إنما يتبع من حيث إنه هدى مأمور به في هذه الشريعة المحمَّدية، قد يكون الخطاب في الآية لمَن جاء بعد الصدر الأول من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وذلك من طريق الإشارة والوارد، فيكون أكامل هذه الأمة الجاثية عصراً بعد عصر مهتدين إلى سنن الصدر الأول، وهو أتم من الهداية إلى سنن الأولين؛ لأن الأولين كما عرفت لم يبلغ درجتهم درجة هذه الأمة.

والحاصل: إن هذه الأمة مهدية إلى سنن الأولين، ومع هذا أعطاهم الله تعالى سنناً أخرى من حيث اتباعهم نبيهم الأفضل بما أحرزوا جميع السنن المرضية فعلاً وتفضُّلاً، ففاقوا على أهل سائر السنن، فلهم الدرجة العليا، والفضيلة الكبرى.

وحسبك دليلاً أن نبينا ﷺ جاوز مقامات الأنبياء ليلة المعراج، وخصَّه الله بمقام الوسيلة الذي لا مقام فوقه، ولا شك أن التابع يستجلب فضيلة زائدة بالانتماء إلى متبوع أفضل فرقاء أكامل هذه الأمة يوم القيامة الأنبياء والمرسلون في جنات الفردوس يسأل الله تعالى من فضله أن يفضل وينعم ويفيض.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: 31].

المراد: السيئات الصغائر؛ لأنها وردت في مقابلة الكبائر، جعل الاجتناب عن الكبائر شرطاً وسبباً لتكفير الصغائر، فمن ضرورة وجود الشرط وجود المشروط، كما أنه من ضرورة عدمه عدمه، وإليه ذهب بعض العلماء حيث قصروا التكفير على الاجتناب، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114]؛ لأنه يدل على أن الطاعة أيضاً تكفر الصغائر.

فمعنى الآية الأولى: إن تجتنبوا كبائر الإثم؛ تكونوا خالصين عن الإثم، لأنا نكفر الصغائر بالطاعة، وإلا فيبقى عليكم الكبائر؛ لأنها كبرت فلم تكفر بالطاعة؛ بل احتاج تكفيرها إلى التوبة؛ أو إلى الفضل الإلهي كما هو مذهب أهل السُنَّة، ودلَّ على المعنى الأول الذي ذهب إليه بعض العلماء ما ورد في بعض الأحاديث من أن: «**الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[1].

يعني: إن الطاعة هي المكفِّرة بشرط اجتناب الكبائر، فلو ارتكب الكبائر؛ أكلت كبائر نوافل طاعاته، فلم يبقَ له يوم القيامة إلا الفرائض، ثم الكبائر والصغائر من الأمور الإضافية فتختلفان باختلاف الأشخاص الفاعلين، وبحسب أحوالهم، وكذا بحسب الأوقات والأماكن.

وإليه يشير قول أبي سعيد الخراز رضي الله عنه: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فكم من رجلٍ يُعد صغيرته كبيرة؛ لعلو رتبته، وكم من رجل على خلافه، يعني: يُعد كبيرته صغيرة؛ لقصور رتبته ودناءة حاله، فيُعفى عنه ما لا يُعفى عن الأول، وقس عليه الأوقات الشريفة، فيُقتل مَن أفطر في نهار رمضان عمداً جهراً؛ لهتكه حرمة الوقت العزيز، والأماكن اللطيفة فيكتب الخاطرة في الحرم المكي، وإن كانت معفوة في خارج الحرم.

ومن ثَمَّ قالوا: تارك الأدب عند الحضرة، والماشي على البساط؛ أسوأ حالاً

(1) رواه أحمد في المسند بلفظ: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الصلاة إلى الصلاة التي قبلها كفارة والجمعة إلى الجمعة التي قبلها كفارة والشهر إلى الشهر الذي قبله كفارة إلا من ثلاث قال فعرفنا أنه أمر حدث إلا من الشرك باللّه ونكث الصفقة وترك السنة قال قلنا يا رسول اللّه هذا الشرك باللّه قد عرفناه فما نكث الصفقة وترك السنة قال أما نكث الصفقة فأن تعطي رجلاً بيعتك ثم تقاتله بسيفك وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة. (مسند أحمد، حديث رقم (10584) [2/ 506].

من تاركه عند الباب، وفي الخارج، وأكبر الكبائر الشرك أي: الكفر مطلقاً، فلا يُغفر؛ لأنه لا وجود له في الحقيقة، فكيف يُغفر أي: يُستر فكل مَن أشرك فإنما أشرك عن وهم وخيال، فإنها بخلاف سائر الذنوب.

ومن أكبر الكبائر أيضاً حصائد الألسنة؛ لأنها هي التي تُكب الناس على مناخرهم في النار.

ومن أكبرها أيضاً الشهوة الطبيعية؛ لأنها تلحق الإنسان بالبهائم؛ ولذا ذمَّ الله تعالى قوماً بقوله: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد: 12].

ومن أكبرها أيضاً الهوى النفساني؛ لأنه ما عبد شيء أبغض من الهوى؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: 43].

ومن أكبرها أيضاً الكبر؛ لأنه أعظم الصفات الشيطانية.

ومن أكبرها أيضاً حب الدنيا؛ لأنه رأس كل خطيئة.

ومن أكبرها أيضاً الميل إلى ما سوى الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بترك ما سواه كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91].

فمَن حصل له في الأنفس الاجتناب عن هذه الكبائر؛ حصل له الاجتناب أيضاً في الآفاق عن فروعها الكثيرة، وقد كثرت حتى بلغت إلى سبعمائة، على قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وإن كان مراده منه التكثير لا التحديد، فكما أن الطاعات كثيرة متشعبة؛ فكذا الخطرات، فعليك بالاجتناب عن الزلاّت؛ ليكون جوهر النفس صافياً عن الكدورات.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: 34].

اعلم أن الرجال هم الذين قويت هممهم؛ فاجتهدوا في الله حتى وصلوا إلى الله، سواء كانوا ذُكوراً من حيث الصورة، أو إناثاً؛ ولذا ذكروا النساء العارفات مع الرجال العارفين، وعبَّروا عن الأبدال الأربعين بالنفوس لا بالرجال، لما أن بعضهم من النساء، وأن النساء هم الذين ضعفت هممهم فتقاعدوا حتى لم يصلوا إلى الله سواء كانوا ذكوراً أيضاً من حيث الصورة أو إناثاً.

ولذا جعلوا الكرامات الكونية حيض الرجال؛ فجعلوها من حيث تقيدها بتلك المرتبة في حكم النساء؛ ولذا أسندوا إليها ما أُسند إلى النساء من الحيض؛ فظهر أن

المراد بالرجال هم الكاملون أيّاً كانوا من النفوس البشريّة الفاضلة، وأن المراد بالنساء هم الناقصون أيّاً كانوا من النفوس البشرية المفضولة، فإن الأولين جمعوا بين الصورة والمعنى؛ فكانوا إنساناً حقيقياً أحياءً ظاهراً وباطناً، وإن الآخرين لم يتجاوزوا عن الصورة؛ فكانوا إنساناً حيوانياً أحياءً صورةً وأمواتاً معنى، فكما أن الحيوان جزء من عالم الصورة، وأن الميت صورة الإنسان لا حقيقته، فكذا الناقصون، وكمال الإنسان إنما هو بالخلافة؛ لأنها هي الميراث من آدم عليه السلام.

وإنما تقوم الخلافة بعلم الأسماء أولاً كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة: 31]، ثم بالوصول إلى حقائق المسميات، ثم بالترقِّي إلى حقيقة الحقائق التي هي المسمَّى الحقيقي بأن يكون ظاهراً بأسمائه الحسنى، ومتجلِّياً بصفاته العليا، ومتحققاً بحقائقه المثلى، فإن الخليفة لا بد وأن يكون على صورة المستخلف؛ كالوزير مع السلطان، وإليه الإشارة بقولة مَن قال: من أكبر أكابر الرجال سبحان مَن أظهر الأشياء وهو عينها يعني: أظهر آدم وهو عين صورة الحق في الظهور بالحقائق.

ولذا قال ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»[1] أي: على صورته الحقيقية إذ لا صورة لله تعالى إلا من حيث تنزُّلاته واسترسالاته، وكذا أظهر الوزير وهو عين السلطان في رتبته وحكمه وظهوره، وزلَّ هنا قدم مَن قال: كيف يكون الحق عين الأشياء، وهو من حيث وجوب وجوده، والأشياء من حيث إنها حقائق وماهيات ممكنة؟

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]. فالشمس شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممروض.

والحاصل: إن الكمال الحقيقي إنما هو بالوصول إلى مقام الخلافة والنبوة، وليس ذلك إلا للرجال من النساء دون النساء، فكمالهن كمال إضافي أي: بالنسبة إلى سائر النساء؛ ولذا لم يقل أحد من أرباب الحقائق: بخلافة النساء ونبوءتهن؛ لأن الله تعالى لمَّا جعل الرجال قوَّامين على النساء ببعض الوجوه في مرتبة الشريعة؛

---

(1) رواه ابحاري في صحيحه باب بدء السلام، حديث رقم (5873) [5/ 2299] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف طول آدم. . ، حديث رقم (6162) [14/ 33] ورواه غيرهما.

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكونوا قوَّامين أيضاً عليهم في مرتبة الحقيقة، وذلك لا ينافي كمالهن الإضافي.

وقد أشار إلى ذلك معنى الآية، فإن ما به التفضيل اثنان: الأول: موهبي؛ وهو الكمال اللائق بالرجال، والثاني: كسبي؛ وهو الإنفاق من المال، إذ لا شك أن المنفق عليه يكون من عيال المنفق وجزئياته، والجزء: إنما يقوم بالكل، فالكل قائم عليه قيام آدم على الضلع اليسرى، ثم على حواء؛ لأن حواء كانت ضلعاً من أضلاع آدم، ولمَّا سوَّاها الله تعالى حواء تسوية النجار الخشب لم يكن هناك إلا تبدُّل الصورة، فكان آدم قائماً عليها على كل حال.

ألا ترى أن الروح بمنزلة الزوج، والنفس منزلة الزوجة، والقوى الخارجة والداخلة بمنزلة الأولاد، والقائم عليها هو الروح دائماً، إذ لو فارق الجسد؛ لتعطلت وبطلت جميعاً، فهو المنفق عليها، والمفيض، وأيضاً إنها بمنزلة الأموال لميل الروح إليه في أوائل حاله، ثم إن ينفقها أيضاً أي: كما ينفق عليها، فيغني عن الكل، ويبقى حقائقها مندرجة في مرتبة الروح، فكما أن الروح هو قيُّوم الوجود الأنفسي؛ فكذا الرجل الكامل هو قيُّوم الوجود الآفاقي، والكل كأنه من أجزائه، ولكمال الرتبة في الرجل؛ كانت مريم عليها السلام مع كونها صديقة تصوم يومين، وتفطر يوماً واحداً بخلاف داود عليه السلام فإنه كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً.

وبهذا ظهر أن مرتبة الخلافة إنما هي للرجال، وكذا النبوة العرفية، فإن باب النبوة التحقيقية مفتوح للرجال، والنساء جميعاً، وكذا بقوله ﷺ: «**خذوا ثلثي دينكم من عائشة**»[1].

حيث لم يقل: كمال دينكم؛ لأن كمال الدين إنما هو للرجال، وأمَّا النساء فناقصات العقل والدين، وكانت مرتبتهن الثلاث من الدين لكن لمَّا كانت عائشة رضي الله عنها من سائر النساء بمنزلة الذكر من الأنثى؛ كان لها مثل حظ الأنثيين.

فإن قلت: إن النبي ﷺ شهد بكمال أربع من النساء: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة رضي الله عنهن، وأيضاً إن قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72] يقتضي أن تدخل النساء في حمل الأمانة الكبرى، قلت: المراد بالكمال

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

المذكور هو: الكمال الإضافي، فهن لا كمال فوق كمالهن بالنسبة إلى سائر النساء.

ولذا كانت كل واحدة منهن من متعلِّقات النبي الأكمل الذي هو نبينا ﷺ لأن فاطمة رضي الله عنها بضعة منه، وخديجة رضي الله عنها زوجته في الدنيا والآخرة، ومريم وآسية رضي الله عنهما زوجتاه في الآخرة على ما شهدت به الأخبار؛ ولهذا قال ﷺ: «**أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة**»[1]؛ فكانت فاطمة من أمهات المؤمنين إلى يوم القيامة فاعرف الإشارة.

وأمَّا المراد بالإنسان فهو: آدم عليه السلام أصالة؛ لأنه هو الذي حمل الأمانة الكبرى أولاً، وأخذ الفيض من الله تعالى بلا واسطة، وقد سبق أن حواء كانت ضلع من أضلاعه؛ فكان حملها تابعاً لحمله.

والحاصل أن آدم هو الحمَّال معنى، وأمَّا حواء فهي الحاملة صورة؛ ولذا لم تزل النساء حوامل الرجال؛ فهن المحمول فيهن في الحقيقة لا الحوامل، فتفطَّن لذلك فظهر أن الإنسان المطلق هم الرجال، وأمَّا النساء فمن لواحقه وتوابعه وأجزائه؛ كالملائكة والجن وغيرهم.

ثم إن هذا بيان المراتب كل من الفريقين، وإياك وسوء الفهم، فكل أهل كمال من أهل الجمال مطلقاً، كما أن كل أهل نقصان من أهل الجلال مطلقاً.

ثم اعلم أن النساء أمهات، والأزواج آباء، فقد يكون الولد خيراً منها نظيره في الآفاق هو النبي ﷺ؛ لأنه خير من آدم وحواء ومن سائرهما جميعاً؛ لتحققه بالجمعية الكبرى، وظهوره بالمرتبة العليا، ولا حاجة إلى بيانه في هذا المحل، فالتقدُّم والتأخُّر لا يمشيان في هذا الباب.

وإنما يجري الظهور بالخلافة العظمى، ونظيره في الأنفس هو القلب؛ فإنه خير من الروح في نهاية سلوكه، وإن كان الروح خيراً منه في البداية؛ فالقلب هو خليفة الله في أرض الوجود الأنفسي، أو بكماله الحقيقي صار مَن صار خليفة في أرض الوجود الآفاقي أيضاً؛ بمعنى أنه كان مداداً لبقاء العوالم بصورتها ومعناها بخلاف الملوك والسلاطين؛ فإن قطبيتهم إنما هي لصورة العالم إلا أن يكونوا من الخلفاء؛ كالخلفاء الاثني عشر الذين آخرهم المهدي المنتظر رضي الله عنه، فالخلفاء ذوو الظل، والملوك الظل.

---

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

ولذا قال ﷺ: «**السلطان ظل الله**»[1] أي: ظل الحقيقة الإلهية؛ كالصورة المرئية في المرء، ولا شك أن الظل تابع لذي الظل، ومن ثم لم يفلح من السلاطين أحد إلا مَن بايع الخليفة فهم المبايعون فاعرف.

ثم قد يكون النساء من الأقوياء؛ ولكن قوتهن لا تقتضي الخلافة؛ وإنما يقتضيها الضعف؛ أمَّا الأول: فلأن درجة الأنوثة، وإن كانت نصف الحقيقة في الظاهر؛ لكن قوة الأنوثة قوة مرتبة الجلال.

ولمَّا كان الجلال أغلب وأقهر قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]؛ حيث قابل مظاهرة عائشة وحفصة بمظاهرة هؤلاء؛ ولكن هي في الحقيقة مظاهرة الجلال بالجمال، كما لا يخفى على أولي الألباب.

فإن الهُويَّة، والروح، والقوى الروحانية الجمالية لا شدة فيها؛ وإنما الشدة في الصفات النفسانية، ولا شك أن آدم بمنزلة الذات، وحواء بمنزلة الصفات؛ فهو منها بمنزلة النور من النار، وأين النور من النار في الشدة؟ فالنساء مظاهر الصفات الجمالية في الصورة، ومظاهر الصفات الجلالية في المعنى؛ ولذا كن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.

وأمَّا الثاني: فإن المراد بالضعف هو الضعف الروحاني الذي به تنكسر سورة الصفات الإنسانية، ويستعذبه الإنسان للخلافة كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وقد سبق أن المراد بالإنسان هو آدم أصالة، وحواء تبعية.

فإن قلت: فقد اندرجت حواء في الضعف، فهي ضعيفة.

قلت: قد يكون بعض القوى قوية، كما أُشير إليه آنفاً؛ فحواء من هذا القبيل.

والحاصل أن العلويين علويون صورة وسفليون معنى، وإن السفليين سفليون صورة، وعلويون معنى؛ كالتراب فإنه أعلى الحقائق؛ ولذا أُخذ آدم منه؛ فكان أعلى فيه صورة الكل، وإن حواء أُخذت من الأعلى؛ لكن لمَّا كنت من الضلع القصير

(1) نصه كاملاً: «عن أنس بن مالك عن رسول اللّه ﷺ قال إذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها إنما السلطان ظل اللّه في الأرض ورمحه في الأرض». رواه البيهقي في السنن، باب فضل الإمام العادل، حديث رقم (16427) [8/ 162].

قصرت درجتها عن درجة آدم في الحقيقة، وحكمت عليه في الظاهر؛ لأن الضلع قوة متينة، وكان انحناء آدم وحنوه أشد من انحناء حواء وحنوها في الصورة، وبالعكس في المعنى، والله أعلم بالحقائق والعلوم، ومنه جلاء كل معقول ومعلوم.

في سورة النساء: قال جلَّ جلاله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56].

المراد بالجلود هي الأبدان عبَّر عنها بها من حيث إن الآثار إنما تشاهد على ظواهر الجلود والبشرة، ولم يقل: لتذوق العذاب على أن يعود الضمير إلى الجلود؛ لأن الذائق في الحقيقة هي النفس الحيوانية بواسطة الجلود.

نعم إن النفس الحيوانية، والجلود في حكم واحد من حيث سريانها في الجلود والأبدان؛ سريان الجمر في الفحم، وماء الورد في ورق الورد؛ لأن مرادنا بالنفس الحيواني غير النفس الناطقة المعبَّر عنها بلسان الشرع الروح الأمري، والإضافي، والإنساني، والسلطاني، والمفارق؛ لأنها غير سارية في الأبدان؛ بل لها تعلُّق بها تعلُّق التدبير والتصرف إذا انقطع ذلك التعلق، وفارق البدن؛ انقطع تعلق النفس الحيوانية أيضاً، وبانقطاعه يقع الموت على الجسد؛ ولهذا لو قُطِّع إرباً إرباً؛ لم يحس الألم.

وإن كان الروح الإنساني لا يخلو عن أذى من حيث أذى جسده وعناصره إذا عرفت هذا عرفان المدرك للعذاب هو الروح الحيواني مع البدن لا الروح الإنساني، إذ مبدأ الحس والحركة؛ إنما هو الروح الأول، فيضاف العذاب، والألم، والثواب، واللذة إليه لا إلى الروح الثاني، حتى إن الروح الثاني من عصاة المؤمنين يبقى عند باب جهنم.

فإذا تمت مدة العذاب، وخرج المعذَّب من النار؛ تعلَّق به، واستصحبه في الجنان أبد الآباد، وإنما لم يكن هو معذَّباً؛ لأنه مضاف إلى الله تعالى، وله تشريف عظيم من هذه الجهة بخلاف الروح الحيواني؛ لأنه من مضافات الماهية الإمكانية في الحقيقة، ومن شأن هذه الماهية الظلمة، كما أن جهنم أيضاً مظلمة، فلا يليق بالمظلم إلا المظلم.

نعم إن الروح الإنساني لمَّا كان هبوطه إلى البدن؛ لتكميل النشأة، وتعينه فيه تعيناً إطلاقياً لم يزل من نعيم روحاني، أو عذاب روحاني من الجملة، كما يقتضيه حكم الاتصال بالبدن؛ لأن البدن مضاف إلى الروح الحيواني، وهو مضاف إلى

الروح الإنساني، فمضاف المضاف مضاف.

هكذا فهم أهل الله في هذا المقام، وإن كان لا يساعدهم أرباب الظواهر في ذلك؛ لأن المعذَّب عندهم هو الروح الإنساني؛ إذ لا يعتبرون الروح الحيواني اعتباراً حقيقياً، ثم إن الكلية المفهومة من قوله: **كلها أبدية لا انقطاع لها**؛ لكن في هذا المقام كلام لا يفهمه إلا مَن فهم معنى أحقاباً في سورة النبأ.

فإياك وسوء الظن بالأكابر؛ فإن علومهم حقيقية مستفادة من علم الله تعالى بلا واسطة، فهم الآخذون عن الله تعالى أخذاً بلا سهو، ولا غلط، إذ لا يحتمل مقام الحضور والمشاهدة ذلك فقول مَن قال: إن جهنم تبقى خالية عن أهلها؛ ليس على ظاهره إذ لا تبقى جهنم خالية عن أهلها أبداً لا عند أهل الظاهر، ولا عند أهل الحقائق، فنحو فرعون وهامان، ونمرود، مخلَّدون.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [النساء: 59].

أي: إيماناً شهودياً عيانياً بعد ما آمنوا به تعالى إيماناً رسمياً بيانياً، قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ من حيث أُلوهيته لا من حيث ذاته البحت، فإن ذاته البحت لا تقتضي الإطاعة واللا إطاعة، ومنه يعلم سر الأُلوهية ارتباط بين الإله والمألوه لو زال؛ لزالت الإضافات كلها، وإلى هذا أشار مَن قال[1]:

---

(1) القائل هو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي والبيت ورد في الفتوحات المكية، في الباب الخامس والخمسون وثلاثمائة في معرفة منزل السبل المولدة وأرض العبادة. . . ولهذا البيت تتمة هي التالية:

ولا جـــاءت رســـالات	مــن الــرحــمــن مــولانــا
بــأخــبــار وأحــكــام	وســمــي ذلــك تــبــيــانــا
وتــوراة وإنــجــيــلاً	وفــرقــانــاً وقــرآنــا
وســمــاه أولــو الألــبــا	ب بــالأفــكــار بــرهــانــا
وثــلــث ذاك إســلامــا	وإيــمــانــاً وإحــســانــا
فــســبــحــان الــذي أســرى	بــه لــيــراه مــحــســانــا
وخــص بــصــورة الــرحــمــ	ن مــن ســمــاه إنــســانــا
وجــاءت رســلــه تــتــرى	زرافــات ووحــدانــا
وأعــطــانــا وحــابــانــا	هــنــا مــا شــاء كــتــمــانــا
وجــنــات وأنــهــاراً	وروحــاً ثــم ريــحــانــا
وكــشــفــاً ثــم إشــهــاداً	وإســراراً وإعــلانــا

فلـولاه ولولانـا لمـا كـان الذي كانَ

ومَن قال أيضاً: إن للربوبية سراً لو ظهر؛ لبطلت الربوبية.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: من حيث رسالته، فإن ذاته أيضاً لا تقتضي شيئاً من الإطاعة، وعدم الإطاعة، فكما أن الارتباط بين الرب والعبد إنما هو بالألُوهية التي هي كالسلطنة الظاهرة؛ فكذا الارتباط بين الرسول والأمة إنما هو بالرسالة التي هي كالوزارة الباهرة، ولذا يلي مقام الخلافة مقام المستخلف؛ لأن أحكام الربوبية إنما تجري بعد ظهور حكم السلطنة الحقيقية التي هي الألُوهية.

ولذا قال (رب العالمين) بعدما قال: (الحمد لله) وأعاد الإطاعة فصلاً لمَن ليس له مثل؛ وهو الحق عمّن له مثل؛ وهو الخلق، وإن كان الخليفة مثل المستخلف في الظهور؛ ولكن أين الحدوث والإمكان من القدم؟

والوجوب أيضاً: إشارة إلى أن طاعة الرسول إطاعة مستقلة؛ لأن للخليفة الأمر والنهي من عند نفسه؛ لفنائه في المستخلف، وبقائه به دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: 3] أي: لأنه ليس فيه الهوى أصلاً؛ بل فيه الحق والهدى قطعاً؛ فالحق لا يقول إلا الحق، ولمَّا إن الله تعالى أقام الرسول مقام نفسه؛ أقام الرسول أيضاً خلفاء أمته مقام نفسه، كما قال: «**عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[1].

وكما قال: «**رضيت لأمتي ما رضي ابن آدم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه**»[2].

وفوق هذا ما قال: «**ما رآه المؤمنون حسناً؛ فهو عند الله حسن**»[3].

فتدبَّر قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: 59]؛ وهم العلماء السادة، والمشايخ القادة؛ لأنهم أمراء الأمة قرناً بعد قرن، فمَن نصَّبه الرسول؛ فهو أمير الرسول، ومَن نصبته الأمة بعده؛ فهو أمير المؤمنين، فللمؤمنين حكم التنصب كما

---

(1) أورده أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي في معتصر المختصر ووواه المروزي في السنة حديث رقم (72) [1/ 27] وأورده غيرهما.

(2) ورد بلفظ: «رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد» رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ذكر مناقب عبد اللَّه بن مسعود، حديث (5387) [3/ 359] ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (6879) [7/ 69] ورواه غيرهما.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم (4465) [3/ 83] وتتمة الحديث: «وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند اللَّه سيء».

للرسول؛ لأنهم مظاهر الأسماء العامة، فلهم السلطنة العظمى من حيث جمعيتهم ولذا كان نصب السلطان يبدأ الرعية، وإن كان الحاكم عليهم هو السلطان، وهذا من الغيرة الإلهية.

ومن هذا الباب: إن الرسول ينال مقام الوسيلة بدعاء الأمة، وإن كان كمالات الأمة كلها بشفاعة الرسول، وعطف أولي الأمر على الرسول من غير إعادة لفظ الإطاعة؛ إشارة إلى أن إطاعة الرسول، وإطاعة أولي الأمر إطاعة واحدة إذ ليس لهم التشريع أبداً؛ وإنما لهم الإجماع على الحق، والتصرُّف في المباحات التي لا يحكم الشرع فيها بالثواب والعقاب، فإذا أحكموا بالعمل بمباح من المباحات؛ كان ذلك واجباً؛ لأن الشارع أنزلهم منزلة تشبيه في الجملة.

ومن هذا يعلم أن الإلزام إن كان عاماً؛ فالعمل عام، وإلا فهو خاص؛ كالنوافل التي عينها **السلطان محمد الفاتح من السلاطين العثمانية**، ومَن يليه من أولاده؛ لأنْ يصلِّيها الأئمة في جوامعهم، فإنه يجب على الأئمة أن يصلوها بالجماعة في الليالي المعينة، وعلى مَن يقتدي بهم أيضاً في تلك الجوامع، ومَن خرج بعد ما دخل الجامع على عزم الاقتداء مطلقاً، فقد زاد وقلَّ مَن فهم هذا المقام من أهل الكشوف فضلاً عن أهل الرسوم.

فإن الإلزام إيجاب على مَن يلتزم، وكذا شروع الملتزم إيجاب على نفسه إلا أنه فرَّق بين الشروع في نفس الفعل، وبين الشروع في شيء من مبادئه، وذلك بالنسبة إلى العوام، قال الخواص: أهل العهد والحفاظ مجرد التعلُّق بشيء من المبادىء؛ كالنية، والدخول، والحضور فيما بين أهل العهد وغير ذلك فاعرف.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: 59].

أي: إلى كتابه.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ [الآية: 59].

أي: إلى سُنَّته، وذلك بواسطة الأمراء فإنهم الواقفون على المنصوص عليه منهما.

كما قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

فإن وجدوا المنصوص عليه منهما؛ أرشدوكم إليه، وإلا قاسوا بالمنصوص عليه، فإن ذلك أيضاً هو الحكم عند الله، وعند الرسول.

فالمنصوص عليه من الكتاب والسُّنَّة: إمَّا: حقيقي صريح، وإمَّا: حُكمي ليس بصريح.

فما كان غير مصرَّح؛ فهو في حكم المصرَّح إذا اشتركا في العِلة، فظهر أن الصريح مقدم على غير الصريح؛ ولذا لم يُخبر أن يقول: المسؤول عن المسألة هذا رأيي إذا كان النص حاضراً.

وإن كان ضعيفاً أو ممكناً إحضاره بالتفتيش، والسؤال من أهل الذِّكر؛ فإن الرأي مضاف إلى العقل والنص إلى الشارع، وليس للعقل الاستبداد بالرأي، وإلا لمَّا جاء الشرع بمخالفة العقول، وموافقة الحكم، ودخل في هذا الخطاب من حيث الإشارة القوى الروحانية؛ فله إطاعة السر من حيث الحقائق، وإطاعة الروح من حيث المعارف، وإطاعة القلب من حيث الواردات، فلو وقع الاشتباه والالتباس في بعض الأحوال؛ فله نظير البتة في أحوال الكُمَّل فيقاس عليه.

ولذا ورد: «**استفت قلبك**»[1]، فإنه كما أن علم الفتوى لا يعرفه كل واحد من الناس؛ بل لا بد فيه من المراجعة إلى الخواص، فكذا علم الحال لا يعرفه كل واحدة من القوى؛ بل لا بد فيه من المراجعة إلى القلب السليم من آفات الجهل، وسائر الزوائل، والتعلُّق بالموافقات الطبيعية، فإن مثل هذا القلب يدرك حقيقة الحال، فيراجع إلى أهله في المهمات الباطنة، ومن هنا يظهر أن ليس للعارف إلا إظهار ما في نفس الأمر لا إحداث شيء لا يقتضيه المقام.

فإن الله تعالى قد أكمل الدين اليوم بظاهره وباطنه، فمَن لا يرجع في أمره إلى الكتاب والسُنَّة؛ فأمره ردٌّ وإن كان مشحوناً بالحقائق، فإذا عرفت هذا عرفت أن القرآن والحديث لم يتركا شيئاً إلا وقد نصَّا عليه، أو أشارا إليه، فأين تذهبون أيها الضالون المكذِّبون؟ فاحذروا أن تكون بطونكم مملوءة من الزَقُّوم، وصديد أهل الجحيم بدل النعيم وشراب النسيم، قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: رُدُّوه إلى ما ذكر، إن كنتم تؤمنون بالله أمركم بطاعته، واليوم الآخرة الذي حكم برجوعكم إليهم، فهذا هو حكم المبدأ، والمعاد، ومَن لم يلتزم؛ بقي حائراً يوم التناد.

وذلك الردُّ خير لكم من عدم الردِّ؛ بل لا خير في عدم الردِّ أصلاً، وأحسن

---

(1) جزء من حديث رواه الدارمي في السنن، حديث رقم (2533) [2/ 320] ورواه أحمد في المسند برقم (18035) [4/ 228] ورواه غيرهما.

تأويلاً من تأويلكم، فإن تأويلكم بلا ردٍّ، وتأويل عقلي فاسد، وتأويلكم بالردِّ تأويل شرعي صحيح، فخذوا بما أمر الله، وانتهوا عمَّا نهى الله.

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] فطريق العقل موصول إلى الهلاك، وطريق الشرع موصول إلى النجاة، جعلنا الله وإياكم من أهل النجاة ظاهراً وباطناً، ومن أهل العافية أولاً وآخراً.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

لم يكتفِ بقوله: (فاستغفروا الله) بل ضم إليه قوله: (واستغفر لهم الرسول)؛ لأن الظالم لنفسه كما أنه هاتك لحرمة الله في شريعته؛ فكذا هو هاتك لحرمة رسول الله في حقيقته إذ ليس موجود من الموجودات إلا وفيه شعاع من أشعة ذاته ﷺ، والظلم بظلمته يهين ذلك الشعاع، ويصير سبباً لاستتاره، وانمحاقه؛ فيصل أثر ذلك الظلم المظلم إلى الحبيب المنوَّر بنور العظمة، والجلال، والجمال، والكمال؛ فيكون الظالم مسيئاً في حق الله تعالى، وفي حق الرسول.

فإذا تاب إلى الله تعالى؛ لزم عليه أن يتوسل إلى القبول بشفاعة الرسول؛ لأنه الواسطة بين الله تعالى وبين عباده، وهذا التوسل باقٍ الآن، وإلى قيام الساعة لا يختصُّ به زمان حياته ﷺ، وإن كان يظنه بعض القاصرين؛ لأن حيٌّ الآن بحياة لائقة بمقامه العالي؛ ولذا ندب إلى زيارة روضته، وعلى تقدير الفوت بحسب الموانع، وفقدان الشرائط والأسباب؛ لزم المراجعة إلى وارث مَن ورثته للتوبة والإنابة.

فإن الذين يبايعون الرسول؛ فإنما يبايعون الله، وإن الذين يبايعون وارث الرسول؛ فإنما يبايعون الرسول بوساطة ذلك الوارث، والله تعالى بوساطة الرسول، فالمبايع في الحقيقة هو الله تعالى على أيدي الوسائط.

ويدلُّ على ما ذكرنا: من أنه لا بد من استغفار الرسول إلى قيام الساعة، ولا يختصُّ به زمان دون زمان ما قال ﷺ:

«حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم، قالوا: هذا خيرنا في خياتك، فما خيرنا في مماتك؟ قال: تُعرض عليّ أعمالكم كل عشية الإثنين والخميس، فما كان من خير؛ حمدت الله تعالى، وما كان من شر استغفرت الله»[1].

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (686) [1/ 183] ورواه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي ﷺ، حديث رقم (26) [1/ 39] ورواه غيرهما.

وإنما خصَّ عشية الإثنين؛ لأن أبواب الجنة تفتح فيها بحرمة مولد النبي ﷺ تلك الليلة، كما تُفتح في شهر رمضان؛ فكانت ليلة الرحمة المطلقة، والمغفرة العامة، وخصَّ عشية الخميس أيضاً؛ لأن الأعمال الأسبوعية تُعرض على الله تعالى يوم الخميس، فأحب ﷺ أن يستغفر لأمته قبل العرض على الله تعالى حتى لا يبقى لهم سيئة معروضة عليه موجبة للخجل؛ ولذا كان لا يزال يصوم الإثنين والخميس؛ فيبقى سنة لأهل العزيمة من أمته لا يزالون يصومونهما إلى قيام الساعة في السفر والحضر.

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن ألا يمر عليه ثلاث ساعات؛ إلا ويجدد فيها التوبة لله تعالى، فإن لم يرجع إلى الله فيها فليجتهد أن لا يمضي ست ساعات إلا وهو راجع فيها؛ وذلك أن أيام الأسبوع وإن كانت سبعة؛ لكن لمَّا كان يوم الخميس يوم العرض؛ فقد بقي لنا ستة أيام هي: أيام الأعمال؛ وهو رمز لطيف لا ينتبه له إلا مَن كشف الله الحجاب عن بصيرته، نسأل الله سبحانه أن لا يُبقي لنا ذنباً إلا وغفر له، ولا تلويناً إلا وبدَّله إلى التمكين بحرمة مَن جعله وسيلة لجنابه، وشفيعاً عند بابه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 69].

أي: في أوامره ونواهيه.

وقوله: ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ [الآية: 69].

أي: في سُنَنه ومستحباته، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ [الآية: 69] المطيعون.

وقوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [الآية: 69].

بحسب استعداداتهم ومراتبهم، فإنعام بعضهم إنعام إطلاقي، وإنعام بعضهم إنعام إضافي، والكل شاكرون لأنعم الله، مترقِّبون للمزيدات دنيا وآخرة.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الآية: 69].

قدَّمهم؛ لأنهم أعلى مَن أنعم عليهم؛ لأنهم منعمون من وجه عام، ومن خاص، وغيرهم منعمون من وجه خاص فقط.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [الآية: 69].

هم الذين خلصت نفوسهم عن الصفات النفسانية؛ بل عن شائبة الغيرية، وهم مُخبرون عن الله تعالى أيضاً؛ لأن الله تعالى أراهم ملكوت السموات والأرض؛ لكن

نبوءتهم نبوءة تحقيقية لا تشريعية كما للأنبياء؛ فإن النبوة التشريعية منقطعة، وما بقيت إلا المبشِّرات؛ ولذا كانوا دون الأنبياء في الذكر والرتبة فاعرف.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الآية: 69].

هم الذين جاهدوا في سبيل الله بالجهاد الأصغر؛ ولذا كانوا دون الصديقين الذين هم أهل الجهاد الأكبر؛ لأن إصلاح الأعمال دون إصلاح الأحوال؛ إذ الظواهر أبواب البواطن، وللصدور رجال في الدور.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [الآية: 69].

هم أهل الاستقامة في الدين بحيث خلصت أعمالهم عن الخلل؛ فسدوا طرق خلل العمل بالصلاح، وهذا الصلاح عام في الحقيقة؛ لكن صلاح النبيين أقوى من صلاح الصديقين كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 130].

وقوله تعالى حكاية عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ إذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ [يوسف: 101].

أي: بالأنبياء الذين صلحت أحوالهم أكمل الصلاح؛ وصلاح الصديقين أقوى من صلاح الشهداء؛ لأنهم ما بقيت لهم بقية من النفس بخلاف الشهداء؛ إلا أن الشهداء لمَّا بذلوا مهجهم، وأفنوا ظواهرهم؛ التحقوا بالفانين في الله مطلقاً؛ ولذا حفظ الله تعالى أجسادهم عن البلى، والتفسُّخ؛ كأجساد الصديقين، وإن كان بين أجسادهم لطافة ونضارة فرق بحسب سريان بركات النفوس إليها، وصلاح الشهداء أقوى من صلاح مطلق الصالحين؛ لكونهم مباشرين للجهاد الأصغر الذي هو خصوص مرتبة من مراتب الأعمال الفاضلة.

ومعنى المعية المفهومة من الآية: إنهم أهل الحضور والقرب، وإن كانت درجاتهم متفاوتة في العلم والعمل.

فهم أي: المطيعون من هذه الأمة:

إمَّا صديقون: فهم مع إخوانهم الصديقين في درجاتهم.

وإمَّا شهداء: فهم مع إخوانهم الشهداء في طبقاتهم.

وإمَّا صالحون: فهم مع إخوانهم الصالحين في منازلهم، إلا أنه يغيب بعضهم عن بعض، وإن تفاوت درجاتهم، كما لا يغيب خواص السلطان بعضهم عن بعض،

وإن اختلفت مقاماتهم، وتقاربت أو تباعدت دورهم وبيوتهم؛ فإن بعضهم ينزلون منازل بعض بالزيارة متى أرادوا، فإذا كان لا حجاب بين الأصدقاء في هذا الموطن الكثيف؛ فما ظنك بهم، وهم في الموطن اللطيف.

ولذا قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

أي: جواراً جعلنا الله وإياكم من أهل حسن الجوار بحرمة نبيه المختار.

وفي قوله ﷺ: «**مَن أحب قوماً؛ فهو منهم**»(1).

إشارة إلى ما ذكرنا فإن المراد أنه منهم في الدنيا والآخرة.

أمَّا في الدنيا: فبالطاعة والأدب الشرعي.

وأمَّا في الآخرة: فبالمعاناة والقرب المشهدي، فإن المحبة رابطة قوية بين المحب والمحبوب، وتلك الرابطة تقتضي الموافقة على كل حال.

فالإنسان لا يلحق الأبرار إلا بأعمالهم، ولا يرتبط بالمقربين إلا بأحوالهم:

أي: بعد المحبة التي هي أساس الالتحاق، فمَن ظن كفاية المحبة المطلقة بدون موافقة الأعمال؛ فقد ألحق اليهود بموسى، والنصارى بعيسى، والروافض بالمرتضى، فحاشا عن أن يلتحق الملوَّث بالمطهَّر فلا فائدة للأطماع الفارغة، ولو شاء الله لجمع الناس على الهدى؛ ولكن قال: ذلك الفضل من الله يتفضل به على من يشاء وكفى بالله عليماً بمن يستحق الفضل بحسب استعداده.

كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124].

وفيه إشارة إلى أن الكسب إنما هو من الأدب، وإلا فكل كمال إنما هو اختصاص إلهي ناظر إلى الشؤونات الذاتية الأزليّة التي لا مدخل فيها للجعل، فرُبَّ صالح يلحقه الله بمَن فوقه من الأصلح؛ فيكون أصلح، ورُبَّ صادق يرقيه الله إلى الأعلى؛ فيكون أصدق، وإذا كان أصدق؛ كملت مقاماته.

وإن كان السير في الله لا نهاية له أبد الآباد؛ هو الذي قرب من درجة النبوة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]، أي: أنا على بصيرة في أمر الدعوة، وكذا من اتبعني قولاً وفعلاً وحالاً.

أمَّا القول: فهو صدق القول.

---

(1) أورده بلفظه ابن كثير في التفسير، الأنفال 74 ـ 75 [2/ 331] ورواه بنحوه الخطيب عن جابر كما في كنز العمال للمتقي الهندي.

وأمَّا الفعل: فهو صدق الفعل.

وأمَّا الحال: فهو صدق الحال.

فمَن لم يصدق في هذه المراتب؛ لم يكن من أهل الدعوة إلى الله؛ لأن الكاذب لا يدخل على الله، ولا يُدلَّ على الله؛ ولذا قالوا: عين اليقين، فمَن ادَّعى العين؛ فلا عين له فقد ارتكب الميْن، فكيف يجوز أن يقول الرجل أبصرت ولا بصر له؟ أو علمت ولا بصيرة له؟

فأهل الرسوم إرشادهم إنما هو من الأحكام، وأهل الحقائق دعوتهم إنما هي إلى مرسل الأحكام، فكما أن الأحكام لإصلاح الظواهر، فكذا الحقائق لإصلاح البواطن، والظواهر ظروف البواطن فليست البواطن بعيدة من الظواهر؛ لكن العيون الظاهرة لا تبصرها، فيجب أن يكون المرء؛ كالهدهد، فإنه يرى الماء تحت الأرض، ولا تكون الأرض حائل له؛ بل هي كالمرآة لِما يراه فيها.

فكما أن الأرواح مع الأجساد ورؤيتها رؤيتها، فكذا الصور مشاهد المعاني وشهودها شهودها، فظهر أن الباصرة إنما هي لرؤية الآثار، والبصيرة لإدراك الحقائق من تلك الآثار؛ ولذا جعل الله لكل رجل قلباً يتقلَّب به في درك الأسرار؛ فيترقى إلى عالم الأرواح، ثم إلى عالم المعاني، ثم إلى غيب الذات؛ وهي سدرة المنتهى التي هي آخر السدر؛ لأن لكل عمل وسير سدرة مخصوصة.

والرب تعالى هو المنتهى كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42] أي: إلى ربك المخصوص المعروف الموصوف المرسوم فافهم جداً، أو لا تكن كالسمك يسكن في الماء، ويجري فيه، ويسأل أين؟ فهذا هو الماء قد أفاض الله عليك، وبالاستفاضة أشار إليك.

وقال الله سبحانه: ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: 100] أي: من بيت بشريته وطبيعته، وفيه إشارة إلى أن السالك الخارج الأجر الآتي، إن لم يخرج من بلد وجوده المجازي بالكلية، فإن الخروج من بلد الوجود بالكلية، والدخول في بلد الوجود الحقيقي إنما يحصل في الدنيا لواحد بعد واحد.

والله تعالى يمنُّ على عباده السالكين؛ فيوصلهم إلى مقاصدهم، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في البرزخ، وإمَّا في الحشر؛ وهو المراد بقولة مَن قال: مَن لم يصل إلى مراده؛ فمراده يجيء إليه، وهذا الإيتاء في قول مَن قال: إن كل كمال لم يحصل في الدنيا؛ فهو لا يحصل في الآخرة.

وذلك فإن عدم الحصول إنما هو لغير السالك، وأمَّا السالك فتدارك بفضل الله سبحانه، كما قلنا آنفاً، وإلى حال غير السالك دلَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: 72].

وإلى حال السالك أشار قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: 100]، وهذا المبحث قد حققناه في كتابنا المسمَّى: «**بتمام الفيض**» بما لا مزيد عليه، والله الموفِّق.

قوله تعالى: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية: 100] في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية: 100] في الظاهر.

ودخل فيه وارث الرسول؛ لأن مسكنه المدينة الثانية، وهو نفسه وحسنه من حسنات الرسول فهو الرسول المرسل بالرسالة التحقيقية لا النبي المبعوث بالنبوة التشريعية، فإنه منقطع أبداً، ولم يبقَ إلا المبشرات، وإنما قال: إلى الله؛ لأن نهاية المعجزة، إنما هي مقام الأُلوهية، وهي منتهى العلم أيضاً.

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]، وعند هذا المقام يخلص السالك من الحجب الجسمانية الظلمانية، والحجب الروحانية النورانية؛ لأن الأُلوهية ليست مأخوذة من حيث كونها صفة من صفات الله تعالى؛ بل من حيث هويتها أيضاً.

ولا شك أن الهويَّة غاية الغايات لا غاية وراءها، ولا مرمى غير الحق تعالى عن الهُويَّة بالأُلوهية؛ إذ مقام البقاء بالله يقتضي الارتباط بالحق، فالحق إله واحد، والعبد مألوه أبداً على اصطلاح القوم دلَّ على هذا أن النبي ﷺ لمَّا دخل على الله تعالى ليلة المعراج قال: «**لا إله إلا الله أنا العبد**»، مع أن ذلك المقام الخطير يقتضي الفناء بالكلية فافهم جداً.

وقال تعالى: ورسوله، فعبَّر عنه بالرسول؛ لأن ارتباط الأمة بالنبي إنما هو من حيث رسالته، وإلا فهو القائل: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل**»[1] أي: لا يدخل فيه غيره، فكل تابع منقطع عنه هناك.

والحاصل أن لكل عبد وجهاً إلى الله تعالى بخصوصه، فهو من هذه الخصوصية لا ارتباط له بغيره أصلاً؛ ولذا يقال: أخبرني ربي، ومن هذا الباب أنه

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2159) [2/ 226].

ﷺ لم يُعين الخليفة بعده لمَّا علم أن من أصحابه وأمته مَن يأخذ عن الله بلا واسطة، ففوض الأمر إلى أهله من كل الوجوه، وهو أكمل الناس وأعلمهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ [الآية: 100] أي: الموت الطبيعي قبل الفناء الكلي المعنوي: بأن يخرج من أرض بلد الوجود بالكلية؛ كما خرج من أرض بيته البشري الطبيعي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [الآية: 100] أي: عُدت هجرته هجرة كاملة أزلاً هنالك، فإنه عبد في سلوكه، وخُذ منه لا أجير؛ لكن الله سبحانه من حيث فضله الواسع يعامل معه معاملة الأجير في الظاهر؛ فيعطيه وجوده الباقي بدل وجود العبد الفاني؛ فهو ثمرة علمه، وما وعده الله في مقابلة فنائه عن نفسه، فإذا هو عند الفناء ساقط على الله؛ ولذا قال: على الله.

وفي الحديث: «**لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى؛ لهبط على الله**»[1]، فاعرف الإشارة.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: 100] بوجوده الحقيقي الباقي.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَى﴾ [الآية: 100]؛ ساتراً لوجود عبده المجازي الفاني، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [الآية: 100] بما يفيض عليه من أنواع فيوض أسمائه وصفاته غير وجوب الوجود، فإن الماهية الإمكانية لا تقتضيه، ولا يجتمع الوجوب والإمكان في صورة واحدة؛ فهو تعالى هو والأشياء أشياء، وليست إلا عكوس الأسماء والصفات.

فمن حيث إن الظل صورة ذي الظل قال مَن قال: أنا الحق، وبينه وبين الحق بون بعيد، فالمتجلّي هو الحق بصور أسمائه وصفاته، والعبد عبد أبداً ليست له شائبة الربوبية أصلاً، ومَن فهم هذا المقام وتحقق به؛ نجا من ظلمات أهل الإلحاد، والله ولي الإرشاد.

ومنه: نور التئام في المبدأ والمعاد، ولو قال: هو الحق، وأخرج نفسه عن البين؛ لكان أليق بمقام المعرفة والشهود الكامل، ثم إنه ولي الفقر والستر على أن هناك مغفوراً ومستوراً؛ وهو الوجود الإمكاني الاعتباري الظلِّي، فهو وجود في

(1) رواه الترمذي في السنن، باب 57 ةمن سورة الحديد، حديث رقم (3298) [5/ 403] ورواه بنحوه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (8814) [2/ 370] ورواه بنحوه غيرهما.

الجملة؛ ولذا تعلَّق به الستر بخلاف الشرك، فإنه لا وجود له إلا في الوهم.

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48]؛ إذ الموهوم لا يتعلَّق به الستر؛ لكونه لا وجود له أصلاً، ومن هنا قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

فلو ارتفع الوهم؛ انتفى النفي والإثبات، وبقى الله الواحد بالذات، وحسبك للإرشاد، وقوله تعالى: ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [مريم: 65] يعني: ليس له سميٌّ وشريك في الاسم لما ليس له شريك في الذات، ووجوب الوجود فظهر أن الشريك باطل صورة ومعنى، والحق حق واحد صورة أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، قل الله ثم ذرهم فمن لم يقل: الله؛ بل أضاف إليه ما سواه، فهو في خوض يلعب.

ومَن معه أيضاً في خوض يلعبون، والله الهادي.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: 180].

فقد أضاف الأسماء إلى الجلالة، فكما أنه ليس له شريك في الأُلوهية، فكذا ليس له شريك في الأسماء المضافة إلى الأُلوهية، فله ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة إلهية، وله أيضاً ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة كونية؛ لكن الأسماء الحسنة الكونية إنما تضاف إلى المظهر الكوني تأدُّباً معه تعالى، وإعطاء لكل حقه.

وهذا المظهر الكوني واحد أيضاً، وإن كان له أسماء وصفات كثيرة؛ لأن الواحد لا يقابله إلا الواحد، وفيه قد تحيَّرت العقول، وزلت أقدام أهل النقول ولكن الله تعالى له أفعال وصفات.

فأفعاله مستندة إلى صفاته، وصفاته مستندة إلى أسمائه، وأسماؤه مستندة إلى ذاته، فليس إلا ذات واحدة متجلِّية في صفة كلية قد تجلَّت هي أيضاً في فعل كلي ظهرت منه الآثار والشواهد ظهوراً وحدانياً في صورة كثيرة.

ألا ترى أن الكلام صفة المتكلم في ذاته، فإذا ظهر؛ كان قولاً من حيث إنه مقول، وكتاباً من حيث إنه مكتوب، وعلى هذا فقس، فلكل ظهور ثلاث مراتب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يٓس: 82]؛ فالكون الحادث أثره المستند إلى الفعل القولي؛ فإنه اللقاء في الحقيقة فافهم جداً.

وذلك القول مستند إلى صفة الإرادة المضافة إلى الهُويَّة المضاف إليها الأمر، وإنما قال: أمره؛ لأن الخلق يلي الأمر، كما أن القدر يلي القضاء، ومن هنا إن

النتيجة في القياس ثالث ثلاثة، فهذا أمر الوجود أبداً؛ بل وكل فكر رسم في القلب؛ فهو من شيئين؛ لأن له وجوداً في الذهن، وعليك بالتأمُّل في الزوجين، وما تبنَّى عليهما من الآثار في الكونين.

وقال الله سبحانه: ﴿مَن اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [النساء: 123]، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن﴾ [الزلزلة: 7].

أي: يستحق أن يجزى به، ويرى جزاءه.

وأمَّا المؤمن: فالله تعالى يعفو عن كثير من ذنوبه، ويكفِّر ما بقي بما يرد عليه في الدنيا من الشدائد والمحن على ما ورد في الحديث.

ولا يُبقي عليه إلا وزر الكبائر، فإن تاب عنها؛ فقد سقطت في الدنيا أيضاً، وإلا فيستحق أن يُجازى عنها في الآخرة، فقد يدرك العناية والشفاعة؛ فينجو منها أيضاً، وقد يكون معذَّباً بمقدار؛ وهو ما دون الخلود.

وأمَّا الكافر: فلا بد أن يُجازى على كفره، وعلى سائر أعماله السيئة في الآخرة، وأمَّا في الدنيا فقد يُخفِّف الله تعالى عنه أيضاً بما صدر عنه من صور الأعمال الحسنة، فإنه تعالى رحمن الدنيا؛ فيصل رحمته إلى المؤمن والكافر في الدنيا من غير نكير؛ ولذا جاز أن يدعى له بما يصلح حاله في الدنيا كالغنى ونحوه.

وأمَّا الصبي: فهو كالبالغ إن بلغ حدُّه التمييز، وصدر عنه بعض الأذى، فإن الله تعالى يؤاخذه بعض الشدائد بمقتضى الاسم العدل، وإن لم يبلغ ذلك الحد فما ابتلى به من الشدائد ابتلاء لأبويه ونحوهما، فله كالبالغ قرين من الملك، وقرين من الجن، فالملك يُحرِّكه على ما يسرُّ أبويه من الأمور الملائمة، فيقول كل منهما خيراً، ويحمد الله؛ فيحصل به رغم الشيطان ومساوءته.

وأمَّا قرينه الجنِّي فقد يحركه على ما يسوء أبويه، ويغضبهما من الأمور الغير الملائمة فيقول كل منهما شراً، وينسى الله تعالى؛ فيحصل به مساءة الملك، فقد يظهر فضل الله تعالى، وقد يظهر مُدله بحسب كونه رب العالمين، فحال الصبي قبل البلوغ في المجازاة؛ كحال الحيوانات في القصاص يوم القيامة، وكل ذلك من باب العدل، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ لشؤم المعاصي، وسريان بعض آثارها في الغير بحكم الجوار ولكن الله تعالى يمنُّ على عباده فلا يؤاخذهم في الدنيا إلا بأقل قليل من شرورهم، ويعفو عن كثير، وما كان

يعفوه في الدنيا فلا يعود إليه بالأخذ في الآخرة.

وأمَّا مَن أسلم وجهه لله: بأن جعل نفسه خالصة له تعالى اعتقاداً وعملاً، وهو منتهى ما تبلغه القوة البشرية، فليس له حساب، ولا ميزان، ولا غيرهما مما أُعد للعصاة؛ بل له السلامة، والنجاة، وتضعيف الحسنات؛ فللمطيع وعد، وللعاصي وعيد.

فأمَّا الوعد:

فالله تعالى لا يُخلف الميعاد؛ لكمال وجوده، وسعة غِناه، وعظيم قدرته.

وأمَّا الوعيد:

فهو من باب التخويف والتهديد، وليس كل ما يُهدَّد به العبد العاصي يفعل به، فقد يعفو عنه السيد؛ لكن ينبغي أن لا يغترَّ العبد بكرم الله تعالى؛ فإنه بكرمه وجوده خلقه، ثم بحكمته أمره ونهاه.

فالإحسان لا يُقابل بالعصيان، والإكرام لا يُجازى بالإهانة، فعل العبد العبادة، ثم العبودية، ثم العبودة بحسب إلهيّة، وألوهية، وألوهته، فإذا وصل إلى غاية هذه المراتب؛ سقطت عنه كلفة التكليف، فكان حاله في التعبُّد في الدنيا؛ كحال أهل الجنة في الآخرة أي: كان حاله لذَّة صِرفة، وحلاوة محضة، ومَن سرت اللذَّة في باطنه؛ لم يتألم من العبادة في ظاهره، فيبقى إلى آخر عمره وله حياة طيبة من إحياء حقوق الله، وحقوق عبيده، ومن ذلك حقوق أعضائه وقواه.

إذ كل ذلك محلُّ التكليف، وموضع أخذ الميثاق، ومواطن المراعاة، والمحافظة، ومَن حافظ على أنفاسه؛ فقد حافظ على جميع عمره، والله معه، ومنه تصدر كمالاته، وإليه تصعد كلماته، هذا إذا اعتبر الحضور معه، وأمَّا إذا اعتبر الغيبوبة عنه، وبقي الحق وحده، فالحق يُذكر على لسانه، ويُتعبد على جوارحه، وليست هذه المرتبة إلا للمحققين الواجدين وجداناً لا فقدان معه.

قال الله سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ﴾ الآية: [النساء: 127].

بظاهرها تدلُّ على أن الله تعالى هو المفتي، وأن الرسول ﷺ خليفته في ذلك، وكذا الورثة خليفته في ذلك، وكذا الورثة خلفاء الرسول؛ ولذا كان الأصحاب رضي الله عنهم يفتون، وكذا التابعون حتى الصوفية المحققون؛ كجنيد البغدادي قُدِّس سرُّه

فإنه مع كونه سيد الطائفة كان يفتي في بغداد على مذهب أبي ثور.

سواء قلت إنه كان يستر حاله عن الناس، أو لغير ذلك، فإن الاعتبار بظاهر الحال.

ثم لمَّا كان الفتوى، والقضاء، والتدريس، ونحو ذلك من الولايات من المناصب العرفية المتنافسة بين أهل الدنيا؛ امتنع الخواص عن التقلُّد بها مع أنها من الأسماء الإلهية في الحقيقة، فإن الله هو المفتي، والقاضي، ومعلم الناس، وكل ذلك في القرآن، والاعتبار بمذهب التوفيق عند أهل الله بعد مساعدة ظاهر النص، إلا أن يكون هناك إيهام يُوجب الشين، فلا يُطلق عليه تعالى، وليس منه مثل قولنا: السبحان، والسلطان، ولفظ أفندي، ونحو ذلك، فإن أكثر علماء الظاهر، وكذا أرباب الحقائق أطلقوها على الله تعالى لِما فيها من التعظيم.

ثم إن الفتوى ونحوه مما دخل تحت الاسم الظاهر، ولمظاهر الاسم الباطن تحقق بحقائق هذا الاسم حتى قيل في قوله: «**آخر ما يخرج من رؤوس الصدِّيقين حبِّ الجاه**»[1].

فإن الخروج هنا بمعنى الظهور؛ يعني: يظهر لهم في آخر الأمر حبذَا التحقق بحقائق الاسم الظاهر ليكمل لهم الأمر في باب الأسماء الإلهية لكن لهذا التحقق وجهان: **الأول**: أن يكون لهم قبول عند الناس حتى يحصل لهم ما أرادوا من المصالح من غير تقلُّد بشيء من الأمور العرفية؛ كالشيخ محيي الدين بن العربي قُدِّس سرُّه؛ حيث كان له قبول عند سلطان حَلَب في وقته، حتى شفع في يوم واحد في الأمور الكثيرة المتجاوزة عن المائة، وجملة الشفاعات كانت مقبولة عند السلطان، فكان في الكل على مراد الشيخ، وكان مراد الشيخ من ذلك إسعاف الحاجات، وجلب المنفعة لبعض، ودفع المضرَّة عن بعض لا أمراً آخر يتعلَّق بنفسه، فإنه ونحوه مطهَّر عن مثل ذلك الدَّنس.

والوجه الثاني: أن يكون لهم تقلُّد بمثل ما ذُكر.

فهذا هو الذي يفرُّ منه الخواص في هذا الزمان الأول، وإلا أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان أمر الله مفعولاً.

---

(1) أورد هذه المقولة الشيخ علي القاري في مرقاة المفاتيح، الفصل الثالث [9/ 511] والإمام الغزالي في إجياء علوم الدين، بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت، [3/ 275] وأورد هذه المقولة غيرهما.

فالشيخ لا يكون مفتياً أبداً لِما في الفتوى من الغوائل التي تنافي مقام المشيخة دون العكس؛ يعني: يكون المفتي شيخاً، وذلك بالتجرُّد والسلوك، فالشيخ إذا كان مفتياً؛ استبدل ما هو خير بالذي هو أدنى، وخرج من العباء، ودخل في القباء، وذلك مما يُورِث التنزُّل لغير الكُمَّل، وأهل التمكين، والمفتي إذا كان شيخاً؛ استبدل ما هو أدنى بالذي هو خير، وخرج من القباء، ودخل في العباء، وذلك مما يُورِّث الترقِّي لطلبه الحق؛ ولذلك كان ابن أدهم قُدِّس سرُّه من أهل التجرُّد والترك، هذا ولا تكن لغير الله حتى يكون الله لك.

قال الله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: 134].

يعني: مَن كان يريد بإرادته المنبعثة عن نفسه الظلمانية الشهوانية ثواب الدنيا ومتاعها وأعراضها؛ فعند الله ثواب الدنيا أي: لا عجز عنده، فيعطيه له؛ لكن ليس له في الآخرة من نصيب أي: ثواب الآخرة؛ لأن الدنيا والآخرة لا يجتمعان بالذات، ولا بالأصالة، وكذا ليس له من ذات الله أيضاً خلاق؛ لأنه مَن بَعُد عن الآخرة، فبعده عن الله تعالى بطريق الأَوْلى، ومَن كان يريد بإرادته المنبعثة عن قلبه النوراني الرحماني ثواب الآخرة ونعيمها ودرجاتها؛ فعند الله ثواب الآخرة أيضاً؛ لأنه كما خلق الدنيا لأهل الدنيا من غير تحجير، فكذا خلق الآخرة لأهل الآخرة من غير منع وإمساك، فيعطي كلاً منهم ما يريده لكنهم محجوبون بدنياهم وآخرتهم عن الله تعالى.

ومَن كان يريد ثواب الدنيا والآخرة جميعاً لكن يريد ثواب الدنيا بالعرض وقدراً؛ لبلغَه، وثواب الآخرة بالذات وبغير حساب، بأن يجمع بين إرادتي النفس والقلب، وحكمي الروح والجسد، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة جميعاً، فيعطي ذلك المريد ما شاء نفسه بنفسه، وما شاء قلبه بقلبه، وليس له من الله نفسه من خلاق أيضاً.

ومَن يريد الله من الله بإرادته سره الساري في جميع أعضائه وقواه؛ يجد الله، ويجد الدنيا والآخرة أيضاً؛ لأن وجدانهما تابعٌ لوجدان الله تعالى، فمَن وجد الله؛ وجد الكل بخلاف، فإنه قد لا يجد الله، ومن لم يجد الله فوجدان الكل له فقدان.

كما أن من وجد الله، ففقدان الكل له وجدان، فمَن أراد؛ فليرد الله تعالى، ثم ليكن فانياً عن الإرادة كلها.

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [آل عمران: 28]؛ فيكون المريد إذاً هو الله تعالى، فطوبى لمَن كان مراداً محبوباً لم يتحرك إلا بتحريك مراده ومحبوبه، وهو الذي يُوحِّد الله بالله لا بالحضور معه؛ يعني: الله يُوحِّد ذاته لا العبد بحضوره معه فليفهم وليتذكَّر، فإن اللسان يخترق من مثل نداء، والقلم ينبىء عن بيانه وتحريره، إذ ليس ذلك في وسعه.

واعلم أن العين اليسرى، إشارة إلى الدنيا، والعين اليمنى إشارة إلى الآخرة؛ يعني: كل منهما ناظرة إلى ما خُلقت هي له، فإذا عميت الاحتجاب عن الخلق بالحق؛ فتح الله العين التي هي لنفسه؛ وهي البصيرة؛ ولذا جعل العين متعددة، والبصيرة واحدة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَن ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4].

فالذي يفتح عينه إلى الله تعالى لا ينظر إلى ما سوى الله تعالى؛ لأن غيرة المحجوب ترتفع عن ذلك، وتأبى عنه، ومن عدم النظر لا يلزم المكابرة مع الربوبية، إذ لكل جسد ما عمل، ولكل روح ما عمل، فكل من الدنيا والآخرة مطلوبة للكُمَّل أيضاً؛ لكن بلسان المرتبة لا بلسان الحقيقة.

فإن لسان الحقيقة مقصور على طلب الله تعالى، ومَن مشى على المراتب؛ لم يعثر، فلينظر الإنسان إلى طعامه: أيَّ شيء هو طعام الدنيا، أم طعام الآخرة، أم طعام لا يجده واحداً إلا عند البيتوتة عند الله.

كما قال ﷺ: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»(1).

ومنه: يظهر أن الفقر المعنوي يستتبع الفقر الصوري غالباً؛ لعدم الاعتبار بالدنيا؛ ولذا كان من عيش الكُمَّل الكفاف؛ فإنه رزق آل محمد وعيشه، وقليل مَن يفهمه فافهم، واعلم أنك مع الله تعالى من جميع أسمائه قوةً وفعلاً.

قال الله سبحانه: ﴿أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ﴾ [النساء: 140].

فيه إشارة إلى أن مَن تشبَّه بالكافرين في صفة من الصفات القبيحة؛ فهو

(1) رواه الترمذي في سننه بلفظ: «إني لست كأحدكم إن ربي يطعمني ويسقيني». باب ما جاء في كراهية الوصال، حديث رقم (778) [3/ 148] ورواه أبو داود في سننه، باب في الرخصة. . ، حديث رقم (2374) [2/ 309] ورواه غيرهما.

منافق، ومَن تشبَّه بالمنافقين في خُلق من الأخلاق السيئة، أو في فعل من الأفعال الرذيلة؛ فهو عاصٍ، والعصا لمَن عصى، وهو المراد بالعقوبة، ثم هذا التشبُّه قد يؤدي به إلى حقيقة الكفر والنفاق؛ لأن المعاصي وسائل الكفر الشرعي.

كما أن الطاعات زرائع الإيمان الحقيقي، وكل هذا التشبُّه والانجذاب إنما هو من الطبيعة المشتركة في شهواتها، ومن النفس المتفقة في هواها، فإذا صلحت الطبيعة بالشريعة، والنفس بالطريقة؛ خرجت عن ذلِّ الإشراك مع الأذلاء، ودخلت في عزِّ الإشراك مع الأعزَّاء، فذلك الذلُّ هو الذلُّ المطلق، كما أن هذا العزَّ هو العزُّ المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ [النساء: 140].

إثبات لمودَّة المثل، فإن المثل ينصر المثل؛ لمودَّته له، كما أن الضد يخذِّل الضد؛ لبغضه له، ولمَّا كان على المؤمن المخلص أن يكون على ضدية المثل لا على مودة المثل؛ وجب عليه محاربة أعدائه؛ ليزيلهم عن وجه الأرض حتى لا يقع الاختلال في العالم بضديتهم، فإذا أزالهم عن وجه الأرض؛ بقي مع الأحباب الذين يجب عليه أن يحبهم بمودَّة المثل.

ومعنى المثل: هو المثل البشري، ومن هنا ظهر سر قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الآية: 140].

لأن الأعداء مع أمثالهم، وحيثما كانوا؛ فدارهم جميعاً جهنم التي لها البعد غاية البعد من حيث عمقها، كما أن أهلها لهم الضلال البعيد في الدنيا، فما له البعد البعيد للبُعداء، وما له القرب القريب للقُرباء؛ وذلك لأن المؤمنين أيضاً مع أمثالهم، وحيثما كانوا؛ فدارهم جميعاً الجنة الملتف بعض أغصان أشجارها بالبعض، فانظر ما أعجب هذه الحقيقة.

ولمَّا كان الإنسان مظهر الاسم الجامع لكونه في الدرجة الأخيرة من المخلوقات؛ أضاف الله الجامعية إلى الأُلوهية، فالسعداء مجموعون يوم القيامة حسبما جمعهم الهدى في هذه الدار؛ فهم الجامعون المجموعون، وكذا الأشقياء مجموعون في ذلك اليوم حسبما جمعهم الضلال في هذه الدار؛ فهم الجامعون المجموعون.

أمَّا كون كل فريق من الفريقين مجموعين فظاهر، وأمَّا كونهم جامعين، فالسعداء جمعوا بين الأسماء الجمالية بالفعل، وبقيت الأسماء الجلالية بالقوة، والأشقياء جمعوا بين الأسماء الجلالية بالفعل وبقيت الأسماء الجمالية في نفوسهم

بالقوة، فكل منهم جامعون بين الأسماء كلها، وإن اختلفت تلك الأسماء فعلاً، وقوةً، وظهوراً وبطوناً.

ومن هذا ظهر سرُّ قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ لأن معناه فيه ما فيه أي: من الأسماء، فهابيل من أولاد سرّ أبيه من حيث ظهور الجمال، وبطون الجلال، وقابيل سر أبيه أيضاً لكن من حيث ظهور الجلال وبطون، الجمال، فإنه ظهر فيه ما بطن في أبيه، كما أن هابيل ظهر فيه ما ظهر في أبيه، وبطن فيه أيضاً ما بطن في أبيه من سرِّ الجلال، فمَن وُلد هو سيرة أبيه، ومَن وَلد هو صورة أبيه، ثم هذا الأمر يدور مع الآباء والأولاد إلى يوم القيامة.

فقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ [يونس: 31].

يدور على أربعة أوجه عبارة وإشارة: فالحي المخرج من الميت؛ كإبراهيم عليه السلام من آزر، ومحمد ﷺ من عبد الله.

والميت المخرَج من الحي: كقابيل من آدم عليه السلام، وكنعان من نوح؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46] إذ لا أهلية بين المؤمن والكافر، والحي والميت.

والحي المخرَج من الحي: كهابيل من آدم، وكأولاد المؤمنين إلى يوم القيامة.

والميت المخرَج من الميت: كأولاد الكفار إلى قيام الساعة.

فهذه الأقسام كلها كانت مجموعة في صلب آدم، إجمالاً حتى أظهرها الله في الدهور، والأعصار تفصيلاً، فكان آدم مبتدأ الموت والحياة، وكانت حياته غالبة على موته؛ ولذا فُوِّض ذبح كبش الموت يوم القيامة إلى يحيى عليه السلام، وخلق الله الموت في ذلك الكبش، وفي الثور أيضاً حين يُذبح عند باب الجنة، كما أنه خلق الحياة في الحوت الذي يُذبح عنده أيضاً، فكما أن الذي يُصلى النار لا يحيا ولا يموت إلى أن يمضي الأحقاب، ثم هو ميت صورة، وحيٌّ معنى.

فكذا الذي يدخل الجنة يحيا أبداً لما دلَّ عليه جريان الأنهار فيها، وإنما قلنا: إن الذي يصلى النار هو حي معنى بعد مضي الأحقاب لِما ثبت في بعض الأحاديث؛ «**إنه ينبت الجرجير في قعر جهنم**»(1) أي: بعد ذلك المضي، فَقيد النبات بالقعر دون

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الوجه؛ إشارة إلى ما ذكرنا، وهو سرٌّ عجيب يعزُّ الإلهام بمثله، وفي مقابلته جريان الأنهار، ونبات الأشجار في سطح الجنة؛ فهي دار الحيوان ظاهراً وباطناً، والنار دار الحيوان باطناً وظاهراً.

وبما قررنا لك تفطَّنت لسرِّ ذكر الحياة والموت في سورة الملك؛ فإنها سورة قطب الأقطاب في كل عصر، ومن عنده يظهر آثار الموت والحياة؛ فهو المحيي المميت لا صورة فقط؛ بل ومعنى أيضاً، فالذي صدَّقه واعتقده؛ كان معه تحت لواء جماله، والذي كذَّبه وأنكره؛ كان معه تحت لواء جلاله؛ لأنه كما أن لكل نبي من الأنبياء يُحشر مع قومه المصدِّقين والمكذِّبين جميعاً صدَّقوه أو كذَّبوه، وذلك لأن علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل.

ومن هنا يُعلم أن الولي يكون نبيّاً أي: في حكمه، كما أن النبي يكون وليّاً أي: لا يكون نبيّاً إلا بعد ولايته، فإن نهاية الولاية أول درجات النبوة، وفي هذا المقام زلَّت أقدام كثير من السُّلاك؛ لعدم فهمهم عن الله، وعدم وقوفهم عند الشرائع والحقائق، والله الموفق.

ثم إن الله تعالى لم يقل في الآية: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ وَأَلْفَهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ...﴾ [آل عمران: 9] ن ربك جامع.. إلخ لأن الجمع في الحشر، وإن كان من مقام الربوبية لاتصاله بالبرزخ المتصل بالدنيا؛ وهو رب العالمين في الدنيا؛ فله اللطف لأهلها جميعاً؛ لكن الجمع في النار من مقام الأُلوهية والقهر، كما أن الجمع في الجنة من مقام الولاية واللطف فاعرف.

فإن مَن كان خصمه في الدَّارين الله؛ فلا نصرة له، ومَن كان وليه في الدَّارين المولى؛ فلا خذلان له، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 11].

فالله تعالى في حق المؤمنين هو المولى، وفي حق أضدادهم هو المنتقم هذا وهاهنا نفاق أكبر حقيقي، وكذا كفر حقيقي.

أمَّا الأول: فمن تلوينات الأسماء الإلهية، إذ لكل اسم وجه غير وجه الآخر، وذوق غير ذوق الآخر، فلا يذوقه إلا الكُمَّل، ولا يتجلَّى به إلا الأعزة الندر.

وأمَّا الثاني: وهو الكفر الحقيقي، فيستفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 256]، فإنه ما دام لم يكن المؤمن كافراً؛ لم يكن مؤمناً، فعليك بالكفر أولاً، ثم بالإيمان وإياك والإيمان، ثم الكفر.

ومعنى جمع أهل النفاق، والكفر الحقيقيين في جهنم معهم في معنى الاستهلاك في الوجود الحق، والفناء عن التعينات مطلقاً.

فإن الله تعالى إنما خلق جهنم؛ ليذوق الفناء في الآخرة مَن لم يذقه في الدنيا؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: 30] أي: فذوقوا العذاب للفناء إلى انتهاء الفناء، وفي مقابلته البلايا والمحن المتعلِّقة بأهل الودِّ والولاء في الدنيا، فأول الحال عذاب، ثم عذب.

في أواخر سورة النساء: قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فِي جَوْفِهِ﴾ [النساء: 172].

فيه إشارة إلى بطلان قول مَن قال: إن المسيح عليه السلام روح مجسَّم، كروح القدس المجسَّم في بعض الأحيان في صور وحيه؛ وذلك لأن الله تعالى أثبت له العبودية، وقد قالوا: إن العبد هو اسم الروح، والجسد جميعاً، وبه أثبتوا المعراج الجسماني لنبينا ﷺ؛ لأنه تعالى قال: ﴿ تَوَّابًا رَّحِيمًا أَسْرَىٰ وَلِلَّهِ﴾ [الإسراء: 1]، ولو قال: بمحمد مقام بعبده؛ لأفاد أيضاً لفظ العبد؛ لأن المحمَّدية إنما تكون من حيث الجسمانية.

ولذا لم يُذكر ﷺ بهذا الاسم قبل الظهور بالعين الخارجي؛ لكن لمَّا كان في العبودية شرف عظيم؛ آثر لفظ العبد على لفظ محمد، ويعرف ذلك من قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(1) أي: أنا سيد أفراد الإنسان مطلقاً؛ ولكن لا افتخر بالسيادة؛ بل بالعبودية؛ لأن بالعبودية تمتاز الأُلوهية، ففي كل سيادة شائبة الوهية، فاعرف هذا المقام، وكن فانياً عن نفسك؛ فإن فيه السلم لا تَملْ إلى السيادات، والكرامات فإن فيه الملام.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172].

وجعله المعتزلة من أسلوب الترقِّي فقالوا: بأفضلية الملائكة على البشر؛ فإنهم إذا كانوا أفضل ممَن هو من أفاضل الأنبياء؛ كانوا أفضل ممَن هو دونه، وأصابوا في ذلك؛ لكن لا مطلقاً، فإن صنفاً من الملائكة هم أفضل من البشر لا كلهم؛ وهم الملائكة العالون المهيمون.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين، حديث رقم (4189) [2/ 660].

فإن قلت: لا شك أن الملائكة العالية المهيمة: أرواح مجردَة عن الأجسام مطلقاً أي: أجسام لطيفة كانت كغيرهم من ملائكة السموات، أو أجسام كثيفة كالبشر فإنهم مطبوعون من العناصر الكثيفة.

وقد سبق منك: إن العبدية اسم للروح والجسد جميعاً، قلت: إن إثبات العبدية للمهيمة على تقديراتهم لا يستنكفون عن أن يكونوا عبيداً لله؛ إنما هو بطريق المشاكلة على أنهم وإن يكون لهم عبادة تكليفية كسائر أهل الملكوت؛ لكن لهم عبادة ذاتية؛ وهي توجهاتهم الأحدية إلى الحضرة الأحدية، واستغراقهم في بحر الشهود والحضور؛ ولذا وصفوا بالقرب منه، فإنه لا يقرب من الله تعالى أحد إلا بالكشف والحضور على أنهم أقرب مخلوق إلى عالم الاختراع ليس بينهم وبين أول التجليَّات الإلهية واسطة أصلاً.

ومنهم: العقل الأول إلا أن العقل امتاز من بينهم بالسير في عالم الأسماء؛ والتنزُّل إلى مقامات الصفات، فكان هو أفضل منهم أيضاً في جمعية النشأة والذوق، وإن كانوا أفضل منه مكانةً وخلقةً فإن الملائكة خُلقوا من النور، والبشر من العناصر.

ولذا كانﷺ يقول: «**واجعلني نوراً**»[1]، فمن أفضليتهم بالرتبة العليا، والخلقة الفضلى لا يلزم أفضليتهم على البشر من كل الوجوه؛ بل هم جزء الإنسان الكامل؛ لأن الله تعالى خلقهم على جناح واحد؛ وهو جناح الجمال؛ والجلال على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ [صٓ: 75].

فكما أنه فرَّق بين مَلك ومَلك؛ كملائكة الأرض، وملائكة السموات والملائكة المعبَّر عنهم بالمهيمة؛ فكذا فرَّق بين بشر وبشر، فمن البشر مَن هو أفضل من كل البشر، ومن كل الملائكة ولو من بعض الوجوه، فإن الفاضل من وجه قد يكون مفضولاً من وجه آخر فاعرف.

والحاصل أن المهيمة وإن كان لهم فضل ظاهر من حيث نورانيتهم الغالبة، وقربتهم الباهرة إلا أن العقل الأول المخلوق في الصورة المحمَّدية له ما لهم مع ما له من فضل باطن زائد على ما لهم.

---

(1) ونصه كاملاً: اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً وأمامي نوراً وخلفي نوراً وفوقي نوراً وتحتي نوراً واجعل لي نوراً أو قال واجعلني نوراً». رواه مسلم في صحيحه، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (763) [1/ 528] ورواه أحمد في المسند، عن عبد اللَّه بن عباس، حديث رقم (2567) [1/ 284] ورواه غيرهما.

أمَّا **الأول**: فلأن المهيمة وإن كانوا أنواراً عالية؛ لكن العقل الأول أيضاً من الأنوار لأن قوله: و(**اجعلني نوراً**)؛ يشير إلى أن أصله من الأنوار إلا أنه لمَّا عارضه العين الخارجي، والتسبيح الصوري؛ دعا بأن يجعله الله نوراً، ويردَّه إلى أصله الأول.

ولا شك أنه مستجاب فيه فهو روح في صورة جسد، وعقل في ذي نفس، ومن هذا قال ﷺ: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»[*]؛ فإنه يشير بذلك إلى أن الغفلة البشرية لا تطرأ على قلبه؛ بل هو من الاعتدال بحيث إنه قلب الأقالب؛ فكان بهذه الحيثية نوراً عالياً مبصراً في الصلاة من جميع جهاته التي تُعطي التقييد لكمال إطلاقه، وأيضاً قربتهم وإن كانت قربة زائدة من حيث إنه لا واسطة بينهم وبين الله.

فالعقل الأول له جهتان: جهة الواسطة التي تعطيها الأسماء الجزئية، والجهة التي بلا واسطة؛ وهي التي تعطيها الأسماء الكلية الذاتية.

ولذا قال ﷺ: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل**»[1].

فإنه أشار إلى عدم الواسطة، وتلك الجهة أعلى فيه مما في المهيمة، كما دلَّ عليه السلب؛ وهو أنه لا يسعه فيه ملك متقرِّب أي: فحاله في ذلك الوقت أوسع من حال مَن عداه أيّاً كان.

وأمَّا **الثاني**: وهو إثبات الفضل الزائد له من وجه آخر أنه أي: العقل الأول المصوِّر له مقام الرؤية من جميع حضرات الأسماء دون غيره فالمهيمة وإن كان لهم شهود تام؛ لكن شهودهم بحسب أسمائهم المخصوصة، ولهم في ذلك مقام معلوم لا يتعدونه، فأين الرؤية الخاصة من الرؤية العامة المحيطة؟ هذا والله الشكور لعبده الشكور.

❊ ❊ ❊

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2159) [2/ 226].

(*) رواه أبو داود في السنن، باب الوضوء من النوم، حديث رقم (202) [1/ 52] ورواه البيهقي في السنن، باب ما ورد في نوم الساجد، حديث رقم (593) [1/ 121] ورواه غيرهما.

{سورة المائدة}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلتَّهْلُكَةِۛ ٱللَّهِۚ عَلَىٰ﴾ [المائدة: 6].

أيها السالكون مسلك الإيمان الشهودي بعد الإيمان الغيبي، قوله تعالى: ﴿بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [المائدة: 6] إذا أردتم القيام إلى المعراج الحقيقي، والتوجُّه العلوي، والوصل الكلي، وفي ذلك دلالة على أنه لا بد من تحقق هذه الإرادة، فإن سير الإنسان دوري لا مستطيل، فمَن نزل إلى أسفل سافلين؛ وجب عليه أن يصعد إلى أعلى علِّيين الذي تحرك منه إلى هذا العالم فكان ذلك كالوطن الأصلي، ولا ريب إن الغريب يميل إلى وطنه.

وأمَّا قوله ﷺ: «**فطوبى للغرباء**»[1]؛ فالغرباء فيه: هم الغرباء الحقيقيون، وهم الذين وصلوا إلى مقاماتهم العلوية الأصلية، فكانوا بالنسبة إلى معارفهم أهل الأوطان، وبالنسبة إلى غيرهم، وهم كثيرون أهل الغربة إذ لا يعرفهم أحد إلا الله، أو مَن عرفه له أو ألحقه به في مقامه وهم قليلون، فهم بالنسبة إلى أكثر الخلق غرباء؛ لقلة معارفهم؛ بل لا معارف للكُمَّل الندر في أعصارهم، فهم المعلومون المجهولون فافهم جيداً.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَهُۥ كُن﴾ [المائدة: 6].

أي: وجوه حقيقتكم، وهويتكم عن أدناس التعلُّقات الروحانية وأزيلوا عنها الحُجب النورانية اللطيفة بدائها بالأمر بإزالة هذه الحُجب؛ لأنها أول ما احتجبت به الحقائق، والهويات في سيرها إلى عالم الخلق، وعند هذه الحُجب خلق كثير محجوبون محبوسون لا طريق لهم إلى خرقها إلا العناية الأزلية.

وفي الغُسل: إشارة إلى محو الهيئات النورانية التلوينية مطلقاً؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾ [الواقعة: 79] أي: لا يسر سر الهُويَّة الذاتي إلا

(1) ونصه كاملاً: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء». رواه مسلم في صحيحه، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً. . .، حديث رقم (145) [1/ 130] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً . . .، حديث رقم (2629) [5/ 18] ورواه غيرهما.

المطهَّرون عن أدناس التعلُّقات مطلقاً.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَيَــكُمۡيَسۡتَفۡتُونَكَ وَمَن﴾ [المائدة: 6].

أي: أيديكم الكاسبة لفوائد الدَّارين، فإن الدنيا والآخرة حرما على أهل الله، وحدَّد الأيدي دون الوجوه؛ لِما إن الدنيا والآخرة محدودتان مقصورتان؛ لكونهما من عالم الخلق بخلاف عالم الحقيقة؛ فإنه لا نهاية له.

فالظاهر وعالم الملك محصور، والباطن وعالم الملكوت غير محصور، وحدَّدها إلى المرافق؛ لأن ما وراءها يُعدُّ من البدن، فتطهيره داخل في تطهير الحقيقة الكلية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِي﴾ [المائدة: 6]، لم يقل: رؤوسكم عطفاً على المغسولين الأولين؛ لأن الرأس إشارة إلى العقل والخيال؛ وهما ممسوحان لا مغسولان، إذ لو غُسلا وأزيل حكمهما بالكلية؛ بطل مرتبة الإنسانية.

فالإنسان مَلك بالعقل، وبَشَر بالخيال؛ إذ لا خيال للمَلك؛ لكونه خارجاً عن الطبع العنصري داخلاً تحت الطبيعة الكلية، وفيه إشارة إلى أن الرأس نازل منزلة المرتبة العرشية، وليس العرش عن عالم الكون والفساد مطلقاً، وكذا مظهره في عالم الأنفس، وكل وارد يُردُّ على القلب، فإنما يُردُّ أولاً من مرتبة الخيال، فإن بقي في تلك المرتبة؛ فهو الشعور أي: الإدراك من وراء الحجاب، وإن تنزَّل إلى القلب؛ فهو علم الأنبياء والأولياء.

ولذا قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ﴿١٩٣﴾ ٱلۡمَوۡتُ وَأَنفِقُواْ﴾ [الشعراء: 193، 194].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: 6].

دلَّ التحديد على أن الأرجل مغسولة لا ممسوحة، وغسلها إشارة إلى إزالة اكتسابها الطبيعة، وأعمالها النفسانية؛ لأن الأرجل متصلة بالبطن حقيقة بخلاف الأيدي، وسرُّ التحديد كما سبق؛ لأن ما وراء الكعبين يُعدُّ من البدن أي: عُرفاً، وإن كانت الأيدي لغة تعتبر من الإبط، والأرجل من الورك؛ فهذه الأعضاء الأربعة إذا غُسلت غُسلاً حقيقياً؛ فقد غُسلت الأعضاء والقوى جميعاً، وأُزيلت التعلُّقات بالكلية؛ لأن الحجاب إمَّا روحاني، وإمَّا جسماني.

فالأول: أشير بغسل الوجوه، ومسح الرؤوس.

والثاني: بغسل الأيدي والأرجل.

فإذا كُشف الغطاء عن وجه الحقيقة من هذين الحجابين؛ لم يبقَ فيما وراءهما إلا حجاب يسير نوراني، كحجاب السحاب الأبيض على الشمس، وهذا هو القدر الذي يتكلَّم فيه، وأمَّا التفصيل فلا يُؤذن لأحد في ذلك إلا لأهله؛ وهم الصدِّيقون الحافظون للأسرار المراعون للأطوار.

قال الله تعالى: ﴿وَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا أَسْرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ﴾ [المائدة: 21].

أي: إذا وجب عليهم دخول تلك الأرض، فكيف يجوز دخول مصر فرعون وهو الأظهر، والمصر البلد العظيم من مصر الشيء يمصره أي: قطعه سمي به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، وقد تسمى القرية «مصر» كما تسمى المصر قرية، وهو ينصرف ولا ينصرف فصرف هاهنا، لأن المراد غير معين، وقيل: أُريد به مصر فرعون، وإنما صرف لسكون وسطه، أو لتأويله بالبلد دون المدينة، فلم يوجد فيه غير العلمية قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن﴾ [البقرة: 61] تعليل للأمر بالهبوط أي: فإن لكم فيه ما سألتموه من بُقُول الأرض.

قال الله تعالى: ﴿فِيهِ إِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَكَفَا ٱسْتَغْفَرُواْ﴾ [المائدة: 26].

أراد أرض القدرة بقرين أن الله تعالى غذَّاهم في التيه بالمنِّ والسَّلوى، وذلك من عين المنَّة، ومحض القدرة لا بسبب من الأسباب المتعلِّقة بعالم الحكمة.

فالتية أرض القدرة، ومِصر أرض الحكمة، والمدة فيما بينهما من حيث القطع والوصول أربعون سنة، فإن الداخل في عالم القدرة؛ وهو أهل الفناء، وإن خرج إلى عالم الحكمة، وهو عالم البقاء، فإن بقاءه لا يكمل له إلا في أربعين سنة، أو في قريب منها على حسب ما يقتضيه استعداد كل فانٍ وباقٍ، فإن الأكمل استعداداً قد يقوم له الأمر في أقل من مدة الأربعين سنة فصاعداً على ما شاهدته في شيخي الإمام الأكمل السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه.

فظهر أنه كما أن الدخول في مصر الصورة المتعلِّقة بالأسباب لا يحصل إلا مدة أربعين؛ ليأكل منها أنعامهم وأنفسهم الحيوانية؛ فكذا الدخول في مصر الوجود بعد الفناء؛ لا يكمل إلا في تلك المدة؛ ليأكل منها أنعامهم، وأنفسهم الإنسانية،

فأنعامهم أنفسهم المزكَّاة، وطبائعهم المصفَّاة تأكل مما يأكل الناس من الأغذية الصورية، وتكون لهم نوراً في عروقهم، وأنفسهم، وأرواحهم المطهَّرة عن دنس التعلُّقات الفانية تأكل مما لا يأكله الناس من الأغذية المعنوية، فهذا التمتُّع من كلا الوجهين لا يحصل لهم إلا بعد الارتداد إلى عالم البقاء، فإن عالم الفناء قد لا يقتضي الغذاء إذا كان الانجذاب قوياً، والشكر غالباً.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهِوَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [المائدة: 48].

اعلم أنه كما أن في الآفاق شرائع ومناهج بالنسبة إلى أهل الآفاق بها يتديَّنون، وعليها يَجرون، فكذا في الأنفس شرائع ومناهج بالإضافة إلى أهل الأنفس؛ لأن المشارب مختلفة، ومن عين الرحمة تنوعت التجليَّات، واختلفت المشارب.

كما قال تعالى: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ﴾ [الآية: 48] أي: على مشرب واحد لا يُعطي إلا فيضاً أُحادياً؛ لكن الله تعالى لم يشأ ذلك؛ بل كان من الواجب في الحكمة اختلاف المشارب، وتباين التجليَّات، وتفاوت الفيوض، وتكثير الواردات؛ لأنه تعالى واسع لا ضيق في تجليَّاته، ولا حصر في فيوضه، بل تجري تجليَّاته المتنوعة أبد الآباد في كل موطن ومقام دنياوياً، وأخراوياً، وبرزخياً، أو حشرياً، أو جنانياً، أو كثيبياً.

وإليه يشير قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق أي: كل خلق من المخلوقين يتنفَّس بنفس مخصوص من الأنفاس الرحمانية لا يشاركه فيه غيره، وذلك من باب الغيرة الإلهية حتى لا يطَّلع أحد على أحد في طريقه؛ لأنه ليس هناك إلا السير الأَحدي حقيقياً كان أو نوعياً، فافهم هذا السرَّ جداً.

فالشرعة هي: شرعة الأعمال التي يردها السالك؛ لتهديه إلى عين الأجر الأخروي، المنهاج هو: منهاج السير الأحدي الذي يرده السائر؛ ليوصِّله إلى عين النور وهو نور السموات والأرض، وضياء الأجسام والأرواح.

فاختلاف المناهج الشرعية؛ يستلزم اختلاف المناهج السيرية؛ لأن الظاهر عنوان الباطن، والمجاز قنطرة الحقيقة؛ لكن لأكامل الناس أحوال غريبة في شرائعهم ومناهجهم يخفونها عن الناس؛ لأن اختلاف المذاهب ليس من حيث الحقائق؛ بل من حيث الصور، فلهم سير أحدي من حيث الصور والحقائق جميعاً لا يوقعهم في الاختلاف؛ اختلاف الناس.

وإن كانوا يتأدَّبون بالأدب التي نُدب إليها ظواهر الشرائع، كمَن كان متقلداً بمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى؛ فإنه يجرى على مذهبه في الصورة من غير إخلال بشيء من اجتهاده وفروعه؛ لكنه ليس بمتقيِّد بواحد من المذاهب في الحقيقة؛ بل يجري سنن واحد في السير على المنهاج النبوي، فله حكم الأولية، وحكم الصدر الأول.

فإن مرتبة الصحابة رضي الله عنهم باقية إلى يوم القيامة:

أي: لمَن كان من الخواص لا لمَن كان من العوام، فإن العام إخوان النبي ﷺ، كما أن الخواص أصحابه، ولما كانت مراتب الكشوف متباينة؛ وقع بعض الناس في بعض من أهل البداية والتوسُّط فيما يخالف مرتبة كشوفهم.

وأمَّا أهل النهاية فلمَّا كانت مشاربهم من نهايات المشارب، وكشوف من غايات الكشوف؛ سلَّموا الأمور إلى أربابها، وسكتوا عن الطعن، والتعريض لما علموا من أن الوصول إلى الحقيقة لا يعطي ذلك، وأن الواصل الحقيق بكل أفراده؛ كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها؛ فلذا كانت كلماتهم مناسبة؛ بل ربما كانت متوافقة لما أنها من عين الجمع الأحدي، وليس وراءه غاية؛ ولذا سلم بعضهم عن لسان بعض؛ لأن الإنسان لا يطعن في نفسه، فاعرف هذه الإشارة المفصحة عن المراتب وتباينها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا﴾ [المائدة: 54].

يشير إلى أعين العزَّة؛ لأن الذِّلَة لأهل العزّة عزة، كما أن التكبُّر لأهل الكبرياء تُواضع.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

أي: وللمؤمنين الذين أعزَّهم الله بعِزَّة نفسه، وبعِزَّة رسوله؛ فإنهم حزب الله الغالبون وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العِزَّة ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذِّلة.

فالمؤمنون في درجة الذكورة، وإن كانوا إناثاً، والمنافقون والكافرون في درجة الأُنوثة وإن كانوا ذكوراً، فعليك بالتشبُّه بالذكور حتى تكون مذكَّراً حقيقياً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا تَعۡلَمُونَۚ﴾ [المائدة: 61].

أي: دخل المنافقون بالنفاق الشرعي مجالسكم؛ ومعنى النفاق الشرعي: إظهار الإيمان، وإبطان الكفر.

قال تعالى: ﴿مُهَاجِرًا﴾ [المائدة: 61]؛ بالقول اللساني بالاعتقاد الجناني.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَىٰ﴾ [المائدة: 61]؛ كإيمانكم المشتمل على الصدق، والإخلاص، واليقين؛ وفيه إظهار الدعوى، وإخلاء القلب عن المعنى.

ولذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ﴾ [المائدة: 61]؛ الذي هو إنكار الحق؛ كنبوة رسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ وَأَنفِقُواْ فِي﴾ [المائدة: 61].

يعني: كان آخر حالهم كأوله على حد سواء؛ لأن قلوبهم كالحجارة، وأشدُّ قسوة، فلم ينجع فيها العظة، ولم يحصل من الصحبة إلا النفرة لعدم المجانسة.

قوله تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [المائدة: 61].

يعني: إنكم تغترون بظواهرهم مما قالوا: آمنَّا فتظنون أنهم مخلصون في إيمانهم؛ لأنكم إنما تحكمون بظاهر الحال، ولا تعلمون باطنه؛ بل الله يعلم ما يكتمون، ويسرِّون من الكفر؛ فهم مؤمنون عند الناس، وكفار عند الله، وقولهم: آمنا لا اعتداد به في الحقيقة.

هذا وللآية معنى آخر من طريق الإشارة وهو: إن المراد بمجيئهم: دخولهم في عالم العين الخارجي، ووصولهم إلى حدِّ التكليف الشرعي، فهم بسبب أنهم طُبِّعوا قد دخلوا في هذا العالم بالكفر الذاتي الأصلي الذي هو في علم الله بحيث لا يتغير أصلاً؛ ولذا خرجوا من هذا العالم بالموت الطبيعي مع ذلك الكفر؛ لأن السعادة العارضة لا تُؤثِّر في الشقاوة الذاتية بالتغيير، والعبرة بالخواتم، فإذا كانت الخاتمة على الكفر؛ وهي مرآة الفاتحة؛ كانت الفاتحة على ذلك، وإن كانت مكتومة مستورة علينا.

والله أعلم بهذا الأمر المكتوم؛ يعني: يعلم أن سابقتهم الكفر، ولو بالقوة؛ إذ لا إيمان ولا كفر لا في عالم الأرواح، ولا في عالم العلم، وإنما ظهر ذلك في عالم العين الخارجي بأسباب مخصوصة.

فإذا كانت السابقة هي الكفر؛ فلتكن الخاتمة أيضاً كذلك؛ لأنه لا يجوز التغيُّر في لوح القضاء والقدر، فظهر أن الناس مَن هو مؤمن عند الله، وعند الناس، ومنهم مَن هو مؤمن عند الناس لا عند الله، ومنهم مَن هو مؤمن عند الله لا عند الناس، وكذا حال الكفر فاعتبره.

ثم في الآية معنى آخر حقيقي يذوقه المحققون وهو: أن المراد بالنفاق؛ هو

النفاق الأكبر الحقيقي، وهو أن يكون للمحقق وجه في كل مظهر من المظاهر، وفي كل مذهب من المذاهب؛ لجمعية نشأته من حيث إنه إنسان أكمل، فهو يقول في الظاهر: آمنا؛ لكنه يريد به الإيمان الرسمي الحجابي، فيظنُّ الناس أن إيمانه كإيمانهم مع وجود الفروق بينهما، فإن أحدهما إيمان عن عين، والثاني إيمان من وراء حجاب، وقد دخل في عالم العين بالكفر الحقيقي؛ الذي هو الكفر بالطاغوت، وستر الوجود المجازي بالوجود الحقيقي؛ وهو الذي يُقال له: التخلُّص عن شوائب الغيرية، كما هو صفة المخلَص بالفتح.

وقد خرج بهذا الكفر أيضاً، والناس لا يدرون ما إيمانه، وما كفره، والله أعلم بالأمر المكتوم فيه، فعليك بالكفر قبل الإيمان؛ ليصادف الإيمان محلاًّ خالياً، وإياك والإيمان قبل الكفر؛ فإنه لا يثبت بحال، فإذا كنت أنت من أهل الكفر، والإيمان الأول؛ كنت منافقاً بالنفاق الأكبر، فلك وجه في كل شأنٍ، ولا يعلم حالك إلا الرحمن.

ومن هذا المقام كانت الطائفة الشهيرة بالملامية يحضرون مجالس اللهو ونحوه؛ ليطالعوا سرَّ الغيب، وصور القضاء، والقدر في عالم العين الخارجي، ويطَّلعوا على أن العلم ليس إلا على هذا العين، والناس إذا رأوهم في تلك المجالس؛ يظنون بهم ظنَّ السوء، ويقولون: إنهم من أهل الملاهي، وأين هم من ذلك؟

فإنهم غائبون بأرواحهم، حاضرون بأشباحهم، معلومون بصورهم، مجهولون بحقائقهم؛ لأنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فكيف تدركهم العقول، ويدخل فيهم الشعور؟ ولذا ورد: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[1].

ومن جملة تلك القباب حضورهم في مجالس أهل الغيبة، فإن الله تعالى جعل ذلك من أسباب سرِّهم.

وفي ذلك تلوين التمكين حيث إن الله أراهم على كل صورة في الدنيا من حيث تلوُّن تجليَّاته، وعُرف من ذلك أن أهل السرِّ والبطون أقوى في الحال والمقام من أهل الكشف والظهور، إذ لا يجوز للعبد أن يظهر في صورة الرب لِما فيه من

(1) أورده الجرجاني في التعريفات، رقم (1474) [1/ 295].

اختلال المراتب، ولم يذقه إلا الندر، فإن الناس لهم حرص عظيم على ظهور خوارق العادات من قول مَن قال[1]:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

يستلزم أن يكون اعتقاد المحقق كاعتقاد المقلِّد، وإيمانه كإيمانه، وعمله كعمله.

فالعلم يدخل في كل باب من أبواب المساجد والكنائس، والعمل لا يدخل إلا في باب الأول، فإنه ليس للعبد الإطلاق في العمل، وإلا ما جاء الشرع فلا بد من الوقوف عند الشرعي العملي.

وأمَّا الاعتقاد ففرق بين اعتقاد واعتقاد، فالمقلِّد يعتقد أن الصنم إله، ويخطىء في نسبة الأُلوهية إليه، والمحقق يعتقد أن الصنم ليس بإله من حيث النسبة التي هي لله تعالى، وإلا كان الإله متعدِّداً؛ بل يعتقد أن الصنم مُظهر الاسم المضلِّ يضلُّ الله به الخلق، ولا جرم أن كل الأشياء أصنام وغيرها موجودات، ولا بد لكل وجود من مُوجد متجلٍّ فيه ببعض الأسماء المناسبة بحاله.

وذلك الاسم منسوب إلى مَن له الأُلوهية الحقيقية، فلو عرف عابد الصنم هذا المعنى؛ ما عبده غافلاً عن عبادة الله تعالى؛ بل كان يرفض تلك النسبة، ويطرحها عنه مستغرقاً في شهود الحق تعالى، وقصر العبادة عليه، فإذاً الاعتقاد في الأشياء اعتقاد في الأسماء، والاعتقاد في الأسماء اعتقاد في المسمَّى، والاعتقاد في المسمَّى

(1) القائل هو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وهو أحد عدة أبيات ذكرها الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية في الباب الخامس والثلاثون وثلاثمائة في معرفة منزل الأخوة وهو من الحضرة المحمدية الموسوية وجاءت الأبيات كاملة على النحو التالي:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه
لما بدا صوراً لهم متحولا قالوا بما شهدوا وما جحدوه
ذاك الذي أجنى عليهم خلفهم بجميع ما قالوه واعتقدوه
إن أفردوه عن الشريك فقد نحوا في ملكه ربا كما شهدوه
فقد أعذر الشرع الموحد وحده والمشركون شقوا وإن عبدوه
وكذاك أهل الشك أخسر منهم والجاحدون وجود من وجدوه
والقائلون بنفيه أيضاً شقوا مثل الثلاثة حين لم يجدوه
أجنى عليهم من تأله حين ما أهل السعادة بالهدى عبدوه

هو الرجوع إلى التوحيد، ولا يحصل إلا عن علم كامل، فعليك بطريق هذا العلم، وكن واصلاً إليه بلا إلحاد في الاعتقاد والعمل حتى تكون محققاً في هذا الشأن.

والمحقق لا يحمل أمثال هذه الكلمات على الإلحاد؛ بل يعرف النكات فيها، والحقائق المشتمل هي عليها، فيراعي الظواهر والبواطن في مراتبهما، ومن حُرم عين التحقيق؛ فليبتغ الوسيلة كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [المائدة: 35].

فانظر كيف قدَّم التقوى على ابتغاء الوسيلة؛ لأنه أصل أصيل في كل شأن؛ والمراد بالوسيلة وهو صاحب التسليك، وهو الذي يقدر على حل مشكلات السالك في كل طور من الأطوار، وقد يكون الوسيلة العشق ـ بالكسر ـ وهو إفراط المحبة، فإنه رابطة قوية بين المحبِّ والمحبوب إلى حين الوصول، ثم عند الوصول يزول ذلك ويفنى، ولا يبقى إلا المحبة الحقيقية المعتدلة فاعرف.

وقد بقي في مرتبة العشق كثيرون؛ لأنه مقام قاب قوسين قبل الوصول إلى أو أدنى، فإذا حصل الوصول إلى أو أدنى، وتحقق الرجوع منه إلى قاب قوسين؛ فهو صاحب قاب قوسين أو أدنى جميعاً وله الحقيقة الجامعة، والمشهد الأعلى، والمنظر الأجلى، فإنه الذي يجد لذَّة النظر إلى الوجه الكريم، والله تعالى لا يُوصف بالعشق؛ لاعتدال صفاته، وقد يُوصف بأشدِّية الحب التي هي في معنى العشق؛ لكنها تُحمل على التأكيد الذي ما له نهاية المحبة.

ثم الناس عاشق، وعارف، ومحقق؛ فالعاشق؛ قد يكون أدنى حالاً من العارف؛ لأن العشق لا يُعطي بذاته كمال المعرفة التي هي المقصود بالذات، والمحقق فوق العارف؛ لأن العارف قد يكون غير واصل إلى ما وصل إليه المحقق، فالمحقق أقوى في المعرفة من العارف الغير الواصل لأن المعرفة الحقيقية هي التي تحصل بعد التجلِّي العيني إذ لا خيال فيها، وإنما ترد من التجليَّات العينية بخلاف التجلِّي العلمي، فإن أهله قد يخطىء وقد يصيب.

ولذا لا يجوز له أن يُنصِّب نفسه في مقام الإرشاد، إذ الغائب لا يقدر أن يرشد الغائب إلى الحاضر، وقد كثر أربابه في كل عصر من الأعصار، وباب الدعوى مفتوح، والداخل فيه مجروح.

لطيفة: وقد ظهر لي في بعض المشاهد أن الإمام أبا حنيفة من العارفين وأن الإمام الشافعي من الواصلين، وقد ذكرنا الفرق في غير هذا المحل، وقد توجَّه

بعض أهل الكمال ممن هو على طريقتنا الجلوتية ـ بالجيم ـ فرأى أن الإمام أبا حنيفة دخل في بحر، فلمَّا توسَّطه؛ رُدَّ على الساحل؛ يعني دخل في بحر الحقيقة، إذ ما يُحكى عنه من مشاق العبادات، وحقائق التقوى، وشدائد الأحوال؛ يُعطي الغوص في ذلك البحر، كما ذهب إليه الإمام الغزالي في الإحياء.

وأمَّا إنه لم يصدر عنه كلامٌ يتعلَّق بالحقائق، كما صدر عن الشافعي؛ فذلك وهمٌ من الغزالي، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في شرحنا على نخبة الفكر في أصول الحديث.

وأمَّا ردُّه إلى الساحل؛ فردٌّ من الفناء إلى البقاء لإرشاد الناس في مرتبة الاجتهاد، فقد انتفع بعلمه وفقهه مَن عاصره، ومَن بعده، وكان الناس عياله في ذلك، كما صرَّح به الإمام الشافعي.

ولا شك أن مرتبة الإرشاد أرفع من درجة الوقوف في مقام الفناء مع الله تعالى، وذلك أن تلك المرتبة مرتبة التبليغ؛ وهي مرتبة الأنبياء والورثة، ومن ثم رُجِّح المحدِّثون على الفقهاء؛ لأن الفقيه إنما يستدلُّ بحديث المحدِّث فالمحدِّث أهل التبليغ، والسلسلة، بخلاف أكثر الفقهاء، فظهر أن كون الإمام أبي حنيفة من العارفين؛ إنما كان بعد الوصول لِما ذكرنا من تلك المعرفة بعد الوصول أقوى مما كان قبله.

ولا ينبغي أن يُظنُّ بالمجتهدين الظنَّ السوء، وقد جاء على المذاهب الأربعة الأولياء المحققون، ومن البعيد أن يكون المتبوع أنقص حالاً من التابع، فرئيس الأولياء الحنفية؛ هو أبو حنيفة، وهكذا وإن كان هنا يقال آخر؛ وهو أن التقلد بمذهب من المذاهب أمر صوري، ناظر إلى ظاهر الشريعة، وللمحققين في باطن الحال أمر آخر؛ وهو طريق الإطلاق، والمشي من وجه مخصوص جامع إلى الله تعالى، فذلك لا ينافي التمذهب بمذهب معين في الظاهر.

وقد غفل عن هذا أكثر مَن يُعدُّ من العارفين؛ فظنوا أن الأئمة الأربعة لم يصلوا إلى مقام الحقيقة وأن أهل الحقيقة لا يتقلَّدون بمذهب من المذاهب، فذلك الظن من قصور المعرفة، ونقصان الحال.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [المائدة: 64].

هذه الآية عبارة عن: إيقاد الكافرين نار الحرب بأيديهم، وإيقاد المنافقين بألسنتهم؛ فيطفئها الله بإزالة الأذى الحسِّي عن ظواهر المؤمنين.

وفيه إشارة إلى الحرب المعنوية التي يُوقدها المؤمنون في بواطنهم؛ وهي الاضطراب والتزلزل في مواقع القهر والجلال، فإن الوقوف معه كالحرب مع الله؛ لعدم الاطمئنان والتمكين فيطفىء الله هذه النار بإزالة الأذى المعنوي عن قلوب المؤمنين بإظهار اللطف والجمال، فإنه تعالى يقبل التوبة؛ بل يقبل على عبده؛ ليتوب، ويرجع إليه، فإنه أرحم به من كل رحيم.

وفي: (كلما): إشارة إلى أنه بين الخوف والرجاء، ولا يزال على تلك الحالة إلى أن يحصل له كمال الرضاء في مقام التمكين؛ فإنه نهاية مقامات الصفات، كما أن التوكُّل نهاية مقامات الأفعال، والفناء نهاية مقامات الذات.

فمَن صحَّ توكُّله ورضاءه، وفناءه، وفي المقامات الثلاثة؛ انطفأت نيرانه، وبردت حرارته، وكان مع الله على كمال رضى واطمئنان، وصفوة بال في كل حال من الأحوال في كل هذا من الصعوبة ما لا يُخفى.

وفي قوله: (نار) إشارة إلى هوى النفس، فإن النار ناران: نار النفس وهي الهوى، ونار الطبيعة؛ وهي الشهوة، وفي كل منهما حرارة للقلب، والنفس، والطبيعة أية حرارة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل السلام لا من أهل الحرب، إنه بعباده رؤوف رحيم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ﴾ [المائدة: 105].

يعني: واظبوا على خدمة الحق تعالى بأنفسكم، ولمَّا كان لفظ (عليكم) يُقارب في الرسم لفظ عملكم؛ رُسم لي، كذلك في بعض الأسحار، فرأيت عليكم مقروءاً به، وبلفظ علمكم؛ يعني: عليكم علمكم أيضاً بالعمل بموجبه، فمَن لم يعمل بموجب علمه؛ لم يفلح أبداً، وكذا مَن كفر بما أنزل الله عليه؛ لم يفلح أبداً.

والمراد: (بما أنزل الله) ما يرد قلوب المكاشفين سواء كان من الآيات القرآنية أو غيرها، فإن المنزَّل هو الكلام الإلهي في أيَّة لغة ورد.

والمقصد منه أنه لا بد من الاجتناب عن الشكوك، والظنون، والأوهام، والخيالات، فإن الله لا يقول إلا الحق، والموعود يكون البتَّة سواء طال زمانه أو قصر، فلا بد من الصبر، وقد يُنزِّل بعض الأمور؛ ولكن لا يكون من قبيل المُحكمات؛ بل من طريق المتشابهات، فيحتاج إلى التأويل، ولا يعلم تأويله إلا الراسخون في العلم، وهذا من مزالق الأقدام، كم من قدمٍ زلَّت فيه، ومَن مشى على

المراتب؛ أمن من العثار، والله الحفيظ لعباده، والوصول إلى المنزِل لا يكون إلا بهديه وإرشاده والعبد بيده في الصباح والمساء، فعليه بالترجِّي لعلَّ وعسى.

وقال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَكَاْمَوْنَهَاجِرًا إِلَى وَٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ وَأَنفِقُواْ﴾ [المائدة: 117].

لم يقل: ما بلغتهم أنا إلا ما أمرتني به أنت؛ ليحصل الفرق بين قومه، وبين هذه الأمة المرحومة، فإن الله تعالى إنما خاطب قوم عيسى عليه السلام بواسطة عيسى عليه السلام بخلاف هذه الأمة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْآخِرَةِ ٱللَّهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ حيث لم يقل: قل لهم: يا أيها الناس ونحو ذلك.

فشرَّفهم في بعض المواضع برفع الواسطة صورة، وإن كان ذلك مقولاً على اللسان النبوي في الحقيقة؛ فصار كقوله: (يا أيها النبي، يا أيها الرسول) وفي ذلك رفع لمنزلتهم، وتنويه بشأنهم، وتلويح لكمال استعدادهم، ورمز إلى أن أكامل الإنسان قد يأخذون من الله بلا واسطة خلافاً للفلاسفة فإنهم ذهبوا إلى وجوب الواسطة؛ لأن ترتيب الكائنات، وسلسلة الممكنات يقتضي ذلك بصورتها، وهو باطل.

كما أشار إليه قوله ﷺ: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل**»[1].

وما ورد: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ . . . إلخ[2]، وبعض الآيات نزلت ليلة المعراج بلا وساطة الملك، فإذا ثبت هذا المقام للمتبوع؛ فقد ثبت لبعض التابع أيضاً إذ لا قائل بالتخصيص.

ومنه قوله تعالى للشيخ محيي الدين بن العربي قُدِّس سرُّه: أكبر مشهدي، فسُمِّي الشيخ الأكبر، وسرى ذلك إلى بعض أولاده المعنوية، فسُمِّي الولد الأكبر، ثم إن المأمور به إمَّا قول، وإمَّا فعل، وكلاهما داخل في التفسير وهو قوله ﴿وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ﴾ [المائدة: 117].

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2159) [2/ 226].

(2) رواه البخاري في صحيحه باب 57 «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه» حديث رقم (4272) [4/ 1652] ورواه مسلم في صحيحه، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، حديث رقم (125) [1/ 115] ورواه غيرهما.

فإن العبادة الشرعية التكليفية مَنوطة بكلمة التوحيد، والعبادة من الأفعال، كما أن الكلمة من الأقوال، وعليه قوله تعالى في أوائل سورة البقرة: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وذلك أن القوم كانوا عبدة الأصنام؛ فنهاهم الله تعالى عن عبادتها لِما فيها من الشرك، وأمرهم بعبادته لِما فيها من التوحيد.

إذ لا يخفى أن من عبد الله تعالى وحده مخلصاً له الدين، فهو إنما يُبنى ذلك على كلمة التوحيد، وإلا لم يعبده؛ فكأنه تعالى يقول: وحِّدوا الله تعالى، واعبدوه وحده؛ فإنه واحداً بالذات، فهو المستحق للعبادة، وذلك نظير قول بعضهم:

إن الكفار مخاطبون بالفروع أي: بعد الاتصاف بالأصول، فيعاقب على ترك كل من ذلك، فإن الشيء إذا ثبت؛ ثبت بلوازمه.

ثم إن العبادة: إمَّا تكليفية؛ وهي المأمور بها على ألسنة الرسل، وإمَّا ذاتية؛ وهي العبادة الفطرية، فالثقلان مأمورون بالعبادة التكليفية؛ امتحاناً لهم من الله تعالى لِما فيهم من الدواعي التي تنازعها، فهم المخصوصون بإرسال الرسول.

وأمَّا الملائكة وسائر الكائنات من ذي روح وغيره فعبادتهم فطرية ذاتية إذ لا تقتضي ذواتهم التكليف؛ لارتفاع الموانع عن العبادة دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ﴾ [الإسراء: 44] أي: يسبِّح لله، وينزِّهه عن التقيُّد بالوجودات الحادثة، فإنَّه الآن على ما كان عليه قبل، وبحمده تعالى على نعمة الوجود، فله التقرُّب إلى الله بكل ما يمكن إلا القربان؛ فإنه مخصوص بالإنسان.

ولذا وجب الحقيقة في بعض المذاهب، وقوله: ربي وربكم، إنما لم يكتفِ بالثاني نفياً للمعبودية عن نفسه، كما زعمها بعض قومه، وإليه الإشارة في هذه الشريعة بقولنا: وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، فجميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عباد الله المرسلون إلا أن بعضهم أقرب إليه كما زعموا؛ وذلك لأن الإله لا يكون مرسَل ـ بفتح السين ـ فاعرف.

❊ ❊ ❊

{سورة الأنعام}

قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 62].

اعلم أن الحكم خطاب الله تعالى في عباده بالأمر والنهي، والثواب والعقاب، ودلَّ تقديم الجار والمجرور على تخصيصه به تعالى؛ والمراد بالضمير هو الهويَّة، ولا شك أن الهويَّة الساري سرُّها في العوالم كلها هُويَّة واحدة لا تعدُّد فيها إلا باعتبار تعدُّد الماهيات، والحقائق.

وهذا التعدُّد الاعتباري لا ينافي الوحدة الحقيقية، كما أن نور الشمس نور واحد في الحقيقة، وإن تعدَّدت مطارحه، وتفرَّقت أطواؤه[1]، وله أمثلة كثيرة لا تُحصى، ولتوحُّد الهُويَّة؛ توحَّد الحكم في العالم روحاً وجسداً.

أمَّا روحاً: فلأن الله تعالى لمَّا تجلَّى بالنور المحمَّدي، وأظهره من بطون الغيب؛ نصَّبه ملك الملكوت على الأرواح، وكذا دعاهم إلى المبايعة، وكلمة التوحيد، كما يدعو السلطان إلى مبايعته، وتوحيد الكلمة في حقه، فإنه إنما يُضلُّ مَن ضلَّ من التفرُّق.

وقد قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213].

فكانوا أمةً واحدةً في الأرواح بلا تفرُّق؛ إذ لم يكن هناك دواعي الهوى، ونوازع التفرُّق، وكذا كانوا أمةً واحدةً في أوائل خلافة آدم عليه السلام، ثم لم يزل الأنبياء على الاتفاق في الأصول؛ ولذا كان الكُمَّل على آثارهم ظاهراً وباطناً؛ لأن المنبع واحد لا يختلف، فظاهره العدل؛ وهو الميزان القسط، وباطنه الفضل؛ وهو الفيض الكلِّي.

فكان اتفاقهم بحيث لم تختلف كلمتهم لا في باب العدل، ولا في باب الفضل؛ بل اتفقت الألفاظ أيضاً؛ لرجوعهم إلى أصل واحد بخلاف حال غيرهم ممَن هو دونهم؛ لاختلافهم في الأسماء، وكون أسمائهم من الأسماء الجزئية؛ فكان

(1) أطواء الثوب والصحيفة والبطن والشَّمم والأمعاء والحيَّة وغير ذلك: طرائقه ومكاسر طيّه. (لسان العرب).

التجلِّي الكُمَّل من حيث أسماؤهم الكلية فوق التجلِّي لغيرهم من أهل الأسماء الجزئية؛ ولذا اتفقت كلماتهم، واختلفت كلمات غيرهم.

والحاصل أن المنهل وإن كان واحداً عذباً لكن الواردين على مشارب مختلفة، فلم يتغيَّر العلم إلا من المشارب، كما لم يتغيَّر الماء إلا من اختلاف الطريق روحاً.

وأمَّا جسداً فلأن آدم كان خليفة الله في عصره، ولم يزاحمه أحد في ذلك؛ فهو خليفة الله من حيث المنصب، وخليفة نبينا ﷺ من حيث الفيض؛ لأنه مستفيض من باطن روحانيته كسائر الأنبياء.

وأمَّا التعدُّد في بعض الأوقات كما يُحكى أن نبياً غير واحد كانوا يدعون إلى الله في عصر واحد؛ بل في بلدة واحدة، فذلك يرجع إلى حقيقة، ودعوة واحدة، فالتعدُّد في ذواتهم لم يكن منافياً لتوحد كلماتهم، واتفاق دعواتهم، فهم كنبيٍّ واحد، وكلُّهم كانوا ورثة الخلافة المحمَّدية لِما ذكرنا من وحدة الأصل.

فهذا السرُّ الوحداني راجع إلى وحدة وجوب الوجود، فكما أن واجب الوجود واحد؛ فكذا المظهر مظهر واحد في الحقيقة، وإن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد في الصورة، ثم يتفرَّع ذلك إلى فروع متعددة، بذلك صحَّ الحكم بأن الواحد يصدر عنه المتعدِّد، كحال المركز في الدائرة مع النقاط الكثيرة فيها، ثم إن ذلك المظهر إن اعتُبر فيه الوصف الزائد؛ فهو نبي وإلا فسلطان.

فالسلطان أيضاً يجب أن يكون واحداً بحيث إذا بويع الخليفتان؛ يجب أن يُقتل الآخر، فجميع الملوك الإسلامية يرجع حكمها إلى حكم الملك الأعظم منهم، ولا اعتداد بملوك الكفار؛ لأن أموالهم وأراضيهم في الأهل الإسلام في الحقيقة، فهم المتغلِّبة لا الملوك على أن بعضهم نواب الحق؛ لعدالتهم نحو أنوشروان فافهم جيداً، اللّهم عافنا من الظلمة ما أهل إليه قطعاً.

ولذا قال الله تعالى ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا أَسْرَىٰ وَلِلَّهِ﴾ [المائدة: 62].

اعلم أن الاسم الله المعروف لا يُطلق إلا على الله خاصة كما قال تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [مريم: 65].

بخلاف المنكر فإنه قد وقع إطلاقه على غيره كما قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ أَهۡلِكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ﴾ [القصص: 38].

فالمنكر إله حق؛ وهو الله المعروف، وإله باطل؛ وهو ما يعبدونه من دون الله؛ ولذا ورد: «**لا إله إلا الله**» أي: لا إله حقاً إلا الله.

فإن قلت: فإذا كان المعرَّف لا يُطلق إلا على المولى الحق؛ فما معنى الإبدال بالمولى الحق.

قلت: لإرادة التصريح بالحقية؛ ليؤذن بأن مولاهم الذي يعبدونه من دون الله؛ هو المولى الباطل.

والباطل لا يكون مولى، ولا يستحق لأن يُعبد؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 11]؛ يعني أن ما يعتقدونه مولى وناصراً في الحقيقة؛ لكنه مولى وناصراً للمؤمنين؛ لأنهم نسبوا الأُلوهية إلى مَن هي له، فنسبتهم نسبة غير صحيحة؛ بل فاسدة باطلة؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48] أي: لأن الغفر والستر إنما يتعلَّق بالموجود، ولا وجود للشرك إلا في الوهم، فكيف يغفره الله؟ ثم قال: ﴿ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النور: 39] أي: لأن الوجدان لا يتعلَّق إلا بالموجود، والله تعالى موجود أزلاً وأبداً، فمَن فرَّ منه؛ فلا يجد شيئاً حيث فرَّ إليه إلا الله.

ولذا قال تعالى ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [الأنعام: 62]، مع أنهم مردودون إلى الله على كل حال، وهو تعالى معهم أين ما كانوا؛ لكنهم لا يعرفون ذلك، فيظنون أنهم مع غيره، وهي الأسباب والوسائط حتى إذا زال ما في البين، وبدا للعين العين؛ تحققوا أنهم مع الله، فهذا إنما ينفع، وهم في الدنيا، فإنهم في الآخرة مكاشفون للحقائق؛ لكن لا ينفع لهم ذلك.

ولذا قال تعالى: ﴿أَنفُسِهِمْ لَوْ كَفَرُواْ ٱللَّهَ ٱسْتَغْفَرَ﴾ [الأنعام: 24] أي: حين ما شهدوا الحق وكاشفوا عنه.

والحاصل: أن التعبير بالردِّ في هذه الآية، وبالرجوع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]؛ إنما هو باعتبار الحجاب، والوقوف عند الوسائط لا باعتبار الكشف والوصول، فإن المكاشف يعرف إنه مع الله على كل حال، فكيف يُردُّ المردود، وهو من تحصيل الحاصل؟ ومن ثم قيل: قيامة العارفين دائمة.

وحملوا قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4] على اليومين جميعاً؛ لأن الدين هو المجازاة، والله تعالى لم يزل يُجازي عباده في الدَّارين، نعم

إنه قدير، والعبد من اسم إلى اسم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ﴾ [مريم: 85].

فإن المتقين، وإن كانوا محشورين إلى الله في الدنيا؛ لكن حشرهم ذلك قد يكون بحسب الأسماء الجلالية؛ كالقهَّار، والقدير، والمريد ونحو ذلك؛ لأن موطن الدنيا ممتزج بالنور، والظلمة، ومختلط باللطف، والقهر.

وأمَّا في الآخرة فيحشرون إلى الرحمن، وهو اسم لا يقتضي الجلال والقهر؛ بل الجلال واللطف، فهم وإن كانوا مع الله في جميع الأحوال؛ لكن فرق عظيم بين كونهم مع الاسم الرحمن، وبين كونهم مع غيره من الأسماء الجلالة، وبه يظهر صحَّة السفر من الله إلى الله فاعرف.

❊ ❊ ❊

{سورة الأعراف}

قال الله سبحانه حكاية عن إبليس: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ [الأعراف: 17].

أي: من طرق الأبديات، والأزليات المتعلِّقة بالمعاد والمبدأ، فالآخرة داخلة في الأبديات، والدنيا في الأزليات؛ لأن الأولى أبدية نسبية ليست بأبد الآباد، والثانية أزلية إضافية أيضاً ليست بأزل الأزال.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ﴾ [الأعراف: 17] أي: الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة.

لأن الأولى: مظهر الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [التحريم: 8].

والثانية: مظهر الشمائل.

ولذا لم يكن للفجّار، والكفار نورٌ إذ لا يمين لهم آخذة بالطريقة اليمنى للعرش؛ بل لهم شمال آخذة بالطريقة اليسرى له، ويسار العرش أكوان ظلمانية، كما أن يمينه آثار نورانية، فكل فريق يهتدي في الدَّارين للطريق السالك فيه، إمَّا بإرشاد اللَّه تعالى، أو بإضلال إبليس.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ تَعۡلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَىٰ﴾ [الآية: 17].

أي: على نعمة الوجود وما يتفرع عليها، والأكثر بحسب الكمية، فإن أهل النار تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف؛ وهم الكفار من الإنس والجن كما قال تعالى ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 179] لكن ترك الشكر قد يكون بترك الإيمان؛ وهو حال الكفار، وقد يكون بترك الطاعة؛ وهو حال الفجَّار، وقد يكون بترك العزيمة؛ وهو حال ضعفاء الأبرار.

فإن المقرَّبين شاكرون الله تعالى على أبلغ وجه حتى إن بعضهم وقع له الحدث يوم موته سبعين مرة؛ فجدَّ الوضوء في كل عسرة حتى مات وهو على الطهارة، فاعتبر لعلَّك تفلح وتفوز، ﴿وَإِمَّا ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِي جَوۡفِهِۦ وَلَا

ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأعراف: 200] فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال تعالى ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ﴾ [الأعراف: 40].

اعلم أن الآيات إمَّا تنزيلية؛ وهي القرآن، والذين كذَّبوا بها هم كفار بالشرائع والأحكام.

وإمَّا تكوينية: وهي الآفاق، والأنفس جميعاً، والذين كذَّبوا بها هم كفار الحقائق والحكم؛ كالمنكرين في كل عصر من الأعصار، فإنهم لاحتجابهم عن شهود الحق من شواهد التوحيد، ومشاهد التكوين؛ وقعوا في أهل الله، وكلماتهم المتعلِّقة بحقائق الآيات مطلقاً، فمَن جادلهم في ذلك؛ فقد جادل الحق في آياته، ودخل في المكذِّبين بها.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ [الأعراف: 40] أي: عن تلك الآيات أي: بالإباء وعدم القبول، والتصديق لأهلها، فإن أدنى الأمر في ذلك التحلِّي بحلية التصديق، وإلا خيف عليه من سوء الخاتمة.

وأهل سوء الخاتمة لا يدخل الجنة، ولا يفيض الله عليهم من مائها؛ ولذا قال تعالى ﴿رَّحِيمًا أَسۡرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 40] أي: بركات الفيض، فإن الوحي إنما ينزل من صوب السماء، وإن كان سرُّه يبدو من القلب في الحقيقة؛ إذ هو اللوح الحقيقي، فلا شيء للقلب من الخارج في الحقيقة، وإنما ينزل ما ينزل من جانب السماء لجهة التشريف، فإن المقامات مختلفة في العُلو، والسفل، والكلي مراء لتجلِّي الصور بحسب موطنها وتعيُّنها.

قال تعالى: ﴿ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن﴾ [الأعراف: 40] أي: جنة القلب، قدَّم الفتح على الدخول؛ لأنه طريقه، وقد قال تعالى: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: 189]؛ فالقلب الخالي عن الفيض؛ لا يكون جنة؛ ولذا رُجِّحت الجنان الأرضية على غيرها؛ لاشتمالها على الأنهار الجارية.

ولا شك أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، فما لا ماء فيه من البلاد؛ فهو كالميت، فكذا ما لا فيض فيه من القلوب.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِي﴾ [الأعراف: 40]، علَّق ذلك بأضيق شيء، ودخوله تعليقاً بالمحال.

ولا شك أن المعلَّق مُحال، فالفتح والدخول مُحال، وفي ذلك وعيد شديد

لأهل الإنكار والإصرار، والواقعين في الأخيار والأبرار بتكذيب كراماتهم العلمية، وآياتهم العرفانية.

وفيه إشارة إلى أنهم كالجمل في الضخامة حيث إنهم يربُّون أجسامهم بالشهوات، وقلوبهم بالإنكار، وأرواحهم بالجهل والحجاب، فكما أن الجمل وهو في تلك الضخامة لا يمكن أن يدخل في سَمِّ الخياط، وهو في تلك الدقة والضيق؛ فكذا كفار الحقائق لا يمكن أن يدخلوا في باب الملكوت؛ لضيقه، ولا أن يسلكوا على صراط المعنى؛ لدقته؛ بل أرواحهم المظلمة تبقى بعد الموت الطبيعي في جو الهواء؛ كأرواح غيرهم من الفجرة؛ بل الفجور المعنوي المتعلِّق بالقلب أشدُّ من الفجور الصوري بالقالب، وكم من ساقطٍ من أهل الفجور الأول في غاية الأمر، وقائم من أهل الفجور الثاني في نهاية الحال، وقد رأينا في زماننا كلاًّ منهم.

فقد اشتهر بعض الناس بالتقوى، والعمل بالشرع، وقد صدر عنهم ما صدر عن أبي جهل ونحوه؛ لكون قلوبهم قلوب الذباب، ورأيناهم بعد الموت في البرزخ، والورطة، وكمال الحجاب، واشتهر بعض الناس بخلاف ذلك، ثم صاروا إلى مقام الرضا؛ لكون قلوبهم خالية عن القصد بالسوء والأذى.

فالطائفة الأولى: لعنهم اللَّه في الدنيا والآخرة؛ لكونهم ممَّن أذى الله ورسوله، وورثة رسوله.

والثانية: رحمهم الله في الدَّارين؛ لكونهم مَن أحب الله ورسوله، وورثة رسوله.

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ [المائدة: 54]، وقد وصل بعض الناس إلى الله تعالى من طريق المحبة، فإن للوصول طرقاً مختلفة.

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ﴾ [الأعراف: 96].

أي: في مقابلة الإيمان؛ لأن الفيض إنما ينزل من العُلو، والقلب عُلوي كما مرَّ؛ فكان المناسب للعُلوي المتصف بالإيمان العُلوي البركات السماوية العُلوية، فكما أن الأرض إنما تنمو بالماء السماوي؛ فكذا القلب إنما ينمو بالفيض العُلوي، واستند الفتح على نون العظمة؛ لأن الأسباب مهيَّئة لا مؤثِّرة؛ فالفاتح هو الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿ لَاَ﴾ [الأعراف: 96] أي: في مقابلة التقوى؛ لأن التقوى من شأنه أن يوجد في الأرض كما سبق.

قال تعالى: ﴿تُلْقِلُوَيْدِيكُمُ إِلَى﴾ [الأعراف: 143].

أي: قال الله تعالى لموسى عليه السلام حين طلب الرؤية: لن تراني يا موسى وأنت موسى؛ وإنما تراني إذا كنت محمداً، ولن تكون محمداً أبداً؛ لوجوب اختلاف التعينات بالحكمة؛ فهو أي: محمد ﷺ يراني ببصره وببصيرته؛ لأنه لا حجاب له من كون لا جسماً ولا روحاً؛ لأن اللطيف لطفه، وجُعل نوراً محضاً، كما قال: «**واجعلني نوراً**»[1]، وأنت يا موسى تراني ببصيرتك في الدنيا، وأنا رؤيتك ببصرك، فلا تحصل لك إلا في الآخرة، كما لسائر المؤمنين.

ولذا قال: ﴿وَلَوْأَنَّهُمْ إِذ﴾ [الأعراف: 143] أي: بوقوع الرؤية في الآخرة لا في الدنيا، وبالبصيرة لا بالبصر.

فإن البصر قيد؛ والقيد لا يزول، لقوة العناصر والأركان، وأمّا محمد ﷺ، فبصره ليس بقيد له؛ ولذا كان يرى من جميع الجهات، وهو في الصلاة؛ للمجازاة الإلهية، والله تعالى وجه كل لا قفا فيه، فكذا محمد؛ لأنه مظهره التام، ومجلاه الكامل؛ وهو القمر ليلة البدر إن عُكس إليه نور الشمس الذات؛ فامتلأ به.

وأمَّا النجوم؛ فقد أخذت أنوارها من القمر بقدر استعدادتها وصفائها في جرمها، ودلَّ على هذا الكمال قوله ﷺ يوم القيامة: «**أُمتي أُمتي**»[2]؛ لأنه لا حجاب له أصلاً، وأمَّا غيره فيقولون: نفسي نفسي.

ولمَّا كان كمال المتبوع سارياً في التابع؛ كان أكامل الأمة أيضاً كذلك؛ لأنهم أيضاً أهل التجلِّي الذاتي، ولا يلزم منه فضلهم على الأنبياء؛ لأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الأولياء والحال لا تُوصف، ولسان الشرع لا يدور إلا بهذا القدر، ولا يجري إلا على مقتضى استعداد أهل العصر.

فظهر أن الله تعالى مشهود أبداً؛ لكن من مرآة رداء الكبرياء الذي هو وجود العبد، وبعد شهوده، فالمشاهدون على تفاوت الدرجات في ذلك حسب تفاوت درجات البصر في الظاهر، فشهود بعضهم أقوى من شهود البعض؛ لكونه بالبصر وبالبصيرة جميعاً، كما لحضرة النبوة.

---

(1) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (763) [1/ 528] ورواه أحمد في المسند عن ابن عباس برقم (2567) [1/ 284] ورواه غيرهما.

(2) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحع، حديث رقم (7072) [6/ 2727]، ورواه مسلم في صحيحه، باب أدنى أهل الجنة منزلة، حديث رقم (193) [1/ 182] ورواه غيرهما.

ولمَّا كان كل من الحجاب والكشف يُورِّث الحيرة؛ كان المحجوب في حيرة؛ هي حيرة ممدوحة؛ لكونها حيرة تلوين بعد الكشف والتمكين، فبين الحيرتين تفاوت عظيم، كما بين التلوينين.

ومنه يُعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198].

حيث عبَّر عن شهوده ﷺ بالرؤية؛ فإنه أهل الرؤية سواء نظر إلى الأحباب، أو إلى الأعداء، وأمَّا هم؛ فهم أهل النظر الحسِّي لا من أهل الإبصار الحقيقي، ولو كانوا من أهل الإبصار الحقيقي؛ لما جعلهم الله في حكم العمي؛ فهم رأوا محمداً بصورته لا بمعناه هو ويقرأ في الحيرة المذمومة حيث استبعدوا النبوة في البشر والحق في صورة بني آدم، وقد قال: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**» أي: بذاته وأسمائه وصفاته.

والمراد منه: آدم الحقيقي الذي هو محمد ﷺ، فإن الغاية القُصوى من الكون من إيجاد أبي البشر داخل في محمد لا بالعكس، فإن الله لمَّا كان النور المحمَّدي من نوره؛ جعل نور أبي البشر في نوره، فما ظهر إلا بنور محمد كما أن محمداً ما ظهر إلا بصورة أبي البشر، فكان روح آدم تابعاً لروحه، وجسمه متبوعاً لجسمه، ولمَّا كان الشرف الحقيقي، والكمال الإنساني للروح في الحقيقة؛ ما نقص متابعة محمد لجمع آدم من كماله شيئاً.

ومنه: قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم**» أي: إلى ظواهركم؛ «**وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم**»[1] أي: إلى بواطنكم، فانظر واشهد لعلَّ الله يعطيك رؤيته بالمنَّة لا بالجهل.

قال الله سبحانه في أواخر سورة الأعراف:ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۚ إِلَّا يُسَبِّحُكُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡأَهۡلِكَ ۖ فَٱعۡلَمۡ﴾ [الأعراف: 176].

معنى هذه الشرطية أن إخلاده إلى الأرض كان سبباً لعدم مشيئة الله رفعه، فلو لم يكن الإخلاد الاختياري؛ لشاءه، فلو شاءه مع الإخلاد؛ لكان ذلك من قبيل

(1) صح بلفظ: «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم وخذله. . ، حديث رقم (2564) [4/ 1987] وابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار بأن على المرء تعهد قلبه وعمله. . ، حديث رقم (394) [2/ 119] ورواه غيرهما.

الجبر، والله تعالى لا يجبر أحداً على ما لا يقتضيه استعداده؛ ولكنه يُجبر على حكم قابليته، ومن ذلك الاسم الجبَّار.

وعلى هذا نحو قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 264] أي: لأنه لو هداهم مع اختيارهم الكفر لكان جبَّاراً بما لا يقتضيه عالم العلم والحكمة، فإن قلت: قوله تعالى: ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّفَاقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ﴾ [الإنسان: 30]؛ يدلُّ أن مشيئتهم تابعة لمشيئته تعالى؛ فيكون جبراً، قلت: هذا راجع إلى ما هم عليه في عالم العلم، فإن الله تعالى إنما شاء في العين الخارجي ما شاء لكون ذلك مما يقتضيه حال المعلوم في العلم؛ فهو عليم حكيم؛ يعني: إن حكمته تابعة لعلمه.

وحاصله: إنهم ما يشاؤون في العين إلا أن يشاء الله في العلم، وما شاء الله في العلم إلا ما شاءه المعلوم، فارتفع الجبر، وجاء إلزام الحُجة؛ لأن الله تعالى خلَّاق جوَّاد فما يعطي إلا ما شاء له ألسنة الحقائق والماهيات؛ فهو مجيب لسؤال كل سائل، فليس للسائل إنكار سؤاله، وإن المعطى له ليس عين السؤال.

ألا ترى أن مَن أمر غيره بأن يخرج له من كيسه ديناراً فلساً؛ فليس له أن يعارضه في ذلك بأن يقول له: قد أمرتك بإخراج الدينار لا بإخراج الفلس، فإن للمأمور إن ما وجدت في الكيس إلا الفلس؛ فهو عين ما طلب في الحقيقة في صورة طلب الدينار؛ إذ الإخراج والإعطاء إنما هو من الموجود لا من المفقود.

ولله الحُجة البالغة، فأين تذهبون؟ والكل على صراط مستقيم لا يخطئه، ولا ينحرف عنه؛ لأن الله آخذ بناصيته، فطوبى لمَن سلك على طريق الهدى، وويلٌ لمَن سلك على طريق الهوى؛ ولذا ذمَّ الله مَن اتَّبع هواه في هذا الموضع، وفي غيره إذا لم يقبل الهدى، وكان أمره فرطاً، فأنَّى يفلح الإنسان إذا لم يقبل الإرشاد، وكيف يقبل الإرشاد، وقد طُبع على الضلال، ولم يطبع عليه إلا بأمر غير مجعول، فليلم نفسه، أو ليسكت غريقاً في بحر الحيرة.

فهذا عالم القضاء والقدر، ولا يبحث عنه فوق ذلك، وسرُّه ظاهر؛ وهو الأحوال الواقعة في العالم خيراً وشراً، والكل مُيسر لما خلق له، إمَّا ابتداءً، وإمَّا انتهاءً، فإنه الاعتداد بالسعادة العارضة، ولا بالشقاوة العارضة.

ودعوة الأنبياء من جملة القضاء، فلا تُترك؛ لعدم إيمان المدعو، وبهذا وقعوا في الحيرة، وأشار بالرفع إلى أن مَن قبل الآيات؛ فكأنما رُفع إلى السماء، ومَن

ردَّها؛ فكأنما وُضع في سجِّين، فكلٌّ رُفع ووُضع، فهو إنما يكون في الدنيا معنى، وفي الآخرة صورة، فترى أهل الملكوت السماوية في علِّيين، وأهل الشهوات الأرضية في سجِّين.

فمَن كان من أهل الأرض؛ فليجتهد في الارتفاع إلى السماء؛ فإن السماء محلُ التنزُّه والإطلاق، كما أن الأرض محلُّ الانقباض والانحباس؛ فإنها سجن، كما ورد: «**إن الدنيا سجن المؤمن**»(1)، نسأل الله تعالى أن يخلِّصنا من هذا السجن بالسير في الملكوت، ثم يرفع منزلتنا إلى عالم الجبروت واللاهوت.

قال الله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْمَيِّتَ﴾ [الأعراف: 96].

أي: بالله الذي على العرش رحمانيته، وبملائكته الذين أُسكنوا في ملكوت سماواته، وبالرسل الذين أجسامهم في الأرض، وعقولهم، وقلوبهم، وأرواحهم في علِّيين، وبالكتب التي أُنزلت في خزائن العرش من المحلِّ المكين الأمين؛ وهو أي: الإيمان أصل السعادات ويُحرَّم دخول الجنات العالية إلا به، ومحلُّ القلب العُلوي الذي كان تعيُّنه في عالم الأرواح؛ وهو فوق العرش عند أهل الحقائق خلافاً للحكماء؛ فإنهم ذهبوا إلى أن فوق العرش لا خلاء، ولا ملاء إلا أن يُقال: إنهم أرادوا بذلك سلب التحيُّز وهو كذلك، فإن الأرواح ليست بمتحيِّزة؛ لتجرُّد جواهرها بخلاف الأجسام؛ ولذا جعل العرش محيطاً بالعالم، ومداراً له فهو الخير كله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ مِنَ﴾ [الأعراف: 96] أي: عن الكفر والمعاصي التي لا وجود لها إلا في الأرض السفلية؛ لأن الملائكة في السماء لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وأما الذين في الأرض، فإنهم وإن كانوا مكلَّفين ببعض التكاليف لكنهم في ذلك تابعون للإنس من حيث مشاركتهم في المكان، فهم في عدم العصيان؛ كالملائكة السماوية.

وأمَّا ما روي عن ابن عباس: من أن طائفة من الملائكة لم يسجدوا لآدم،

(1) رواه الديلمي في الفردوس عن ابن عمر، حديث رقم (8254) [5/ 334] وتتمة الحديث: «والقبر أمنه، والجنة مصيره، إن الدنيا جنة الكافر، والقبر عذابه والنار مصيره، المؤمن لم يجزع من ذل الدنيا ولم يذل من أهلها وعزها». وروى الحديث غير الديلمي أيضاً.

فأرسل الله إليهم ناراً؛ فأحرقهم، فإنما أراد بالملائكة الجن؛ لأن كلاًّ منهم مستورون عن أعين الناس؛ لكونهم داخلين تحت الاسم اللطيف، وأيضاً إن الملك مَن أُرسل في أمر من الأمور، وأُمر بشيء من الأوامر؛ كالجن، فكل ملك روح وجن، وكذا كل جنِّي روح وملك، وأمَّا كل روح فليس بملك، وهو الذي ليس له جسم أصلاً؛ كالأرواح المهيمة، فهو لا يقتضي الإرسال والأمر؛ لكونها مشغولاً بربه، ومستغفرة في بحر شهوده لا شعور لها بالعالم، وبما يتعلَّق به من المصالح.

* * *

{سورة الأنفال}

قال الله تعالى﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا أَسۡرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ [الأنفال: 33].

المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «**لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك**»[1]؛ فالمراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما.

ومَن ذَهل عن هذه الدقيقة؛ وهم الفقهاء المحجوبون؛ منع صحة تلك المقالة، وزعم أن فيها تحقيراً لسائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

وأمَّا قول المرتضى كرَّم الله وجهه: كان في الأرض أمانان، فرُفع أحدهما، وبقي الآخر، فأمَّا الذي رُفع؛ فهو رسول الله ﷺ، وأمَّا الذي بقي؛ فالاستغفار. وقرأ بعده هذه الآية.

فالمراد به: الأمان الكامل، فإنه لا شك مرفوع عن هذه الأمة، وبقي ما دونه من بعض الأمان؛ وهو ما حصل بوجود الورثة في كل عصر حتى إنه قد يحصل لبعضهم التألُّم من وجود بعض المصرِّين، فيقال له: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم.

وقد يرتفع الأمان حسبما اقتضته المشيئة الإلهية، كما ارتفع من أهل بغداد حين استولى عليهم هولاكو الكافر الجنكيزي حتى استأصَّلهم مع وجود كثير من الورثة فيهم على أنهم استشهدوا أيضاً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فلهم في ذلك رفع الدرجات، وتكميل مراتب المحبية، والمحبوبية، ولمَن فعل بهم ذلك من الدركات، وتنزيلهم في أسفلها؛ لأنه اشتدَّ غضب الله على مَن قتل نبياً، أو قتله نبي.

وأولئك الأصفياء من حيث ورثتهم في حكم الأنبياء؛ ولذا يغضب الله لهم كما يغضب الأسد لشبله، فقد تكون الرحمة في صورة الغضب، وقد يكون الأمر

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (2123) [2/ 214].

shaziliaassemia.com

بالعكس، نسأل الله لطفه وكرمه.

والمراد بالتعذيب الثاني هو: التعذيب الأخروي الذي دخل فيه التعذيب الروحاني، وذلك أن الاستغفار طلب ستر النفس بالأنوار الروحانية حتى لا يلحقها عذاب من الظلمات الطبيعية، فكل عذاب جسماني أو روحاني؛ فإنما يلحق المعذَّب به من جهة نفسه المظلمة المنكدرة، فإذا استنارت النفس بالأنوار القلبية الروحانية؛ خَلُصت من العذاب مطلقاً.

فظهر أن العذاب من النار، وكما أن النعيم من الجنة، فنار عاجلة وآجلة، وكذا النعيم.

وإلى ما قلنا أشار قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النمل: 10].

فإن حال الحضور ليس كحال الغيبة، فإذا فنى العبد عن نفسه، وبقي بالله تعالى: استراح كحال أبي يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه؛ ولذا كان لا يقطعه السيف، وهو مع الله تعالى في حال غيبته عن الحسِّ.

فانظر إلى قوله تعالى﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ وَٱسْتَغْفَرَ﴾ [الأنفال: 33] إلخ.

كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سبباً لارتفاع العذاب، وباعثاً على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمَّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتُّل إليه.

فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره؛ يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

فإن الله تعالى معه مع اشتماله الجمالية؛ لكونه خارجاً عن دائرة الغضب، كما أشار إليه غير المغضوب عليهم ولم يبقَ الجلال إلا في باطنه بالقوة، وقد يظهر ذلك الجلال في أولاده بصورته وحقيقته، نسأل الله تعالى الأمان من العذاب، والجلال مطلقاً في حق النفس، وفي حق صورها من الأولاد.

❊ ❊ ❊

{سورة التوبة}

قال الله سبحانه: ﴿ خَيْرًا مَن﴾ [التوبة: 30].

دعاء عليهم بالقتل؛ لكن أشار بالمفاعلة إلى أنهم كالمحاربين مع الله تعالى من حيث جسارتهم على عصيانه، كما صرَّح بذلك في قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [المائدة: 33].

فإن محاربة المخلوق بلا وجه شرعي؛ كمحاربة الخالق، أو أن الخالق لمَّا ظهر في صورة المخلوق بأسمائه وصفاته؛ كانت المحاربة محاربة معه لا مع الخلق، فالأول باعتبار الفرق، والثاني باعتبار الجمع.

وإليه الإشارة بقوله: «**يا ابن آدم استطعمتك؛ فلم تطعمني**»[1].

وبقوله: «**حتى يعلم**» أي: حتى يعلم مَن لا يعلم[2]، أو يعلم مَن يعلم في صورة العين بعد ما علم في صورة، وكلا العلمين بالنسبة إليه تعالى علم واحد، وحال المعلوم مشهود له إلا أن تعلُّقه بالمعلوم الخارجي؛ إنما كان في العين، فأشار حرف الغاية إلى التفاوت بين العلمين بحسب العلم والعين، فاعلم ذلك.

ثم إن القتل استُعمل في العُرف بمعنى اللعن؛ فمعنى قوله عزَّ وجلَّ: قاتلهم الله: لعنهم الله، وذلك أن اللعن بمعنى الإبعاد عن الرحمة، والقتل وإن كان معناه إزالة الحياة بمباشرة القاتل إلا إن فيه معنى اللعن أيضاً.

فإن المقتول من حيث كونه مقتولاً؛ يبعد عن الرحمة، فإن الرحمة تمنع التعرُّض بشيء من الأذى فكيف القتل؟

---

(1) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم (2569) [4/ 1990] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ من هذا النوع أطلقت بألفاظ التمثيل والتشبيه. . ، حديث رقم (269) [1/ 503] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب 34 كيف يقبض العلم وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم انظر ما كان من حديث رسول اللّه ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً. . ، [1/ 49].

فإن قلت: لا شك أنه فرَّق بين الإخبار باللعن في قوله تعالى ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ فَٱعۡلَمۡ﴾ [الأحزاب: 57]، وبيَّن الدعاء عليهم به في هذه الآية ونحوها، فإن الدعاء من شأن العاجز عن الانتقام، والله تعالى عزيز ذو انتقام، فيغلب ولا يُغلب، فلا يبقى حاجة إلى الدعاء.

فما سرُّ ذلك؟ قلت: إن ذلك راجع إلى التشريع، وتعليم العباد.

وقد كان رسول الله ﷺ يلعن ذكوان، وعصية، وبني رعل إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [الأنبياء: 107]، فكان من شأنه أن يقول: «**اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

إلا أن يكون ذلك بإذن من الله تعالى في مادة مخصوصة، وفي نسمة معلومة، كما لعن العقرب حين لدغه وهو في الصلاة، وقد كان بعض الأولياء لا يلعن الشيطان اكتفاءً بلعنه الله إياه، والأَوْلى الاقتداء بالله في حال الفرق دون الجمع؛ لأن لعنة الله في حكم لعنته، فلا حاجة إلى لعنة أخرى؛ هذا هو لعن الشيطان، ومَن في حكمه من الكفار، فإنهم مبعدون عن رحمة الله تعالى، ومقرَّبون إلى الغضب، كما دلَّ عليه قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 7]، وقوله: ﴿أَوۡقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [المائدة: 60].

وأمَّا لعن المؤمن فيرخَّص فيه إذا فرَّط في المعصية لأنه إذاً يكون في حكم الكافر، وقد ألحق الله بعض المفرطين من المؤمنين بالكفار، فأغلظ عليهم بنحو ما أغلظ على الكفار؛ حتى حكم بخلودهم في النار ونحوه.

ومن ثم لَعنوا «يزيد» لغلوِّه وإفساده في الأرض، ولو لعنوا الحجَّاج الغشوم، وتمرلنك الأوزبكي؛ لجاز لهم ذلك أيضاً، فإن كلاًّ منهما خرَّب البلاد، وقتل الأخيار وأباح ما حرَّم الله، فلعنة الله على الظالمين.

وفي هذا المقام جواب آخر دقيق يرجع إلى الحقيقة وهو أن دعاء الله عليهم، وإن كان لا يصحُّ في مرتبة العماء الإلهي لكنه يصحُّ في مرتبة العماء الكوني؛ لأنه تعالى في هذه المرتبة يتَّصف بصفات المخلوق؛ كالتعجُّب، والفرح، والضحك،

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة، حديث رقم (5326) [3/ 432] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه نوح، [62/ 247].

والتبشيش، والمجيء والذهاب، ونحو ذلك على ما جاء في الآيات والأخبار.

فالواجب في ذلك ترك التفحُّص عن كيفيته، وإبقاؤه على أصله على ما يعلمه الله، ويريده من ذلك بلا تشبيه، ولا تقييد؛ لكن مشرب أهل الرسوم مالح فلا يذوق العذب، وضيق فلا يسعه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ [التوبة: 32] أي: المنكرون، فظهر أن إنساء الأجل ليس بالمدة الصورية المعلومة عند الناس؛ وهي الحياة الدنيوية الطويلة، فإنها وإن كانت طويلة ما دامت الأرواح العالية فيهم، فإذا لم يحضروا؛ جاء الخذلان، ومن هنا وجب على السلطان أن يبايع خليفة من خلفاء الله، فإنه على تقدير انتقاله من الدنيا، فهو مع السلطان ما دام في الحياة؛ لأن عطاء الله غير محدود، وإن الذي يحصل به المدد؛ وهو الروح سواء كان مع جسده أو لا.

كما قال تعالى: ﴿ أَهَلِكَ فَأَعْلَمْ﴾ [النازعات: 5].

أمراً، والناس عنه غافلون، فيعدُّون الأحياء الحقيقية أمواتاً، ويجعلون انتقالهم؛ كانتقال الأحياء الصورية.

وقد ورد: «**المؤمنون لا يموتون؛ بل ينقلبون من دار إلى دار**»[(1)]؛ فإن المراد منهم: المؤمنون بالإيمان الحقيقي العياني الكامل لإطلاقه، ولا شك أن المطلق مصروف إلى الكامل.

كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ﴾ [الأعراف: 128].

فإن المراد هي: العاقبة الكاملة الحميدة التي هي الجنة، فالكفار وإن كان عُقباهم النار؛ لكنهم لا عُقبى لهم في الحقيقة؛ لكونها عُقبى ذميمة.

ثم هذا الربط سواء كان بالتأييد الملكوتي مع وجود السبب في الظاهر، كما في الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلْقِيَّتَ مِن فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنفال: 62]، أو مع عدمه كما في قوله: ﴿ لَهُمْ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ﴾ [الكهف: 14]، فإنه كربط قلوب سحرة فرعون حين توعَّدهم فرعون بالصلب، والقتل؛ كل ذلك من العناية والتوفيق الخاص الذي يعتني بشأنه، وفي ذلك إشارة إلى ضعف الإنسان في نفسه أيّاً كان؛

---

(1) أورده الفخر الرازي في التفسير، سورة العنكبوت، ثم إلينا ترجعون آية 57 [25/ 73] وأورده محمد بن الجاوي في (مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، سورة العنكبوت، آية 50 [2/ 220] وأورده غيرهما.

ولذا قال الأنبياء عليهم السلام ﴿مِن سَـلَتَهُۥ فِخَوۡفِهِۦ﴾ [البقرة: 214] مع اعتمادهم على الله تعالى ووعده، وأنه لا يُخلف الميعاد.

وقل مَن سلم عن التزلزل من غير ربط القلب؛ فإن موارد القضاء، ومواقع القدر يصعب الورود والوقوع فيها بحساب الغافلين؛ لكن مدَّتها كلمح بالبصر عند العارفين، فلا اعتبار بها عندهم، ولمَّا كان كل من بسط الرزق، وتأخير الأجل مرغوباً عند الناس، فإنه لا حياة مع الفقر، وإن كانت طويلة، ولا أثر للغنى مع قصر العمر، وإن كان خزائن قارون.

وأشار النبي ﷺ إلى أن مَن أراد رزقاً واسعاً، وحياة طويلة؛ كان عليه أن يصل الرحمن أي: يصل إليه بدوام الذكر والطاعات حتى يرد عليه ما قصده من ذلك، فإن مَن كان الله بظاهره وباطنه؛ كان له بجميع فيوضه ورحماته.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: 11].

هذه الآية في حق أهل بدر، وقال في حق أصحاب الكهف:

﴿ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ﴾ [الكهف: 14].

أورد الأولى باللام؛ لأنها بعد بيان السبب الذي هو إنزال الماء من السماء وقت الضرورة القوية، وكانوا ضعفاء من جهة البدن والقلب؛ لقلة العدة، والعدد، وكثرة المشي، والعمل بخلاف أصحاب الكهف؛ فإنهم كانوا أقوياء من جهة البدن، والقلب؛ فاحتاج كل من هاتين الطائفتين إلى التقوية، والتأييد الملكوتي؛ فكان سبب النصرة في الحقيقة الضعف والذلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: 28]، وقال: ﴿وَمَن وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 123].

وقال ﷺ: «**إنكم تنصرون بضعفائكم**»(1)، فكما أن وجود الضعف نفسه جعل من أسباب التقوية والتأييد؛ فكذا وجود الضعيف في المعركة، ومحلُّ الخوف إمَّا بجسده أو بتوجّهه وهمته؛ ولذا ما زالت العساكر منصورة ما دامت من غير إعانة الهيئة؛ ولذا حلَّ للمبتلي أن يحادث الآخر في صورة الشكوى؛ لأن المحادثة مما

(1) أورده اسماعيل حقي البروسوي في روح البيان، سورة فصلت، آية 1 [8/ 225] وأورده البزدوي في أصول فخر الإسلام، باب بيان أسباب الشرائع [2/ 2].

يهون الأمر عليه؛ فهي من قبيل الإعانة الإلهية، وإنما قلنا في صورة الشكوى؛ لأن لسان العارف لسان الحكاية لا لسان الشكاية، فهذا لا ينافي الصبر، كما قال أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83].

وذلك أن المذموم هو الشكاية إلى الخلق لا إلى الحق، فلو ترك الشكاية إلى الحق؛ كان ذلك مكابرة مع ربوبيته، ولا طاعة للعبد أن يقاوم الله تعالى في بلائه، فعرض حاله على الله من كمال عبوديته، إذ لا تتمُّ العبودية إلا بإظهار العجز والافتقار؛ ولذا شُرِّع الدعاء، وأمَّا الشكاية إلى الخلق؛ بمعنى المحادثة والحكاية؛ فذلك أيضاً من قبيل العرض على الحق؛ لأنه صادر عن المكاشف لا عن المحجوب.

* * *

{سورة يونس}

قال الله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡمَيِّتَ﴾ [يونس: 99].

إشارة بالاسم الرَّب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، أمَّا بالنسبة إليه ﷺ فبالعلم، وأمَّا بالنسبة إلى قومه فبإبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبارة الخطاب له ﷺ وإشارته لكل مَن هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [يونس: 99].

أراد بمَن في الأرض: الأنس والجن، كما دلَّ عليه كلمة مَن، فإنهم هم المكلَّفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون.

وأمَّا مَن في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبِّحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ [يونس: 99] أي: مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سَجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ﴾ [النصر: 2].

فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم من شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجمال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقاً، فلو آمن كلهم؛ لبقي بعض الأسماء بحيث لا حكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

فإن قلت: فقد آمنوا في عالم الأرواح، فلِمَ لم يظهر أثر ذلك الإيمان في العين، وعالم الأجسام، قلت: لا شك أن ذلك العالم لا يقتضي الإيمان، والكفر في الحقيقة، وإنما إيمانهم فيه إشارة إلى الفطرة الأصلية؛ هي القابلية الذاتية، وهي لا توجب الاتفاق على الإيمان في عالم العين، لِما قال ﷺ: «**ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1] أي: يصيران سبباً لظهور ما في القابلية من الكفر أيضاً،

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب إذا أسلم الصبي. . ، حديث رقم (1292) ورواه=

وهذا أَوْلى بما قال بعضهم: إنهم آمنوا من وراء حجاب.

فإن الأرواح كانت صفوفاً أربعة:

الأول: صف الأنبياء.

والثاني: صف الأولياء.

والثالث: صف المؤمنين.

والرابع: صف الكفار.

على أن كُمَّل الأولياء من الصف الأول أيضاً على ما دلَّ عليه كلمات بعض الأكامل، فلا يتجه ما ذكره من التربيع.

قوله تعالى: ﴿ لَا﴾ [يونس: 99] يا محمد، ويا مَن هو وارثه في مقامه من الدعوة والإرشاد: ﴿تَعۡلَمُونَ مُهَاجِرًا﴾ [يونس: 99] أي: تجبروا الناس الناسين أنفسهم؛ فنسوا الله والإيمان به؛ لأن نسيان النفس سبب لنسيان الله، كما أن ذكرها سبب لذكره، دلَّ عليه قوله: «**مَن عرف نفسه؛ فقد عرف ربه**»[1]؛ فمعرفة النفس أصل، ومعرفة الرب فرع؛ لذلك كما أن المحبة عكس ذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: «**فأحببت أن أعرف**»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَىَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [يونس: 99] أي: بالإيمان الشرعي؛ فإن الإيمان إنما يكون عن تبليغ؛ كالطاعة؛ إنما تكون عن أمر، وفي حكم الإيمان الشرعي التوحيد الذاتي، فإن بعض الناس ممَن جاء في الفترة، أو كان في أقطار الأرض القاصية، أو في شواهق الجبال لم يدرِ ما الكتاب، ولا الإيمان إلا أنه عاش على الفطرة من غير أن يُخلَّ بشيء من الأصول، فهو غير مخلَّد في النار أيضاً.

وفي الآية إشارة إلى أن سرَّ القضاء والقدر لا يعرفه الإنسان بكنهه؛ بل يعجز عن دركه؛ فهو بحسب نشأته الجامعة، ورحمته الشاملة الواسعة، وإن كانت له همة عالية في إيمان الناس كلِّهم بحيث لو أمكن؛ لأجبرهم عليه لكن الله يأبى إلا أن يجعلهم مختلفين بالإيمان والكفر لِما ذُكر، والله الموفِّق والمرشد والهادي.

= ابن حبان في الصحح، ذكر إثبات الألف بين الأشياء الثلاثة التي. . ، حديث رقم (129) [1/ 337] ورواه غيرهما.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (2532) [2/ 343].

(2) جزء من حديث أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].

{سورة هود}

قال الله سبحانه: ﴿أَهْلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ﴾ [هود: 76].

دلَّت هذه الآية: على أن القضاء المبرَم لا يُردُّ: وهو القضاء الغير المعلَّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضاً: ﴿أُخْرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَنْ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ [البقرة: 217]؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتُن كل صعبٍ وذلول، لِما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيَّر بحال من الأحوال.

وأمَّا القضاء المعلَّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمَّا أصلية أو عارضة.

فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمآل إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد.

فالمؤمن الأصلي لا يضرُّه الكفر العارضي فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ إن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوباً في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرُّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فِيهِإِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ﴾ [الرعد: 39]، وعالم الحسِّ، والخارج ناظر إلى هذا اللوح؛ فهما لوحان متطابقان أيضاً.

فهذه أربعة ألواح: لوح العلم، ولوح البطن، ولوح زائد البطن، ولوح المحو، ولوح العين الخارجي، فالأولان من باب واحد في عدم التغيُّر.

وكذا الكافر الأصلي: فإنه لا ينفعه الإيمان العارضي، فإنه مكتوب في اللوحين: بأنه كافر، وإن كان مؤمناً في اللوحين الآخرين، فالمؤمن الأصلي مؤمن عند الله في حال كفره، وكافر عند الناس في تلك الحال، ثم بزوال تلك الحال عنه؛ فيكون مؤمناً عند الناس أيضاً.

وكذا الكافر الأصلي: فإنه كافر عند الله في حال إيمانه، ومؤمن عند الناس في تلك الحال، ثم بعد زوال تلك الحال عنه، ويُسمَّى كافراً عند الناس أيضاً، فالقضاء

المبرَم لا يتغيَّر أصلاً بخلاف القضاء المعلَّق؛ فإن عُلِّق عمر أحد مثلاً بعمل من الأعمال بمعنى أنه إن عمله كان عمره ثمانين، وإلا كان ستين، فإن قضى في حقه أنه يعمله؛ فهو يجري على ذلك القضاء، ويكون عمره ثمانين، وإن كان ذلك غير مقضي في حقه؛ فإنه لا يعمله، ويكون عمره ستين.

فالمعلَّق يرجع إلى المبرم في الحقيقة، وقول مَن قال بالفارسية:

أوليا راهشت قدرت الزاله تير حسبة بازكر داندزراه.

راجع إلى المعلَّق الصوري، والمبرم الحقيقي، فإن السهم الذي قضى أنه يرجع بتصرُّف بعض الأولياء فلا شك في وقوع ذلك.

وأمَّا الذي قضى خلافه فلا يقع أبداً، وإن اجتمع عليه ألف همة، وتصرُّف، ومنه إيمان أبي طالب، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [القصص: 56]؛ يعني: وإن علمت فيهمَ همة، وتوجه قلبي، وتصرُّفَ نفسي.

فالأسباب موجودة في الخارج، معدومة في نفس الأمر، ومن ذلك كل كمال، وكل نقصان في الدنيا، فالمحجوب يتوهَّم أن حصوله أو عدمه؛ إنما هو لأجل المباشرة بالأسباب أو عدمها، والمكاشف يعلم أن الأسباب ليست بمؤثِّرة، وإن كان طريق الأدب يقتضي التلبُّس بها، فقد قتل قبل مَن لا لعلة، وردَّه مَن ردَّ ولا لعلة فاعرف هذه الجملة؛ فإنها تنفعك في الصورة والمعنى، وعليك بالأدب، فكلٌّ ميسّر لِما خُلق له.

* * *

{في سورة إبراهيم}

قال الله سبحانه: ﴿أَهَٰلِكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ﴾ [إبراهيم: 52].

أي: هذا القرآن العظيم تبليغ دعوة الله تعالى على لسان الرسول ﷺ إلى الناس الناسين أنفسهم الحاضرين، والذين يأتون من بعدهم إلى ساعة القيامة، وهذه الدعوة كانت مندرجة بالإجمال في الميثاق حين قال تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [الأعراف: 172].

فإن الربوبية تابعة للألوهية، وهي لكونها مرتبة جامعة تشمل على عبودية الناس بأنواع العبادات؛ لكن التعيين بحسب اختلاف الأمم والأزمان مُفوَّض إلى الله تعالى، فجاءت الرسل في الأعصار المختلفة مبلِّغين عن الله تعالى دعوتهم إلى جنابه بالتوحيد، وما يليه من شعب الإيمان، وإنما احتاجوا إلى هذا التبليغ؛ لاحتجابهم بالغواشي البشرية، والحجب الكونيّة عن التفكُّر والتذكُّر؛ لعدم كفاية العقول والإدراكات في ذلك.

وقد ثبت عند أهل الله تعالى: إن لله تعالى مواثيق مختلفة كليات وجزئيات.

أمَّا الكليات: فقبل يوم الميثاق في عالم الأرواح.

وأمَّا الجزئيات فبعده في عالم المثل والأجسام.

والكليات منحصرة في ستة، ولا غاية للجزئيات، وكما أن الرسول مبلِّغ عن الله تعالى هذا القرآن بظاهره وباطنه، وكذا ورثته بعده إلى يوم القيامة: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۗ لَهُۥفِيكُونُ يَسۡتَفۡتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُۥ﴾ [النساء: 165] ورثتهم.

وما من أحد من علماء الرسوم مَن أعلم أهل زمانه إلا وسلَّط الله عليه أحداً من علماء الحقيقة من أعراف أهل عصره؛ لإلزام الحُجة، فأنف مَن أنف، وبقي على حجاب العلم، وتبع مَن تبع، فكان العلم له نوراً وهدى، فخرج بسببه من الظلمات البشرية إلى الأنوار الروحانية كما قال تعالى: ﴿ فِيۤإِنَّ وَلَوۡأَنَّهُمۡ إِذ﴾ [الأحزاب: 43].

فكما أن الرسول مبعوثٌ لهذا الإخراج؛ فكذا الوارث، ولا فرق بين الدعوتين

إلا بالنبوة والولاية، فشأن النبوة: إلقاء الوحي على لسان الملك المخصوص من الوجه العام.

وشأن الولاية: إلقاء الفيض على لسان ملك من الملائكة أيّاً كان من رسلهم، وذلك من ذلك الوجه العام أيضاً، ونعني بالوجه العام؛ ما يكون بطريق الواسطة لِما يقتضيه ترتيب الكائنات من القلم الأعلى، والعقل الأول إلى آخر المولدات، ويقابله الوجه الخاص؛ وهو ما كان بلا واسطة سواء كان الموحى إليه، والملهم نبياً أو وليّاً.

فظهر أن للعبد طريقين إلى ربه؛ طريقاً بواسطة سلسلة الكائنات، وطريقاً بلا واسطة بينها؛ وهو التجلِّي الإلهي المفاض على الكل على حد سواء، فإنه لا اختلاف فيه، وإنما التفاوت في الظهور بحسب القابلية في المَحَالِّ، والمجال، ولولا ذلك لما ظهر الفرق بين نبي وولي، وعُلوي وسفلي، فهو من تدبير العزيز الحكيم بحسب الأسماء المختلفة الجمالية، والجلالية الناظرة إلى التعينات، وما تحتويه من القابليات فاعرف، ولينذروا به خصَّ الإنذار لما أنه أول الأمر في باب الدعوة؛ لعدم قابلية المخاطبين للبشير كما دلَّ عليه التصريح بالناس، فإنه أكثر ما يُطلق على أهل مكة المشركين.

فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي.

والمخوَّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمَّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمَّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلِّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة.

فكما أن أهل الجمال مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَا﴾ [المطففين: 15].

ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمَّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة

بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضاً.

والفرق بينهم، وبين الإنس: أن الإنس مُبشِّرون، كما أنهم منذرون.

وأمَّا الجن: فمنذرون فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا﴾ [الأحقاف: 31] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

فإن قلت: إذا كانوا من أهل التبليغ؛ فللمؤمن منهم ثواب وأجر، كما للمؤمن الإنس، فأين يستوي أجره، ولا دار للثواب إلا الجنة؟

قلت: هذا أمر سكت عنه بعض أهل الله؛ لعدم الكشف له فيه، وستره بعضهم، وإن وقع له الكشف فيه متابعة لمَن سلف من أهل الستر، وقد حققناه في محلٍّ آخر حسبما ساعدنا الإلهام في ذلك، وعيَّنا أجورهم ومحالها، وسترنا في هذا المحلِّ متابعة للسلف في الجملة، والله العليم الخبير المحيط، ليعلموا إنما هو إله واحد خصَّ التوحيد بالذكر؛ لعلو شأنه بالنسبة إلى سائر الأحكام؛ لأنه الأصل الأصيل، والأُس المتين، وما عداه فمتفرِّع عليه ومبني.

ولم يقل: إن الله إله واحد؛ بل أتى بضمير الهويَّة؛ إشارة إلى مقام التنزيه، والتقديس الذي يقتضيه غيب الهُويَّة، ولأمر ما ورد: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[1]؛ حيث بدأ بالتسبيح الذي يلي علم الغيب، وعاد إليه أيضاً ببيان الكبرياء الذي هو عين التسبيح.

ولا شك أنه أول الأمر كالإنذار؛ ولذا كان أكثر الأنبياء، وأعين قومهم إلى الله تعالى من هذا المقام إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام.

فكسا الذات الإلهية كسوة الصفات الثبوتية؛ ولذا كان أول مَن يُكسى يوم القيامة، وإلى أن جاء نبينا ﷺ إنه جاء بشريعة جامعة للتنزيه والتشبيه جميعاً كما قال الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: 11].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما: باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة. . ، حديث رقم (2137) [3/ 1685] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر استحباب الإكثار للمرء من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير للّه جل وعلا. . ، حديث رقم (833) [3/ 114] ورواه غيرهما.

وقال تعالى: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا مَن ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 97].
وقال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

وتتم مكارم الأخلاق بمقتضى كونه خاتم الأنبياء ودعا أمته إلى توحيد الأفعال، والصفات، والذات، وأجيب في كل ذلك؛ فجاء من أمته رجال أكامل لا يُقرأ بالألسنة كمالاتهم، ولا يُحرَّر بالأقلام مقاماتهم رضي الله عنهم، وألحقنا وإياكم بأولئك الآباء الكرام، والأجداد العظام.

وفي قوله: (هو) مع عدم مرور ذكره تعالى في هذه الآية؛ إشارة إلى تعيُّنه، وحضوره في الأذهان الحاضرة، وإن غاب عن الأذهان الغافلة، ومن مقام التعيُّن والحضور؛ كان ذكر الصوفية بهو هو، ففيه عمل بهذه الآية ونحوها، وطعنهم في ذلك طعن بلا فائدة، فإنه يشعر بالاحتجاب عن الحق الحاضر والغفلة عنه في الباطن والظاهر.

والفرق بين ذكر: لا إله إلا هو، ولا إله إلا الله أن الأول يدلُّ على مقام الغيب والتنزيه؛ وهو حال أهل الفناء.

والثاني يدلُّ على مقام الشهادة والتشبيه من حيث اشتماله بالنفي على عالم اللاتعيُّن، وبالإثبات على عالم التعيُّن، ولذا كان أفضل الأذكار على ما ورد في الحديث؛ وهو حال أهل البقاء، وعلَّق العلم بالأُلوهية المخبر بها عن الهُويَّة لِما أن مرتبة الهُويَّة الأُلوهية؛ هي متعلِّق العلم ومبلغه، إذ لا اسم، ولا رسم، ولا وصف، ولا نعت، ولا حكم فوقها؛ فهي خارجة عن المدارك؛ ولذا أمرنا بذكر الله، وذكر آلائه، ونهينا عن البحث عن ذاته؛ إذ هي من حيث تجرُّدها عن النسب، والإضافات لا تُدرك أصلاً.

وقولهم: التوحيد إسقاط الإضافات؛ إشارة إلى الرجوع إلى الأصل الذي هو عالم القُدس، والوحدة الذاتية المجرَّدة عن اعتبارات شواهد الأنفس، والآفاق التي هي مقام الواحدية الصفاتية.

وفي قوله: (إنما هو) إشارة أخرى؛ وهي أنه تعالى ذكر الهُويَّة طوى العامل حيث لم يقل: إنه إله واحد؛ لأن مرتبة الهُويَّة مرتبة التأثير والعاملية، لا مرتبة التأثير والمعمولية بخلاف مرتبة الأُلوهية؛ فإنها من النسب، كما قال مَن قال من الأكابر: فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا، وقال مَن قال أيضاً: للربوبية سرٌّ لو ظهر؛

لبطلت، ولمَّا كان الإله المنكر يُطلق على غير الله أيضاً كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ﴾ [القصص: 38]، وصفه بالوحدة؛ للتمييز والتعيين.

وفي هذا المقام أسرار لا تُحصى لا يفي الأوراق ببيانها، فعليك بالذوق التام، والشهود العام؛ لتحيط بها خبراً.

❊ ❊ ❊

{سورة الحجر}

قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ أَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ﴾ [الحجر: 2].

اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قوله، ودّوا أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

ولي فيها وجهان آخران:

إن قلة الودادة راجعة إلى الزمان الأخروي، وذلك بعض من مطلق الزمان، فإن الدنيا يوم، والآخرة يوم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ظَٰلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: 18].

فهم إنما يتمنون ذلك في الآخرة، وزمانها بعض من مطلق الزمان، كما ذكرنا آنفاً، وكأنه تعالى يقول: إنهم لا يقصدون الإيمان في الدنيا؛ لانغماسهم في الغفلة، واستحبابهم الحياة الدنيا، فإذا كانوا في الآخرة التي هي كالغد للدنيا تمنُّوا ذلك، فيكون (ربَّ) للتقليل بالنسبة إلى اليوم الثاني.

فإن قلت: كيف يكون يوم الآخرة قليلاً مع أنه أطول من يوم الدنيا؟

قلت: المراد البعض مطلقاً، أو هو راجعٌ إلى معنى آخر يعرفه أرباب الحقائق.

والوجه الثاني: أن (رُبَّ) هاهنا بالتحقيق لا بالتقليل، وإن دخلت على المضارع، وذلك أنها إذا دلت على المضارع الذي يقتضي الزمان فحكمها حكم ما دخلت على الماضي.

كما في (قد) الواقعة في قوله تعالى: ﴿يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ وَأَنفِقُواْ﴾ [النور: 63]، [الأحزاب: 18]، فإن الله تعالى لا يجري عليه زمانٌ، فعلمه ليس بمقيَّد بواحدٍ من الأزمنة، بل هو عالم في جميع الأزمنة على سواء على التحقيق، وكذا الآخرة لا يُجرى عليها زمان؛ لأنه لا ليل ولا نهار هناك إلا بالاعتبار، فهما الليل والنهار حكماً لا حقيقةً.

فـ(رُبَّ) هاهنا كـ(قد) الداخلة على المضارع الذي لا يقتضي الزمان، فيكون المراد تحقق ودادتهم لا تقليل، وفي إيرادها على المضارع نوع تهكم بهم، كما يقتضيه الذوق الصحيح.

ودلَّ على ما ذكرنا قوله تعالى ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ ٱلْأَخِرَةِ أَعۡمَىٰ لَا﴾ [النور: 64]، فإنهم إذا كانوا مستمرين على ما هم عليه، فعلمه تعالى به مستمرّاً أيضاً على أن العرب تقول في صورة الأطماع ربما يكون، فإنه يورده في صورة الاحتمال، والمراد القطع.

ويظهره قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠﴾ [المائدة: 8]، فإنه جعل العدل أقرب للتقوى من سائر الصفات مع أنه من نفس التقوى؛ لأن في العدل حذراً وتوقياً عن الظلم، وكذا في سائر الطاعات، فإن فيها كلها احترازاً عن المعاصي، وقولهم يشبه أن يكون هذا من هذا الباب من ذلك القبيل ونحوه قول المعجم شادمان: إذ ليس المقصود التشبيه، بل الإخبار عن الفرح والسرور، وربما يكون المراد بالاحتمال الإشارة إلى عدم الوقوع إذا كان هناك قرينة، كما إذا كان القائل غير معروف بالكرم وصدق الوعد، وأما الوعيد فهو عند أهل التحقيق يجري فيه الخلف، وإن كان بطريق القطع والتحقيق؛ لأنه من باب الكرم عند العرب، بخلاف الخلف في الوعد، والفرق أن في خلف الوعد ضرر الجانب الموعود، وأما في خلف الوعيد فنفع للمتوعد، والله يفعل ما يشاء.

وقد قال تعالى: ﴿أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ﴾ [الزمر: 47]، فرُبَّ خصم يجد الخصم مصالحاً يومئذٍ، ورُبَّ منكر عمله على الإقرار ما بدا له من خلافً عقيدة في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [الحجر: 40].

اعلم أن الشيطان كاذب؛ لأنه كافر، والكافر لا يتحاشى عن الكذب غالباً إلا في هذا المحلِّ ونحوه، فإنه صَدق فيه من جهة معرفته أنه لا بد له على المخلصين؛ وهم عباده المضافون إلى الكاف في هذه الآية، وإلى الياء في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ لَهُمۡ﴾ [الحجر: 42].

وفي هذه الإضافة تشريفٌ لهم جداً من حيث إنهم عباده تعالى لا عباد الشيطان والنفس، والهوى، والدنيا، ففيه إشارة إلى أن مَن اتَّبع خُطوات الشيطان؛ فإنه في حكم عبد الشيطان.

وكذا مَن آثر الحياة الدنيا، فقد ورد: «**تعس عبد الدرهم والدينار**»[1] وكذا مَن اتَّبع هواه كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا﴾ [إبراهيم: 35] أي: الهوى، والدرهم والدينار، وسائر متاع الدنيا المرغوب عند أهلها؛ لأن في كل ذلك ميلاً وانحرافاً عن الظاهر إلى المظهر لا سيما المظهر الذي يُضلُّ الله به الظالمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: 88]، وإنما نهاه عن مد العين إلى زهرة الحياة الدنيا؛ لأن ذلك من الذرائع إلى دخول حبِّ ما سوى الله في القلب، وتمكُّنه فيه، فلا بد من سدِّها بعض العين، وعدم الالتفات إلى الدنيا وزخارفها.

وقد ابتلى أكثر الناس في هذا الزمان بعرض الزين، وكذا بمدِّ العين، فضلُّوا وأضلُّوا، وكانوا من أعوان الشيطان، ونوَّابه في إضلال مَن يستحب الحياة الدنيا على الآخرة بخلاف غيره؛ وهو مَن يستحب الآخرة على الدنيا؛ وهم أهل الآخرة الذين كانت الدنيا حراماً عليهم أي: منعوها عن أنفسهم منع الحرام، وكذا مَن يستحب الله تعالى عن الدَّارين؛ وهم أهل الله الذين كانت الدنيا والآخرة حراماً عليهم؛ بمعنى أنهم عملوا لله بأبدانهم؛ لكن اشتُغلوا بربهم عن الالتفات إلى أعمالهم، فإن الشيطان لا يحوم حولهم.

والحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم.

ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلَّصوا عن شوائب النفسانية.

فهم فَانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

---

(1) ورد بلفظ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط غضب تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقس» رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (2363) [2/ 64] ورواه بنحوه غيره.

ولقد غلب عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضاً ممَن يتذكَّر ويُبصر لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيَّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمَّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقاً بين المقامين.

قال الله سبحانه: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ﴾ [الحجر: 65].

يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواه، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقتضي للفناء المنتهي إلى الجمال المستلزم للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «**عليكم بالدلجة**»؛ فإن الأرض تُطوى في الليل.

والدلجة: السير في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلُّونها لما يُورثهم النسيم الرحماني في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللَّذات والنشاط.

وفيه أن الأهل: وهي المخدّرات ينبغي أن يكون خروجهنَّ من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛ لأنه أستر لهنَّ، وأهل الحرمين الشريفين يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن بالنهار ألبتَّة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي[*] حتى إن العروس تُزفُّ إلى بيت زوجها بعد المغرب حين تنقطع الأقدام من السكك والأسواق.

وقوله ﷺ: «**واتبع أدبارهم**»[1]؛ إشارة إلى حال رئيس القوم فإنه يسوقهم من ورائهم سوقاً لطيفاً، أو لو خلَّاهم وطبعهم مالوا إلى بعض الأمور الطبيعية الشهوانية، فينقطعون عن الطريق، ويحلُّ بهم غضب الله تعالى كما يحلُّ بالمنقطعين؛ لأن الوقت لا يقتضي إلا الإسراع، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهَ غَفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ﴾ [آل عمران: 133] أي: إلى أسبابها، ومن ذلك السير المأمور في الليل.

(*) كذا ورد في الأصل ولم يظهر لي المقصود منها ولعلها (الشفق).

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ [الحجر: 65].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ فَاعْلَمْ﴾ [الحجر: 65].

أي: في سيره إلى ورائه، كما كان حال النبي ﷺ؛ فإنه كان لا يلتفت إلى يمينه وشماله، ولا إلى جهة من جهاته، ولو بدا له، لم يلوِ عنقه؛ بل التفت بكله ليكون التوجه أحدياً، وهذا إذا كان الالتفات مما لا يضرُّ، ولم يكن منهيّاً.

وأمَّا إذا كان مضراً منهيّاً؛ فلا التفات أصلاً كما كان ليلة المعراج، وفيه إشارة إلى حال السالكين، فإنهم إذا كانوا محققين، وفي سيرهم مجدين محفين، فهم لا يلتفتون عن السمت أصلاً؛ بل أخرجوا، كان خروجهم بالله.

ومن ثمرة هذا الخروج أن الخارج ينقطع تعلُّقه عن مخرجه بالكلية فلا يقصد إلا السمت، فإذا حصل المقصد بالوصول إلى المنزل؛ فالأمر بيد الله تعالى أيضاً، فإن هو ردَّه إلى حيث جاء؛ فقد انقطع عن ذلك المنزلة بالكلية، وكان سيره إلى المخرج الأول؛ كأنه سير أوَّلي ابتدائي.

فالسالك العارف لا بد له من هذه المعرفة؛ وهي أن يجعل سيره سيراً أحدياً لا يخطر بباله في سيره ذلك رجوعه إلى مخرجه أبداً، ثم إذا رجع؛ رجع بتلك الأحدية بحيث لا يُشوَّش خاطره بالتعلُّق بذلك المنزل، ويجعله عنده نَسياً مَنسياً؛ فهذا هو السير بالله، وليس فيه حكم طبع ونفس أبداً.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ [الحجر: 65].

أي: مضياً مقطوعاً، فإنكم مأمورون، والمأمور لا يفعل أمراً بطبعه؛ بل بربه وهُداه، ومن هذا المقام نُبّه داود النبي ﷺ لمَّا خرج إلى محاربة جالوت: ألا يخرج معه أحد من أهل التعلُّق أيَّ: تعلُّق كان، فإن ذلك يقطع طريقه، وطريق مَن معه من حيث لا يحتسب، ولم أجد في زماني هذا من أهل هذا الباب، والله أعلم.

* * *

{سورة النحل}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [النحل: 70].

نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله، كان علمه علماً واحداً، هو علمه بالله تعالى، فهو أجلُّ العلوم، كما أن الله تعالى أجلُّ المعلومات يعني: إن أجلَّ العلوم هو ما تعلَّق بأجلِّ المعلومات، وأمَّا ما عده مما تعلَّق بغير الله تعالى؛ فدونه.

فظهر أن علم التصوُّف أجلُّ العلوم، ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم، وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلِّقة بالأكوان؛ بل كانت عُلوية متعلِّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوُّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوُّف فرموز، وإشارات، ورسوم.

وإنما نُكِّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضاً في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد، فإذا اتَّحد العلم؛ اتَّحدت الأشياء، ولمَّا لم تكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها، وإنما خُلقت كتلوِّن زوال، وشواهد اضمحلَّت عند حصول الفناء، فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء.

{وفي سورة الإسراء}

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ [الإسراء: 16]؛ المراد من تدمير القرية: تدميرها، وتدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها.

ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قرى قوم لوط، فقلَّبها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعاً، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يّس.

وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدمَّرة مخصوصة حسبما اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخصَّ المترفين أي: المنعَّمين؛ لأن الفقراء تبعٌ لهم، والناس على دين ملوكهم.

والسمك يتغيَّر من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولأتباعهم حرمة أصلاً على أن الأتباع إن كانوا عصاة أيضاً؛ فهم أُسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداهنة، أو السكوت عن الحق.

وفيه إشارة إلى قرية القالب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلُحت؛ صلُح الجسد، وإن هلكت؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

وقد قال تعالى: ﴿أَوَقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ فَٱعۡلَمۡ﴾ [الأعراف: 56]، وقال: ﴿ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۖ ٱللَّهِۚ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ لَهُۥ كُن﴾ [الرعد: 11].

فالفاسد المفسد، الهالك المهلك لا يلحقه إلا الفساد والهلاك؛ لأنه جزاؤه، وصورة عمله، والله تعالى نسأل أن لا يهلكنا بسوء الأعمال، ونتوب إليه من رديئات الأحوال.

قال تعالى: ﴿وَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا حِيلَ لِّلۡيُسۡرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: 82].

قدَّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلِّقة بالأدعية.

لطيفة وفائدة: قد صحَّ أن الفاتحة شفاء من كل داء، إذا قُرئت ونفخت

بحضور القلب، وكذا إذا كُتبت في إناء، وغُسِّل الرسم بماء مطلق، أو بماء الورد، وشربه المريض، أو مَن في حكمه، وكذا إذا كُتبت، وعُلِّقت على الأعناق والصدور، فكما لا بد من حضور القلب في جانب القارىء والكاتب؛ فكذا لا بد من حسن الاعتقاد، وحسن الظنِّ بالله في جانب المقروء عليه، والمكتوب له إذا كان من شأنه ذلك.

ولذا قُيِّد بكونه شفاءً للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاءً بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفوه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمَن لم يتكلَّم بكلمته، ولم يعتقده؛ لم يكن التوحيد حاصلاً بالنسبة إليه؛ أي بالفعل كمَن عنده عسل، وهو يُنكر حلاوته؛ لغلبة الاصفرار على مزاجه، أو كان الضرير يُنكر نور الشمس، وهو ظاهر.

والحاصل: إن القصور، والهمم، والنيَّات مؤثِّرة جداً غالباً، وإنما قلنا: غالباً؛ لأنه قد يتخلَّف التأثير بحسب بعض العوارض، والموانع.

ألا ترى أن بعض الأنبياء يجيء يوم القيامة، وليس معه أحد؛ لغلبة الظلمات على نفوس أمته، فكانوا بحيث لا يتأثَّرون من كلامه، وإن كان كلامه جَد مقروناً بالهمة القوية، وقد جدَّ نبينا ﷺ في إيمان عمه أبي طالب، واهتم بذلك؛ لكن لم يعقبه التأثير، والله يفعل ما يشاء.

والرحمة؛ إشارة إلى ما في القرآن من الوعد والبشرى نحو قوله تعالى:

﴿ مِنَ فَسْـَٔلُوٓاْأَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن﴾ [الأنعام: 54].

وقوله: ﴿فِيهِۚ إِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ﴾ [الزمر: 53].

وقوله: ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ﴾ [الأعراف: 156]، ونحو ذلك؛ فهي رحمة خاصة تحصل للمؤمن في الدَّارين.

فإن قلت: فهذه الرحمة لكونها مقيدة بكونها للمؤمنين ليس للشيطان نصيب منها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [الأنبياء: 107] فيقتضي خلافه لعمومه.

قلت: هذه الرحمة أيضاً خاصة ليس للشيطان نصيب منها؛ لأنه كافر، فصار كالممرور المذكور الذي لا يجد حلاوة العسل، فينكره، فالمانع ليس من جانب

المرسل؛ بل من جانب المرسَل إليه.

ألا ترى أن نور الشمس إنما يدخل في البيت إذا كان له كُوة، وأمَّا المطبق الغير النافذ فليس له نور، وإن كان النور حاصلاً في نفس الأمر، فانظر إلى تفاوت الناس في استعداداتهم؛ فأعلى، وأوسط، وأدنى.

فالأعلى: هو المؤمن الكامل المنوَّر بنور الحق تعالى بالفعل من جميع جهاته.

والأوسط: هو المؤمن الناقص المنوَّر بالفعل من بعض جهاته.

والأدنى: هو المسدود عليه باب ذلك النور.

فالأعلى المقرَّبون، والأوسط الأبرار، والأدنى الأشرار.

ثم إن المنزَّل عليه، هو قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ﴿١٩٣﴾ الْمَوْتُ وَأَنفِقُوا۟﴾ [الشعراء: 193، 194]، وذلك من طريق الأصالة.

وقد ينزل على قلب الوارث؛ لأن القلب واحد في الحقيقة؛ وإنما ظهر له شعب بالنسبة إلى اختلاف أرباب القلوب، وذلك من طريق المتابعة، ولا يزيد على المنزل الأول من حيث الأحكام، وإلا كان وسواساً، أو خيالاً، وكذا من حيث النظم، والمعنى، والحقائق، إنما التفاوت بالنسبة إلى المنزَّل عليه، فقد يحصل لبعضهم من المزايا لم يحصل لغيرهم فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، فخفى على قوم، وبدا لآخرين، وبذلك جُعلت الطبقات مختلفة، فأين علوم المؤمنين عامة من علوم الأولياء؟ وأين علوم الأولياء من علوم الأنبياء، والمرسلين، وأولي العزم؟ فاعرف ذلك.

وقال المصنف في موضع آخر: قال تعالى في سورة الإسراء:

﴿أَهْلِكَ ۚ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: 16].

من القرى، وبلدة من البلاد، وموضعاً من المواضع، والإرادة تخصيص أحد الجانبين من الوجود، والعدم بالوقوع؛ والقدرة هي القوة على الإيقاع، ولا تعلَّق بالإهلاك والإعدام في الحقيقة؛ بل بالإنشاء والإيجاد، فإن إهلاك الشيء بحسب موطنه إيجاد له في موطن آخر، ونظائر الآية كثيرة نحو: إن يشأ يذهبكم، أيها الناس أي: يذهب صوركم من هذا الموطن، ويظهركم في صورة أخرى في غير هذا الموطن، فإذا الأمر إعدام، وإيجاد؛ والوجود هو متعلِّق الإرادة، والقدرة لا العدم، وإن كان المقدور معدوماً لا موجوداً.

ثم أشار إلى سبب الإهلاك فقال الله: ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْمَيِّتَمِينَ ﴾ [الإسراء: 16]؛ هو الأمر الإرادي لا الأمر التكليفي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر والفسوق والعصيان، وإن كان ذلك مما يشاء؛ كأنه قال: يتعلَّق أمرنا وإرادتنا بفسقهم الذي جُبلوا عليه على ما علمنا من استعدادتهم الغير المجعولة.

فالعلم تابع للمعلوم، والمعلوم لا يتعيَّن في العين الخارجي إلا في وقت معلوم، والله تعالى هو الخلاَّق المظهر لكل شيء في وقته المعيَّن بحسب ما يقتضيه استعداده الأزلي، وقابليته القديمة حين كونه شأناً ذاتياً فعلى ما كان ذاتياً على ما يقتضيه استعداده أن يريده ويخلقه، فهذا ودع القيل والقال.

فإن أهل التفسير ذهب كل منهم في هذه الآية إلى نوع من المقال، والذي ذكرناه هو حقيقة الحال، والحق الذي لا محيد عنه بحال من الأحوال، وماذا بعد الحق إلا الضلال!

وقال الله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الإسراء: 44].

عطف قوله: ومن فيهن على نفس السموات والأرض، ويدلُّ على أن التسبيح ليس بمخصوص بمَن فيهن من ذَوي العقول؛ بل هو عام لمَن فيهن لأجزائهنَّ؛ كأنهنَّ وإن كنَّ في صورة الجمادات؛ لكن الله تعالى خلق الأشياء كلها بحيث يصحُّ منها التوحيد والتسبيح لِما أنها من ذَوي العلم والحياة في الحقيقة؛ ولذا قالوا: العالم كله سماع أي: يسمع منه التسبيح بالنسبة إلى المكاشف.

وأمَّا المحجوب: فلا يرى التسبيح إلا من ذوي العلم، والحياة الظاهرة الحسية؛ فيُحمل تسبيح ما عداهم على معنى الدلالة على ما عليه أهل الظاهر، وتكذِّبهم الآية؛ ولأجل تأكيد ذلك المعنى قال تعالى: ﴿ ٱلْمَلَآئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ ﴾ [الإسراء: 44]؛ يعني: كل موجود وقع له التجلِّي الروحاني والجسماني؛ فهو مسبِّح لربه وحامد.

فإن كل مخلوق خاضع لخالقه، فإن قلت: قد نرى الكفار، أنهم لا يسبِّحون؛ قلت: أمَّا إنهم من حيث ذواتهم فدائمون على التسبيح؛ بل كل نَفسٍ من الأنفاس الإنسانية يخرج من الفمِّ على صورة؛ هو رمز إلى الهُويَّة الذاتية، وأمَّا من حيث صفاتهم؛ فغافلون عنه.

ومن ثم بعث الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأنهم يدعون الخلق إلى كلمة التوحيد،

والتنزيه لا إلى نفس التوحيد والتنزيه، فإنه متحقِّق في العالم بأسره سواء قال بكلمته أهله أو لا.

ومن هنا يعرف أن الله تعالى ليس بمحجوب عن الخلق؛ لأنه متجلٍّ فيهم بأسرار ذاته، وأنوار صفاته بخلاف الخلق؛ فإنهم محجوبون عنه تعالى إلا المؤمن الكامل، ومن ثم وقع الجحود، والكفر، والشرك، فلو كُشف الغطاء؛ وهو غطاء البشرية، وما يتبعه لم يظهر إلا التسبيح؛ وهو التسبيح الصفاتي الموافق للتسبيح الذاتي، فانظر إن الإنسان في صورة الموافقة في عين المخالفة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدُوْاِنَّهُ لَيَسَ مِنّ﴾ [الإسراء: 44]، لم يقل: ولكن لا تسمعون تسبيحهم مع ظهوره؛ لأن المقصود الأصلي من سماع التسبيح هو: فقه معناه، والوصول إلى معرفة الحقائق، وإذ لا فائدة في مجرَّد السمع والبصر بدون الإدراك الحقيقي خص الفقه بالذكر، ومن هذا القبيل ما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]؛ يعني: إن صورة النظر لا تقتضي حقيقة الإبصار.

فالنبي وغيره مشتركان في صورة الإبصار والإحساس؛ لأن الكل من حيث صورته، ومَن ناظر إليه من حيث حقيقته، فالناظر بالنظر الأول؛ أهل الحجاب، والناظر بالنظر الثاني؛ أهل الكشف، وقد فرَّق الله تعالى بين صورة النبي ومعناه بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِجَوْفِهِۦ﴾ [الكهف: 110].

فإن البشرية مما يلي جانب الخلق، والوحي مما يلي جانب الحق، فالخلق ظاهر، والحق مستور عند المحجوب، والأمر بالعكس عند المكاشف.

ولذا قال في كل حال: لا إله إلا هو، اللّهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، والمبصرين للصورة.

وقال تعالى: ﴿أَهْلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْمَيِّتِينَ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الإسراء: 58].

أشار بالقرية إلى قرية القالب الإنساني التي يسكنها القلب؛ فإنها تُخرَّب بالموت الطبيعي الذي هو القيامة الصغرى قبل أن تقوم القيامة الكبرى، كما تُخرَّب القرية بما هو في حكم الموت من الآفات، وهذا الخراب لا يقبل العمارة أصلاً؛ لأنه لا حياة بعد الموت.

وبالنسبة إلى العادة الإلهية كما قال حكاية عن عزيز عليه السلام: ﴿وَمَرَةٍ إِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ ٱلصَّـٰلِحِينَ فِى﴾ [البقرة: 259]؛ ومعنى العذاب إصابة الشدائد، ومسُّ المحن والمكاره، فإن ذلك في حكم العذاب الأخروي، فكما أن العذاب الأخروي لتخليص الجوهر عن الكدورات؛ فكذا الابتلاء الدنيوي، كما قال تعالى: ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ٱللَّهِ﴾ [السجدة: 21].

فالعذاب الأدنى هو: العذاب الدنيوي، كما أن العذاب الأكبر هو: العذاب الأخروي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [الغاشية: 25] بعد قوله ٱلْأَخِرَةِ وَعَمَىٰ لَا رَيْبَ ﴿٢٣﴾ فِيهِ ءَايَٰتٍ وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ [الغاشية: 23، 24].

فلا رجوع عن الكفر والمعاصي بعد الوقوع في العذاب الأكبر؛ بل إنما يتحقق ذلك في العذاب الأدنى فإن تحقق؛ فذلك رحمة في صورة العذاب، وإلا فذلك رجزٌ وغضبٌ من الله؛ كالطاعون حيث كان رحمةً وشهادةً للمؤمن، وغضباً وإهانةً للكافر، فهذا العذاب ليس في حكم الخراب بالكلية، فقد يرفعه الله بعد تمام الابتلاء؛ فيكون القالب والقلب معمورين على حالهما.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي: إن خراب القالب عبارة عن خراب القلب بالفناء الكلي؛ لأن المراد بالفناء هو زوال التعلُّق بالتعينات، وتعيُّن القالب أظهر من تعيُّن القلب بالمعقولات وهذا حال الكُمَّل فإنهم بعد إصلاح الطبيعة بالشريعة، وإصلاح النفس بالطريقة؛ عرجوا إلى درجة المعرفة، والحقيقة بإصلاح الروح، والسرِّ بقطع العلائق عن الكون.

وأمَّا التعذيب فحال مَن دونهم من أهل السلوك الذين شدَّدوا على أنفسهم بأنواع الرياضات والمجاهدات لكنهم لم يصلوا إلى الموصول إليه الكُمَّل من الفناء الكلي؛ بل بقوا في بعض مواطن السلوك إلى أن انتقلوا بالموت الطبيعي من هذه النشأة، فحصول مرادهم بيد الله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ أَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [النساء: 100].

فكما أن المتوفَّى في طريق الحج المعنوي؛ فإنه يلتحق بالكُمَّل من حيث قصده، فإن الذُّريَّة الصالحة يلتحقون بآبائهم على ما نطق به الكتاب، وهم أشرف الذُّريَّة؛ لكون نسبهم نسب التقوى.

وقد ورد: «**كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي**»[1].

(1) أورده اسماعيل حقي البروسوي في روح البيان، سورة الشعراء، آية 200 [6/ 308].

فالنسب الذي لا ينقطع، هو نسب التقوى وأهله، وهو الهاشمي حقيقة، وأهل البيت حقّاً كما أشار إليه قوله: «**سلمان منَّا أهل البيت**»[1].

ولن يتشرف بهذا المقام على حقيقته إلا مَن أذهب الله عنه الرجس، وطهَّره تطهيراً، فلا يطمع فيه الطامعون إلا من طريقه، فإنه طمعٌ فارغٌ، ولشرف هذا المقام؛ قدَّم الله القرية الهالكة على القرية المعذَّبة؛ لأن المقصد من التعذيب هو التخريب.

وقد قال بعض الكبار: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهاراً علناً؛ يعني: لا بد من تخريب الهيكل الذي تعيُّنه أشدُّ من سائر التعينات، وتخريبه إنما هو بالرياضات الشاقة بحيث تفنى الطبيعة والنفس عن الشهوات والهوى؛ بل الروح عن الميل إلى المعارف، والتغيُّر عن الالتفات إلى شيء مما سوى الله تعالى.

وقال الله سبحانه: ﴿ مِن فَسَئَلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الإسراء: 85].

اعلم أن الروح نصفه تركي، ونصفه عربي، هكذا أثبت عند أهل الله.

معناه: إن البحث عن نصفه متروك؛ لأنه من عالم اللطائف، فلا يحرر بالقلم، ولا يقرر باللسان؛ بل يحال على الذوق، وإليه الإشارة بالأمر؛ لأن عالم الأمر عالم الإبداع، والاختراع من غير مادة، ولا في مدة.

ونصفه مُعرب عنه؛ لأنه من عالم الكثائف، فيحرر بالقلم، ويذكر باللسان، ولا يحال على الذوق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن﴾، وقدَّم الخلق على الأمر حيث قال: ﴿ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54]؛ لأن عالم الخلق يلينا، ففيه ترقٍ من الأدنى إلى الأعلى؛ ولذا قال: ﴿أَعۡلَمُ حَيۡثُ﴾ [الأعراف: 54]؛ إشارة إلى الأمر، ثم قال: ﴿يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأعراف: 54]، إشارة إلى الخلق؛ لأن أُلوهيته ناظرة إلى عالم الأمر، كما أن ربوبيته ناظرة إلى عالم الخلق.

والحاصل أنه أسند التبارك إلى الأُلوهية؛ لوقوعه قرب الأمر، ثم وصفه بالربوبية نظراً إلى بعد الخلق، فكان الروح أول عالم الإبداع، وأسبق تجلياته سبحانه، وكان له تعين في ذلك العالم، وهو التعين الروحاني، فدار في عالمه يوماً واحداً من الأيام الإلهية، وهو ألف سنة وهو عالم القلم والعقل، ثم تنزَّل إلى عالم الأرواح فدار في عالم اللوح أيضاً يوماً واحداً من تلك الأيام، ثم تنزَّل إلى عالم

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر سلمان الفارسي، حديث رقم (6539) [3/ 691] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (6040) [6/ 212] ورواه غيرهما.

الخلق؛ فكان خلق الروح أقدم من خلق الخلق بألفي سنة على ما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة.

وكان مرتبة الروح مرتبة الحياة والعلم؛ لأنه حيٌّ بالأسماء الإلهية، وتنفست من مضايق كون الغيب. وتنزَّل العلم من الثبوت إلى الوجود، ويشير إليه لفظ الروح؛ لأنه من الريح، وهو النفس الرحماني المفاض عليه، وكان مرتبة الخلق مرتبة القدرة والإرادة كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يٓس: 82]؛ فإن فيه إشارة إلى أن تكون الأشياء الخارجة مبنيّة على القدرة والإرادة، وأن المكوَّن بالفتح يدور مع المكوِّن؛ لأن تعينه تابع لقوله تعالى أي: لقائه فافهم.

فكان ظهور الروح في كل مرتبة من مراتب التكوين بحسب قابليتها واستعدادها؛ لأن نور الشمس لا ينعكس إلى البيت إلا بقدر وزنته ففرَّق بين الصحراء والبيت.

ولمَّا كان مرتبة النفس أنزل من مرتبة الروح؛ قالوا: النفس الجمادي، والنفس النباتي، والنفس الحيواني، والنفس الإنساني، ثم ظهر كلياته في النفس المحمَّدي، فكانت الأشياء بصورها وأرواحها مرآة للصورة المحمَّدية، والروح المحمَّدية، فسألوه لا غيره عن الروح؛ لأن روحه عليه السلام أبو الأرواح، وكان واقفاً على جليِّة الحال في أمر الروح؛ لأن الله تعالى خلقه على أحسن تقويم، وأعدل مزاج، فلم يخف عليه شيء من الأشياء إلا ما استأثر الله تعالى في علمه؛ وهي الممتنعات الغير المتجليَّة بصورة من الصور الخارجية أية صورة كانت، فبقيت في العلم الإلهي أبداً.

فقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]. تعريف له: بأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ لكنه لمَّا تعلَّق بعالم الخلق؛ وهو مرادنا من قولنا: إن نصفه عربي معرب عنه؛ اشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلُّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرُّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلُّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: مَن قال: سبحان مَن أظهر الأشياء، وهو عينها، ولذا لم يقل: سبحان مَن خلق الأشياء؛ وهو عينها.

ومن ثمَّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوأ الكلام، ثم إن هذا

التعلُّق لا ينقطع أبداً من الأشياء؛ لأن التجليَّات لا تنقلب العدم البتة وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلَّق بالإنسان ما دام حيّاً، فإذا مات؛ تعلَّق بعناصره إلى أن ينشئه الله ثانياً، وإنما تمنَّى الكافر أن يكون تراباً؛ لأن التراب أبعده عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على مَن كذب وتولى لا على مَن أعطاه الله خلقه فهُدي فافهم جداً.

ثم إنه ﷺ إنما توقف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرئي له ملكوت السموات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فاقتضى الأدب الإلهي ألا يتكلم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرُّ قوله تعالى:
مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ﴾ [الإسراء: 85].

وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيراً؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتجابهم بالغواشي البشرية.

أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحاً من عيسى عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ٱلصَّٰلِحِينَ فِي﴾ [النساء: 171] أي: إن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ بل من الروح الأمين؛ لأنه هو النافخ، ومن ثم كان الحضرة النبوية جَدّاً للحضرة العيسوية، فاعرف جداً.

فعرف أنه قلة العلم إنما هي بالنسبة إلى السائلين ونحوهم لا بالنسبة إلى المجيب، فكانت علومهم وعلوم جميع الخلق علواً وسفلاً بالنسبة إلى علمه المحيط؛ كقطرة من سبعة أبحر؛ فكأنه قال: أوتيتم من العلم قليلاً، وأوتي محمد ﷺ كثيراً؛ فهذه إضافة علمية بالنسبة إلى الخلق، كما يقتضيه المقام، ويستدعيه السوق.

وأمَّا علم الله تعالى فلا تعتبر فيه الإضافة أصلاً؛ لأنه علم الخالق، ولا شك أن المخلوق إنما يستفيد العلم من الخالق؛ فهو مصدر العلم المطلق منبعه فلا يضاف إلى علمه علم إلا وهو يجنيه؛ كقطرة من سبعة أبحر، أو كأمر معلوم لا وجود له.

فانظر أن الله تعالى هو العليم الخبير فلا يخبر عن الغيب إلا هو، ولا يظهر على غيبه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول؛ وهو الرسول المطلق المظهر بجميع

الحقائق الأسماء الإلهية على التفضيل المظهر للحكم، والعلوم للمستأهلين بقدر قابليتهم الأولية، واستعدادتهم الأزلية، وعلى أثره يمشي مَن اتبعه على بصيرة في جميع المراتب، والله تعالى خير المطالب.

❊ ❊ ❊

{سورة الكهف}

قال الله تعالى: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ وَٱللَّهَ تَغْفَرَ﴾ [الكهف: 18].

إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المنتبهين، فمَن نظر إليهم ممَن هو مثلهم في الغفلة عن الله تعالى يراهم متيقِّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر.

وإمَّا إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلَّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحسِّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله.

فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دماً، فالاشتراك، في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحاً من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نوراً؛ أي يرجع إلى قوته.

والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدّاً، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

لطيفة: واعلم أن من عادة الله سبحانه مع هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي شرَّفه الله لمزيد الترقِّي أن يرقيه إلى أعلى ما كان فيه من المراتب، وأن يفيض عليه من علمه ما لم يكن عنده قبل، وذلك في كل سبع سنين من سني العمر لكن لمَّا كان الترقِّي موقوفاً على المنحة والمحنة، وإن كانت لا تنتج شيئاً؛ لكن الصبر عليها، والرضا بها مما له عاقبة حميدة، والمحنة أيضاً على صور شتَّى بحسب

الاستعدادات؛ فكانت صورة ابتلائي بالسفر من دار إلى دار، والهجرة من أرض إلى أرض؛ فكان أول ما قضى الله عليَّ من السفر؛ الحركة إلى بلدة الأسكوب من البلاد الرومية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالهجرة إلى جانب بلدة برونية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالسفر القبريسي، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالغزو، ثم الحج، وموت الأولاد في البيْن، ومُقاساة شدائد المعارك، وفي طريق الحج حتى انسلخت عن جميع ما بدا من الكتب الجليلة، والأموال النفيسة، وسُلِّمت الروح إلى الله تعالى حتى كان، ثم بعد سبع سنين وقعت الحركة إلى جانب مسقط الرأس؛ لزيارة قبر الأبوين، ثم بعد سبع سنين وقع سفر الحج الثاني، ثم بعد سبع سنين أُمرت من الجانب الإلهي بالهجرة ببرسه إلى الشام، فانسخلت عن جميع المتعلِّقات، ووقع ذلك في التاسعة والعشرين بعد المائة بعد الألف.

فهذه السنون تزيد على الأربعين، ثم الله تعالى يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، ولا رادَ لقضائه، وكل ذلك كان بإشارة من الله تعالى لا بالاختيار من جانبي، فإن الحركة الاختيارية نفسانية لا تنتج شيئاً، فالعاقبة الحميدة ما يعقبها الأمر الإلهي لا غير.

وأمَّا البلايا الأخر فيما بين هذه الأسفار ولا تُعدُّ ولا تُحصى؛ لكثرتها، وقد ورد في الحديث: «**ما ابتلي أحد من الأنبياء مثل ما ابتليت به**»[1].

ففي الابتلاء جلاء القلوب، وصقالتها، وجعلها متَّسعة؛ لتجلِّي الحضرة الإلهية، فإن التجليَّات مَنوطة بغير الملائم غالباً؛ ولذا كان أشدُّ البلاء على الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، ثم إن فوق هذا الابتلاء ابتلاء آخر؛ وهو الدعاء للقوم الغلاظ الشداد بالرحمة والهداية.

كما قال: «**اللّهم اهدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[2] أي: ليس لهم معرفة بالله تعالى، ولو عرفوه وقدَّروه حق قدره لما صدر عنهم ما صدر من الأذى والجفاء، ورد الدعوة، والتجاوز عن المقاولة باللسان إلى المطارحة بالسيئات، وكان الأنبياء قبله مأذونين بالدعاء على قومه.

ألا ترى إلى نوح عليه السلام كيف قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

﴿لَهُمْ﴾ [نوح: 26]؛ وفيه شفاء للقلب، ورفع للغيظ.

وأين هذا من الدعاء بالهداية؟ فقد قابلهم النبي ﷺ بالدعاء لهم؛ وهو من الإقبال عليهم لِما عُرف أن بينه وبين أمته رقيقة من الروح الإلهي؛ فكان روحه روح جميع الأرواح، كما أن أجسادهم جسده، والكل لا يقبل على الجزء إلا بالمرحمة، إلا أن يقتضي الحكمة الغضب عليه، كما إذ ألبست الجبة عضو من الأعضاء، أو ظهر فيها من الأكلة فإنها تُقطع، وذلك القطع، وإن كان نقصاناً في الظاهر لكنه كمال في الباطن، فالقضاء يُردُّ بالقضاء، ومَن عرف الله تعالى، يُخبر في أمره، ودار في البلاد، وسافر من اسم إلى اسم إلى أن يقضي الله أمره، وكان أمر الله مفعولاً.

اعلم أن شيخي وسندي في جميع المنال والأطوار الشيخ السيد عثمان الفضلي الإلهي قُدِّس سرُّه: نفخ الروح في قلب هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي غفر ذنبه ووجوده، وأنا ابن ثلاث وعشرين سنة، وذلك في سورة الفاتحة التي هي جامعة لجميع الحقائق، ثم لمَّا مضت عليه سبع عشرة سنة، وناهزت الأربعين، وقرب انتقاله من هذا الموطن دعاني، ودعا لي وقال لي: لم يتعلَّق قلبي بمَن سواك من خلفائي، وهم كثيرون قدر مائة وخمسين كلهم من أهل العلم، وهذه علامة لميراثك، ثم وضع مسبحته على فمه.

وقال: هذا النفس ينتقل مني بعدي إليك، فقبَّلت ذيله واستبشرت.

فكان كما قال بإذن الله حتى إني لقيت حضرة الخضر عليه السلام في حطيم الكعبة، فقال لي: يا هو! أنا الخضر فما مرادك؟ فقلت: مرادي خير الدعاء منك فقال: جعلك الله من الأنفاس، ثم غاب، والأنفاس باب من أبواب «الفتوحات المكية» فليطالع هنالك.

وكذا نفخ في فمي حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر، وسرُّ نفخه مذكور في شرح التجليَّات [خلفائه][1]، ومرادي في هذا المقام بيان أن النهاية راجعة إلى البداية حيث كان أول ما وقع من شيخي المقدَّس روحه النفس، وكذا آخره، فدار العَود على البدء دوراً مع زيادة كيفية في العود حسبما تقتضيه الحركة الدورية في السلوك إلى الله تعالى، فإن السلوك دوري لا خطي، وكذا جميع اللواحق مع السوالف، وإن خُفي على العامة.

(1) كذا ورد في الأصل.

والله تعالى نسأل أن يردنا إليه وهو راضٍ عنا، وأن يلبسنا وجوداً حقانياً حين أخذ الفاني منا بحرمة المصطفى ﷺ، وبجاه آله وأصحابه، وكُمَّل أمته، وهو الواسع رحمته، والعام بركاته.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَجْعَلُ سَائِلَتَهُ فِي جَوْفِهِ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ إِلَّا﴾ [الكهف: 28].

أي: شأنهم الدعاء في غداة الأزل والعلم، وفي عشي الأبد والعين، دلَّ عليه قوله فيما بعد: ﴿إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمَيِّتَ مِنَ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ﴾ [الآية: 28] إلخ.

فالدعاء في العلم بالقوة، وفي العين بالفعل، والفعل ناظر إلى القوة؛ لأنها مَعذبة، فلو لم تكن القوة لم يكن الفعل، فهذه القوة في حكم الفعل؛ ولذا بدَّل سيئات العاصي بعد التوبة حسنات، وجُعلت حسنات الكافر الواقعة في زمان كفره مقبولة بعد إيمانه، وفيه إشارة إلى أن النظر إلى السوابق في الحقيقة لا إلى اللواحق، وإن القلب بمنزلة الحقيقة، واللسان ترجمانه لإظهار الفعل؛ ولذا جُعل سكوت الكامل نطقاً؛ لأن باطنه على الحركة دائماً؛ وحركته المشي إلى الله تعالى، والتوجه إليه؛ بل وقوعه في عين العين، وخرقه قاب قوسين إلى وحدة أو أدنى.

قوله عزَّ وجلَّ: فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [الأنعام: 52].

أي: وجه ربهم؛ لأن ربهم ربَّاهم بلبن العناية والتوفيق، فلم يظهر منهم بعد البلوغ في عالم الجسم إلا التوحيد، ومتابعة الرضا، وإيثار الموافقة على المخالفة، وكيف يخالف الموافق؟ وإنما يخالف المخالف، ثم إن هذه الإرادة إرادة أزلية، وإنما الإرادة الأبدية تابعة لها؛ فهي إرادة واحدة في الحقيقة؛ كإرادة الله تعالى يظهر تعلُّقاتها في علم العين.

قوله تعالى: أَوْقَدُوا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ﴾ [الآية: 28].

أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدِّ، وحبس النفس معهم أي: الصحبة بهم في عالم الحسِّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له.

ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدّاً.

قال تعالى أَهْلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا﴾ [الآية: 28].

أي: لا تنظر إلى الحسِّ والصورة؛ بل إلى المعنى والحقيقة، فأهل الذكر زينتهم زينة الآخرة، والباطن، وأهل الغفلة زينتهم زينة الدنيا، والظاهر، والباطن أرجح من الظاهر؛ لأنه الأصل المرجوع إليه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ﴾ [الآية: 28].

أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى لها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلذِّكۡرِ إِن﴾ [الآية: 28].

هذا الاتِّباع هو أثر ما جبل عليه في الأزل خيراً وشرّاً، ومن هنا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ﴾ [الأنعام: 149].

فما من أحدٍ من أهل الهوى إلا وهو داخل في العذاب وسجنه؛ لكن بعد الإلزام لا قبله.

وقوله: ﴿كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الآية: 28].

تتميم لاتِّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانياً؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأُخِّر هنا إشارة إلى العلم، فتفطَّن لهذا المقام، والله العلاَّم.

في أواخر سورة الكهف: ﴿قُلُوبِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ﴾ [الكهف: 105].

نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: والوزن يومئذٍ الحق؛ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلَّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقاً أي: ثابتاً، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفَّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمهما الكفار.

واعلم أن الإنسان في أول حاله يطلب أن يكون كالذَّرة المرئية في شعاع الشمس عند انعكاسه من الكوة، فإن وجوده، وإن كان وجوداً موهوماً في الحقيقة؛ فإنه خيال وظل بالنسبة إلى الوجود الحقيقي؛ لكنه لمَّا تعيَّن بتعينات مختلفة؛ حصلت له منه الثقلة الطبيعية والبشرية، والكثافة الجسمانية الصورية، ورزانة

التعلُّقات الكونية المعنوية المانعة عن الحركة من الحضيض إلى الأوج، فهو دائماً يطلب خفَّة، كخفَّة الذَّرة، والخلاء لا من التركيب والتعلُّقات؛ ليتم له أمر التجريد والتفريد، فيكون من المفردين السابقين، ثم أزال الأمر إلى هذه الخفَّة بالغناء التام، وتأدِّية الأمانات إلى أهلها، وحصلت الثقلة بالبقاء، والتلبُّس باللباس الحقاني زال الطلب المذكور؛ لأن الأكملية إنما هي في تلك الرزانة الحقيقة التي من تحمُّل الأمانة الكبرى.

وقد أشار إليها بقوله ﷺ: «**اللّهم اقضِ عني ديْني**»[1]؛ لأنه يُقال: ركبه الدَّين، ولا شك أن المركوب تحت ثقلة الراكب، فكلمات الخط أكمل من المركب وانحلَّ حصل له الخفَّة والنشاط، وكذا كلَّما قُضي الديْن؛ جاء النشاط.

ولا شك أن الأمانة الكبرى؛ هي التي لم يحملها السموات والأرض والجبال، وأشفقن منها، وحملها الإنسان؛ فهو حامل لتلك الأمانة الثقيلة أبداً، وفيه كمالها أكملية، فهو حين يطلب خفَّة؛ كخفَّة الذَّرة؛ فيقول له الذَّرة أين: أنت من الفهم؟ إنك تطلب خفَّتي، وأنا أطلب ثقلتك، وقد امتلأت بك السموات والأرض، وأمَّا أنا فوجودي الموهوم لا يسدُّ شيئاً أصلاً، فلا كمال لي قطعاً.

وذلك أن كل ذرة، وإن كان فيها ما في الكل؛ لكن ذلك فيه بالقوة لا بالفعل، وإلا لكان مساوياً مع الإنسان في الدرجة.

وإمَّا أن يطلب الإنسان كونه؛ كطير على شجر، أو كشجر على رأس جبل، أو نحو ذلك، فذلك إنما هو من ضجرته البشرية الواقعة في بعض الأحيان، وأسبابها، كثيرة، وإلا فهو يعرف أن الإنسان أكبر قدراً من سائر الموجودات، وأعلى شأناً من جميع الكائنات، وإن مَن يموت في صباوته حين ما كان معصوماً عن المعاصي؛ ليس بأفضل من الذي يموت بعد البلوغ إلى الكَمالات بالفتح في مَدته، وإن كان قد يعرض له بعض الزَّلاّت؛ فذلك معفو منه ومغفور، وسعيه في طلب الحق مشكور.

فعليك أيها الولدُ بطريق الكبار البالغين إلى غاية الغايات، لا بطريق الصغار القاصرين في تكميل المراتب والدرجات، وقُلْ عند وقوع الزَّلاّت كما قال أبوك قبلك: ﴿الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ﴾ [الأعراف: 23]، فإنه يغفرك ويسترك بنوره، ويزيل عنك الظلمة بتجليه وظهوره.

---

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

ومما قررنا يُعرف أن الوقار الظاهر مما يُرغب فيه أيضاً؛ لأنه من آثار الوقار الباطن، فإذا تمكَّن الوقار الباطن في القلب من تحمُّل الأمانات، والتحقق بأحكام الأسماء والصفات؛ تمكَّن الوقار الظاهر في القالب من تحمُّل الشرائع، والأحكام، والعمل بما يقتضيه كل حال ومقام؛ فهذا الوقار مطلقاً هو المقبول، وأمَّا وقار الأغنياء والملوك في الظاهر بتغيير الأوضاع والأطوار عند أهل العُرف والعوام من غير أن يكون لهم تقوى في القلب، وعمل بأحكام الأجسام، فذلك غير رائج في سوق الحقيقة، فإن النظر إلى المعنى لا إلى الصورة.

فإن قلت: هَب أن الوقار لا بد منه للمؤمن في كل حال ومقام وأن الطيش والخفَّة من سيرة الجهلة والأنام، فما بال الحق تعالى يصف نفسه بالاستهزاء في قوله تعالى ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: 15].

ولا شك أن العبد متخلِّق بأخلاق الله، وذلك الاستهزاء من الخفَّة، وهي لا تليق بالله الجليل العظيم، ولا بعباده الذين ظهروا على صورته في خُلقه الكريم.

قلت: إن الله تعالى غني في ذاته عن العالمين، وأوصافهم، فليس عليه أثر من الكون، وما هو عليه أصلاً؛ لكن ذلك الاستهزاء ونحوه من الفرح، والضحك، والتبشبش، والمجيء والذهاب؛ كله من أحكام العماء الكوني؛ لأن الله تعالى يتَّصف في تلك المرتبة بما يتَّصف به العباد، فذلك من خصوص المراتب.

وقد يُقال: إنه من طريق المشاكلة كما قيل: كما تُدين تُدان، وبالكأس التي تُسقي تُسقى.

والحاصل أن ذلك ليس من قبيل الطيش والخفَّة في الحقيقة، وإنما هو من قبيل أجزية الأعمال، والله أعلم بحقيقة الحال، فعليك بمراعاة المراتب كلِّها إن كنت من أهل الأهوال.

❊ ❊ ❊

{في سورة طه}

قال الله سبحانه: ﴿ مِنۡ﴾ [طه: 40] يا موسى :أَهۡلِكَ فَأَعۡلَمۡ﴾ [طه: 40].

أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت.

وكذلك رددناك يا موسى القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلُّقات الذات والصفة.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ [طه: 40].

قرار العين هنا إشارة إلى قرار الذات.

فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالباً وقلباً ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذَّة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [طه: 40].

تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح.

فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون.

أمَّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذُروة الحالات والكمالات.

وأمَّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطَّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقاً أشدّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذب البارد.

وتدَّبر في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَيِّتَ مِن فَتَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ﴾ [طه: 84].

فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

قول الجلوتية ـ بالجيم ـ أن السير بالخلوتية بالخاء المعجمة في البرزخ؛ معناه: أن الجلوتية بالجيم لا يشتغلون بالأسماء؛ بل سلوكهم بالتوحيد والمجاهدة، كما هو طريق الأصحاب.

فالمجاهدة والرياضة تُصفِّي المحلَّ، وتهيِّئه للتجلِّي والتوحيد تجلِّي الموحَد بالفتح في المحلِّ، فهناك ثلاثة أمور: المحلُّ، والسبب، وظهور المسبَّب في المحلِّ، وليس في ذلك برزخ وواسطة أصلاً.

والحاصل أن مقصود السالك ظهور الموحَد بالفتح له، وهو الموحِد بالكسر من غير واسطة، وذلك إنما يحصل بالمجاهدة والتوحيد.

وأمَّا الخلوتية بالخاء المعجمة؛ فسلوكهم بالأسماء الإلهية؛ وهي درجات متفاوتة إلى المسمَّى، فإن منها نازلة، ومنها عالية، والكل برازخ المسمَّى.

كما قالوا: احتجبت الذات بالأسماء؛ وهي بالصفات؛ وهي بالأفعال.

فالأفعال: حجاب على وجه الصفات؛ وهي حجاب على وجه الأسماء؛ وهي حجاب على وجه الذات.

فالذات: من حيث نفسها عارية عن الحجب، وأمَّا من حيث المراتب والأطوار؛ فمحتجبة بما ذُكر، ولا حجاب بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الأسماء أسماؤه، والصفات والأفعال أفعاله.

ولا شك أن أسماء الشيء مثلاً ليست بحجاب عليه، كما أن القناع ليس بحجاب على وجه العروس بالنسبة إليها بخلافه بالنسبة إلى غيرها.

فالعبد لا يزال في حجاب ما دام في سير الأكوان، وفي سير الأفعال والصفات والأسماء؛ لأنها كلها برازخ للمسمَّى، فإذا وصل إلى الذات؛ خلص عن الحجاب، فكان من أمره التواضع، كما أن النبي ﷺ لمَّا تجاوز عن مقام قاب قوسين، ودخل على الله في مرتبة أو أدنى قال: أنا العبد لا إله إلا الله.

فطوبى لمَن كان جامعاً بين الفناء والبقاء بحيث لم يحتجب بأحدهما عن الآخر؛ وهو معنى شرح الصدر في الحقيقة؛ وهو الذي طلبه الكُمَّل؛ وهو الاستغراق الدائم بعد الرجوع إلى سدرة الكثرة، وسترة قاب قوسين؛ وهو الذي

أشار إليه الحديث: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم أبداً دائماً سرمداً**»(1).

فإن اللَّذَّة لا تكون في الفناء الصرف؛ بل في البقاء، فالمحقق في الشهود الدائم أبداً؛ لأنه لا حجاب له أصلاً؛ لأن مقام قاب قوسين؛ كالمرآة له، ولا شك أن المرآة ليست بحجاب للمرئي والرائي.

فالخلوتية إذاً ـ بالمعجمة الفوقانية ـ ناقصون؛ لوقوفهم في البرزخ، وقصر سيرهم على الأكوان، وآثار الأسماء التي هي طرائق المكون والمسمَّى.

قلت: لا شك أن أصحاب الطرق الحقة كلها كاملون بعد الوصول على الحق سواء كان وصولهم من طريق الأسماء، أو من طريق غيرها، كما أن مَن قصد الحج من البَرِّ، ومَن قصده من البحر، متفقون في الوصول إلى الكعبة، وإن كان سيراهما مختلفين متفاوتين بالقرب وبالبعد، وبالسهولة وبالمشقة.

وأمَّا قبل الوصول فلا شك أن كمالهم إضافي، وربما يكون سالك أَوْلى من سالك من حيث قوة السلوك، وتوثيق سببه، وعلو وصوله، فإن كم من فرق بين واصل وواصل، كما أنه من فرق بين سالك وسالك، فإن قلت: كيف هذا التفاوت، ولا تفاوت في النظر إلى الكعبة؟ قلت: هذه دعوى لا يقوم عليها دليل، فإن الأنظار متفاوتة، وكشف الحقائق لا يتجلَّى لكل بصيرة، والحق وإن كان وجهاً لا قفا فيه، فله وجوه مختلفة تنظر إليها نظراً متفاوتاً من الجهات، وعلى هذا أهل الاجتهاد، كالأئمة الأربعة فإنهم وإن كانوا كلهم واصلين إلى الله لكن أحوالهم متفاوتة في ذلك تدبَّر تدبُّرهم.

قال الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ [طه: 90].

أي: قال الله تعالى على لسان هارون عليه السلام لبني إسرائيل: الذين عبدوا العجل من بعد غيبة موسى عليه السلام؛ لأجل إتيان التوراة.

فظهر أن الإنسان صورة الحق، والله تعالى يقول على لسانه ما يقول، ويفعل ما يفعل؛ لأن الاتِّباع الآتي، وكذا الإطاعة؛ إنما هو.

وقال: ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيْسَ﴾ [النساء: 80].

ولمَّا لم تكن هذه المعرفة حاصلة لبني إسرائيل؛ فرَّقوا بين مظهر ومظهر،

(1) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين، [4/ 292] وأورده ابن فورك في مشكل الحديث وبيانه، ذكر خبر آخر وتأويله، [1/ 355].

فقالوا: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: 91]. ولم يعرفوا أن ما سيقوله لهم موسى هو عين ما قال لهم هارون من قبل.

ومنه يعلم أن الأولياء من حيث إنهم ورثة الأنبياء على هُدىً من الأمر، فإرشادهم عين إرشاد الأنبياء، فمَن أطاعهم؛ فقد أطاع الأنبياء، ومَن عصاهم؛ فقد عصى الأنبياء، دلَّ عليه أن الله أخبر بكفر مَن قال:﴿ٱلصَّٰلِحِينَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [النساء: 150].

واعلم بإيمان مَن قال: ﴿أَعۡمَىٰ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ وَلَوۡ﴾ [البقرة: 285].

فإن الرسول قد يكون رسولاً عرفيّاً، وقد يكون رسولاً لُغوياً، وإن كان لا يجوز إطلاق الرسول مطلقاً على مَن لم يكن رسولاً عُرفياً إلا بالإشارة الضمنية المفهومة من الآية، فإنه إطلاق بالتبعية، وبطريق التغليب لا بالأصالة وبطريق الحقيقة، ومَن لم يمشِ على المراتب؛ عُثر وزُّل؛ فضلَّ وأضلَّ، ومن الله الهداية لمعرفة المقامات والأطوار، ولحسن الأدب في العبادة مما يتعلَّق بحقائق القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: 90].

أي: لا العجل، فإن صرفتم عن عبادته؛ يرحمكم بالقبول، وأثره الاتِّباع كما قال: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ [طه: 90]، اتِّباع شريعة بإصلاح ظواهركم، واتِّباع حقيقته بإصلاح بواطنكم.

فإن الدعوة لا تنحصر في الشريعة سواء كانت من بني آدم، أو من ولي؛ بل تعمُّ الحقيقة وبل الشريعة إنما هي للوصول إلى الحقيقة فلا بد من محافظة الوسيلة؛ ليتم الوصول إلى المقصود.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: 90] في النهي.

عن عبادة العجل المذكور، فإنه أمر الله ظهر في صورة أمري، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، وكذا المبعوث من قِبله.

فإن قلت: لِم خلق الله الإنسان، وجعله مفتوناً بما سواه مع أنه يعلم من حاله أنه لا يصبر على الشهوات والهوى.

قلت: ذلك لإظهار استعداده الذي هو عليه في الأزل؛ لئلا يكون على الله حُجة بعد الرسل.

فحاصل ذلك إلزام الحُجة؛ ليُحيي مَن حيَا عن بيِّنة، ويهلك مَن هلك عن

بيِّنة، فإنه تعالى إذا ابتلاه في الدنيا؛ وكشف عن شأنه الذاتي في الآخرة؛ لا يبقى له مقال فيما حكم الله به عليه، وهذا السرُّ إنما يتحقق للمحجوبين يوم القيامة.

وأمَّا قيامة العارفين المكاشفين فدائمة؛ فهم الآن يجرون على سرِّ القدر في أنفسهم، ويُطالعون في الأنفس والآفاق؛ ولذا كان من شأن الملامتيّة الحضور في مواضع القدر؛ ليطَّلعوا على ما في علم الله تعالى من الأقضية المبرمة التي لا محيد عنها؛ وهذا من غوامض الأسرار، ولا يجوز البحث عنه أكثر من ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ [طه: 91].

أي: القوم مصرون على عبادة الهوى.

وقوله تعالى: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91].

أي: لن نزال مقيمين على عبادته من حيث الطبع.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: 91].

علَّقوا رجوعهم عن ذلك بالمحال الذي هو رجوع موسى من الطور، فإنهم كانوا على اعتقاد أن موسى قد مات في الطور ولذا ارتدُّوا عن دينهم، وتغيروا عن حالهم.

ومن ذلك قول بعض الصحابة: تغيرت قلوبنا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا لم يُدفن بعد، ثم لمَّا دُفن وتقادم الزمان، رجع بعض الناس كفاراً، وهكذا الأطفال بلا آباء، والتلاميذ بلا أساتيذ، والمريدون بلا شيوخ قبل التربية.

فإنه لا رجوع بعد الوصول، كما قيل: لو وصلوا ما رجعوا أي: إن الرجوع إنما يكون عن الطريق لا عن المنزل.

وفيه إشارة إلى قوى الروح، فإنه كلَّما كانت آثاره باقية بين قومه، فهم بذلك أحياء القلب، وإذا اندرست خرجت القوى، وخرجت عن نظامها، وصاروا في صورة الأموات.

وفيه رمز أيضاً إلى أن حُبَّ الهوى إذا استحكم في القلب بَعد الحيرة عن القوى؛ كالميت إذا بلى وانفسخ؛ فإنه لا يرجع إلى حاله الأولى، بخلاف المريض فإن بقاء الروح سبب لعمارة البدن.

نسأل الله العصمة من الإصرار، والبقاء مع النفس، ونرجو منه الإنابة، والأدبة واستشمام روائح الأُنس، إنه المعطي على الدوام، ويُديم الفيض على الأنام.

{في سورة الأنبياء}

وأما قوله تعالى: ﴿أَعۡمَىٰ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الأنبياء: 29].

فورد على الفرض والتقدير، وذلك لا يقتضي الوقوع، كما نهى عن الشرك في قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهَاجِرًا إِلَىٰ﴾ [الأنعام: 14].

وأوعد في قوله: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] بطريق الإلهاب والتهيُّج، وكذا غيره من المواضع؛ فكانت الآية نظير قوله: ﴿يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ﴾ [المائدة: 66].

فإن إقامتها إنما تكون بالإيمان والتقوى، فمَن آمن؛ أكل من فوقه، ومَن اتقى؛ أكل من تحته؛ يعني: إن الفوق إشارة إلى السماء، ومحلِّ الفيض، والتحت إشارة إلى الأرض، ومحلِّ الكسب.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَعۡلَمُونَ مُهَاجِرًا﴾ [الأعراف: 96] بترك الإيمان والتقوى.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ﴾ [الأعراف: 96] أي: بسبب عملهم السيىء؛ وهو التكذيب، فكان سوء الحال ظاهراً وباطناً سبباً للأخذ والانتقام، ولا يحصل كل نفس إلا ما زرعت كما قيل: يداك أوكتا أو فوك نفخ، وقال تعالى: ﴿خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ [فصلت: 46]، فإنه لا يحب الظلم والظالم، كما قال: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ [آل عمران: 57، 140].

وقال تعالى: ﴿ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأنبياء: 87].

هذه حكاية كلام يونس عزَّ وجلَّ؛ وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلِّي في كل شيء بحسبه أي: بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسعه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب

الله المتجلِّي فيه كما قال ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[1]؛ يعني أنه تجليه الأحدي سار في آدم عليه السلام، ومن ذريته المندمجة في ظهره الظاهرة على الترتيب إلى يوم القيامة، فلكل واحد منهم حصَّة من ذلك التجلِّي الأحدي بقدر استعداده، كما أن لكل بيتٍ من بيوت الناس حصَّة من نور الشمس بقدر روزنته[2].

فكما أن البيت قد يكون فاقد الروزنة، فيبقى مظلماً محجوباً عن نور الشمس، فكذا الإنسان إذا كان محجوباً بالحجب الكونية، فاقد البصيرة؛ يبقى محروماً عن وصول نور التجلِّي إليه بالفعل، فليس الكلام في النور الإلهي، فإنه لا بخل فيه، ولا إعراض؛ وإنما الكلام في المحلِّ، فلا بد من القابلية جداً، فإذا حصل القابلية بالفعل؛ وجد القابل ربه تعالى عنده، فيخاطبه بحسب مقامه.

ومن هنا بان أن الله سريع الحساب يوم القيامة إذ لا يشغله شأن عن شأن، وهو مع كل عبد من عباده يُخاطبه، ويُقرر ذنوبه، ويُعامله معاملات أخرى، ومَن شاهد هذا المقام؛ لم يُشكل عليه فهم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: 255]، ونحو ذلك.

والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذُروة العرش حيث قال: «**لا أُحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثنيت على نفسك**»[3].

فإذاً كل من المقامات العُلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفل بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرَّع التسبيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديساً له تعالى عن التقيد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 97].

فظهر من هذا التقرير: أن كلَّ من الخطاب، والغيبة، والتكلُّم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

فقد يقتضي المقام الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ غَفَرَ لَهُ ٱلۡمُرۡسَوۡلُ﴾ [البقرة: 163]؛ إشارة إلى مقام الهويَّة الذاتية التي هي أول التعينات الإلهية، فكون هذا

(1) أورده البروسوي في تفسير روح البيان، سورة الأعراف، آية 11 [3/ 139].

(2) الرَّوزنة: الكُوّة (القاموس المحيط).

(3) هذا الحديث سب تخريجه.

المقام غيباً؛ إنما هو بالنسبة للعبد لا بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الحقائق والأعيان كلَّها مشهودة له تعالى أزلاً وأبداً من غير تفرقة بين مرتبة العلم والعين إلا باعتبار.

وقد يقتضي المقام التكلُّم كما في قوله تعالى: ﴿فِيسَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [طه: 14]، كما سمع ذلك من شجرة موسى عليه السلام.

وقد يقتضي الخطاب كما في قصة يونس عليه السلام.

فإذاً كلٌّ من التكلُّم، والخطاب، والغيبة: كلام مطلق بحسب الحقيقة غير متعيِّن بنسبة من النسب إلا بحسب المقام.

فقول المنصور قُدِّس سرُّه: أنا الحق؛ كقوله هو الحق، وأنت الحق؛ لكن أهل التمكين اختاروا الثاني والثالث؛ لما ليس فيهما من الإيهام؛ إذ الناس يظنون بالله ظنَّ السوء، ويجمع الكل قوله:﴿ٱلْآخِرَةِٱلصَّالِحِينَ فِي﴾ [الصافات: 35]؛ فإن الله؛ هو الحق، وأنت الحق، وأنا الحق، فافهم كلام هذا الفقير حقاً.

* * *

{في سورة المؤمنون}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [المؤمنون: 29].

قوله: منزلاً مباركاً بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهو السفينة النوحية هاهنا؛ لأن الخطاب لنوح عليه السلام، فكان السفينة منزلاً مباركاً له، ولمَن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البَر كان منزلاً غير مبارك لمَن عصاه من المشركين حيث أُغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منزلاً مباركاً يستتبع نفعاً كثيراً ظاهراً وباطناً، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شراً محضاً، وهلاكاً صرفاً.

فكما أن دخول السفينة كان خيراً محضاً؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعدما كان أمر الله مفعولاً؛ فكانت الأرض أيضاً منزلاً مباركاً لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ [هود: 44]؛ لأنها مع الماء المستوعَب لا يُنتفع بها.

والحاصل أن كلاًّ من السفينة والأرض؛ كان منزلاً مباركاً في وقته؛ لأنه كان فيه نوح المبارك، وما كان مستصحباً للمبارك؛ كان مباركاً، فنعم المنزل ما سكن فيه الأخيار، ووضع فيه قدمه الأبرار.

ولمَّا كانت السورة مكيّة؛ كان من إشارتها أن يدعو نبينا ﷺ بهذا الدعاء لينزِّله الله المنزَل المبارك الذي هو المدينة المنوّرة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرّمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضاً عليهم السلام، فكلٌّ منهما منزَل مبارك لمَن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلِّقاً

به تعلُّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركاً؛ لأن الروح إنما يترقَّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة.

فكان للروح خير كثير من جهة البدن، كما أنه كان للبدن نفع، وفيه من جهة تأثيرات الروح، ومن ثم كانت أبدان الكُمَّل محترمة مباركة طيبة؛ بل ما يتعلَّق بها أيضاً من الألبسة بسبب الاتصال، فإذا كان للألبسة والأكسية شرف زائد بسبب ذلك التعلُّق؛ فما ظنك بحال المتعلِّق بهم تعلُّقاً حقيقياً.

ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضاً، فمَن وفَّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غُدوّاً ورواحاً؛ كان عبداً مباركاً نافعاً للعالمين، فطوبى لمَن تشرَّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذُّلّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم.

ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمناً من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالماً من آفات الشكوك والظنون، متصفاً بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل الندر.

قوله عزَّ وجل: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: 53].

ثم إن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممَن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لا سيما إذا علَّق ذلك، به؛ كان أنفع، وقد تجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهَّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

وقد يتقدَّم إلقاء الله تعالى إذا كان المحل أقبل وأكمل استعداداً، ويكون النفخ من طريق الفاتحة، ومن غيرها، وله صور مختلفة؛ لكن النفخ أقوى لقوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [الحجر: 29]، فصورة النفخ أقوى من سائر الصور، وقد

يكون بحيث يمُصُّ السالك فم الشيخ، أو الخضر، أو النبي، أو يأكل السكر من يده، فذلك إشارة إلى كثرة الفيض، ولذَّة المعرفة، وقوة الحقيقة، وهنا كلام آخر لا نذكره.

وقال الله سبحانه: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهَاجِرًا إِلَىٰ﴾ [المؤمنون: 91].

أي: كما يعلو الذكر على الأنثى؛ فيظهر بينهما التأثير؛ فيكون أحدهما فاعلاً، والآخر قابلاً؛ والقابل لا يكون إلهاً؛ لذلك قال تعالى: ﴿ٱلۡمَيِّتَ مِنَ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ﴾ [الإخلاص: 3]؛ فإن الأحدية ينافيها الازدواج؛ لتأدِّيته إلى التكثُّر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأدِّيته إلى الذلَّة المنافية للألوهية.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الإخلاص: 4].

في ذاته وصفاته وأفعاله نحو قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: 11].

فالإله ذات واحدة لا تُكثَّر أصلاً، وصفته الخاصة به هو: وجوب الوجود إذ ما عداه إنما نشأ منه، فليس له إلا الإمكان، وأمَّا الوجوب للغير؛ كوجوب الوجود للأرواح المهيمة فلا ينافي وجوب وجوده تعالى؛ لأن وجوداتها قائمة به تعالى؛ فهي وإن كانت أبدية لكنها ليست بأزلية، كما أن الأجسام ليست بأزلية ولا أبدية.

وأبدية أجسام الكُمَّل إنما هي من سريان بركات نفوسهم القدسية؛ فهي في حكم الأرواح، ثم إن قوله تعالى: لم يلد ولم يولد مرتبة فوق مراتب جميع التعينات؛ فإن الله تعالى: ﴿خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 97] في مرتبة ذاته.

ولمَّا كان لنبينا ﷺ مرتبتان: مرتبة التهييم؛ لأن العقل الكل من عدد الأرواح المهيمة.

وهذه المرتبة لا تقتضي الولادة، وإليها الإشارة بعائشة الصديقة رضي الله عنها؛ فإنها بمنزلة النفس المطمئنة القدسية الراضية المرضية الصافية للنبي ﷺ؛ ولذا كان حبُّه لها أشدَّ من حبِّ غيرها إذ لم تلد أصلاً، والحبُّ لذَّة روحانية، وإنما تصفو في حال الوصل التام الذي هو الفناء المطلق؛ وهو حال أبي يزيد البسطامي، ونظرائه ـ قَدَس الله أسرارهم.

والمرتبة الثانية: مرتبة التفضيل؛ وهي عبوره ﷺ من مرتبة التهييم، وتولده بالنكاحات المعنوية من الآباء العلوية، والأمهات القدسية إلى أن ظهر في صورة تعيُّنه الخاص؛ ليكون مظهراً لسرِّ تولُّد الأسماء والصفات.

فهذه المرتبة تقتضي الولادة؛ وإليها الإشارة بخديجة الكبرى ـ رضي الله عنها ـ فإنها كالنفس الكلية للعقل الأول، ولذا ولدت فاطمة رضي الله عنها؛ فتسلسلت سلسلة النبوة منها إلى آخر الزمان؛ وهو زمان المهدي المنتظر رضي الله عنه؛ فإنه من سلسلة فاطمة رضي الله عنها، وختم الولاية الخاصة المحمَّدية.

وبتلك المرتبة، وظهوره ﷺ فيها؛ كان قطب الأقطاب؛ كالوزير الخارج من حرم السلطان بمرتبة الوزارة؛ فعلم منه أن ندماء السلطان بمنزلة الأرواح المهيمة، وأن وزيره المتفضِّل منهم بمرتبة الوزارة، بمنزلة العقل الأول.

فالوزير، وكذا العقل الأول، وقطب الأقطاب كلهم من أهل الاختصاص أولاً لكن بعد التقلُّد بمرتبة الوزارة، ومرتبة التفضيل، ومرتبة القطبية؛ ليس لهم حكم عليهم إذ ليسوا من أهل الأمر والنهي؛ لأنهم مستغرقون في مطالعة جمال السلطان، فالأمر والنهي يشغلانهم عن مراتبهم، وحِماهم عليه من الشهود المحض، فلهم المكانة العظمى، والمرتبة المثلى؛ لكنهم عقيم عن توليد الحقائق من تأثيرات الأسماء الحسنى.

والصفات العليا للوزير، والعقل الأول من حيث مروره على المراتب، والأطوار، ولقطب الأقطاب فضيلة تامة ورتبة عامة بهم تنتفع الأسماء، والصفات، ومظهر الذات، وتجليَّات مختلفة، فهم أهل الترقِّي في صورة التنزُّل، كما أن مَن عداهم على العكس، ومعنى تنزُّلهم الابتلاء فافهم.

❊ ❊ ❊

{في سورة الفرقان}

قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44]، وقال تعالى: ﴿ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى لَا رَيْبَ فِيهِ إِنْ وَلَوْ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 179].

اعلم أن الإنسان: إمَّا حقيقي، وهو الذي لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها، فمتعلق بها، فمتعلق فقههم هو العلم الإلهي، ومتعلق أبصارهم آثار الله، ومتعلق أسماعهم كلام الله، سواء كان بطريق الخطاب الغيبي، أو بطريق الخطاب البشري، أو بطريق غيرهما.

وإمَّا إنساني: وهو بعكس مَن ذُكر، وإنما قيل له: إنسان حيواني؛ لأنه إنسان من حيث حيوان من حيث السيرة؛ ولذا شُبِّه بالأنعام؛ لأن الأنعام لا تتجاوز الحس والملك إلى عالم المعنى والملكوت.

فالإنسان الحيواني: ليس له روح إنساني، وقلب، وسمع، وبصر بحكم غلبة الحيوانية، فمَن قال: إن الروح الإنساني مشترك فيه دون القلب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿الْآخِرَةِ أَعْمَى لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ وَلَوْ﴾ [قٓ: 37]، فهو ذهل عن الآية المذكورة، وفرَّق بين القلب والروح؛ بل القلب، والعقل، والروح جوهر واحد في الحقيقة.

وإنما الاختلاف بحسب الاعتبارات، فالقلب محل الشهود، والعقل محل الإدراك، والروح محل المعرفة، فإذا كان الإنسان خالياً عن الشهود، والإدراك الحقيقي، والمعرفة الإلهية كان حيواناً حكماً، وإن كان إنساناً صورة بحكم المرتبة، فالاعتبار ليس بالمرتبة؛ بل بحقائقها، وأحكامها الظاهرة بالفعل، فاعرف جدّاً.

* * *

{في سورة الشعراء}

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن وَإِنَّهُۥ فِى﴾ [الشعراء: 61].

أي: بنو إسرائيل ذلك حين وصلوا إلى بحر القُلْزُم[1] وهو الصحيح.

وقوله تعالى: ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ﴾ [الشعراء: 61] بفتح الراء على المفعول، يعني: أدركنا فرعون وقومه، وذلك من ضعف اليقين.

ولو قال: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ بكسرها على الفاعل، يعني: واصلون إلى المراد يومئذٍ، وهو النجاة لأصابوا، وجعل ذلك من كمال رشدهم، وتمام معرفتهم، وذلك لأن البحر نار كما قال تعالى: ﴿تَّبَعَنِیۖ لَهُۥ كُن﴾ [التكوير: 6].

والنار لا تحرق الأحباب؛ بل الأعداء؛ ولذا قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِرَةِ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [نوح: 25]، وقال: ﴿تَعْلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [غافر: 46].

ومن ثَمَّ كانوا يعيشون على هياكل طير سُود داخل البحر، وتخرج بالغُدو والعَشي، وهذا بخلاف أصحاب محمد ﷺ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

فانظر كم من فرَّق بين القومين، وقد أشار موسى أيضاً إلى ضعف قومه في اليقين حيث قال: ﴿ٱلْأَفِخِرَةِأَعْمَىٰ لَآ رَبِّ﴾ [الشعراء: 62]، فإنه لم يقل: إن معنا ربنا سيهدينا، فقطعهم عن الشركة، وأفرد نفسه بالذكر؛ لأن مكاشفة سرِّ المعية؛ إنما كانت له لا لقومه، فلم يستحقوا النصرة والهداية إلا بمتابعة موسى، فإنه منصور البتَّة بالوعد الإلهي، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟﴾ [غافر: 51].

وموسى رسول صاحب كتاب؛ بل من أُولي العزم، ولكون قومه نازلين في

---

[1] بَحْرُ القُلْزُم: وهو أيضاً شعبة من بحر الهند، أوله من بلاد البربر والسودان الذين ذكرنا في بحر الزنج وعَدَن ثم يمتد مغرباً، وفي أقصاه مدينة القلزم قرب مصر، وبذلك سمّي بحر القلزم؛ ويسمى في كل موضع يمرُّ به باسم ذلك الموضع، فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر والحبش، وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب.

الاعتقاد واليقين؛ زجرهم بقوله: (كلا) يعني: إنكم من أهل البداية؛ لأن ذلك كان أول ما صحبوا موسى، ولا شك أن أهل البداية أهل التلوين، ولن يخلص كمال اليقين إلا لمَن زال عن وجه قلبه الهيئات الظلمانية؛ بل النورانية أيضاً.

ولذا قال تعالى: ﴿يجعل لَّهُۥ جَوْفِهِۦ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ [الفتح: 2].

وهو ما تقدَّم على فتح كعبة القلب من الهيئات التلوينية الظلمانية، وما تأخَّر عنه من الهيئات التلوينية النورانية، فإن نور التمكين يسترهما جميعاً.

ولذا كان لا ينتقض وضوؤه بالمنام؛ لصفوة مرآته، وقوة حضوره مع نور الأنوار الذي لا ظلمة معه أبداً، ولا تلوين اللّهم إلا أن يكون التلوين الممدوح الذي هو الحيرة الحاصلة من أنواع التجليَّات.

وفي هذا المقام سرُّ قوله: ما بينكما ما بين كلاميكما؛ فإن موسى قدَّم نفسه حيث قال ﴿ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾.

ومحمد ﷺ قال: ﴿لْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: 40] فكما قدَّم الجلالة؛ عمَّم المعية، وذلك لخروجه عن نفسه بالكلية، كما دلَّ عليه قوله يوم القيامة: «**أمتي أمتي**»، حين يقول الأنبياء عن آخرهم: نفسي نفسي، وقال موسى: (**سَيَهْدِينِ**) فخص الهداية بنفسه.

وقال نبينا ﷺ: «**اللّهم اهدِ قومي**»؛ لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، فنجَّى أمته من المهالك، وقد أخذت قوم موسى الصاعقة ونحوها، فأين هم من هذه الأمة المرحومة؟ وقال موسى: ﴿ لَّآ﴾.

والاسم الرب قد يستدعي القهر والجلال بخلاف الجلالة في المقالة النبوية؛ لأن الله تعالى خصَّصها في البسملة، فقال عقبها: الرحمن الرحيم تصريحاً للرحمة التي تضمنها الجلالة فكأنه قال: إنك إذا ذكر الله تعالى؛ فقد ذكرت الرحمن العام رحمته في الدنيا، والرحيم الخاص رحمته في الآخرة.

ومن ثم سمَّى أمته الأمة المرحومة.

وهكذا شأنه ﷺ مع شأن الأنبياء في غير هذا الموضع، وكذا شأن أمته مع أممهم؛ ذلك فضل الله يؤيته مَن يشاء، والله يختصُّ برحمته مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ ولذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: 113] فافهم جداً.

* * *

{في سورة النمل}

قال الله سبحانه: ﴿ رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ﴾ [النمل: 57].

اعلم أن الله سبحانه قدَّر الدنيا أي: قضى حصولها ووقوعها، وعلَّق ذلك بوقت معين، فخلقها قبل الآخرة باللعنة متطاولة، وسمَّاها دنيا؛ لدنوِّها وقربها، وسمَّى الآخرة آخرة؛ لتأخُّرها عن الدنيا، ولم يعكس؛ لأن الآخرة ثمرة الابتلاء والتكليف، فاقتضت الحكمة تقديم دار الابتلاء عليها؛ لتكون من الهالكين، وتأخير دار الثواب؛ لتكون من الخالدين.

فحصل لنا من هذا أن كلاًّ من الهالك والناجي كثير؛ لكن الهالك؛ إنما هو الصورة؛ كصورة السموات السبع، والأرضين السبع، وصورة الإنسان الناقص بعد الموت، وصور سائر الأشياء التي لا تُحصى.

وأمَّا الناجي: فهو الصورة والمعنى جميعاً؛ نحو الكرسي، والجنة ونعيمها وأهلها، والعرش، والأرواح، والقلوب، وصور الكُمَّل بعد الموت، ونحو ذلك من مواد الأشياء، فإن الهالك صورة ناج مادة ومعنى؛ لأن الوجود لا يفنى بالكلية، وإلا كان التجلِّي به عبثاً، كما أن المقطعات والمتشابهات ليست بمجهولة رأساً ، وإلا ما أنزل الله بها.

فقوله تعالى: ﴿ رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ﴾ [النمل: 57].

المرآة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لمَّا كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيَّة؛ قيل للمرأة؛ صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولمَّا كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل إن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

وأمَّا العالم: فيشمل الأجسام كلها التي حواها العرش؛ بل الأرواح المهيمة؛ لأنها أول علامة على وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وإرادته؛ لكونها أول

المبدعات، ففي التعبير بالعالم من التشريف والتعميم ما ليس في التعبير بالدنيا، وجُعلت المرأة من أحسن الأشياء صورة؛ بل نفس الدنيا؛ لأنها بزينتها شابهت الدنيا لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ كُلَّوَقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيْسَ أَهْلِكَ﴾ [الكهف: 7].

فجعل ما على الأرض زينة لنفس الأرض؛ لكن لمَّا خلق الأرض لمنافع الإنسان وابتلائه؛ كان ما على الأرض زينة للإنسان أيضاً، ولكون الزينة ومتاع الدنيا مما لا ينبغي لأهل الآخرة وأهل الله التلبُّس بها قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: 131]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْمَيِّتَ﴾ [الزخرف: 35].

وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، وإنما قلنا: إن المرأة من أحسن الأشياء في الصورة؛ لأنها من أشرف الأشياء في المعنى، ولها العزَّة والقوة التي ليست في الرجال، وبها يغلبنَّ عليهم، فدرجة الأنوثة أقوى في المعنى؛ لأن الرجال يطلبون الإناث بدون العكس، والمطلوب أعزُّ وأقوى من الطالب، والملائكة المخلوقة من أنفاسهن أقوى من الملائكة المخلوقة من أنفاس الرجال.

فانظر إلى أن الانفعال قد يكون فعلاً في المعنى وبالعكس، أو أن الانفعال من وجه لا ينافي الفعل من وجه، وكذا الفعل، ولولا سر الأنوثة في العالم لما نشأ شيء من المواليد، والله الفعَّال لِما يريد، والمؤثِّر في العتق الجديد.

* * *

{في سورة القصص}

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْمَيِّتَ مِنَ﴾ [طه: 40].

وهي النفس الحيوانية، وبقرة الطبع، وذلك بالرياضة والمجاهدة التي هي أشدُّ من السيف الماضي الصارم.

والتنكير: يُشير إلى التهويل، فإن حقيقة النفس لا يعرفها كل أحد، ولا يقطع عرقها كل مجتهد؛ فهي أشدُّ من الثُّعبان، ونسأل الله العفو على قتلها.

قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [طه: 40].

أي: من غمٍّ حياة النفس؛ فإن حياتها باعث الغموم، وسبب الهموم إذ ما من تنزُّل وسقوط إلا وببطشها يحصل، وما من تلوين واضطراب إلا وبتسويلها يتمكَّن، فما دامت النفس حية؛ فهي حية تسعى، ولا يُؤمن شرها.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن كُنتُمْ﴾ [طه: 40].

أي: قبل هذا؛ لأن باحتمال الشدائد، يحصل النجاة، وبمقامات المحن؛ يوجد المنحة، ويمكن أن يحمل الفتون والاختيار على ما بعد نجاة القلب من أثر النفس والقالب، وذلك لأن النبوة، وكذا الولاية التي تقتضي البقاء؛ التبليغ الذي لا يخلو من معالجة الناس ومعاملتهم؛ وهم هم في الركون إلى الشهوات، والميل إلى الأمور الطبيعية، والمعارضة بالمخالفات النفسانية، وذلك من حكم الاسم الظاهر، وإن صفا الباطن، وزالت الكدورة عن مرآة القلب.

والحاصل: إن الأسماء الجلالية لا ترتفع أبداً، كالنار، فالقالب في النار، والخليل سالم، فعليك بهذه المرتبة حتى تكون أكمل الناس وأسعدهم، وعلى كل حال، فالمحقق يأكل السُّم، والحنظل، والعارف يأكل الحلوى.

وقد فسَّره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بقوله: وطحنَّاك طحناً، كان الإنسان الكامل كحبة القمح لا يزال يُطحن تحت حجارة القهر والجلال، وذلك من أحكام هذا الموطن.

وأمَّا موطن الآخرة: فليس هنا للأكامل إلا اللطف، والجمال قالباً قلباً، ظاهراً

وباطناً، ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ [الروم: 60] فلا خلف فيه أبداً.

قال الله سبحانه: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [القصص: 61].

الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة.

والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية.

والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجَّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقاً مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة.

فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلَّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ فِي﴾ [القصص: 61]؛ هو كفار الرسوم، وكفار الحقائق.

أمَّا الأول: فبمقابلة المؤمن الرسمي فلا وعد له أصلاً بل له وعيد هو النار الحسِّية.

وأمَّا الثاني: فبمقابلة المؤمن الحقيقي، فليس له الوعد الأحسن بل له وعيد هو النار المعنوية وهي نار البعد والقطيعة.

فإن المحجوب في الدنيا محجوب في الآخرة؛ إذ الكمال الأخروي تابع للكمال الدنيوي، وكفار الحقائق أشدُّ من كفار الشرائع؛ لأن عذابهم في الروح، وعذاب كفار الشرائع في الجسد.

والروح أشدُّ تأثُّراً بالنسبة إلى الجسد؛ لكمال لطافته؛ ولذا اشتدَّ الموت على الصبيان ونحوهم، وإنما لم يقل: كمن وعدناه وعداً قبيحاً أو أقبح؛ لأن فعل الله تعالى لا يُوصف بالقبح، والشر لا يُنسب إليه قطعاً، كما ورد في الحديث[1].

(1) يقصد قوله ﷺ من حديث طويل: «... والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنابك وإليك..». رواه مسلم في صحيحه، باب الدعاء في صلاة الليل، حديث رقم (771) [534].

والمراد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فِي حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [القصص: 61]؛ هو ما يتمتع به الروح الحيواني، حياته حياة دنيَّة، ولا شرف للإنسان إلا بالروح الإنساني؛ لأنه هو المنفوخ فيه من قِبل اللَّه تعالى، وبه حصلت التجليَّات لأبي البشر، وأولاده الكُمَّل؛ وهو أهل الإيمان والطاعة.

وأمَّا الروح الحيواني فهو مبدأ الحس والحركة والإيمان ولا طاعة له إلا بتبعية الروح الإنساني، فمن الإيمان له، ولا طاعة؛ فهو نازل منزلة الحيوانات؛ بل كان أنزل منها من حيث إنه أمر بهما فعصى، ولا عصيان للحيوانات؛ بل تسبيح ذاتي؛ كالجمادات لها حياة حقيقية، وإن لم يكن لها حياة حسية، فالميت حي عند أهل الحقائق، جماد عن أهل الرسوم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ جَوْفِهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [القصص: 61].

أمَّا كفار الشرائع: فإحضارهم للعذاب الجسماني والروحاني جميعاً، فإنهم أضاعوا الروح الحيواني والإنساني جميعاً، فلهم في مقابل كل منهما عذاب مخصوص.

وأمَّا كفار الحقائق: فإحضارهم للعذاب الروحاني فقط؛ لأنهم إنما أضاعوا الروح الإنساني من حيث إنهم لم يبلغوا به إلى كماله اللائق؛ فوقعوا في نار الحسرة، وإن نجوا من النار الحسِّية باستعمالهم الأعضاء، والقوى الحسية في الأعمال الصالحة المبنية على الإيمان في الجملة؛ وهو الإيمان الرسمي.

وإنما قُيِّد بيوم القيامة مع أنهم من المحضرين الآن؛ لأن كثافة نفوسهم منعتهم من إدراك العذاب في الحال، كما دلَّ عليه قوله: «**الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا**»[1]؛ فتيقُّظ الموت الاضطراري الطبيعي في الآخرة، وتيقُّظ الموت الاختياري السلوكي في الدنيا، فمَن تيقَّظ في الدنيا؛ أُلهم فجور نفسه وتقواها، ومَن تيقَّظ في الآخرة؛ علم الحال عندما لم ينفعه علمه، أيقظنا الله، وإياكم أجمعين.

* * *

(1) ورد بلفظ: «الناس نيام فإذا انتبهوا ندموا وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم». رواه البيهقي في الزهد الكبير من كلام سهل بن عبد اللَّه التستري برقم (515) [2/ 207] وعزاه أبو نعيم في حلية الأولياء لسفيان الثوري (حلية الأولياء)، سفيان الثوري [7/ 52].

{في سورة الروم}

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّمَيِّتَ مِنَ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 50].

اعلم أن وجه الإنسان عند مسِّ الهمِّ، ووقت الغمِّ؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاً منهم يتغيَّر عن حاله؛ وهو موته، ثم يحييه الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقَّبه الحياة على ما تقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبَّرة في الأنفس، والآفاق المؤثِّرة في الظاهر والباطن.

ولمَّا كان ذلك موقوفاً على النظر الصحيح قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازيين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتان عند أهل الباطن.

فإن للأرض روحاً نباتياً، كما أن للإنسان روحاً حيوانياً بل للإنسان روح نباتي أيضاً به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربيته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحسِّ والحركة.

فالفرق بين الأرض والإنسان: أن للأرض روحاً نباتياً وروحاً جمادياً.

فالأول: يدركه العامة.

والثاني: يدركه الخاصة.

وإن للإنسان روحاً نباتياً وروحاً حيوانياً بالفعل، وروحاً حقانياً بعد مفارقة الروح الإنساني، فالميت جماد في الصورة حي في المعنى بالحياة الحقانية، فإذاً لا موت للعالم بالكلية وإنما هو باعتبار.

ومن ذلك يعرف أن المحجوب يحمل كلام الجمادات، وتسبيحه على معنى الدلالة.

وأمَّا المكاشف فعلى الحقيقة؛ لأن المحجوب لا يسمع تسبيح الأشياء مطلقاً؛ فالحياة عنده إنما هي في ذي الروح فقط، وأمَّا المكاشف فيسمع ذلك، فالحياة عنده ليست بمقصورة على ما في ذي الروح؛ بل هي سارية لجميع أجزاء العالم من عاليه وسافله.

فهو تعالى يُحيي الأرض بالحياة اللائقة بها؛ وهي حياة حقيقية، وكذلك يُحيي سائر الأشياء بما يناسب كلاًّ منها، وهذه هي الحياة في هذا العالم.

وكذلك الحياة في البرزخ، فإن للميت هناك حياة لائقة به مع سمع وإبصار وكلام كل ذلك بحسب المقام البرزخي، وسينكشف لك الأمر بعد الانتقال بالموت، وليتك كنت من قوم قيل فيهم: «المؤمنون لا يموتون؛ بل يُنقلون من دار إلى دار»[1] فإنه أفاد أن المؤمن الكامل، وهو الحي بحياة الإيمان والعرفان كالمنتقل من دار إلى دار في هذه النشأة، فكما أن انتقاله ذلك لا ينافي حياته؛ فكذا انتقاله بالموت.

فالموت عبارة عن مفارقة الروح الإنساني عن البدن، وعبَّر عنها بالذوق في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [الأنبياء: 35].

كما أن الروح الحيواني لا يخلو عن إحساس الألم وقت الانتقال، وتلك المفارقة لا تقتضي الموت بالكلية؛ فإن الروح حيٌّ قائم بنفسه، محيي للبدن الدنيوي أو البرزخي الذي هو على صورة عمله، فاعرف جدّاً.

* * *

(1) هذا الأثر سبق تخريجه.

{في سورة الأحزاب}

قال الله سبحانه: ﴿ لَهُۥ كُونَ كُورُ يُسْتَفْتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُۥ فِى﴾ [الأحزاب: 41].

اعلم أن الذِّكر الكثير هو: ما كان بالقلوب، والأعمال، والأحوال، كما كان النبي ﷺ يذكر الله تعالى في كل الأحيان، فإن مَن كان مع الله تعالى في جميع حالاته؛ فهو ذاكر له تعالى سواء قارنه الذكر اللساني أَو لاَ.

فالكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [النساء: 142] عبارة عن العدم أي: لا يذكرون الله تعالى إلا ذكراً هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

ومن هنا كان يرفع لبعضهم في يوم واحد عمل أهل الأرض كلها؛ بل عمل أهل السماء؛ لأن الكامل منا إنما يذكر الله تعالى بكل أسمائه بخلاف الملائكة؛ فإن ذكرهم مخصوص بأسماء مخصوصة؛ ولذا قالوا: ﴿فِيهِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُكَذِّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ [الصافات: 164]؛ وهو مقام الروحانية بحسب أسماء الروح إذ ليس لهم الترقِّي إلى مقام السرِّ، وسرِّ السر.

ولذا ذهب بعضهم إلى أنه ليس لهم مقام الرؤية، والظاهر أن لهم ذلك من مرتبتهم الروحانية؛ فهم يرون الله تعالى بأبصار الأرواح لا بأبصار الأسرار، وأبصار الأسرار أكشف وأجلى من أبصار الأرواح؛ لأنه كلما حصل الترقِّي، ازداد التجرُّد، وكلَّما ازداد التجرُّد؛ حصل كمال الوصول؛ بل الحصول فافهم جداً، واعبد ربك إلى أن يأتيك اليقين الذي ليس فوقه يقين.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا تَعْلَمُونَهَا جِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ أَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 16].

﴿إِن﴾ يا صاحب الفناء، والبقاء على الوجه الأكمل، كما دلَّ عليه شرح

صدره: ففيه الرتبة العلياء، والفضيلة العظمى، والجمعية، قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأحزاب: 16].

أيتها القوى الطبيعية، والنفسية التي بها قوام ظاهر الوجود من الموت الذي يحصل بالجذبة الإلهية بسبب سماوي خفي لا يدركه أكثر العقول وهو الفناء عن الإنيَّات الناطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

فإنه يشير به إلى الفناء عن إنيَّات القوى الظاهرة والباطنة جميعاً، واسم هذا المقام هو الجلالة إذ لا نفي هنا أصلاً، وإذ لم يكن نفي لم يكن إثبات؛ لأن الفاني المستغرق لا نفي له، ولا إثبات.

أو القتل: وهو ذبح بقرة الطبيعة، وكبح النفس بالرياضات الشاقة، والمشاهدات الغالبية، فهذا الموت موت إرادي، اختياري، مبني على الكسب، والموت الأول أيضاً كذلك؛ لكن مبني على الجذب الإلهي بلا سبب ظاهر من طرف الفاني.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الْمَوْتُ﴾ [الأحزاب: 16] أي: حين الفرار من واحد من الموتين، كما قال تعالى ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿الْقِتَالُ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ﴾ [النساء: 77] وهو العمر الفاني وإن كان ألف سنة مثلاً.

وذلك أن في الموت بأحد الوجهين حياة معنوية طيبة باقية دلَّ عليه بقاء الآثار، وعدم انحلال الصورة إلى يوم الحشر والنشر، وفي البقاء بالحياة الصورية موت معنوي في الحياة الدنيا، وإلى آخر الأعصار؛ لأنها حياة فانية لا اعتداد بها أصلاً عند الحياة الباقية، وإن امتد زمانها.

والحاصل أن في الموت بالموت الاختياري حياة باقية، وإن قلَّ زمان الحياة الصورية، ولا حياة في الموت بالموت الاضطراري، وإن كثر زمان العيش الصوري؛ لأن الاعتبار بالباقي لا بالفاني، وفي الآية ترغيب إلى الموت بالموت الإرادي؛ ليحصل العيش الباقي، وترهيب عن البقاء بالحياة الصورية، فصاحب الأول إنسان حقيقي، وصاحب الثاني إنسان حيواني، ونسبته إلى الإنسانية نسبة الميت إلى الإنسانية؛ إذ لا إنسانية بعد الموت إلا صورة.

فكما أن الميت إنسان صورة فقط، فكذا الإنسان الحيواني، فهما مشتركان في الخلو عن أثر الحياة، وفيها أيضاً رمز إلى أن الإنسان الحيواني محبوب عنده الحياة

الصورية؛ لانحصار نظره في آثارها، فلا يحب الموت والفناء عنها بخلاف الإنسان الحقيقي؛ فإنه يعلم أن الباقي يدلُّ على الفاني؛ فيختار الباقي على الفاني، فيجتهد في الأسباب، ويتمسَّك بتوفيق رب الأرباب.

ثم إن الهارب عن الموت إنما هو هارب عن الحق؛ لأنه موصِّل إليه، فإذا بعد عن الموت؛ بعد عن الحق؛ لكنه قد يخلّي ونفسه؛ فيزداد بعداً إلى بعد، وقد يدركه التوفيق؛ فيقبل الحق إليه، فيمنعه عن الهرب؛ فيكون طالباً للحق بعد ما كان هارباً منه.

وإليه الإشارة بقوله: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**»[1] فقوم يُقادون إلى الجنة نفسها بالإيمان والطاعة، وقوم يُقاد إلى رب الجنة بالعشق والمحبة، وكلٌّ يجري على ما قضاه الله تعالى، فطوبى لأهل الإقبال، وكل الخسارة لأهل الإدبار، ومَن يُضلل الله فما له من هادٍ، اللّهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لَدُنك رحمة إنك أنت الوهَّاب».

قال الله سبحانه: ﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [الأحزاب: 40].

في هذه الآية إشارات:

الأولى: أنه تعالى سلب أبوَّة محمد ﷺ للأمة؛ رعايةً لظاهر المقام؛ فإن أبا البشر؛ هو آدم عليه السلام؛ فهو أبو محمد، وأبو الأنبياء، وأبو الأمم كلهم إلى قيام الساعة، فمَن كان منهم أباً؛ فهو أب اعتباري لا حقيقي؛ كنوح عليه السلام، فإنه الأب الثاني من حيث إن تناسل البشر منه بعد الطوفان؛ كتناسلهم من آدم بعد الهبوط، ولمَّا كان لكل مرتبة حكم مخصوص؛ نفى الله تعالى الأبوَّة عن محمد صراحة، وأثبتها لآدم ضمناً.

والثانية: أنه تعالى نفى الأبوَّة عن محمد لا عن أحمد؛ فإن أحمد أبو الأرواح، كما أن آدم أبو الأجسام؛ ولذا صرَّح بالرجال، فإن الأبوَّة الجسمانية؛ إنما هي للرجال، ودخل فيها النساء.

وأمَّا عالم الأرواح فليس فيه الذكورة والأُنوثة؛ بل لا أبوَّة فيه ولا بنوَّة بتقديم الباء، وكون أحمد أبا الأرواح بالنسبة إلى ظهور أنوارهم من نوره، وكذا نبوته كما

(1) رواه ابن حيان الأنصاري في طبقات المحدثين، ذكر من اسمه عمرو بفتح العين وسكون الميم [3/ 286]. وصححه ابن كثير في التفسير، سورة البقرة، آية (256) (لا إكراه في الدين) [1/ 312].

قال: «**كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين**»[1]، فإنه أشار به إلى صدارته في ذلك العالم من غير أن يكون هنا أمر ونهي وتبليغ، نعم دعوة روحانية، وبذلك سُمِّي نبياً.

ومن ذلك أن الله تعالى لمَّا خلق النور المحمَّدي، وأظهره بالتجلِّي النوري البرقي، وكساه كِسوة روحانية؛ لئلا يحترق مَن رآه من الأرواح، قال: لا إله إلا الله، فقال الله تعالى: محمد رسول الله، فكانت نبوته ورسالته في ذلك بمنزلة صفات الله تعالى قبل خلق الكائنات، وكذا توحيده توحيداً روحانياً فطرياً لا يتعلَّق بنفي شرك ونحوه.

إذ لا نفي، ولا إثبات هناك إذ لا إيمان، ولا كفر؛ لأنهما إنما ثبتا وظهرا بعد الدعوة في عالم الأجسام؛ فهما من أحكام هذا العالم لا من أحكام عالم الأرواح، وما ذهب إليه بعض المحققين من أن نبوته في ذلك العالم كانت بالفعل حيث دعا الأرواح إلى ذلك التوحيد لا بالقوة كما لسائر أرواح الأنبياء؛ فإنما هو تصوير لتقدُّم النور الأحمدي، وكونه مبدأ سرِّ التوحيد والتبليغ؛ فإن هذه المبدئيّة له كانت بالفعل، وقول الله: محمد رسول الله يدلُّ على أن البقاء بالله أفضل من الفناء في الله، وأن المحمَّدية صورة الحق في صورة الخلق، فمَن نالها؛ كان ذا جناحين؛ جناح الكون، وجناح الوجوب.

والثالثة: إنه صرح بالرجال وليس ذلك لإخراج النساء؛ بل لأن القصة إنما وقعت في حق زيد رضي الله عنه، وهو من رجالهم.

تقول عائشة ـ رضي الله عنها: «أنا من رجالهم لا نسائهم»[2]، أخذاً من قوله تعالى: وأزواجه أمهاتهم، فإنما هو بناء الأمر على الظاهر، وإلا فهي وسائر المطهَّرات من الأزواج، وأمهات المؤمنين والمؤمنات، ومعاوية خال المؤمنين والمؤمنات، وكذا نحوه صرَّح به حضرة الشيخ في الفتوحات المكية؛ وهو الذي يقتضيه الذوق.

ويدلُّ أن الزهراء ـ رضي الله عنها ـ تشفع لعصاة المؤمنات يوم القيامة؛ لأنها أمهم وأم المؤمنين.

(1) صح بلفظ: «إني عبد اللَّه وخاتم النبيين، وأبي منجدل في طينته». رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة الأحزاب، حديث رقم (3566) [2/ 453].

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فتخصيص المؤمنات ليس لإخراج المؤمنين؛ بل للاعتناء بشأنهنَّ؛ فهي بالنسبة إليهنَّ كالنبي بالنسبة إلى الرجال، فاعرف هذا السرَّ السرِّي، واعمل به.

قال تعالى: ﴿ تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى﴾ [الأحزاب: 40].

يعني أن رسالته لا توجب الأبوَّة التي يدعيها القوم؛ إنما توجب الأبوَّة التي يقتضيها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى﴾ [الأحزاب: 6].

فإن كون أزواجه أمهات؛ يستدعي كونه أباً، فهو ﷺ، كما أنه أبو الأرواح؛ فهو أبو هذه الأمة أي: أبو مَن كان من آله حقيقة؛ وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهَّرهم تطهيراً؛ ومنهم سلمان ومَن التحق به في معناه رضي الله عنهم؛ وذلك لأن لا نَسب بينه، وبين أهل الشرك والمعصية؛ لعلو مقامه؛ إنما كان نَسبه التقوى.

فالهاشمي المشرك ليس منه حقيقة، وكذا مَن في حكمه؛ بل لو كان أباً للعاصي فهو من وجه دون وجه بخلاف المتقي، وإنما كان من وجه دون وجه؛ لأن العاصي أمات النور المحمَّدي الذي أودعه الله فيه، ولو في الجملة، فكأن الله أخرج الميت من الحي.

ولا شك أنه لا مناسبة بين الحي والميت، وأمَّا المناسبة بين الحي الصحيح والمريض؛ فجزئية، فعلى المؤمن أن يصحح النسبة بالتقوى، ويزيل المرض الباطني من سوء العقيدة، والأخلاق الساري إلى سائر الأعمال في مرتبة التقوى.

قال تعالى: ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 40].

هذا من قبيل التكميل، وهو لا ينافي كونه فاتحاً لهم؛ فإن الخاتمية بالنسبة إلى عالم الأجسام، والفاتحية بالنسبة إلى عالم الأرواح؛ فهو في خاتميته أبو القاسم ونحوه صورة أبو؛ لأنه معنى، وفي فاتحيته أبو آدم، وأبو عيسى، وأبو جبريل ونحوهم؛ لأنهم كلهم مخلوقون من نوره.

وصرَّح بالنبوة بعد الرسالة؛ لأنها عامة، فكونه خاتم النبيين يستلزم خاتم الرسل بخلاف العكس؛ لأنه قد يجيء نبي بعد رسول؛ كأنبياء بني إسرائيل؛ ولذا قال ﷺ:

«**لا نبي بعدي**»[1] أي: لا مشرِّعاً كموسى وعيسى ونحوهما، ولا متابعاً كأنبياء بني إسرائيل.

(1) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (3268) [3/ =

وكونه خاتم النبيين من قبيل التشريف؛ لورثة الأمة حيث إن الله جعلهم بمنزلة الأنبياء، وأقام بهم العدل كما أقام بالأنبياء.

فمَن ادَّعى نبوة بعض الآل؛ كالحسين تأبيداً لنبوته ﷺ؛ فهو لم يدرِ معنى النبوة والولاية، والسرِّ الكمالي في هذه الأمة؛ فضلَّ وأضلَّ، فكان في الدَّارين مع الهالكين، نعوذ بالله من قصور المعرفة ومن الحور بعد الكور[1].

قال تعالى: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [الأحزاب: 40].

أي: الجامع لجميع الأسماء والصفات التي جعل الأنبياء مظاهرها، وجعل خاتم النبيين مظهراً لها بالفعل من حيث الإجمال والتفصيل.

قال تعالى: ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ﴾ [الأحزاب: 40].

أي: من الأشياء التي من جملتها؛ الرسالة والنبوة، وأهلهما بتقديم النون، وكذا الأبوَّة والنبوة بتقديم الموحدة.

قال تعالى: ﴿ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [الأحزاب: 40].

ولذا خصَّ محمداً ﷺ بأبوة الأرواح، وجعله خاتم النبيين في الأجسام، وخصَّ آدم بأبوَّة الأشباح، وجعله أول النبيين في الأجسام.

فمن علمه الكامل المحيط بكل شيء؛ يجعل رسالته حيث يشاء، ويجعل ولايته حيث يشاء، ويجعل آباء وأبناء، صورية أو معنوية، كما يقتضيه أسماؤه الكلية الجامعة، وأسماؤه الجزئية المحصورة؛ لأن عالم التسخير والحكمة يقتضي المتبوعية والتابعية، وتفاوت المراتب، وتباين الدرجات، والله عليم بالكليات والجزئيات، والإطلاقات والإضافات.

قال الله سبحانه: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَنَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ [الأحزاب: 56]، وقد

= 1273] ونصه كاملاً: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فإن اللَّه سائلهم عما استرعاهم»، ورواه مسلم في صحيحه، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم (1842) [3/ 1471] ورواه غيرهما.

(1) أصله حديث شريف نصه: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور» يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة. وهو مثل يضرب للرجل إذا كان أمره يدبر. روى الحديث النسائي في السنن الكبرى، الاستعاذة من الحور بعد الكور، حديث رقم (7935) [4/ 459] وابن خزيمة في الصحح، باب 25 الدعاء عند الخروج إلى السفر، حديث رقم (2533) [4/ 138] ورواه غيرهما.

سبق في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ فِي ٱلۡأَخِرَةِ أَعۡمَىٰ لَآ رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّكَ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذۡ﴾ [الأحزاب: 43].

فأفاد أمرين:

أحدهما: إن الله صلَّى عليهم أولاً؛ لئلا يقولون: إن الله تعالى صلَّى على النبي ولم يُصلِّ علينا، فأزال بتقديم الصلاة عليهم هذا الاضطراب، فإن أكثر الناس واقفون عند باب العطاء.

ونظيره قوله تعالى ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا أَسۡرَىٰ﴾ [الممتحنة: 1].

حيث لم يكتفِ بإخبار كونهم عدوّاً لله؛ بل أخبر بأنهم عدوُّهم أيضاً، حتى لا يقولون: إنهم إذا لم يكونوا عدوّاً لنا؛ فما ضررٌ في اتخاذهم أولياء.

فانظر ما أعجب حال الإنسان في عدم المروءة؛ حيث لا يراعي جانب الحق تعالى بأن يقول: إن كونهم عدوّاً لله؛ كافٍ لنا في عدم اتخاذهم أولياء سواء كانوا عدوّاً لنا أو لا، وذلك من الجهل بالحقائق؛ وهو حال أكثر الناس.

والثاني: إن المراد بصلاته تعالى عليهم: هو إخراجهم من ظلمات الطبع، والنفس إلى أنوار القلب والروح؛ لكن نور كل أحد بحسب حاله؛ كنور الشمس، ونور القمر، وأنوار سائر النجوم؛ ولذا قالوا: إن صلاة الله تعالى على النبي غير معلومة، وإن كانت من قبيل النور كما قال: «**واجعلني نوراً**»[1]، فإنه فرَّق بين نور ونور كما قلنا؛ والمعنى أن الله يُصلِّي على النبي في مرتبة الذات الأحدية بالنور البرقي الذي ليس فوقه نور؛ ولذا كان ﷺ يرى من جانب وجهه، ومن طرف قفاه على السواء، وهذه اللطافة الزائدة النورانية لم تحصل لأحد غيره، سواء كان في حال الصلاة، أو في خارجها.

وكذا الملائكة يُصلُّون على النبي بحصول النور الصفاتي في مرتبة الذات الواحدية؛ لأن مرتبة الملائكة مرتبة الأرواح، وتعيُّن هذه المرتبة؛ إنما هو تعيُّن الصفات، ثم تنزل من مرتبتهم إلى مرتبة الأجسام، فقال: ﴿حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِي جَوۡفِهِۦ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأحزاب: 56] أي: صلُّوا عليه بحصول الحفظ؛ لوجوده الظاهري، وقوة التبليغ، وانتشار الشريعة والإيمان الحقيقي المتعلِّق بمرتبة المعرفة.

فلكل واحد من أهل الإيمان الحجابي، والكشفي لسان على حدة يدعو الله

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

تعالى، ودلَّ التسليم على التسليم المطوي في الألواح كأنه قال: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ [الأحزاب: 56].

قوله تعالى: ﴿حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِي جَوۡفِهِۦ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأحزاب: 56]، افعلوا أنتم كذلك اقتداءً بالله تعالى وبالملائكة، وفيه تفضيل الملائكة في المرتبة؛ لأنهم من نور، وإن كان الإنسان أجمع كمالاً، وأزيد فضيلة، وإشارة إلى أن فعل المتبوع وسيلة لفعل التابع؛ ولذا قال تعالى: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ ٱلصَّٰلِحِينَ فِي﴾ [الأحزاب: 1]، فإنه إذا كان التقوى من شأن النبي؛ فأَوْلى أن يكون من شأن أمته.

وفيه تأديب الصغير بالكبير؛ وهو من باب الحكمة الإلهية، فعليك بالتأسِّي بأخلاق الله، وأخلاق الملائكة والأنبياء والأولياء؛ حتى تفوز بالشرف الزائد الذي ناله الأصفياء.

❊ ❊ ❊

{في سورة (الملائكة) فاطر}

قال الله سبحانه ﴿لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ فِي ٱلْأَخِـرَةِ﴾ [فاطر: 11].

أي: ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن لَّا رَيْبَ﴾ [الآية: 11].

أي: ثم خلقكم من نطفة خلقاً تفصيلياً؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة.

قال تعالى: ﴿فِيهِۚ إِنَّ وَلَوْ﴾ [اية: 11]؛ أصنافاً أحمر وأبيض وأسود، وذكراناً وإناثاً.

وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجاً لبعض» وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿وَمَا﴾ [الآية: 17] وما نافية، وقوله تعالى: ﴿ إِذ﴾ [الآية: 11].

قال تعالى ﴿ظَـ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية: 11] وهو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده.

قال تعالى ﴿جَـآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟﴾ [الآية: 11] كون تلك الحامل والوضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، فقوله: ﴿ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذُّكورة والأُنوثة، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمِّر مَن أطيل عمره.

وقوله: (**مِن مُّعَمَّر**) أي: من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّراً باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد.

﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا ٱلنَّصَـٰرَىٰ وَلِلَّهِ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم.

والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر أي: ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا لَلرَى وَلِلَّهِ﴾ بعد كونه زائداً؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ﴾ [الآية: 11].

أي: اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيَّر ذلك: لأن بطن الأم لوح العلم.

قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مَن عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية: 11].

لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتَّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

فإن قيل: إذا كانت الآجال والأرزاق مقدَّرة لا تزيد ولا تنقص؛ فما وجه قوله ﷺ:

«مَن سرَّه أن يُبسط له في رزقه، وينسأ في أثره؛ فليصل رحمه»[1].

وهو كل ذي رحم محرَّم من الآباء والأمهات، والأبناء والبنات، والأخوة والأخوات، والأخوال والخالات، والأعمام والعمَّات، ونحو ذلك؛ وذلك بالإكرام، والإنعام، والسلام، والزيارة، وغير ذلك قلنا: وجهه أن الأشياء قد تُكتب في اللوح المحفوظ متوقفة على الشرط، كما يُكتب إن وصل فلاَنٌ رَحِمه، أو تصدَّق بصدقة؛ فعمره سبعين سنة، وإلا فخمسون.

والدعاء والتشبث ببعض الأسباب قد يكون من جملة تلك الشروط؛ فيمحو الله ما يشاء بالنظر الظاهري، وحصول الشروط، وإن كان لا يتغيَّر ما في لوح علم الله تعالى.

أو يُقال: المراد منه البركة في رزقه، وبقاء ذكره الجميل بعده؛ وهو كالحياة الثانية، أو يُقال: الحديث صدر في معرض الحثِّ على صلة الرَّحم بطريق.

يعني: لو كان شيء يُبسط في رزق رجل وأجله؛ لكان صلة الرحم.

(1) رواه البخاري في صحيحه، في بابين أحدهما: باب من أحب البسط في الرزق، حديث رقم (1961) [2/ 728] وأبو داود في السنن باب في صلة الرحم، حديث رقم (1693) [2/ 132] ورواه غيرهما.

وكذا الصدقة كما في بعض الأحاديث ويجوز فرض المحال إذا تعلَّقت به حكمة، وفيه بيان؛ لزيادة فضل صلة الرحم والصدقة من بين سائر الطاعات؛ لأن الصلة يصل العبد إلى الله تعالى، فتمتدُّ حياته؛ لأنها حياة حقانية طيبة، وبالقطع ينقطع عن الله تعالى، فلا يجد بركة عمره، وإن طال كأعمار الأمم السالفة.

كما قال ﷺ: «**الرحم معلَّقة بالعرش تقول: مَن وصلني؛ وصله الله**» أي: إليه. وقوله: «**ومَن قطعني؛ قطعه الله**»[1].

وبالصدقة يظهر صدقه في دينه؛ فهي برهان له، والصدقة كالضوء الممتد الغير المنقطع.

ألا ترى إلى حال الصبح الصادق؛ فإنه لصدقه يزيد ضياء إلى أن يطلع الشمس بخلاف الصبح الكاذب.

لطيفة:

واعلم أن وفاية الأعمار ليلة النصف من شعبان، وصحائف الأعمال تُنسح من اللوح المحفوظ، وتُدفع إلى الملائكة الموكَّلين ليلة القدر من تلك السنة، فلا يظهر في الخارج من الموت والحياة إلا ما قدَّره الله تعالى.

فإن لكل شيء أجلاً مُسمًّى لا يتجاوزه، وكل ذلك مشتمل على حكمة جليلة، ومصلحة حميدة، فإن كان لا يعرفها الإنسان؛ بل ينكر فيكفر حيث يقول: أخذ هذا الولد مثلاً، وقطع عمره، وما أبقاه لي مع أنه ليس بمقطوع العمر؛ بل إن الله تعالى جعله على عمر ناقص، فلا يزيد على ما هو عليه، ولو فديت بالدنيا وما فيها.

فالصبر والسكون من آثار اليقين، والاطمئنان.

والجزع، والاضطراب من علامات الشك والإنكار.

فإن كان لك جزعٌ؛ فليكن على نفسك، فإنك لا تدري على أي حال تؤتى صحيفتك، وتُوضع على يد الملك، فجائز أن يكون فيها ما تكرهه من الأحوال، وليكن جلَّ همتك مغفرةٌ من الله ورحمة.

فإن العبد إذا كان مع الله تعالى، وأهلَّ لمغفرته ورحمته؛ فلا ألم له من الموت؛ فإن الموت في حقه انتقال من سجن ضيق إلى روضة فسيحة.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب صلة الرحم. . ، حديث رقم (2555) [1981].

وقد صحَّ أن الله تعالى لا يغفر الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمَن يشاء، والمرء لا يدري هل دخل فيمَن يشاء أم لا؟ بل قد يكون الإصرار سبب الردِّ كما ورد:

«**إن الله يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن، أو ساحر، أو مُشَاحن، أو مُدمن خمر، أو عاق للوالدين، أو مصرٍّ على الزنا**»[1].

وبجميع هذه الأخلاق ونحوها الظلم، فمَن وقع في ظلم النفس وظلم الغير؛ فليبكِ على نفسه؛ فإنه إذا كان محروماً عن المغفرة، مطروداً عن باب الرحمة في الأيام والليالي المباركة، فمتى ينالهما وقد أُعطي لرسول الله ﷺ جميع الأمة هذه الليلة إلا مَن شرد على الله شراد البعير.

ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة.

وهي إشارة إلى العلوم النبوية التي ورثها علماء أمته؛ وهم علماء الآخرة، فهي تزيد زيادة ظاهرة في تلك الليلة في قلب مَن كان مستعداً لها من أخيار أمته، وهذا إلى يوم القيامة في كل عصر من الأعصار؛ بل ويزيد في تلك الليلة للموتى أحوالهم الحسنة إن كانوا منعَّمين، وينقص آثار أفعالهم السيئة إن كانوا معذَّبين.

فإن للأرض من كأس الكرام نصيباً.

وقد مرَّ رجل بمقبرة، فصلَّى على النبي ﷺ، وكان في المقبرة خمسمائة وستون إنسان في العذاب، فنُوديَ: ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل على النبي ﷺ.

فلو كانوا في الدنيا أهل صلاة وصيام، وقيام وذكر، ودعاء على ما ينبغي لم يكونوا في العذاب، ولكانوا أحسن حالاً ببركة دعاء الأحياء وأمدادهم.

وقد ورد: «**القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرة من حُفر النار**»[2]. وهو يدلُّ على أن الإنسان يجد بعض ثواب علمه يوم القيامة؛ لأن الله تعالى أخَّر المثوبات إلى الآخرة؛ لأن الدنيا مع سعتها لا تسعها، والله تعالى يرحمنا وإياكم أجمعين بفضله وكرمه.

* * *

---

(1) أورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار، حديث رقم (1172) [3/ 264].

(2) رواه الترمذي في السنن (باب 26) حديث رقم (2460) [4/ 639] ورواه الطبراني في الأوسط، من اسمه مسعود، حديث رقم (8613) [8/ 272] ورواه غيرهما.

{في سورة يٓس}

قال الله سبحانه: ﴿أَعۡلَمُ حَيۡثُ﴾ [يٓس: 14]، خصَّ الثالث بالذكر، واكتفى ولم يقل أيضاً برابع وخامس، فإن للإنسان ثلاث مراتب:

مرتبة الحس، ومرتبة الخيال، ومرتبة العقل؛ فكل من الرسل الثلاثة قائمٌ على مرتبة من تلك المراتب.

فالأول: يدعو إلى الله تعالى في المرتبة الأولى؛ لأن الحسّ أول الباب، والغالب على الإنسان قصر نظره عليه، فلا بد من تحويله عنه في أول الأمر؛ ليدخل فيما وراءه من المرتبتين.

والثاني: يدعو إليه تعالى في مرتبة الخيال؛ يعني يجتهد في تحويل المدعو عن التقيُّد بتلك المرتبة، وإن الخيال يدعو الإنسان إلى أمور موهومة لا حقائق لها؛ وهي مرتبة الشعور لا العلم الحقيقي.

والثالث: يدعو إليه تعالى في مرتبة العقل؛ فإن العقل؛ كالعقال يُعقِّل المرء عن الحركة إلى إدراك الحقائق، كما أن العِقال يُعقِّل البعير عن الحركة إلى الوصول إلى الحسِّيات، ولذا هو عقل متعلِّق بالمعاش لا عقل قدسي متعلِّق بالمعاد؛ ولذا ذمَّ الله الكافرين بأنهم لا يعقلون مع أنهم عقلاء، إذ لو كان لهم عقل قدسي لتنزَّهوا عن ألواث الشرك والمعاصي الحاصل عن متابعة الخيال، والحسِّ.

فمَن تخلَّص عن التقيُّد بهذه القيود الثلاثة بدعوات ثلاث من القلب، والروح، والسرِّ؛ دخل في عالم الإيمان والإيقان؛ بل في عالم الشهود والإحسان، وبما قررنا من السرِّ الخفي؛ يظهر وجه التثليث في نحو الدعاء، والنفخ والنفث؛ فعليك بالعمل، فإن التعزيز إنما هو في التثليث، والأمر التكويني يدور عليه، ويُرجع كل أمر إليه.

في آخر سورة يٓس: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فِي﴾ [يٓس: 83].

الملكوت هو: الملك العظيم على ما تقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظموت بمعنى: العظمة الزائدة.

والرهبوت بمعنى: الرهبة الشديدة.

والرحموت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا.

والمراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دلَّت عليه النصوص.

نعم: إن الروح يلي الحق تعالى؛ فهو من عالم الأمر أي: من عالم الاختراع بلا مادة، ولا في مادة، والجسد يلي الخلق؛ فهو من عالم الخلق أي: من عالم الإيجاد من مادة في مدة.

والمراد باليد القابضة هاهنا هي: اليمنى المضافة إليها الملكوت العليا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓۚ﴾ [الزمر: 67]؛ وذلك لأن الأرواح من العلوِّيات فهي مقبوضة باليد اليمنى، والأجساد من السفليات؛ فهي مقبوضة باليد اليسرى.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: 67] أي: مقبوضة له تعالى بالشمال على ما يقتضيه ما قبله، وإن كانت كلتا يديه تعالى يميناً مباركة في الحقيقة على ما ما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة[1]؛ فاليد اليمنى بيد رب الناس، واليد اليسرى بيد ملك الناس، كما أن اليدين جميعاً بيد إله الناس، فاعرف جداً.

وأشار العموم في كل شيء إلى أن الحياة سارية في كل شيء، فما من شيء إلا وهو حيٌّ عالم متكلِّم مسبِّح على ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ إِلَّا يُسَبِّحُ

(1) عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد للَّه فحمد اللَّه بإذن اللَّه فقال له ربه رحمك اللَّه ربك يا آدم وقال له يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم فذهب فقالوا وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته ثم رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك وبنيهم فقال اللَّه له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال أي رب ما هؤلاء قال ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه وإذا فيهم رجل أضوؤهم أو قال من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعين سنة قال يا رب زد في عمره قال ذاك الذي كتب له قال فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ما شاء اللَّه ثم أهبط منها آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته فيومئذ أمرنا بالكتاب والشهود.

كُلَّمَآ﴾ [الإسراء: 44]، وإن كان ذلك خفيّاً عن إدراك العوام؛ لأن نظرهم مقصور على الظواهر، وأكثر الأشياء في الظاهر جوامد؛ لكن أين الجمود في جنب تجلِّي الرب المحمود؟

وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ فِي﴾ [يٓس: 83]؛ إشارة إلى ردِّ الفرع؛ وهو الروح إلى الأصل؛ وهو الله تعالى، وإن كان الجسد أيضاً مردوداً؛ لكن ردَّه إنما كان إلى المحشر للمحاسبة ليس إلى الله من حيث ذاته، دلَّ عليه: إنه ﷺ ترك تركيبه ليلة المعراج في المستوى، وسار بالروح إلى حيث لا أين، ولا حيث؟

فلكل من الروح والجسد مرجع يرجع إليه بحسب حاله ومقامه، فمَن ردَّ الحشر النفساني الجسماني؛ فقد غفل عن حكم الجسد.

ألا ترى أن الله تعالى حين أحيا عزيراً عليه السلام أحيا حماره أيضاً؛ لأنه مركبه، ولا شك أن الجسد مطيَّة الروح، وإن كان الروح الإنساني ليس بداخل ولا خارج بالنسبة إلى الجسد؛ وإنما له تعلُّق من حيث التدبير والتصرُّف، وبدأ الآية بالتسبيح، والتنزيه إشارة إلى أن الله تعالى، وإن كان بيديه ملكوت السموات وملك الأرض لكنه في الحقيقة غنيٌّ عن العالمين، وإنما له تعلُّق بالعوالم من حيث ألوهيته وربوبيته، فكل شيء مألوه له، ومربوب.

دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]، فالله تعالى أظهر كل شيء من حيث تجليَّاته، وأخفى كل شيء من حيث غيب هويته، وقراءة يٓس عن المحتضر؛ إنما هي للملكوت الناظرة إلى الغيب.

* * *

{في تفسير الصافات}

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ [الصافات: 31] أي: على إهلاك تلك القرية.

وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ [الصافات: 31] الأزلي، والحكم الأَولى الذي أوجبه الله على نفسه قبل أن يخلق الخلق، وهذا يُنادى على ما ذكرنا من الحق الصريح، فإن الله لا يتغيَّر، وحكم الله لا يتبدَّل كما لا يتبدَّل ولا يتغيَّر الاستعداد الأزلي.

فالإرادة قديمة؛ كاستعداد الفسق لكن على ما قالوا: تعلُّقها بالفسق حادث كحدوثه.

قال الله سبحانه وتعالى ﴿فِيكُمْ وَيَسْتَفْتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ٱلصَّٰلِحِينَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الصافات: 35].

اعلم أن هذه الكلمة جامعة لمراتب التوحيد؛ وهي قوله: لا إله إلا هو، ولا إله إلا أنا، ولا إله إلا أنت؛ ولذا لم يقل: إذا قيل لهم: لا إله إلا هو يستكبرون، فإن ضميرهم كان منحصراً في شيء واحد؛ هو معبودهم الذي تقيَّدوا به، فشركهم يقتضي التقييد لا الإطلاق.

والله تعالى منزَّه أن يتقيَّد بشيء دون شيء؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الإسراء: 23].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 15].

وقال مَن قال من الكُمَّل[1]:

عقد الخلائق في الإله عقائداً ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوا[2]

---

(1) القائل هو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي المتوفى سنة 638 هجرية.

(2) وتتمة الأبيات هي:

لما بدا صوراً لهم متحولا ... قالوا بما شهدوا وما جحدوه

ذاك الذي أجنى عليهم خلفهم ... بجميع ما قالوه واعتقدوه

إن أفردوه عن الشريك فقد نحوا ... في ملكه ربا كما شهدوه

فقد أعذر الشرع الموحد وحده ... والمشركون شقوا وإن عبدوه

وكذاك أهل الشك أخسر منهم ... والجاحدون وجود من وجدوه =

فالمشرك يُقيِّد الحق في مرتبة واحدة، والتجلِّي الجمعي الساري في جميع الكائنات يأبى ذلك.

فإن قلت قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]؛ ينافي ما ذكرت، وأيضاً الاعتقاد العام المذكور يقتضي تداخل الكفر، والإيمان، وذلك لا يصحَّ أبداً.

قلت: المراد معرفة الحق تعالى من حيث تجليه العام، وذلك لا يقتضي العمل بضدِّين؛ لأنه محجور من قِبل الله تعالى، فالإيمان الكامل؛ هو الكفر بالطاغوت، وما سوى الله تعالى جميعاً، والاعتقاد الأحدى في كل شيء، والعمل بما حدَّ الله تعالى في الشرع من الأمر والنهي.

ومن هنا يظهر الفرق بين أهل الإلحاد، وأرباب الحقائق؛ فإن الأولين يعملون بما يعلمون من كل ضدٍّ، وذلك كفر صريح، فحكم المساجد في باب العمل غير حكم الكنائس فيه، وأمَّا الآخرون فيعملون بما أمر الله به أن يُعمل لا بغيره، فيقفون عند حدِّ الشرع لِما أنهم يعلمون أن الله تعالى حكيم، وله حكم ومصالح فيما أطلق وفيما حجر حتى لو قيل لهم من قِبل الله: اشربوا الخمر لا يشربون؛ مراعاةً للعهد الأول، وعملاً لذلك القول على الامتحان، فإن كل أمر وارد ليس بإرادي؛ بل قد يكون التكليف للاختيار، كما أنه تعالى أمر أبا جهل ونحوه بالإيمان، وإن كان قد علم منهم خلافه، فالمأمور يتخلَّف عن الأمر دون المراد عن الإرادة، وإلا يلزم العجز تعالى الله عن ذلك.

ثم إن المراتب: من أنا، وهو، وأنت؛ مراتب التوحيد مطلقاً.

ومعنى التوحيد: مطالعة نور الوحدة في الآثار، والشواهد، ونفي الكثرة عن ذات الله تعالى؛ فإن الله تعالى ليس له شريك، وإن وحدته ليست عن عدد؛ وإنما قولنا: واحد، ووحدة؛ للتنزيه عن أن يكون معه غيره، وللتفخيم أيضاً حيث يشعر بالاستغناء، وعدم العجز لا للدلالة على مفهوم الوحدة المقيس بالكثرة.

وقولنا: نفى الكثرة؛ لدفع التوهُّم وللتفهيم، وإلا فبعد إثبات أنه الحق هو

= والقائلون بنفيه أيضاً شقوا ... مثل الثلاثة حين لم يجدوه

أجنى عليهم من تأله حين ما ... أهل السعادة بالهدى عبدوه

لو وافق الأقوام إذ أغواهم ... وتنزهوا عن غيه طردوه

الوجود الفائض على الموجودات لا حاجة إليه.

فإن قلت؛ فعلى هذا يلزم أن يصحَّ للكل أن يقول: لا إله إلا أنا، وأنا الحق؛ كما فعله الحلاَّج ونحوه.

قلت: لا شك أن للإنسان وجهين: وجه الإطلاق، ووجه التقييد.

فالوجه الأول: يلي جانب الحق، وبه يدركه، ومَن يدركه.

والثاني: يلي الخلق، وبه يتقيَّد بالأحكام مَن يتقيَّد.

وذلك أن الأول: ظهور التجلِّي في المظهر بحسبه، وبحسب المظهر المتجلَّى له، لا بحسب المتجلِّي، فإنه غير محصور في محلٍّ واحدٍ؛ لعمومه واتساعه، فهذا الوجه يقتضي أن يكون الساجد والمسجود، والعابد، والمعبود واحداً، وذلك لا يصحُّ من طريق الحقيقة.

وأما الثاني: هو المحلِّ، والتعيُّن الخاص، وهذا الوجه يقتضي التغاير بين المتجلِّي والمتجلَّى له في الجملة، وبه يصحُّ الأمر والنهي، وكون الحق آمراً معبوداً، وكون الخلق مأموراً عابداً، فمَن خلط بين المرتبتين؛ فقد زلَّ، وخرج عن الحكمة.

ولذا كان الأكمل من الناس مَن غُلب على حاله لا مَن غلبه الحال.

فإن الأول: لا يجري عليه لسان ذنب بخلاف الثاني؛ فوجب أن يكون الوجه التقييدي جنة على الوجه الإطلاقي؛ حتى إذا غلب عليه المناسبة الذاتية؛ أمسك العنان، وجرى على ما جرى عليه الكُمَّل من العمل بالوجه التقييدي؛ صيانةً لظاهر الشرع، وحفظاً للحدود؛ حذراً عن الاختلال، وضبطاً للاعتدال.

ولهذا قال تعالى في مرتبة الجمع الإحاطي: ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 17].

فجمع بين رميه ﷺ الذي يلي جانب الوجه التقييدي، وبين رميه تعالى الذي جانب الوجه الإطلاقي، فهذه هي مرتبة الجمع بين التخصيص والتشكيك، فغير العارف إذا شاهد هذا الرمي عن يد النبي ﷺ؛ أسنده إليه، وذلك شرك جداً.

وأمَّا العارف الغير الكامل فيسنده إلى الله تعالى، وذلك إلحاد قطعاً.

وأمَّا الكامل فيسنده الظاهر إلى الظاهر، والباطن إلى الباطن.

فإن تأثير الرمي في الخارج لم يكن من الحقيقة الكونية التي تلي جانب الخلق؛ بل من الحقيقة الوجوبية التي تلي جانب الحق، فإذا كان النبي ﷺ جامعاً بين

مرتبة الخلقية الكونية التقييدية، وبين المرتبة الحقية الوجوبية الإطلاقية؛ فصحَّ أنه هو الرامي من وجه، وإنه غير الرامي من وجه.

فهذا الأدب الإلهي نظر إليه الكُمَّل فحافظوا على المراتب، ولم يقولوا: أنا الرامي، أو أنا الحق مثلاً؛ بل جعلوا المرتبة الواحدية جنة على المرتبة الأحدية، فستروا المناسبة الذاتية الأحدية في المغايرة الصفاتية الواحدية؛ فسلموا الأمر إلى الله تعالى، وسلموا عن الغوائل، رزقنا الله تعالى وإياكم حلاوة هذا المقام من طريق الذوق والشهود، لا من طريق العلم والشعور فقط.

والحاصل أن مرتبة: لا إله إلا أنا مرتبة موسى عليه السلام؛ لأنه هو المنادى به من صورة الشجرة.

ومرتبة: لا إله إلا أنت مرتبة يونس عليه السلام كما قال في بطن الحوت: ﴿ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأنبياء: 87].

ومرتبة: لا إله إلا الله مرتبة محمد رسول الله ﷺ.

وكذا مرتبة: لا إله إلا هو، فإن هذه المرتبة أي: مرتبة: لا إله إلا هو، وإن كانت مرتبة هود عليه السلام كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ذَرَّةٍ خَيۡرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [هود: 56] فعبَّر عنه تعالى بالهُويَّة الغيبية السارية: لكن كونها مرتبته؛ إنما هو من طريق باطن الهُويَّة، وكونها مرتبة نبينا ﷺ؛ إنما هو من طريق ظاهرها وباطنها.

فظاهرها: لا إله إلا الله.

وباطنها: لا إله إلا هو.

فانظر كيف أُدِّب النبي ﷺ في التوحيد حتى قال ليلة المعراج حين ما دخل عليه تعالى:

«أنا العبد لا إله إلا الله»، فأثبت العبودية والألُوهية جميعاً، ومَن مشى على طريقة هذا الاعتبار؛ أمن العثار.

* * *

{وفي سورة الزمر}

قال سبحانه حكاية: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 3].

علم التوحيد واقع في العالم، ومتحقق في نفس الأمر سواء عرفه الإنسان، أو لم يعرفه، وتكلَّم بكلمته، أو لم يتكلَّم.

فإن الله تعالى لمَّا خلق العقل الأول؛ كان أول ما تكلَّم به: لا إله إلا الله، فشرَّفه الله تعالى بأن يقول: محمد رسول الله، وبقي أمر الوجود على هذا التوحيد إلى قيام الساعة، وإلى الأبد، ولمَّا أخذ الله الميثاق؛ كان أول مَن تكلَّم بقوله بلى هو العقل الأول لأنه رئيس أهل التوحيد لا قبل البعثة، ولا بعدها؛ لأن اللاحقة عين السابقة، والأبد مرآة الأزل، والنهاية صورة البداية، والآخر سرُّ الأول، وكل مَن وقعت له المناسبة الذاتية بذلك العقل الأول؛ كان حاله في التوحيد حاله؛ لأنه تعيُّنه هو عين تعيُّنه، والكل في الصف الأول بهداية الله تعالى وعنايته.

فقولنا: لا إله إلا الله؛ صورة التوحيد لآدم وذريته في سبعة آلاف سنة.

وقولنا: محمد رسول الله؛ صورة التصديق لهذه الأمة المرحومة في ألف سنة؛ بل وقد يكون من هذه الأمة مَن له الجمعية الإحاطية؛ فيحصل له من التوحيد والتصديق في العمر القليل حكمهما في تمام دور السنبلة، فإن الله تعالى إنما جعل هذا الدور سنبلياً لأجل المضاعفة المقصودة لهذه الأمة لا لغيرها من الأمم السالفة، فظهر أن المعبود بالحق من الأزل إلى الأبد؛ هو الله تعالى وأن الرسول هو محمد ﷺ؛ لأن مَن عَداه من الرسل المتقدمين؛ إنما هم من شعبه وصوره.

والمشركون جعلوا الأصنام معبودات كما دلَّ عليه قولهم: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ [الآية: 3]؛ وذلك باطل جداً، وإن كان مرادهم من ذلك؛ هو التقرُّب إلى الله تعالى كما دلَّ عليه قولهم: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [الآية: 3].

وذلك أن التجلِّي الأحدي سار في جميع الموجودات، فإذاً كل الأشياء دليل عليه لا شريك إذ لا شريك أصلاً؛ لأن الوجود واحد، والشيء لا يُقرِّب نفسه إلى

نفسه؛ وإنما يُقرِّب غيره، والغير هنا هو العبد العابد، ومنه قرب النوافل، وقرب الفرائض.

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48، 116]؛ لأن المعدوم لا يكون مغفوراً مستوراً، وشريك الله تعالى ممتنع فلا وجود له أصلاً.

وكون الأصنام شركاء له؛ إنما هو باعتبار الوهم، والتصوُّر الباطل، فبطل التقييد، وظهر سرُّ الإطلاق.

ألا ترى أن الشمس إذا طلعت؛ فنورها يعمُّ الدنيا، ويدخل في الكُوَّات جميعاً، فكل شعاع منعكس من أشعتها؛ فهو دليل عليها، إلا أن لا شمس مثلها، فالشمس واحدة، والأشعة مختلفة متعددة بحسب اختلاف الكوَّات وتعددها، وكل الأشعة إذا اجتمعت؛ فهي الشمس، فمَن حصرها في شعاع من الأشعة؛ فقد جهل الأمر في الخارج، ونفس الأمر، فكما أن هذا التقييد من الجهالة؛ فكذا تقييد نور الإلهية بواحد من المألوهات، أو أكثر جهل وشرك عظيم، فتنبَّه لهذا الأمر العظيم، واجتنب من الإلحاد والشرك والكفر، فلا تعبد إلا الله.

* * *

{في سورة غافر}
حم المؤمن

قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ﴾ [غافر: 15].

اعلم أن الفيض الإلهي للقلب؛ كالروح للبدن، فكما أن البدن لا يتحرك إلى جانب الخلق إلا بالروح، وبه حياته؛ فكذا القلب لا يتحرك إلى جانب الحق إلا بالفيض والجذب، وبه قوامه.

فالقلب بلا فيض ميت؛ كالبدن بلا روح، وبه يعرف أن إيمان المقلِّد وإن كان صحيحاً في الظاهر؛ لكن لا يرتسخ ذلك فيه إلا بالاستدلال، فأدنى الفيض هو الاستدلال، فإن الإيمان إنما يتقوَّى به، والاعتقاد لا يتمكن في القلب إلا به، وفوقه الكشف، فإذا نزل المؤمن عن هذين الوصفين، وكان إيمانه بمجرَّد التقليد لأبويه أو لأهل بلده؛ فهو كالميت ويُوشك أن لا يُفتح باب السماء لروحه بعد موته لعدم انفتاح قلبه، وعدم تنوُّره بالنور الحقيقي، ولو بمقدار السهم.

ثم إن الفيض الذي يُحيى به القلب، ويقال له: الروح أيضاً، إمَّا أن يلقيه الله تعالى بلا واسطة؛ وهو أعزُّ وأندر، وإمَّا أن يلقيه بواسطة ملك من الملائكة كجبريل، فإنه ملك ملوك الأرواح، وروح القدس؛ وهو عزيزٌ ونادرٌ، وإمَّا أن يلقيه بوساطة شيخ من المشايخ الكاملين، ورئيسهم الخضر عليه السلام في الإفاضة والإلقاء؛ وهو كثير شائع، وذلك لأن الصحبة الجسمانية مؤثِّرة، والأخذ من المجانس المصاحب أغلب.

وأمَّا الأخذ من المَلَك: فيحتاج إلى تنوير المحل؛ لأن الملائكة خُلقوا من نور، فلا بد في الأخذ من المجانسة النورانية.

وعُلم من هذا أن الأخذ من الله أصعب من الأخذ الملكي؛ لأنه نور الأنوار، والنور الشعشعاني الخاطف للأبصار، فلا يتيسر للعبد الضعيف المرائي الظلماني المناسبة به إلا بهيئة المحلِّ، وهو السرُّ وذلك بتفريقه عمَّا سوى الله تعالى بالكلية، فإنه لن تنكشف الحقائق، والمحل مشغول بشيء من ذلك، ولم يحصل إلا الواحد

بعد واحد، فإن أكثر المعارف الدائرة بين السالكين من قبيل لوازم الحقائق نفسها، وإن كان يظن بعض الظَّن: إنها من المعارف العالية، وإن أهلها من أكامل الأرواح الطيبة، وأخصِّ خواص الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [غافر: 58].

إنما لم يستويا؛ لأن البصير على نور ظاهر من ربه بخلاف الأعمى، وكذا المؤمن والكافر، فإن المؤمن على نور باطن من ربه بخلاف الكافر، وكذا حال المحسن والمسيء والمطيع والعاصي.

والفرق بين المحسن والمطيع أن المحسن أخصُّ لأن باطنه منوَّر بنور الإحسان والمشاهدة، فكل محسن مطيع دون العكس، فظهر أن الآية بعبارتها تدلُّ على عدم المساواة بين الأعمى والبصير الحسيّين، وإشارتها تدلُّ على عدمها بين الأعمى والبصير المعنويين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، يدلُّ على أن أعمى الباطن أشدُّ من أعمى الظاهر؛ بل العمى الباطن لا نسبة بينه، وبين العمى الظاهر إلا من حيث الاشتراك في الاسم، وقد كان بعض الأنبياء عليهم السلام أعمى؛ كشعيب فلم يضره ذلك في كماله؛ لكونه في حكم البصير.

لطيفة:

قد كان لي أخٌ صغيرٌ؛ هو من أخس الناس، وأبخلهم في زمانه مع سعته وثروته، فتوفى فرأيته في المنام؛ كأنه متهيىء للوعظ، فلمَّا رآني عند الكرسي أدبر وقال: إني لا أقدر على الوعظ، وهو حاضر، فقيل لي: إن اسمه يوجد في دفتر العُمي عند السلطان فليتتبع هناك، فلمَّا اطَّلعت على ذلك الدفتر؛ وجدت أكثر أسمائه النساء، فأعرضت عنه، وخطر ببالي قوله تعالى: ﴿وَمَن وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ فِى ٱلْـَٔاخِـرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: 72]؛ يعني أن مَن كان مجبولاً على العمى؛ فلا يفيده العلاج.

وأمَّا العمى العارض: فقد يزول بسبب من الأسباب، وكذلك حال الذي سلك طريق الحق، وكان مطمح نظره ما انتهى إليه نظر الأَصِحَّاء، فإنه يكشف الله عماه، إما في الدنيا، وإمَّا في الآخرة.

وأمَّا غير السالك: فيبقى على حاله، ونظيره القاعد عن الحج، والخارج له، فإن الخارج الغير الواصل إلى المقصد؛ كان أجره على الله بخلاف القاعد فظهر أن في الحركات مطلقاً بركات كثيرة.

❊ ❊ ❊

{وفي سورة فصلت}

ورد صباح الثلاثاء الرابع عشر من شهر المولد النبوي سنة ثلاثين ومائة وألف قوله تعالى: ﴿إِلَّتَهۡلُكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠﴾ [فصلت: 44].

الضمير للقرآن؛ يعنى أن الله تعالى هدى مَن استعد للإيمان إلى الإيمان بسبب القرآن، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ﴾ [الإسراء: 9]؛ والمقصد هداية الله تعالى بسببه فوصفه بصفته، لقوته في السببية.

وكذا قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ [يٓس: 2]، و﴿ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ [آل عمران: 58]؛ فإن الحكيم في الحقيقة؛ هو الله تعالى لكن لمَّا اشتمل القرآن والذكر على حكم الله وحكمه، وحقائق ذاته وصفاته؛ وُصف به.

ثم إن كون القرآن هداية إنما هو في مقابلة الضلالة؛ وهو الخروج عن الطريق المستقيم.

كما أن الهداية هو الدخول فيه، وكونه شفاء؛ إنما هو بالنسبة إلى الأمراض الباطنة؛ كالكفر، والنفاق، والجهل، ونحو ذلك.

فإن المؤمن في أول دخوله في دائرة الإيمان يهتدي إلى الحق، ويتخلَّص عن الأمراض المذكورة العائقة له عن الحق، ثم إنه يزداد هداية وشفاء بأن يترقى إلى مرتبة الإيقان والإحسان والولاية الخاصة الأكملية، ويتخلَّص عن التلوينات والحجب الحاصلة في مرتبة الروحانية؛ وهي الحجب الكونية اللطيفة الرقيقة النورانية.

فإن قلت: فإذا كانت روحانية نورانية؛ فما معنى التخلُّص عنها؟

قلت: أمَّا الروح فلا كلام في كونه مخلوقاً كما دلَّ قوله ﷺ:

«**أول ما خلق الله روحي**»[1].

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع والحديث الذي ورد نصه: «أن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري رضي اللَّه عنه قال: سألت رسول اللَّه ﷺ عن أول شيء خلقه اللَّه؟ فقال هو نور نبيك يا جابر خلقه اللَّه ثم خلق منه كل خير وخلق بعده كل شر، فحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب=

والخلق حجاب على وجه الحق بالنسبة إلى الخلق، فإن الله تعالى لا يحتجب إلا بصفاته، فلا حجاب له.

ومعنى الحق: اقتران الوجود بالماهية، فالوجود؛ هو الوجود الأول الذي هو وجود الحق، ولا يعتريه الخلقية؛ وإنما المخلوق هو الماهية؛ وهي تعيُّن خاص بالنسبة إلى ما في علم الله تعالى من الثبوت.

ومن هذا السرِّ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، فجعل الوجه الذي يلي وجه الحق غير هالك؛ بل الحقيقة الإنسانية جامعة لوجهي الإطلاق والتقييد، فوجه الإطلاق؛ هو وجه عين وجه الحق في الحقيقة ولولا هذا الوجه؛ ما عُرف الحق؛ إذ لا مناسبة بين الحق والخلق أبداً.

ومن هنا ورد: «**لا يعرف الله إلا الله**»[1].

= اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق القلم من قسم، والروح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء: فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء، وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء: فخلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة، ثم نظر إليه فترشح ذلك النور عرقاً، فقطرت منه مائة ألف وعشرزن ألفاً، وأربعة آلاف قطرة فخلق اللَّه تعالى من كل قطرة روح نبي أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق اللَّه من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السموات السبع من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نوري، ثم خلق اللَّه اثني عشر حجاباً فأقام النور وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة والرؤية والرحمة والرأفة والحلم والعلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فعبد اللَّه ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب ركبه اللَّه في الأرض وركب فيه النور في جبينه ثم انتقل منه إلى شيث ولده، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل إلى صلب عبد اللَّه بن عبد المطلب، ومنه إلى زوجه أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين الغر المحجلين هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر» (حاشية الصاوي، خاتمة الكتاب). وأورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (827) [1/ 311].

(1) أورده البروسوي في روح البيان، سورة النور، آية 35 [6/ 152]. وأورده غيره وهو من كلام الصوفية العارفين باللَّه تعالى رضي اللَّه تعالى عنهم.

وقالوا: إن البسيط لا يدركه إلا البسيط؛ إذ لا مناسبة بينه، وبين المركب، وعلى هذه فابحث جميع الموجودات، فما من كثيف إلا وله جهة لطافة بها يدركه اللطيف، ومن هنا يدخل الروحاني من الجدار الغير النافذ.

وأمَّا النور فمعنى حجابيته: كونه في مقابلة الظلمة، ولا شك أن ما كان في مقابلة الظلمة؛ فهو في حكم الظلمة، كما أن الوحدة المقابلة للكثرة في حكم الكثرة؛ ولذا لا يُوصف الله تعالى؛ وإنما يُوصف بالوحدة الحقيقية التي هي مبدأ الوحدة الاعتبارية، وكذا لا يُوصف إلا بالنور الذي هو مبدأ النور المقابل للظلمة؛ وهو النور الذاتي الأصلي الحقيقي الذي أُشير إليه بلا ليل ولا نهار؛ لأن النهار المقابل الليل؛ هو النهار العارض، والنور الطارىء.

وما يُقال: إن الله تعالى يتجلَّى في ليلة القدر؛ فالمراد به النور الذاتي الذي ليس في مقابلة الظلمة، فنور ليلة القدر؛ نور ذاتي أصلي حقيقي لا يُقاس عليه إلا نور الصفاتية، ومن نور القمر والكوكب ونحو ذلك، فإذا عرفت هذا؛ فاجتهد ألا يكون نورك نوراً آفلاً حاصلاً من بعض التجليَّات الصفاتية؛ بل نوراً ثابتاً باقياً دائماً حاصلاً من التجليَّات الذاتية، والله الهادي إلى نوره.

قولهم:

تعلَّـم يـا فتـى، فالجهـل عـار

صرح بالفتوة؛ لأن المتعلِّم أيًّا ما كان شاباً أو شيخاً، إذا كان من أهل الفتوة؛ فهو لا يستحيي أن يأخذ العلم ممن هو أعلى منه وأدنى.

دلَّ عليه قوله ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**»[1]؛ لأنه ﷺ لم يشترط أيناً واحداً متعيِّناً للأخذ إذا كانت مشتملة على الحكمة؛ وهو العلم، وأكثر ما يطلق على باطن العلم؛ وهو الوقوف على حقائق الأشياء كما هي.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ﴾ [لقمان: 12].

يشتمل على كل من الحكمة الطيبة، والحكمة الإلهية الذوقية، فالإعراض عن ملك سليمان عليه السلام كما يفهم من كلمات المشايخ؛ ليس كالإعراض عن حكمة

(1) ورد بلفظ: «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»، رواه الترمذي في السنن، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (2687) [5/ 51] ورواه ابن ماجة في السنن، باب الحكمة، حديث رقم (4169) [2/ 1395]. ورواه غيرهما.

لقمان عليه السلام، فإن الملك من قبيل ما سوى الله، وكل ما سوى الله؛ فهو مخلوق، فلا يصحُّ للتعلُّق به إلا بتحميل الله تعالى؛ كالتحبيب في قوله ﷺ:

«**حُبِّب إليَّ من ديناكم ثلاث**. . . إلخ»[1].

وأمَّا العلم مطلقاً؛ فهو صفة شريفة إلهية، فلا معنى للإعراض عنه حتى قيل في قولهم: العلم حجاب، إن معناه إن العلم حجاب عن الجهل، فليتنافس فيه المتنافسون، فالقائل بخلافه جاهل عار عن الكلية الإنسانية الكمالية.

ثم إن النبي ﷺ إنما حرَّض على أخذ العلم من جميع الأينيَّات؛ لأن العلم والتجلِّي الأحدي والنفس الرحماني واحد عند علماء الحقيقة، فالكل من شأنه العلم؛ كما أنه من شأنه نفخ الروح.

فإن قلت: إذا كان أهل العلم مطلقاً ممَن يليق أن يؤخذ منه؛ فلِم لا يقتدى إلا بأهل العمل، ومَن يرعى أدب الشريعة، قلت: عموم التجلِّي بالعلم اقتضى الأخذ من الكل؛ لشرفه وفضله، وهو لا يقتضي الزيغ والانحراف عن الصراط السوي بخلاف العمل، فإنه حجر عن متابعة مَن لم يعمل بعلمه رسمياً أو حقيقياً حتى إنه المجذوب، إذا لم يكن له أدب الشريعة لا يُقتدى به، وإن كان من أهل الحال؛ فإذاً حُجر عن اتِّباع مثل هذا.

فكيف الحال في الذي لا علم له، ولا أدب له، ولا حال، وقد امتلأت الدنيا في عصرنا هذا بأهل الجهل والمكر والاستدراج؛ فهذا مرض لا يقبل المداواة والعلاج؛ لأن النهاية عادت إلى البداية، وكاد يقرب التجلِّي أن يُردَّ إلى أصله.

ومن علاماته؛ نزول عيسى؛ فإنه الفجر الأول ليوم القيامة، وطلوع الشمس من مغربها؛ فإنه الفجر الثاني له.

أعاذنا الله وإياكم من الشرور، والفتن، وخفف عنا أحمال البلايا والمحن.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء بلفظ: «(حبب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) هكذا اشتهر على الألسنة وترجم به النجم لكن ذكره في المقاصد وكثيرون بدون من دنياكم ثلاث وقال رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه وكذا الخطيب في تاريخ بغداد مقتصراً على جملة جعلت الخ قال ورواه النسائي عن أنس بلفظ الترجمة والحاكم بدون جعلت وقال صحيح على شرط مسلم وأخرجه ابن عدي عن أنس بلفظ حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة وأخرجه أيضاً وأبو يعلى في مسنديهما وأبو عوانة في مستخرجه والطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه وآخرون. (كشف الخفاء، حديث رقم (1089) [1/ 405].

فإن قلت: ما معنى التكليف؟ قلت: إزالة الإطلاق.

فإن قلت: ما معنى إزالة الإطلاق؟ وقد قال تعالى عن لسان هود عليه السلام: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ خَيْرًا مَن ٱللَّهُ﴾ [هود: 56].

قلت: ذلك لسان الإطلاق العام من حيث العلم الشامل، وذلك لا يوجب العمل.

ألا ترى أن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى مع اجتماعهما في محلٍّ واحدٍ؛ وهو الكتف، والعنق، والوجه أفضل منهما مع اتصاله بالعنق، فهذا التفاوت في الأعضاء الأنفسية يُشعر بالتفاوت في القوى الآفاقية، فإذا حجرك الله عن شي؛ فاجتنب عنه، فإنه وإن كان من قبيل التضييق في الصورة لكنه من قبيل توسعة التجلِّي في المعنى؛ لأن القائم مع أمر الله قائم مع الله والقائم مع الله؛ هو المتجلِّي بكل اسم من الأسماء الداخلة تحته بخلاف القائم مع غير الله، فاعلم ذلك وأيضاً.

فاعلم أن العلم المرغب في تحصيله وأخذه، إنما هو العلم الموافق للحق، والحق أحق أن يُتبع به، وأمَّا غيره فمهجور جداً، ونحوه من العلوم التي ليست نتيجة التقوى، والعمل الصالح، فتنبَّه ذلك.

قولهم: مَن تعطَّل أيام التحصيل؛ تحصَّل أيام التعطيل، هذا بالنسبة إلى حالة الدنيا، فإنه ما دام البقاء فيها؛ فإنه يُرجى للطالب تلافي ما فات، إلا أن يكون بالغاً إلى أرذل العمر، وزمان العته والفَنَد[1]، فإنه إذا لم تساعد الأسباب والآلات؛ فكيف يتحصَّل الملكات.

ألا ترى إلى قولهم: من فقد حسّاً؛ فقد فقدَ علماً فقدان حسٍّ من الحواس إذا كان سبباً لفقدان علم من العلوم، جميع الحواس يوجب فقدان جميع العلوم، نعم إن شباب الزمان أعون على تحصيل المرام من زمان الكهولة والشيخوخة.

ومن هنا ورد: «**العلم في الصغر؛ كالنقش في الحجر**»[2]؛ وذلك لاجتماع الحواس والقوى إذ ذاك.

(1) الفَنَد: الخَرَف وإنكار العقل من الهَرَم أو المرض، وقد يستعمل في غير الكِبَر وأصله في الكبر. والفَنَد: الخطأ في الرأي والقول وأَفْنَدَة: خطأه رأيه. وفي التنزيل العزيز حكاية عن يعقوب عليه السلام: «لولا أن تفندون». لولا أن تكذبوني وتعجزوني وتضعفوني». وَفَنَّدَ رأيه إذا ضَعَّفَه (لسان العرب).

(2) قال العجلوني في كشف الخفاء: «رواه البيهقي عن الحسن البصري من قوله وأخرجه ابن عبد البر =

وقد صحَّ أن بعضهم تحصَّل في أيام الشيخوخة أيضاً؛ لاعتدال مزاجهم، واجتماع قُواهم سواء كان المتحصِّل من قبيل الرسوم كما وقع للإمام القُدوري، وأبي بكر الفضل الشاشي، أو من قبيل الحقائق كما وقع للجارية البصريّة وغيرها.

وإمَّا بالنظر إلى حال الآخرة؛ فكل كمال لم يحصل في الدنيا؛ لم يحصل في الآخرة؛ لمضي زمان التكليف والكسب، إلا أن يكون الكمال الغير الحاصل لمَن سلك، ولم يُكمَل له الأمر بعد؛ فإنه من أهل الترقِّي في جميع المواطن، فالابتداء إذا كان على السلوك والخروج من بيت الطبيعة؛ فالانتهاء على الترقِّي، فإن الأجر واقع على الله، والله لا يضيع أجر المحسنين، والرحمن ما عنده حرمان، جعلنا الله وإياكم من الواصلين.

❊ ❊ ❊

= عنه بلفظ طلب الحديث في الصغر كالنقش في الحجر رواه الطبراني في الكبير بسند ضعيف عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء. (كشف الخفاء، حديث رقم (1757) [2/ 85].

{وفي سورة الشورى}

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

اعلم أن أمر الوجود دائرة واحدة؛ لكن جُعلت نصفين باعتبار الوجوب والإمكان، فقوله: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) إشارة إلى النصف الوجوبي.

وقوله: (**السَّمِيعُ البَصِيرُ**) إشارة إلى النصف الإمكاني.

والنصف الأول: كتاب الوجود الحقيقي الذي آياته محكمات بلا متشابهات؛ لأنه كتاب الغيب، واللاتعيُّن، والإطلاق.

والنصف الثاني: كتاب الوجود الظلِّي الذي آياته متشابهات بلا محكمات؛ لأنه كتاب التجلِّي، والتعيُّن، والتقيُّد؛ فهما بحران بينهما برزخ لا يبغيان، فلا يبقى بحر الوجوب والمحكمات على بحر الإمكان والمتشابهات برفع حكمه، واعتباره، وإلا لبطلت الحقائق ومراتب الأسماء والصفات، وكذا لا يبقى بحر الإمكان والمتشابهات على بحر الوجوب والمحكمات برفع تأثيره وفعله، وإلا انقلبت الحقائق والأعيان.

فالربُّ لا يكون عبداً، كما أن العبد لا يكون الربَّ أبداً، وإنما يظهر سرُّ الوجوب في مرآة الإمكان؛ ليحصل كمال الاستجلاء، فكون الإمكان مرآة الوجود، وكذا كون الوجود مرآة أحوال الأعيان؛ لا يوجب الانقلاب والاستحالة؛ لأن العين واحدة، والنسب مختلفة، فإذا غلب الفناء؛ ظهر سرُّ الوجود الباطني، وإذا غلب البقاء؛ ظهر سرُّ الوجود الظاهري؛ لأنه هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وأول بحر الإمكان من حيث اعتبار الكون؛ وهو الوجود العيني القلم الأعلى، والعقل الأول؛ وهو بحر العماء الكوني الذي هو مبدأ الكثرة بالفعل؛ ولذا يقال له: بحر العماء الصفاتي التفصيلي، كما أن ما قبله؛ هو بحر العماء الذاتي الإجمالي الذي هو مبدأ الكثرة بالقوة.

فالأول؛ كبدن الشجرة، والثاني؛ كالنواة، فوحدة بدن الشجرة وحدة اعتبارية

إضافية، ووحدة النواة وحدة حقيقية أصلية.

ولمَّا كان أمر الوجود دورياً لا خطياً؛ ظهر النواة في صورة الشجرة، والأغصان والأوراق، والثمرة، وكان الانتهاء إلى النواة، فعاد الآخر على الأول مع كمال الظهور في المراتب، فكما أن النواة؛ وهي الغيب والمحكم لا تأويل فيها أصلاً؛ فكذا الشجرة بجميع ما تشمل عليه لا تأويل فيها أصلاً؛ لأنها شهادة ومتشابه معتبرة في مقامها على حدِّها، وعلى هذا فجميع المراتب من القلم الأعلى إلى آخر المولِّدات، ومرتبة الإنسان لا تحتاج إلى التأويل؛ لأنها حقائق لا مجازات، وإنما يُقال لها: مجازات باعتبار إنها محلُّ الجواز، والعبور إلى الأسماء، والصفات، والذات.

فكما أن القرآن الفعلي بريء عن ذلك التأويل؛ فكذا القرآن القولي.

وقوله تعالى: ﴿ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 7]؛ معناه:

ما يؤول إليه من الحقائق، فإن ذلك محتاج إلى الكشف الصحيح، ومن ذلك يعلم أن علماء الرسوم أساؤوا الأدب فيما حاولوا من التأويلات الزائغة؛ وإنما عليهم أن يضيفوا الأمر إلى الله، فإنه يعلم تأويله، وكذا الراسخون في العلم بقدر ما علمهم الله تعالى، فالله تعالى هو السميع باعتبار كونه رب العالمين، وكذا سائر النعوت الكونية؛ فإن الله تعالى يتَّصف بها كلِّها في بحر العماء الكوني، وهو: ليس كمثله شيء باعتبار غناه الذاتي، وقُدسه، ونزاهته؛ فهو تعالى مرئي، ومشهود بالاعتبار الأول، وغير مرئي ومشهود بالاعتبار الثاني، إذ لا بد للشهود من ثالي، ولا مثال فوق التجلِّي العيني.

نعم! إن الله تعالى يُدرَك في مرتبة تجريد التوحيد والتفريد؛ لكن بوساطة الإطلاق الذي هو أحد وجهي الحقيقة الإنسانية؛ لأنه هو الجهة الجامعة بينهما؛ إذ الواحد المطلق بالإطلاق الحقيقي لا يراه إلا الواحد، كذلك فإن عين الكثرة لا تنظر إلى الوحدة، وكذا عين التقييد لا تُدرك المطلق، ومن ثم يُقال: إن المانع لإدراك العين في الدنيا؛ هو قيدها حتى إن الله تعالى لو رفع قيدها؛ لأمكن الإدراك.

كما يُعلم ذلك: من أنه ﷺ كان يرى في الصلاة من خلفه لوقوع المحاذاة الصحيحة، وقد صحَّ عند أهل الله أن الحاسة يمكن أن تدرك ما تدركه الحاسة الأخرى؛ كالأذن فإنها يمكن أن ترى، وكذا البصر فإنها يمكن أن تسمع، وهكذا

جميع الأعضاء، والقوى، وذلك إنما يكون بحسب التجلِّي الخاص على أن الله تعالى من شأنه أن يجمع الأضداد، وفي حالة واحدة، وكذا الإنسان إذا كان مرآة له بالفعل؛ فإن مرتبته جامعة؛ كمرتبة الألوهية.

فإذا عرفت فاعلم أن جميع الأشياء الموجودة بالوجود الخارجي من الأول إلى الآخر مشتركة في كونها من المتشابهات، والله تعالى كما أن له أسماء إلهية كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: 180]. فله أسماء كونية كما أشار إليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[1]، فأسماء الله؛ هي أسماء آدم، وكذا العكس؛ لكن هذه المتشابهات بعضها فوق بعض باعتبار القرب من عالم الاختراع، والبعد عنه، فكل ما قرب منه؛ فمتشابه لطيف؛ لقلة التركيب، وكل ما بعد عنه؛ فمتشابه كثيف؛ لكثرة التركيب.

واللطيف وإن كان من عالم الخلق؛ فبلطافته يُعدُّ من عالم الأمر؛ كالقلم، والروح، والعرش، والكرسي، بخلاف الكثيف كالطبيعيات، والعنصريات، والتوليديات، والإنسان السالك إذا غلب عليه حكم الوجوب من حيث الوجه الخاص؛ فالكثيف لا يكون حجاباً له عن الله تعالى؛ لشدة التأثير في الأسماء الإلهية الذاتية الكلية، فحجابه الظلماني في حكم الحجاب النوراني، وحجابه النوراني كَلَا حجاب بخلاف مَن غلب عليه حكم الإمكان فإنه ليس كذلك؛ لضعف تأثير الأسماء الصفاتية الجزئية.

ويُعلم الفرق من أن الأول روح كلي مخلوق قبل تسوية طبيعته العنصرية، والثاني روح جزئي مخلوق بعدها، وإن كان كل منهما مستفاداً من الروح الكلي الأول، فأين رتبة مَن يتأخَّر من رتبة مَن يتقدَّم؟ وكذا أين حال مَن حكمت عليه الأحوال المختلفة من حيث كثرة الوسائط من حال مَن ليس كذلك؟

«**فمَن وجد خيراً؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[2] فإن الشر ليس إلى الله، وإنما هو من مقتضيات الاستعدادات الغير المجعولة، فانظر فأنت المحكم، وأنت المتشابه، واعتبر، وعليك بمراعاة المراتب.

قال الله تعالى﴿وَٱسْتَكْبَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [الشورى: 19].

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (2577) [4/ 1994].

هذا الإطلاق يدل على أن العباد كلهم ملطوف بهم في الحقيقة، وإن كانوا ملابسين لصور القهر.

فإن ذلك راجعٌ إلى استعداداتهم، فليس ذلك قهراً خارجيّاً عن اللطف، وإليه الإشارة بالاسم القهار؛ إذ لو قهر الله عباده بما كان خارجاً عن استعدادتهم، لكان ذلك ظلماً منه، وهو منزهٌ عنه.

ومنه يعلم أن رحمته سبقت غضبه أي: لأن الرحمة التي هي الخير مقتضى بالذات، وهو مقتضى ذاته تعالى، والغضب الذي هو الشر ليس بمقتضى بالذات، وإنما من آثار العوارض التي تلبس بها العباد في ثاني الحال، بمقتضى استعدادتهم في عوارض بالنسبة إلى ثاني الحال، وشؤون ذاتية بالنسبة إلى أول الحال، والله تعالى هو الخلاق على الدوام في الدارين، فهو لطيفٌ بهم، ولا يقهرهم إلا عن سؤال لسان الحقيقة، فللّه الحجة البالغة، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط منه، وليس إلا حصائد ألسنتهم وأيديهم، فأعمالهم.

فكذا ذواتهم، منها قائم إن كانت من المحكمات، ومنها حصيد، إن كانت من المعلقات، فطوبى لمن كان قائماً من الأزل إلى الأبد، لا يذروه الرياح، ولا تنسفه العواصف، وويل لمن كان حصيداً بيد القهر والجلال، إلا أن يكون ذلك من قبيل الفناء؛ لتحصيل البقاء والكمال، فالأول غضب صورة ومعنى، والثاني غضب صورة ورحمة معنى، وعلى هذا جرى عباد الله وصبروا على الأقضية والبلايا؛ انتظاراً للمنح والعطايا.. الفقير حقي، حرره الشامي.

* * *

{وفي سورة الزخرف}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الزخرف: 54].

يعني: إن فرعون وجد قومه خفيفاً؛ ولذا مالوا إليه بالإطاعة؛ لأن الخفيف إلى الخفيف يميل، ومآل الخفيف إلى النار، كما قال: ﴿فِيهِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴿٨﴾ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ [القارعة: 8، 9].

ولا شك أن خفة الموازين من قلة الأعمال، وهي من خفة القلب المائل إلى الهوى، وفيه إشارتان:

الأولى: إن القلب إذا كان خفيفاً؛ فالقوى أيضاً كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّن لهن الشرائع، وبقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلَّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيِّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والرديء، والطيب والخبيث.

فإن الأقوال والأعمال تُنادي على المراتب مطلقاً، وقد استخفُّوا بعض الناس من أخفاء الأحلام، فوضعوا على رؤوسهم التيجان، وألبسوهم الخرق والمرقَّعات، فما جاء مصداقهم كلهم إلا قوله: ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ [الأحقاف: 25]

أي: قوالبهم الظلمانية في حال حياتهم والقباب المضروبة عليهم بعد مماتهم، فكانت مساكن بلا سكان، وقوالب بلا قلوب، وصوراً بلا معانٍ، وخيالات بلا حقائق، فلعنة الله على الظالمين الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وخرجوا عن الحكمة إلى حدِّ العبث.

وقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ﴾ [المؤمنون: 115].

يعني: إنا خُلقنا بالحق للحق، فمَن كان؛ فليكن ما صنعه بالحق، وإلا كان من اللاعبين، كما قال تعالى: ﴿وَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا لِّلنَّصَارَىٰ وَلِلَّهِ﴾ [الأنبياء: 55]، ولمَّا سمعه الشبلي قُدِّس سرُّه ترك الدور والرقص مع قوة حاله خوفاً أن يكون من اللاعبين.

ثم إن قوله: (قومه) يُشير إلى أن أحداً لا يُستخفُّ إلا إذا كان من أهله، ومن جنسه، فالشقي يستخفُّ الشقي لا السعيد، فإن الله مع السعيد، والله لا يأمر بالفحشاء.

ألا ترى أن الشيطان استخفَّ قابيل، وبرصيصاً، وبلعم ونحوهم؛ فأطاعوه فيما أمر به، فقتل قابيل أخاه هابيل، وأرتدَّ برصيصا[1]، . . . .

---

(1) نزل فيه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي لَهُۥ كُن فَيَكُونُ يَسْتَفْتُونَكَ وَمَن﴾ [الحشر: 16] وقصته كما في تفسير القرطبي: كان راهب في الفترة يقال له: برصيصا؛ قد تعبّد في صومعته سبعين سنة، لم يعص اللّه فيها طرفة عين، حتى أعيا إبليس؛ فجمع إبليس مردة الشياطين فقال: ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض، وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي قصد النبيّ ﷺ في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند؛ فذلك قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُ لَتَهُۥ فَوْقَهُ وَٱلْمَلَآئِكَةُ﴾ [التكوير: 20] فقال: أنا أكفيكه؛ فانطلق فتزيّا بزيّ الرهبان، وحلق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه؛ وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كل عشرة أيام يوماً، ولا يُفطر إلا في كل عشرة أيام؛ وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته؛ فلما انفتل برصيصا من صلاته، رأى الأبيض قائماً يصلّي في هيئة الرهبان؛ فندم حين لم يجبه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أن أكون معك، فأتأدّب بأدبك، وأقتبس من عملك، ونجتمع على العبادة؛ فقال: إني في شغل عنك؛ ثم أقبل على صلاته؛ وأقبل الأبيض أيضاً على الصلاة؛ فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده وعبادته قال له: ما حاجتك؟ فقال: أن تأذن لي فأرتفع إليك. فأذن له فأقام الأبيض معه حَوْلاً لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً يوماً واحداً، ولا ينفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوماً، وربما مدّ إلى الثمانين؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه. ثم قال الأبيض: عندي دعوات يشفي اللّه بها السقيم والمبتلى والمجنون؛ فعلّمه إياها. ثم جاء إلى إبليس فقال: قد واللّه أهلكت الرجل. ثم تعرّض لرجل فخنقه، ثم قال لأهله وقد تصوّر =

وبلعم[1] عن دينه، ولم يقدر على إضلال المتقين لقوله عزَّ وجلَّ: ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ﴾ [الأعراف: 201].

وهو أحد التأويلات في قوله: «**إذا أحبَّ الله عبداً؛ لم يضرَّه ذنب**»[2]. لأنه لا

= في صورة الآدميين: إن بصاحبكم جنوناً أفأطبّه؟ قالوا نعم. فقال: لا أقوى على جنيته، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا، فإن عنده اسم اللَّه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب؛ فجاءوه فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنه الشيطان. ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك ويرشدهم إلى برصيصا فيعافون. فانطلق إلى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكاً فمات واستخلف أخاه، وكان عمها ملكاً في بني إسرائيل فعذبها وخنقها. ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبب ليعالجها فقال: إن شيطانها ما رد لا يطاق ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت؛ فقالوا: لا يجيبنا إلى هذا؛ قال: فابنوا صومعة في جانب صومعته ثم ضعوها فيها، وقولوا: هي أمانة عندك فاحتسب فيها. فسألوه ذلك فأبى، فبنوا صومعة ووضعوا فيها الجارية؛ فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأسقط في يده، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها. وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال: ويحك واقعها، فما تجد مثلها ثم تتوب بعد ذلك فلم يزل به حتى واقعها فحملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك قد افتضحت. فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضح، فإن جاءوك وسألوك فقل جاءها شيطانها فذهب بها. فقتلها برصيصا وذفنها ليلاً؛ فأخذ الشيكان طرف ثوبها حتى بقي خارجاً من التراب؛ ورجع برصيصاً إلى صلاته ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال إن برصيصاً فعل بأختكم كذا وكذا، وقتلها ودفتها في جبل كذا وكذا؛ فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا: ما فعلت أختنا؟ فقال: ذهب بها شيطانها؛ فصدقوه وانصرفوا. ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال: إنها مدفونة في موضع كذا وكذا، وإن طرف ردائها خارج من التراب؛ فانطلقوا فوجدوها، فهدموا صومعته وُنزلوه وخنقوه، وحملوه إلى الملك فأقرّ على نفسه فأمر بقتله. فلما صُلب قال الشيطان: أتعرفني؟ قال لا واللَّه قال: أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات، أما اتقيت اللَّه أما استحيت وأنت أعبد بني إسرائيل ثم لم يكفِك صنيعك حتى فضحت نفسك، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس فإن مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. فقال: كيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم. قال: وما ذاك؟ قال تسجد لي سجدة واحدة؛ فقال: أنا أفعل؛ فسجد له من دون اللَّه. فقال: يا برصيصا، هذا أردت منك؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك، إني بريء منك، إني أخاف اللَّه رب العالمين. تفسير القرطبي، سورة الحشر، آية 16 ﴿ ٱللَّهِ وَتُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ . . . ﴾ [18/ 37].

(1) هو بلعم بن باعوراء عالم من علماء بني إسرائيل أوتي علم بعض كتب اللَّه نزل به قوله تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [الأعراف: 175] فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وإظهره رِسَالَتَهُۥ فِى﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له ﴿جَوْفِهِۦ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فصار من الضالين الكافرين، روى أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى فلم يزالوا به حتى فعل وكان عنده اسم اللَّه الأعظم. (تفسير النسفي، سورة الأعراف، آية 175).

(2) أورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار، حديث رقم (4171) [2/ 1151] وقال ذكره صاحب الفردوس. وتتمته كما ذكره: والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ذنب من حيث الحفظ، والعصمة فلا ضرر، وعلى تقدير صدور الذنب، فالله يحب التوَّابين.

فالمحبوب لا يكون مُذنباً إلا على خطأ وتأويل، ولا يصرُّ على ذنبه، وإلا لم يكن محبوباً، فعلى العاقل أن يسعى، ويجتهد حتى لا يكون من حزب الشيطان؛ فإنهم الخاسرون، ونسأل الله الالتحاق بالصالحين في أعمالهم، وأحوالهم إلى أن يأتي اليقين.

❊ ❊ ❊

{في سورة الأحقاف}

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡمَيِّتَ مِن فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا﴾ [الأحقاف: 31].

إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: 2]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعم الإلهية؛ ولذا ورد: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم**»[1].

حيث أثبت اللذَّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاًّ منهم داخلون تحت التكلُّف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقاً.

نعم فرق بين نعيم الملائكة، والجن، والإنس.

أمَّا الملائكة: فنعيمهم روحاني لا غير؛ لأنهم خُلقوا من النور، وغلبت عليهم اللطافة الروحانية؛ فصاروا في الأجسام اللطيفة؛ كالأرواح؛ ولذا كانت موتتهم غشية لا كموتة مَن عداهم؛ وهي مفارقة الأرواح من الأجسام الطبيعية كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [الأنبياء: 35].

ثم إن نعيمهم الروحاني؛ هو حضورهم مع الله بقدر مراتبهم، وأمَّا ثواب أعمالهم فللمؤمنين كما ورد في في النصوص.

وأمَّا الجن: فنعيمهم جسماني وروحاني جميعاً؛ لأنهم وإن شاركوا الملائكة

(1) جزء من حديث رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب اللَّه، حديث رقم (1971) [5/ 305] ورواه النسائي في السنن الكبرى، حديث رقم (1228) [1/ 387] ورواه غيرهما.

في دخولهم تحت الاسم اللطيف؛ لكنهم فارقوهم من حيث إنهم خُلقوا من مارجٍ من نار، فإنه ثبت لهم الأكل الجسماني، فلهم بعض الكثافة من حيث خِلقتهم، وكونهم من أهل الأكل الجسماني، وإن كان مأكولهم عَظْماً ونحوه.

ولا شك أن مَن يأكل، ويشرب، وينكح في الدنيا؛ فله ذلك في الآخرة على تقدير إيمانه؛ لأنه لا نعيم للكافر في النار؛ بل طعامه الزقُّوم، وشرابه الحميم والصديد، ومَن كان له نعيم جسماني في الدنيا؛ فله نعيم روحاني فيها أيضاً؛ لأن نفخ الروح لا يختصُّ بمؤمن، ولا كافر؛ ولذا صحَّ بعض الأحوال الروحانية للكافر أيضاً في الدنيا كما حُكي عن بعض الفلاسفة، وأهل الرياضات، ومَن كان من أهل النعيم مطلقاً في الدنيا، وهو مؤمن؛ فله ذلك في الآخرة أيضاً، ومن جملة ذلك الرؤية.

نعم فرق بين نعيم المؤمن من الإنس، وبين نعيم المؤمن من الجن؛ لأن الإنس أكمل في العلم والعمل من الجن، فنعيمهم صورة ومعنى بقدر حالاتهم ومراتبهم؛ كالملائكة، وأمَّا الإنس فلهم النعيم مطلقاً، ونعيمهم أكمل من نعيم الجن؛ فكمالهم في باب العمل، وبلوغهم الغاية القُصوى في المعرفة الإلهية، وذلك لجمعية نشأتهم.

وكذا نعيمهم الروحاني أكمل من نعيم الملائكة؛ لأن الملائكة على جناح واحد إذ ليس لهم ما للإنس من الجمعية، فأين ذو الجناح الواحد من ذي الجناحين؟ وإذا عرفت هذا؛ عرفت أن الله بين الملك، والجن، والإنس صورةً، ومعنى، فمَن قصد إدخال الجن في جنس الملائكة، وجعل سعداءهم وأشقياءهم؛ كسعداء الإنس وأشقيائهم؛ فهو لم يعرف حقيقة الحال، وجهل بالمقام، وإن كان له شأن بالأمر.

وقال المصنف في موضع آخر:

قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡمَيِّتَ مِن فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا﴾ [الأحقاف: 31].

قال حضرة الشيخ: صدر الدين القونوي قُدِّس سرُّه في تفسير الفاتحة:

وأمَّا الجن فنحن لا نشك أنهم يجازون على أفعالهم؛ لكن لا نتحقق أنهم يدخلون الجنة، وأن المؤمن يجازى على ما عمل من خير في الآخرة، فإنه لم يرد في ذلك نص، ولا نعرف من جهة الذوق في هذه المسألة ما يوجب الجزم، فقد

يجنون ثمرة خيرهم حيث شاء الله تعالى انتهى.

وقال شيخي، وسندي السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه في شرح التفسير المذكور: وقد عرفت من جهة الذوق حيث يجنون ثمرة عملهم الخير بإذن الله وفيضه؛ لكن لم أكشفه؛ بل أكتمه بتعيُّنه لمَن كتمه، ولم يكشفه انتهى.

يقول الفقير: أفاض الله عليه سجال فيضه الكثير: هذا من المسائل التي تَوَقَّف فيها أكثر الأئمة والعلماء لِما أن ظاهر قوله تعالى: **(وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)**، يدل على أنهم لا يدخلون الجنة، وإلا لنصَّ الله عليه بعد ذكر الإجارة؛ كما فعله في حق المؤمنين من البشر في مواضع من القرآن.

والظاهر أن الاقتصار على الإجارة؛ كالاقتصار على الإنذار في نحو قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 2] أي: قم فأنذر الكفار بعذاب النار، فإن إجارتهم منه موقوفة على إنذارك، وانتفاعهم به؛ وذلك لأن التخلية بالمعجمة قبل التحلية، وذلك لا يقتضي انحصار حالهم في الإجارة.

فكذا في حق الجن فإنهم إذا كانوا تابعين للبشر في الأحكام، والتكاليف؛ كان حكمهم حكم البشر في كل من الإجارة، والإثابة، موطنها المبشر به الجنة، هذا وكأنهم أخرجوهم عن حكم البشر في ذلك لأمرين: الأول: قصورهم في باب الأعمال، والمعارف الإلهية بحسب نشأتهم النارية، والثاني: أنهم داخلون تحت الاسم اللطيف؛ كالمَلَك؛ لغلبة الروحانية عليهم؛ ولذا كان غذاؤهم الاسترواح، والاستشمام، ونحو ذلك لا على نحو الغذاء البشري.

فلمَّا كانوا على جناح واحد من الأمر؛ فإنهم جلاليون فقط، كما أن الملائكة جماليون فقط، وكان الغالب على نشأتهم الروحانية؛ اقتضى الذوق أن يكون نعيمهم غير النعيم الحسِّي؛ بل الخيال المتصل بعالم المثال المطلق، وذلك في مقام الأعراف؛ فإن الأعراف كما أنه سور بين الجنة والنار؛ باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب الناري بحسب نشأتهم النارية؛ فكذا عالم الخيال المقيَّد، والمثال المطلق؛ برزخ بين العالم الروحاني، والجسماني، فنعيمهم روحاني من حيث تجرُّدهم، وخيالي من حيث تلبُّسهم بالجسم اللطيف؛ كالملك.

كما أن نعيم البشر روحاني، وجسماني حسِّي من حيث تعلُّقهم بالجسم الكثيف، وإن كانت أجسامهم تتلطَّف هنالك بتلطيف العناصر، والخيالي غير الحسِّي؛ فإن الحسي أقوى منه.. هذا ما أُلقي في البال، والله أعلم بحقيقة الحال.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهَ غَفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: 282].

أخبر التعليم عن الأتقياء إشارة إلى أن العلوم الحقيقية، والمعارف الحقَّانية، هي التي تنشأ عن التقوى، فما عداها علوم، ومعارف نفسانية شيطانية.

فالعلوم والمعارف الحقَّانية الرحمانية؛ هي التي ألقاها الله سبحانه في قلب عبده المتَّقِي من الشرك، والمعصية، والتعلُّق بما سوى الله تعالى.

والعلوم والمعارف الغير الحقَّانية؛ هي التي ألقاها الشيطان في قلب الشخص المنحرف عن الله، وسوَّلت له نفسه.

فالأولى من باب الكرم، والثانية من باب المكر الذي هو قلبه وعكسه.

فالعلم الصحيح: هو الذي يُلبسك التقوى؛ وهو زينة الله تعالى لك في الدنيا والآخرة، فإن العلوم الحقيقية تبقى مع العالم في كل موطن ومقام؛ فتنتقل معه إلى حيث ينتقل؛ وهي الزينة المحلَّلة.

التي أشار إليها قوله: ﴿ رَيْبَ فِيهِۛ إِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ [الأعراف: 31].

وأمَّا العلوم الغير الحقيقية؛ فقد وقع الذَّم عليها؛ لكونها من زينة الحياة الدنيا المحرَّمة، وأعني بالعلوم الغير الحقيقية؛ ما لم يكن من نتائج التقوى، والعمل الصالح، والسلوك، والعلوم مطلقاً، فإن بعض الرسوم فيما يلحق بالحقائق.

ومن هذه الآية يُعلم حال مَن أباح الدخان في هذه الزمان، وكتب في حقه من المساوىء ما لا يحتاج إلى البيان؛ وذلك لأن المباح إذا كان فيه موافقة النفس، والميل إليها؛ كان ذلك من قَبيل المعصية، وحظ النفس.

ولا شك أن الدخان من الأمور الخسيسة الطبيعية التي لا يرتكبها إلا الأخسَّاء، والأسافل من الناس، وقد صحَّ عند الله أن الأمور الخسيسة مما يحتجب به الروح عن العروج إلى المقامات العلوية، ومثل هذه الوسائل مما لا شك في خباثتها على أن الخبيث عند أهل النفس الطاهرة الطيبة حرام كما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [الأعراف: 157].

وقد سمعت عن بعض الأقطاب: إن شارب الدخان، ومبيحه؛ نفساني شيطاني، وأيضاً: إن الذي يستعمله؛ يستثقل أمر الله تعالى وطاعته.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فما أدَّى إليه حرام خبيث بلا شبهة، وأيضاً إن النبي ﷺ كان قد حبب إليه الطيب؛ تأنيساً

للحقائق الإلهية، والأرواح الملكوتية؛ لأن العناصر البشرية لا تخلو عن الكثافة، والرائحة الكريهة كما قال تعالى﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ وَمَن وَإِنَّهُ﴾ [الحجر: 26، 28، 33].

فإذا كان إزالة هذه الرائحة الجبلية مما يحتاج الإنسان فيها إلى التبخير؛ فما ظنك بالروائح العارضة الكريهة، فإن ادَّعى مُدَّعي إنه يستعمل السواك في عقب شربه فيزيل رائحته؛ فذلك من الأكاذيب التي لا تصغى إليها أصلاً؛ لأن رائحة الدخان سارية في لحمه، ولباسه، ومقامه حتى تسري في محلِّ سجدته في المساجد والجوامع، وقد قالوا: لو أنه لا معنى للتطهير بعد التنجيس؛ بل الواجب البقاء على الطهارة الأصلية، وكذا دعوى المنفعة مما لا يُسمح، فإن الأصل في الأشياء، وإن كان الإباحة، إلا أن المراد؛ هي الأشياء النافعة لا مطلقاً.

كما دلَّ عليه في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ [البقرة: 29]، ولا يرتاب عاقل في أن شاربه لا يستعمله لنفعه، أو يستعمله بقول طيب، خبيث، مريض مثله، وقد كان مُدَّعي الشيخوخة في هذه الزمان لا يصوم؛ لإكبابه عليه، أو لا يفطر في شهر رمضان إلا عليه، فسُحقاً لأصحاب الشهوات، قاتلهم الله.

* * *

{في سورة محمد ﷺ}

قال الله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿ إِلَٰهَ إِلَّا﴾ والرامي في قوله: ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ﴾ [محمد: 19]، وهي نسبة الوجود التي بها أُضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه الله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدرت منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك.

ولذا لمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: **(لا إله إلا الله)**، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح.

ولمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذٍ لما يقضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر.

ولمَّا كانت الأُلوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي ألوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضاً، وليس فوق مرتبة العلم والأُلوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الأُلوهية تنتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضاً بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلِّي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

❊ ❊ ❊

shaziliaassemia.com

{وفي سورة الفتح}

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَى وَٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى لَهُۥ كُرْفِيكُو وَيَسْتَفْتُونَكَ وَمَوَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا أَسْرَىٰ ﴾ [الفتح: 29].

واعلم أنه قد اجتمعت حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين.

وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدوركم.

وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضاً في الصالحات.

وليس في القرآن آية حَوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانتا بمنزلة القرآن كله. وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب عند ختم القرآن، ولمَّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم عليه السلام.

وكان آدمُ قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاًّ منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منهما لسان أهل الجنة.

ثم إنه نقل حفص بن غياث عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه: أن أبا حنفية رضي الله عنه صلَّى صلاة الفجر بوضوء العشاء الأخيرة أربعين سنة، فقال له يوماً: يا أبا حنيفة سألتك بالله ما الذي قوَّاك على ما أرى منك من طاعة الله تعالى، فقال أبو حنيفة: إني دعوت الله تعالى بأسمائه على حروف المعجم ثلاث أي: على ترتيب

حروف المعجم كلها التي اجتمعت في آل عمران، وسورة الفتح؛ والمراد ترتيبها على ما وقع في الآيتين: مَن دعا الله بها؛ استجيب له دعاؤه.

قال في الضياء المعنوية: قراءة هاتين الآيتين؛ للنماء، والبركة، والشدة، والقوة، والحراسة من كل آفة للرجال، والنساء، والأطفال، ومَن أكثر من قراءتهما؛ وجبت له إجابة الدعوة، والخروج من الضيق إلى السعة، ويكون له أعوان ينصرونه، ويعينونه على الخير، ويُرزق خير الدنيا والآخرة انتهى.

والظاهر ما ذُكر من حكاية الإمام: إن قراءة كل واحدة من الآيتين المذكورتين، وإن كانت نافعة بمجردها حسب اشتمالها على الحروف كلها؛ لكنها إذا انضمت إليها الأسماء الحسنى، وأحصاها على الترتيب الذي يليق، كان أحسن، وأدعى للإجابة، وقد نُقل عن الإمام تفصيل الترتيب.

وأنا أذكر لك ما هو ترتيب حروف التهجّي بقدر الضبط، فاعمل على كل منها. وأقول: ينبغي للداعي أن يقول: اللّهم:

(أ): يا الله، يا أول، يا آخر، يا أحد.

(ب): يا بَرُّ يا بارىء يا باعث يا بديع يا باقي، يا باسط، يا باطن، يا بصير.

(ت): يا توَّاب تب علينا فإننا بشر ما عرفناك حق معرفتك، يا مَن تعالت ذاته وصفاته عن أن يحيط بهما وصف الواصفين؛ بل علم العارفين، يا مَن توالت آلاؤه، يا مَن تتابعت نعماؤه.

(ث): يا ثابت، يا مَن ثناؤه فوق كل ثناء لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، يا مَن قال ﴿بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي لَهُ فَيَكُونُ يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

(ج): يا جميل، يا جليل، يا جبَّار، يا جامع، يا جوَّاد.

(ح): يا حيُّ، يا حميد، يا حكيم، يا حكم، يا حق، يا حليم، يا حفيظ، يا حسيب، يا حنَّان، يا حبيب القلوب.

(خ): يا خالق، يا خافض، يا خبير.

(د): يا ديَّان، يا دائم، يا دافع، يا مَن دلَّ على وجوده ووحدته آثاره وشواهده، ودار بذكره وتسبيحه وتحميده ألسنة الأشياء كلها على ما حكم به شاهده.

(ذ): يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا القوة المتين، يا ذا البطش الشديد الذي لا

يُطاق انتقامه، يا ذا العرش المجيد، يا مَن ذلَّت له أعناق الجبابرة، وطأطأت له رؤوس القهاهرة، يا ذا الفضل والجود منك الوجود، ولك السجود.

(ر): يا رحمن، يا رحيم، يا رزَّاق، يا رافع، يا رقيب، يا رشيد، يا رب العالمين.

(ز): يا مَن زالت ظلمة العدم برش نوره، وزُلَّت قدم مَن لم يتأدَّب بحضوره، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر عند سطوان قهره.

(س): يا سلام، يا سميع، يا سبُّوح، يا مَن سرُّه الإنسان، يا مَن سُرَّ بإحسانه البال، وزال البلبال.

(ش): يا شَكور، يا شهيد، يا مَن شأنه عال مما شأنه سبحانه سبحانه.

(ص): يا صمد، يا صبور، يا صادق الوعد، يا مَن صلَّى على النبي الأمين، وعلى المؤمنين.

(ض): يا مضل، يا مَن ضلَّ عقول العلماء في بدأ معرفته، وضاق نطاق كشوف العرفاء عن إحاطته.

(ط): يا طيب لا يقبل إلا طيباً، يا مَن طابت بذكره القلوب، وطهَّرت الأرواح لمسِّ الأسرار، ومشاهدة الغيوب، يا مَن طلع نوره عن مشرق التجلِّي والظهور، وطاشت عن بروق ذاته بواطن الرجال، وظواهر الجبال.

(ظ): يا ظاهر للبصائر، يا ظهيراً للمؤمنين في الماضي والغابر.

(ع): يا عزيز، يا عليم، يا عدل، يا عظيم، يا عفوّ، يا عليّ.

(غ): يا غفور، يا غفَّار، يا غافر، يا غني، يا غزير الإحسان للإنسان، يا غيُّور ومن غيرته حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(ف): يا فرد، يا فعَّال، يا فتَّاح، يا من فضله ورحمته؛ فرح المؤمنين، يا مَن قال: فرُّوا إلى الله فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

(ق): يا قهَّار، يا قادر، يا قاهر، يا قوي، يا قيُّوم، يا قُدُّوس، يا قابض، يا قدير، يا قريب، يا قديم، يا قائماً بالقسط.

(ك): يا كريم، يا كبير، يا كفيل، يا مَن كلامه شفاء لِما في الصدور، يا مَن كلَّت الألسنة عن وصفه، يا مَن كره الكفر والفسوق والعصيان، وحبب الإيمان والطاعة، يا مَن كان، ولم يكن معه شيء، يا مَن كان لمَن كان له، يا مَن خلق الأشياء بالكاف والنون، يا من كل فعله جميل.

(ل): يا لطيف لطف بعباده فوق اللطفاء بالله للمسلمين الداعين بالتضرُّع، والافتقار، يا مَن له ما في السموات، وما في الأرض، يا مَن لزم ببابه كل اسم من الأسماء.

(م): يا مؤمن، يا مهيمن، يا متكبِّر، يا مصوِّر، يا منَّان، يا معزُّ، يا مذلُّ، يا مُقيت، يا مجيب، يا مجيد، يا مقتدر يا مُقدِّم، يا مؤخِّر، يا متعال، يا منتقم، يا ملك، يا مليك، يا مالك الملك، يا مُقسط، يا مُغني، يا مُعطي، يا مانع، يا ماجد، يا مُبدىء، يا مُعيد، يا مُحصي، يا مُحيي، يا مُميت، يا مَتين.

(ن): يا نافع، يا نور، يا مَن جعل النقطة تحت الباء إشارة إلى الإنسان، يا مَن قال: ن والقلم وما يسطرون، يا نصير.

(و): يا ودود، يا وكيل، يا ولي، يا واجد، يا واحد، يا والي، يا وهَّاب، يا وارث، يا واسع.

(هـ): يا هادي هدى العالمين إلى توحيده، وهدى العالمين إلى تجريده، وهدى العارفين إلى تفريده، يا مَن هزَّ عطف المحبين إلى اتِّباع صاحب الهرواة، يا مَن هرب إلى كنفه الخائفون.

(لا): يا مَن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يا مَن لا إله إلا أنا، يا مَن لا إله إلا هو، يا مَن لاذ ببركة طلبه إلا منِّه حسبما يدعوهم لا إله إلا الله لا معبود، ولا مقصود، ولا موجود إلا هو.

(ي): يا مَن يعلم ما بين أيدينا، وما خلفنا، يا مَن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يا مَن يسأل عنه كل شيء، ولا يسأل هو عن شيء، يا مَن ينزل إلى السماء الدنيا في الأسحار، ويفتح أبواب البركات، ويجيب الدعوات.

نسألك أن تنصرنا على أعدائنا الظاهرة والباطنة، وأن تجعلنا آمنين سالمين غانمين، وأن تقضي حاجتنا، وأن تفيض علينا ما هو خير لنا في الدَّارين، وأن تعصمنا مما يهتك العصم، أو يُغيِّر النعم، أو يوجب النقم، أو يحبس غيث السماء، أو يدين علينا الأعداء بحرمة الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقرَّبين، وعباد الله الصالحين، آمين بجاه النبي الأمين.

هذا بعض ما في الحروف من التفصيل، وقد يزيد على هذا عند أهل الذوق السليم، فإن الأسماء والصفات، وإن كانت توقيفية مضبوطة محدودة عند بعض أهل

الشرع؛ لكن كما لا نهاية لذات الله تعالى، فكذا لا نهاية لأسمائه وصفاته دلَّت عليها شؤونه المختلفة الغير المتناهية كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

وأمَّا ترتيب الإمام: فقد وقع على غير ترتيب حروف التهجيِّ؛ بل على ما وقع في آية الفتح من الميم إلى الصاد، كما قال حفص بن غياث الذي هو من معاصري الإمام، ومات سنة أربع وتسعين ومائة هـ: سألت الإمام: أن يعلمني الأسماء التي يدّعي بها المرتبة على ترتيب ما في سورة الفتح فأملاها على نسق الآية فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(م): اللّهم أنت منَّان، مجيب، مؤمن، مهيمن، ملك، متكبِّر، مصوِّر، مليّ، معطِ، مانع، مالك، مليك، متعال، مسبِّح، ماجد، محيي، مميت، معزُّ، مُذلُّ، مُقتدر، قادر، متين أسألك رضوانك والجنة.

(ح): اللّهم حيٌّ، حنَّان، حليم، حميد، حكيم، حق، حفيظ، حسيب، أسألك رضوانك والجنة.

(د): اللّهم أنت دائم، ديَّان، دافع، أسألك أن تدفع عنِّي شر ما أحذر من الدنيا والآخرة، أسألك رضوانك والجنة.

(ر): اللّهم أنت رحمن، رحيم، رب، رؤوف، راحم، رزَّاق فارزقني من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب، أسألك رضوانك والجنة.

(س): اللّهم أنت سلام، سميع، سامع تسمع دعائي، وتعلم سرِّي وعلانيتي فلا تعرض عني، وسلِّمني من الشر كله، أسألك رضوانك والجنة.

(و) اللّهم أنت واجد، ولي، ودود، وارث، وهَّاب، أسألك رضوانك والجنة.

(ل): اللّهم أنت لطيف ترزق مَن تشاء بغير حساب، فارزقني مغفرة من عندك، واجعلني من عبادك الصالحين، أسألك رضوانك والجنة.

(أ): اللّهم أنت الله الأول، والآخر، وفقني لِما تحب وترضى، وجنِّبني عمَّا تسخط وتغضب منه، أسألك رضوانك والجنة.

(هـ): اللّهم أنت هادٍ فاهدني بهداك، وأخرجني من الظلمات إلى النور، أسألك رضوانك والجنة.

(ذ): اللّهم أنت ذو الجلال والإكرام، ذو القوة المتين، ذو العرش المجيد، ذو الفضل العظيم، ذو المنِّ الجسيم، ذو الطول العميم، أسألك رضوانك والجنة.

(ك): اللّهم أنت المكوِّن يكون منك كل شيء، وما كان فهو منك، كنت قبل كل شيء، وتكون بعد كل شيء، أسألك رضوانك والجنة.

(ن): اللّهم أنت نور السموات والأرض، ومنوِّر النور وخالقه، وخالق كل شيء، أسألك رضوانك والجنة.

(ع): اللّهم أنت عليّ، عظيم، عليم، عزيز، عفوّ، عدل، فاعفُ عنِّي ما سلف من ذنوبي، ووفقني فيما بقي من عمري لطاعتك، أسألك رضوانك والجنة.

(ش): اللّهم أنت شاكر، مشكور، شاهد لا تغيب، شهيد تشهد سرِّي وعلانيتي، تعلم ضميري قلبي، لا يُخفى عليك شيء من أموري، أسألك رضوانك والجنة.

(ي): لم يأتِ الإمام بشيء من الأسماء التي أولها الياء المنشأة؛ ولكن جاء بها بعد الكاف: اللّهم كاف كريم كبير، كفيل تكفلت برزق العباد، ورزق كل دابة، فكفيتهم، فاكفني شر نفسي، وشر الإنس والجن، أسألك رضوانك والجنة.

(ف): اللّهم أنت فردٌ، فعَّال لِما تشاء، فتَّاح بالخيرات، فافتح لي أبواب فضلك ورحمتك، أسألك رضوانك والجنة.

(ب): اللّهم أنت برءٌ، بارىء، بريء، باعث، باقٍ، بديع ابتدعت ما شئت، وكل شيء بعدك، أنت الباقي بعدهم، أسألك رضوانك والجنة.

(ت): اللّهم أنت توَّاب ترى ولا تُرى، وأنت بالمنظر الأعلى، تب عليّ توبةً نصوحاً، أسألك رضوانك والجنة.

(ج): اللّهم أنت جبَّار، جميل، جوَّاد فجد علينا برضاك، أسألك رضوانك والجنة.

(غ): اللّهم أنت غفَّار، غفور، غافر، غياث، غني استغيث عنِّي وعن العباد، وافتقرنا إليك، أسألك رضوانك والجنة.

(ض): اللّهم أنت المضيء بك الضوء، تضيء مَن تشاء، وتُضلُّ مَن تشاء، وتهدي مَن تشاء، فلا تضلّني بعد إذ هديتني، أسألك رضوانك والجنة.

(لا): اللّهم لاحق الخير بالشر، والشر بالخير، لا تلحق خيري شرّاً،

وأخرجني من الظلمات إلى النور، أسألك رضوانك والجنة.

(ث): اللّهم أنت ثابت فثبتني في طاعتك، ولا تخرجني منها، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أسألك رضوانك والجنة.

(ز): اللّهم أنت زاجر، زجر زجرت البحر عن البحر، وزجرت الشياطين عمَّن شئت فازجر عنِّي شياطين الإنس والجن، أسألك رضوانك والجنة.

(خ): اللّهم أنت خالق، خبير خلقتني، وكل شيء خلقك، بيدك الخير، فاختم لي بالخير، والسعادة، والشهادة، أسألك رضوانك والجنة.

(ط): اللّهم أنت طاهر، طاوٍ، وتطوي السموات كطي السجل للكتب، طوقني للعمل بطاعتك كما طوقت الكروبيين، وحملة عرشك، أسألك رضوانك والجنة.

(ظ): اللّهم أنت ظاهر ظهرت فلا تُرى، وبطنت فلا تُخفى، وأنت المنظر الأعلى تب عليّ توبةً نصوحاً، أسألك رضوانك والجنة.

(ق): اللّهم قيُّوم، قائم، قدير، قريب، قاهر، قهَّار وامنن عليّ بخير القضاء والقدر، أسألك رضوانك والجنة.

(ص): اللّهم أنت صمد، صادق تصدَّق عليّ بالجنة، واعتقني من النار، وأسألك رضوانك والجنة.

اللّهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار انتهى.

وهذا ما أملى الإمام، على ما في الضياء المعنوية، ولا يخفى أن ما ذكره الإمام بعضها الأسماء الشهيرة، وبعضها الصفات بحسب المناسبات، ومنه يعلم أن الأسماء عنده ليست بتوقيفية.

❊ ❊ ❊

{وفي سورة الطور}

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48].

جمع العين لكثرة عيون الأسماء الحافظة، على أن وجود الحق وجه كله، والوجه عين كلها، ومن ثمة كان النبي ﷺ عيناً كله، وهو في الصلاة المقتضية للمحاذاة الإلهية، ولذا كان يرى من قدام ومن خلف، فالحضرة الواحدة إذا كانت مخفوفة بالعيون الكثيرة فلا تمسها الأيدي وإن تطاولت، ولذا قال تعالى: ﴿أَنفُسَهُمْ جَاسُوا لَكَفَرُوا ٱللَّهَ﴾ [المائدة: 67]، أراد بالجلالة الأعين، وأسماء القدرة والإرادة، وقد يعبر عن الأسماء الجزئية بالأيدي.

كما في قوله تعالى: ﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ أَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [يٓس: 71]، فإن المقصود توجه الأسماء الجزئية لخلق الأنعام المتنوعة، ولذا جمعها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا﴾ [صٓ: 75] في حق أبي البشر، فإن التشبيه فيه إشارة إلى الجمال والجلال، واللطف والقهر، والتنزيه والتشبيه، فكل منهما يد كلية، متوجهة لخلق آدم الذي جمع الله تعالى فيه الجموع.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [الحجر: 29].

فإنما أفرده؛ لأن ذلك راجع إلى الذات، وهي واحدة بخلاف الصفات، والمراد بالروح؛ النفس الرحماني؛ لأن كل ذي روحٍ إنما يتنفَّس بالروح؛ لكن إضافة إلى نفسه؛ لأن المراد به الروح الإنساني الذيٍ هو مظهر السرِّ الإلهي، لا الروح الحيواني الذي هو مدار الحسِّ والحركة، فإن ذلك من شعبه.

ويشارك الإنسان فيه جميع الحيوانات بخلاف الروح الإضافي، والملك وإن خُلق من نور؛ لكن ليس له من الروح ما للإنسان منه؛ ولذا أضافه تعالى إلى نفسه؛ لأن الإنسان هو الذي صار خليفة الله، وجمع جميع الأسماء على جناح الجمال فقط، والجن على جناح الجلال فقط، وسائر الأشياء دون ذلك في الأسرار بالفعل، وإن كان في كل ذرة ما في الكل.

❊ ❊ ❊

{في سورة النجم}

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ [النجم: 13].

أي: وبالله لقد رأى محمد جبريل ـ عليهما السلام ـ على صورته الحقيقية؛ وهو باسط ستمائة جناح يتناثر منها الدرُّ والياقوت.

قال تعالى: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [الآية: 13] أي: مرة أخرى من النزول؛ لأنه كان للنبي ﷺ ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات المفروضة، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى جبريل في بعض تلك النزُلات عن سِدرة المنتهى ظرف للرؤية.

وسِدرة المنتهى؛ مقام جبريل، وقد كان بقي هناك عند خروجه ﷺ أي: مستوى العرش، وقال: **لو دَنوت أنملة لاحترقت**[1] أي: لأن لكل من الروحانيين مقاماً معلوماً ظاهراً وباطناً لا يتجاوزه؛ ولذا ذمَّ المدَّعي والشُّطح.

وسُميت المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها من الأحكام، ويصعد من تحتها من الآثار؛ كالأعمال، وهذا بالنسبة إلى العامة.

أمَّا الخواص فلهم سِدر الانتهاءات بحسب خلوصهم وشهودهم، فيقف بعض الأعمال في سِدرة المنتهى، وبعضها يتجاوز إلى اللوح، وبعضها إلى القلب، وبعضها لا يعلم مكانها إلا الله تعالى.

وكل ذلك مدَّخر لصاحبه؛ لينتفع به يوم القيامة، ولتلك الأعمال صور مجسَّدة تُرى على إيمانهم يوم القيامة طريقاً تسلكها، فتأخذ بها تلك الطريق مشاهدة أصحابها، فيتخذها العاملون مراكب تحملهم إلى مستقر الرحمة.

وأمَّا أعمال الأشقياء فتقوم لها طرق متداخلة عن يسارهم لا تعرف: أي طريق تمشَّى بها أصحابها، فترجع من الحيرة إلى الله بالذكر.

فمنها لا يهتدي إلى صاحبه أبداً رحمة من الله تعالى، ومنها ما يهتدي إليه

---

(1) أورده الفخر الرازي في التفسير الكبير، سورة البقرة، آية 34، وإذ قلنا للملائكة، [2/ 214].

فيتعلَّق به فيقول: احملني فقد تعبتني في طلبك؛ فيجبر العامل على حمله إلى أن تناله رحمة الله تعالى، ثمنه ما من قصر ولا طافٍ في جنة الأعمال إلا وغصن من أغصان السِّدرة داخل فيه، وفي تلك الغصن من النبق؛ وهي ثمرة السِّدرة على قدر ما في العمل الذي هذا الغصن صورته من الحركات، وما من ورقةٍ في ذلك الغصن إلا وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع الله تعالى في ذلك العمل، وأسعد الناس بهذه السدرة أهل بيت المقدس، كما أن أسعد الناس ﷺ أهل الحرم المكي، كما أن أسعد الناس بالحق أهل القرآن.

قالت رابعة العدوية: سبَّحت ذات ليلة بتسبيحات من السَّحر ثم نمت؛ فرأيت شجرة خضراء نضرة لا يُوصف عظمها وحسنها، فإذا عليها ثلاثة أنواع من الثمر لا أعرفه من ثمار الدنيا؛ كثدي الأبكار؛ ثمرة بيضاء، وثمرة حمراء، وثمرة صفراء؛ فهن يلمعنَّ كالأقمار والشموس في خلال خضرة الورق فاستحسنتها.

فقلت: لمَن هذه؟

فقال لي قائل: هذه لك بتسبيحاتك آنفاً.

قالت: فجعلت أطوف حولها، فإذا تحتها ثمرة منتشرة على الأرض في لون الذهب.

فقلت: لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة؛ كانت أحسن.

فقيل لي: قد كانت هناك إلا أنك حين سبحت تفكَّرت هل تخمر العجين أم لا، فانتشرت؛ فهذه عبرة لأولي الأبصار، وموعظة لأهل الأذكار.

ثم إن ابن برجان من أفاضل أهل التفسير ومكاشفيهم أرجع ضمير رآه إلى الله تعالى، وجعل الإسراء مرتين؛ مرة وهي الأَوْلى بالفؤاد مقدَّمة، وهذه بالعين، ولمَّا كان ذلك لا يتأتَّى إلا بتنزُّل يقطع مسافات البعد التي هي الحجب؛ ليصير به بحيث يراه البشر.

عبَّر بقوله: **(نَزْلَةً أُخْرَى)** ليُكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد، وأخرى في المحلِّ الأنزه الأعلى، وعيَّن الوقت بتعيُّن المكان، فقال: **(عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَى)** كما في تفسير المناسبات: ولا يلزم إثبات المكان والجهة لله تعالى؛ إمَّا لأن المتقيِّد بالعندية؛ هو الرائي، ولا يلزم من كونه عند سِدرة المنتهى حين الرؤية كون الحق تعالى عندها، وإمَّا لأن المرء عندها وإن كان هو الحق تعالى إلا أنه لمَّا كان متجلِّياً

بصفته وذاته محتجب بها؛ لم يلزم أن يكون متقيِّداً بالعندية من حيث هو: أي في مرتبة ذاته، وقد رآه ﷺ في بعض سكك المدينة أيضاً؛ وهي مرتبة تجمع المرتبتين؛ مرتبة قاب قوسين، ومرتبة أو أدنى.

وفي الآية إشارة إلى شرف بعض الأمكنة؛ كالسِدرة، والكعبة وغير ذلك، وبعض الأزمنة؛ كليلة القدر الواقع فيها المعراج يقظة؛ ولذا ترى الخواص يرغبون في الأيام والليالي الفاضلة، والأماكن والبقاع المتبركة لِما أن الإمداد الإلهي أكثر فيها؛ لكون باب الرحمة مفتوحاً للعوام والخواص بحسب قابلياتهم.

فإذا كان العبد في وقت شريف، ومكان لطيف، وقلبه أصفى، وروحه أجذب، وسرِّه أقرب؛ فلا بعد من كرم الله تعالى أن يتجلَّى له تجلِّياً أفعالياً أو صفاتياً أو ذاتياً لا سيما إن المرء في الأوقات المباركة، والأماكن المتبرِّكة جليس الملائكة.

ولا شك أنهم ينزلون ليلة القدر، فبقدر المجالس يحصل الأنس، وينجذب الباطن، ويُردُّ الفيض الإلهي، والحمد لله تعالى.

لطيفة: في سنة 1229هـ كنت أتفكَّر ليلة العيد الفطري في أمر الدار؛ فإني كنت أسكن بعد دخول الشام بطريق الكراء فور.

* * *

{في سورة الرحمن}

قال الله سبحانه وتعالى: رَّحِيمًا أَسْرَىٰ﴾ [الرحمن: 19].

هما بحر الوجوب، وبحر الإمكان.

والبحر في الحقيقة؛ هو بحر الوجوب؛ لاتساعه، لا بحر الإمكان؛ لضيقه إلا أنه لمَّا جمع معه في محل واحد عبَّر عنه بالبحر، نعم إن الوجوب، وإن كان أوسع من الإمكان؛ لكن ظهور الشيء في الشيء؛ إنما هو بقدر قابلية المحلِّ، فيكونان سواء دلَّ عليه إنهم جعلوا دائرة الوجود نصفين، وجعلوا الخط المتوهَّم فاصلاً بين القوسين، فالوجود؛ كالقوسين أحدهما: قوس الوجوب، والآخر قوس الإمكان؛ وإنما جعلوا الخط متوهَّماً لا محققاً؛ لأن الوجود الإمكاني اعتباري مفروض؛ لتمييز الحقائق، والمراتب، فإنه لولا الاعتبارات؛ لبطلت الحقائق.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ﴾ [الرحمن: 19].

التقاء الروح بالجسم؛ لأن الروح في الحقيقة بحر الوجوب، والجسد بحر الإمكان، وإن كان مخلوقاً كما ورد: «**أول ما خُلق روحي**»[1].

إلا أن الخلق لمَّا كان بمعنى اقتران الوجود بالماهيات؛ عدَّ الروح قديماً؛ لأن ظهوره بالتجلِّي النوري لا يخرجه عن حقيقته؛ ولذا قالوا: إن الوجود ليس بأمر زائد على الماهية؛ بل الوجود والماهية أمر واحد في الحقيقة، وإنما قيل للماهية: وجود باعتبار ظهورها في الخارج باجتماع لوازمها.

فالروح هو النفس الرحماني الذي تروَّحت به الأسماء، وتنفَّست به الماهيات والحقائق، فالنفي بالجسد؛ ليظهر في كون واحد حقيقتان الحقيقة الواجبة الفاعلة المؤثرة، والحقيقة الممكنة القابلة؛ لأن الحقيقة الأولى حقيقة عُلوية، والثانية حقيقة سُفلية.

ولا شك أن التأثير إنما يجيء من العُلو، وعلى صورتهما خلق الله السموات والأرض، فالمرض مثلاً في البدن من أحكام الجسد، والوجع الحاصل منه من

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

أحكام الروح الحيواني المستند إلى الروح الإنساني، فكل تأثير إنما هو من الجانب العُلوي الذي هو جانب الروح، وكل تأثُّر إنما هو من الجانب السُّفلي الذي هو جانب الجسد، فانظر إلى هذا الامتزاج بين الحقيقتين الدالتين في وجودك إذ لا خارج عنك، فقوله تعالى: ﴿ٱلتَّهۡلُكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يّس: 82]؛ إشارة على ما قلنا، فإن القول هو اللقاء، والاقتران الذي به يظهر الوجود المشار إليه بقوله: **(كُنْ فَيَكُونُ)**.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ [الرحمن: 20] أي: بين البحرين المذكورين: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الرحمن: 20] من القدرة الإلهية: ﴿قُرَّةِ خَيۡرًا﴾ [الرحمن: 20] بحيث يكونان بحراً واحداً.

فإن الواجب لا يكون ممكناً أبداً، وكذا الممكن لا يكون واجباً أبداً؛ إذ لا وجود له بالنسبة إلى وجود الواجب، فهو هو، وأنت أنت، ولقد كشف هذا الغطاء مَن قال: ليس من الله على الكون أثر، ولا من الكون على الله أثر؛ ولذا قال بعض الأكابر: كُنْ عبد الرب، ولا تكُن رب العبد، وذلك بإظهار الخوارق، فإن الحديد، وإن كان محمياً على صورة النار؛ فإن جوهره على أصله من غير استحالة، وكثير من السالكين ضلُّوا في هذا المقام، فما رجعوا إلى الطريق إلا بتوفيق الله، الملك، العلَّام.

فتفكر يا ضعيف خُلقت ضعيفاً، ومعك قُوى بقلبك حيث شاء لا حيث شئت، فإنه ليس لك مشيئة إلا بمشيئة الله كما قال: ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَا قَدَّرُوا۟ إِنَّهُۥ لَيۡسَ﴾ [الإنسان: 30] لكن الله إنما شاء ما سأله لسان الاستعداد، فقد لزمك الحُجة فاسكت، واصبر في مواضع القضاء، ومواقع القدر، فإن الأمر لا ينقلب، والحال لا تتبدَّل، والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ فَيَكُونُ يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ [الرحمن: 72].

أي: أسرار خفية محبوسة في خيام القلوب والأرواح، والأسرار لا يَطَّلع عليها إلا أهلها؛ كالنساء اللائي تحت خيام الدنيا لا يظهرن إلا على أزواجهنَّ، وكل من هذين النداءين مستمر إلى آخر الزمان إلا أن النداء قلَّ مَن يُجيب له؛ لأن الأسماع مسدودة، والأفواه مقفولة، والقلوب مختومة غالباً.

واقتضت الحكمة الإلهية غلبة أحكام الإمكان على أحكام الوجوب في كل

زمان، فلم يحصل على الحق إلا واحد من الألف، كما يقتضيه الاسم الأعظم الحاكم على ألف من الأسماء الجمالية والجلالية، فعليك بالتأمُّل في هذا المجلس، والاعتبار من الشيطان الذي هو مُظهر اسم المضلِّ في مرتبة الشريعة.

ومن النفس التي هي مظهر ذلك الاسم في مرتبة الطريقة، ومن الجلال الذي هو المتسلِّط على الخلق في مرتبة الحقيقة، واجتهد أن تخرج من عالم الشيطان، والنفس والجلالة إلى عالم الرحمن والروح، والجمال فإن الله تعالى إنما خلقك؛ لتكون مرآته الجمالية بالفعل، ويده الجلالية بالقوة فاعرف.

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴿٧٧﴾ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا أَسْرَىٰ وَلِلَّهِ﴾ [الرحمن: 77، 78].

اعلم أن التعينات: إمَّا تعينات باطنة؛ وهي تعينات القوى الروحانية.

وإمَّا تعينات ظاهرة؛ وهي تعينات الأعضاء والجوارح، ولكل منها فناء وبقاء، فإذا فنيت التعينات الباطنة يعني عن تعلُّقاتها الفانية، واستخلَت عنها بالكلية سرى فناؤها في التعينات الظاهرة، فكانت هذه التعينات أيضاً فانية عن أحكامها وتعلقاتها فلا يبقى شيء في ظاهر الوجود وباطنه إلا وهو فانٍ في الله، وباقٍ بالله.

وكما أن الله تعالى يبقى وجهه أبداً؛ وهو ذو الجلال من حيث الظاهر، وذو الإكرام من حيث الباطن؛ لأن ظاهر الوجود وآثاره من عالم الجلال وباطنه، وأحكامه من عالم الإكرام والجمال، وكذا ما يضاف إلى وجهه الكريم باقٍ أبداً، ومن ثم لما أحيا الروح بالحياة الإلهية؛ سرت بركاته في الجسم، وما يتبعه؛ فكان الجسم مصوناً من الانفساخ والانحلال، فكان الوجود بظاهره وباطنه باقياً بربه؛ وهو وجود الخواص الكُمَّل من الناس، وكون ظاهر الوجود فانياً متلاشياً؛ إنما هو بالنسبة على وجود العوام النقص إذ لم يكن لهم روحانية سارية؛ كروحانية الخواص الكُمَّل؛ لكن لمَّا كانت روحانيتهم مضافة إلى الله تعالى، منفوخة منه؛ بقيت بقاء وجه ربها؛ لأنها باطن الوجود من عالم الملكوت، وهو من عالم البقاء بخلاف ظاهر الوجود، فإنه من عالم الملك، وهو من عالم الفناء.

* * *

{في سورة الواقعة}

قال الله سبحانه: ﴿ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا﴾ [الواقعة: 61].

اعلم أن الآخرة يقال لها: عالم الصفة؛ لأن الإنسان يظهر فيها على الصفة الغالبة عليه في الدنيا، فمَن كانت الصفة الإنسانية غالبة عليه في هذه الدار؛ فحشره عليها يوم القيامة، ومَن كانت الصفة الحيوانية غالبة عليه؛ فحشره عليها أيضاً يومئذٍ؛ لكن الحيوانات أجناس مختلفة.

ولذا جاء في تفسير قوله تعالى﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا﴾ [النبأ: 18].

فإن بعض الناس يأتي على صورة الخنزير، وبعضهم على صورة القرد، وبعضهم على غير ذلك؛ كل ذلك بحسب المناسبات الصفاتية، وتلك الصفات مستورة في الدنيا بالصورة البشرية لكن الله تعالى قد يتجلَّى بصورة القهر والغضب، فيأخذ بعض عباده من طريق العدل على حسب سرِّ قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4].

فيبدِّل صورهم، ويمسخهم كما فعل بأمة داود، وعيسى؛ فإنه جعلهم قردة وخنازير، فذلك من إظهار الصفة الغالبة عليهم في هذه النشأة، فإن الله لا ينظر إلى الصور والظواهر؛ بل إلى القلوب والسرائر؛ فهو من قبيل العقوبة المعجَّلة، وتلك الصور هي التي لا يعلم الظالم لنفسه أن الله ينشئه فيها في هذا العالم، ولا يخطر ذلك بباله؛ لكمال غفلته وغروره، فلا يُعاين حقيقة الحال إلا بعد وقوعها، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها.

ثم لا يزال الإنسان يتقلَّب من طور، وهو لا يدري أي طور يدخل فيه بعد هذا اليوم لقوله تعالى: ﴿عَمَىٰ لَا رَيْبَ فِيهِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ [الأحقاف: 9] فقد يدخل في مرض طويل يكون يائساً من رحمة الله التي هي عود الصحة، ثم ينتقل إلى طور الصحة، وهو الذي لا يعلم أن الله ينشئه فيه، وقس على هذا سائر الأطوار المختلفة؛ كالغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، والإقامة بعد السفر، وقضاء الدين بعد ركوبه، وحصول السكنى بعد فقده، والنفع بعد الضرر، والجبر بعد الكسر، ونحو ذلك.

فيجب على المؤمن أن يسأل الله تعالى في أن يربط قلبه حتى لا ييأس من رحمة الله الواسعة، ويكون على توقُّع سعة بعد ضيق أي ضيقٍ كان، فقد قال تعالى: ﴿[…] قَدُواْ إِنَّهُۥ لَيۡسَ﴾ [الشرح: 5، 6]؛ يعني: إن اليسر مقارن للعسر فيتعقبه، وقد يكون في العسر سرُّ اليسر، ولا يشعر به المعسور.

والحاصل: إن الآية وعد لمتوقع الخير، ووعيد لفاعل الشر، والله عند حسن ظن عبده به لكن العبد وجب عليه أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ﴾ [الانفطار: 6]، فإن عبد الكريم لا بد وأن يكون كريماً لا لئيماً.

ثم في الآية إشارة إلى أن إنشاء المذكور لا يستلزم الاستحالة؛ وهو قلب الحقائق، فإن الإنسان لا يصير خنزيراً مثلاً أبداً، وإنما يظهر في صورته، وكذا لا يصير ملكاً وإن كان ظاهراً بصورته كجبريل في صورة شاب، أو في صورة دحية، أو نحو ذلك من الصور الحسنة، وكذا الجن والمتروحنون.

ومن ذلك الكيمياء فإن الإكسير لا يقلب النحاس ذهباً حقيقة؛ وإنما يقلِب صفة النحاس، فيظهر في صورة الذهب، ثم لا يرجع إلى أصله أبداً كما أشار إليه قولهم: لو وصلوا ما رجعوا، وقد نازع فيه بعضهم من لا خبرة له بحقيقة الحال، وقس على هذا سائر الاستحالات؛ فإنها استحالات صورة لا حقيقة، وإن زعم بعضهم الحقيقة في كل ذلك.

❊ ❊ ❊

{في سورة الحديد}

قال الله سبحانه: ﴿ إِن كُنتُمْ﴾ [الحديد: 13] أي: بين أهل الجنة الذين هم أهل الروح والسرِّ، وبين أهل النار الذين هم أهل النفس والطبيعة.

قال تعالى: ﴿ لَا﴾ [الحديد: 13] أي: بحجاب القدرة.

قال تعالى ﴿تَعۡلَمُونَهَاجِرًا﴾ [الحديد: 13] هو باب القلب.

قال تعالى: ﴿ إِلَى ٱللَّهِوَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: 13]؛ وهو الروح والسرُّ، وآثارهما وأنوارهما.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ﴾ [الحديد: 13]؛ وهو النفس والطبيعة وظلماتهما.

قال تعالى: ﴿يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ وَأَنفِقُواْ﴾ [الحديد: 13] أي: الجلال؛ لأنه كما أن الرحمة من قبيل الجمال؛ فكذا العذاب الذي هو الغضب من قبيل الجلال، وجعل الروح والسر من جانب الباطن؛ لأنهما يليان عالم الملكوت واللاهوت، والنفس والطبيعة من جانب الظاهر؛ لأنهما تليان عالم الملك والناسوت.

ولا شك أن الملكوت باطن الملك كما أشار إليه قوله: ﴿أَسۡرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [المؤمنون: 88]، فهو بمنزلة الروح من الجسد، فكما أن الجسد مرآة الروح؛ فكذا المُلك مرآة الملكوت، إذ لا يقبل المجرَّدات الصور في نفسها؛ لعدم تحيُّزها؛ وإنما تحيُّزها تابع لتحيُّز المتحيِّزات فلا تُقبل الرؤية إلا من المرآة، وكذا اللاهوت والناسوت، فعلم أن القلب كالأعراف في كونه برزخاً بين ما فوقه، وما تحته، وله حظ من كل منهما؛ ولذا جعل جامعاً للضِّدَّين، وأفضل من كل من الطرفين.

والكامل إنما يدخل الجنة باعتبار الطرف الفوقاني لا باعتبار الطرف التحتاني؛ فإن الطرف التحتاني قدم الجبار، فيُوضع الأول في الجنة، والثاني في النار، فهو في الدنيا نفس وطبيعة في الظاهر، وروح وسرٌّ في الباطن، وفي الآخرة روح وسرٌّ في الظاهر، والباطن جميعاً ليس معه نفس وطبيعة؛ لأنهما قد بقيتا في الدنيا بعد التزكية، والتي يُعبَّر عنها بالقدم؛ هي صورتهما الممثَّلة في الآخرة، ولا تَعلُّق لهما بالجنة.

واعلم أن الإنسان الكامل ظاهره باطن الكافر، وباطنه ظاهره، وذلك أن

ظاهره هو اللطف والجمال، وباطنه هو القهر والجلال، وقد كان حال الكافر في الظاهر؛ هو الجلال الباطن في الإنسان الكامل، كما أن حال الإنسان الكامل في الظاهر؛ هو الجمال الباطن في الكافر، فظاهر الكافر من قبله العذاب، وباطنه فيه الرحمة؛ فيكون الإنسان بظاهره وباطنه مرحوماً إن كان مؤمناً؛ لأنه لا أثر للجلال الباطن في الظاهر؛ لأنه مطروح في المآل كما سبق، أو بباطنه مرحوماً فقط إن كان خلافه؛ لأنه لا أثر للجلال الظاهر في الباطن أيضاً.

وإنما قلنا: إن باطن الإنسان الكامل؛ هو القهر والجلال؛ لأنه وإن كان مُزكَّى من الصفات بالرؤية لكن النفس أمَّارة بالسوء، ولو بالقوة، وإلا لبطل التكليف، ولما حصل الترقِّي إلى أن يأتي اليقين، فالاعتبار بالقوة لا يستدعي الحقيقة بالفعل، وقد غفل عنه أكثر السالكين؛ بل أغلب المكاشفين.

فظنوا أن سلوك الأنبياء، وأكمل الأولياء من النفس الراضية المرضية الصافية، فإن هذا السلوك لا ينافي أمارية النفس في الحقيقة؛ لأن الكلام في الفعل لا في القوة، ولم يظهر من الأنبياء آثار الجلال بالفعل؛ فهم كالملائكة في صورة البشر، ويدلُّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: 24].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53].

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [يوسف: 33]، فاعرف هذه الجملة، والله أرحم الراحمين، وبيده نواصي العباد أجمعين.

* * *

{في سورة الطلاق}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فِي جَوْفِهِۦٓ ٱلْمَلَآئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِلَّا﴾ [الطلاق: 3] صدق الله العظيم.

هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأضاف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبداً كان أو سيداً يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

ومعنى التوكُّل؛ أن يجعل الله تعالى وكيلاً له، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9].

ولذا قالوا: التوكُّل كله الأمر كله إلى الله تعالى؛ وكذا مَن يتوكَّل على الله الشافي في باب الشفاء عن أمراضه الجسمانية والروحانية؛ فهو حسبه فيه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الجامع في خصوص الجمع لِما تشتَّت منه، وتفرَّق؛ فهو حسبه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الغني في معنى الغني، ودفع الافتقار بكل وجه من الوجوه غير الافتقار الذاتي، فإنه لا يرتفع أبداً؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله العزيز في دفع ذلِّه الذي هو مظهر ذُلِّ اليهود؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله المكرم في إزالة إهانته الموجبة لهوانه بين الناس المقتضية للاستيحاش عند الاستنباش؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على الله القوي؛ لرفع ضعفه الحاصل له من مرضه أو من غيره إلا الضعف الخلقي الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: 28]؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله المعين القادر في رفع عجزه وسلبه، وجلب إعانة له في حصول مطالبه؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكَّل على الله المقسط في دفع وجوده، الموجب لحوره بعد كوره؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله القاهر في قهر أعدائه الظاهرة والباطنة، وانتقامه منهم في سرِّه وعلانيته؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الولي النصير في تولِّي أموره، ونصرته على الجند المخالف له أي جند كان؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على

الله النافع الضار في إيصال النفع، وإبعاد الضر؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله النور في تنوير ظاهره بأنوار السراج، وباطنه بأنوار سرِّ المعراج؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله البصير في كشف العمى عنه، وإراءة الطريق الموصِّل إليه، وهو الهدى الذي يحصل نوره في قلبه، فيفرِّق به بين الحق والباطل؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله السميع في حصول السمع له حتى يسمع خطابات عالم الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت؛ فهو حسبه فيه، مَن يتوكَّل على الله المتكلِّم في إعطاء القدرة له في التكلُّم حتى يتكلَّم من جميع المراتب، ويحصل من جانبه الهداية لجميع أرباب المطالب؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكَّل على الله الحي في قتل نفسه، وإحياء قلبه حتى يجد حياة طيبة باقية؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الحكيم في حصول الحكمة العظمى لقلبه، وجريان ينابيعها في باطنه، وجريان الرحيق، والنسيم، والسلسبيل، والكوثر في الجنة؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الهادي في أمر ضلَّ فيه، فلم يهتدِ، ولم يجد لدفع حيرته سبيلاً؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الرشيد في أمر إرشاده إلى أمره، ولو بلا واسطة؛ كأمر أُويس القرني؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الباقي في إفناء وجودياته، وإزالة تعيناته؛ فهو حسبه فيه، وهكذا فمَن اكتفى بالله؛ كفاه الله في كل مؤنته، ودفع عنه كل ضرورته.

قوله تعالى: ﴿ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ﴾ [الطلاق: 7].

أي بعد عسر الدار يسرها كما يقتضيه المقام، وعسر الدار ضيقها، وكونها مستعارة، أو بطريق الكراء، ويسرها سعتها، وكونها بطريق الملك، وإن كان الملك في الدَّارين لله تعالى، والعبد هو الخليفة في التصرُّف كما هو الخليفة في الإنفاق كما قال تعالى: ﴿ أَسْرَىٰ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ذَرَّةٍ﴾ [الحديد: 7].

فالزكاة في الحقيقة إنما هي من ملك الله لا من ملك العبد.

وكونها من ملك الله لا يقتضي أن يكون إنفاقها عائداً إلى جانب الحق كما لا يخفى على الخبير.

ثم الآية عامة كقوله: ﴿ فِي جَوْفِهِۦۚ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلٌّ تُقَرَّبُونَ إِلَّا﴾ [الطلاق: 3].

فإن مَن توكَّل على الله تعالى في أمر الدار، وغيرها من الأمور الجزئية الغير المحصورة؛ فالله تعالى كافيه في تسهيلها وتحصيلها.

ومن العسر: الفقر، والاحتياج، والمرض، وموت الأولاد، وهجوم الغموم من الأعداء، وشدائد الهجرة، والذِّلَّة، وأذى الجار وإهانته، وعسر الولادة للنساء، وعسر البول، وغير ذلك مما يشتمله.

ومن اليسر: الغنى، والسعة، والصحة، وحصول الخلف الخيِّر، وتدمير الأعداء، وسكون النفس إلى الدار، وعزُّ النفس، واندفاع الأذى، والانفراج بعد الشدة كما ورد: «**اشتدي أزمة تنفرجي**»(1).

ودرّ الماء كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: اللّهم اجعل لي ضرساً طحوناً، ومعدة هضوماً، ودبراً نثوراً.

فإن الدبر والقبل في حكم واحد؛ كالأكل والشرب؛ ولذا قد يكتفى بذكر أحدهما، ويُطوى ذكر الآخر.

وقد ادَّعى سمنون المجنون في محلِّ الدلال بتحمُّل كل بارد من الله تعالى من القضاء؛ فابتلاه الله تعالى بعسر البول فعجز وتضرَّع إلى الله تعالى في رفعه عنه، وهكذا أمر سائر العباد؛ فإن الإنسان خلق ضعيفاً، والضعيف لا يتحمَّل الحمل القوي؛ ولذا حثَّ النبي ﷺ على سؤال العفو والعافية، ورد قوله: «**اللّهم إني أسألك العفو والعافية، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة**»(2)؛ وكل من الثلاثة الأخيرة ناظر إلى الأول.

وفي الحديث: «**اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»(3).

ولمَّا كان حصول الرضا على طبقات الصفات؛ قدَّمه على ما كان من الأفعال؛ وهو حصول المعافاة، وإن كانت الأفعال أقدم في الاعتبار، وذلك إنه إذا حصل الرضا؛ حصل المعافاة؛ إمَّا رأسياً؛ وهو أندر، وإمَّا بمعنى عدم التأذِّي بالمكروهات

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، عن علي، حديث رقم (748) [1/ 436] ورواه الديلمي في مسند الفردوس، عن علي، حديث رقم (1731) [1/ 426].

(2) رواه ابن ماجه في السنن، باب فضل الطواف، حديث رقم (2957) [2/ 985] ورواه الطبراني في الأوسط برقم (8400) [8/ 201] وليس فيه كلمة [الدين]. ورواه بنحوه غيرهما.

(3) وتتمة الحديث: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (486) [1/ 352] ورواه البيهقي في السنن الصغرى، حديث رقم (822) [1/ 470] ورواه غيرهما.

الطبيعية النفسانية؛ وهو حال الكُمَّل، فإنهم لمَّا كانوا منغمسين في بحر الرضا؛ كانت حقائق الصبر والشكر عندهم أمراً واحداً؛ حيث تلذَّذوا بالبلايا؛ بل فنوا عن كل من اللَّذَّة والألم، واستغرقوا في الله، ودخل في العسر عسر القبض، والهيبة، والوقوف، والتفرقة، والتلوين، ودخل في اليسر يسر البسط، والإنس، والجمع، والتمكين.

فلا بد من الصبر في كل مقام من مقامات الابتلاء، فإن السين في قوله تعالى: ﴿ إِلَهَ إِلَّا﴾ [الطلاق: 7]، وإن كان للاستقبال والتسويف؛ لكنه للقريب، وقد قيل: كل آتٍ قريب، والدنيا ساعة؛ بل لمحة، وقول الأنبياء عليهم السلام: متى نصر الله؛ إنما هو من شدة المقام لا ينافي ذلك كونهم في مقام الصبر والرضا.

* * *

{في سورة التغابن}

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَهُمَاجِرًا﴾ [التغابن: 11].

اعلم أن الهداية هداية أولى، وهداية ثانية.

فالهداية الأولى: هي الهداية إلى الإيمان.

والثانية: هي الهداية إلى حقائق الإيمان.

كما دلَّ عليه التصريح بالقلب، فإن هداية القلب؛ إنما هي إلى الحقائق، إذ كل منهما من عالم الملكوت، كما أن هداية النفس إلى المقاصد الحسِّية، إذ كل منهما من عالم الملك، فللمؤمن نصيب من الهدايتين؛ لأنه اختار الإيمان أولاً؛ فهداه الله إليه، وخلقه الله فيه، واختار حقائق الإيمان ثانياً؛ فهداه الله كذلك؛ لأن قلب المؤمن لا يزال من حيث استعداده يطلب الترقِّي إلى عالم اليقين.

فمن هداياته تعالى له: أن يقذف نوراً في قلبه؛ يُفرِّق به بين الحق والباطل.

ومن هداياته: كشف الغطاء عن بصيرته؛ ليريه ملكوت السموات والأرض.

ومن هداياته: أن يوصِّله إلى سرِّ الحقيقة؛ وهو كون العين واحدة في مرائي متعددة؛ وهو سرُّ التوحيد.

ومن هداياته: أن يقبضه عن الآفاق، ويهديه إلى السرِّ المودع في الأنفس؛ وهو التجريد.

ومن هداياته: أن يقطعه عن الأنفس أيضاً، ويهديه إلى ذاته في مقام التفريد.

وكل ذلك وأمثاله له، ومن هدايات القلب وكمالاته، وليس للكافر نصيب من الهدايتين؛ لأن الهداية الثانية متفرِّعة من الهداية الأولى، فإذا لم يكن له نصيب منها؛ لأنه اختار الكفر على الإيمان، كما صرَّح به في مواضع من القرآن؛ لم يكن له نصيب من الثانية، فكل هداية؛ فهي للمؤمن بقدر استعداده، وكل ضلالة؛ فهي للكافر لى حسب استحقاقه، والله الهادي للمؤمنين إلى مراتب الإيمان، والإحسان، والتمكين.

في الحديث عند القضاعي: «**الدعاء هو العبادة**»[1]:

وفي بعض الروايات: «**الدعاء مخ العبادة**»[2]:

يعني: كما أن العظم، وما يتعلَّق به من اللحم ونحوه؛ إنما هو بالمخ؛ فكذا العبادة إنما تقوم بالدعاء؛ وهو طلب الحاجة من الله تعالى بالقلب، وسؤالها منه باللسان.

فإن قلت: معنى العبادة، التذلُّل، والخضوع، وكذا معنى الدعاء، فأحدهما يغني عن الآخر؛ قلت: العبادة حال البدن، والدعاء حال القلب، واللسان، وليس كل تذلُّل يقتضي الالتجاء إلى الله تعالى في المهام، والمصالح.

وفيه إشارة إلى أن حال القلب أقوى، وأتم من حال اللسان والبدن لكن مَن انفرد بأحدهما؛ لم يُعتد بحاله؛ لأن الله تعالى جعل الظاهر مقام الشريعة، والباطن مقام الحقيقة، ومَن تحقق بمقام الحقيقة؛ لا بد له من مقام الشريعة؛ إذ كل إناء يترشَّح بما فيه، فظهر من هذا زيغُ مَن انخلع عن لباس الشريعة، وقصور مَن لم يتلبَّس بلباس الحقيقة، مع إمكان الجمع بينهما؛ لجمعية نشأة الإنسان، وإلى الله السُّكنى من أهل عصر يسجدون لله تعالى، ثم إذا رفعوا رؤوسهم؛ قاموا إلى حوائجهم من غير رفع الأيدي إلى الله تعالى.

نعم لأهل الحقائق مقامات، فدعاؤهم في كل مقام بما يليق به؛ لأن الله تعالى أطاعهم في إرادتهم كما دلَّ عليه قول أبي طالب: ما أطوع ربك لك يا محمد.

وقوله ﷺ له: «**وأنت يا عم لو أطعته؛ لأطاعك**»[3]، فمراعاة الصورة والمعنى من آثار الصالحين، ومحافظة الظاهر والباطن من آثار المحققين، فعليك بالوقوف عند آثارهم، والاستنارة بأنوارهم، والوصول إلى أسرارهم.

❊ ❊ ❊

---

(1) رواه الترمذي في السنن، باب منه، حديث رقم (3371) [5/ 456] ورواه الطبراني في الأوسط، من اسمه بكر، حديث رقم (3196) [3/ 293] ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير. . ، حديث رقم (1802) [1/ 667] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن دعاء المرء ربه في الأحوال من العبادة. . و حديث رقم (890) [3/ 172] ورواه غيرهما.

(3) أورده ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى، ذكر معجزاته ﷺ [1/ 350] وأورده البروسوي في تفسير روح البيان، سورة هود، آية 67 [4/ 153].

{في سورة المعارج}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢٢ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ﴾ [المعارج: 22، 23].

اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سَجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعاً تاماً؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه.

كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»[1].

فإذا كان قلب الرجل يقظاناً، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد فسد القوى والجسد كلها.

ومن هاهنا قيل: إن نوم العالم عبادة، ونَفسه بفتح الفاء تسبيح؛ والمراد بالعالم هو الذي فوق العارف؛ وهو مَن كانت نسبته إلهية، والعارف من كانت نسبته ربَّانية، فالنسبة الأولى من عالم الأمر، كما أن النسبة الثانية من عالم الخلق، والعالم هو المشاهد المعاين، والعارف هو المطالع المكاشف.

وقوله: «**مَن عرف الله؛ كلَّ لسانه**»[*]؛ إشارة إلى الفناء.

وقوله: «**ومَن عرف الله؛ طال لسانه**»[**] إشارة إلى البقاء.

فإذا كانت المعرفة تامة حقيقة إلهية وجوبية؛ فهو العلم بالله، وهو العلم اللدني، وهو علم الإرث والموهبة، ووسيلة العمل الصالح على مقتضى الشرع، فإن المعارف الإلهية إنما هي نتائج السلوك، والتقوى، والعمل الصالح، فمَن لم

(1) رواه ابن خزيمة في الصحيح، باب ذكر ما كان اللّه عز وجل فرق به بين نبيه وبين أمته في النوم. . ، حديث رقم (48) [1/ 29] ورواه أبو داود في السنن، باب الوضوء من النوم، حديث رقم (202) [1/ 52]، ورواه غيرهما.

(*) ثبت بلفظ: «من اتقى اللّه كل لسانه ولم يشف غيظه». رواه ابن أبي الدنيا في الورع، حديث رقم (104) [1/ 78].

(**) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

يسلك من هذا الطريق؛ فمعارفه معارف شيطانية نفسانية لا خير فيها في الدَّارين، وأهلها مُلحق بالفلاسفة والرهابنة.

فإن قلت: هل فرق بين الصلاة والطواف؟

قلت: نعم؛ لأن الصلاة إطلاق، فصورة القيد والطواف إطلاق صورة ومعنى، وإنما قلنا في الصلاة: إنها إطلاق في صورة القيد؛ لأن ظاهر المصلِّي وإن كان مقيداً بالتوجه إلى القبلة؛ لكن باطنه مطلق عن القيود كلها؛ بل متوجه إلى الله الذي له الإطلاق الحقيقي الذاتي.

فإن قلت: قد ثبت: «**أن الله في قبلة المصلِّي**»[1]. ولذا توضع اليد على الصدر بعد الرفع إلى نداء المنكب بالنسبة إلى النساء، كما أنه تعالى هو القاهر فوق عباده؛ ولذا توضع اليد تحت السرَّة بعد الرفع إلى ما فوق الصدر؛ وهو الإذن وذلك بالنسبة إلى الرجال، قلت: ذلك تعظيم لوجه المصلِّي.

وقد ثبت عند أهل الله: إن الوجود الحق وجه كله، فلا قيد لله تعالى على كل حال، وللمصلِّي قيد في خارج الصلاة، وإطلاق في داخلها، كما أومأنا إليه آنفاً، فإن قلت: هل فرق بين أركان الصلاة؟ قلت: نعم؛ فإن السجدة هي العمدة منها؛ لأنها إشارة إلى فناء ذات المصلِّي في ذات الحق تعالى.

ولذا قال: ﴿تَعْلَمُونَ مُهَاجِرًا﴾ [العلق: 19]؛ يعني أن الاقتراب الحقيقي المعنوي إنما يحصل بالسجدة؛ ولذا كان معظم أركانها.

ولمَّا طلب بعض الناس جواره ﷺ في الجنة قال: «**أعنِّي بكثرة السجود**»[2]؛ وذلك إشارة إلى أنواع الفناء من فناء الأفعال، والصفات والذات.

وسجدة القلب أزلية أبدية بالنسبة إلى الكُمَّل؛ ولذا كانوا على صلواتهم دائمين من الأزل إلى الأبد. وأمَّا غيرهم فليس لهم سجدة القلب؛ بل سجدة القالب، ولئن سلَّم، فكم من فرق بين سجدة وسجدة، فأين استسلام الخليل عليه السلام ونحوه، وأين استسلام غيره، فعليك بسجدة الفناء حتى تصل إلى اللقاء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾ [صَ: 75].

---

(1) يشير إلى قوله ﷺ: «إن اللَّه تعالى قبل أحدكم إذا صلى فلا يبزقن أو لا يتنخمن» رواه البيهقي في السنن الكبرى، حديث رقم (3419) [2/ 293].

(2) رواه الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم 1، حديث رقم (2488) [3/ 63] ورواه ابن المبارك في الزهد، حديث رقم (1287) [1/ 455].

أي: تسجد لآدم الذي خلقته مشتملاً على التنزيه، والتشبيه، واللطف، والقهر، والجمال، والجلال.

وهي الصورة الإلهية؛ لأن أسماءه تعالى منها جمالية، ومنها جلالية، ومن صفاته التنزيه والتشبيه، ويؤيد ذلك ما قال ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[1]، «**وعلى صورة الرحمن**»[2].

وقال في الغزو: «**وإذا قتلت فأحسن القتلة، واجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته**»[3].

وفيه إشارة إلى أن الوجه أُدخل في الصورة؛ لأن الوجود الواجبي وجه كله.

ومن هذا ورد في الأثر: «**إن الله تعالى ما بعث نبياً إلا حسن الاسم، حسن الوجه، حسن الصوت**»[4].

فأشار بالأول إلى حسن التعيُّن؛ لأن الاسم هو التعيُّن في عُرف القوم، وحسن التعيُّن تابع لاعتدال المزاج، ثم النقوش تابعة للتعيُّن؛ والمراد بالنقوش نقوش البدن، والوجه المراد بها الهيئة الإنسانية، فمَن كان تعيُّنه حسناً؛ كان هيئته حسنة.

وأشار بالثاني إلى مقام الرؤية ومحلِّها، فإن الرغبات إنما تتوفر في مُطالعة الحسن والجمال لا مطلق الوجه.

فكم من فرق بين وجه ووجه، وهيئة وهيئة، ولا يُفرِّق بينهما إلا أهل النظر الصحيح، والشهود الكامل، وأشار بالثالث إلى مقام التبليغ، والصوت الحسن أبلغ فيه كما كان لداود عليه السلام.

فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ وكُمَّل الأولياء ـ قَدَّس الله أسرارهم ـ كانوا على هذه الأوصاف الثلاثة؛ لأنها أمور مُرغبة، وغيرها أمور مُنفرة، والحكمة لا تقتضي إلا أسباب الترغيب؛ ليدخل عباد الله في دائرة قبول الدعوة، والانقياد إلى الأوامر والنواهي.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه الطبراني في الكبير. حديث رقم (13579) [13/ 430] ورواه ابن أبي عاصم في السنة، باب 109، حديث رقم (517) [1/ 228] ورواه غيرهما.

(3) هذا الحديث لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) ورد بلفظ: «إذا بعثتم رسولاً فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم» رواه الطبراني في الأوسط برقم (7747) [7/ 367] ورواه الديلمي في الفردوس برقم (1054) [1/ 271].

والمراد بالسجدة: الانقياد الباطني لا مطلق الانقياد الذي السجدة الصورية صورة من صوره، فإن المنافقين انقادوا في الظاهر من غير انقياد في الباطن، فلم يكونوا على طائل من الانقياد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ فِى جَوْفِهِۦ وَلَا﴾ [التوبة: 54].

فإن الكسل في الظاهر إنما هو من آثار الفتور الباطني، وعدم الجدِّ والعزم في القلب، فالصورة تابعة للمعنى بخلاف العكس في بعض المواقع دلَّ عليه قوله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك: «**إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، فيه حبسهم العذر**»[1].

فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿ٱلتَّهۡلُكَةِ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [النساء: 95] أي: من هو قاعد بعذر؛ فهو مع المجاهدين حكماً كما دلَّ عليه الحديث، فظهر من هذا أن السير: إمَّا سير بالظاهر، والباطن جميعاً، وإمَّا سير بالباطن فقط، ومن ذلك عدم خروج بعض الأولياء إلى الغزو، والحج الصوري؛ فإنهم المعذورون المتوقِّعون لأمر الله، فمجاهدتهم مع نفوسهم أعظم من مجاهدتهم مع أرباب النفوس، وكذا حجُّهم ربّ البيت أقوى من حجهم البيت، على أن البيت قد يزورهم، وهم في مقامهم قائمون، وهذا لا يلزم منه ترك الأمر في الشرع.

فإن المأمور صورة أو معنى لا بد له من الأمثال، وخفى أحوال الخواص على العوام: بل على أهل الخصوص في الجملة، فطعنوا فيمَن هو فوقهم من غير شعور بحقيقة الحال، فعليك أن تسجد وتنقاد للإنسان الكامل في أقواله وأفعاله؛ فإنها شرعٌ كلها، ومَن كان سلطاناً؛ فله قول وفعل يكون له قانوناً، فكيف حال مَن كان سلطاناً للسلطان؟ فإن السلطان الظاهر إنما هو ظلُّه، ومَن خرج عن هذا الانقياد ولو كان سلطاناً؛ فسوف يلحقه ذلّ لا مدفع له، ومن الله العصمة، من الزَّيغ والضلال في كل حال.

* * *

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب من حبسه العذر عن الغزو، حديث رقم (2684) [3/ 1044].

{وفي سورة نوح}

قال الله تعالى: ﴿رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ [نوح: 1].

أشار بنوح إلى الروح، فإن (ن) أربع مرات راء، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذاً الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثِّر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال.

وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل واحد؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 17]، فأثبت المخاطَب بالفتح، والمخاطِب بالكسر.

وقد سمعت عن شيخي، وسيدي الشيخ الإلهي الفضلي أن شيخه أرسله إلى بعض البلاد بالخلافة، فلم يقبلها؛ بل اختار الإقامة مع الشيخ في مقامه إدامةً لخدمته حتى رأى الله تعالى تلك الليلة وهو مناوله المصحف، وقال: هذا كلامي فخذه، وادع إليّ عبادي.

وكان من أمري أيضاً أن حضرة الشيخ قُدِّس سرُّه: أمرني بالهجرة من أرض إلى أرض حتى لمَّا أقمت ببلدة برونة قريباً من خمس وثلاثين سنة، وظهرت الاختلافات الآفاقية بين الخلق لا سيما بين أهل الإيمان، وأهل الحرب، فوقعت الإشارة الأكبرية والخضرية بالهجرة إلى طرف الشام، ولم أكن أتردَّد في ذلك أصلاً؛

لكن أردت الإذن الصريح من جهة حضرة الشيخ أيضاً فور تلك الليلة.

هذه الآية وهي: ﴿رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني؛ إنَّا أمرناك بالهجرة، وأرسلناك إلى جانب الشام، فلا حاجة إلى الإذن الصريح من جهة الشيخ؛ لأن إذنه مستهلك في أذني.

* * *

{وفي سورة المطففين}

قوله تعالى: ﴿الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَا﴾ [المطففين: 15] لا يقتضي الحجاب مطلقاً، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي.

وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها.

وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

واحذر أن تكون من الذين اسودَّت وجوههم في كل المواطن، فإن الظلمة الدائمة لا يلحقها النور، فالحبشي لا يكون أبيض بالصابون من حيث عينه الخارجي، وكذا الرومي لا يكون أسود بالقار من حيث جسده الصوري.

وأمَّا القلب فأبيض وأسود من غير نظر إلى اللون الخارجي.

وقدَّم الله الذين اسودَّت وجوههم؛ لأنهم جلاليون ذاتيون، وأخَّر الذين ابيضَّت وجوههم؛ لأنهم جماليون صفاتيون؛ ولذا كان لهم خطراً، وزمن الرؤية لكون بَعّدهم بعداً صفاتياً متوسطاً.

والأحدية الذاتية قبل الواحدية الصفاتية في مرتبة التجلِّي.

وقولنا: صفاتيون لا ينافي كونهم ذاتيين أيضاً، فكونهم ذاتيين يظهر في مقام الكثيب، وكونهم صفاتيين يظهر في باقي المقامات على ما يعرفه أهل التجليَّات، فأهل قاب قوسين بعد العود من معراج، أو أدنى أفضل ممَن لم يكن وعوداً، ولم يكن له عروج، جعلنا الله، وإياكم منوَّرين بنور ذاته وصفاته.

* * *

{وفي سورة القارعة}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ فِي ﴿١٦﴾ ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ لَا رَيْبَ ﴿٧﴾ فِيهِ إِنَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴿٨﴾ إِذ ظَّـلَمُوٓاْ ﴿٩﴾ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ ﴿١٠﴾ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ﴾ [القارعة: 6ـ 11].

اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله وقدر، دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال.

وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمَن خفت موازينه يوم القيامة وزناً ومقداراً؛ فيهوي في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة.

وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن اعتُبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها.

فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصاً بالكسر؛ بل مخلَصاً بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلُّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

والحاصل: إن روح العمل؛ كروح الجسد، فلا يقوم إلا به، وأمَّا وجود الطالحات فهو عدم الصالحات، والعدم وإن كان لا يقتضي الثقلة والخفة لكن

صاحبه أثقل الثقلاء؛ ولذا كان ضرس الجهنَّمي كأُحد، وبدنه مقدار مسافة ثلاثة أيام؛ لغِلظة حجابه، وكانت تلك الغِلظة معنوية في الدنيا، ثم تكشَّفت صورة في الآخرة، فاجتمع أيضاً ثقيل وخفيف، فغلب الثقيل فأهوى بصاحبه إلى السافل الذي هو السجِّين.

والحاصل: إن ثقلة العمل، وخفة الروح مقبولتان، وأمَّا عكس ذلك بأن يثقل الروح، ويخفُّ العمل فغير مقبول، فخفة الروح وثقلته هما عاملان في الإصعاد والإهباط لا خفة العمل وثقلته، فإن ذلك تابع لخفة الروح وثقلته؛ وإنما لم يكتفِ بإخبار أن أمه هاوية حتى وصفها بكونها ناراً حامية؛ لأن مجرِّد الهُوِي والسقوط لا يقتضي النار الحامية، وعلى تقدير استلزامه للتعذُّب بالنار، فالنار قد تكون شديدة، وقد تكون خفيفة، فوصفها بالحامية، ليدلَّ على شدِّتها كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: 30]، فلو عذَّبوا نفوسهم في الدنيا بنيران الحرارات، وزادوا فيه بأنواع الرياضات؛ والمجاهدات، لمَّا زاد الله عذابهم في الآخرة؛ بل لم يعذِّبه، فإن المعذَّب لا يُعذَّب مرتين، وفي العذاب معنى آخر من طريق الذوق، العذاب يعرفه أهله.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنفُسُهُمْ جَآءُوكَ﴾ [القارعة: 10]؛ إشارة إلى أن بعض الأمور خارجة عن الدراية، وعلى تقدير دخولها فيها، فقد تختلف بالشدة والضعف بحيث لا يهتدي العقل إلى درك حقيقتها، وقد صحَّ أن الله، وإن كان لا يكلف نفساً إلا وسعها لكن فرَّق بين كيفية، وكيفية، فاعرف.

❊ ❊ ❊

{سورة الإخلاص}

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ﴾ خاطب به النبي ﷺ مع أن القائل في الحقيقة هو نفسه تعالى كما دلَّ عليه بعض الإطلاقات وهو ينظر الأمر بالعلم في قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]؛ لأن العالم أيضاً هو ذاته تعالى، ففي كل منهما إشارة إلى ذنب مستغفر عنه في قوله: ﴿ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ﴾، فلا بد من إزالة النسبة من البين؛ ليظهر اتحاد العين.

قوله تعالى: (هو) كلمة مركبة لفظاً وبسيطة معنى؛ لأن المراد بها الهُويَّة الذاتية الأحدية؛ ولذا جعلوها من الأذكار الغيبية الليلية، وأدخلوا عليها اللام فقالوا: عالم الهوى ولا مناقشة في الاصطلاح، ووجه التركيب من الهاء والواو؛ إن الهاء من مبتدأ المخارج، كما أن الواو من منتهاها.

فكما أن الهواء المتكيِّف بكيفية الصوت يمرُّ بالمخارج كلها إلى أن ينتهي إلى الواو شفوية؛ فكذا سر الهُويَّة التأدِّي في الموجودات المرتب بعضها على بعض يتجلَّى في العوالم كلها إلى أن ينتهي إلى الإنسان؛ فيكون الإنسان وحقيقته أجمع الحقائق.

كما أن الواو أجمع الحروف من حيث مرورها بجميع الحروف ومخارجها؛ فصارت صورتا الحرف والفعل متطابقتين، فكون لفظ هو ضميراً يدلُّ على الغيب، وكونه اسماً يدلّ على الشهادة؛ لأن المراد من الأسماء التعيُّنات؛ وهي من عالم الشهادة إضافية، أو حقيقية؛ ولذا كان أجلُّ الأذكار عند الأقطاب المكاشفين من حيث مكاشفتهم، وإن كانت كلمة الشهادة خير الأذكار عند المحجوبين من حيث حجابيتهم.

وفي الابتداء بالهاء؛ إشارة إلى رجوع الكل إلى تلك الهُويَّة، كما قال: وإليه ترجعون، فكل هاء تدور على هذه الهاء كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَن وَإِنَّهُۥ فِي﴾ [قٓ: 1]، ناظر إلى ﴿قُلۡ﴾ [الإخلاص: 1] الواقع في هذه السورة؛ لأن القرآن صفة الله تعالى، وفيها مجد وجلالة، كما أن هذه السورة مما يصرِّح بذاته العليَّة، وصفاته الجليَّة.

قوله تعالى: **(الله)** اسم دال على الأُلوهية؛ لكن الأُلوهية لمَّا كانت سنام الصفات الإلهية؛ أُخذت مع الذات، وجُعلت مستجمعة لجميع الصفات، ففي هذا الاسم دلالة على تنزُّل الذات من مرتبة الهُويَّة إلى مرتبة الصفات؛ ليكون وسيلة إلى سرِّ الربوبية كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

وكل منزَّل من التنزُّلات الأسمائية منطبق على ما فوقه، ومن ذلك الهاء في آخر هذا الاسم؛ لأن الصفات مشتملة على الذات، كما أن الشجرة مطوية على النواة، فكل نهاية راجعة إلى البداية بما اشتملت عليه من الحقيقة سواء كان ذلك الرجوع بواسطة أو بغيرها، والعارف يمشي على المراتب صورة، ويجري على التجريد معنى، ففيه السلامة.

(أحد): أي في ذاته؛ ومنه: أحدية السلطان فإنه ممكن، والممكن ظل الواجب، ولا يكون ظلان لذي ظل واحد، وإليه الإشارة بقوله: «**السلطان ظل الله**» أي: ظلُّ الحقيقة الإلهية، فانطبق المرآتان، واستبان سرُّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

فهنا رب وعبد فقط، كما أن هناك ظلاً، وذا ظل لا غير، فإذا كانت الهُويَّة أحدية في ذاتها؛ كانت الأُلوهية وصورتها أيضاً كذلك، وإلى هذا أشير بما ورد: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[1]، وإنما أمر بقتل الآخر وإزالته؛ لأن الشركة إنما نشأت منه، فإذا قتل، رجع الأمر إلى وحدته.

ومنه: كلمة الشهادة نفياً وإثباتاً، فاعرف.

ثم إن التصريح بالأحدي؛ إنما هو لإزالة الأوهام، وإبطال الخيالات، وإلا فلا وجود في الحقيقة إلا لموجود واحد؛ لأن الظل تابع لذي الظل، فلا وجود له في نفسه إلا صورة، والصورة لا تزاحم المعنى، كما أن البدن لا يتعدد مع الروح، إذ ليس هنا إلا ذات واحدة؛ وإنما التعدد مبني على الاعتبار؛ ولذا قال مَن قال لنا: **(من أمره)** روح وجسم؛ حيث جعل كلًّا من الروح والجسم من الأمر مع أن الجسم من الخلق إذ لا يختلف الأمر من اختلاف الخلق؛ بل هما متحدان بالذات، وإن كانا مختلفين بالصفات.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب إذا بويع لخليفتين، حديث رقم (1853) [3/ 1480] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا يصلح إمامان في عصر واحد، حديث رقم (16324) [8/ 144] ورواه غيرهما.

ومن هنا قالوا: أصل العالم أمر واحد، فإذا تقرر هذا عندك؛ عرفت أن كلاً من الأسماء الثلاثة؛ وهي: **(هو)**، و**(الله)**، و**(أحد)** ذكر على حدة مشتمل على حقيقة من الحقائق، وإن كان الكل يرجع إلى حقيقة الحقائق من حيث لا تعيينها، فمن كان محجوباً؛ كان **(هو)** عنده ضميراً؛ لأنه غائب عن الحقائق، وتجلياتها غيوبية الضمير.

ومَن كان مكاشفاً؛ كان **(هو)** عنده اسماً؛ لأنه عند الحقائق وحاضر لديها؛ فهو (عنده) بمنزلة **(الله أحد)** فكن عندك، وخذ بما لك، ولا تتعد إلى حاضر غيرك نفياً وإثباتاً، وإلا فأنت جاهلٌ بالحقائق، ذاهلٌ عن الحق الصريح، وإن كنت من أهل التقليد الحقيقي، فأنت إذاً غائب حاضر، فافعل بذلك فلا ضير والله الهادي إلى جنابه.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الإخلاص: 2]: كُرر الاسم؛ لأن الأول راجع إلى الذات، وهذا ناظر إلى الصفات؛ ومعنى الصمد: المصمود إليه.

ومنه: حال السلطان الظاهر في صورته؛ لأن الخلق من حيث كونهم رعاياه محتاجون إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: 15] أي: إلى الله الفرد الذي هو الحقيقة الجامعة لجميع الحقائق، فإنه مبتدأ أول لجميع التأثيرات الواقعة في الأكوان، وكذا إلى القطب الفرد الذي هو المظهر الأول لتلك الحقيقة من حيث الاسم الباطن، وكذا إلى السلطان الفرد الذي هو ظل ذلك المظهر من حيث الاسم الظاهر.

فما من اسم من الأسماء إلا وفيه معنى الصمد؛ لكن فرق بين اسم واسم، ومن هنا ظهر التفاوت بين الخلق، فكان الرجوع إلى السلطان في المهمات أولى من الرجوع إلى مَن دونه من أهل المراتب، كما أن الرجوع إلى القطب من حيث مظهريته على وجه أتم؛ أعلى من الرجوع إلى السلطان الظاهر؛ ولذا كان العلاج الروحاني أنفع من العلاج الجسماني في أكثر المواد.

وقس على ذلك الرجوع إلى الله تعالى في مقام التفريد، وأنى ذلك لكل محجوب مرتبط بالأسباب والوسائل؛ ولذا قلَّ استجابة الدعاء؛ فالمقصود إنما في جانب الداعي فبقدر حضوره في مشهده؛ يجد المطلوب، ويصل إلى المراد.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَيِّتَ مِنَ﴾ [الإخلاص: 3].

لأنه لو كان والداً؛ لكان متعلِّقاً، ولو كان متعلِّقاً؛ لجرى عليه الحل والحرمة، ومن ثمة قال تعالى: يُنْكِرُهُ ٱلْمَوْتُ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا﴾ [الأحزاب: 40]، فكان الحبيب من أهل هذا المقام، وهو لا ينافي كونه أبا الأرواح، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى﴾ [الأحزاب: 6].

فالروح والد (الجسد) بواسطة، ووالد الروح؛ هو النور الإلهي بلا واسطة، كما أن والد القمر؛ هو الشمس، ووالد الشمس؛ هو ذلك النور؛ لأن نور الشمس من نور الله تعالى لا بواسطة بخلاف سائر الأنوار.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ﴾ [الإخلاص: 3].

لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر عليه السلام من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجوداً له، أو ليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والداً ومولوداً.

قال تعالى: ﴿ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الإخلاص: 4].

إذ لا أحد هنا غيره حتى يكون كفواً له؛ إذ الموجودات كلها مظاهر أسمائه، ومجالي صفاته، وهاهنا كلام آخر رمزنا إليه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] كما سبق، فتفطَّن فإن المقام من المزالق، ومن الله التثبيت والتمكين.

قال الله سبحانه: ﴿ٱلْبَيِّنَتِ مِن فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ﴾ [الإخلاص: 3].

اعلم أن العبد على صورة المولى وسيرته.

أمَّا الأول: فقد دلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[1]؛ وهي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.

وأمَّا الثاني: فدلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[2] أي: ظهر فيه بكمالات هَويَّته.

ولذا ورد: «**تخلَّقوا بأخلاق الله**»[3] أي: اظهروا تلك الأخلاق والأوصاف التي

---

(1) هذا الحديث سبق ذكره.

(2) أورده البروسوي في تفسير روح البيان، سورة الكهف، آية (50) [5/ 255].

(3) أورده الجرجاني في التعريفات، باب الفاء برقم (1099) [1/ 216]، وأورده المناوي في التعاريف، فصل اللام [1/ 564].

أودعها الله فيكم حين التجلِّي؛ وذلك بالمجاهدات.

كما قال: ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ إِنَّهُۥ﴾ [العنكبوت: 69] أي: سبل المعرفة والمشاهدة؛ فإن المشاهدات تُورِّث المشاهدات.

ولا شك أن المشاهدة موقوفة على المعرفة الصحيحة، فظهر أن المجاهدة لها ثمرتان؛ المعرفة الإلهية، والمشاهدة أي: إذا كانت مجاهدة من طريق السنة كما دلَّ عليه لفظة: **(في)**، فخرَّج مجاهدات الفلاسفة ونحوهم؛ لأنها من طريق العقول، والتصرُّفات النفسانية لا من طريق الذِكر واتِّباع الأنبياء وسننهم، فليس لها ثمرات يقينية مفيدة.

ولذا ضلَّوا في طريقهم، ورُدُّوا إلى أول منازلهم؛ وهو منزل الطبيعة التي لا نفع منها؛ فكانت رياضاتهم بمنزلة الاشتغال بالأمور الخسيسة الطبيعية، فكما أن هذا الاشتغال حجب أربابه عن الوصول الروحاني؛ فكذا الرياضة المذكورة، فاعتبر من هذا إن كان لك عقل سليم.

ثم إن الإنسان الكامل الذي هو العبد الحقيقي لم يكن والداً ولا مولوداً في الحقيقة؛ لكونه على صورة مولاه، وإنما قيل: له مولود؛ لقوله ﷺ: «**أنا من الله**»[1]، فأورد كلمة من؛ إشارة إلى مبدأ الظهور، فليس هناك الخفاء دلَّ عليه قوله: «**كنت كنزاً مخفياً**»[2]، وظهور دلَّ عليه قوله: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[3]؛ وهو التجلِّي النوري البرقي.

وإنما قيل: له والد؛ لقوله ﷺ: «**يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»[4]، فإذا كان أباً لهذه الأمة؛ كان أباً لِمن قبلها أيضاً؛ لأن هذه الأمة؛ هم الآخرون السابقون كما ورد في الحديث: «**والعمدة في الأمة؛ هم الذين كانوا من آله الحقيقي، وأهل بيته المعنوي**».

كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ لَآ رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّكَ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ﴾ [الأحزاب: 33].

(1) أورده البروسوي في روح البيان، سورة الأنبياء، آية 107 [5/ 527]. وأورده السيوطي في الدرر المنتثرة برقم (134) [1/ 117] ولفظه: «أنا من اللَّه والمؤمنون مني».

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

(4) أورده ابن سيده علي في المخصص في اللغة [13/ 169].

ومن هذا المقام كان سلمان رضي الله عنه من أهل البيت، والتحق به المطهَّرون جميعاً؛ لأنهم الذين مسُّوا القرآن الحقيقي، كما قال: لا يمسه إلا المطهرون أي: من دنس التعلُّقات بما سوى الله تعالى مطلقاً، ودلَّ على ما قلنا قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ معناه فيه ما فيه، فمَن لم يكن سرَّ أبيه؛ لم يوجد فيه ما فيه، فهو لم يكن من أولاده، ورحم الله أكامل الناس حيث قدَّموا الأولاد المعنوية على الأولاد الصورية الذين تجرَّدوا عن المعنى.

ومن ثم قسموا الهاشمية على أقسام، فإن كان الإنسان الكامل على هذه الصفة التي قررناها؛ فالجهل بحقائقه أقرب من العلم بها، فلا يعلم ما الله إلا الله، ولا يعرف الإنسان الكامل أيضاً إلا مَن كان في طبقته من المظاهر الكلية، فإن العوام والمحجوبون من هذه المعرفة؟ وهي أعمق الأشياء، وأغرب الأحوال.

ثم قال المصنف في موضع آخر:

قال الله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ [الإخلاص: 1].

لطيفة: قيل لي في المنام ليلة الاثنين الثلاثين من شهر رمضان سنة 1129هـ: إن (هو) مبهم ما لا تعيُّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذِّهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسَّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «**كنت كنزاً مخفيّاً، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**»[1]، فإنه تعالى كنزاً مخفيّاً قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهراً لغيره أيضاً.

فالأول: مرتبة الجلاء.

والثاني: مرتبة الاستجلاء.

فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِۦ أَهۡلَ﴾ [آل عمران: 18].

فالهَويَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

ظاهرة للخلق أيضاً، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلِّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهَويَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته.

ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلِّي إلا بالمحلِّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمانية.

وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى ﴿ فِي سَبِيلِ﴾ [طه: 41] وجعله مجلى لصوَر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمى عنه فقد عمى، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحاً ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالماً به فاستحقره؛ لمُسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة.

فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى.

وليس لله تعالى تجلٍّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديداً بارداً، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم.

ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبداً وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع.

فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام.

واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين.

* * *

المرآة لحقائق بعض الأحاديث والآيات

تصنيف العلاّمة العارف باللَّه تعالى

المحقق الشيخ إسماعيل حقي البرسوي

المتوفى 1137هـ

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

الجزء الثاني

shaziliaassemia.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

شرح بعض الأحاديث

بطريق الحقائق

1 ـ **في المتفق عليه:** قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيّات**»[1]:

هذا بإطلاقه شامل لجميع الأعمال **وسائل** كانت؛ كالوضوء، والسَّعي إلى الجمعة ونحوه ذلك، **أو مقاصد،** كالصلاة، واستماع، الذِّكر يوم الجمعة وغير ذلك حتى إن التوحيد من حيث إنه ذكر لساني، وعمل خارجي لا بد له من النية، وقال العلماء: ما كان من قبيل الوسائل لا يحتاج إلى النية، فلو لم يُنوَ عند الوضوء لرفع الحدث، وإقامة الصلاة؛ صح وضوؤه بخلاف ما كان من قبيل المقاصد؛ كالصلاة فإنه لا بد من النية؛ ليكون صحيحاً مقبولاً.

فصحة الصلاة المستصحبة بالنية مستلزمة لصحة الوضوء، ونيتها سارية لنيته؛ بمعنى أن نيته الشرط والمشروط نية واحدة.

وقال العرفاء: لا بد من استحضار الحق تعالى في مباشرة العمل المشروع فيه مطلقاً؛ فإنه روح ذلك العمل وسره، فكما أن البدن لا يقوم إلا بالروح، فكذا العمل لا يقوم إلا بالنية، واستحضار الحق على أنه قد يدخل الرياء في العمل، فلا بد من النية؛ ليخلص لله تعالى.

وللعارفين شأن عجيب في باب النية: فإن نيتهم دفعية كلية سارية في مراتب جميع الأعمال، فليس لهم عمل بلا نية أصلاً، إذ هو ذهول عن الحق، وكيف يذهل عن الحق مَن ودُّوا حقه، والذين هم في صلواتهم دائمين، فدوام الشهود يغنيهم عن استصحاب النية الخاصة في كل خاص على أن الوضوء قد يكون قربة مشروعة مستقلة، كما دلَّ عليه ﷺ: «**دُمْ على الطهارة، يُوسع عليك الرزق**»[2].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، حديث رقم (1) [1/ 3] ورواه أبو داود في السنن، باب فيما عني به الطلاق والنيات، حديث رقم (2201) [2/ 262] ورواه غيرهما.

(2) أورده القضاعي في فيض القدير، حرف السين، [4/ 273].

فقد يلزم الطهارة في وقت، والصلاة غير مشروعة فيه، فعليك بالقربات، والدرجات، والصعود إلى المراتب العالية بخلوص النيات.

واعلم أن متعلِّق نية الخواص: هو الحق تعالى؛ فهم محسنون متقون مقربون، ولهم النور التام يوم القيامة.

وإن متعلِّق نية العوام: هو فضل الله ورحمته، فهم عاملون أبرار مقربون، ولهم الأجر التام يوم القيامة، ومقام الأولين: جنة عرضها السموات والأرض؛ لاتساعهم وانشراحهم قلباً وصدراً، ومقر الآخرين: جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لمتابعتهم العلوم أو سالتهم الدموع، فأين الأجير المحجوب من المحسن المحبوب؟ فعليك بإعراب المطلوب.

* * *

2 ـ **في الحديث الصحيح**: «**حُبِبَ إليّ**»[1] أي: بالتحبيب الإلهي؛ ولذا لم يقل: أحببت؛ لأنه شيء عن حب اختياري، وذلك غير مقبول.

ومن هذا المقام قالت امرأة العزيز: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ [يوسف: 32]؛ إذ العدل لا يجري في غير الاختياري، والله يفعل ما يشاء.

«**من دنياكم**»[2] أي: الأمور الحاصلة في دنياكم، فحصل الجواب عما قيل: من أن الثالثة ـ وهي الصلاة ـ ليست من الدنيا، وسيتضح في محله، وأضيف الدنيا إلى ضمير المخاطب؛ إشارة إلى أن النبي ﷺ ليس من الدنيا في الحقيقة؛ بل تربة طاهرة مأخوذة من تراب الجنة.

ومَن لم يكن من الدنيا؛ فلا تعلُّق له بالدنيا إلا قدر ما أمر الله بالتعلُّق به؛ وهو تعلُّق حقيقي لا يكون إلا بالله، لا تعلق نفساني، فظهر أن الدنيا صورة الآخرة لمَن هو من أهل الآخرة، فلا يضر التعلُّق بها إذا كان معه تعالى.

«**ثلاث**»[2] أنثها باعتبار أن أكثر المعدودات مؤنث، أو باعتبار الدنيا ونحو ذلك.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، حديث رقم (2676) [2/ 174] وكتاب اللباس، حديث رقم (7366) [4/ 201] ورواه النسائي في السنن الكبرى، حديث رقم (8887) [5/ 280] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

وبما فسرنا قوله: من دنياكم خرج الجواب عمَّا ذهب إليه الزركشي ونحوه: من أن لفظ ثلاث ليس من الحديث، وزيادته مخلَّة بالمعنى؛ فإن الصلاة ليست من الدنيا؛ كالنساء. و**الطيب**[1]؛ هو ما له رائحة طيبة، وإنما حب الطيب إليه ﷺ؛ لأن فيه ذوق الأنس والمفاخرة؛ وهو حظ الروح، وظهر منه أن غير الطيب حظ النفس، والأنبياء والأولياء معصومون محفوظون عمَّا لا يستطاب؛ لأن نفوسهم طيبة طاهرة؛ ولذا كانت الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، فطوبى للطيبين، والغبطة لأخلاقهم الطيبة، وويلٌ للخبيثين والنفرة عن أوصافهم الذميمة.

وجه التحبيب في النساء: أن فيهنَّ ذوق القربة والوصلة، وإن كُنَّ من حيث الظاهر حظ الجسم، فما كل ما هو من حظ الجسم ساقطاً عن درجة الاعتبار بالنسبة إلى الأرواح العالية، فربما يكون للشيء وجهان يختلف باعتبارهما.

ألا ترى أن الله تعالى جعل النساء من الشهوات في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: 14]، وقدمهنَّ على ما عداهنَّ؛ لأنهنَّ من شهوات نفسانية بالنسبة إلى النفوس الخبيثة، وشهوات حقانية بالنسبة إلى النفوس الطيبة.

لأن يُقال: نور المحبة، ثم نار العشق، ثم حرارة الشهوة؛ فيه إشارة إلى أن حقيقة حرارة الشهوة الحقانية؛ إنما تظهر بعد ظهور نار العشق الحقيقي، فمَن لم يكن عاشقاً؛ لم يكن أهل شهوة حقيقية.

ولا شك أن نبينا ﷺ رئيس المحبين، وسلطان العاشقين؛ ولذا أعطاه الله قوة أربعين نبياً، ولذا كان لا يشبع من النساء على ما ورد في بعض الأحاديث.

ومن عجائب المقام: إن حروف النساء حروف الناس، فزين أحدهما للآخر؛ لأنه ليس هنا إلا ذكورة وأُنوثة ونتيجة، والأنوثة مستنبطة من الذكورة، كما أن النتيجة مستفادة منهما، والشيء يحنّ إلى جزئه وجنسه لا محالة، فإذا كان التزيين من الله من حيث اسمه الجميل؛ كانت الشهوة حقيقية، وإذا كان منه من حيث الجليل؛ كان نفسانية؛ لأنه امتحان محض يجب التحرز عنه، ولم يقل: (والمرأة) بدل **(والنساء)**[1]؛ لأن النسء بمعنى التأخير، ووجود حواء متأخر عن وجود آدم تأخر القابلية عن الفاعلية.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

ولفظ المرأة لا يدل على هذا، وإن كان يقال في وجه التسمية بالمرأة: إن ذلك لكونها مأخوذة من المرء؛ وهو شخص آدم، إذ كل أخذ لا يدل على التأخر عن المأخوذ منه؛ بل قد يكون مقارناً له، فسبحان مَن صور وجعل الأشياء أزواجاً، وجعل بينهم المودة والرحمة؛ ليسكن بعضهم إلى بعض مع رجوعهم إلى أصل واحد.

قال ﷺ: «**وقرة عيني في الصلاة**»[1] أي: سرور قلبي، وفرح روحي في حال الصلاة لا في إقامتها؛ لأن مجرد الإقامة لا يستلزم السرور والراحة.

وقد قال ﷺ: «**أرحنا بها يا بلال**»[2] أي: أذِّن وأقم حتى ندخل في الصلاة المشروعة التي هي قرينة الزكاة فنستريح؛ لأن الصلاة حظ القلب، وفيها ذوق المكاشفة والمساهمة؛ ولذا حرص النبي ﷺ على مرتبة الإحسان، ولو كان أدناه؛ وهو شهود الخيال، فمَن لا شهود له في الصلاة، ولو في الجملة؛ كان ساقطاً عن رتبة المناجين، فظهر أن الصلاة من الأمور الأخروية، وإن كانت حاصلة في الدنيا على أنها تحتاج في الظاهر إلى حركات الأعضاء؛ وهي من الدنيا، وعالم الشهادة، وإن كانت باعتبار التوجه القلبي ونحوه من الأمور الدينية، وعالم الملكوت.

وبطل ما ادَّعاه أكثر العلماء من أن الحديث من قبيل الطي، وإن الثالثة ليست معطوفة على ما قبلها؛ بل هي كلام مبتدأ، وقوله: إنه من قبيل الطي؛ معناه: أنه ﷺ لمَّا ذكر الأولين؛ سقط في يده، وأعرض عن الالتفات إلى أمر دنياه، فطوى ذكر الثالثة فابتدأ بأمر هو من الأمور الدينية والأخروية هذا كلامهم؛ وهو كلام قطعي جداً خارج عن الأدب قطعاً.

بل لفظ الثلاث من الحديث نفسه وزيادته ليست بمخلَّة بالمعنى؛ لأن الصلاة من الأمور الحاصلة الواقعة في الدنيا، وقوله: «**وقرة عيني في الصلاة**»[3] معطوف على ما قبله، وبه يتم الثلاث لا منقطع عنه.

والكلام ليس من قبيل الطي؛ لأنه وصف للنبي ﷺ بالذهول والغفلة والندم على ما قال حاشا عمَّن هو في أعلى منصب النبوة أن يتكلم بغير رؤية؛ بل عن اتفاق

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (6215) [6/ 277] ورواه ابن عساكر في تاريخ بغداد، حديث رقم (5604) [10/ 442].

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

على ما عليه أكثر العامة، وأن يندم على ما قاله، وهو في مقام الحضور مع الله بحيث لا ينطق عن الهوى، وإنما كل كلامه حكمة محضة، ومعرفة حقة، وحقيقة مطلقة، وكيف ذهلوا عن صبغة التفضيل في قوله: «**حبب**» حتى تفوهوا ما تفوهوا، فإن الشيء إذا كان محبوباً بالتحبيب الإلهي؛ كيف يكون من الدنيا حتى يندم عليه النبي ﷺ؟

فإذاً يكون النادم؛ هو الله تعالى فحاشا عنه؛ لأنه حبب إليه تلك الثلاث، ثم خذله عن ذكر بعضها لمَّا بدا له، فنحن نستعيذ بالله تعالى عن مثل هذا الاعتقاد في حقه ﷺ على أن شهواته كلها كانت من قبيل التشريع، وفي حال انجذابه القوي إلى عالم القدس، فإذا كانت شهواته بهذه المثابة فما ظنك بما صدر عنه في مقام محوه وتمكينه؛ وهذا هو الحق الصريح، ولا يحيد عنه إلا أهل الباطل القبيح، فطوبى لمَن نبَّهه الله على خطئه، وسامح الله مَن مضى عليه، ولم يبلغ قولي إليه، ومن الله الإرشاد والتوفيق بسم الله علينا الإحسان.

❊ ❊ ❊

3 ـ **في الحديث الصحيح «من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه»**.

العمل إشارة إلى الصفات، كما أن النسب إشارة إلى الذات.

والأول: إنما يشاء من الأسماء الحسنى الدالة على الصفات العليا.

والثاني: من نسبة قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29].

ولا شك أن نفخ الروح مشترك بين الكل؛ ولذا لم يتميز العارف من غيره إلا بما فوق الروح من الكمال الخصيص بالسر بخلاف الصفات الإلهية؛ فإنها مختصة بالمؤمن المطيع المتقي حق الاتقاء، فمَن لم يستكمل من حيث الصفات الإلهية لم ينفعه مجرَّد كونه منفوخ الروح؛ لأن المعتبر في الكمال أن يكون بالفعل لا بالقوة، فكان هذا نظير الشخص الحسن من حيث هيئات وجوده، مع اللباس القبيح، والصفة إذا كانت غالبة: تستحيل الذات إلى صورة الصفة، فتكون الذات والصفة قبيحين.

أمَّا الذات فبحكم الجوار، وأمَّا الصفة فظاهرة، والأول نظير الشخص الحسن من تلك الحيثية مع اللباس الحسن، فإن للحسن مع الحسن شرفاً زائداً على الحسن مع القبيح فاعرف.

ألا ترى أن غير الهاشمي أُلحق بالهاشمي من حيث صفاته الحسنة التي عُمدتها

طهارة الباطن، فكان من أهل البيت تحقيقاً، والهاشمي أُلحق بغير الهاشمي من حيث صفاته القبيحة التي أعظمها خبث الباطن فخرج من عداد أهل البيت.

ومن هذا ظهر أن الصبيان ساقطون عن درجة الكمال؛ لأن نسبتهم إلى الذات أقوى من نستهم إلى الصفات، ومن ثم كثر فيهم الأمراض والهلاك؛ إذ ليس لذواتهم قوة صفاتية، فهم كفرع ينجذب إلى الأصل بأهون شيء من الأسباب، وهو الاستحالة الناشئة عن قوة الانفعال وعدم الاستمساك، وتبين أيضاً أن حكمة الخروج من العدم إلى الوجود؛ إنما هي تكميل مرتبة الصفات، فمَن كان محروماً عن هذه المرتبة؛ لم يكن على شيء.

ومن هنا نفع طول العمر إذ الكمال الإنساني تدريجي؛ وإنما جعل عمر هذه الأمة بين الستين والسبعين؛ لأن حقيقة التوبة والإنابة إنما تظهر في هذه المدة، كما يشير إليه كون ما بين مصراعي باب التوب مسافة سبعين سنة؛ وهذا من كمال استعداد هذه الأمة؛ ولذا جعل مدة بقائهم ألف سنة، وأمَّا الأمم السالفة فقد دل طول أعمارهم، وامتداد مددهم على أنهم من أهل الإبطاء لا من أهل الإسراع.

* * *

4 ـ **في الحديث الصحيح**: «**مَن أخذ شبراً من الأرض ظلماً؛ طوقه إلى سبع أرضين**»[1].

وفي بعض الأحاديث: «**خسف به**»[2].

اعلم: أن الأرض لله تعالى يورثها مَن يشاء؛ لأن نماء الأرض إنما هو بالماء، والله الذي أنزل من السماء ماء فسالت أودية، فملك الأرض إنما هو لصاحب الماء في الحقيقة؛ ولذا لا تنكح الحاملة؛ لأن فيه سقي زرع الغير بماء الغير، فمَن غصب أرض الغير؛ فقد غصبها بمائها، والماء لا يكون مغصوباً؛ لأنه سيال غير قار فلا يجوز على أنه جار مرة ومنقطع أخرى.

وكذا الروح ممد الحياة، وبه ينمو الجسد ويبقى وهو منفوخ من الله تعالى،

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما جاء في سبع أرضين. . .، حديث رقم (3026) [3/ 1168] ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (1610) [3/ 1231] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في الصحيح، في أبواب عدة منها: باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، حديث رقم (2322) [2/ 866] ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم التبختر في المشي. . .، حديث رقم (2088) [3/ 1653] ورواه غيرهما.

وأرضه هو الجسد، وآثاره، فالقبض الذي يحصل من جانب الروح إنما لصاحب ذلك الروح؛ فالغير إذا ادعاه لنفسه؛ فكأنه أضاف الزرع المتبقي بماء غيره إلى نفسه؛ وذلك ظاهر البطلان، فالأرض لا تملك إلا بمائها؛ ولذا كان بيع الحر من أكبر الكبائر؛ إذ لا يجري فيه الملك إلا لله تعالى، فكل من التطويق، والخسف جزاء وفاق، فالتطويق باعتبار استعلاء الطبيعة عليه، والخسف باعتبار توغُّله في الأمور الطبيعة.

ولمَّا كان الظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ كان جزاؤه من جنسه، فوضع الأرض على عنق الظالم؛ وهي ليست محلها الموضوع لها، وخسف بالأرض، وقد كان مقرُّه وجه الأرض وظاهرها، فالقلب من الظاهر إلى الباطن إلى عدم علمه بظاهر الأمر في تلك الغير.

(وسبع أرضين):

إشارة إلى طبقات الوجود، وقاراته السبع مع أنه منطوٍ على أعضاء سبع هي مفتاح الأبواب السبعة للنار التي تحت الأرضين؛ وهي: السمع، والبصر، واللسان، واليدان والرجلان، والبطن، والفرج.

وأمَّا القلب: فمن سماء الروح لا من أرض القلب، وكذا هو مشتمل على عناصر الأربعة، الجسد، والنفس النامية، والنفس الحيوانية.

وكل ذلك مما يلي ظاهر الوجود، فلمَّا اشتركت هذه السبعة في المعصية؛ جوزيت بالسبع فكان المنتهى هو السجين وهي الطبيعة الشاغلة، وفي الحديث نهي عن التعرض إلى الغير إلا بحقه؛ كالقصاص وسائر الحدود.

* * *

5 ـ **في الحديث الصحيح «مَن أدرك ماله بعينه عند رجل أفلس، أو إنسان قد أفلس؛ فهو أحق به من غيره»**[1]:

فيه إشارة إلى أن «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**»[2]، إذ بتلك

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، باب الفلس، حديث رقم (5036) [11/ 412] حدث رقم (5036) [11/ 412] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب التفليس، حديث رقم (11022) [6/ 44] ورواه غيرهما.

(2) رواه بنحوه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (2687) [5/ 51]، ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن بريدة، حديث رقم (2770) [2/ 152] ورواه غيرهما.

الحكمة يتموَّل ويستغنى.

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

وفي قوله: **(عند رجل أفلس)**: إشارة إلى قوله: «**خذوا العلم من أفواه الرجال**»[(1)]؛ وهم الرجال الذين أفلسوا عن نفوسهم، ومالها؛ فأغناهم الله تعالى بذاته، ومالها.

كما قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: 8].

أي: وجدك خالياً عنك فملأك به نفسه، والمال العين؛ إشارة إلى العلوم الحقيقية التي لا اختلاف فيها، بخلاف غيره من المال؛ فإنه علوم غير حقيقية متغيرة بحسب مشارب أهاليها، فالمطلوب بالذات؛ هو العلوم الإلهية اللَدنية، وبالتبعية وهو العلوم النظرية الاستدلالية.

وأمَّا العلوم الشيطانية، والمعارف النفسانية فليست بمال أصلاً فلا تُطلب قطعاً؛ بل (تحرمهما) أصحابها فضلاً عن الطلب، وأمَّا قولهم: مال أهل الحرب في المسلمين؛ فإنما هو في الرابح، فخذ ما صفا، ودع ما كدر فأنت المصيب.

* * *

6 ـ **في الحديث الصحيح**: «**مَن اقتنى كلباً لا يغني عنه رزعاً ولا ضرعاً؛ نقص من عمله كل يوم قيراط**»[(2)].

أشار بالكلب إلى النفس، وبالزرع إلى حرث الآخرة؛ وهي الأعمال الصالحة الظاهرة.

كما يُقال: الدنيا مزرعة الآخرة، وبالضرع إلى الفيض الإلهي الجاري من ضرع القلب والروح، وبالنقص إلى قوله: «**مَن استوى يوماه؛ فهو مغبون**»[(3)].

فالفائدة في النفس الإنسانية التي النفس الأمَّارة الكلبية قوة من قواها أعمالها

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه البخاري في الصحيح في أبواب عدة منها: باب اقتناء الكلب للحرث، حديث رقم (2198) [2/ 818] ورواه مسلم في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب الأمر بقتل الكلاب. . ، حديث رقم (1074) ورواه غيرهما.

(3) رواه الديلمي بمأثور الخطاب عن علي بن أبي طالب، حديث رقم (5910) [3/ 711] ورواه البيهقي في الزهد الكبير، حديث رقم (987) [2/ 267] وروا غيرهما.

في تحصيل الكمالات الظاهر والباطنة.

كما قال تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66] أي: من طريق الكسب والوهب، فإذا عطلت جاء الغبن والخسارة.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 12].

فالنفس: هي البضاعة وبها التجارة والربح، فمَن أعلمها، ربح، ومَن أهملها؛ خسر.

وأول الخُسران: عدم الإيمان، والاعتقاد، ثم العمل، ثم الحال، ثم المقام؛ وفيه إشارة إلى أن الكلب إذا كان نافعاً؛ خرج عن الكلبية، وإن كان صورة الكلب الضار، كما أن الإنسان إذا كان ضار؛ أُخرج عن الإنسانية، وإن كان في صورة النافع، فالاعتبار بالمعنى لا بالصورة.

* * *

7 ـ **في الحديث الصحيح: «مَن أكل البصل والثوم والكراث»**[1]:

(والكرات): كرتان على ما في القاموس بقل من البقول يقال له بالفارسية: كندان الرائحة الكريهة، ودخل في هذه الثلاثة كلّ ما يشاركها في الرائحة، وذلك بطريق الدلالة والإشارة، وإن لم يساعدها اللفظ والعبارة؛ فلا يُنفى التخصيص بالثلاثة ما عداها، ونظائره غير واحدة.

قال ﷺ: «**فلا يقربن مسجدنا**»[1] أي: مواضع العبادات في وقت حضور الجماعات أي: موضع كان من حرم مكي، أو مدني، أو سليماني أو غيرها، فلو حضر مواضع العبادات في وقت غير العبادات وحضور الجماعات؛ كان خارجاً عن النهي كما يقتضيه قوله: «**فإن الملائكة تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدم**»[1].

لم يقل: فإن الملائكة تتأذَّى منها إشارة إلى أصل العلة؛ هي تأذِّي لكامل بني آدم وخواصهم من كل ما له رائحة كريهة، فإنهم إذا تأذُّوا منه، وهم في الصورة أجسام كثيفة؛ كانت الملائكة أَوْلى به؛ وهم أجسام لطيفة على أن التأذِّي من مثل ما ذكر صفة الروح والأرواح العالية مشاركون لخواص البشر في تلك الصفة وخواصها، وقد ثبت أنه ﷺ حُبب إليه الطيب كما حُبب إلى الملائكة، ومن ذلك سُن تبخير المساجد يوم الجمعة؛ لحضور ملائكة الرحمة فيه.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو. . .، حديث رقم (564).

فظهر أن المراد بالملائكة هم الملائكة الحاضرون في أوقات مخصوصة في مواضع مخصوصة، وأمَّا الملائكة الملازمون في الأوقات كلها؛ كالكاتبين ونحوهم؛ فإنهم وإن كانوا يتأذُّون مما ذكر أيضاً؛ لكن أمرهم أهون؛ لقلتهم بالنسبة إلى الحاضرين في الأوقات المخصوصة في المعابد.

إذ لا بد لابن آدم من أكل ما هو مباح الأصل، وإن كان في بعض الأوقات على أن العزيمة الترك مطلقاً؛ ولذلك كان ﷺ لا يأكل البصل ونحوه بتاً، وإن لم يقرب من المسجد؛ لكثرة نزول الملائكة عليه وحضورهم لديه.

فإنه إذا كان ظاهر المسجد لا يحتمل ما ذكر، فكيف باطنه؛ وهو القلب المطهَّر المبخَّر بالروائح الأنسية الغيبية، ومن هنا يعرف حال الضَّب ونحوه، فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يمنع العامة عن أكله مع أنه لم يأكله، ففرق بين الرجال الحاضرين محاضر الأنس والقرب، وبين الغائبين عنها.

ولمَّا أُهبط أبو البشر آدم عليه السلام إلى الأرض؛ أُغشي عليه من رائحة الدنيا المنتنة؛ لاعتياده بروائح الجنة العطرة، فإذا كان حال ما هو مباح الأصل هذا، فما ظنك بغيره؟

وإن كان يستطيبه أكثر العوام فإنه ليس الكلام معهم؛ بل مع الخواص؛ فإنهم هم الذين يعتبر استطابتهم واستخباثهم ولذا عَدُّوا مَن استعمله ممَن هو في ذي المتصوِّفة شيطانياً نفسانياً؛ لأن الإسراف يوجب الحرمان من المناجاة، فكيف الإسراف في المحرمات والمشتبهات؟! وكل ما هو حجاب عن الله تعالى فهو حرام.

فإن قلت: أليس الله تعالى هو القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 29]. واللام للمنفعة.

قلت: بل اللام للعلة في الحقيقة أي: هو الذي خلق لامتحانكم كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]، مع قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: 32]، على أن قولهم: إن الأصل في الأشياء الإباحة؛ معناه في الأشياء النافعة لا في الضارة، ومن الضارة شرب الدخان؛ كأكل التراب، والفحم المحروق ونحوها مما فيه ضرر بيِّن للبدن الذي يقوم أمر الطاعة، وخدمة العبادة.

وأقوى أدلة حرمة الدخان قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وذلك أنه لا شك عند أهل العقول السليمة أن المعتاد لشربه لا يزال يستثقل الصوم والصلاة ونحوهما من العبادات، واستثقال العبادات المشروعة كفر، فالمؤدي إليه الدخان ونحوه حرام لا محالة وخبيث لا شبهة.

وقد جعل الله الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، فليختر الخبيثون لنفوسهم بنفوسهم ما شاءت نفوسهم، كما أنه ليختر الطيبون لنفوسهم بربهم ما شاء ربهم، فمَن لم يعرف القمح من الزّوان؛ وقع في العناد والحرمان، وترك العمل بالآية والحديث؛ أذية لله ورسوله.

وقد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: 57].

والنفس السليمة تفرق بين الطيب والخبيث فلا تقرب من الخبيث، فكيف إذا أيَّدها النصوص والشواهد والبينات؟! فإن من فقد شَمُّه؛ استوى عنده الخبيث والطيب، ولأمر ما أمر الشارع بالسواك، فإن كنت من أهل الفهم؛ طهَّرت الفم والفؤاد؛ فإنه لا يمس المراد إلا المطهَّرون من الأدناس والأوضار، ولا يليق بالمعاني إلا أهل الحقائق الأخيار.

* * *

8 ـ **في الحديث الصحيح**: «**مَن أنظر معسراً**»[1]:

أي أخَّر مطالبته ذي عسرة؛ وهو المديون الفقير.

قال ﷺ: «**أو وضع له**»[1] أي: حطَّ عنه دينه بعضه أو كله.

ولمَّا كان في هذا إزاحة الغم عن القلب، وإراحة الروح عن الهم؛ جعل جزاءه الاستراحة الأخروية، كما قال ﷺ: «**أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**»[1].

فإن الإظلال في الحقيقة: عبارة عن الإراحة سواء كان هناك ظل حقيقة أو لا، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء آية: (57)]، وإنها رغبة في إمهال

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب حديث جابر الطويل..، حديث رقم (3006) [4/ 2302] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب 107 ما جاء في إنظار المعسر والتجوز عن الموسر، حديث رقم (10757) ورواه غيرهما.

المديون في باب الأموال عملاً بإمهال المديون في باب الأعمال، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: 37].

فالفقير إذا فُتح له في مدته؛ يجب عليه أن يقضي دينه حتى يستريح، وإلا كان مسجوناً، وسجن الله تعالى هو جهنم في الآخرة، والطبيعة في الدنيا.

فالعاصي مسجون في الدنيا والآخرة، وهو لا يشعر بحاله في الدنيا لأنه نائم فكما أن النائم لا يستيقظ إلا عند الصباح، فكذا الغافل لا ينتبه إلا عند الموت؛ والموت طبيعي واختياري، والثاني هو المقبول المشار إليه بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245] على قراءة الفتح من الرجوع، لا على قراءة الضم من الرجع.

* * *

9 ـ **في الحديث الصحيح: «مَن أنفق زوجين في سبيل الله: دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب»**[(1)]:

أي: كلهم، المراد بالتشبيه كثرة الأزواج لِمَا دلَّ عليه عموم الدعوة من جانب الخزنة؛ إذ لكل عمل من الأعمال الصالحة خصوصية في دخول باب من أبواب الجنة على ما تقتضيه الحكمة، فمَن له مع التوحيد كل عمل، وكل خلق؛ فهو يدخل الجنة من كل باب من أبوابها دفعة واحدة، فيكون له شرف زائد على غيره، ممن يدخلها من بعض أبوابها؛ لأن المطلق أعظم من المقيد.

فإن قلت: كيف يتصور الدخول الدفعي، ولا إمكان له في عالم الدنيا؟

قلت: لا يقاس النشأة الأخروية للطافتها، على النشأة الدنيوية لكثافتها، على أن الدنيا عين الآخرة للمتروحنين المطورين؛ ولذا تراهم يحضرون في وقت واحد في مجالس متعددة من غير تكثر في ذواتهم، ويدخلون البيت من غير الباب والكوة، ولا يدرك حقيقة هذا الأمر إلا مَن ولج ملكوت السموات، والله الهادي.

* * *

10 ـ **في الحديث الصحيح: «مَن بنى لله مسجداً»**[(2)]:

أفاد الكلام الإخلاص، وأخرج ما بُني رياءً وسمعةً، وأخرج المسجد معابد

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل النفقة في سبيل اللَّه، حديث رقم (2686) ورواه مسلم في صحيحه، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، حديث رقم (1027) [2/ 711] ورواه غيرهما.

(2) وفي رواية: «ولو كمفحص قطاة بنى اللَّه له بيتاً في الجنة» رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر =

الكفار، ثم أكدَّ معنى الكلام بقوله:

«**يبتغي به وجه الله**»؛ فإنه يراد به الإخلاص؛ إذ وجه الله ذاته ورضاؤه عبر به عن الذات؛ لأنها أشرف الأعضاء، وعن الرضا؛ لأن أثر الرضا؛ إنما يظهر في الوجه، وفيه إشارة إلى أن ما بُني بطريق الرياء، ولأهل البدع والأهواء في حكم الكنائس؛ إذ هو عمل محبوط رأساً؛ كعمل الكفار.

«**بنى الله له مثله في الجنة**» أي في الجنة الصورية الحسية في الآخرة، وأعاد له إشارة إلى المكافآت، والجزاء الوفاق إذ لا معنا لبناء المسجد في الجنة، ودلَّ المثلية على مراتب الإخلاص، فإن كان الإخلاص في مرتبة القلب التي هي مرتبة العشرات؛ فله بمقابلة مسجد واحد عشرة بيوت جنانية لا يقادر قدرها؛ لأنها من الجواهر، وبيوت الدنيا من الأحجار ونحوها.

وإن كان في مرتبة الروح التي هي مرتبة المئات؛ فله بمقابلة مسجد واحد مائة بيت من البيوت الفردوسية لا يكنه كنهها؛ لأنها من الدرر واللآلىء الصافية، وإن كان في مرتبة السرِّ التي هي مرتبة الألوف؛ فله بمقابلة مسجد واحد ألف بيت من البيوت العدنية المبنية على الأنوار، وإن كان فوق ما ذُكر؛ فله أجر بغير حساب على أن مَن بنى مسجداً في الدنيا فإنما يبنيه لإقامة الصلاة، التي هي محلُّ المناجاة والمكاشفة والمشاهدة، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يُبنى له في الجنة بمقابلته بيوت لطيفة، هي محل التجليات الإلهية، إذ الجزاء من جنس العمل، ومماثل له، وفيه إشارة إلى بناء بيوت القلوب؛ فإن هذه البيوت أعظم من المساجد؛ لأنها منظر الحق سبحانه ومسكنه.

على ما ورد في الخبر القدسي الداودي عليه السلام: «فمَن طيَّب خواطر أهل الله، وقلوب أولياء الله؛ طيَّب الله خاطره، وعمَّره بما لا يخطر بباله من أنواع التطيُّب والعمارة»[1].

فالقلب بيت الله وعرشه وسريره وهو من الجنان المعجَّلة في الدنيا، فطوبى لعامره وداخله، وويلٌ لنادمه والخارج.

وفيه رمز أيضاً إلى أن بناء المسجد من المقامات الإبراهيمية عليه السلام؛ لأن

= الدال على أن اللَّه جل وعلا يدخل المرء الجنة. .، حديث رقم (1610) [4/ 490] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل بنيان المسجد، حديث رقم (318) [2/ 134] ورواه غيرهما.

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الكعبة أول بيت وضع للناس في الآفاق، كما أن القلب أول بيت وضع لهم في الأنفس.

وإنما جُوزي إبراهيم بأمثال الكعبة في الملكوت من حيث إنه لم يكن طبقة من طبقات السموات إلا وفيها بيت معمور، ومثل الكعبة في حيالها جُوزي مَن اتبعه في ملَّته التي من جملة آثارها بناء المسجد بمثل ما جُوزي إبراهيم من البيوت الملكوتية الجنانية؛ فانطبق الفرع على الأصل، وفيه تلويح إلى أن العمدة في خلق الإنس والجن هي العبادة التكليفية؛ ولذا رفعت بيوتها كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: 36] أي: ذكراً مطلقاً في ضمن الصلوات المشروعة أو غيره.

وعلم من ذلك أن الوسائل ملحقة بالمقاصد في التعظيم والإجلال؛ ولذا يُعظِّم أبدان الخواص، وتوقر أشباح الأولياء؛ لشدة تعلُّق أرواحهم الطيبة بها، وسريان بركاتها إليها، فمَن حقَّرهم في ظواهرهم؛ فقد حقَّرهم في بواطنهم، والباطن هو الحق المسجود له؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29] أي: خلق آدم فتجلَّى فيه، فمَن أراد إطفاء نور الله تعالى؛ أطفأه الله، وكان من الكافرين؛ كإبليس عليه ما يستحق، والله الحافظ لعباده.

* * *

11 ـ **في المتفق عليه**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن ترك صلاة العصر؛ فقد حبط عمله**»[1].

يعني: عمل اليوم؛ إنما يهتم بصلاة العصر؛ لأنها خاتمة فرائض النهار، فإذا لم توجد الخاتمة؛ كان العمل أبتر، وفي حكم الحبوط والبطلان، ووجه التشديد اشتغال أهل البلاد الحارة في ذلك الوقت بأمور المعاش؛ فكان ذلك من مظان ترك صلاة العصر، كما كان عليه المنام في ليالي الصيف في البلاد الرومية الباردة من مظان ترك صلاة الصبح.

وفيه إشارة: إلى أن ترك توبة القلب الأوسط؛ كترك الصلاة الوسطى، فمَن

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب 14 إثم من ترك العصر، حديث رقم (528) [1/ 203] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الزجر عن ترك صلاة العصر. . ، حديث رقم (1470) [4/ 332] ورواه غيرهما.

حُرِمَه؛ فكأنما حرم الصلاة الوسطى؛ لأن العمل إنما يتم بتوجه القلب وخلوصه؛ فهو مدار تمام الأعمال، وسبب نمائه؛ ففيه حث إلى الترقِّي من الطبيعة والنفس إلى مرتبة القلب، وأيضاً فإن العصر هو الوقت كله من أول العمر إلى آخره، فمَن فات منه الوقت، فقد فات الوصول، وأتمُّ ما يوجد صلاة العصر في الأقطاب، فمَن (لم) يلتحق بواحد منهم؛ فقد بطل حاله.

* * *

12 ـ **في الحديث الصحيح**: «**مَن تطهَّر في بيته**»: أشار بالتطهر إلى الانفصال عمَّا سوى الله تعالى، وهو صفة القلب؛ ولذا قال:

«**في بيته**» أي: بيته المخصوص به الذي لا يكون إلا واحداً ليتسع واحداً.

كما قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4].

«**ثم مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**»[1] أي: بعد تطهُّر القلب عن دنس التعلُّقات يعني: حتى يقدم الخلوص، والإيقان، والشهود إلى بيت من بيوت الله أي: إلى مقام من المقامات المعنوية، كالاتصال، فإنه يجمع بين المناجاة والقربة، والشهود، والوصول، فيحصل الجمعية بعد التفرقة، والحضور بعد الغيبوبة، والتعبير بالبيت للمشاكلة، أو للتعظيم، أو لأن المراد من دخول المساجد؛ إنما هو الصلاة المشتملة على المناجاة المقتضية للمجالسة مع الله وهي في البيت؛ والبيت في الحقيقة هو القلب؛ لأنه هو الذي فرغ لسكنى ستر الله العظيم فيه.

ولمَّا كان الصوفية المحققون من أهل القلوب المتجلِّية بأنوار الغيب قيل: مَن أراد أن يجلس مع الله، فليجلس مع أهل التصوف: أي؛ لأن الله معهم في جميع المشاهد؛ بل هو متجلِّي في صورهم، وإن جحدهم جاحد؛ ليقضي فريضة من فرائض الله، إشارة إلى قوله ﷺ: «**اللّهم اقضِ عني ديني**»[2] وهي الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان، وهي الوصول إلى الله تعالى، والأخذ عنه بلا واسطة، وذلك

---

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن أحد خطوتي الجائي إلى المسجد. . ، حديث رقم (2044) [5/ 392] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في فضل المشي إلى المسجد، حديث رقم (4747) [3/ 62] ورواه غيرهما.

(2) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى أبي الدنيا في الدعاء عن معاذ بن جبل. سورة آل عمران، آية 26، 27 [2/ 172] وأورده القرطبي في التفسير، سورة آل عمران، آية 26 [4/ 52].

فرض على القلوب والأرواح والأسرار، فإنه الهدى الذي أتى إليه من الحق تعالى، فمَن تبع ذلك الهدى، خلص عن البرازخ كلها، ووصل إلى أعلى المنازل المحمودة، كانت خطوتاه.

أحدهما: تحط خطيئته؛ وهي خُطوة الانفصال؛ لأنها تحط خطيئته؛ هي ذنب الوجود إذ لا يتخلص السالك عن هذا الذنب إلا بعد الفناء التام الحاصل بطهارة الباطن عن دنس التعلُّقات، ووسع للمغيبات، ولوث الإثبات.

والأخرى: ترفع درجة؛ هي خُطوة الاتصال؛ لأنها ترفع درجة؛ هي درجة الظهور بالوجود الحقيقي في عالم الوحدة، وإلى هاتين الخطوتين الإشارة بالوضوء والصلاة، وكذا بالقدمين.

فإن الإنسان لمَّا كان أجمع من الملك، وكان اجتهاده بالأمر والنهي؛ جعل له القدمان بدل أجنحة الملائكة؛ فالإنسان سائر بالقدمين في الظاهر، وطائر بالقلب والروح في الباطن، وأمَّا الملك فطائر بالأجنحة في الظاهر بدون طيران في الباطن؛ لأنه ليس له قلب بل روح فقط.

ولذا قيل للملائكة: الأرواح، كما قيل لأفاضل البشر: أهل القلوب، فربَّ طائرٍ ليس له مشي، كما أنه ربَّ ماشٍ له طيران كالإنسان، فإن بعض الأبدال كما أنهم يمشون في الأرض فكذا يطيرون في الهواء على صفة الطيور.

ومنه: يعرف: أن اللطيف في صورة الكثيف؛ كالإنسان أعلى من الكثيف في صورة اللطيف كالملك؛ لأن الملك لا يعرج إلا ما يعرج إليه الإنسان؛ وهو في الظاهر ذروة العرش، كما وقع للحضرة النبوية ليلة المعراج، وفي الباطن الهُويَّة الذاتية تصدر من العرش منتهى عالم التركيب والكثرة.

وغيب الذات: هو منتهى عالم الفردانية والوحدة، والإنسان الكامل مشرف بهذين السرين؛ لأن له اليدين والقدمين، والملك لا قدم له في هذا الشأن؛ بل له السير في المقامات الجزئية، وإليه الإشارة بكثرة الأجنحة، فافهم جداً.

وكن من أهل الوضوء والصلاة الحقيقيين بعد أن تكون من أهل الوضوء والصلاة الشرعيين؛ لأن تجليات الحقائق إنما هي تحت تجليات الأحكام والشرائع، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

فمَن عصى في الشرائع؛ خرج عن حد الملك، ومَن عصى في الحقائق؛

خرج عن حد الإنسان الحقيقي، وبقي مع الحيوانات، فإن قلت على الملائكة: شرائع، قلت: أمَّا الملائكة السماوية فلهم أوامر يتعبدون الله تعالى بها؛ لأن مرتب مقامهم لا يقتضي النواهي، وأمَّا الملائكة الأرضية فلهم أوامر، ونواهٍ كالإنسان، وذلك من حيث اتصالهم بمرتبة الإنسان المأمور بكل من الأمر والنهي.

لكن الإنسان في مرتبة الأمر والنهي أقوى منهم، كما أن هذه الأمة المرحومة أقوى من سائر الأمم في مرتبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكذا في مرتبة الإيمان كما سبق، فكما أن الملك كجزء من الأجزاء الإنسانية؛ لأنه بعض قوى الإنسان التي تلي الملكوت، فكذا الأمم السالفة كعضو من الأعضاء بالنسبة إلى هذه الأمة.

فإن كمالاتهم بعض كمالات هذه الأمة؛ ولذا لم يكن خير الأمم إلا هذه الأمة، كما أنه لم يكن ختم الأنبياء إلا نبينا ﷺ؛ لأنه مبعوث للتكميل والتتميم، ولا شك أن المكمِّل بالكسر هو المكمَّل بالفتح، ولهذا المعنى دلائل، وشواهد كثيرة من القرآن والحديث لا تخفى على العالمين والعارفين.

فليحمد الملك على غناه التام كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: 38]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: 245].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 105].

* * *

13 ـ **في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «مَن تطهَّر في بيته»**[1].

إشارة إلى التطهُّر القلبي عن لَوث الأغراض الفانية، وذلك لا يحصل إلا بإخلاص النية؛ التي هي الأساس في جميع المراتب.

فالتطهُّر الجسدي الذي هو التوضؤ والاغتسال؛ إنما هو صورة التطهُّر الباطني الروحاني، فما لم يكن حقيقة؛ لم يكن شريعة، وما لم يكن شريعة؛ لم يظهر حقيقة، فمَن تطهَّر في باطنه بالنية؛ فلا بد له من التطهُّر في ظاهره بالوضوء ونحوه،

(1) صحيح مسلم، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، حديث رقم (666) [1/ 462] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن أحد حطوتي الجائي إلى المسجد. . ، حديث رقم (2044) [5/ 392] ورواه غيرهما.

ومَن تطهَّر في ظاهره؛ فلا بد من أن يبنيه على ما يقتضيه مقام الحقيقة، وإلا فيبقى طاهراً ونجساً.

وقوله ﷺ: «**ثم مضى إلى بيت من بيوت الله؛ ليقضي فريضة من فرائض الله**»[1].

أي: ليؤدي حقاً من حقوق الله الواجبة عليه.

وفيه إشارة إلى أن أداء هذا الحق؛ هو الذي بعثه على التطهُّر أولاً، ثم على المشي ثانياً، وأضاف البيوت إلى الله: لأن الطهارة لا تقتضي المشي إلى بيوت الغير؛ لأنها بيوت شيطانية مُتلوِثة بألواث الزوائل، وبيوت نفسانية متنجِّسة بنجاسات القبائح؛ فالأصل إذا كان طيباً؛ لا يثمر إلا الطيب، وكذا إذا كان خبيثاً؛ فلا يظهر منه إلا الخبيث.

ألا ترى إلى النفق التي تُوضع في الطين؛ فإنه ليس لها فائدة من الطين الطبيعة، وما كان من مقام الطبيعة؛ فلا يتجاوز إلى مقام القلب والروح؛ الذي هو السماء العلوي المعنوي؛ فبين السماء والأرض بَوْن بعيد؛ إلا أن يكون بينهما علاقة روحانية، فإن تلك العلاقة تُجرُّ العمل من الحضيض الأسفل، وترفعه إلى الأوج الأعلى.

قوله ﷺ: «**كانت خطوتاه أحدهما: تُحط خطيئة، والأخرى: ترفع درجة**»[1]؛ إشارة إلى خطوتي الجسد والروح، فالخطيئة المضافة إلى الجسد مُنكرات الشريعة، فبالحركة الجسدية تنمحي تلك المنكرات؛ لأن أعمال الشريعة مضافة إلى الجسد، والدرجة المضافة إلى الروح مستحسنات الحقيقة، فبالنيَّة الروحانية؛ ثُبَت تلك الحسنات؛ لأن أعمال الحقيقة مضافة إلى الروح.

والحاصل: إن الخطيئة المخطوطة سبب خطها عن الجسد وحركته؛ لأن الجسد منبعها والدرجة المرفوعة سبب رفعها عمل الروح وحركته؛ لأن الروح مبدؤها، فالخطوة الظاهرة تحطّ ما يناسبها، وكذا الخطوة الباطنة ترفع ما يناسبها، كل يعمل على شاكلته.

---

(1) صحيح مسلم، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به الدرجات، حديث رقم (666) [1/ 426] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن أحد حطوتي الجائي إلى المسجد. . ، حديث رقم (2044) [5/ 392] ورواه غيرهما.

فمَن أراد أن يتطهَّر من الألواث؛ فليكن على حسن النية أولاً، وعلى عمل الشريعة ثانياً، فحسن النيَّة يجر العمل الشرعي إلى مقام القبول، وعنده الوصول، ومَن عمل بما علم: أي بشرط حسن النيَّة؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم؛ وهو علم اللَدني؛ لأنه نتيجة ذلك، فلا بد لتحصيل هذا العلم العزيز من تقوى، وسلوك، وعمل صالح.

وفي الحديث إشارة أخرى وهي أن بيوت الله هي قلوب أوليائه؛ لأنها مسكن الأنوار، ومقر الأسرار، وزيارتهم، والدخول في قلوبهم، وخدماتهم من كل وجد حق واجبٌ في ذمة السالكين؛ لكن لا بد من التطهُّر قبل الزيارة، والخدمة؛ وهو ألا يبني ذلك على الأغراض، كحصول الجاه الدنيوي أو الأخروي أو نحو ذلك؛ بل يجعله خالصاً عن الشوائب النفسانية، فإنهم مظاهر الحق تعالى، وجلساؤهم جلساء الحق تعالى، وجليس السلطان لا يطلب من السلطان إلا نفسه؛ بل يُلاحظ قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28].

فيطلب منه أن يفني من الطلب عن أصله، وبتلك الزيارة والخدمة تُحطُّ التلوينات، وتحصل التمكينات، ولا درجة فوق اليقين، والاطمئنان، والتمكين، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] أي: حقيقته وكماله.

* * *

14 ـ في حديث مسلم: «مَن توضأ فأحسن الوضوء؛ خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[1]:

اعلم أن الوضوء عبارة عن: الانفصال عمَّا سوى الله تعالى؛ وهو الخطوة الأولى، كما أن الصلاة عبارة عن: الاتِّصال بالله تعالى؛ وهو الخطوة الثانية؛ ولذا قيل: خطوتان، وقد وصلت: أي إذا حصل الإدبار والإقبال؛ حصل الوصول والوصال.

وإحسان الوضوء عبارة عن: تكميل مرتبة الفناء، والتبتل، والانقطاع، فإذا كان السالك محسناً في وضوئه؛ خرج أصل خطاياه كلها؛ لأن فروع المعاصي تابعة لذلك، وإنه أصل فيمتلىء الوجود إذاً من الحسنات.

(1) صحيح مسلم، باب خروج الخطايا من باب الوضوء، حديث رقم (245) [1/ 216].

وأسمى الحسنات كلمة التوحيد، وإلى هذا الخلق، والاعتلاء الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

وبقوله ﷺ: «**يقول الله على لسان عبده؛ سمعَ الله لمنْ حَمِدَهُ**»[1].

وقوله ﷺ: «**ومَن مسَّ الحصى يوم الجمعة؛ فقد لغا**»[2]؛ لأنه مسٌّ للعناصر، والأركان عند مقام الجمعية والفناء؛ فهو لغو، وصاحبه أهل لغو لا كمال لجده في مرتبة فنائه، ومَن توضأ؛ فليستنثر أي: على نية إخراج الخيالات عن الدماغ، ومَن استجمم؛ فيؤثر؛ لأنه لا بد من الطهارة في مرتبة الأفعال، ومن النقاوة في مرتبة الصفات، ومن النظافة في مرتبة الذات.

فإذا حصلت هذه الطهارات الثلاث؛ حصل مسَّ مصحف الوجود، وأسراره، وحقائقه كما قال تعالى: لا يمسه إلا المطهرون، وإنما قال ﷺ: «**حتى تخرج من تحت أظفاره**»[3]؛ لأن تابع الحي حي، والمتصل بالمذنب مذنب، وأول ما اتصل به الروح؛ هو الدماغ، وأول ما ينقطع عنه ذلك؛ هو الظفر، فكما سرى من الدماغ إلى الأظفار ينجذب من الأظفار إلى الدماغ واللسان، فلا يبقى إلا الجسد الخالي صورة المملوء بالروح معنى، وما يعقلها إلا العالمون، وإلى الله المصير لكل قليل وكثير.

وفي بعض الأحاديث: «**لا يحدث فيهما نفسه**»[4].

يعني: أن الركعتين اللتين لا يحدث المصلِّي فيهما نفسه باختياره، وصرف توجهه بسبب لمغفرة ذنوبه بخلاف، فإذا كان الحديث وارد باختياره؛ فإنه معذور فيه، فقد لا يقطع عليه الصلاة ولا ينقص ثوابها إن لم يكن متمايناً فيها، فإن كان متمايناً فيها؛ فلا بد من نفيه؛ لأنه امتحان، وإن كان بخلقه تعالى، وهو من قبيل؛ لأن الصلاة لا تسع غير المناجاة؛ وهي ما كان بين العبد وبين ربه.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب 45 إقامة الصف من تمام الصلاة، حديث رقم (689) [1/ 253] ورواه مسلم في صحيحه، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (404) [1/ 253] ورواه مسلم في صحيحه، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (404) [1/ 304] ورواه غيرهما.

(2) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه، باب 8 فضل من استمع وأنصت في الخطبة، حديث رقم (857) [2/ 588] ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجمعة، حديث رقم (1040) [1/ 417] ورواه غيرهما.

(3) صحيح مسلم، باب خروج الخطايا من باب الوضوء، حديث رقم (245) [1/ 216].

(4) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، باب 23 الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، حديث رقم (158) [1/ 71] وفي باب المضمضمة، حديث رقم (162) [1/ 72] ورواه غيرهما.

فإذا توسَّط في البين ما كان بين العبد وبين غير ربه؛ خرج العبد عن مقام المناجاة، ودخل في الحجاب، والله تعالى في قبلة العبد، فإذا احتجب العبد عما قبلته؛ كان كأنه قد تحوَّل عن القبلة لما أن ظاهر وجهه إلى القبلة، وباطن وجهه إلى غير القبلة؛ ولذا شُرط الإحسان في الصلاة؛ وهو مرتبة المكاشفة وأدناها المكاشفة الخيالية؛ فهو سبب القبول والشفيع، وبه يزول الشرك، ويرتفع البين، ويظهر العين.

* * *

15 ـ **في أحاديث البخاري**: «**مَن حجَّ**»[1]:

أي: قصده قصداً صحيحاً معنوياً لا انحراف فيه أصلاً لا إلى الأجسام، ولا إلى الأرواح، ولا إلى ما فوقهما من المراتب العلمية الشهادية، والطبقات الشؤونية الغيبية.

ولذا قال: «**فلم يرفث**»[1] أي: بالميل إلى الأمور الطبيعية، وقال ﷺ: «**ولم يفسق**» أي: بالنزوع إلى الأمور النفسانية؛ فانقطعت علاقته عن طبيعته الأصلية، وشهواتها، وعن مزاجه الفرعي وهواه، فلم يبقَ له إلا أن يتوسل إلى وصول رب بيت الوجود من قلبه وروحه وستره.

قال ﷺ: «**رجع كيوم ولدته أمه**»[1] أي: ولدته أم هويته التي هي فيض نور الله تعالى؛ لأنه لم يكن وقتئذٍ تعلَّق إلى شيء مما سواه تعالى، فكان هو والربّ.

فهذه الأم هي آدم الأول الحقيقي الذي خلق الله حواء الطبيعة منه، وما ينتشىء من ازدواجهما من الأشياء، أو ولدته أم طبيعته وعناصره؛ وهي آدم الثاني.

إذاً كان الإنسان وقتئذٍ محمول الملائكة مقرَّباً عند الله تعالى، منتشأ كنشأة الجنان حتى إذا خُلقت حواء من ضلعه الأيسر، ووضع في موضع الضلع الشهوة؛ كان منه الميول بحسب المراتب إلى أن اصطفاه الله تعالى.

وهذا الاصطفاء أكمل من المرتبة الأولى؛ ولذا قال في الحديث: (**رجع**)، فمَن رجع إلى الله، فليرجع بكليته، وليطف بالبيت كما طاف آدم يعني: إن الحج الأكبر المعنوي مخصوص بآدم؛ ولذا أُضيف إليه طواف البيت أصالة، وإلى غيره تبعية؛ بل هو الباني الأول للبيت إشارة بطوافه الدوري إلى التوجه الإطلاقي الذي لم

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، ذكر مغفرة اللَّه جل وعلا. . ، حديث رقم (3694) [9/ 7] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب فضل الحج والعمرة، حديث رقم (10164) [5/ 261] ورواه غيرهما.

يذقه إلا الأكمل، والله القاصد وهو المقصود، وإليه يرجع أمر كل موجود.

❊ ❊ ❊

16 ـ **في صحيح البخاري: «من حجَّ لله، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»**[1].

قوله: **(لله)**: إشارة إلى إخلاص النية؛ لأنها أساس الأعمال.

وقوله: **ولم يرفث)**: إشارة إلى إصلاح اللسان الذي هو ترجمان الجنان.

وقوله: **(ولم يفسق)**: إشارة إلى إصلاح الأركان، ففي إصلاح النية إصلاح الدين من حيث الحقيقة والمعرفة، وفي إصلاح اللسان والأركان إصلاحه من حيث الشريعة والطريقة.

فإذا كان الحج على وصف الإخلاص والإصلاح؛ رجع الحاج إلى بيته الصوري الذي هو مقر جسمانية، وإلى بيته المعنوي القلبي الذي هو مقر روحانية؛ بل مسكن الحق الذي أُمر بتفريغه لسكون سرِّه.

وحكمته كيوم ولدته أمه، وهي أم طبيعته المزدوجة بروحانيته، فالروح إذاً تعلَّق بالجسد؛ تعلَّق الزوج بالزوجة، حصل منه ولد القلب وقواه، كما حصل من ازدواجهما طفل الجسد وقواه أي: الطفل الجسداني الحامل للقوى الحسية الحيوانية الطبيعية، وذلك اليوم مطلقاً يوم فارغ عن المنازع الذي يحصل منه البعد، والردى؛ فظهر أن مَن حجَّ لله، إلى الله، بالله، في الله؛ خرج عن ذنوبه المبعدة له عن ربه، وأعظمها ذنب الوجود؛ وهو إثبات الوجود لنفسه، ورؤية الوجودين؛ فإنه مُنافٍ للتوحيد الحقيقي.

وفيه إشارة أخرى وهي: أن اليوم الذي ولدته أمه هو الآن الغير المنقسم الذي تجلَّى الله فيه للأشياء بالأسماء خصوصاً باسمه النور في النكاح، الحاصل بين عالم المعاني والأرواح، وذلك اليوم يوم ملكي روحاني لم يهب فيه ريح بشرية جسدانية، ولم يظهر فيه سلطنة اسم جلال، وقهر إلا بالقوة، فمَن حصل له الوصول إلى ذلك اليوم بالرجوع إلى المقام الروحاني بعد العبور من عالم الحس والبشرية، الذي هو

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في باب فضل الحج المبرور، حديث رقم (1449) [2/ 553] ورواه ابن الجعد في المسند عن أبي هريرة، بقية أخبار منصور، حديث رقم (896) [1/ 141] ورواه غيرهما.

عالم الغزو والجهاد، فقد خرج عن ذنبه، الواقع في عالم الأكوان الحسِّ؛ الذي يُوجب الشرك الحقيقي بإثبات الوجودين في الصورة.

ثم إذا ترقَّى من ذلك المشهد إلى عرفات الغرب، والوصال بالسير الواجبي، والسلوك الحقيقي، والمعرفة التامة التي ليس فيها إلحاد في الأسماء، والصفات والأفعال؛ فقد خرج عن ذنبه الواقع في عالم الأرواح، الأرواح الذي هو عالم الكون الموجب المعنوي للشرك الحقيقي بإثبات الوجودين في المعنى، وبذلك يتمُّ حجه ووقفته في: مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويكون مظهراً لسرِّ قوله تعالى: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ فما تقدَّم من ذنبه هو الوجود المضاف إلى روحانيته الموجب للاثنينية في عالم العقل، وما تأخَّر من ذنبه هو الوجود المضاف إلى جسدانية الموجب للاثنينية في عالم الحس.

فإذا كان هذا الذنب مطلقاً مغفوراً مستوراً بنور الروح؛ بل بنور القدس والوحدة؛ خرج العبد عن البشرية، وفنى عن الجسدانية، وبقي مع الرب الباقي؛ بحيث لا بقاء هناك، ولا معية في الحقيقة، وإنما هو وجود واحد، ونور مطلق تتلألأ أضواؤه للعوالم، فانظر هل وقع لك حج مثل هذا الحج إلى هذا اليوم؟ فإن لم يقع؛ فانظر إلى كلام القوم، واعمل بالصوم، وترك النوم.

***

17 ـ **في الحديث: «مَن حلف فقال في حلفه: باللّات والعزّى، فليقل: لا إله إلا الله»**[1]:

أشار باللّات إلى الشيطان؛ لأنه كان صنماً لأهل الطائف؛ والطائف هو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: 201]، وأشار بالعزّى إلى النفس؛ لأنها لكمال عزّتها تدَّعي الأُلوهية والعزة، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] أي: وللروح العزة؛ لأنه مظهر كمالات العزيز الحكيم، ولرسوله الذي هو القلب لا مرسل إلى القوى؛ كالسلطان إلى الجند.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت، حديث رقم (6274) [6/ 2450] وفي باب أفرأيتم اللات والعزى، حديث رقم (4579) [4/ 1841] ورواه ابن خزيمة في الصحيح، باب ذكر الدليل على أن الكلام السيء والفحش. . ، حديث رقم (45) [1/ 28] ورواه غيرهما.

ولا بد للخليفة من العزّة الذاتية والإضافية، ثم إن الحلف؛ إنما هو عمل اللسان، وهو مرتَّب على عمل القلب؛ إنما هو بالشرك كما أن فساد اللسان؛ إنما هو بقول الشرك، والحلف بالشيطان، والنفس عبارة عن تعظيمهما، ومن المقرر أن تعظيمهما كفر، والكفر لا يزول إلا بالتوحيد.

فمَن تعلَّق بشيء مما سوى الله؛ فقد أشرك بالله، وحط درجته عن درجة القربة والوحدة، فعليه بالتوحيد القلبي؛ لأن القلب هو الذي يشاهد ربه بالوحدانية والربوبية.

وأشار بالأُلوهية إلى أن الشرك؛ إنما هو خطأ النفس بالميل إلى الصفات المختلفة، فلو مالت إلى الصفة الحقيقية لله تعالى، وهو صفة الأُلوهية التي انفرد بها عن الخلق؛ كانت مستقيمة في طريق الحق لا منحرفة، فكان خطؤها في صفة الذَّاتية خطأ منها في الذَّات الأحدية، فسرى الشرك من الصفات إلى الذَّات، ومن ثم لم يكن الشيطان من أهل الذَّات قطعاً، وكذا النفس إذ لو كان من أهله كان مؤمناً، ومَن كان مؤمناً في مرتبة الذات؛ خلص من الإلحاد في مرتبة الصفات، وإنما عُدَّ الحلف باللاّت والعزّى شركاً منافياً للتوحيد.

وقد أقسم الله تعالى بغير ذاته وصفاته في مواضع كثيرة من القرآن؛ مثل: **والشمس، والضحى، والتين والزيتون، والعصر** ونحو ذلك؛ لأن ذلك قسم من المتعين بتعيناته الواقعة في طريق الهدى.

وأمَّا القَسم بما في طريق الضلال فلم يرد؛ لأن القَسم من قبيل القول، والقول من قبيل العمل، وفرق بين عمل الشيء، ومعرفته على ما هو عليه، ومن ثم قالوا: إن أهل الحق لا يفرقون بين شيء وشيء أي: في العلم بخلاف العمل، فإن الحكمة تقتضي الوقوف عند الشرائع الظاهرة لا عند الحقائق الباطنة، ثم إن كلمة التوحيد طُوِيَ عنها النقطة؛ لأن النقطة للتمييز: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 18].

ودلَّت الآيات التكوينية والتنزيلية على وحدة الوجود الواجبي والإمكاني.

أمَّا الوجود الواجبي: فما دلَّ عليه كلمة لا إله إلا الله، وإمَّا الوجود الإمكاني: فما دلَّ عليه كلمة محمد رسول الله، فإذا لم يكن في البين ما يُوهم الشركة؛ لم يحتج إلى التمييز؛ فإن التمييز إنما هو بين الشيئين، فشيء واحد لا يمكن تمييزه لبساطته، انصرف هذا عند المحققين.

وأمَّا عند غيرهم فلا بد من النقاط، وتعدد الحروف، إمَّا حقيقةً أو ضمناً، فعالم الإمكان مملوء حروفه من النقاط؛ وهي الحروف الإضافية بخلاف الحروف الحقيقية، ولا يعرفها إلا الكُمَّل الغائصون في بحر الذات الأحدية.

فقولنا: لا إله إلا الله، كما أنه يفيد معنى قولنا: لا معبود بحق إلا الله، فكذا قولنا: محمد رسول الله يفيد معنى قولنا: لا رسول الله إلا محمد؛ فهذا الانحصار أهو حقيقي أم إضافي؟ مفوِّض علمه إلى أهله، فعليك بالتوحيد؛ فإن به يحصل إسقاط الإضافات والقيود.

وأمر بالقول في قوله: **(فليقل: لا إله إلا الله)**؛ لأن الحلف المذكور كان رشحة من رشحات الباطن خرجت من الباطن إلى الظاهر، فكان من حق القول مقابلته بالقول؛ ليدل الإسلام على الإيمان، كما دلَّ عدم الإيمان على عدم الإسلام، فاعرف جداً، وفيه ترغيب في الحضور مع الله ولو في حال الفسق، فإنه يجر إلى الصلاح إن شاء الله تعالى.

وكان بعض العلماء يشرب الخمر، ويتوب بعد كل قدح، وكان يتعجب من حضوره بعض أهل الله حتى آل أمره إلى التوبة الحقيقية، والنجاة الكلية، فكان من المقربين.

ومن هذا القبيل كان فضيل بن عياض؛ فإنه كان كلما قطع الطريق في أوائل حاله، يقيد مقدار المال في دفتر، واسم صاحبه وبلده حتى وفقه الله للتوبة، وخرج عن عهدة الحقوق كلها، فانظر إلى الربِّ الكريم بماذا يعامل العبد من القرب، وهو في بعده بُعد؟ ومنه الرشاد لجميع العباد.

واعلم أن مرتبة الأُلوهية المفهومة من لا إله إلا الله، ومرتبة العبودية الملحوظة من محمد رسول الله مرتبة واحدة في الحقيقة، وإنما تميَّزت إحداهما عن الأخرى بالتعينات والتنزلات.

ألا ترى أن هاء الجلالة هاء هوية غيبية بالنسبة إلى الله تعالى، فإذا مدَّ طرفه ظهر شكل الميم المحمَّدي الذي هو شكل مرتبة الشهادة؛ ولذا قارن الهاء الجلالي بالميم الجمالي، إشارة إلى الارتباط بينهما، وأنهما لا تمايز بينهما إلا المدّ المذكور وهو البسط الشهادي.

فمرتبة المحمَّدية: مرتبة الرسالة الشهادية.

ومرتبة الأحمدية: مرتبة النبوية الغيبية الإضافية، وفوقها مرتبة الأحدية

الإطلاقية بطي الميم الإمكاني من البين، فمحمد أحمد، وأحمد أحد، فقد تنزَّل الأحد إلى مرتبة العقل الأول، فكان أحمد، وإلى مرتبة الشهادة، فكان محمداً.

فإذاً لا طريق إلى الله تعالى إلا محمداً ﷺ بجميع تعيناته، وهو العلم في صورة العين، والجمع في صورة الفرق والغيب، والغيب في صورة الشهادة، ومنها يعلم أن كونه ﷺ طريقاً إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلى المحجوب عن الجمع في الفرق، وأمَّا المكاشف الواجد فهو في عين الحقيقة.

ألا ترى أن داخل الحرم الإلهي لا يحتاج إلى آلة يعرف بها القبلة؛ لحضور القبلة عنده، فمعنى أن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق أن كل نفس من أنفاس السالك طريق موصل إلى الله.

وأمَّا الواصل فكل نفس منه؛ إنما هو الله فهو في كل نفس في عين الهُويَّة ولمَّا كان مقام الإطلاق الأحدي الذاتي الذي تفرَّد به السابقون لا ينال إليه أصحاب التقييد إلا بإثبات طرق شتى من الأسماء الإلهية الجزئية، تشعبت الطرق الحقة السالكة بالأسماء الاثني عشر، وذلك لم يكن في الصدر الأول بحسب المعنى.

ثم لمَّا كثر القاصرون عن إدراك الحقائق، وتأخَّروا عن الرياضات والمجاهدات التي عليها الصحابة والتابعون؛ توسلوا إلى البواطن، والحقائق بالأسماء، والظواهر؛ فكان الطريق الجلوتي بالجيم خاتمة الطرق على سرّه ﷺ:

«**نحن الآخرون السابقون**»؛ فكان حال أهلها حال الصدر الأول في الاتِّباع النبوي في الرياضة، والمجاهدة من غير شغل كثير بالأسماء؛ لأن هذا الشغل يطوِّل الطريق إلى الله، ويبعد المطلوب، فيحتاج الطالب إلى أزمنة متطاولة إلى أن يخرج عن دوائر الأكوان؛ لأن الأسماء الإلهية ناظرة إلى الحقائق الكونية، ولا نهاية لفروع هذه الحقائق، وربما لا يجد إلى مَن يشير إليه بالترقِّي في المراتب الأسمائية، فيبقى في البرزخ واقفاً لا إلى وراء ولا إلى قُدَّام؛ بل ربما يستحلي مقاماً من المقامات الأسمائية، فيظن أنه لا غاية وراءه؛ فينقطع عليه الطريق.

ومن ثم قالوا: إن الآلام في هذه الطريقة أولى من اللذات، ومَن تقيَّد باللَّذَّة قبل الوصول إلى المطلوب؛ وقع في الألم في آخر الأمر، فليكن أول فتوحاتك كشف سر الحياة السارية في جميع العوالم، ثم الوصول، ثم الوصال في مرتبة أو أدنى الأحدية مع جميع مرتبة قاب قوسين الواحية، وقد رأينا من معاصرينا مَن يدَّعي

الأسرار في مراتبها، وقد استمر من أول عمره إلى آخره على حالة واحدة إلى أن مات على تلك الحال، والحكمة الإلهية لا تُقتضى في أربعين سنة إلا الاستكمال من جميع الوجوه.

إن كان السالك مستعداً؛ فيرجع بعد تلك المدة التي هي النهاية إلى البداية، وإلا فلم يصلح حال العمر الكثير، إذ مَن لم يهده الله ما له من هادٍ، وربما تقع الفتنة بين الخلوتية بالخاء المعجمة، وبين الجلوتية بالجيم من عدم تسليم أحديهما الأخرى، وأمَّا نحن فنقول: إن الجلوة بالجيم لا تحصل إلا بعد الخلوة؛ فهي نهاية الخلوة.

فمَن وصل من الخلوتية بالخاء المعجمة إلى نهاية المراتب؛ فهو خلوتي بالاسم، جلوتي بالمعنى، ومَن لم يصل من الجلوتي بالجيم إلى غاية الغايات؛ فهو جلوتي بالاسم، خلوتي بالمعنى؛ إذ لم يظهر بعد بالأوصاف الإلهية في مرتبة البقاء فكيف يكون جلوتياً؟ فله شرف الاسم المجرد فقط، فليلازم الباب إلى أن يفتح الله عليه ما أراد. ويكون جامعاً بين الخلوة والجلوة، حافظاً لحقوق الأسماء الليلية، والتوحيد النهاري؛ فذلك تجلٍّ واستتار؛ بل تجلٍّ في عين الاستتار أبداً.

* * *

18 ـ **في صحيح البخاري: «مَن رآني؛ فقد رأى الحق»**[1].

معناه الظاهري: مَن رآني في المنام؛ فقد رأى الرؤيا الحقة الصادقة.

وقد جاء في بعض الأحاديث: «**فإن الشيطان لا يتمثَّل بي**»[2]؛ وذلك لأن الشيطان مظهر الاسم المضل بالفعل، وهو ﷺ مظهر الاسم الهادي بالفعل، فلا يظهر أحدهما في صورة الآخر صوناً للحقائق، وضبطاً للمراتب.

وأمَّا الله سبحانه وتعالى فهو وإن لم يكن له مثل، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وذلك في مرتبة ذاته الأحدية؛ لكن له

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب من رأى النبي في المنام، حديث رقم (6596) [6/ 2568] ورواه مسلم في صحيحه، باب قول النبي ﷺ من رآني في المنام. . ، حديث رقم (2267) [4/ 1776] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب قول النبي ﷺ من رآني في المنام فقد رآني، حديث رقم (2266) [4/ 1775] ورواه ابن ماجة، باب رؤية النبي ﷺ في المنام، حديث رقم (3901) [2/ 1284] ورواه غيرهما.

مظاهر من حيث أسمائه المختلفة، وصفاته المتفاوتة، ومن ذلك الاسم المضل الذي ظهر الشيطان بحقيقته فدلَّ على أن الشيطان ظهر في صورة الحق من حيث اسمه المضلّ، كما أن النبي ﷺ ظهر في صورة الحق من حيث اسمه الهادي.

فللّه تعالى أن يتجلَّى بكل صورة من الصور الأسمائية من غير مزاحمة؛ لأن له الإحاطة التامة بالكل بالفعل.

وأمَّا الشيطان: فله الإحاطة بجزئيات الاسم المضلّ، بالفعل وبالاسم الهادي وجزئياته بالقوة.

وأمَّا النبي ﷺ: فله الإحاطة بجزئيات الاسم الهادي بالفعل، وبجزئيات الاسم المضل بالقوة؛ لأن له الاسم الجامع؛ لكن فرق بين القوة والفعل.

ولذا يُقال: إن النفس لأمَّارة بالسوء: أي بالفعل في المظاهر الجلالية، وبالقوة في المظاهر الجمالية، وإلا لما كانت الحقيقة الإنسانية أجمع الحقائق الكونية والإلهية، وكما أن الشيطان لا يتمثَّل بصورة النبي ﷺ وإن مَن رآه بهيئته الأصلية، فقد رآه في الصورة الخيالية المتصلة بصورته الحقيقية، فافهم جداً.

فكذا لا يتمثَّل في صور المظاهر الجمالية من أكامل الإنسان لأنهم خلفاؤه ﷺ ونوابه، والخليفة لا يظهر إلا في صورة المستخلف، فمَن رأى واحداً منهم بحليته الذاتية؛ فقد رآه تحقيقاً، وإن كان لا يدري المرء أنه ظهر للرائي؛ وذلك لأن ظهوره للرائي إنما هو بالواسطة أي: بالصورة الخيالية التي تحكم على الرائي في المنام أو الانسلاخ؛ لأنها هي الصورة البرزخية، وقلَّ مَن تفطَّن لهذا المقام من العارفين.

وأمَّا المعنى الحقيقي للحديث فهو: إن مَن رآه ﷺ في المنام، أو في اليقظة؛ فقد رأى الحق سبحانه وتعالى؛ لأن الله تعالى خلق آدم على صورته؛ وهو ﷺ أكمل أفراد آدم، فقد خلقه على صورته الحقيقية الأسمائية والصفاتية، فمَن رآه، وهو مظهر تام الحقائق فيه جميع الأسماء والصفات؛ فقد رأى الحقيقة الإلهية متجلية بجميع الحقائق.

وكذا مَن رأى خليفة من خلفائه ونوابه؛ فقد رآه؛ لأنه صورة من صوره الكلية؛ وبواسطة رؤيته رأى الله تعالى، فالله تعالى مرئي أبداً في الصورة المحمَّدية الكلية الصورة الإنسانية؛ ولكن المحجوبين لا يرونه في عين رؤيتهم؛ لاحتجابهم بأنفسهم عنه، ولو كُوشفوا عن حقائقهم لرأوا أن حقائقهم عين الحقيقة المحمَّدية، ولو من وجه الجزئية، كما أن الحقيقة المحمَّدية عين الحقيقة الإلهية من وجه

الكلية؛ لأن لم يكن في الإمكان أبدع مما كان، فالله تعالى ظاهر لأُولي الأبصار، باطن عن أعين الأغيار، وليس في البين إلا حجاب الغفلة.

* * *

19 ـ **في حديث مسلم: «من سأل الناس أموالهم تكثُّراً؛ فإنما هي جمر؛ فليستقل منه، أو ليستكثر»**[1]:

اعلم أن سؤال الأموال عن الناس على أنحاء شتى كل منها حرام إذا كان على وجه التكثير لا للاحتياج في الحقيقة؛ لأن فيها إذلالاً للنفس، ورفعاً لجلباب الحياء، وشكاية من الله ذي النوال، وإظهار للحرص والطمع، وتحريضاً للناس على المنكر الذي هو السؤال بلا ضرورة، وحملاً للمعطي على الحرام؛ فإنه إذا كان بطريق الصدقة لا بطريق الهبة؛ كان إعانة على المعصية، فمن تلك الأنحاء والوجوه السؤال؛ كسؤال السائلين.

ومنها: التعريض لا التصريح؛ فإنه أيضاً حرام، ومن ذلك التفقر عند الأكابر والأغنياء؛ فإنه في حكم السؤال.

ومنها: دور الأبواب، والمُدّروِزون[2] ملعونون، كما يفعله كثير من الناس خصوصاً منهم مَن يدَّعي العلم أو الطريقة؛ فيدخل أبواب الأكابر، ورجال الدولة؛ وهو على هيئته جلباً لأموالهم؛ بل ربما يسأل عنهم ولو بطريق المزاح.

ومنها: الإقدام على فعل في محضر الناس، ووجوه القوم لا يفعله في الخلوات؛ كالتواجد ليظن الخلق أنه من أرباب الأحوال، فيحسنوا الظن به ويعطوه الأموال.

ومنها: الرياء بصفرة الوجه والصوم ونحو ذلك، يسأل الزكاة والصدقات بسبب اعتقاد الناس كونه من الصلحاء، أو كونه من الفقراء، وعلى هذا فقس سائر الوجوه المستشعة، والحقها به، وتجنب عن أصحابها، واعتصم بالله، وتوكَّل على الله، واجتهد حتى لا يراك الله حيث نهاك.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب كراهة المسألة للناس، حديث رقم (1041) [2/ 720] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب كراهية السؤال والترغيب في تركه، حديث رقم (7660) [4/ 196] ورواه غيرهما.

(2) يقال رجل فقير مدرور وبنودرز: الخياطون والحاكة.، وأولاد درزة: الغوغاء والدَّرز: نعيم الدنيا ويقال للدنيا: أم درز، والعرب تقول للدعي ابن دَرْزَةَ (لسان العرب).

ولقد كثر في زماننا هذا وجوه المنكرات بحيث لا تعد ولا تحصى، وربما تلاقي شخصاً ذا هيئة رفيعة وهو يفتخر بالانتساب إلى فلان وفلان، ويدَّعي محبته إليه، وهو غافل عن الله تعالى، وعن قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] أي: ما يجمعه الكفار، ومَن في حكمهم من الغافلين، فإن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وإن رزق آل محمد إنما كان كفافاً، وإن الفقر أرجح عند الله من الغنى؛ ولذا لم يكن السلف إلا على التعفف والورع والقناعة والتوكل ونحو ذلك.

وقالوا للدنيا: حبلك على غاربك.

فكانوا أغنياء؛ بل ملوكاً تحت الأطمار[1]؛ ولأن الغنى إنما هو بال، له فعليك به قبل يوم فقرك.

هذا إذا كان السؤال متعلِّقاً بالأموال.

وأمَّا إذا كان متعلقاً بالعلوم والأحوال؛ فليسكثر منه.

قد ورد في الخبر: «**فإن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**»[2].

وقيل: «**خذوا العلم من أفواه الرجال**»[3].

وفي حديث: «**واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**»[4].

فالحرص في هذا ليس كالحرص في طلب الأموال؛ لأن الأموال تبقى في هذا الموطن، وأمَّا العلوم النافعة، والأحوال الشريفة فتذهب معه، فهي خير وأبقى، وقلَّما يطلبها أهالي الزمان؛ بل جل قصودهم الخروج إلى السكك، والأسواق؛ لاختلاط الفسَّاق، وجلب أعراض الدنيا على الإطلاق، ففيه إسراف العمر الذي الخسارة فيه ليست كالخسارة في غيره، والنفس كالبضاعة تقلبها في الأوقات للطاعات لا للأوقات، فإنها لا تشبع، إلا بالتراب، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

* * *

(1) الطِّمْرُ: الثوب الخَلَق، الثوب البالي من غير الصوف والجمع أطمار (لسان العرب).

(2) رواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (2769) [2/ 152] ورواه الروياني في المسند، حديث رقم (33 ـ 2) [1/ 75] ورواه غيرهما.

(3) هذا القول لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) أورده إسماعيل حقي البروسوي في تفسير روح البيان، سورة الكهف، قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

20 ـ **في حديث مسلم: «مَن سأل عرَّافاً؛ لم يقبل له صلاة أربعين ليلة»**[1]:

هذا محمولٌ إمَّا على التغليظ والتخويف، وإمَّا على الإخبار عن دعم القبول في نفس الأمر؛ فتضرب على وجه المصلِّي كما تضرب سائر الصلوات الغير المقرنة بشروطها المشروعة، والعدد للتكثير فإن استمر على اعتقاده الباطل؛ لم تقبل له صلاة أبداً؛ لأن الله تعالى غني عن العالمين، وعن العالمين بغير الوجه المشروع، فإذا لم تقبل؛ لزم الإنابة، والرجوع، وقضاء الصلوات التي أُديت على تلك الحال.

واعلم أن أحداً، وإن كان أعرف في المعرفة، وأعرف من كل عارف، فقد ورد: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76][2]؛ فالعليم والعلّام المطلق؛ هو الله تعالى، فإن علمه من ذاته لا من خارج، وبسببٍ جلي أو خفي؛ كما هو علم الناس.

فالناس لا يُعرفون إلا بتعريف الله تعالى؛ فينحصر علومهم في مرتبة التعريف، فادِّعاء علم الغيب إن كان من مرتبة التعريف الإلهي؛ لم يضره، وإن كان ادِّعاءً مطلقاً كان كافراً؛ لأنه ادِّعاء المشاركة مع الله تعالى في صفته الخاصة به، فإذا كان هذا حاله في الكفر؛ كان حال مَن اعتقده كذلك، ومن هذا التقرير عُلم أن الإنسان محل التعريف الإلهي؛ ولذا مَن قال: إن نبي الله لا يعلم الغيب؛ فقد أخطأ فيما أصاب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26، 27].

فإذا سألت فاسأل نبيًّا ذا وحي إلهي، أو ولياً ذا كشف صحيح؛ فإنه رحماني دون الذي يقال له: عرَّاف؛ فإنه إمَّا نفساني، أو شيطاني، والنفس والشيطان كل منهما غافل عن الله تعالى، وقد ورد في الخبر: «**فإن مَن لا يعرف نفسه؛ لا يعرف ربه**»[3]، فكيف يعرف عنه؟

* * *

---

(1) لفظه: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكهانة، حديث رقم (2230) [4/ 1751] ورواه البيهقي في السنن الكبرى باب ما جاء في النهي عن الكهانة. . ، حديث رقم (16287) [8/ 138]، ورواه غيرهما.

(2) في سورة يوسف آية 76.

(3) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2532) [2/ 343].

21 ـ **في الأحاديث: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى»**[1].

وقوله ﷺ: «**يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»[2].

* * *

22 ـ وقوله ﷺ: «**يا علي هي** ـ أي فاطمة ـ **أحبُّ إليّ منك، وأنت أعزُّ عليّ منها**»[3].

كل من هذه الأحاديث الصحيحة يدلُّ على فضل علي كرّم الله وجهه.

أمَّا **الأول**: فلأن من اتصاليّة: أي أنت متصل بي اتصال هارون بموسى، ونحن من جنس واحد، وأصل واحد، ووصف واحد، وسر واحد، ولذا قيل له: سر الأنبياء والمرسلين؛ لأن نبينا ﷺ لمَّا كان سر جميع الأسماء الإلهية، كان المتصل به اتصالاً شديداً، كذلك إلا أنه لمَّا لم يكن بعده نبي لا مشرع ولا متاح، كان المراد بالاتصال: اتصال الولاية، والنبوة التحقيقية، لا اتصال النبوة التشريعية، كاتصال هارون بموسى عليهما السلام، وعلى هذا سائر الأولياء أجمعين.

فادعاء نبوة بعضهم خرق الإجماع؛ بل ردٌّ للنص، وكفر بالتنزيل، عصمنا الله وإياكم من سوء الفهم، وقلة العقل، والكشف السفلي.

ثم إن معنى اتصال الولاية: ظهور نور الحقيقة في مرآة علي رضي الله عنه أكثر من ظهوره في غيره، إذ لا يخفى أن كل واحد من الأولياء؛ بل من الكائنات محتمل نوره ﷺ؛ «لكن أين السهى من الزبرقان؛ وهو من يوح».

وفيه إشارة بأن كل مَن هو أقوى اتصالاً به ﷺ في ولايته؛ كان أشد تأييداً لدينه؛ لكمال الراجح، ودعائه البالغ، وندائه القاصي، وظهر من هذا التقرير أن قوله

---

(1) لفظه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي». رواه البخاري في صحيحه، باب غزوة تبوك. . ، حديث رقم (4154) [4/ 1602] ورواه مسلم في صحيحه، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، حديث رقم (2404) [4/ 1870] ورواه غيرهما.

(2) أورده الألوسي في التفسير، سورة الأحزاب [22/ 25] والبروسوي في روح البيان، سورة البلد، آية 3 [17/ 355].

(3) ونصه كاملاً: عن ابن أبي نجيح عن أبيه عن رجل قال سمعت علياً على المنبر بالكوفة يقول خطبت إلى رسول اللَّه ﷺ فاطمة فزوجمي فقلت يا رسول اللَّه أنا أحب إليك أم هي فقال: «هي أحب إلي منك وأنت أعز علي منها». رواه النسائي في السنن الكبرى، ذكر قول النبي ﷺ لعلي أنت أعز علي من فاطمة وفاطمة أحب إلي منك.

ﷺ: «**فاطمة بضعة مني**»[1]؛ إنما أراد به كونها قطعة من بشريته وجسمانيته، وإن كان مشعراً بفضلها في الجملة إذ لا كلام في كمالها في نفسها على ما دلَّ عليه بعض الأحاديث الصحيحة.

وأمَّا **الحديث الثاني**: فمعناه أنا أبو هذه الأمة كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، فإذا انتقلت أنا من هذا الموطن؛ فأنت أبو هذه الأمة بطريق الخلافة، والإرث الحقيقي، إذ لا يجتمع صديقان وقطبان في زمان واحد؛ لأن الله تعالى فرد في اسمه الأعظم.

وأشار بتخصيص أبوة علي بالذكر مع أنه الخلفاء الحقيقيين المتسلسلة كلهم آباء الأمة، كما أن أزواجهم أمهاتهم إلى أن أبويته أبوة كاملة؛ ولذا لم يكن طريق من الطرق الحقة إلا وقد كانت مغربة ومنتهية إليه، فهو رضي الله عنه مصدر جميع الأسرار، ومنحة جملة الأطوار، ومطلع، عموم الأنوار، وأول طالع يداً بالإشراق من مطلع الولاية، وأول لامع أخذ بالإضاءة من شرق الهداية، وكان له نهاية إضافية هو الختم المكتوم، ونهاية حقيقية الختم المعلوم، والكل نور على نور، وسرٌّ مقسوم.

أمَّا **الحديث الثالث**: فمعناه: إن فاطمة رضي الله عنها، وإن كانت أحب إليه ﷺ من علي كرّم الله وجهه؛ لكن حبه لها لا يستلزم عزَّتها في نفسها؛ لأن ذلك يرجع في الحقيقة إلى البشرية والطين، وإن كان لها كمال ظاهر في الدين، وأمَّا علي فدلَّ عزته على وحدته على قطبيته المثلى؛ لأن العزيز هو ما قلَّ وجوده؛ فهو الواحد كالشمس، وفيه رمزاً إلى أن كمال المرأة؛ إنما هو من حيث الصديقية، وهي في نفسها لا تقتضي الخلافة المستلزمة للظهور.

وإن كمال الرجل إنما هو من حيث الخلافة، ومن هاهنا لم تظهر امرأة بالنبوة، ولو كانت مريم عليها السلام، كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**لن يفلح قوم تملكهم امرأة**»[2].

---

(1) رواه البخاري في الصحح في أبواب عدة منها: باب مناقب قرابة رسول اللَّه ﷺ. . ، حديث رقم (3510) [3/ 1361] ورواه مسلم في صحيحه، باب فضائل فاطمة. . ، حديث رقم (2449) [4/ 1903] ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأدب، حديث رقم (7790) [4/ 324] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الأخبار عن نفي الفلاح عن أقوام. . ، حديث رقم (4516) [10/ 375] ورواه غيرهما.

ومن عظمة الإمام علي رمز له بأن جعله باب مدينة العلم، وإضافة إلى المعنى، وجعله متصلاً به اتصال الباب بالبيت؛ فهو معه كحلقة مفرغة فاعرف جداً.

* * *

23 ـ **في الحديث الصحيح**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوّال؛ كان كصيام الدهر**»[1].

الصيام: الإمساك، ومطلق الإمساك يشمل الإمساك الصوري؛ وهو إمساك الأعضاء والجوارح، وكل منها عمَّا لا ينبغي له، والإمساك المعنوي؛ وهو إمساك القوى الباطنة كل منها أيضاً عمَّا لا يليق له، ولا شك إن مَن قدر على هذا الإمساك؛ كان له مرتبة الصمدية، فله الإفطار عند الله تعالى بلقاء الله تعالى، ولم يقل: شهر رمضان مع أنه هو المراد مبالغة في الإمساك؛ لأن ما كان الله تعالى ينبغي أن يكون بجميع شروطه وقيوده حتى يقع في محل القبول عند الله تعالى.

وفي قوله: **(ثم)**: إشارة إلى تفاوت ما بين صيام رمضان، وست شوّال؛ لأن الفرض: إشارة إلى الوجود الحقيقي الوجوبي القدمي، والنفل: إشارة إلى الوجود الخلقي الإمكاني الحدودي، وتخصيص شوّال إشارة إلى ارتفاعه عن شهور السنة بمزيد فضل يختص به؛ وهو التجلِّي الذاتي الذي وقع لنبينا ﷺ ليلة القدر، فاستمر إلى ست من ذلك الشهر.

فكان شهر رمضان الذي هو ثلاثون يوماً كل يوم منه ألف سنة عند الله تعالى بمنزلة ثلاثمائة ألف سنة، وست شوّال بمنزلة ستين ألف سنة، فالمجموع ثلاثمائة، وستين ألف سنة؛ وهي من عمر الدنيا من أولها إلى آخرها، وعمر آدم منها جمعه من جمع الآخرة؛ وهي سبعة آلاف سنة، فكان الست منها إشارة إلى عمر الأمم المتقدمة، وجُعل تابعاً لعمر هذه الأمة المرحومة؛ لقوله ﷺ:

«**نحن الآخرون السابقون**»[2] فهم متأخرون صورة، متقدمون معنى؛ لتقدمهم

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال..، حديث رقم (1164) [2/ 822] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب في فضل صوم ستة أيام من شوال، حديث رقم (8214) [4/ 293] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب البول في الماء الدائم، حديث رقم (236) [1/ 94] ورواه مسلم في صحيحه، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، حديث رقم (855) [2/ 586] ورواه غيرهما.

في الأرواح، وفي دخول الجنة أيضاً؛ ليتطابق الأبد بالأزل.

وأمَّا الأمم الماضية فهم متقدمون صورة وشبحاً، متأخرون معنًى وروحاً؛ لتأخرهم في الأرواح، وفي دخول الجنة أيضاً؛ ليتوافق الأبد بالأزل أيضاً، فمدة هذه الأمة جامعة لمدد الأمم الخالية، ومَن قبلهم إلى أول الزمان؛ وهو زمان الكون والحدوث، فكان من عناية الله تعالى بهذه الأمة أن جعلهم أمة وسطاً، فكان من آثار فضلهم أن جعل الله تعالى صوم ستة وثلاثين يوماً بمنزلة صوم الدهر؛ وهو الزمان المطلق الساري في ثلاثمائة وستين ألف؛ فكانوا كأنهم صاموا من أول الدهر إلى آخره، وإن لم يبلغ أعمارهم تلك المدة؛ لأن الفضل إنما هو بالحكم لا بالعمر، فهذا سر التضعيف في الحديث.

ومَن لم ينتبه له؛ جعل الدهر بمعنى السنة، وفيه أيضاً قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160] يستدعي أن يكون صوم كل يوم: أي يوم كان مجزياً بالحسنات العشر فلا يبقى لتخصيص رمضان فائدة، ثم إن فضل الزمان ليس بذاتي؛ بل إنما هو لِمَا وقع فيه من التجلِّي الذاتي الساري سره إلى ما قبله وما بعده؛ لأنه كما أن للتجلِّي الذاتي أحديته، فكذا للدهر؛ لأنه في الحقيقة عبارة عن الآن الغير المنقسم.

* * *

24 ـ **في مسلم**: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ**»[1].

أي: شهر رمضان لما ورد في الأثر: «**لا تقولوا جاء رمضان؛ فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى**»[2]؛ والمراد بصيامه: الإمساك فيه بشروطه الظاهرة والباطنة حتى يكون صوماً كما يقتضيه الشريعة، والطريقة، فإن الأجر الموعود الآتي لا يترتَّب إلا على ذلك.

قال ﷺ: «**ثم أتبعه ستاً من شوّال**»[3]؛ في ثم: إشارة إلى فضل الاتِّباع

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، حديث رقم (760) [1/ 523] ورواه ابن ماجة، في السنن، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، حديث رقم (1640) [1/ 526] ورواه غيرهما.

(2) أورده الصنعاني في سبل السلام، كتاب الصيام [2/ 150] وأورده ابن قدامة في المغني، كتاب الصيام. . ، [3/ 3].

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

المذكور، ووجه العدد: إن التجلِّي الذاتي الذي وقع لنبينا ﷺ ليلة القدر استمر إلى الست من شوّال؛ فكانت الست في حكم شهر رمضان، فإن ليلة القدر في الحقيقة، ويوم العيد عبارة عن: الزمان الذي يتشرَّف فيها العبد بألطاف الله الخفية.

فكل ليلة وقع فيها التجلِّي الذاتي لباطن العبد فهي ليلة القدر، ثم الأفضل عند أهل الحقيقة وصل الإمساك بيوم الإفطار الذي هو يوم العيد، كما يقتضيه أيضاً، ثم إذا حُملت على التراخي وتنكير ست فاعرف؛ ففيه دليل لكل مَن ينتحي الاستدلال.

كان المذكور من الصيام والاتِّباع كما في قوله ﷺ: «**كصيام الدهر**»[1] أي: السنة أو العمر، فإن الدهر هو الله تعالى، وصيامه إشارة إلى صمدانيته التي لا تقتضيه الأكل والشرب ونحوهما؛ يعني: كان ذلك اتصافاً بصفة الله تعالى، وهو التنزُّه في مدة العمر عن الأمور الطبيعية البشرية؛ ولذلك أورد الست على التأنيث؛ إشارة إلى الليالي، فإن الست مع ثلاثين.

وكذلك الست معها تبلغ إلى الاثنين وسبعين؛ وهي مدة العمر لهذه الأمة غالباً، وعندها يُغلق باب التوبة الذي بين مصراعيه سبعون سنة، هذا من خواص شهر رمضان.

وأمَّا صوم غيره فليس بهذه المثابة؛ بل كل يوم عشرة على مُقتضى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160].

فالحديث المذكور يُخصِّص هذه الآية، ففرَّق بين عموم الحسنة وخصوصها، وربما يكون الحسنة الواحدة من واحد من المقرَّبين تملأ ما بين السماء والأرض بخاصتها التي هي الإخلاص، فإن الإخلاص سرٌّ من أسرار الله أيضاً لا يودعه الله إلا في قلب مَن يشاء من عباده.

ولا شك أن السر أوسع من الروح، أوسع من الجسد، وذلك إن الجسد من عالم الملك، والروح من عالم الملكوت.

كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يٓس: 83] أي: روحه الذي يلي الحق؛ ولذا يقبضه الحق بيده.

وأمَّا السرُّ فمن عالم الجبروت، وسرُّ السرِّ من عالم اللاهوت، وربما يطلقون السرَّ ويريدون به سرَّ السرِّ؛ وهو السرُّ المطلق الساري في الأرواح الإنسانية، وهو

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

مكشوف عند الإكليل، مُخفى عند غيرهم، وبه يظهر الفرق بين العارف والجاهل.

فطوبى لمَن صام الدهر كله؛ وهو مفطر.

فإن الصوم الحقيقي ليس بصوم الوصال صورة؛ بل بصومه معنى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 23].

فعليك بإدامة العمل حتى يبقى ذكرك، وتكون أنت الحي الباقي إلى يوم التلاقي.

* * *

25 ـ **في حديث مسلم:** قال رسول الله ﷺ: «**مَن صلَّى في يوم ثنتي عشرة سجدة تطوعاً؛ بني له بيت في الجنة**»(1).

المراد بالعدد المذكور عدد السنن المؤكدة التي يقال لها: سنن الهدى؛ وهي في اليوم والليلة ثنتا عشرة ركعة: أربعة قبل الظهر، واثنتان بعدها، واثنتان بعد المغرب، واثنتان بعد العشاء، واثنتان الفجر، وما عداها فغير مؤكدة؛ بل مستحبة، ويقال لها: سنن الزوائد؛ ولكن لا تنحصر سنن الهدى والزوائد فيما ذُكر؛ بل لهما جزئيات كثيرة.

والمستحبات أيضاً ثنتا عشرة ركعة وهي: سنة العصر، والسنة الأولى للعشاء، والشفعان المنضمان إلى شفع الظهر والعشاء؛ هذه كلها تطوُّع أي: زائدة على الفرض ألحقها النبي ﷺ بالفرض؛ ليدلَّ كل منهما على مرتبة مخصوصة من المراتب الحقية والخلقية.

فالفرائض: إشارة إلى الوجود الحقاني المنبسط في الأشياء الساري في المخلوقات كلها؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود الحقاني.

والواجبات: إشارة إلى الوجودات الخلقية الأخصية؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود الخلقي الأخصي.

والسنن: إشارة إلى الوجودات الخلقية الخاصية؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود الخلقي الخاصِّي.

والمستحبَّات: إشارة إلى الوجودات الخلقية العامية؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود العامي.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل السنن الراتبة، حديث رقم (728) [1/ 503] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (454) [23/ 236] ورواه غيرهما.

فأهل الفرائض والواجبات والسنن والمستحبات إنسان أكمل؛ ولذا لم يزل أهل الله الكُمَّل من المواظبة عليها كلها، فإن المستحبات طريق لتكميل السنن، وكذا السنن منهاج لتكميل الواجبات، وكذا الواجبات سبيل لتكميل الفرائض.

ومنه يعلم الفرق بين حال النبي ﷺ، وبين حال غيره من أمته؛ لأن من خاصته عليه السلام أن يدخل على الله تعالى في كل عمل بما يليق بذلك المقام على الوجه الأكمل؛ ولذا كان يفعل شيئاً مرة، ويترك أخرى ما عدا الفرائض، والواجبات بخلاف حال غيره، فما فعل ﷺ مرة في عمره؛ ينبغي أن يفعله الأمة مراراً متصلة بآخر أعمارهم، فإن به يتصل الفيض، ويقوم التوجه، وتدوم الصلاة.

وفي ذكر السجدة: إشارة إلى أن أفضل أحوال الصلاة حال السجدة؛ لأنها إشارة إلى الفناء عن التعينات، والبقاء بالمتعين المطلق المنزَّه عن التعين، واللام تعيُّن في الحقيقة، وأشار بالتطوُّع إلى المروءة الإنسانية، وإن رتبة الإنسان من أعلى رتب الوجود.

ولمَّا كانت الصلاة عماد الدين، والبيت لا يقوم إلا بالعماد؛ أشار بالبيت إلى الجزاء المجانس للعمل، الموافق للكسب، فمَن أقام الصلاة في الدنيا؛ أقام الله تعالى له بيتاً عظيماً في الآخرة بحيث لا يوصف عظمته.

وقال: «في الجنة» إشارة إلى ما أعطاه تعالى من البيت، إنما هو بمقابلة الأفعال الظاهرة في الصلاة، وأمَّا ما أعطاه في مقابلة الحركات الباطنة فيها؛ فهو باطن عن العقول خفي عن الأذهان كما قال تعالى:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: 60].

وقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]؛ لأن النفس لا تدرك إلا الظواهر المشهودة لا البواطن المخفاة في غيب الحق، جعلنا الله وإياكم من القائمين بأمره، الدائمين على صلواته آمين.

* * *

26 ـ **في حديث البخاري: «مَن صوَّر صورة؛ فإن الله معذِّبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً»**[1]:

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح. . ، حديث رقم (2112) [2/ 775] ورواه ابن عبد البر في الاستذكار، باب ما جاء في الصور والتماثيل، حديث رقم (1) [8/ 488].

اعلم أن الأشياء كلها حيها وجمادها حاملة للروح الإلهي؛ لكن لمَّا كانت الحياة ظاهرة حسية في الأحياء عبَّر عنها بالنفخ في القرآن، كما قال في الإنسان: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29]؛ فإن الأثر أظهر في النفخ من غيره، ولمَّا كانت باطنة معنوية في الجمادات؛ أُشير إليها بالتسبيح في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

فإن المسبِّح لا بد وأن يكون حيّاً؛ فالمكاشفون أدركوا الحياة في الجمادات أيضاً دون غيرهم؛ ولذا لم يكونوا يصوِّرون صورة لا صورة ذي الروح، ولا صورة غيره إلا بإذن الله تعالى؛ كعيسى عليه السلام لمَّا صوَّر الخفاش من الطين بإذن الله تعالى نفخ فيه الروح؛ فصار يطير كسائر الطيور.

فإن المصوِّر ـ بالكسر ـ حينئذٍ إنما هو الحق تعالى في صورة عيسى، وكذا النافخ للروح؛ كالرامي في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وذلك أن الهُويَّة إنما هي هوية الحق تعالى، وليس للعبد هوية غير التشخُّص، وليس التأثير من جانب التشخُّص؛ بل من طرف الهُويَّة.

فالمصوِّر إذا صوَّر شيئاً من طرف تشخُّصه من غير أن يأذن الله له من طرف هويته؛ عجُز عن نفخ الروح فيه، وصار عُرضة للعذاب؛ لأنه شبَّه نفسه بالخالق، والذي صوَّره بخلق الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17] يعني أن العبد لا يقدر على الخلق ما دام مخلوقاً، فإذا تجلَّى فيه سرُّ الخالقية على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

وأذن الله له في الخلق والنفخ، كان الأمر كما شاء الله تعالى بهويته المضافة إلى العبد.

وقد نفخ أبو يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه في نملة ميتة؛ فحييت بإذن الله تعالى لا بنفخه المجرَّد؛ فإن نفخه المجرَّد ريح نفسانية لا تؤثِّر إلا بسريان الروح الإلهي فيها، فالعبد يفعل ما يفعل بالحق لا بالنفس، فمَن فعل بالنفس؛ وقع في العذاب الجسماني؛ لأن النفس مضافة إلى الجسم الطبيعي، ومَن فعل بالنَفَس بالفتح؛ وقع في الرحمة، وفيه إشارة إلى ألاَّ بد للعبد من معرفة حدِّه، فإنه إذا لم يعرف حدَّه؛ تجاوز إلى حده من قوله.

والكاذب لا يدخل مقام الصادق؛ بل كلَّما أراد ذلك؛ ردَّه يد الغيرة الإلهية إلى حدِّه؛ بل إلى أسفل منه؛ لتركه الأدب مع الله تعالى.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]؛ ولذا قال ﷺ: «**وليس بنافخ فيها أبداً**»[1] أي: ما دام على حالته النفسانية.

إذ مَن كان في النار؛ فهو لا يحيا ولا يموت، فكيف يُحيي الغير ويُميت، وكذا مَن بقي في سجن الطبيعة؛ فإنه لا يخرج منها أبداً إلا أن يخرجه الله منها كما قال: يخرجهم من الظلمات إلى النور، فالأشخاص ظلمات، والأرواح أنوار.

فإذا سَرت الأرواح في الأشخاص؛ كان كسريان الأنوار في الظلمات، إلا أن يكون في البين حائل؛ كالنفس الحائلة بين الأرواح والأشخاص، وكالجبال والجدران الحائلة بين الأنوار والظلمات، فليبكِ على نفسه مَن بقي في الظلمات النفسانية الجسمانية، وليضحك وليفرح بفضل الله تعالى مَن خرج منها إلى الأنوار الروحانية الإلهية.

* * *

27 ـ **في حديث مسلم: «مَن فاتته صلاة العصر؛ فكأنما وترَ أهله وماله»**[2].

يقال: فاته الأمر: أي ذهب عنه، فمعنى فاتته الصلاة: فاتت عنه الصلاة بمعنى وقتها.

وفي رواية البخاري: «**مَن ترك صلاة العصر**»[3].

فدلَّ على أن التفويت محمول على العمد، إذ لا يترتَّب الوعيد والخسارة على الخطأ والنسيان، وإن كان يرد الخطاب بالعقاب يعني: إن مَن ترك العصر متعمداً؛ فكأنما كان موتور الأهل والمال: أي منقوصهما ومسلوبهما أي: كان كمَن بقي بلا أهل ولا مال؛ وهو خسارة عظيمة دنيوية، وأعظم منها الخسارة الدينية الأخروية.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب كراهته تأخير العصر، حديث رقم (1934) [1/ 445] ورواه الدرامي في السنن، باب الصلاة خلف من يؤخر الصلاة عن وقتها، حديث رقم (1231) [1/ 306] ورواه غيرهما.

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب إثم من ترك العصر، حديث رقم (528) [1/ 203] رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الزجر عن ترك المرء صلاة العصر وهو عامد له، حديث رقم (1470) [4/ 332] ورواه غيرهما.

وفيه إشارة بالعمر إلى زمان كل واحد من أفراد الإنسان؛ وهو أيام حياته المعدودة المقدَّرة، وبالصلاة إلى التوجه المعنوي، والحضور القلبي الحاصل في العمر، فمَن فاته هذا المعنى؛ كان كمَن بقي بلا أهل ولا مال أي: بلا قوى روحانية، وبلا أعضاء جسمانية؛ فكأنه في صورة وسيرة غير صورة الإنسان وسيرته.

لأن المقصود الأصلي من الآلات، والأسباب الخارجة، والداخلة؛ إنما تحصيل الكمال الإنساني المنوط بحال القلب، فإذا فقد التحصيل؛ فكأنما فقد الآلات، فليبكِ على نفسه مَن ضاع عمره وعصره، ولم يكن على طائل، وفائدة من الصلاة، والتوجُّه، والحضور الحاصلة لأهل الكمال الذين هم الإنسان الحقيقي.

أمَّا غيرهم فهم الإنسان الحيواني؛ بل هم أضلُّ من الأنعام؛ لأن الحيوان مهتد إلى ربه بما جُبل عليه من التسبيح، وله رتبة الفطرة حيث لم يتدَّنس بشيء من المخالفة؛ لكونه خارجاً عن حدِّ التكليف، وحمل الأمانة، فالإنسان منهم أسفل وأعلى، فانظروا منهم الخاسر، والرابح فاعرف.

دلَّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2].

وقد أقسم الله تعالى بالعصر مطلقاً؛ لشرفه العظيم، وجعل مَن لم يعرف قدر العصر في خسارة، فلا ربح إلا لمَن آمن إيماناً حقيقياً عيانياً، وعمل عملاً صالحاً يصلُح للتَّسبب للعروج إلى مواطن أهل الصلاح المطلق في علِّيين؛ بل إلى مساعد يبقى عندها العلِّيون كأسفل درجات المرقَّات، وتواصى بالحق:

أي بشهوده في المشاهد، والثبات على ما أراد الله تعالى في المعاهد، وتواصى بالصبر على ستر الحال، وكتم سر الغيب، فإن ذلك الربح أيضاً.

ألا ترى أن كل مَن أظهر البطون فقد أبطن الظهور؛ لجعل نفسه عُرضة للآفات والفناء والهلاك.

كما وقع للحلاّج، والنسيمي، والسهروردي المقتول وغيرهم، وأيضاً وتواصى بالحق : أي بالأمر الثابت الذي هو الدين الباقي إلى آخر العمر؛ بل إلى ساعة القيام إذ لا ينتهي العبد، وإن كان حرّاً عمَّا سوى الله تعالى إلى حد يَسقط عنه التكاليف؛ لبقاء مدار الأمر والنهي الذي هو النفس الإنسانية المختلفة المراتب.

وتواصي بالصبر في أوائل الأمر، وهو حال المبتدىء، وبالشكر في أواسطه،

وهو حال المتوسط، وبالفناء عن كل منهما في أواخره، وهو حال المنتهي، فبالصبر يصير الحصرم حلواً، والمرّ سكراً، فاصبر كما صبروا؛ تظفر كما ظفروا، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين أي: اليقين المطلق الذي لا يقين فوقه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**اللّهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً ليس بعده كفر**»[1]، رحمنا الله تعالى وإياكم بذلك.

* * *

28 ـ **في المتفق عليه بين البخاري ومسلم: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله»**[2]:

إرشادٌ عظيمٌ للسالكين إلى ما يحصل به الفتوح الإلهية، والوصول إلى مقام القرب والوصال، وحاصله إن مَن قاتل نفسه التي هي أعدى الأعداء؛ ليكون التوحيد الروحاني سارياً في الطبيعية، وقواها؛ فيكون الدين القلبيُّ عالياً على الدين الذين يدعو إليه النفس والشيطان؛ فهو فقط في السبيل الموصل إلى سر الله تعالى.

وأمَّا مَن قاتل شيئاً من الأغراض السالفة، أو العالية دون الله تعالى؛ فهو في سبيل ما سوى الله، والطريق إذا أوصل إلى الكون؛ فهو ليس بطريق؛ بل الطريق هو ما يوصِّل إلى الله تعالى فوق الكون؛ بل فوق عالم العلم؛ لأن العلم من الإضافات أيضاً؛ فقد ظهر من هذا أن أهل الوقفة إنما وقفوا في الطريق، ولم ينته بهم ذلك إلى المقصد؛ لفتور عزائمهم، وقصور نيَّاتهم وقصودهم، فلا بد لأهل الإخلاص من قطع الأماني أية أمنية كانت؛ بل من مطلق الطلب؛ لأنه من الإضافات؛ لكن لا يظهر حقيقة هذا المقام إلا لأهل النهاية.

وغاية ما في الباب أن هاهنا أمرين:

أحدهما: ما يرجع إلى جانب الحق تعالى.

والآخر: إلى جانب العبد.

فما يرجع إلى جانب الحق ينبغي أن يكون هو الغرض لا ما يعود إلى جانب

---

(1) جزء من حديث رواه الطبراني في الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5974) [6/ 117] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه إدريس [7/ 431].

(2) رواه البخاري في الصحيح، في أبواب عدة منها: باب 45 من سأل وهو قائم عالماً جالساً، حديث رقم (123) [1/ 58] ورواه مسلم في صحيحه، باب من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه، حديث رقم (1904) [3/ 1513] ورواه غيرهما.

العبد، فالعبد إذا طلب الدنيا أو الآخرة والفتح أو نحو ذلك؛ فهو إنما يطلب حظَّ نفسه في الحقيقة لإرضائه تعالى في امتثال أمره، فعليه أن يرجع عن المطالب الفانية؛ بل المقاصد الباقية، ويقوم مع مراد الحق الباقي، فإن ذلك هو العبودية التي لا يشوبها شيء مما يخالفها ويغابرها، ومن الله الإمداد على ذلك.

* * *

29 ـ **قال البخاري: «مَن قال حين يسمع النداء»**[1]:

المراد بالنداء: الأذان لأنه لا بد فيه من رفع الصوت؛ ليسمعه الدَّاني والقاصي؛ فيتهيأ للصلاة؛ وليشهد له يوم القيامة كل مَن سمعه من ذَوي الروح وغيرهم، فإن الجمادات أيضاً لها حياة حقانية خفية عن إدراك المحجوبين، جليَّة عن المكاشفين؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44] أي: ينزِّه الله عن العجز، ويحمد الله على نعمة الوجود.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فضلاً عن استماعه والإصغاء إليه؛ إنما يفقهه ويسمعه الخواص المطَّلِعون على ملكوت السموات والأرض، وفيه إشارة إلى أن الأعمال لا تُقلَّد إلا لمَن استحقها واستأهلها بأن يكون المؤذِّن مثلاً أرفع الناس صوتاً؛ لينتفع الخلق بصوت، وأن يكون الإمام أفقه الناس؛ ليتمَّ الاقتداء به ويصح، وعلى هذا.

في الحديث: «**مَن قلَّد إنساناً عملاً، وفي رعيته مَن هو أولى منه؛ فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين**»:

والمراد بسماع النداء هاهنا: السماع المطلق الكامل، وهو لا يحصل إلا عند تمامه.

فالدَّاعي إنما يدعو بالدعاء الآتي بعد تمام الآذان: اللّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة.

أخَّر الربوبية؛ لأنها تلو الأُلوهية، فهي منها بمنزلة الوزير من السلطان، والكرسي من العرش، والقمر من الشمس، والصدر من القلب فهي أن الربوبية محل صدور الآثار بالفعل؛ ولذا نقول: إن الاسم الله اسم إلهي باطن، والاسم الرب اسم إلهي ظاهر، وكل منهما أعظم.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الدعاء عند النداء، حديث رقم (589) [1/ 222] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر إيجاب الشفاعة، حديث رقم (1689) [4/ 586] ورواه غيرهما.

كما أن العرش اسم باطن كوني، والكرسي اسم ظاهر كوني؛ لأنه محل انقسام الوحي إلى الأمر، والنهي للذين هما القدمان المتدليان من العرش، وأضاف الربوبيّة إلى الدعوة؛ لأن تشريع الدعوة من باب الربوبية لِما فيها من تربية العباد بسرٍّ الانفصال والترقِّي إلى سر الاتصال، ووصف الدعوة بالتامة، كما وصف الصلاة القائمة؛ إشارة إلى أن كلاً منهما تتم وتقوم إلى قيام الساعة؛ لأنهما من الأحكام القرآنية، والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

فالأذان لكونه بين يدي الصلاة لا يعتريه النقصان، كما أن الصلاة التي خلفه لا يعتريها الانقطاع فإنه من شعارها؛ ولذا جاء في الشرع إن أهل بلدة لو اتفقوا على ترك الأذان؛ يحاربهم الإمام، فبقاء التوحيد في العالم؛ يقتضي بقاء الآذان والصلاة ونحوهما فيه، فالله تعالى متمُّ نوره الذي هو الآذان والصلاة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32] المنكرون لهما، ولأمثالهما من الأحكام الشرعية، وفيه معجزة نبوية؛ لبقاء شرعه مدَّ الدهر.

كما قال وأفاد: «**آت محمداً الوسيلة والفضيلة**»[1]:

عطف الفضيلة على الوسيلة التي هي المقام المحمَّدي المخصوص به في ذروة عالم الجنان؛ إشارة إلى تفضيله بذلك المقام على سائر أهل المقامات من الأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ كتفضيله بمرقده اللطيف على سائر أهل المراقد، فمرقده عين الوسيلة، وصورتها في هذا الموطن؛ ولكن لا يعرفه إلا أهل المراقد العالية، فاعرف.

وقال ﷺ: «**وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته**»[1]:

أي: بقولك في التنزيل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79].

أي: يقيمك فيه، وهو المقام الكلي الجامع لجميع مقامات الكمال.

ومنها مقام الشفاعة العظمى، فعسى أطماع، والأطماع من الكريم: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31].

ووصف المقام المحمود؛ لأن محمداً ﷺ محمود قربه، فمقامه أيضاً محمود.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

وفيه إشارة إلى شرف الافتقار، وإظهار الرغبة في حصول الموعود، وإلا فالله تعالى يُخبر وعده دعا به العباد أولاً.

قال ﷺ: «**حلَّت له شفاعتي يوم القيامة**»[1]:

المراد بالحلول: الوجوب والثبوت، أو النزول، وبالشفاعة خصوصها لا عمومها؛ لأن عموم الشفاعة لا يحتاج إلى الدعاء بالدعوة المذكورة، ومعنى خصوص الشفاعة راجع إلى سرِّ الوسيلة، فإن مَن دعا في حق نبيه ﷺ بمقام لا أخص منه مقاماً؛ استجلب من صاحب المقام بخصوص عمله جزاءً مناسباً له؛ وهو المذكور من خصوص الشفاعة، وهو سرُّ بينه وبين النبي ﷺ.

إذ الأحوال متباينة، والناس في الاستعدادات متفاوتة؛ ولذا نقول: إن استغفار النبي ﷺ لنفسه ليس كاستغفار أحد منا لنفوسهم، فإن الزَّلات والتلوينات على مراتب، فالاستغفار مشترك فيه؛ لكن المغفرة إنما تجيء من الله تعالى بحسب حال المستغفر.

وكذا الشفاعة في الدَّارين.

وأيضاً فإن حلول الشفاعة للداعي المذكور؛ إشارة إلى زيادة تعلُّقها به، وفرط اتصالها، إذ لا شك أن الأسباب الموجبة للمسبب إنما من بين قوية وضعيفة، ثم سر التحريض على الدعاء المذكور من باب الغيرة الإلهية، فإنه ﷺ وإن كان معدن جميع الكمالات ومنبع جملة الفيوض والكرامات إلا أن الأمة من حيث وقوفهم في موقف التفصيل لتلك الجملة الشريفة كان لهم حكم مخصوص من الله تعالى.

وإليه يشير أن السلطان إنما يجلس في السرير في ابتداء السلطنة باتفاق الرعية وإجلاسهم، وإن كان هو آمراً لهم، وناهياً، ومتصرِّفاً، وحاكماً.

فالأفضلية من وجهٍ لا ينافي المفضولية من وجه آخر، وعليه إطباق كُبراء الصوفية، ولله الحمد، ولرسوله وآله وصحبه الصلاة والسلام.

وفي الحديث: إشارة إلى أن الدعاء يستجاب عند الأذان؛ لأنه يُنفتح أبواب الملكوت عنده، ويفرُّ الشيطان منه، ويجدُّ النفس إلى الرحمن، وتخصيص الدعاء بالأذان لما فيه من الشهادتين، ورفع لذكر النبي كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]، فكان أنسب أن يُطلب له الدرجة الرفيعة في الآخرة أيضاً، فهو في

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

الدنيا أرفع كل رفيع من حيث الكمال، وفي الآخرة أعلى كل عَلي من حيث المقام والحال، فله صورة العُلو ومعناه على التمام.

ولذا كان شجرة طوبى محمدية المقام، منه انقسمت الكمالات في الدنيا، ومنه تشعبت الراحات في الآخرة، وقد خلق الله الجنان على طبقات مختلفة؛ مراعاةً لمقامات أهاليها، ومحافظة على أحوال ساكنيها، فيا أعظم سعادة للأعالي، ويا أفضل سيادة للموالي، فمَن تحرَّكت نفسه؛ فلتتحرك إلى المعالي، فإن تلك الحركة من عُلو الهمة لأكامل الأهالي، والله العالي، وإليه رجوعي في مصعدي، وعليه اتِّكالي.

ثم لمَّا كانت حال الآخرة على طبق حال الدنيا في بعض الصور؛ كالشفاعة وكالترقيات الجليَّة، والعفو عن الجرائم العظيمة؛ كان مَن خصَّ الشفاعة النبوية في الآخرة بالترقيات، وزيادة الثوبات؛ جاهلاً عن أسرار التنزُّلات والمنازلات؛ فقد يصعد العبد إلى ربه، وقد ينزل الرب إلى عبده.

وقد قال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22]، فقد علَّق مغفرته لمغفرة الناس بعضهم لبعض، وقد كانت الأسماء الجمالية اقتضت سعادات العباد دنيا وآخرة، فمن سعادة وقعت في الدنيا بالشفاعة العظمى، ومن سعادة وقعت في الآخرة بها، وآخر الشفعاء أرحم الراحمين ولا يعرفه إلا الكبراء من العارفين المحققين.

* * *

30 ـ **في الحديث:** قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون بالروحاء**»(1):

الروحاء: موضع بينه وبين المدينة المنوّرة ستة وثلاثون ميلاً على أن يكون كل ميلين منها ساعة نجومية؛ فيكون المجموعة من الأميال ثماني عشرة ساعة؛ هي مدة السفر عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله، يعني: إن الشيطان المأخوذ من البُعد إذا سمع الآذان بالمدينة أبعد إلى مدة السفر؛ ليستريح من الألم كما دلَّ عليه لفظ الروحاء.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل الأذان. .، حديث رقم (388) [1/ 290] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر قدر تباعد الشيطان عند النداء بالإقامة، حديث رقم (1664) [4/ 549] ورواه غيرهما.

وفيه إشارة إلى مَن خرج عن مجلس العلم، ولو خُطوة؛ فإنه كمَن سافر منه إلى مدة السفر، إذ لم يخرج إلا لراحته الطبيعية، وبين الراحة الطبيعية، والراحة القلبية بَوْن بعيد، فسحقاً لأصحاب السعير، وبعداً للقوم الظالمين؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالبعد عن مجلس العلم؛ فأبعدهم الله تعالى عن المعلوم الحقيقي الذي هو ذاته تعالى، وكانوا من أصحاب السعير، إذ الجزاء من جنس العمل.

وذلك إنهم خرجوا عن مجلس العلم؛ ليبرِّدوا حرارتهم الطبيعية بالمأكولات والمشروبات، وبكلام الدنيا والمساوىء؛ فأدخلهم الله تعالى في سعير أشدِّ من نارهم المسعورة في بواطنهم؛ لأنها تَطَّلع على الأفئدة، والأفئدة هي قوام الأجساد، فإذا احترقت؛ احترقت الأجساد كلها.

فعُلم من هذا التقرير: أن الشيطان مَظهر البعد، فكل مَن كان مُظهرَ البعد؛ فهو شيطان أضلَّه الله تعالى على قرب منه وعلم، فإن المحجوب الجاهل لا يرى إلا ما سواه تعالى، ولا يعرف إلا الأغيار، عصمنا الله وإياكم من نار البعد، والقطيعة، وعذاب السعير.

وإنما خصَّصنا مجلس العلم بالإشارة؛ لأن نداءه أعم من النداء الحسي والمعنوي.

أمَّا النداء الحسي: فكالدعوة إلى مرتبة الشريعة، وآثارها آثار حسِّية جنانية؛ هي نعيم حسِّي من مأكول، ومشروب، ومنكوح حسِّي، وفيه يدخل الأذان، والدعوة للصلواتية.

وأمَّا النداء المعنوي: فكالإرشاد إلى مرتبة الحقيقة، وآثارها آثار معنوية رحمانية روحانية؛ هي نعيم باطني من مأكول، ومشروب، ومنكوح حقيقي دلَّ عليه قوله ﷺ «**إنكم لستم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**».

❊ ❊ ❊

31 ـ **في المتفق بين الصحيحين**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير عشر مرات؛ كان كمَن اعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل**»[1].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل التهليل والتسبيح. . و حديث رقم (2693) [4/ 2071] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (4021) [4/ 165] ورواه غيرهما.

المراد بالوحدة المطلقة التي هي مبدأ نفي الشركة لا الوحدة المقابلة للكثرة: فإنها مخلوقة لا يوصف الله تعالى بها، وعلى هذا يدور الوجود المطلق، والوجود العام، فإن الله تعالى موجود بوجود حقيقي مطلق؛ وهو مبدأ الوجود العام الساري في الموجودات لا بوجود عام مقيَّد مأخوذاً في ضمن المشخَّصات، فلا يلزم ما يقوله الوجودية؛ ولكمال صعوبة هذا المعنى خاض فيه مَن خاض؛ فطعن على أهل الله تعالى في قولهم: بالوجود المطلق؛ وهم أهل الرسوم، وبعض المكاشفين القاصرين.

وإنما قُدِّم النفي على الإثبات كما في قوله: **(سبحان الله وبحمده)**[1]؛ لأن النفي والتنزيه صفة الروح؛ ولذا كان من شأن الملائكة التسبيح؛ وهم أقدم وجوداً من البشر، كما أن الروح أسبق من الجسد الأشبه إلى الخواص، فكان البشر من الملائكة بمنزلة التحميد من التسبيح؛ لكن لمَّا كانت هذه الأمة المرحومة أكمل استعداداً من الأمم السالفة؛ جمعوا بين كمالي التسبيح والتحميد؛ لأنهما لباسان جميلان للروح الذي طرفه الذي يلي الحق يقتضي التسبيح والتنزيه، وطرفه الذي يلي الخلق يستدعي التحميد والتشبيه، فلم يتحقق، ولم يتلبَّس بهذين اللباسين على وجه الإحاطة والكمال إلا هذه الأمة.

فكان من شأنهم: كمال التوحيد والتسبيح على ما يقتضيه نشأة أرواحهم الطيبة المجرَّدة المنسلخة عن الغواشي، وكمال التحميد والتشبيه على ما يقتضيه نشأة أجسادهم النظيفة المتعلِّقة بالملابس، كما ينبيء عن كلا هذين الكمالين قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وإما رَتَّبَ ﷺ الجزاء المذكور وهو: إعتاق أربعة أنفس من ولد إسماعيل على القول المذكور عشر مرات؛ لأن العشرة هي العدد الكمال، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196].

وسرُّ العدد هو أن الجزاء المذكور مكتوب في اللوح المحفوظ الذي هو المرتبة العاشرة من المراتب العلوية؛ وهي السموات السبع، والكرسي، والعرش،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب فضل التسبيح، حديث رقم (6042) [5/ 2352] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة منها: باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم (2691) [4/ 2071] ورواه غيرهما.

واللوح، والقلم، ولمَّا كان اللوح المحمَّدي الذي هو قلب الوسيع مقابلاً للوح الخارج؛ أخذ الجزاء المذكور عنه فرتَّبه على القول المذكور، ومنه يعلم أن وضع الحديث باطل، إذ وضع الأجور مفوَّض إلى الشارع؛ وهو الله تعالى، والأخذ من اللوح؛ وهم الأنبياء؛ لأنهم أصحاب الشرائع.

وأمَّا كُمَّل الأولياء فإنهم وإن كانوا آخذين منه أيضاً؛ لكن إنما يأخذون العلوم الحقيقية لا ما يتعلَّق بالشرائع؛ إذ ليسوا بأنبياء مشرَّعين؛ وإنما هم أولياء مبلِّغون متابعون لحضرة النبوة.

ووجه العدد في الإعتاق؛ إن التهليل المذكور أربع جمل في الحقيقة؛ لأن قوله: «لا شريك له» بيان للحال قبله، فكان في مقابلة كل جملة إعتاق نفس، وسرُّ تخصيص الجزاء به؛ هو أن الروح يتخلَّص من رقِّ الجهل بذلك التهليل؛ فيسري حاله إلى القلب، والنفس، والطبيعة؛ فيكون جملة الوجود حرَّة عن عبودية ما سوى الله تعالى شريعةً، وطريقةً، ومعرفةً، وحقيقةً.

فإذاً الجزاء المطابق لِما في الأنفس من الحال إعتاق الأنفس في الإنفاق من المال، فتفطَّن لهذا السرِّ السري، وإنما قال: «**من ولد إسماعيل**»[1] تقريباً للقائل من جنابه ﷺ؛ فكأنه قال: كان كمَن أعتق كذا من قرابتي، فكان هذا المقال تقرُّباً إلى الله تعالى من جهة العلم، وتقرُّباً إلى الجناب النبوي من جهة العمل، فطوبى لمَن قال صدقاً وإخلاصاً، وعمل بما أرشده إليه الشارع رحمةً له ورأفةً، والله الهادي، ورسوله المرشد إلى طريق مستقيم.

* * *

32 ـ **في حديث مسلم:** قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا الله**»[2]:

لم يقل: محمد رسول الله؛ لأن الإيمان بالله إنما يتم بالإيمان برسول الله ﷺ، وبسائر الأنبياء عليهم السلام.

دلَّ عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) جزء من حديث رواه مسلم في أبواب عدة، منها: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم (191) [1/ 177] ورواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب قول اللّه تعالى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ حديث رقم (6975) [6/ 2695] ورواه غيرهما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: 150، 151].

فإن المقصود من هذه الآية: إن الإيمان ببعض الأنبياء، والكفر ببعضهم؛ كالكفر بالأنبياء كلهم، والكفر بالأنبياء كفر بالله تعالى؛ لأن الأنبياء مبلِّغون عن الله تعالى، ومساوون في النبوة والمعجزة، فمَن استهان بهم؛ فقد استهان بالذي أرسلهم إلى الناس.

ألا ترى أن مَن أَزور واسطة السلطان في عرض الأمور؛ فقد أَزور السلطان، فلا يغتر المؤمن بالله بإيمانه تعالى مع كفره برسولٍ من رسله؛ فإنه لا يقبله الله تعالى، فإن الإيمان أمر أَحدي لا يقبل التجزيء والتفرُّق.

فالأمر إمَّا إيمان، وإمَّا كفر، كما أن الإيمان بالأولياء أيضاً كذلك، وأعني بالأولياء الكُمَّل منهم؛ وهم أعلى المقرَّبين، وأمَّا مَن دونهم، فقد تختلف كشوفهم وكلماتهم فيعرض المتعرِّض لهم، وذلك لا يقدح في إثبات ولايتهم في نفس الأمر، ومعنى الإيمان بالأولياء: الإقرار بهم، والانقياد لهم، ولأحوالهم، والتسليم لمذاهبهم ومسالكهم.

ولمَّا كان القول بكلمة التوحيد لا يكفي في إيمان القائل: أرفقه ﷺ بقوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**»[1] أي: أنكره بقلبه، وصدَّق كلمته بالعبادة له تعالى بالإخلاص والإعراض عن المعبودات الباطلة؛ بل عمَّا سوى الله تعالى بالكلية، فإنه ما من شيء من الأشياء الموجودة الملكية والملكوتية إلا وهو معبود بوجه من الوجوه من حيث إن فيه تجلِّي بعض الأسماء الإلهية.

ولذا قال تعالى: (قل الله) أي: لا تتعلّق إلا بالله الذي له جميع الأسماء الجمالية اللطيفة والجلالية القهرية، فإن الحجاب إمَّا حجاب الكون والظلمة، وإمَّا حجاب الإله والنور، فكما أن عالم الحدوث يشتمل الحجب العائقة للسالك عن الترقِّي إلى عالم الإله؛ فكذا عالم القدم يشتمل الحجب المانعة له عن الصعود إلى عالم إله الآلهة، فقد يُحتجب بالظلمة، وقد يُحتجب بالنور، فمَن توقف في مرتبة

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب الأمر بقتال الناس. . ، حديث رقم (23) ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (8190) [8/ 318] ورواه غيرهما.

من مراتب الكون أو مراتب الإله؛ كان ناقصاً غير واصل إلى أعلى المطالب.

ثم إن هذا الكفر وهو الكفر بما سوى الله تعالى؛ هو الإيمان الحقيقي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]، وقدَّم الكفر بالطاغوت؛ لأنه من باب التخلية؛ وهو أساس الإيمان، فإن الإيمان بالله قبل الكفر بالطاغوت لا يعتدُّ به أصلاً، وقول مَن قال: إن جنة الفردوس للكافر إشارة إلى ما ذكرنا من الكافر الحقيقي، وهذا الكفر لا يناله إلا الكُمَّل من أولياء الله، ولم يكن إيمان مثل إيمانهم.

فيا أصحاب السلوك قوموا إلى منزل المنازل، ولا تحتجبوا بشيء مما سوى الله، فإنه عائق الطريق، ومانع التوفيق، حُرِّم ماله، ودمه ظاهره وباطنه على الخلق، وعلى النار، وعلى الأرض؛ فلا يتعرض له بسوء؛ بل يتبرَّك به، وبملابسته ولا تحرقه النار؛ لأنه النور، ولا تأكله الأرض؛ لأنه الروح.

وفيه إشارة إلى حُرمة الإيمان الذي يحصل بالقرآن والقرآن إذ جعل في أَهاب ما مسَّته النار، وما في حكمها، وحسابه على الله أي: حساب سرِّه؛ وهو أن يُرزق بغير حساب، كما هو شأن أهل الجنة المعنوية؛ إذ هم السلاطين تحت الأطمار، ولا شك أن السلاطين أغنى الناس.

* * *

33 ـ **في البخاري**: «**مَن قتل معاهداً**»[1]:

أي: بعدما قتله سيف الذمة والجزية، قال: «**لم يرح رائحة الجنة**»[1]، كما لو قتل غير المعاهد، فإن القتل عند الله عظيم؛ ولذا كان هو نفسه ديَّة مَن قُتل فأعرف.

قال ﷺ: «**وإن ريحها**»[1] أي: نسيمها الفاشي.

قال ﷺ: «**توجد من مسيرة أربعين عاماً**»[1]؛ المراد التكثير بالاعتبار الظاهر فيه لا التحديد، فإن تجليَّات الله تعالى لا حائل لها، وإنما عدم ظهورها من جانب المحجوبين عن حقائق الحواس، وقد وقع للأنبياء والأصفياء أنهم كانوا يستشمُّون وهم في الأرض روائح الجنان؛ وهي في أعلى السموات السبع مع ما بينهما ألوف

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، إثم من قتل معاهداً بغير جرم، حديث رقم (2995) [3/ 1155] ورواه بنحوه ابن حبان في الصحيح، ذكر الأخبار بأن هذا العدد الموصوف. . ، حديث رقم (7383) [16/ 392] ورواه غيرهما.

من السنين من جهة المسافات فاعرف هذا، واتَّهم نفسك المحجوبة في عدم الإدراك.

وقد كان ﷺ برهاناً من الله تعالى أي: كل جزء من أجزائه الداخلة والخارجة؛ لِما فيه من الخوارق الخارجة عن غيره.

وفي الحديث: إشارة إلى أن النفس إذا أسلمت، وأصلحت حالها بما تعطيه من الطاعة والانقياد، وكالذِّمي فلا تقتل مرة أخرى بإفنائها بالمرة، وإلاّ لم يرح صاحبها، وريح الجنة المعنوية التي هي جنة القلب، فإن استشمام ريحتها إنما هو مع بقاء النفس في الجملة أي: بأصلها وذاتها لا بفرعها وصفاتها.

وريح هذه الجنة المغبوطة عند أهل التذكية توجد من مسيرة أربعين عاماً؛ لأنه لا يحصل كمال التزكية إلا في أربعين عاماً من أوَّل السلوك؛ بل من ابتداء الكشف، والدخول في حضرات الأسماء؛ بمعاينة حقائقها، ومشاهدة ملكوتها، فإذا تمَّت الأربعون؛ فالرفق بالنفس؛ لأنها المطيَّة أبداً، فمَن أراد الانسلاخ الكلي؛ فالذوق لا يوجد في الفناء الكلي، ومنه الاستشمام بكذا ذاقوا، واستشموا في الكشَّاف.

❊ ❊ ❊

34 ـ في آخر سورة البقرة: قال رسول الله ﷺ: «**أنزل الله آيتين هما: قوله عزَّ وجلَّ**: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: 285][*] إلى آخر السورة»، وأنزلهما ليلة المعراج بلا واسطة المَلك.

وكل وحيٍّ يُعتبر فيه النزول من العُلو على الوجه العام إلا هاتان الآيتان ونحوهما؛ فإن نزولهما وإن كان يُعتبر فيه العُلو المعنوي؛ لكنه من الوجه الخاص لا من الوجه العام؛ والمراد بالوجه الخاص ما لم يكن بواسطة المَلك، كما أن الوجه العام هو ما كان بوساطته.

وكل وجه عام يستلزم الوجه الخاص دون العكس؛ ومعناه أن ما نزل به المَلك؛

(*) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فهو حاصل في قلبه ﷺ وقت نزوله؛ لأن علم الإنسان ليس بخارج من ذاته، وإنما ظهوره على التدريج؛ فالقلب حقيقة اللوح فما ينزل من اللوح فهو صورة ما في القلب، وإنما نزل الملك تشريفاً للمنزَّل عليه على ما هو عادة الملوك في الدنيا.

وأسند الإنزال إلى الاسم الجامع لِما أنه مما تقتضيه الأُلوهية كما يُعرف من محصول الآيتين من كنوز الجنة أي: من خَزانات العالم العُلوي بين العرش والكرسي فكانتا من مكنونات الغيب التي لا تمسها العقول والعلوم.

وفيه إشارة إلى أنهما من نفائس الآيات القرآنية، وجوامعها؛ كالأموال النفيسة المدَّخرة لوقت الحاجة، وإلى أن لكل علم مخزناً من مخازن الملكوت خزانة الله تعالى فيه إلى أن يظهر قابله في الأرض، وإلى أن جميع العلوم الإلهية مما يتنافس فيه المتنافسون، وإن اختلفت طبقاتها وطبقاتهم، إذ ليس كل قابل يقبل جميع العلوم؛ وإنما يقبله مَن هو أكمل استعداداً من غيره، وربما يدَّعي إن المراد بالجنة الغيب؛ لأن الاجتنان الاستتار.

قال ﷺ: «**كتبهما الرحمن بيده**»[1] أي: قدر كتابتهما بيده الجمالية؛ لأنهما من الآيات الجمالية، وأسند الكتب إلى الاسم الرحمن؛ لأنهما من الرحمة العامة للمؤمنين.

قال ﷺ: «**قبل أين يخلق الخلق بألفي سنة**»[2]؛ المراد بالخلق العرش وما يحويه، وبالألفين اليومان؛ لأن كل يوم عند الله تعالى كألف سنة، فظاهره يوم ممدود مفصَّل، وباطنه يوم مقصور أتى كلمح بالبصر.

فإن أفعال الله تعالى لا تتوقف على الأمور العادية والأسباب، فالتأنِّي من قبيل التعليم والإرشاد على ما يقتضيه عالم الصفات، وأُشير باليومين إلى يومي: القلم واللوح، فإن كلاًّ منهما وضع إلهي قد اعتبر فيه تلك المدة ونظيره خلق الأرزاق قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، فإن الكرسي متنزَّل المقدرات، وفوقه العرش، وفوقه اللوح، وفوقه القلم، وكما أن الله تعالى كتب الآيتين بيده: أي بلا توسُّط قلم وملك، فكذا أنزلهما على النبي ﷺ بلا توسُّط شيء أيّاً كان.

قال ﷺ: «**مَن قرأهما بعد العشاء الآخرة؛ أجزأتاه عن قيام الليل**»[3]؛ لأن

(1) (2) (3) أورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى ابن عدي عن ابن مسعود الأ؟نصاري [2/ 139] ونصه كاملاً: عن ابن مسعود الأنصاري أن رسول اللَّه ﷺ قال: أنزل اللَّه آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي عام من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل.

نزولهما كان في الليل؛ فكان من فوائدهما الإجزاء المذكور، وأشار بالعشاء الآخرة إلى الفرق الثاني الذي يحصل بعد شهود الحق بلا خلق؛ وهو المقبول من الفريقين؛ لأن الفريق الأول؛ وهو شهود الخلق بلا حق من قبيل الحجاب، كما أن العشاء الأولى؛ وهي المغرب من قبيل النهار، والليل ظاهره الظلمة، وباطنه النور، كما أن النهار بالعكس.

فمَن قرأهما قراءة سرية بعد الفرق الثاني، وتحقق بحقائقهما، ووصل إلى ملكوتهما؛ كفتاه عن قيام الليل؛ لأن نوم العارف عبادة، ونفسه تسبيح، وحاله مناجاة، ووقته كليلة الإسراء، والله مشهود له على كل حال.

* * *

35 ـ **في المتفق بين البخاري ومسلم**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كانت له أرض ينتفع بها؛ فليزرعها لينتفع بها**» أي: نفسه، ومَن يتعلَّق به ـ «**أو ليمنحها أخاه**»[1]:

أي: ليعطها أخاه المؤمن إمَّا بالهبة، أو بالإجارة، أو بالعارية.

قوله ﷺ: «لينتفع بها» هو ومَن يتصل به، «فإن أبى» أي: صاحب الأرض.

قال ﷺ: «**من الزرع والمنحة**» ولم يكن له نصيب من الاسم النافع المعطي الجوَّاد ـ فإن لم يفعل «**فليمسك أرضه**».

وفيه توبيخ له، وتنبيه على أنه صار بخيل ممسك خسيس؛ لأن إمساكه إنما وقع على الأرض الخسيسة السفلية، فكان من شأنه أن يرفع له عمل عالٍ إلى السماء من الأرض؛ لكنه من حيث الخضار لنفسه، وضيقها الجنس في الأرض الضيقة؛ فكان سفلياً؛ كالأرض.

وفيه إشارة إلى حال السالك، فإنه ينبغي له أن يزرع أرض وجوده، وتراب نفسه بما يمكن له من الأعمال الصالحة الشرعية، ويسقيه بماء الصدق والخلوص؛ لينتفع بها يوم لا ينفع مال من الصفات، ولا بنون من القوى، فإن لم يكن له معرفة بكيفية الإصلاح والزرع، ولم يقدر على ذلك؛ فليسلِّم نفسه إلى مَن يقدر عليه من أرباب الإرشاد، فإنه يعرف كيفية الزرع من جهة أعمال الشريعة، ومن جهة أحوال

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما كان أصحاب النبي ﷺ يواسي بعضهم بعضاً. . ، حديث رقم (2215) [2/ 824] ورواه مسلم بنحوه مسلم في صحيحه، باب كراء الأرض، حديث رقم (1536) [3/ 1176].

الطريقة إلى أن ينبت نباتاً حسناً بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: 58].

وذلك أن أكثر السُّلاّك قاصرون عن الاستفادة الروحانية، أو السرية من غير توسُّط واسطة، وأعني بالاستفادة الروحانية: أن يأخذ بالروح من روح بقدر الطاقة، وبالسرية: أن يأخذ بالسر من الله تعالى.

فالاستفادة الأولى بلا واسطة جسم من الأجسام وهو نادر، والثانية بلا واسطة روح من الأرواح، وهو أندر، وعليه أويس القرني رحمه الله، ومَن يتصل به في ذلك ونظيره في القرن الموسوي برخ الأسود؛ فإنه مثل أُويس في هذه الأمة.

ويُقال: لا مثال له الذاتيون، ولا غيرهم الصفاتيون، ولكل منهم مشرب مخصوص، وما يقال: من أن أُويساً، وبرخ الأسود كانا يأخذان من الأرواح بالقلوب، والأرواح بلا واسطة صحبه جسمانية، ومكالمة لسانية، فليس بمسلم عند كُمَّل أرباب الحقائق، فانحصر السلوك في ثلاثة الأخذ بواسطة صحبة جسمانيةً، كما هو الغالب، والأخذ بواسطة صحبة روحانية كما هو النادر، والأخذ بلا واسطة شيء من روحاني وجسماني وهو الأندر.

ففي قوله ﷺ: **(فليزرعها)**: إشارة إلى القسم الثالث كما كان حال النبي ﷺ؛ حيث كان يجتهد في جبل حراء إلى أن فاجأه الوحي والفيض.

وفي قوله: **(أو ليمنحها)**[1]: إشارة إلى القسم الأول، وفي التعبير عن الواسطة الجسمانية بالأخوة إشارة إلى حال النبي ﷺ مع المؤمنين الذي جاؤوا بعده حيث عدَّهم من إخوانه، كما عدَّ معاصريه من أصحابه، وذلك أن المرشد إنما يأخذ في الحقيقة من مشكاة النبوة شريعة وحقيقة، فكما أن النبي أخو ذلك المرشد من حيث خلافته بعده؛ فكذا هو أخو مَن هو في تربية ذلك المرشد على أن الأخوة الدينية لا بين المؤمنين، وإن كانوا متباينين في الطبقات حالاً، ومقاماً فاعرف.

* * *

36 ـ **في صحيح مسلم: «مَن كان عنده شيء من هذه النساء اللآتي تتمتع؛ فليخل سبيلها»**[2]:

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب نكاح المتعة. . ، حديث رقم (1406) [2/ 1023] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب نكاح المتعة، حديث رقم (13927) [7/ 202] ورواه غيرهما.

المراد من هذه النساء بلسان العبارة: مَن كان نكاحهن مؤقتاً، ويُقال له: نكاح المتعة كان حلالاً إلى فتح مكة، ثم حُرِّم تحريماً مؤبداً بعد ثلاثة أيام منه؛ لأن أصل النكاح للوصلة والقرابة لا للفرقة والبعد، إلا إن مست الحاجة إلى الفراق، ووقعت للضرورة للافتراق، ولا ضرورة بعد فتح مكة؛ لكثرة النساء، ورخصة المهور، وسهولة التعيُّش، فكان نكاح المتعة نكاح ضرورة دفعاً للسفاح، ورفعاً للجناح.

وأمَّا المراد منهن بلسان الإشارة: فالنفوس الطبيعية، فإن ازدواج الأرواح العلوية بهن قبل فتح مكة القلب كان ضرورياً، فلم يبقَ لنكاحهن ضرورة بعد أن تيسَّر النكاح الروحاني بين الأرواح، والنفوس المطمئنة، وفي الغلبة حكم الوجوب على حكم الإمكان؛ فكان النكاح في الحقيقة هذا النكاح.

وأمَّا النكاح الطبيعي: فإنما هو لتذكير مذاق ذلك، لكن بعد الوصول؛ كثر النكاح مطلقاً لِما أن ذلك كان خارجاً عن حكم الطبيعة حداً؛ فكانت الشهوات حقائق قطعاً؛ ولذا كان ﷺ حُبب إليه النساء أي: ازدواج الصديقات الجامعة بين الكمال الظاهر والكمال الباطن.

كما قال: «**خذوا ثلثي دينكم من عائشة**»[1]، وشُهد بكمال آسية، ومريم، وخديجة، وفاطمة رضي الله عن كلهن بخلاف سائر الأنبياء، فإن بعضهم كنوح، ولوط لمْ يتيسَّر لهم الوفاق، والطباق مع زوجته.

وقد فُضِّل نبينا ﷺ على آدم عليه السلام بخصلتين أحدهما: أن حواء لم تكن معينة له في طاعة الله؛ بل كانت سبباً لزلَّته بخلاف الأزواج المطهَّرة.

والثانية: أن شيطان آدم لم يسلم بخلاف نبينا مع قرينه؛ ولذا لم يأمره إلا بخير.

و**الحاصل**: أن النكاح المبتدىء، والموسَّط من السالكين؛ كنكاح المتعة، فازدواجهما مع أزواجهما الصورية، والمعنوية ليس بازدواج حقيقي، إذ ليس عندهما ذوق القربة والوصلة بخلاف حال المنتهى، فإنه إذا حصل له الفتح المطلق الكلي الجامع لجميع الفتوح؛ كانت النساء الطبيعية عنده مُحلاَّة إذ لا سبيل للطبيعة، فإنه إنما يُجرى عليه أحكام الحقيقة في كل أمر من الأمور التي يزاولها ويباشرها.

فأين الباقي بنفسه عن الباقي بربه؟ وأين الفاني عن نفسه بأن يكون مغشياً عليه

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

بغلبة حظ طبيعته عن الفاني عن نفسه بأن يكون مأخوذاً عن الحس بحكم تجلِّي هويته؟ ففرق عظيم، والله بين الخطين.

فأحدهما: قاصر ناقص.

والآخر: تام كامل.

وقياس أحدهما على الآخر قياس فاسد ناشيء عن عدم إدراك الحقائق بتمامها، وعدم مطالعة التجليَّات بكمالها، والله الهادي، ولأهل البوادي.

* * *

37 ـ **في البخاري** قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخرة؛ فليصل رحمه**»[1]:

أشار بالإيمان بالله إلى الإيمان بالمبدأ الأول، وباليوم الآخر إلى الإيمان بالمعاد، وأشار بصلة الرحم إلى صلة الأرحام القريبة؛ كالعقل الأول، وما يليه، كما يقتضيه الإيمان بالمبدأ، وإلى صلة الأرحام البعيدة؛ كالطبائع، والعناصر والمواليد، كما يستدعيه الإيمان بالمعاد؛ لأنه كما أن الله تعالى هو الأول؛ فكذا التجلِّي الأول الذي هو العقل الأول. فليس كمثله شيء؛ لأنه أول المخترعات التي توجهت إليها الأسماء الإلهية من كمون الغيب، فأبرزها في مبرز الشهادة؛ وهي الشهادة المطلقة الأولى التي تلي غيب العلم، وغيب الأسماء، وغيب الذات، وأيضاً كما أن المعاد هو الآخر، فكذا التجلِّي الثاني الذي ينتهي إلى المواليد، وإلى الإنسان.

فالإنسان من حيث إنه العقل الأول، وأول التجلِّيات الغيبية؛ هو المبدأ الأول الظاهر فيه سر الأولية الأولى، ومن حيث إنه الإنسان، والبشر، وآخر التجليَّات الشهادية؛ هو الآخر الظاهر فيه سر الأخروية الثانية، فله حقيقة غيبية، وصورة شهادية.

والكل من الأول إلى الآخر مراتبه وأطواره، فهو عين نفسه من حيث أحديته، وغير نفسه من حيث تكثُّره في مراتب نزوله، واسترساله، فتلك الكثرة إن كانت كثرة روحانية؛ فهي أقاربه القريبة، وإن كانت جسمانية؛ فهي أقاربه البعيدة لا الأجانب،

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه. . ، حديث رقم (5787) [5/ 2273] ورواه بنحوه مسلم في صحيحه، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حديث رقم (2557) [4/ 1982] ورواه غيرهما.

فإن سلسلة الكائنات متصلة به، إمَّا قريباً، وإمَّا بعيداً، فليس شيء منها يكون أجنبياً عنها.

فلا بد للإنسان من صلة تلك الأقارب مطلقاً، وصلتها إعطاؤها حقها؛ وهي الأمانة التي عنده المأخوذة منها حين مروره عليها، فإذا أعطى كل واحد منها حقه بأن يتجرَّد من ملابسها؛ فقد وصلها؛ وهو التحليل الذي لا بد منه في السير عروجاً، ثم إن تلك الحقوق تعود إليه حين يتلبَّس بها حالة البقاء؛ وهو التعقيد الذي لا بد منه أيضاً في السير نزلاً.

فقد أخذ الله منه في السير الأول؛ لتجريده عن الملابس، والغواشي الكونية، وأخذ هو من الله في السير الثاني؛ لإلباس الذات الأكسية الحقَّانية التي لا تُبلى أبداً؛ لأن الفاني لا يعود إلى أوصافه، والباقي لا يكون له فناء كوني.

وأمَّا الموت الطبيعي فهو: انتقال لا فناء، ويظهر عدم كونه فناءً أن الإنسان الباقي بربه لا يُبلى من حيث هيكله أيضاً، ومن آثار الصلة الحقيقية: أن يعطي من نفسه اعتراض على شيء من الأشياء التي هي بمنزلة أجزائه بالنسبة إلى حقيقة الوحدانية؛ للتجلية بالصفات والقوى، فينظر إلى الأشياء بعين الحقيقة، ولا يكون عاقاً لإمامة العلوية، وانتهائه السفلية، وما تولَّد منهما من الأولاد الكثيرة التي لا تُحصى عدداً؛ لأنها إخوانه وأقاربه.

ولمَّا ذكرنا من السرِّ الإلهي؛ ذكر النبي ﷺ صلة الرحم في جنب الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم لمَّا كانت الأشياء أموراً مضادة من حيث طبائعها مخالفة لحقائقها في أحوالها المختلفة؛ كان من الحكمة الإلهية إزالة الضد بالضد، ولم يعد ذلك من العقوق، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: 15].

* * *

38 ـ **في صحيح مسلم**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن لقي الله لا يُشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومَن لقيه يُشرك به؛ دخل النار**»[1]:

الجملة الأخيرة تصريح بما علم من الجملة الأولى؛ لأنه إذا كان الموحِّد هو الذي يدخل الجنة: كان المشرك هو الذي يدخل النار، ولكل من الجنة والنار

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب من مات لا يشرك باللَّه شيئاً. . ، حديث رقم (93) [1/ 94].

صورة ومعنى، فصورة الجنة: دار الثواب المشتملة على ثمرات الأعمال، ومعناها: القلب الإنساني المحتوي على نتائج الأحوال، وفي الكل تنعُّم؛ لكن التنعُّم في الجنة الأولى جسماني وروحاني، وفي الثانية روحاني فقط، وقد يشمل الروحاني في الدنيا الجسماني أيضاً؛ فيتنعَّم المكاشف بما يقرب من تنعُّم المحجوب في الجنان، وله أخبار وآثار كثيرة، ومن لم يذق؛ لم يعرف كيف هو؟

وأمَّا صورة النار: فدار العقاب الجامعة لتبعات السيئات، ومعناها: الطبيعة الشهوانية النفسانية الحاوية لأنواع الشهوات، والأهواء، والأخلاق السيئة، فلمَّا كان أصل الحسنات من الأنوار؛ أدَّى إلى الجنان التي خلقها الله من أنوار لطفه وجماله، ولمَّا كان أصل السيئات من الظلمات؛ جرت إلى جهنم التي خلقها الله من ظلمات قهره وجلاله.

فأهل الجنة: أهل الوجود الحقيقي الذي يُضاف إلى الله تعالى، وأهل النار: أهل الوجود المجازي الذي يُنسب إلى الكون، والوجود الكوني: وجود مفروض متوهم، كما أن الوجود الواجبي: وجود معلوم متحقق، فلا بد من محو الوجود الموهوم؛ ليظهر سر الوجود المعلوم المحقق.

فالوجود الموهوم: اعتبار محض ولا وجود له حقيقة لما هو اعتباري؛ لكن مَن غلب حكم إمكانه على حكم وجوده؛ أعطى للإمكان الموهوم وجوداً، فاحتاج إلى الخلاص عنه، وطريقه تحقيق التوحيد في أفعال الله تعالى، وصفاته، وذاته، فمن احتجب عن التجليَّات برؤية وجوه الإمكاني، وآثاره؛ احتجب عن التوحيد، فبقي في الشرك في الدنيا، وفي العذاب في العقبى.

أمَّا الشرك الجلي فأمره ظاهر، وأمَّا الشرك الخفي فأمره خفي، فإن العقل قاصر عن إدراك الشرك في الموحِّد، وفي كونه معذَّباً بالعذاب المعنوي الروحاني في الدنيا وفي الآخرة، فكم من واصل وهو في عين الفراق، وكم من داخل وهو في حكم الخارج؛ ولذا كان الله تعالى لا ينظر إلى الصورة والأعمال؛ بل إلى القلوب والنيَّات، فإذا صلحت القلوب؛ صلح الحال مع الله في مرتبة جماله المطلق، وإذا فسدت؛ فسد الحال معه في تلك المرتبة، ففرق بين نعيم ونعيم، وجمال وجمال، وبصر وبصر، فليحذر المؤمن أن يدخل النار وهو في رياض الجنة.

والحاصل: إنه لا بد للسالك من الوصول إلى الفناء الكلي حتى ينجو من شر الوجود المجازي، ويغتنم بخير الوجود الحقيقي، فكل الوجود شر إلا الوجود

الحقيقي كما قيل: ألا كل ما خلا الله باطل، ولا وجود للباطل مع الوجود الحق، فأين أنت من فهم هذا المعنى؟ فاخرج من الباطل، ومن اعتباره حتى تدخل في الحق، وفي حقيقته، والله المعين، وبه نستعين، وهو الحق اليقين.

* * *

39 ـ **في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ**: «**مَن مات، وهو يعلم أنه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة**»[1]، رواه عثمان رضي الله عنه.

اعلم أن هذا الحديث يدلُّ على أن الإيمان ليس بعبارة عن التصديق، والإقرار، أو عنهما، وعن العمل؛ بل هو التصديق القلبي ليس إلا، وهو المراد بالعلم في هذا المقام، فالإقرار شرط لإجراء أحكام الإسلام حتى يتبيَّن كونه مؤمناً بينه وبين الخلق، وإن كان هو مؤمناً بينه وبين الله تعالى، وإلى هذا: أي إلى أن الإيمان في الحقيقة هو التصديق القلبي، والإقرار اللساني.

فركن زائد ذهب المحققون؛ مثل أبي حنيفة، وشيخ السُنَّة: أبي منصور الماتريدي؛ وهو أصح الروايتين عن الأشعري، وكون الأعمال داخلة في ماهية الإيمان مذهب المعتزلة والخوارج؛ فالفاسق عندهم غير مؤمن؛ بل مخلَّد في النار، وعند أهل السُنَّة ليس كذلك؛ بل هو مؤمن ناقص، وإيمانه مُنج؛ لكنه ليس بكامل، فحيث قرنت الطاعات بالإيمان، وجعلت كالشرط له؛ فالمراد به الإيمان الكامل المنجِّي.

ثم إن هذا العلم بالتوحيد هو التوحيد العقلي لا الإيمان الشرعي؛ لأن الإيمان إنما يتعلَّق بالشارع، وأمره؛ فهذا العالم؛ ليشفع فيه العليم الخبير بحاله فلا يخلده في النار، ويكون آخر أمره الجنة إن لم يأتِ بما ينافي أصول الشرائع، وكان حاله على حال الفطرة الأصلية.

فأهل الفترات، والذين في شواهق الجبال، وأقطار الأرض وغيرهم ممَن لم يبلغه الدعوة، ولم يصدر منه ما يخالف أصول الشرائع؛ فكلهم من أهل التوحيد العلمي، والتصديق العقلي، يشفع فيهم الاسم الرحمن؛ فيدخلون الجنة، ولو بعد حين، وذلك فضل عظيم، وإحسان جسيم من الله تعالى؛ لكون رحمته واسعة شاملة

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث رقم (26) [1/ 55] ورواه أبو عوانة في المسند، حديث رقم (11) [1/ 19] ورواه غيرهما.

لكل شيء خصوصاً الذين بقوا على نقاء سريرتهم، وصفاء فطرتهم، فلم يصدر منهم ما يخالف التوحيد، والأصول المتفق عليها في جميع الأديان والملل.

وأمَّا اليهود والنصارى فقد بُيِّن في القرآن والحديث أنهم كفار لا اعتداد بإيمانهم بالله، وببعض الكتب والرسل، فلمَّا لم يؤمنوا بالشرع المبلَّغ إليهم؛ كانوا كفاراً في الشرع والحقيقة، وكذا المشركون فإن إقرارهم بأن خالق السموات والأرض هو الله يفيد إيماناً لهم مع بقائهم على الشرك والعناد.

وكما أن الذين لم يهاجروا حين كانت الهجرة فرضاً؛ كانوا كفاراً بالنص في الحقيقة، وإن كانوا مؤمنين في الصورة، ومثلهم مَن يلقي المصحف في القاذورات، أو يفعل نحو ذلك مما جعله الشارع إمارة التكذيب، فلا يعتبر دعوى الإيمان في مثل هذا، فهم في الفراق في عين الوصل، فيا ليتهم أقاموا على الشرائط، والمسلمون عند شروطهم.

وهذا مقام هائل ينبغي أن يكون المرء على حذر منه، فإن الأمر ليس بالدعوى؛ بل بالمعنى، ولن يحصل المعنى إلا بمتابعة الشارع في أمره ونهيه إن كان من شأنه ذلك بأن بلَّغ إليه الدعوة، وأمَّا غيره فليس له دعوى ولا معنى، وإنما هو مفوَّض إلى سعة رحمة الله تعالى.

* * *

40 ـ **في صحيح مسلم** قال رسول الله ﷺ: «**مَن منح منيحة**»[1]:

أي: عطية، والمراد: منحة اللبن؛ كالناقة، والبقرة، والشاة مما ينتفع بلبنه.

وقوله ﷺ: «**عادت تلك المنيحة له متلبسة بصدقة، وراحت الغدو أول النهار إلى الزوال، والروح من الزوال إلى الآخر**»[1]، كما أكد ذلك بقوله: «**صبوحها وغبوقها**»[1]، منصوبان على الظرفية أي: في أول النهار، وأول الليل.

والإشارة في الحديث: إن اللبن إنما هو لتربية الأجسام، كما أن العلم إنما هو لتربية الأرواح، ولا شك أن الصدقة تُطفىء غضب الرب؛ وهو نار جهنم التي أعدَّها الله تعالى لتعذيب أجساد الفُسَّاق، كما أن العلم يُطفىء غضب الرب أيضاً؛ وهو نار الجهل والقطيعة التي أعدَّها الله تعالى لتعذيب أرواح الجهلة والمحجوبين.

(1) ونصه عند مسلم: «من منح منيحة غدت بصدقة وراحت بصدقة صبوحها وغبوقها». صحيح مسلم، باب فضل المنيحة، حديث رقم (1020) [2/ 707].

ولمَّا كان العذاب على نوعين: عذاب بنار وحَرور، وعذاب برد وزمهرير، أشار ﷺ بالصبوح إلى أن الصدقة تدفع عن المتصدِّق عذاب الزمهرير وبالغبوق إلى أنها تدفع عنه عذاب الحَرور، فينجو المتصدِّق من كلا العذابين بحسب جسمانيته، ويبقى له التخلُّص عن العذاب الروحاني؛ فإنه عذاب أيضاً؛ بل هو أشدُّ من الجسماني؛ لتعلّقه بالروح الذي هو ألطف الأشياء في الوجود الإنساني، وذلك بالكلمة الطيبة؛ فإنها صدقة أيضاً، ولها تعلُّق بمرتبة الروح، فإن الروح يستريح بما يسمعه من الكلمة الطيبة، ويتخلَّص عن تعب الغمِّ والكدورة، فلا بد للعاقل من تحصيل كلتا الصدقتين.

وإنما خصَّ منحة اللبن بالذكر؛ لأن اللبن أول ما يغتدي به بدن الإنسان، ويتربَّى، وله زيادة اختصاص بالفطرة الأصلية، وإلا فجميع المأكولات والمشروبات مما يتربَّى به الوجود الظاهرة من قبيل الصدقة والجسمانية، ومنه يعلم قرب العرب في الصدر الأول بالفطرة، إذ كان أغلب مطعوماتهم اللبن، ثم آل الأمر من تنوعات الأغذية إلى التنزُّلات؛ فصارت حال الفطرة بعيدة بعد ما كانت قريبة.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 21]، وذلك إنما وقع في القرآن؛ فإنه يُنبىء عن النسيان، وهو إنما يُعرض بكثرة العوارض والحجب على وجه الفطرة، ومعظمها المطعومات المختلفة، والمباحات المتنوعة لا سيما المحرَّمات، والمشتبهات، فأنَّى ينجو الإنسان من ذلك؛ فوجب عليه إصلاح ظاهر الوجود بالشريعة، وباطنه بالطريقة إلى أن يكشف الله عماه، ويبصره هداه؛ فيستسعد بعلم الفطرة، وبعلم الكسب، وبعلم الشكر، وبعلم الذوق والحقيقة، وإلى هذه العلوم الإشارة بالأنهار الأربعة المذكورة في القرآن الكريم.

ثم إن الغُدو والرواح لمَّا كانا مشتملين على الصدقة؛ سرى سرُّهما إلى جميع الأوقات، فإصلاح الأول والآخر إصلاح لِما بينهما أيضاً، كما أن إصلاح البدن والروح، وإن شئت قلت: القلب إصلاح لجميع الأعضاء والقوى، وبذلك ينجو الهيكل الإنساني بجميع أجزائه وأعضائه وقواه، ومَن تفطَّن لحكم العموم، ولم يُقصر عمله على الخصوص، والله شهيد على ما تعملون، وهو العليم الخبير، ومنه الفيض العزيز إلى كلٍّ من الصغير والكبير.

* * *

41 ـ **في صحيح مسلم**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن نام عن حزبه**»[1]:

أي: غفل عن ورده، أي وردٍ كان من قراءة قرآن، أو صلاة تهجُّد أو نحو ذلك من العبادات المقرَّبة إلى الله تعالى.

قوله ﷺ: «**من الليل**»: خصَّه بالذكر مع أن الورد لا يختص بوقت، ولا يتعيَّن بمكان لِما إنه زمان مناجاة العباد وقت انخراق السرادقات، وله اختصاص بسكون القلب، وهدوء الباطن، وفيه وقع المعراج الصوري والمعنوي؛ فكانت العبادة فيه أشد على القلب وأصفى، والتوجه أقوى، والانكشاف أزيد، والقربة أوفر، والوصلة أتمُّ، والواردات أكمل، ويلحق به أول النهار إلى وقت الضحوة لا ما بعده، وقد يحصل بعض التجليَّات فيما بين العصر والمغرب أيضاً، أو عن شيء منه أي: عن بعض حزبه بألا يسعه الوقت لإتمام كل الورد، فيبقى باقٍ على النهار، والقضاء فيه.

فإن الفيض الإلهي؛ كالماء فكما أن الماء إذا انقطع؛ هلك الإنسان والحيوان، فكذا الفيض الإلهي إذا انقطع هلك القلب والروح، ففي القضاء تدارك لِما فات، وفي تركه حرمان عن الماضي، وعمَّا هو آتٍ، فافهم الإشارة، ومن الله التوفيق والثبات.

قال ﷺ: «**فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنه قرأه من الليل**»[2]، لا لأنه وقت متسع كما ذهب إليه أهل الظاهر؛ بل لأنه مُلحق بآناء الليل؛ لقربه منها، فكما أن وِتر النهار وهو المغرب يُعدُّ من النهار؛ لاتصاله به حتى أوجب الإفطار للخواص بعد السلام لا وقت الغروب قبل القيام فافهم الكلام.

فكذا وِتر الليل يُعدُّ من الليل، وإن كان يُقام في السَّحر الأعلى قرب الانفجار جداً، ونظيره الخميس والسبت؛ فإنهما لكونهما طرفي الجمعة أخذا حكمها، وشعبان وشوّال؛ فإنهما وقعا بين شهر رمضان، فأُلحقا به في الحرمة؛ كصوم شعبان، وست شوّال السارية إلى جميع أجزائه من الأول إلى الآخر، فإن التجلِّي لا ينحصر، وإنما الانحصار يجيء من القائل.

---

(1) نصه عند مسلم: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل». صحيح مسلم، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، حديث رقم (747) [1/ 515] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن من نام عن حزبه. . ، حديث رقم (2643) [6/ 369] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

ألا ترى إلى الشمس فإنها طالعة فاشية، وإنما جاءت الظلمات في بعض البِقاع والأقطار من حيلولة الجبال الشواهق ونحوها كُتب له كأنما قرأه من الليل.

أورد كلمة التشبيه؛ لأن وِرد الليل أقوى من وِرد النهار، وإن كان الله تعالى جعل الليل والنهار خلفةً لمَن أراد أن يذكر، أو أراد شكوراً.

ومنه: يعلم أنه كلَّما بَعُد زمان القضاء بعد القرب، ففرَّق بين القضاء في الوقت الذي عيَّنه النبي ﷺ؛ وهو ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر من ذلك اليوم، وهو اليوم الذي فات في ليلة الوِرد، وبيَّن القضاء في الأيام الآتية، ويُرشدك إلى ما قلنا: إن مَن فات عنه الفجر؛ فإنه يقضيها في يومها مع السُنَّة والفرض جميعاً لا فيما بعده من الأيام، فإنه حينئذٍ إنما يقضي الفرض فقط، وهذا السرُّ قد غفل عنه أرباب الظواهر فقالوا ما قالوا في شرح الحديث، والله العليم الخبير، ثم إن النذر يدخل في مطلق الوِرد؛ فهو مُقضى بطريق الأَوْلى.

* * *

42 ـ **وفي حديث البخاري: «مَن نذر أن يطيع الله؛ فليطعه، ومَن نذر أن يعصي الله؛ فلا يعصه»**(1):

فهذا الأمر والنهي؛ للوجوب، ومنه يعلم أن نذر المعصية لا ينعقد، وعن الإمام: إن مَن نذر صوم يوم العيد؛ يقضيه في يوم آخر، وكذا مَن نذر ذبح ولده؛ فإنه لا يذبحه؛ بل يتقرَّب إلى الله تعالى بقربان، والنذر وإن كان قربةً مشروعةً بالنسبة إلى العوام؛ لكن الخواص إنما يعلمون بالخواطر، والإيجاب ليس إلا الله تعالى هذا؛ فإنه ينفعك إن شاء الله تعالى.

* * *

43 ـ **في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**(2):

قوله: «**شفاعتي**» أي: شفاعتي، وشفاعة الورثة من أمتي، فإن العبارة وإن

---

(1) البخاري في صحيحه، باب النذر في الطاعة، حديث رقم (6318) [6/ 2463] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن نذر المرء فيما ليس للَّه فيه رضا. . ، حديث رقم (4387) [10/ 233] ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (228) [1/ 139] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن الشفاعة في القيامة إنما تكون لأهل الكبائر من هذه الأمة، حديث رقم (6467) [14/ 386] ورواه غيرهما.

كانت للنبي ﷺ؛ لكن الإشارة شاملة لوراثته أيضاً مع أن الأحاديث الصحيحة صريحة في شفاعة غيره ﷺ من خواص الأمة.

والكبائر أنواع منها: أذيَّة الورثة بالشتم، والنفي، والقتل؛ بل هي أعظم الكبائر؛ لأنها في الحقيقة أذيَّة للرسول، وهي أذيَّة لله تعالى، والله أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: 61].

وقد قال حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر في الفتوحات المكية: إنه يشفع للمنكرين له، والطاعنين فيه؛ لقوله ﷺ: «**وأحسن إلى مَن أساء إليك**»[1]، هذا إذا مات المنكر على الإيمان، وما يدريك لعلَّه يموت على الكفر؛ لأن الله تعالى استعظم المؤذيين ولعنهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: 57][2].

وقال خطاباً لموسى عليه السلام: «**هل واليت لي ولياً، وهل عاديت لي عدوّاً؟**»، فقد أشار الحق تعالى إلى أن موالاة الوليِّ موالاة له، كما أن معاداته معادة له، والله تعالى غَيور، ذو البطش الشديد للأعداء.

وقد قال خطاباً للخليل عليه السلام: «**خف مني يا إبراهيم؛ كما تخاف من السبع الضاري**»[3]، فقد استبان منه أنه لا يفلح المنكر الطاعن أبداً، فإنه قابل للرحمة بالغضب.

وقد قال النبي ﷺ: «**اشتدَّ غضب الله على مَن قتل نبياً، أو قتله نبي**»[4].

والطعن في حكم القتل؛ لأن عرض المؤمن كدَمه، ولا شك عند أهل الله في كفر المنكرين؛ لأنهم استحلّوا الطعن في الأولياء، وحملوا ما صدر منهم من الحقائق على الخيالات النفسانية؛ فكانوا كقريش في جعل القرآن من قبيل الأساطير،

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء وعزاه إلى ابن النجار ولفظه: «صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك وقل الحق ولو على نفسك». كشف الخفاء، حديث رقم (1627) [2/ 41].

(2) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، 1 (594 ابن أبي الورد) 1 [10/ 317].

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) صح عند البخاري من كلام ابن عباس: «اشتد غضب اللَّه على من قتله نبي واشتد غضب اللَّه على من دمى وجه رسول اللَّه ﷺ». صحيح البخاري، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أُحُد، حديث رقم (3848) [4/ 1496] ورواه الطبراني في الكبير بلفظ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي أو رجل يضل الناس بغير علم أو مصور يصور التماثيل» المعجم الكبير، حديث رقم (10497) [10/ 211].

والسِّحر ونحو ذلك، وأيضاً جعلوا طاعتهم المتنوعة من قبيل المعاصي، ولا شك أن اعتقاد الطاعة معصية كفر كالعكس.

وقد قال المولى: لا يكفر، وكيف يكفر أهل التأويلات الصحيحة، وقد جعلهم العلماء من أهل الدين الصحيح؟ كما ينطق به علم الكلام، فإن تأويلاتهم تأييدات للعبارات، وموافقات لها في الحقيقة، وإلا فكل حقيقة ردَّتها الشريعة؛ فهي ردٌّ؛ ولكن الحقيقة المردودة والمقبولة أي شيء هي لا يعرفها إلا الأكابر من العلماء.

وقد كان من أحوال أهل الرسوم في هذه الأعصار: أن مَن لم يعرف منهم الأحكام والشرائع؛ يطعن في المعارف والحقائق، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، ولا يُذلُّ إلا مَن عادى الله ورسوله، والورثة من أمته.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32] أي: كفَّار الحقائق، نسأل الله أن يرحمنا بالاعتقاد الصحيح والثبات عليه.

* * *

44 ـ في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1]:

أسند الحق سبحانه الجزاء إلى نفسه مع أنه المجازي لكل عمل؛ لزيادة العناية بالصوم؛ لأنه صفة صمدانية، وقد تخلَّق بها الملائكة جميعاً، وكذا بعض البشر؛ كإدريس عليه السلام؛ فإنه لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم ستة عشر عاماً حتى رفعه الله مكاناً عليّاً، وعلوَّه بحسب القطبية للأمكنة العُلوية والسفلية، فإن الرابع مقر الشمس ومدارها.

ومنه يعرف قطبية إدريس إلى هذا الآن؛ لأنه حيٌّ باقٍ، وأقطاب كل عصر إنما هم نوابه، وأيضاً قطبية الصوم بالنسبة إلى سائر الأخلاق، فإنه لتحسين الأخلاق؛ فهو مدار الأخلاق كلها، فإذا تمَّ التحقق به، وكَمُل؛ كان مبيت الصائم عند الله تعالى، فلا يفطر إلا على علوم لَدنية.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قول اللَّه تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ حديث رقم (7054) [6/ 2723] ورواه مسلم في صحيحه، باب فضل الصيام، حديث رقم (1151) [2/ 807] ورواه غيرهما.

وقد وصل حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر، وهو في درباء المغرب إلى تسعة أشهر.

وأمَّا عقال المغربي فمكث في مكة المكرَّمة أربعة أعوام لم يأكل ولم يشرب إلى أن مات عليه؛ لانسلاخه عن حال الطبيعة، وأمر البشرية بالكلية، ومنه يعلم أن مثله لا يحتاج إلى بدل ما يتحلَّل؛ لأن عروقه مملوءة بالأنوار، والنور يفعل لصاحبه من القوة ما يفعله الدم.

وربما يعود الصائم إلى صورة الطبيعة؛ كحال النبي ﷺ، ومَن يُتابعه في هذا المعنى لكنه مُفطر صورة، وصائم معنى؛ لأنه دائم في صلاته، وإنما يترقَّى من طبقة إلى طبقة كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**أرحنا بها يا بلال**»[1]؛ فإنه أراد الإراحة بالصلاة والدخول فيها.

واعلم أن تقليل الغذاء في حكم الصوم أيضاً؛ لأن قدر ما يقوم به البدن لا يُعدُّ من التنعُّم؛ ولذا يُوصي به الحكماء الإلهيين في كل عصر، ومَن لم يهتدِ إليه بقي في تيه طبيعته، حائراً عن السداد، ومَن لم يَهدِ الله ما له من هادٍ، فأرباب الشريعة لهم أكلتان؛ لغلبة جسمانيتهم على روحانيتهم، وأرباب الحقيقة لهم أكلة واحدة في يوم وليلة؛ لغلبة روحانيتهم على جسمانيتهم.

ثم اعلم أنه أخذ من الحديث القدسي المذكور: إن الصوم له تعالى دون غيره من الأعمال؛ بل هي نفس العامل؛ ولذا كان تعالى بنفسه جزاءً للصائم، فإن قلت: قد ورد في مخاطبات موسى عليه السلام: إن الصلاة ونحوها إنما هي للعامل نفسه.

وأمَّا ما كان لله تعالى؛ فهو موالاة أوليائه، ومعادة أعدائه، فما التوافيق بينهما؟ قلت: إن الصوم عمل مخصوص لله تعالى واقع بينه وبين العبد، والموالاة والصلاة المذكورة، قلت: عمل مخصوص لله تعالى واقع بين العباد.

فالصائم: عمل لله تعالى فيما بينه وبينه، والموالي: عمل فيما بينه وبين غيره من العباد، فكل منهما مخصوص له تعالى في مرتبة، وفيه إشارة إلى فضيلة الموالاة والمعاداة المذكورين؛ كفضيلة الصوم، وهذا لا ينافي أن يشهد المكاشف في كل مشهد أسماء الله تعالى وشؤونه، فإن العبرة في الحقيقة للمتعيِّن لا للتعيُّن.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (6215) [6/ 277] ورواه ابن عساكر في تاريخ بغداد، حديث رقم (5604) [10/ 442].

فلا ولي إلا لله، ولا عدو إلا ما سوى الله، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91] أي: الأسماء والتعيُّنات، وتعلُّق بالذات المسمَّاة بها فإنها هي الأحرى بذلك.

* * *

45 ـ **في الحديث** كما في الروضة لابن الخطيب: «**يعجب ربكم من شابٍ ليس له صبوة ظاهرة**»[1]:

إن الصبوة، والميل إلى الهوى، والجهل: من شأن الشاب؛ لاستيلاء قواه البشرية على القلب، وزيادة حرارته الغريزية، فإذا ترك ذلك؛ كان محلَّ التعجب بالنسبة إلى الخلق، والتعجب بالنظر إلى الحق تعالى.

فإن التعجُّب في الأصل: صفة نفسانية يُمتنع اتِّصاف الحق تعالى بها، ويمكن أن حمل على معنى الرضا ونحو على ما هو شأن مثلها، وباطنه إن زمان الشباب زمان العشق والمحبة، ومن المعلوم إن المجاز قنطرة الحقيقة، فإذا فات الصبوة والميل إلى العشق عن الشباب؛ دلَّ ذلك على نقصانه في استعداده، إذ حركة الباطن مما يُنبىء عن صلاح النشأة، واستقامة المزاج، حتى إن أهل بعض الديار كانوا يُجربون الصبيان بالملاهي، فإن أظهروا النشاط؛ دلَّ ذلك على استعدادهم لِما طلب هو له؛ كالسلطنة، ففيه مدح للصبوة، وذمٌّ لعدمها.

والصبوة هاهنا: الصبوة المقبولة؛ وهي الميل عمَّا سوى الله تعالى إلى الله تعالى، وهي صبوة أرباب الحقائق، وهي عين الإيمان الحقيقي، ومَن لم يذق من طعم هذه الصبوة، ولو شيئاً قليلاً؛ لم يذق لذَّة حقيقية أصلاً، فكان حيواناً في صورة الإنسان؛ بل أضلُّ منه، فإن بعض الحيوان؛ كالأبل لها ميل إلى حد أي: لعرب وسكرة من ذلك حتى إنها تقطع بذلك مسافة ثلاثة أيام في يومٍ واحدٍ.

وفي الكلمات المولوية: الصبوة إيماني أي: الإيمان الحقيقي؛ هو الميل من الزُّهد إلى العشق، ومن الحجاب إلى الكشف؛ فإن الإيمان ما لم يكن عيانياً؛

(1) ورد بلفظ: «عجب ربك من شاب ليس له صبوة» كشف الخفاء للعجلوني، حديث رقم (1709) [2/ 71] ورواه ابن أبي عاصم في السنة بلفظ: «إن اللَّه ليعجب من الشاب ليس له صبوة». حديث رقم (571) [1/ 250].

فصاحبه مؤمن من وراء الحجاب، وأين هو من العيان؟ وهو عند صاحب الزُّهد مذموم؛ لأنه يقول للعاشق: قد صبا هذا، ومال من السُنَّة إلى الإلحاد.

وفي الكلمات الأكبرية: جننا مثل مجنون بليلى: أي ابتلينا بالجنون الحقيقي، كما ابتلى المجنون بالجنون المجازي حتى أدَّاه ذلك إلى الابتلاء بالجنون الحقيقي حتى ابتلى بليلى الحقيقة، وتجاوز عن الميل إلى ليلى المجازية.

فإن المشهور عند أهل الله أن قيس بن عامر مجنون حقيقي في الميل، فانظر إلى لطافة العشق مطلقاً.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122]، فالقلب ميت لا يحيى إلا بفيض العشق، ومن المقرَّر عند أرباب الحقائق: إن عالم الوجود عبارة عن: الحسن والعشق؛ فالحسن صفة المعشوق الحقيقي، والعشق صفة العاشق الحقيقي.

وأمَّا الحسن الصوري فمن آثار الحسن المعنوي الكمال الساري في جميع الأشياء، فالعاشق لا ينظر إلى صفات الحسن؛ وهي المظاهر الخَلقية؛ بل ينظر إلى حسن الصفات؛ وهو الظاهر الحقِّي في كل شيء من الأشياء؛ لأن الأشياء الممكنة مَراء لحسن الذات القديمة، فمَن أراد التجلِّي، وشهود الحسن؛ فلينظر إلى الأشياء، ثم إن ترقى إلى التجريد؛ دخل في عالم الأنفس، وإن ترقى إلى التفريد؛ خلُص عن التعيِّنات، وقيودها بالكلية، ولا غاية وراءه، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91].

إنما أمر تعالى بتركهم مع أنهم مظاهر الأسماء، ومن شأن العارف النظر في كل شيء إلى الحق؛ لأنهم نظروا إلى النبي ﷺ بنظر البشرية، ولم يعرفوا إنه الحق في صورة الخلق؛ فعوملوا معاملة الأجنبي؛ وهي الترك، ولو إنهم أعطوا للنظر حقه؛ لكانوا من المكاشفين.

والمكاشف لا يهجر المكاشف؛ لأنه مرآته، فكما أن الله تعالى تركهم في احتجابهم؛ فكذا النبي؛ لأنه صورة الحق تعالى، فانظر إن الله تعالى واصل إلى الخلق، والخلق محجوبون عنه؛ فكذا مَن هو مظهره تعالى في أسمائه؟ فعلم إن المعلوم لا يُجهل، وإن المجهول لا يُعلم فاعرف.

ومعنى ثم هاهنا: التوقف في الترك؛ لأنهم إمَّا على الإدبار، وإمَّا على الوقوف، وإمَّا على الإقبال، فكل من المدبِّر والواقف مردود، وكل من أهل الحركة

والإقبال مقبول؛ لأن الحركة غايتها السكون، وليس السكون إلا عند الوصول، فبعض السكون ليس بشيء؛ كالسكون قبل الحركة؛ لأن فيه الفراق، ولذا قال تعالى حكاية: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، إذ لا شك أن الرجوع لا يمكن إلا بالحركة.

وأمَّا السكون بعد الحركة: فسكون مقبول؛ ولذا قالوا: الصوفي مَن لا مذهب له؛ يعني: إن الصوفي الواصل لا مذهب له، فإنه أين يذهب، وهو عنده تعالى؟

وأمَّا السير في الله: فلا نهاية له؛ لأنه تعالى متجلٍّ في كل آنٍ، وقدير مطلق، فلا غاية لشؤونه، وهو الواسع العليم، جعلنا الله وإياكم ممَن لا ينفد شرابه، ولا ينقطع خطابه آمين.

قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 46].

يعني: إذا دخل السالك جنة القلب، ووصل على نهاية درجاتها؛ سلّم من آفات الظنون والشكوك؛ لأنها مرتبة عين اليقين، وحق اليقين، ولا غاية وراءها، فكلٌّ يرتقي بقدر حاله؛ ولذا يُقال للقارىء: اقرأ وارق إلى حيث تنتهي قراءتك.

فالقارىء الحقيقي هو: المتخلِّق بأخلاق القرآن، والمتحقِّق بحقائقه كما كان حال النبي ﷺ، فكما أنه لا نهاية لحقائق القرآن؛ فكذا لا نهاية لدرجات السير في الله.

وأمَّا درجات الجنان الصورية فمحصورة كسور القرآن اللفظي، وآياته، وكلماته وحروفه؛ وإنما قلنا: ووصل إلى نهاية درجاتها؛ لأنه ليس في كل يقين سلامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] أي: اليقين المطلق الذي هو غاية اليقين، ولا تحصل إلا في نهاية الاطمئنان.

فرُبَّ سالكٍ مردودٍ إلى ورائه في بداية المطمئنة؛ بل في وسطها أيضاً؛ لأن البداية والوسط من مظان الاضطراب والتلوين، وهذا أي: التلوين لا يُمدح إلا بعد التمكين؛ لأنه تلوين التجلِّي لا تلوين الاستتار، فمَن ادَّعى النهاية؛ فبرهانه وجود الصفاء على كل حال، وأين هو من غير الكامل المكمَّل؟ وإذا عرفت هذا؛ فلا تقنع بقليل الكشف واليقين، فإنه قد يكون مسلوباً، كما وقع لكثير من السُّلاَّك حيث رجعوا قهقرى، واحتجبوا عن الحق احتجاباً كثيفاً؛ وهو احتجاب الرحمة بالرأي لا الرحمة.

* * *

46 ـ **في صحيح البخاري**: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليأزر إلى أهل المدينة ما تأرز الحيَّة إلى جحرها**»[1]:

الأروز كالدخول بتقديم المهملة، الانقباض، والتَّجمع، والانضمام، والجُحر بالضم، وتقديم الجيم؛ كل شيء يحتفره الهوام والسباع لأنفسها؛ والمراد هنا ما يُعبَّر عنه بالفارسية: سوراخ.

اعلم أن المدينة هو: النبي ﷺ كما قال: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»[2]، وإيمان الناس ينضم إليه، والوفى أواخر أوقاتهم، وحين احتضارهم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: 159].

وقد شُبِّه الإيمان الاضطراري بدخول الحيَّة في جُحرها دخولها فيه لا يخلو عن سبب ضروري، وشدة، وضيق، فالنفس الإنسانية أشدُّ من الحيَّة في الضرر، والاعوجاج، وإنما تستقيم وقت المعاينة للأحوال الأخروية، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها.

فالمراد بالإيمان: إيمان النفس، ودخولها في مقام القلب الذي لا يُقتضى إلا بالتصديق؛ فإنه مدينة العلم في الحقيقة؛ ولذا ورد: «**استفت قلبك**»[3]، وهو المُظهر للاسم العليم؛ كالمغني.

وفيه إشارة أخرى وهي: إن عليّاً كرَّم الله وجهه لمَّا كان باب مدينة العلم، والباب يُعدُّ من المدينة، ومن البيت؛ كانت الطرق المتفرِّقة الحقة، موصِّلة إليه، فليس طريق من الطرق الحقة إلا وسلوكها إلى ما كان عليه المرتضى من الاعتقاد، والعمل، والحقيقة.

ولذا كان هو رضي الله عنه أبا هذه الأمة، فقامت الأمة، وأخيارهم به؛ كما قام الولد بالأب.

ولِما في النفس شدة الشكيمة، ومشيها على الطريق الحقة صعباً، ودخولها في

---

(1) البغدادي في تكملة الإكمال.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم (4637) [3/ 127] ورواه الديلمي في الفردس، حديث رقم (150) [1/ 43].

(3) جزء من حديث رواه أحمد في المسند عن المستورد بن شداد رضي اللّه عنه، حديث رقم (18035) [4/ 228] ورواه أبو يعلى في المسند عن وابصة بن معبد، حديث رقم (1587) [3/ 162] ورواه غيرهما.

الرياضات، والمجاهدات في الخلوات؛ كدخول الحيَّة في جُحرها؛ أفصح عن حالها بذلك.

وفيه إشارة إلى أن البدعة مردودة، وإن أهل البدعة ليس لهم أن ينتموا إلى المرتضى رضي الله عنه؛ لأن الله تعالى ارتضاه لِما إنه لم يكن فيه إلا السُنَّة.

ولذا كان الوارث النبوي، وخليفة الله في العالم، إمَّا في زمان تعيُّنه الخارجي، فبوجوده الظاهري والباطني، وإمَّا بعد انتقاله فبروحانيته؛ لكن لمَّا كان الحكم للظاهر؛ كان وزيراً للمهدي الذي هو من أولاده، ولا ضَير فإن الوزير في حكم السلطان ظهوراً؛ فهو والسلطان سواء في الحكم.

وإنما لم يقل: إن التوحيد ليأزر إلى المدينة لما أن أدنى المراتب في هذا الباب: هو الإيمان والتصديق؛ وهو من شأن العامة.

وأمَّا التوحيد: وهو رؤية الموحِّد في الأنفس والآفاق متجليّاً على سرٍّ من الأسرار، ونور من الأنوار، ودائراً مع اسم من الأسماء، وكذا التجريد الذي هو انقطاع الملاحظة من الآفاق، وكذا التفريد الذي هو استقطاعها من الأنفس أيضاً؛ فإنما يحصل لأهل الإحسان، وذلك بعد مرتبة الإيمان: أي الإحسان خصوص مرتبة في الإيمان.

فكل مؤمن ليس بموحِّد توحيداً حقيقياً أفعالياً أو صفاتياً أو ذاتياً؛ إذ المشرك بالشرك الخفي مؤمن، وليس بموحِّد وأين أهل الشرك من التوحيد؟ ولذا أن نقول أيضاً: إن الإيمان إنما يُوحَّد بمتابعة شرع من الشرائع، ودخول النفس في السلم؛ وهي صعبة جِدًّا لاعتياد النفس بالاسترسال والإطلاق.

وأمَّا التوحيد: فصفة القلب من حيث نفسه؛ ولذا لا يبقى موحِّد في النار، فعليك بالتوحيد، ومراعاة الأصول، وعليك بالإيمان أيضاً إن أردت أن تكون من أهل الوصول، فإن الطريق هو طريق المتابعة.

قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]، وفيها قطع النفس عن المألوف.

* * *

47 ـ **في حديث مسلم:** قال رسول الله ﷺ: «**إن الكافر**»[1]:

أي: الساتر لنعمة الوجود، وما يتصل بها بالجحود والكفران.

قوله ﷺ: «**إذا عمل حسنة من الحسنات**»[1]؛ أيَّة حسنة كانت من صلة الرحم، وقرى الضيف، وإكرام اليتيم، وإماطة الأذى من الطريق ونحو ذلك.

قوله ﷺ: «**أطعم بها طُعمة في الدنيا**»[1]، إذ لا خلاق في الآخرة، والله تعالى كما هو عدل؛ كذلك هو مُفضَّل، فمن كونه مفضَّلاً ورحماناً على عباده، كلهم يفيض على الكافر أيضاً أجور حسناته، ولو كانت تلك الحسان قليلة كما ينبىء عنه الأفراد، والتنكير في حسنة إذ ليس من شأنه تكثير الحسنات؛ إذ الإيمان له بالله، وباليوم الآخر كما ينبغي.

وكذا الحال في إفراد طُعمة بالضم وتنكيرها؛ لأن أجور الدنيا في جنب أجور الآخرة مما لا قدر له أصلاً.

وفي قوله: (**أُطعم**): على بناء المجهول؛ تحقير لشأنه من حيث إنه كافر.

وقوله ﷺ: «**وأمَّا المؤمن فإن الله تعالى يدَّخر له حسناته في الآخرة**»[2]، في إسناد الادِّخار إلى الله تعالى حيث لم يقل: فإنه يدخل له على المجهول تعظيماً لشأن المؤمن من حيث إنه مؤمن، وفي الحسنات دون الحسنة، كما في خلافه، إشارة إلى أن شأن المؤمن تكثير الحسنات، فإنه بحسب الأسماء الإلهية يُجرى، فله في مقابلة كل اسم خلق وفعل يعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته، يعني: كما أن له أجراً عظيماً في الآخرة بحسب صدقه وإخلاصه؛ فله في الدنيا أجراً أيضاً على طاعته وعبادته.

خُصص الرزق بالذكر؛ لأن أكثر ما يهتم به الإنسان هو الرزق، وفيه إشارة إلى الرزق المعنوي أيضاً؛ لأن الحسنات أعمال صالحة، ومَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم، فله رزق ظاهر وباطن جميعاً؛ لأن الله تعالى عنده ثواب الدنيا والآخرة، ونعيم الصورة والمعنى.

وفي الحديث إشارة إلى أن الفرق بين الزاهد والعاشق: إن الزاهد وإن كثر حسناته فلا يترقَّى عن مقام الطبيعة، والنعيم الحسِّي، وأمَّا العاشق فله النعيم الحسِّي

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا. . ، حديث رقم (2808) [4/ 2162] ورواه الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2886) [3/ 188].

(2) هذا الحديث سبق تخرجه.

بحسب عمله الحسِّي، وله النعيم الروحاني بحسب حاله المعنوي؛ ولكن رزقه في الآخرة أكثر من رزقه في الدنيا صورةً ومعنى، إمَّا صورة، وإمَّا معنى.

فإن الإنسان في الترقِّي دائماً، فما حصل له عند الاحتضار أكثر مما حصل له قبل ذلك، وكذا ما حصل له في البرزخ أكثر مما قبله، وقِس على ذلك ما حصل في المحشر، وفي الجنة، وفي مقام الكثيب؛ ولذا قالوا: الشوق دائم، والنقصان لا يزول.

وهذا مشرب مَن ليس له ري أبداً، فإن كماله حقيقي بالنسبة إلى كمال مَن دونه، وإضافي بالنسبة إلى أن السير في الله لا ينقطع أبداً، فالأمر إذاً لم يكن له انتهاء؛ فالسالك في السير أبداً، وهذا لأن الله تعالى غير متناهٍ بذاته، وأسمائه، وصفاته، وتجليَّاته، وهو الواسع، فكيف الوصول إليه حتى ينقطع السير؟

وقد قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

فجعل الأُلوهية منتهى العلم إذ ما وراءها حيرة وبهت؛ ولكن الأمر لمَّا كان بسيطاً؛ كان السير بسطاً، فالإنسان على السفر دائماً، ومَن استوى يوماه؛ فهو مغبون، وليس الاستواء إلا بالوقفة، أو بعدم المحرك من العشق والانجذاب ونحوهما.

ولذا فُضِّل العمل الروحاني على الجسماني بأضعاف، فأين العابدون من العاشقين؟ وأين العاشقون من الواصلين؟ وأين الواصلون من الحاصلين؟

فاجتهد أن تكون من أهل المكاشفة، ثم من أهل المشاهدة، ثم من أهل المعاينة، فأول الأمر الطلب، ثم السير، ثم الوصول والفناء، ثم الحصول والبقاء، فمَن بقي مع الله؛ فله بقاء بقاء الله، فاعرف.

قال الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6].

قال القاضي في تفسيره: فإذا قاله العارف الواصل عني بقوله: اهدنا، أرشدنا إلى طريق السير فيك؛ لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وغواشي أبداننا؛ فنستضيء بنور قدسك؛ فنراك بنورك، انتهى.

وهذا خطأ عند مَن له ذوق من علوم الأذواق، ومشرب من مشارب السلوك، وذلك لأن السير إمَّا سير إلى الله؛ وهو بالفناء التام في عين الجمع، وليس لصاحبه عين، ولا أثر لا من الهيئات المظلمة السابقة على فتح باب القلب، ولا من

التلوينات التي تظهر في الهيئات النورانية المتأخِّرة عنه؛ وهما الذنب المتقدِّم، والمتأخِّرِ في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

فإنه عند الاستغراق، وظهور النور الأحدي الذي هو أصل الأنوار كلها؛ لا يبقى ظلمة، ولا تلوين أصلاً؛ بل كلاهما مستور مغفور بذلك النور الأحدي الذاتي في مقام السرِّ.

وإمَّا سير في الله وهو: كشف مقام الفرق بعد الجمع، والتعقيد بعد التحليل، واللذَّة الدائمة التي أشار إليها قوله ﷺ: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم أبداً دائماً سرمداً، وقاب قوسين أو أدنى**»(1)؛ وهو الذات البرزخية التي تجمع بين الصفات كلها، ولصاحبه البقاء بالله في ذاته ونعوته.

قالوا: أحب في العبارة أن يقال، فإذا قاله العارف الغير الواصل عني بقوله: أرشدنا إلى كمال السير إليك؛ ليستضيء بنور قُدسك، وإذا قاله الواصل عني بقوله: أرشدنا إلى طريق السير فيك؛ لنفوز بمقام جمع الجمع الذي لا مستقر للكُمَّل دونه؛ إذ ليس دونه حجاب؛ بل هو رؤية الحق في الخلق، ورؤية الخلق في الحق، وهو سرُّ قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1].

فالعارف إذا عرف الله تعالى حق المعرفة؛ كان من الواصلين، والواصل مستضيء بنور القدس، فكيف يكون له ظلمة؟ بل هو ظل الوجود الحقيقي؛ بل هو عين الوجود الحقيقي، فالوصول والظلمة لا يجتمعان أبداً، كما أن الحجاب والنور لا يجتمعان أبداً، نعم إن الحجاب إذا كان حجاب رحمة بالمهملة لا حجاب زحمة بالمعجمة؛ فإن صاحبه على نور من ربه، وكشف أي: كشف، وهو كشف حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة حتى تظهر الكثرات في عين الوحدة، وهو أن تجمع ما له تعالى عليه، وما لك أيضاً عليه.

وترد الكل إليه فما في الكون إلا أسماؤه ونعوته، وبه يظهر قوله: «**فبي يسمع وبي يبصر**»(2).

فإذاً جميع النعوت له تعالى، فلست أنت أنت، وهو هو؛ بل هو أنت، وليس

---

(1) أورده بنحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، من أن التمطر من أمارات المشتاقين إلى اللَّه تعالى [2/ 45]. ورواه بنحوه الطبراني في الدعاء، باب القول بعد التشهد، حديث رقم (624) [1/ 199].

(2) أورده الحكيم الترمذي بنحوه في نوادر الأصول، في بيان عدد الأبدال وصفاتهم، [1/ 265].

في البين أنت؛ إذ العين واحدة في الحقيقة، والله هو الوكيل، وهو الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، كما أن الشمس هي المضيئة في السفر، وكذا هي الخليفة في إضاءة الأهل في البيت، والحضر، فليس لنورها غيبوبة أصلاً، فانظر ماذا ترى؛ فإنها مثال أجلى، وبالنظر أجرى.

ورد: «**والنظر في الأولى والأخرى؛ فإنك عند سدرة المنتهى، وأنت عند قاب قوسين أو أدنى**»[1].

فإذا أرددت النظر وكررت؛ وجدت في كل نظر لذَّة؛ لأنه جديد، ولكل جديد لذَّة، ولا تكرر في الوجود أصلاً؛ ولذا قيل للملوين الجديدان مع تكررهما، فالصورة واحدة، والمعنى متعدد.

قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: 25]؛ يعني: إن التشابه لا ينافي الاختلاف في اللذَّة والله واسع عليم لا ضيق عنده في تجليَّاته؛ ولذا ورد: «**زدني علماً**»[2]: أي حيرة فيك، إذ في كل حيرة تلوين مقبول، وفي كل تلوين تمكين سرِّي سَرى، فلك في كل نَفس من الأنفاس تلوين وتمكين على أنه لا سكون في العالم؛ بل الأمر حركة دائمة، فاسعوا؛ فإن في الحركات البركات، والله واهب العطيَّات.

في الأعراف: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: 26].

اعلم أن هاهنا ستة ألبسة؛ اثنان منهما من ظاهر الدنيا، واثنان من ظاهر الدين، واثنان من باطن الدين.

أمَّا اللذان هما من ظاهر الدنيا: فلباس الضرورة الذي يستر السَّوْءَة.

ولباس الزينة الذي هو الريش.

وفي الزينة أيضاً غرض صحيح لقوله تعالى: لتركبوها وزينة، وفي التنزيل أيضاً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: 32]، ومن الزينة اللحية،

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) جزء من حديث رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير. . ، حديث رقم (1981) [1/ 724] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر ما يستحب للمرء أن يعقب التهليل. . ، حديث رقم (5531) [12/ 341] ورواه غيرهما.

كما ورد من تسابيح الملائكة أنهم قالوا: (**سبحان مَن زيَّن الرجال باللحى، وزيَّن النساء بالذوائب**)[1].

فإن كانت أي: اللحية مع توقيرها معتدلة بالوجه؛ تُترك على حالها، ولا يُؤخذ منها شيء، وإن كانت غير معتدلة؛ يُقصُّ ما دون القبضة من الذقن حتى تعتدل، فإن الزينة في الاعتدال، فلا اعتبار بقول مَن ذهب إلى وجوب توقيرها، وبقول مَن قال بوجوب قَصِّها؛ فإنه لا معنى للإفراط والتفريط، وقد كان ﷺ يأخذ من طول لحيته لا من عرضها.

وأمَّا اللذان هما من ظاهر الدين: فلباس التقوى من محارم الله تعالى على سبيل الوجوب.

ولباس مكارم الأخلاق من العفو الصفح، والإصلاح ونحو ذلك على سبيل الندب؛ فإنه لا بد للمؤمن من هذين اللباسين في الدين.

وأمَّا اللذان هما من باطن الدين؛ فالأول منها: الخرقة المعروفة التي يلبسها الفقراء السالكون من أيدي المشايخ.

وقد صحَّ أن الشيخ الشبلي ونحوه قَدَّس الله أسرارهم لبسوها وألبسوها، وإن بعض الواصلين إلى مرتبة الخلافة قد لبسها من يدِ الخضر عليه السلام، فلا اعتبار بقول المحدثين: من أن لبس الخرق من أيدي المشايخ مما لا أصل له في الشرع على أن نقول: إن ما فعله النبي ﷺ من إلقاء ردائه على كعب بن زهير حين أنشد قصيدته يكفي دليلاً في باب العمل.

والثاني منها: القلب الذي يشتمل على سرِّ الله الأعظم كما قال تعالى:

«**ما وسعني أرضي ولا سمائي؛ ولكن وسعني قلب عبدي**»[2]، وذلك إن اللباس لا بد أن يسع اللابس، فدلَّ وسع القلب على الله تعالى: إنه كاللباس على سرِّه قدر ما يسعه استعداده، وفيه بيان سعة القلب جداً، وإلا فالله تعالى يُمتنع أن يكون مُحاطاً، ولمَّا رأوا أن القلب كان كاللباس على سرِّ الله، وأن باطن الإنسان

---

(1) قال العجلوني: رواه الحاكم عن عائشة وذكره في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر في أثناء حديث بلفظ ملائكة السماء يستغفرون لذوائب النساء ولحن الرجال يقولون: سبحان الذي زين الرجال باللحى والنساء بالذوائب أسنده عن عائشة، كشف الخفاء، حديث رقم (1447) [1/ 538].

(2) أورده الهروي في المصنوع [1/ 291].

اشتمل عليه، وضعوا في الظاهر علامة له؛ ليتوافق الظاهر والباطن؛ وهي الخرقة المذكورة.

فكل من أهل القباء، والعباء يخالف الآخر حيث إن أهل العباء مكاشفون عن الحقائق في الحقيقة، فلا بد لهم من رسم مخصوص يدلُّ على حالهم في الباطن بخلاف أهل القباء؛ فإنهم من حيث إنهم محجوبون عن السر الإلهي؛ لم يكن لهم زينة لهم هي من باطن الدين؛ بل اكتفوا بالزينة الظاهرة التي هي من الحياة الدنيا؛ فظهر أن مَن طعن في خِرَق الفقراء السالكين، فقد طعن في الدين الذي هو الدين المرضي عند أهل الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يعصم ألسنتنا من الزلل وعقائدنا من الخلل، وأعمالنا من الفتور والكسل.

* * *

48 ـ **في الصحيحين: «إن الله يقول: يا أهل الجنة»**[1]: الحسِّية في الآخرة، وأهل الجنة المعنوية في الدنيا.

قوله ﷺ: **(يا أهل الجنة)**: أي يا أهل النعيم مطلقاً؛ وهو النعيم الحسِّي المتعلِّق بالأجسام، والنعيم المعنوي المتعلِّق بالأرواح، وفي النداء، وإضافتهم إلى النعيم زيادة ترويح لهم، وتطييب.

وإشارة إلى أن أهل النار لا نعيم لهم من مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومنكوح، فيقولون: أي كل واحد منهم؛ فإنهم لا حجاب هنالك بين السمع والكلام للطافة الأبدان، والقلوب بخلاف حال الدنيا؛ فإن النداء وإن كان يتوارد فيها أيضاً؛ لكن لا يسمعه المحجوبون، وإنما يسمعه المراقبون المكاشفون.

قوله ﷺ: «فيقولون: **لبيك ربنا وسعديك**»[1]؛ هذامن قبيل التحية المجرَّدة؛ كالسلام من غير ملاحظة المعنى اللغوي، وذلك أن السلام في الأصل؛ كان إشارة إلى سلامة المسلم عليه من أذى المسلم ثم لمَّا ظهر حقائق الإيمان، والإسلام في قلوب المؤمنين وظواهرهم؛ حُمل على التحية المجرَّدة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: 44] فإنه مجرَّد

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب صفة الجنة والنار..، حديث رقم (6183) [5/ 2398] ورواه مسلم في صحيحه، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، حديث رقم (2829) [4/ 2176] ورواه غيرهما.

تشريف لهم من الله تعالى، وكذلك قوله ﷺ: **(لبيك وسعديك)**: إذ ليس المقام مقام الخدمة حتى يقولوا: نقيم لامتثال أمرك إقامةً كثيرةً، وكذا الإسعاد إذ ليس من شأن الله تعالى أن يسعده العبد، ويعيِّنه مرة بعد أخرى، ولا مساغ لحمله على إعانة دينه؛ إذ ليس هنالك تكليف، ودين شرعي كما في الدنيا.

حيث قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7]، وكذا لا يجوز حمله على معنى تطلب منك إسعاداً بعد إسعاد: أي إعانة بعد إعانة؛ إذ الإعانة إنما هي بظهور الحاجة، والعبد هنالك غنيٌ بغنى سيِّده؛ لأنه الملك الحي الذي لا يموت.

وقد قسَّموا الإلهية إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ: لا ينقطع حكمه من الأزل والأبد.

وقسمٌ: ينقطع حكمه أزلاً دون الأبد؛ كالأسماء الحاكمة على الآخرة، وخلودها وخلود أهلها ونعيمها.

وقسمٌ: ينقطع حكمه أزلاً وأبداً؛ كالأسماء الحاكمة على النشأة الدنيوية، فإنها ليست بأزلية ولا بأبدية، فظهر في هذا الموطن، ثم يختفي آثارها في الموطن البرزخي والحشري، وما يليهما، ومن ذلك الاسم المُعين.

وذلك أن كمال الإنسان تدريجي، فلمَّا هبط آدم عليه السلام إلى الأرض؛ ظهرت الأسماء الإلهية على التدريج مثلاً يَسر له أسباب المعيشة، فناداه: يا لطيف حمِّ قواه على ما اقتضاه منه فناداه: يا مُعين، وهكذا.

وليس في الجنّة ما يطلبه الله تعالى من العبد حتى يعينه عليه، فظهر أن أمثال تلك العبارة من قبيل الصورة التي ورد عليها في الدنيا من غير ملاحظة المعنى المدلول، وإن كان موطن يحتمل تلك الملاحظة، فاعرف هذا، ودعْ التكلُّفات؛ فإنها من ضيق الفهم، وعدم الفرق بين الأسماء، وبين النشأتين.

والخير كله في يديك أي: في قدرتك، وإنما لم يذكر الشر لأنه شر بالنسبة إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ بل جميع أفعاله تعالى مشتملة على الحكم والمصالح؛ فهو كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ [آل عمران: 26].

وقوله ﷺ: «**وكلتا يديه يمين مباركة**»[1].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (214) [1/ 132] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر خبر أوهم عالما من الناس أنه يضاد خبر عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه. . ، حديث رقم (6167) [14/ 40] ورواه غيرهما.

فيقول: «**هل رضيتم؟**» بما أوتيتم من النعم الحسِّية والمعنوية، فيقولون: «**وما لنا لا نرضى يا رب**».

في قوله: (**يا رب**): إشارة إلى أن الكلام مع الكل، والقول من الكل، فإنه أدلُّ على حصول الرضا بخلاف ما لو سكت البعض.

وقوله ﷺ: «**وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك**»: أي ممَن يلي عالم الخلق؛ فإنهم ليس لهم النعيم الروحاني بخلاف من في عالم الأمر، فإنهم المستسعدون بذلك إلا أن مَن بقي في عالم الأرواح لم يشرب من مَشرب الأذواق الخلقية بخلاف من جمع بين عالم الخلق والأمر نزولاً وعروجاً، فافهم جدّاً، فإنه سرٌّ عزيزٌ.

والحاصل: أن أهل الحجاب بقوا وراء الباب، فلم يكن لهم نصيب إلا الحظ الجسماني، وأن أهل الأبداع والوقوف بقوا داخل الباب، فلم يكن لهم إلا الحظُّ الروحاني.

ومَن دخل، وخرج أحرز النصيَّبين، فله القدح المعلى.

فيقول: «**ألا أعطيكم أفضل من ذلك**»: فيه إشارة إلى أنهم بقوا مع النعيم المجرَّد المطلق منه غير ملاحظة للحكمة في ذلك، فإنه قد يتحوَّل ا لنعيم جحيماً بالنسبة إلى أهل الدنيا؛ لأن قلوبهم بين إصبعين من أصابع الرحمن، فيخاف عليهم من التقليب من حال إلى حال.

ولمَّا كانت الجنة ليست تُعطى ذلك بذاتها، قال تعالى: «**ألا أعطيكم؟**. . . إلخ»: إتماماً للنعمة، وإكمالاً للمنَّة.

وفي الخبر: «**فيقولون: يا ربِّ وأي شيء أفضل من ذلك؟**»: إذ ليس فوق نعيمهم نعيم بالنظر إلى تجليَّات الأفعال.

فيقول: «**أحلُّ عليكم رضواني**»: أي أُنزل عليكم قلوباً، وأجساداً برضاي الكثير؛ فإن الرضا الحاصل الآن قليل يحتمل الزوال والدوام.

ولذا قال: «**فلا أسخط عليكم بعده أبداً**»: وفيه دلالة على أن السعادات الروحانية أفضل من الجسمانية، وأن كلاً من السعادتين لا تُكمَّل إلا بالرضا؛ ولذا لم يعتبر نعيم الكفرة والفجرة، وكذا أذواق الرهابنة والفلاسفة، ومَن يتلوهم من أهل الرياضة، وأن آخر التجليَّات الصفاتية الذاتية تجلي صفة الرضا.

ومن آثاره: صفاء القلوب على كل حال.

وأمَّا الأبدان: فلا تزال تُبتلى إلى آخر الأجل، كما أن آخر التجليَّات الأفعالية تجلي التوكُّل.

ومن نتائجه: نزول المائدة من السماء وقت الضرورة إلى الغذاء، كما وقع لمَن جال في البراري، والصحاري وقعد في المغارات والكهوف سنين.

وفيه إشارة أيضاً إلى أن آخر شيء ناله الممكن: مرتبة السماع، فإنه ختم أمر أهل الجنة بالسماع، كما بُدىء أول الأمر أيضاً؛ لأنه تعالى قال: (كن) فسمعه الممكن، فكان كما ذهب إليه أهل الحقائق، وبعض من أهل الظاهر.

وكذا آخر الأمر في حقِّ الكفار، فإنه تعالى يقول: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108]، وهذا بالنسبة إلى العباد.

وأمَّا بالنسبة إلى الله تعالى: فآخر الكمال الكلام، وبه ينختم أمر الأنام.

وأمَّا الرؤية: فليس من قبيل الكلام والسماع؛ بل هي من قبيل المشاهدات بالأبصار والبصائر، كما يقتضيه المعارف الحاصلة لأربابها؛ وهي المزيد الذي ليس في مقابلة الأعمال، وإنما هي من نتائج المنَّة الإلهية يرحم الله لنا ولكم بذلك.

* * *

49 ـ **في الصحيحين** قال رسول الله ﷺ: «**إن الهجرة قد مضت لأهلها**»[1]:

اعلم أن الهجرة: هجرتان: هجرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وذلك أنهم إذا خرجوا عن عهدة التبليغ، فأطاع مَن أطاع، وعصى مَن عصى، فأُمروا أن يهاجروا إلى مكة المكرَّمة مع مَن تبعهم من المؤمنين؛ لئلا يروا العذاب الأليم الذي أرسله الله تعالى إلى عُصاة الأمة، ولمَّا كان عصر نبينا ﷺ، وعصى من عصى أمره، وأمر هو أيضاً بالهجرة إلى المدينة، لئلا يرى عذاب قومه؛ لأن الله تعالى ما كان ليعذبهم وهو فيهم، أو وهم مستغفرون كما دلَّ عليه النص؛ بل لمتابعة الأنبياء، وتكميل مرتبتي الفناء والبقاء.

فكان عذاب الأمم السالفة بأنواع المثلات، وعذاب قوم نبينا ﷺ بالسيف، كما قال: «**بُعثت بالسيف**» والسيف أدنى العقوبات شناعة، فكان ذلك من جملة الرحمات التي بُعث بها النبي ﷺ.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام. . ، حديث رقم (1863) [3/ 1487].

فهذه هي صورة هجرة الأنبياء، وفيها إشارة إلى أن مُضي الهجرة للأنبياء؛ إنما هو بمعنى مُضي وقت النبوة؛ لأن هجرة الأنبياء إنما تمضي بمُضي أنفسهم، وعدم بقاء واحد منهم؛ فكأنه يقول؛ إن النبوة قد خُتمت بي فلا هجرة بعد هجرتي، فهذا يؤيد قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40].

«**ولكن على الإسلام**»: أي ولكن أُبايعكم على الإسلام؛ بمعنى أن مرتبة الولاية باقية إلى يوم الدين؛ لأن الإسلام الحقيقي الذي هو الانقياد ظاهراً وباطناً؛ إنما هو في صفات الأولياء.

«**والجهاد**»: أي مع الأعداء الظاهرة والباطنة؛ بمعنى إن مرتبة الطريقة باقية ببقاء الشرائع والأحكام وهي المرتبة العثمانية رضي الله عنه.

«**والخير**»: أي فعل الخيرات التي رغب فيها الشرع؛ بمعنى: أن مرتبة الشريعة باقية ببقاء الأمة فلا نسخ لها أبداً.

فالإسلام: إشارة إلى مرتبة الحقيقة التي هي مرتبة الولاية؛ لأنها لا تحصل إلا بالفناء والبقاء، وليس ذلك إلا معنى الحقيقة في الحقيقة.

والجهاد: إشارة إلى مرتبة الطريقة التي هي مرتبة السلوك؛ لأنها لا تحصل ولا تقوم إلا بالرياضات والمجاهدات؛ وهي باقية ببقاء النفس.

والقوى الطبيعية، والخير: إشارة إلى مرتبة الشريعة التي هي مرتبة العمل؛ لأنها لا قوام لها إلا بأفعال الخير؛ فهذه مرتبة الصلاح.

فالعبد إذا تحقق بها؛ ترقَّى إلى مرتبة السلوك بالعمل بحقيقة التقوى، ثم إذا تحقق بمرتبة السلوك؛ نال ما نال الصدِّيقون؛ وقوام الأمر هو الاعتقاد أولاً، فإنه أساس الخيرات، وهي أساس ما فوقها من الطبقات.

فانظر إلى الحديث كيف أدرج فيه مرتبة النبوة، ومرتبة الصدِّيقية، والشهادة، والصلاح، وتمعن فيه حتى يظهر لك حقائق ما قلنا، فالله الهادي.

والهجرة الثانية: هجرة الأولياء، ومَن يليهم من الصلحاء، وهي تابعة لهجرة الأنبياء؛ لأنهم تحت لوائهم، وتابعون لهم؛ فهي هجرة صورية لا هجرة الولاية، إذ هي كما قلنا: باقية أبداً، فالنبوة بمنزلة السلطنة مخصوصة بأهلها، والولاية عامة ليس لها طريق مخصوص، ونهاية معلومة.

❊ ❊ ❊

50 ـ **في الصحيحين**: قال رسول الله ﷺ: «**إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقُسط البحري**»[1]:

يُشير ﷺ إلى أن الله تعالى كما خلق أمراضاً في هذه الهياكل السفلية حسب العناصر، وامتزاج بعضها ببعض، وتسوية التركيب البشري بحيث يقبل الانحلالات والانحرافات؛ كذلك خلق للأمراض علاجاً وأدوية؛ لئلا يقهر بعض الأحوال والكيفيات بعضاً، ويبقى الإنسان صحيح البدن إلى أجل مُسمًّى، ويتحقق ما كُلِّف به من الأعمال.

فمن ذلك: الحجامة في جذوة القمحدوة[*]: أي وسطها، وهي التي تمسُّ الأرض حين الاضطجاع، وذلك أن العروق حاملة للدم، فإذا أُجري الفاسد منه؛ سلم البدن من الآفة، وبسلامته يسلم الروح؛ لأنه كالمطيَّة له، فإنه إذا سلم، سلم المركب من العطب.

والقُسط بالضم: عود هندي، وعربي مُدر نافع للكبد جدّاً وللمغص، والدود، وحُمى الربع شرباً، وللزُّكام، والنزلات، والوباء بخوراً، وللبهق، والكلف طلاء.

والبحري منه: يكون أبيض مُرّاً؛ فإن المرَّ فيه الشفاء، ففيه ما لا يُخفى من المنافع التي لا تحل بالحجامة.

وفي الحجامة: أي إزالة الشهوات من الطبائع والنفوس؛ لأنه كما أن الدم سائر في العروق، وبسريانه فيها يسري في أجزاء البدن كلها.

فكذا الشهوات سارية في الطبائع والنفوس وعلاجها إصلاح الطبيعة بالشريعة، ومنها الصوم، وتقليل الغذاء، وأكل الحلال، وترك الطيبات، والسهر ونحو ذلك.

وفي القُسط البحري: إشارة على التأوُّه، والزفرات، والشهقات الحاصلة للروح الذي هو من البدن؛ كالبحر من البر، وذلك أنه تُبخر به النفساء، والصبيان؛ فيحصل لهم من دخَّانه منافع ظاهرة وباطنة.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الحجامة من الداء، حديث رقم (5317) [5/2156] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في فضل الحجامة، حديث رقم (19308) [19308] ورواه غيرهما.

(*) القمحدوة: ما خلف الرأس، والجمع قماحد (لسان العرب).

والروح إذا لم يتخلَّص من حكم البدن بالكلية، وقهره بعض الانفعالات الحاصلة من الأسباب الخارجة، أو السماوية لا بد إذاً أن يتأوَّه دفعاً للانقباض، وجلباً للانبساط، وفي التأوُّه بخارات نَفَسية لها آثار نفسية؛ ولذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام أوَّاباً أي: كثير التأوُّه.

ولمَّا كان التمكين التام غالباً لحضرة نبينا ﷺ، كان حزنه الدائم الطويل في حكم التأوُّه، فإنه كان طويل الحزن دائم الفكر، وإن كان عند الخلق، ومحافل الناس بشوشاً مبتسماً، فإن ذلك لا يقدح في حال باطنه، وحكم خلوته.

فالسالك إذا عالج طبعه بإزالة الشهوات التي هي في حكم الحجامة، وروحه بالتأوُّه، والصحيح العاري عن التعمُّل؛ كان مرضه النفساني الروحاني زائلاً بالكلية كما دلَّ عليه صيغة التفضيل في الحديث.

وتأخيره عن الحجامة إشارة إلى أنه مبني على إصلاح الطبع بناء الفرع على الأصل؛ لأنه إذا صلُح الطبع؛ صحَّ الروح، فكان ما صدر عنه سالماً عن الأغراض.

وترى أهل الطبائع في هذا الزمان يتأوَّهون في مجالس الذكر، ويزفرون، ويشهقون، ثم هم كالحمير في زفراتها وشهقاتها؛ لأن كل ذلك مبني على الشهوة الطبيعية، والله تعالى يُحاسب عبده من حيث الاسم العدل على كل ما صدر عنه إذا كان غير حاضر مع سيده وربه؛ بل كان باقياً بطبعه ونفسه.

فما كان من النفس؛ فهو راجع إلى النفس، وما كان من الروح؛ فهو راجع إلى الربِّ؛ لأن الروح منفوخ الربِّ، فكما أنه تعالى لا ينفخ إلا ما هو نافع؛ فكذا الروح لا ينفخ إلا ما أُخذ من النافخ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه؛ ولذا يكون نباته نباتاً حسناً، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً قليلاً لا جدوى فيه ولا خير.

قال الله تعالى وسبحانه: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: 29].

اعلم أن ما يفعلونه من تزيين السوق عند ظهور الفتوحات الصورية مأخوذ من هذه الآية الكريمة، فإنه سبب يغيظ الكفار، وما هو سبب له فهو المشروعات إلا أن مَن آمن في هذا الزمان؛ لم يزل من خلط عمله بالسيىء؛ لقوة النفس الأمَّارة، وشدة شكيمتها، فلا يقدر على كبح عنانها إلا أهل التقوى.

فالخير اليسير إذا أدَّى إلى ضرر كثير؛ وجب تركه، وفيه إشارة إلى أن القلب إذا كان مفتوحاً بتأييد الله تعالى؛ فلصاحب القلب أن يعمل بالرُّخص في بعض

الأوقات من تزيين الظاهر بالألبسة المشروعة، وأكل الطيِّبات، وزيارة الأخوان في الله، ونحو ذلك، فإنه مُتدَارك بفضل الله تعالى وبرحمته؛ إذ لا يباشر أمراً إلا بالحق؛ وهو النكاح الصحيح فلا يلد إلا ولداً لرشده.

وقد قالوا: الفاني لا يُردُّ إلى أوصافه إلا مَن ذاب الكُمَّل أن يجددوا الشكر كلَّما تجدَّدت النعم الإلهية، وشكرهم هو القيام بأمر العبودية من غير نظر إلى الرُّخص إلا نادراً، فزينتهم الظاهرة؛ الطاعات المشروعة، وزينتهم الباطنة: لباس التقوى، وما يرد من الله تعالى من الأسرار والحقائق؛ لأنه لباس لهم في الحقيقة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي؛ ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**»(1)، فكما أن ظاهر المؤمن يسعه لباسه، وإلا لم يكن محاطاً به؛ فكذا باطنه يسع الحق وأسراره؛ فيكون كاللباس له.

ويلزم من ذلك: أن يكون الحق تعالى محاطاً، فإن المقصود من ذلك الكلام الإلهي: بيان سعة قلب المؤمن الكامل، وكونه عرش الرحمن، ومحل نزول مائدة المنان، وإلا فالله تعالى كان محيطاً لا محاطاً.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255] وهو الذي يحصل لقلوبهم بالتجليَّات الأفعالية والصفاتية والذاتية.

وقال الله أيضاً: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26، 27]. وكذا الولي الوارث تراه مُرتضى مصطفى من بين العباد، مختصاً بالرحمة الخاصة من عند الله تعالى، فمَن طلب الحق تعالى وأسراره؛ فليجده في قلب عبده المضاف إلى هويته المطلقة، فإنه يجده هنالك على وجه التمام والكمال، لزيادة قابلية المظهر، وسعة قلبه، فعلوم المعلومات التي تَجلَّى بها الحق تعالى خلقاً وأمراً؛ حاصلة لقلوب الكُمَّل إلا ما استأثر به في غيبه؛ وهي الممتنعات، وإلا لأبرزها الحق تعالى أيضاً، فهي بالنسبة إلينا ممتنعة، وما عداها ممكنة، ومن ثم قالوا: ليس في علم الله إلا الواجب والمستحيل.

وإنما الإمكان بالنسبة إلى الممكن، وفيه شائبة الإيجاب على ما ذهب إليه الفلاسفة؛ لكن ذلك لا ينافي الاختيار.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: 9].

(1) هذا الحديث سبق ذكره.

أي: لو شاء هدايتكم؛ لهداكم أجمعين؛ لكنه لو يشاء ذلك؛ بل إخبار عدم هداية البعض، وأوجبه على نفسه لِما يقتضيه استعداده الغير المجعول، كما كتب على نفسه الرحمة في حق مَن شاء من عباده لِما يستدعيه استعداده الغير المجعول أيضاً؛ فهو إيجاب ذاتي رحمة، أو غضباً تابع للاستعدادات، والله تعالى هو الخلاَّق، فإذا وقفت على هذا المعنى فقد أحطت بعزيز الأسرار خبراً، والله العليم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

لأن ذلك من الغفلة الطارئة من حكم الطبع الحيواني، والله تعالى حيٌّ بحياة ذاتية أصلية ليست من جنس الحياة الطبيعية الملكية، ولا من جنس الحياة الطبيعية البشرية، ولا من جنس الحياة الطبيعية الحيوانية.

فإن هذه الحياة بأنواعها داخلة تحت الطبيعة مطلقاً، أمَّا حياة المَلَك فداخلة تحت الطبيعة الكلية؛ ولذا كانت حياته نورانية، ولم يطرأ على حياته موت حيواني؛ بل غشيان هو في حكم الموت له، ومن هنا لم يقبل نشأته الجزاء؛ لأنه مطبوع من النور، وتكليف من قبيل العبادة الذاتية، كما أن أهل الجنة في الجنة، فهو على حد سواء في النشأتين بحسب نورانيته فلا جسد له كشف حتى يتمتع بنعيم الجنة الصورية، ولا كمال له روحاني بحسب التكليف البشري حتى يتمتع بنعيم الجنة المعنوية، نعم له لقاء وشهود دون لقاء البشر وشهوده.

وأمَّا حياة البشر، وحياة الحيوان: فداخلة تحت الطبيعة الجزئية، والله تعالى خالق الكليَّات والجزئيات، ومتجمِّل بصورها من حيث إنه المصوِّر؛ لكنه ليس من جنس شيء من الأشياء، فلا نوم له، ولا سُنَّة؛ لأنها من الأحوال العارضة لمَن يقبل ذلك.

ولمَّا كان من الحكمة العليَّة والإلهية: أن يخلق مظهراً تاماً من شأنه أن يظهر بكل صفة من الصفات الإلهية؛ خلق النور المحمَّدي، والجسد الأحمدي؛ فجعله بحيث إذا نامت عيناه الظاهرتان لم ينم عينا قلبه، كما هو أخبر به عن نفسه، فهو أيضاً لا تأخذه سنة ولا نوم في الحقيقة، وإنما أخذه النوم والسنة في الظاهر بحسب حسِّه وبشريته، فذلك النوم إنما هو نازل في الخيال لا في القلب.

أمَّا الأول: فليشهد بعين الخيال عالم المثال الذي هو من الحضرات الخمس، وهو عين الحق أيضاً في مرتبة الخيال والمثال.

وأمَّا **الثاني**: فلأن القلب في الحقيقة من المجرَّدات، وإنما جعله الله في الإنسان يشهد به الله تعالى في الحضرة المخصوصة الغيبية، وليشهد حقائق ملكوته في جميع الحضرات، فكان ﷺ حقّاً في جميع الحضرات، وخلقاً في حضرة الجبروت والملكوت، والشهادة المطلقة، والحضرة الناسوتية الإنسانية دون الحضرة اللاهوتية، فإنها من عالم الوجوب والحق، لا من عالم الحدوث والإمكان، والخلق.

فإن قلت: هل في العالم مَن هو على صفة فيما ذكر؟

قلت: لو كان لكان دونه لا مثله؛ لأنه (ليس كمثله شيء) فاعرف.

فإن الكاف ليست بزائدة على هذا التقدير، والله تعالى وإن لم يكن له مَثل في الحقيقة؛ لكنه لمَّا خلق آدم على صورته؛ كان آدم مثلاً له صورة من حيث ظهوره بالصفات الإلهية كما أن الوزير الأعظم كان مثلاً للسلطان في حكم الظهور، وإن كان السلطان لم يكن له مثل في الحقيقة؛ لأنه ظاهر بسرِّ الوحدة، وفي صورة الوجوب الذاتي.

والمراد بآدم في قوله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»[1] آدم الأول الذي هو من عالم الجعل والإبداع؛ وهو الروح المحمَّدي؛ لكن لمَّا كانت الكمالات بأسرها منوطة بالوجود البشري؛ أنزله إلى مرتبة آدم الثاني الذي هو أبو البشر لا أبو الأرواح؛ فجعله على صورته في الجملة؛ لأنه جزء من جزئياته، فاعرف هذا المقام إن كنت إنساناً.

* * *

51 ـ في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»[2]:

اعلم أن إضافة الفقراء إلى المهاجرين تقتضي أن يكون المهاجرون صنفين:

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن ضرب الوجه، حديث رقم (2612) [4/ 2017] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الزجر عن قول المرء لأخيه قبح اللَّه وجهك، حديث رقم (5710) [13/ 18] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (2979) ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن هذا العدد المذكور في هذا الخبر لم يرد به. . ، حديث رقم (678) [2/ 453] ورواه غيرهما.

الأول: أغنياؤهم، ومَن في حكمهم؛ فإنهم كانوا يعدُّون مَن له امرأة، ومسكن، وخادم من الملوك، وإن لم يكن له مال آخر.

والثاني: فقراؤهم؛ وهم على ما جاء في الحديث الكوثر: «**الدنس الثياب، الشعث الرؤوس، الذين لا يزوجون المنعمات، ولا يُفتح لهم أبواب السدد، ويموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو اقسم على الله لأبرَّه**»[1]؛ فهم الذين يسبقون الأغنياء في دخول الجنة، وفي الورود على نهر الكوثر في الجنة.

وتحديده: «**بأربعين سنة**»: لا ينافي تحديده: «**بخمسمائة عام**»، على ما جاء في رواية أخرى.

فإن المراد بالأربعين: التكثير؛ فيكون مدة سبقهم الأغنياء خمسمائة عام.

وسرُّه: أن لهذه الأمة يوماً واحداً هو ألف سنة كما جاء في الحديث:

«**إن استقامت أمتي؛ فلها يوم ونصف هذا الألف هو خمسمائة عام تقدَّم بها الفقراء**»[2]؛ لأن فتوح الدنيا إنما كمُلت بعد مُضي النصف الأول من الألف، فكان أكثر الأولين بالنسبة إلى الآخرين في عُسرة وضيق، فكانوا أحق بالتقدُّم بتلك المدة.

فإن قلت: المراد بالفقراء: الأغنياء وأغنياء المهاجرين؛ كانوا في الصدر الأول لم يمضِ عليهم عِقد من العقود، فكيف بخمسمائة؟ قلت: سرُّه كما أن فقراء المتأخِّرين ملحقون بفقراء المتقدِّمين، كذلك أغنياء المتقدِّمين ملحقون بأغنياء المتأخِّرين، فكان الفقراء كلهم قد جاؤوا قبل خمسمائة من الألف، وكان الأغنياء كلهم قد جاؤوا بعد خمسمائة.

وفي ذلك تعظيم لأهل الفقر، وإلحاق لهم بأهل القرون المتأخرة، ومن ذلك تأخُّر سليمان عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وتأخر الموالي عن المماليك؛ لأن صفة العبد هي الذلة، والعجز، والافتقار، والمملوكية، وبها تقدُّمه عند الله تعالى.

كما أن صفة الرب؛ هي العزَّة، والقدرة، والغنى، والمالكية، وبها تأخُّر العبد عند الله تعالى؛ لأنه تلبَّس بلباس الذات الإلهية، ومن ثم لم يكن لأحد من الكُمَّل سوى الله تعالى؛ فأخرجوا من مُلكهم كل جليل ودقيق، ولو كان قميصاً يلبسونه؛ فلبسوه بطريق العارية، ومَن له نصاب من الصوفية؛ يبقى إلى آخر السنة، فليس له

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10485) [7/ 332].

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

نصيب من أنصباء أهل الفقر؛ فيبقى مع الأغنياء المتأخِّرين عن درجات السابقين.

وكان من شأن الفقراء: فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام على ما ذكره الشيخ المكي في «قوت القلوب»[1]؛ وذلك لأن لهم مشاركة لفقراء المؤمنين في صورة الفقر، فإذا كان فقر المؤمن يستدعي تعجُّله إلى الجنة قبل الغني؛ كان فقر الكافر يقتضي تأخُّره عن الغني في دخول النار.

فكان المؤمن الفقير أرفع درجة من الغني، كما يوجبه سبقه إلى الجنة، لا كما زعم بعض أهل الظاهر من أن السبق في الدخول لا يستلزِّم رفع الدرجات على مَن تأخَّر؛ بل قد يكون بعض مَن تأخَّر؛ كالذين أنفقوا مالهم في وجوه الخيرات أرفع درجة ممَن سبقه في الدخول هذا كلامه؛ وهو جهل بالحقائق، ومقتضيات الآثار.

فإن النبي ﷺ: فضَّل الفقير المسبِّح على الغني المتصدِّق؛ فالغني: إن خرج عن ماله بالكلية قبل موته؛ فهو من الفقراء، وإلا فمتأخِّر عنهم، وهذا إنما بالنسبة إلى مَن لم يكن نبياً، فأمَّا مَن كان نبياً؛ كسليمان عليه السلام فتأخُّره عن الأنبياء لا يقتضي تأخُّره عن الأولياء؛ لأن مقام النبوة أرفع من مقام الأولياء، نعم يجوز أن يكون فقراء المهاجرين فوق الكل؛ تعظيماً لمتبوعهم، وإلحاقاً لهم بدرجته في جنة عدن على ما تقتضيه الحقائق.

هذا فكما أن المؤمن الفقير أرفع درجة من المؤمن الغني؛ فكذا الكافر الفقير أخفُّ عذاباً من الكافر الغني، فدَركة الكافر الفقير فوق دركة الكافر الغني؛ فيكون دركة الكافر الغني أنزل من دركة الكافر الفقير.

ولا شك أن الإنزال دركة أشدُّ عذاباً دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145].

كما أن الأعلى درجة أقوى نعيماً، فثبت أن أهل النعيم متفاوتون في درجاتهم بحسب أعمالهم وأحوالهم، وكذا أهل الجحيم فليس مَن كفر فقط مساوياً في الدركة بمَن كفر، وقتل، وزنى، وشرب، وفعل من المحرَّمات ما لم يفعله الأول.

وعلى هذا جاء به الشرع، ولا يخدشه ما في المذهب الحنفي: من أن الكفار غير مخاطبين بالفروع، فإن ذلك بالنسبة إلى الأوامر.

وما ذكرنا بالنسبة إلى المناهي على أن أهل الحقائق قائلون: بأن الكفار

---

(1) مطبوع في الدار بتحقيقنا.

مخاطبون بالفروع على أن القول بكون الكفار غير مخاطبين بالفروع قول بعض الحنفية لا كلهم على ما تقرر في محلِّه.

ويجوز أن يُقال وجه التحديد في الحديث بالأربعين: إن الفقر الحقيقي إنما يتم في الأربعين؛ وهو الخروج عن الوجود بالكلية، والخلو عما سوى الله تعالى بالمدة، ومدته بالنسبة إلى هذه الأمة المرحومة، وإن كانت أربعين سنة من سنين الدنيا؛ لكنها في حكم أربعين ألف سنة من سنين الآخرة.

كما كانت مدة تخمير الطينة الآدمية أربعين ألف سنة حتى جاءت الحياة الدنيوية الصورية؛ فحصلت الحياة الأخروية للفقراء المهاجرين قبل الأغنياء بأربعين ألف سنة، كما حصلت لغيرهم من الفقراء مطلقاً بخمسمائة عام من سنين الآخرة؛ وهي نصف يوم، وأين الخمسمائة من أربعين ألف سنة؟ وبه يحصل التوفيق بين الروايتين، ويظهر فضل فقراء المهاجرين على غيرهم.

وهاهنا كلامٌ آخر متعلِّق بدوام سرِّ الصحبة يعرفه أهله.

ويمكن أن يقال أيضاً إنَّ الأربعين لها عشرات أربع، وبالأحدية تكون خمساً، وكل عشرة إجمالاً عقداً من عقود المئات، فالمجموع خمسمائة، فالأربعون تدور بالخمسمائة، ولذلك خصَّهما النبي ﷺ بالذكر.

ولي وجه آخر في هذا المقام هو أن المراقب الأنفسية خمس، وهي: الطبيعة، والنفس، والقلب، والروح، والسرُّ، وهي في الحقيقة ثلاث هي: القلب، والروح، والسرُّ، وبالأحدية أربع، وذلك أن الإنسان الكامل إنما يدخل الجنة بمرتبة هذه الثلاث؛ فيطرح الطبيعة والنفس في جهنم، وهما: قدما الجبار كما جاء في الحديث، فكان الخمس مشتملاً على سرِّ الأربع، وكل من الخمس في مقابلة تامة مع اسم من الأسماء الإلهية جلالية وجمالية.

والقلب متوسط بين المرتبتين التحتيتين، والمرتبتين الفوقيتين كالشمس بين الأفلاك، وهو نصف الوجود، ونصفه الآخر القالب.

القالب من حيث إنه محلُّ معرفة الله كالنور أفضل من الظلمة، كان الوجود عبارة عن القلب، وبكماله يظهر فضل الناس بعضهم على بعض، فمَن أصلحه كان كمَن أصلح الجسد كله، وكان هذا الصلاح أكمل في فقراء المهاجرين، فاستدعى الحال تقدُّمهم على غيرهم لخمسمائة عام فافهم جدّاً.

وهم وإن كانوا سابقين في الدنيا؛ لكن لمَّا كان هذا السبق إلى الجنة المعجَّلة القلبية لا إلى الجنة المؤجَّلة الحسية؛ قيَّده ﷺ بيوم القيامة؛ لأن أثر السبق إنما يظهر في ذلك اليوم، وفي ذكر الخريف إشارة إلى أن ذلك زمان اقتطاف عناقيد الجنان، ووقت اجتناء ثمرات الفردوس.

* * *

52 ـ **في صحيح مسلم** قال رسول الله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن؛ كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**»[1]:

بنو آدم مائة وخمسة وعشرون جزءاً: مائة في بلاد الهند، والباقية فيما عداها من البلاد مطلقاً كلهم في النار إلا جزءاً واحداً هم أهل السُنَّة، والجماعة من المؤمنين.

وفيه إشارة إلى كثرة أفراد الجلال، وقلة أفراد الجمال؛ لكن لمَّا كان المقصود الأعظم: ظهور الإنسان الكامل، وبروز الخلافة الإلهية؛ كان الواحد في كل عصر من الكُمَّل كألف من غيرهم، وذلك من باب الغيرة الإلهية؛ لأن الجمال الإلهي لا ينبغي أن يراه إلا أولو الأبصار.

والمراد بالأصابع: الصفات الإلهية؛ كالقدرة، والإرادة، والقدرة ونحو ذلك، وأُضيفت إلى الرحمن لا إلى الاسم الله؛ إمَّا لأنهما بمعنى واحد في الحقيقة كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110].

فالرحمة الظاهرة في الرحمن باطنة في الجلالة، والجلال الظاهر في الجلالة باطن في الرحمن.

وإمَّا لأن تقليب القلوب من باب الرحمة، وإن كان في صورة الغضب؛ لأن مآل الغضب إلى الرحمة، فكم من مبتلى ابتلاؤه عين الرحمة في حقه؛ لأنه به يعرف قدر العافية، وفي حق غيره؛ لأنهم يعتبرون به.

وكم من معافى عافيته عين الغضب في حقه؛ لأنها تكون استدراجاً له، وفي

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر ما يستحب للمرء أن يسأل اللَّه جل وعلا. . ، حديث رقم (902) [3/ 184] ورواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب الاستعاذة، حديث رقم (7861) [4/ 443] ورواه غيرهما.

حق غيره إن كانوا من أهل الابتلاء؛ إذ به يردُّون الأقضية الإلهية، ويعترضون على الله تعالى في أحكامه الأزلية المبرمة.

والإصبعان: الصفتان المتضادتان من الهداية، والإضلال، والرحمة، والغضب، والإكرام، والإهانة، والإعزاز والإذلال، وغير ذلك.

وبذلك يتحوَّل العبد من حال إلى حال: مرة من الحالة الحسنة اعتقاداً وعملاً إلى الحالة السيئة اعتقاداً وعملاً، وأخرى بالعكس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24].

فإنه إذا كان حائلاً بينه وبين قلبه؛ كان أقرب إليه منه، فيفعل ما يفعل من التصريفات على ما يقتضيه استعداده الأزلي، الغير المجعول التابع له الحكمة الإلهية، فتصريفه إياه من حال إلى حال: أي حال كان عدلاً محضاً من الله تعالى؛ فإن الله تعالى ليس بظلام للعبيد.

فمَن وجد خيراً؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومن إلا نفسه، فالكل يجري على القضاء الأزلي، والسر القدري لا يقدر أن يخالف ذلك؛ ولكون فهمه من الغوامض؛ مُنع العامة من بحث القدر؛ بل الخواص أيضاً، وإن كانوا قد فهموا ذلك؛ لأن البحث عنه يفضي إلى تعطيلات فاسدة، ثم إنه تعالى شبَّه تقلب القلوب كلها مع كثرتها بتقليب قلب واحد، لِما يقتضيه سر الحقيقة، فإن العين واحدة، والكثرة إنما هي باعتبار التعينات الخارجية.

فكما أن أنوار الشمس وأشعتها لا تتجزَّأ إلا باعتبار الكُوى والمنافذ؛ فكذا نور الوحدة، ومنه يعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: 255]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [فاطر: 41] ونحوهما.

وإضافة المشيئة إلى نفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]؛ لأن الحقيقة الإلهية الظاهرة في كل فرد من أفراد الكائنات هي الفاعلة المؤثرة.

وأمَّا المشيئة من وجهة القوائل؛ فتابعة لتلك المشيئة الذاتية، فعليك بالفهم التام من غير زيغٍ وضلالٍ.

* * *

53 ـ **في الصحيحين**: اتفقا على الرواية: عن أنس رضي الله عنه قال:

«**قدم قوم من أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً أميناً حق أمين حق أمين يُعلِّمنا الإسلام والسُنَّة، فأخذ ﷺ يد أبي عبيدة بن الجراح فقال: إن لكل نبي أميناً**»[1]:

أي: في الدين والدنيا ميراثاً له من ذلك النبي؛ لأن النبي أمين في الوحي؛ كملك الوحي كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193، 194].

والأمين لا ينزل إلا على الأمين، ولا بد لكل كمال من مظهر تام له، وهو واحد من أفراد الأمة والأمانة من كمالات الأنبياء عليهم السلام كغيرها من الصفات الجليلة.

وقوله ﷺ: «**وإن أميننا**» أي: الثقة بين أظهُر هذه الأمة بحيث لا يُدانيه أحد من أحادها في هذا المعنى كما دلَّ عليه قوله: «**أيتها الأمة**» أي: متخصصاً من بين أفراد هذه الأمة؛ فنصبه على الاختصاص؛ والمراد به الأمين نفسه؛ وهو أبو عبيدة بن الجراح، كان ذلك اختصاصاً إلهياً له زائداً على أمانة غيره؛ كصدق الصدِّيق، وعدل عمر، وحياء عثمان، وشجاعة عليّ رضي الله عنهم.

فقول الترمذي: تخصيصه؛ لكون الأمانة غالبة فيه بالنسبة على سائر صفاته لا أن أمانته كانت غالبة على أمانة غيره فيه رمد وعلَّة؛ بل الصحيح: إن الأمانة، وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة؛ لكن تخصيصه بتوصيفه بها؛ لغلبتها فيه بالنسبة إلى غيرهم، دلَّ عليه قوله: (**أميناً**): فإن المراد به الأمين الكامل من بين أمناء الأمة؛ بل صرَّح به قوله: (**أيتها الأمة**)؛ فإن المراد: إن عبيدة بن الجراح بكمال مختص تلك الصفات من بين الأمة لا بالنسبة إلى سائر صفات نفسه.

نعم قد يكون الكمال إضافياً بالنسبة إلى نفس الكامل أيضاً، كما قالوا: إن الصديق رضي الله عنه كان الغالب في نشأته هو المعرفة الإلهية مع وجود سائر الصفات أيضاً، كما شهد به النبي ﷺ.

وكان الغالب في نشأة الفاروق رضي الله عنه هو الشريعة؛ ولذا اشتُهر بالعدل،

---

(1) رواه بنحوه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن هذا الخطاب كان من المصطفى لأسقفي نجران، حديث رقم (7000) ورواه النسائي في السنن الكبرى، أبو عبيدة بن الجراح رضي اللّه عنه، حديث رقم (8197) [5/ 57] ورواه غيرهما.

ولم يزل يمشي مع الدرة، ومن المعلوم أنه من أرباب الكرامات والحالات أيضاً، سمع كلامه سارية من مسافة شهر، وهو على المنبر النبوي يوم الجمعة.

وكذا كان الغالب في نشأة ذي النورين هو الطريقة؛ ولذا كان مشغولاً بالصيام والقيام وتلاوة القرآن إلى أن قبضه الله على المصحف؛ وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 137].

ومن المحال: أن يكون من عظماء الصحابة وخواصهم من غير أن يكون وجوده المحيط جامعاً للكمالات كلها.

وكذا الغالب في نشأة المرتضى كرَّم الله وجهه الحقيقة، وذلك يقتضي أن يكون كاملاً أيضاً في مرتبة الشريعة والطريقة والمعرفة، فإن باب الحقيقة لا يُفتح إلا على أهل العمل الصالح، والسالك المتقِّي الكامل في سيره؛ ولكن كان في باب الحقيقة أكمل، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 153]؛ هي في صفات الكمال النوعي.

فميزان الوجود لا يخلو عن الترجُّح بوجه من الوجوه ما خلا وجود نبينا ﷺ، فإنه منبع الكمالات، ومصدر التجليَّات، وفي وجوده الظاهر، وقواه الباطنة، وحالاته المستورة من الاعتدال التام، والتسوية الكاملة ما لم يكن لأحد غيره من العالمين، ولا يكون أبداً؛ فإنه مركز العالم، ومداره ظاهراً وباطناً، وحكم وجوبه وإمكانه على الاعتدال في الغاية، كما يُنبىء عنه شرح صدره، فإنه كان مع الحق ومع الخلق جميعاً في حالة واحدة لم يترجَّح حاله بأحدهما على حاله بالآخر، فهو الجامع، وهو الأول الآخر، وهو الظاهر الباطن، وهو الحق الخلق، وهو الفاتح الخاتم، وهو المبدأ، وإليه المصير.

قال الله تعالى في آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ سَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ تِلْكَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

* * *

54 ـ **في الصحيح**: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها**»(1):

أشار بالقبور إلى أبدان مَن مات بالاختيار قبل الموت بالاضطرار.

ما ورد أيضاً: «**إذا تحيَّرتم في الأمور، فاستعينوا من أهل القبور**»(2).

فإن أغلب الأقوال فيه: هو أن أهل القبور أهل الفناء المعنوي شُبِّهت أبدانهم بالقبور، وأرواحهم بأهل القبور، والجامع الفناء.

والموت المعنوي: أقوى من الموت الصوري، ولذا لا ينتقض الوضوء حال الفناء والانسلاخ بخلافه حال الموت الصوري؛ ولذا يتوضأ للموت، ويغتسل، وبخلافه حال المنام، فإنه أخرج الموت في انقطاع وضوء الروح عن ظاهر البدن، وهذا بالنسبة إلى عامة الورثة.

وأمَّا النبي ﷺ فقد قال: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»(3)؛ ولذا كان يُصلِّي الفجر بعد الاضطجاع، والنوم بلا تجديد الوضوء فرقاً بين مقامه، ومقام غيره، وأمَّا غُسله بعد انتقاله، فمَن قبيل التشريع، وإلا فمنامه وموته من وادٍ واحدٍ، فإن كلاً من روحه المطهَّر، وبدنه المنظَّف من عالم الأمر في الحقيقة لا من عالم الخلق؛ لكمال امتزاج أحدهما بالآخر.

على أن بعض أهل الإشارة قال: إن ترابه كان من تراب الجنة، فأين غيره من منزلته في القلب والقالب؟!.

وإليه الإشارة بقوله: «**حُبب إليّ من دنياكم ثلاث**»(4) حيث أضاف الدنيا إلى

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، حديث رقم (1385) [1/ 530] ورواه الطبراني في الأوسط من اسمه اسماعيل، حديث رقم (2966) [3/ 219] ورواه غيرهما.

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، الهمزة مع الذال، حديث رقم (213) [1/ 88] وفيه [أصحاب القبور] بدل [أهل القبور].

(3) رواه ابن خزيمة في الصحيح، باب ذكر ما كان اللَّه عز وجل فرق به بين نبيه ﷺ وبين أمته اليوم من أن. . .، حديث رقم (48) [1/ 29] ورواه في سننه الكبرى، باب ما ورد في نوم الساجد، حديث رقم (593) [1/ 121] ورواه غيرهما.

(4) قال العجلوني في كشف الخفاء: هكذا اشتهر على الألسنة وترجم به النجم لكن ذكره في المقاصد وكثيرون بدون من دنياكم ثلاث وقال رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه وكذا الخطيب في تاريخ بغداد مقتصراً على جملة جعلت الخ قال ورواه النسائي عن أنس بلفظ الترجمة والحاكم بدون جعلت وقال صحيح على شرط مسلم وأخرجه ابن عدي عن أنس بلفظ حبب إلي من =

المخاطبين كأنه ليس هو من الدنيا بدناً وروحاً؛ بل من الآخرة، فإنه لمَّا خلقه الله من نوره؛ ألبسه الهيئة المحمَّدية؛ فتلك الهيئة اللطيفة النورانية تعيَّنت بتعيُّن آخر لطيف روحاني؛ فصارت صورة محمَّدية.

ومن كمال نورانيته، وروحانيته، ونهاية لطافته وحسنه قال: «**أنا أملح**»[1]؛ فصار هو الحسن كله تصوَّر بصورة أحمدية؛ وهو الحميد، كما أنه الجليل؛ وهو المليح، كما أنه الحسن، إذ ليس كل حسن مليحاً، فإن الملاحة أمر وراء الحسن يحصل من اجتماع الأسباب، والأسماء، ولا ينتبه له كل ناظر، ولبيب.

ثم الوجه في التصفِّي أولاً، والأذن ثانياً، وهو أن المحجوب وأهل البداية لا سيما العوام لا يعرفون كيفية الاستعانة، ولا يهتدون إلى وجه الاستمداد، وإذا دلوا على أهل القبور سواء كانوا أحياء في الدنيا، أو منتقلين إلى الآخرة فربما غلب عليهم الإلحاد، وسوء الاعتقاد، فخلطوا الأمر؛ فظنوا العبد رب العبد، وهذا باطل في الحقيقة.

فإن الرب رب، والعبد عبد، وإنما التأثير من الله تعالى سواء كان في صورة العبد، أو بلا واسطة؛ فإن كل كمالٍ فهو إنما يرجع إلى الله تعالى لا إلى العبد، وإنما العبد مظهر ذلك، المظهر غير الظاهر، وإن كان حقاً بحسب حاله ومقامه، كما دلَّ عليه قول بعض الأكابر:

إنما الكون خيال، وهو حق في الحقيقة[2]

كالظل فإن له وجوداً حسياً، وإن كان دون وجود ذي الظل؛ لأنه وجود حقيقي بالنسبة إليه.

وأمَّا المنتهي: فيرجع في الزيارة والدعاء إلى الحقيقة، فيراعي المراتب؛ فيكون في الدعاء، والزيارة فائدة له، وقوة لدينه، وزيادة وبركة لعمره ودنياه،

= الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنديهم وأبو عوانة في مستخرجه والطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه وآخرون (كشف الخفاء حديث رقم 189 ـ ج 1/ ص 405).

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا البيت هو للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي ذكره في فصوص الحكم، فص حكمة رحمانية في كلمة سليمانية، وتتمة البيت:

والذي يفهم هذا حاز أسرار الطريقة

ولأجل الصعوبة في زيارة قبور الأولياء، وتردُّد مجالسهم ومحاضرهم على وجه السنة، والحقيقة أكبَّ علماء الظاهر على تنفير الناس من الزيارة؛ لكن الله تعالى قال: ﴿مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الزمر: 9]، فالوجه الفرق بين الموحِّد، والمشرك، والعارف، والجاهل.

❊ ❊ ❊

55 ـ **في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده»**[1]:

اعلم أن تخصيص المسلم بالذكر حيث لم يقل: المؤمن... إلخ؛ إنما هو لأجل ذكر اللسان واليد، فإن الإسلام هو الانقياد والظاهر كما أن اللسان واليد من الأعضاء الظاهرة؛ فمَن له إسلام ظاهر؛ يجب عليه أن يكون بحيث يسلم ظاهر الخلق من أعضائه الظاهرة كلها.

فإن اللسان واليد عبارة عن الأعضاء كلها، وإنما خُصَّا بالذكر؛ لأن الأقوال كلها تصدر من اللسان، وأكثر الأفعال من اليد، وقوله في بعض الحديث «**إنما هي حصائد ألسنتكم**»[2]؛ يشير إلى عظم جرائم اللسان؛ فكأنها كل الجرائم، وإنها لا تصدر إلا منه.

وإنما حملنا الإسلام على الانقياد والظاهر؛ لأنه هو الموافق لِما ذكره أهل اللغة، ولِما جاء في القرآن من قوله: ﴿وَظِلَـٰلُهُم﴾ [الرعد: 15].

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ..﴾ الآية [آل عمران: 83].

فإن سجدة الظلال إنما هي سجدة الكره لا سجدة الطوع، فإن سجدة الطوع إنما تكون بالإيمان، وليس للكفار ذلك، وجاء في حق الحق تعالى الاسم السلام دون المسلم، وإن كان المعنى صحيحاً لقول أبي طالب في شأنه ﷺ: ما أطوعك ربك يا محمد؟ يعني: إنه ينقاد لك، ويطيعك فيما تقصده من الأمور الظاهرة.

(1) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم (10) [1/ 13] ورواه مسلم في صحيحه، باب بيان تفاضل الإسلام...، حديث رقم (41) [1/ 65] ورواه غيرهما.

(2) لفظة: «ثكلتك أمك بن جبل هل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم». رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة السجدة، حديث رقم (3548) [2/ 447] ورواه ابن ماجة في السنن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم (3973) [2/ 1314] ورواه غيرهما.

بخلاف المؤمن فإنه من أسماء الحسنى، فكان المؤمن أقوى من المسلم؛ لأن كل انقياد باطن يستلزم الانقياد الظاهر دون العكس؛ ولذا قلَّ المؤمنون بين المسلمين؛ لأن المؤمن هو الذي آمن الناس من قلبه ولسانه ويده جميعاً، فالمؤمن الحقيقي لا يقصد السوء لأحد، ولا يتعرَّض له بشيء من المكروه إلا بحق الشرع وحده.

وممَن قام بهذا المقام حضرة الشيخ: محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه فإنه كان في أوائل حاله بحيث تركض دابته في الصحاري، ويمسُّ رأس سنانه بعض الوحش الراعية في المرعى، وهو لا يرفع رأسه أصلاً؛ لأنه يعلم بحسب فطرته: إن الشيخ آمنه من قلبه.

وحال القلب يؤثِّر في القالب، فيكون القالب سالماً من الأذى، وصاحبه آمناً في نفسه، ولا يصل العبد إلى مرتبة التسخير إلا بمثل هذا الوصف، فأنَّى يكون مؤمناً مَن يُخيف، وشر الناس مَن اتقى الناس من شره، فكان من شأنه أن يبتليه الله بالفزع الأكبر يوم القيامة؛ لأن مَن لم يخف الله، وأخاف عباده أيضاً؛ جُوزي بمثل عمله، فإن الجزاء من جنس العمل، ثم من شأنه المؤمن الحقيقي أن يجعل المؤمن آمناً من تصرُّفه القلبي، وتوجهه الروحاني، كما آمنه من لسانه ويده، فإن الأذى، والجرح، والقتل كما تكون بالتصرُّف مطلقاً؛ فإنه في التأثير؛ كالسحر، ولا شك أن السحر ممنوع مَنهي، وكذا ما في حكمه.

فويلٌ لمَن تشبَّه بالساحر في عمله، فعمل بظاهره، وقوَّاه في ظاهر الخلق وباطنه حتى يمرضهم، أو يقتلهم.

وقد قال ﷺ: «**فإن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والجروح قصاص**»[1]، ولم يهتدِ إلى هذا المعنى إلا الألباء، فحافظوا على ظواهرهم وبواطنهم، وكانوا ممَن قيل فيه: سليم الصدر؛ فإن سليم الصدر هو الذي يدخل الجنة بلا حساب، ولا عذاب، ويقرع بابها مع أول مَن يقرعه.

والقلب عند العارفين: جنة معجَّلة لا بد لمَن قصد دخولها من الإسلام الحقيقي المشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: 19].

ومن الإيمان الحقيقي المشار إليه بقوله: ﴿ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ هَل لَّنَا مِنَ﴾ [الأنعام: 82].

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، حديث رقم (2928) [2/ 258].

ومن سلامة الصدر المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، [الحجر: 47].

ـ في الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين قبري ومنبري رَوضةٌ من رياض الجنة**»[1]:

قبره هو: ضريحه الذي جعله الله أفضل من الكعبة بالاتفاق؛ لأن الكعبة مقام الفناء وحده؛ لأنها إشارة إلى الذات الأحدية، كما رمز بها المنارات السبع بمقابلة الأسماء السبعة الدالة على الفناء.

وأمَّا الضريح النبوي: فمقام الفناء، والبقاء جميعاً؛ لأنه إشارة إلى الذات الواحدية المشار إليه بقاب قوسين النزول بعد أو أدنى العروجي، كما لوح بها المنارات الخمس بمقابلة الأسماء الخمسة الدالة على البقاء.

والجنة: إنما هي لأهل البقاء لا لأهل الفناء، إذ لا لذة لأهل الفناء أصلاً؛ لاستغراقهم في شهود الذات الأحدية، وإنما قلنا بفضل الجمع بين الفناء والبقاء لِما فيه من الفضيلة العظمى التي اتصف بها أهل التبليغ جميعاً، ولا يقوم الكون إلا بهذا الجمع، وعند فناء أهله يقوم الناس لرب العالمين، فإذا عرفت هذا؛ فاعلم أن القبر هو مقام الحقيقة الجامعة كما أومأنا إليه.

والمنبر هو: مقام الشريعة المحيطة بالأحكام والحقائق، كما أشار إليه درجاته الأربع المتفاوتة فعلم إن أركان العالم صورة ومعنى محصورة في الأربعة لا تتجاوز إلى ما فوقها؛ كالأمهات الأسمائية، وأركان العرش، والكعبة، والملائكة الأربعة، والخلفاء الأربعة، والنسوة الأربع، ونحو ذلك.

جعل الدخول في الروضة من أحد البابين: باب السلام، وباب جبريل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189].

ولا شك أن الحقيقة إنما تؤتى من باب الشريعة، أمَّا باب السلام فلأن الداخل منه يمرُّ بجانب القدم، والقدم إشارة إلى مقام السعي والكسب، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66].

ويمكن أن يقال: إن الداخل من باب السلام يمرُّ بالمواجهة، وجانب

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب في الروضة، حديث رقم (10061) [5/ 246] ورواه ابن أبي شيبة، باب ما أعطى اللّه تعالى محمداً ﷺ، حديث رقم (31659) [6/ 305] ورواه غيرهما.

الرأس أولاً، وذلك إشارة إلى مقام المجذوب السالك؛ واسمه الجلالة وحدها.

والداخل من باب جبريل يمرُّ بجانب القدم أولاً، وهو إشارة إلى مقام السالك المجذوب؛ واسمه كلمة التوحيد.

ويجوز أن يُقال: إن الأول من حيث إنه يمرُّ بالمنبر يشير إلى الفرق والكسب، والثاني من حيث إنه باب جبريل يشير إلى الجمع والفيض؛ وذلك لأن جبريل كان يأتي من الفوق بالفيض الإلهي الجمعي، ثم يتنزَّل الأمر إلى مرتبة التحت المنبري، فيبدأ السامعون بالكسب، وعلى كل من التقادير، فما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة؛ لأن دخول ظاهر الجنة، والوصول إلى درجاتها؛ مَنوط بقبول التوحيد، والشرائع، وكسب الأعمال، والأحكام، ودخول باطن الجنة، والوصول إلى حقائقها؛ مربوط بقبول الحق المطلق وحده، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: 91].

الترقِّي إلى مقامات القرب، والوصال، فمَن دخل هاتين الجنتين؛ فقد دخل الروضتين، فتنكير روضة إنما يدلُّ على الشريعة الظاهرة؛ وهي لا تنافي الحقيقة الباطنة، وفيه إشارة إلى أن الصدر الإنساني بمرتبة المنبر، والقلب بمرتبة القبر، فما بينهما من مقامات الملك والملكوت يُعدُّ من الرياض المعنوية؛ لأن حال الصدر يُؤثِّر في الأعضاء، والقوى الظاهرة، وحال القلب يُؤثِّر في الروح، والقوى الباطنة؛ فيكون الكل كالروضة.

قال الله تعالى ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ﴾ [آل عمران: 96]؛ هي الكعبة.

كما أن أول بيت وُضع للملائكة للذي في السماء السابعة؛ وهو البيت المعمور، فكل من الناس.

وبكة: أي دلَّ على أن المراد: أول بيت وُضع في الأرض؛ لأن الناس وبكة في الأرض، فهذه الأولية؛ هي أولية البيوت، والمساجد الواقعة في الأرض؛ ولذا كانت مكة أم القرى، والكعبة أُم المساجد.

وظاهره: يقتضي أن تعيُّن البيت، وبكة؛ كان تعيُّن الناس، فإن ما وُضع لهم؛ إنما يكون بعدهم، إذ البيت إنما يُوضع للصلاة، ولا بيت، ولا صلاة إلا بعد

المصلَّى، وكون الضُّراح(*) في موضع البيت قبل خلق آدم؛ لا يقتضي التقدُّم؛ لأنه كان للملائكة؛ ثم رُفع وتعيَّن في مكانه البيت لآدم وذريته، هذا هو الذي يقتضيه الكشف.

وأمَّا الروايات فيه فمختلفة، وفي هذه الأولية تشريف للكعبة جداً؛ ولذا أُضيفت إلى الله، فقيل: بيت الله، وحرم الله، وضُوعفت فيه الحسنات المقبولة إلى مائة ألف؛ لأن الأسماء الإلهية مع أحديتها مائة، وكل من المائة ألف في التفصيل.

وجُعل الحرم النبوي ثاني هذا الحرم؛ لأنه حرم أول مَن خلقه الله من الكائنات، وضُوعفت الحسنات فيه إلى ألف؛ نظراً إلى الاسم الإلهي، والاسم الكوني؛ فإن الاسم الإلهي مائة كما مرَّ آنفاً، وكل من المائة مائة في الإجمال، والنبي ﷺ جملة من الكائنات، وله ألف اسم كوني، كما أن الأسماء الإلهية تفصيلها.

وجُعل الحرم السليماني ثالث الحرم الشريف الإلهي؛ لأن سليمان عليه السلام، وإن تقدَّم زمانه؛ لكن كان تعيُّن مسجده بعد تعيُّن المسجد النبوي، كما أن كان بعد تعيُّن المسجد الحرام بأربعين سنة، وضُوعفت فيه الحسنات إلى خمسمائة؛ لأن خلافته نصف خلافة نبينا ﷺ، وذلك لأن تصرُّفه كان في الملك وتسخيره، كان لظاهر العالم، وأمَّا التصرُّف النبوي وتسخيره فعام للملك، والملكوت، والظاهر والباطن كما شهد به أحواله ليلة المعراج، ولا حاجة إلى بيان ذلك.

ثم إن القبر النبوي من أرض الكعبة في الحقيقة؛ فهو والنبي ﷺ فيه أفضل من الكعبة؛ لأن الكعبة مع الرسول أفضل منها بدونه، وأمَّا الحرم مع قطع النظر عن القبر، فحرم الكعبة أفضل منه؛ لأن ما أُضيف إلى الله أفضل مما أُضيف إلى غيره، والاختلاف في أن أي الحرمين أفضل مما لا ينبغي أن يقع؛ لأنه من الجهل بما ذكرنا، فإن قلت: فإذا كان القبر من الكعبة؛ فلِمَ لا يُطاف حوله، قلت: لأنه دُفن فيه المخلوق، وإن كان أعظم مخلوق في العالم، فلو رُخِّص في طوافه؛ لقيل في حق صاحبه كما قيل في حق عيسى.

(*) قال أبو بكر الأنباري: سأل ابن الكواء علياً رضي اللَّه عنه قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح. والضُّراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن ابن عباس (تفسير القرطبي لأبي عبد اللَّه محمد القرطبي).

وقد ورد: «**اللّهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد**»[1]؛ ولذا لا يُصلِّي إلا من وراء حجاب، لكون التعظيم لله فقط، ففرَّق بين السرِّ الباطن، والخلق الظاهر، وصيانة اعتقاد العامة أوجب.

وفيه إشارة على بكة القالب، وأول بيت وضع فيه؛ هو القلب، فإن تعيُّنه كان قبل تعيُّن سائر القوى، وكما أن الكعبة قِبلة للناس، وقُطب البيوت، وأول المساجد؛ فكذا القلب قِبلة القوى، ومدار الأحوال، وأقدام المشاهد، وهو مهبط الوحي، والإلهام، والملائكة، وموطىء أقدام الواردات؛ ولذا عظُم شأنه، وعظَّمه الله والملائكة، كما عظَّم شأن البيت مباركاً؛ لأنه يترك به من حيث إنه بناء الله في الحقيقة؛ كالإنسان وقلبه، وإن أُضيف في الظاهر إلى الخليل عليه السلام.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: 96]؛ لأن الحج هداية إلى الله ومرضاته، والقلب هداية إلى الله وقربه ووصاله.

فالمراد بالعالمين: المؤمنون، والقوى، والأعضاء؛ لأن كلاًّ منهم عَلم للحق، ومنار لوجوب الوجود، ووحدته، وسائر صفاته.

* * *

56 ـ **في الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يُبسَط في رزقه، ويُنسأ في أثره؛ فليصل رحمه»**:

أشار بالرحم إلى الاسم الرحمن فإنه مشتق منه؛ لإفاضة الرحمن الجسمانية؛ وذلك أن رحم الغيب تولَّد منه الروح المحمَّدي، ثم تسلسلت منه الأرواح، ورحم الشهادة؛ وهو رحم حواء تولَّد منه أولاً آدم نسلاً بعد نسل، فكما كان الروح المحمَّدي مبدأ لسلسلة الأرواح؛ فكذا الرحم الحوائي كان مبدأ لسلسلة الأجسام، فكان كل من الرحمين من الرحمة الخاصة الروحانية، ولولا ذلك ما كان، ولم يظهر آثار الأسماء والصفات في عالم الإمكان.

ولهذا السرِّ عظَّم الله الرحم، وأمر بالصلة وبالصلة يتصل الفيض والجود، فإنها ليست للرحم حقيقة؛ بل للرحمن الذي اشتق الرحم من ذلك الاسم، فأشار بالرزق إلى الفداء الروحاني، والفيض الرحماني، فإن الأغذية الجسمانية؛ إنما هي وسائل للتربية الروحانية، فالأغذية الروحانية أصل الأغذية، وفي نمائها نماء الأغذية

(1) رواه مالك في الموطأ، باب جامع الصلاة، حديث رقم (385) [1/ 172].

الجسمانية؛ لأن نمائها؛ إنما هو من طهارة القلب والقالب.

وقد ورد: «**دُمْ على الطهارة؛ يُوَسِّع عليك الرزق**» أي: دُمْ على الطهارة الصورية، والنظافة الجسمانية من النجاسات الحقيقية يُوسِّع عليك الرزق الجسماني، وعلى الطهارة المعنوية، والنظافة الروحانية من النجاسات الحكمية؛ يُوسِّع عليك الرزق الروحاني، فمَن ضاق عليه الرزق مطلقاً، فليكن على الطهارة مطلقاً دائماً.

وأشار بإنساء الأثر محركة أي: تأخيراً لأجل الحياة الطيبة الباقية؛ فإنها العمر الثاني، وأهلها الموصول لا المقطوع؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3] أي: المقطوع نسله، فإن البغض للروح يُورِّث الكسل، وفي الأعمال الصالحة الروحانية، والرواج للأعمال الفاسدة النفسانية.

ولا شك أن النفس وما يتعلَّق بها من الأعمال السيئة أبتر لا نماء لها عند الله؛ كالروح وأعماله، فإن النماء، إنما يكون للطيب لا للخبيث؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ [الأعراف: 58].

ومن آثار هذا المقام أن أهل الله لم يزالوا محبوبين إلى يوم القيامة، وآثارهم باقية معلومة مدّ الدهر، وإن الذين توغَّلوا في إنكارهم؛ لم يزالوا مبغوضين إلى ساعة القيام، وآثارهم مندرسة مهجورة؛ لأن الحق يعلو، ولا يُعلى، والباطل يُعلى، ولا يعلو، فطوبى لأهل الحق، وويلٌ لأهل البطلان، والله تعالى متمُّ نوره.

* * *

57 ـ **في حديث القضاعي**: قال رسول الله ﷺ: «**المجالس بالأمانات**»[1]:

أورد المجالس بصيغة الجمع، وقابله بالجمع أيضاً إشارة إلى كثرة المجالس، وكثرة الأمانات، فلكل مجلس أمانة، ولكل أمانة محافظة ومراعاة، وقد صحَّ عن الصحابة أنهم أخذوا عن النبي ﷺ علمين: علم الشرائع والأحكام، وعلم الحقائق والأذواق.

فنشروا العلم الأول حتى بلغ كل برٍ وفاجرٍ؛ كما هو شأن التبليغ في مرتبة الشريعة، وأمسكوا عن الثاني إلى أن يجدوا أهله، لا قد قيل: لا يُباع الإبل في سوق الدجاج؛ يعني: لكل مبيع سوق على حدة، ولمَّا تصدَّى المنصور الحلاَّج لإفشاء سر الحقيقة؛ وهو كون العين واحدة وأن الإنسان مظهر الحق؛ لأنه تعالى لمَّا خلق

(1) أورده ابن الأزرق في بدائع السلك، الوفاء بالوعد، [1/ 484].

آدم؛ خلقه على صورته، وتجلَّى فيه؛ كان من أمره ما كان؛ لأن السرّ إذا عرى عن لباسه؛ كان صاحبه أيضاً عرياناً، والعريان مجنون، ومقام المجنون السجن، والمارستان.

والسجن على أنواع: لأنه عبارة عن: المحلِّ الضيق، والصلب، والحنق من ذلك الضيق، فلو كان ممَن يُضيِّق على نفسه في الكتم من حيث الباطن؛ لوجد الواسعة في الظاهر؛ لأن المتقيِّد بالشريعة مطلق عن الطعن، والوقوع فيه، وقِس عليه الشيخ المسمى بالمسلوخ، وشهاب المقتول، وكمال المصلوب، ونحوهم ممَن سار على سيرتهم.

ثم إن المجلس الأعظم؛ هو المجلس الإلهي، وصورته مجالس أهل التصوف، كما قال مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى؛ فليجلس مع أهل التصوُّف.

يعني: إن الصوفية المحققين مظاهر الحق في أسمائه وصفاته وأفعاله؛ فمجالسهم مجلس الحق؛ لأنه تعالى لم يرَه أحدٌ إلا في صورة إنسانية سواء كان في المنام؛ كما وقع لكثير من السلف، والخلف، أو في اليقظة كما صحَّ عن الأصفهاني في التفسير: أنه ﷺ لقي ربه في بعض سكك المدينة، وذلك أنه تعالى من حيث تجرُّد ذاته عن النسب، والإضافات، ليس من شأنه أن يعرف فضلاً عن الرؤية.

وفي قوله عن «**السلطان ظل الله**»(1) إشارة إلى أن السلطان الظاهر ظل الحقيقة الإلهية التي كان القطب ونحوه مَظهراً لها، فإذا لم يُرخَّص في إفشاء سرِّ السلطان الظاهر، ومجلسه أمانة صغرى، فكيف يُرخَّص في إفشاء سرِّ السلطان الباطن، ومجلسه أمانة كبرى.

فإن قلت: كيف لا يُرخَّص والكل عباد الله؟

قلت: نعم؛ لكنهم متفاوتون في الأسماء والأحكام، فيخفي سرَّ اسم عن اسم من حيث إن كلاًّ منهما ظاهر بما لا يقتضيه الآخر، فلا معنى لكشف سر العالم عندَ الجاهل، كما لا معنى للتكلُّم مع الحيوان بما يقتضيه نشأته دون الحيوان.

(1) لفظه كاملاً: «السلطان ظل اللَّه في الأرض ورمحه في الأرض»، رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب فضل الإمام العادل، [8/ 162] وورد بلفظ: «السلطان ظل اللَّه في الأرض يأوي إليه كل مظلوم» رواه القضاعي في مسند الشهاب، السلطان ظل اللَّه في الأرض، حديث رقم (304) [1/ 201] ورواه غيرهما.

فالإنسان اسم، والحيوان اسم، وبينهما تباين جزئي، والمتباينان لا يأتلفان كل الائتلاف، وإن كان الأصل والمعدن واحداً، فإذا عرفت هذا؛ وجب عليك أن تقوم بسرِّ النفاق الأكبر، فإن لك من حيث جمعيتك وجوهاً كثيرة، فبكل وجه لك يقابل عين من الأعيان، وسرٌّ من الأسرار بحيث لا يتعدَّى أحد السرَّين إلى الآخر، وبه يتم المراتب في حفظها، وبالحفظ يتم النظام لظاهر العالم، فكُن من الأمانات والآداب.

* * *

58 ـ **في حديث الشهاب القضاعي**: «**مسألة الغنى نار**»[1]:

اعلم أن الغنى إمَّا غنى المال، وإمَّا غنى الحال.

الغنى بالغنى الأول إذا تفقَّر، وستر ماله من النعمة مع أن التحديث بها واجب؛ كان ذلك سبباً لوقوعه في النار؛ لأنه سخَّن وجهه في الدنيا بالسؤال والطلب؛ فسخَّن الله عينه في الآخرة بالنار، والعذاب؛ لأن الجزاء من جنس العمل على أن كُفران النعمة من قبيل الكفر في الجملة، والكافر مأواه النار، وإنما قلنا: الكُفران من قبيل الكفر في الجملة؛ لأن الكافر جاهل حيث ستر الوحدة بالشرك، وغفل عن التوحيد، وكذا أهل الكفران حيث ستر النعمة بإظهار الفقر، وذهل عن المنعم وافترى على الله بأنه خلقه فقيراً، كما افترى الكافر عليه بأن الآلهة شركاؤه.

وأمَّا الغنى بالغنى الثاني: فإنه فقير باب الله، وفقير هذا الباب لا يجوز له أن يسأل من الأبواب؛ لأن ذلك أمارة الحجاب، وعلامة الغفلة.

وقد ورد: «**إن الفقر سواد الوجه في الدَّارين**»[2] أي: الفقر الحقيقي سبب سيادة صاحبه في الدنيا والآخرة، ومن هذا السواد: سواد الحجر الأسود؛ لأنه ساد الأحجار كلها بالتعظيم والتقبيل، فلو سأل الغني المذكور الناس أموالهم؛ كان ذلك من بعض الشهوات، وبيت الشهوة التي لا بد لكل طبع منها حار؛ ولذا غُلِّقت أبواب النار بدخول شهر رمضان أي: أبواب الشهوات، فأكلت المعدة بعضها بعضاً من فقدان المأكول؛ كما تأكل النار بعضها بعضاً من فقدان الحطب في الدنيا، ومن فقدان الناس في الآخرة.

---

(1) أورده الهيثمي في مجمع الزاوئد، باب ما جاء في السؤال [3/ 96] والمقدسي في ذخيرة الخفاظ، حديث رقم (2004) [2/ 964].

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1837) [2/ 113].

فمَن تبع حرارة الشهوة، ولم يكتم حاله من المحجوبين؛ بل سأل أموالهم؛ ليدفعها بالمرطِّبات، ويبرِّدها بالمشروبات؛ جُوزي بزيادة الحرارة؛ لأن الدنيا؛ كالماء المالح، فمَن شرب منه؛ ازداد عطشاً على أن السؤال عن الناس؛ كالسؤال عن نفسه، ولا شك أنهم متساوون في الدرجة، فعرض الحال على الله تعالى أوجب.

فإن قلت: إذا شاهد الحق في الحق؛ لم يكن ذلك سؤالاً عن الخلق، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾ [فاطر: 15] أي: في كل وجه من الوجوه سلطاناً أو رعيةً، قلت: فرَّق بين مَن وقف مع الوسائط، والأسماء الجزئية، وبين مَن خرق السور، وتجلَّى له النور بلا واسطة من مراتب الظهور، فإن قلت: فليجز السؤال الكسر النفس في مقام العار؛ قلت: ذلك لأهل البداية الذي لا غنى لهم، وليس كلامنا في ذلك.

فإن قلت: فقد سأل بعض أهل النهاية؛ كالحاج بيرام الأنقروي[1] ونحوه.

قلت: ذلك السؤال ليس لنفسه، وكلامنا فيه؛ بل لغيره، وهو السؤال عنه، فإنه إذا خلى وطبعه؛ لم يكن من شأنه التقرُّب إلى الله تعالى بصدقة، وقد جعلها الشارع ستراً من النار، فيعرض السالك للصدقة حملاً للمسؤول عنه على التصدُّق، ليستتر بذلك عن النار، ويظهر في مقام الأبرار.

وذلك من كمال رحمته، وإن كان في الظاهر أمراً شنيعاً، فإن الأمر إذا تضمَّن مصلحة حميدة، وجُعل ذريعة إلى أمر ممدوح؛ لم يُعتد بشنعه في الجملة، فمثله خارج عن قوله: «**اتقوا مواضع التهم**»[2].

فقد رُوي عن الملامتية ما يستبشعه القول الظاهر، وليس في ذلك ضيراً لهم، إذا كانوا على الحق المبين، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

* * *

---

(1) الحاج بيرام الجلوتي الأنقروي شيخ الطريقة الجلوتية، أخذ عن حامد الأقسرائي عن إبراهيم الأردبيلي عن صفي الدين أبي إسحاق الأردبيلي عن إبراهيم الزاهد الكيلاني (الأنترنت موقع رابطة الأدباء والمؤرخين العرب، منتدى الأنساب الهاشمية والقرشية، منتدى الأنساب البكرية).

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (88) [1/ 45].

59 ـ **في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «إن لهذه البهائم أوابد، كأوابد الوحش»**[1]:

وأبد: جمع آبدة بمعنى المتوحِّشة المتنفِّرة.

رُوي: أنه شرد بعير؛ فرماه رجل بسهم، فسئل النبي ﷺ عن ذلك: «**هل يحلُّ أكله أم لا؟ فأجاب ﷺ: بأن أوابد البهائم كأوابد الوحش**».

فكما أن الوحش الأوابد كل أجزائها مذبح؛ فكذا الأهلية الأوابد بجامع الشرار والنفار؛ وفيه إشارة إلى النفوس النباتية الحيوانية.

فإن منها ما هي مطيعة منقادة حاملة للأمانات باختيارها فلا حاجة إلى قتلها بسيف الرياضات، وسكين المجاهدات الشاقة؛ فإنها سالكة على طريق الحق غير شاردة، ومنها ما هي على خلاف ذلك.

وسرُّ ذلك: إن النفس الحيوانية الأولى لها انجذاب إلى جانب الروح بحسب غلبة حكم الوجوب على حكم الإمكان؛ فهي مجذوبة إلى الله تعالى بتبعية النفس الإنسانية؛ إذ لا حكم للتركيب المزاجي في كل واحدة منهما بخلاف الحيوانية الثانية؛ فإن النفس الإنسانية لها انجذاب إليها بحسب غلبة حكم الإمكان، فإذاً الحيوانية جاذبة للإنسانية بحسب غلبة التركيب المزاجي، ولمَّا كان هذا عكس الفطرة الأصلية؛ وجب تأديب النفس الحيوانية؛ لئلا يقع الضلال والإضلال في طريق الحق، وتأديبها وقتلها على أنواع، فإن غلب عليها المنام؛ فقتلها قطعها عنه بالسهر، وإن غلب عليها الأكل والشرب؛ وجب قطعهما عنها بتقليل الغذاء، وإن غلب عليها الشهوات؛ وجب قطعها عنها، بترك اللذائذ والطيبات، وإن غلب عليها الهوى بحكم مجاورة النفس الأمَّارة؛ وجب قطعها عنه بالعمل بالهدى.

فالنفس الحيوانية التي غلب عليها حكم الإمكان والتركيب، لا شك أنها إشارة عن طريق الشرع فضلاً عن طريق المعرفة والحقيقة، وإصلاحها في قتلها بما ذُكر من المعالجات؛ فإنها كالسهام في قتلها، فبأي سهم قتلها؟ في أي موضع أصابها؟ فذلك مذبحها وسكينها، وإن أُهملت على حالها الطبيعية؛ ألفت الأمانات، وأثقال

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب من عدل عشراً من الغنم بجزور في القسم، حديث رقم (2372) [2/ 886] ورواه مسلم في صحيحه، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام، حديث رقم (1968) [3/ 1558] ورواه غيرهما.

الشرع عن ظهرها، فالتحقت بالوحشيات؛ وهي نفوس الكفرة الفجرة الأبيَّة عن قبول الحق.

وقد قال تعالى: ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ﴾ [الصافات: 22].

أي: قرناؤهم، والكل مسؤولٌ عن قرينه، وله حكمه أيضاً بحسب الخير والشر؛ لأن الجنسية جاذبة البتَّة.

ومن ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 5، 6].

يعني: إن المؤمنين إيماناً رسميّاً أو عيانياً، والعالمين بما يقتضيه من الشعب، فهم بعد نزولهم صاعدون، وبعد ردِّهم مقبولون؛ لأن ذلك من أسباب ترقياتهم في المقامات العالية، والدرجات السُنيَّة.

فقد عُرف من هذا التقرير: إن الشراد من شأن النفوس لا من شأن الأرواح، نفخ إلهي من شأنه قبول الأوامر، والعمل بالطاعات، نسأل الله تعالى ذلك القبول.

* * *

60 ـ **في الحديث القدسي: «قَدَّرْتُ المقادير»**[1]:

أي: الواقعة في العلم، فإن المقادير معدومات، وهي شيء في العلم، وليس بشيء في العين الخارجي؛ لعدم ظهورها بعد، وتقديرها إيجابه تعالى على ذاته إظهارها في الأوقات المعيَّنة لذلك، فهي ليست من قبيل ما استأثره الله في علمه.

قال ﷺ: «**ودبرت التَّدْبير**»[1] أي: الواقعة في عالم العين، وتدبيرها النظر إلى دبر الأمور، وليس إلا الله تعالى، فإنه الخبير بالعواقب.

قال ﷺ: «**وأحكمتُ الصنع**»[1] أي: من سماء، وأرض، وما تحتويانه من الجواهر والأعراض، فإن ذلك كله صنع أي: إجادة فعل كما قال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ [النمل: 88].

فإحكام الصنع إتقانه، فلا يدخل فيه الأيدي بالفسخ، ولا العقول بالنسخ.

قال ﷺ: «**فمَن رضي**»[1] أي: بما وقع من التقدير والتدبير والأحكام.

قال ﷺ: «**فله الرضا مني**»[1] أي: جُوزي بما يُناسب رضاءه.

---

(1) أورده الغزالي في الإحياء، بيان فضيلة الرضا، [4/ 345].

قال ﷺ: «**حتى يلقاني**»[1] أي: فإذا لقيني على وجه الرضا؛ فله الرضاء الدائم الذي لا يعقبه سخط أصلاً.

قال ﷺ: «**ومَن سَخط**»[1] أي: بما ذكر.

قال ﷺ: «**فله السّخط مني**»[1] أي: جُوزي بما يُناسب سخطه.

قال ﷺ: «**حتى يلقاني**»[1] أي: فإذا لقيني على وجه السخط؛ فله السخط الدائم الذي لا يعقبه رضى أصلاً.

وهذا في حق الكفار في مدة الأحقاب، وفي حق العصاة في بعض المُدد؛ كساعة، ويوم، وسنة، وألف سنة، وسبعة آلاف عام لا غير ذلك؛ وهم الذين إيمانهم كمثقال ذرة.

وفي الحديث: تشديد وتخويف عظيم، ولن يَكمُل للأولياء مقاماتهم إلا بهذا الرضا وهو أمر عظيم جدّاً؛ لأن الدنيا لا تصفو لشارب فعدَّ كدورتها صفواً من حصائل الأصفياء.

* * *

60 ـ في الحديث: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة»[2]:

اعلم: أن الأمانة إمَّا أمانة صغرى، وإمَّا أمانة كبرى.

فالأمانة الصغرى: هي الأمور الشرعية التي أمر الله تعالى بها في كتابه.

والأمانة الكبرى: هي الخلافة المنوطة بالفيض من الله تعالى بلا واسطة، فهي كالنبوة في كونها حملاً ثقيلاً.

وقد قال ﷺ: «**شيِّبتني سورة هود**»[3]: أي لِما فيها من الأمر بالاستقامة الاعتدالية التي لا يقوم بها كل أحد، ومن هذا قال أيضاً: «**اللّهم اقضِ عنِّي ديني**»[4].

(1) أورده الغزالي في الإحياء، بيان فضيلة الرضا، [4/ 345].

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في الترغيب في أداء الأمانات، حديث رقم (12476) [6/ 289] ورواه ابن أبي شيبة، باب أول ما فعل ومن فعله، حديث رقم (35834) [7/ 256] ورواه غيرهما.

(3) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة هود، حديث رقم (3314) [2/ 374] ورواه غيرهما.

(4) أورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في الدعاء عن معاذ بن جبل ﴿ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ﴾ [2/ 172].

فإن الدِّين: هو الأمانة مطلقاً؛ لكونها عُهدة في ذمَّة الإنسان لا بد من قضائها إمَّا في أوقاتها المخصوصة كما في الأمانة، وإمَّا في كل آنٍ من الآنات، وفي كل نَفس من الأنفاس كما في الأمانة الكبرى.

وكل من هاتين الأمانتين كالأمانتين اللتين هما الأمانة الصغرى؛ كإمامة الصلاة، والإمامة الكبرى كإمامة السلطان؛ ولثقلهما قال ﷺ: «**الإمام ضامن**»[1]، فمَن ابتُلي بشيء من هاتين الإمامتين؛ فليحفظ نفسه، وكذا مَن اقتدى به، فإنه ورد: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2].

والجماعة رعيّة الإمام، والإمام والرعية واحد في الحقيقة، فإذا وقع من أحدهما ثلمة في الدين؛ فقد وقع من الآخر أيضاً؛ لتأثيره فيه تأثير بعض الأجزاء في البعض؛ كوجع السن، أو العين، أو البطن مثلاً، فإنه يُؤثِّر في غيرها أيضاً بحسب السريان.

وقد صحَّ أن بين الشيئين جهتين جهة ما به الامتياز، وجهة ما به حكم الجواز، ثم إني أقول: أراد ﷺ بفقدان الأمانة في الدين رجوع الفيض الإلهي من الظهور إلى البطون، وأول ما كان هذا الرجوع قبيل سبعمائة سنة من مدة هذه الأمة، فازداد الأمر ارتداداً إلى الأصل إلى يومنا هذا، وهو ألف ومائة وثلاثون، وكلَّما ارتدَّ هذا الأمر، ورجع قهقهرى؛ قلَّ أهل الأمانة، فأكثر الناس الآن خونة ظاهراً وباطناً، وفسقة شريعة طريقة.

وأراد بفقدان الصلاة: إضاعة صورتها؛ ومعناها وإن أُقيمت، وكذا إضاعة التوجه الكلي إلى الله تعالى إمَّا أنفساً، وإمَّا آفاقاً.

وأردنا بالإضاعة النفسية: ما كان عند كل شخص من الغفلة عن الله تعالى؛ وبالإضاعة الأفقية: ما كان بالنسبة إلى مَن يحفظ الله به العالم بصورته ومعناه، فإنه إذا احتجب عن محافظة شيء من الأشياء الموجودة في الدنيا الداخلة تحت إحاطته؛ أسرع إليه الموت والفناء؛ لأن ذلك الحافظ؛ هو روح ذلك الشيء، فإذا قطع فيض

---

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر إثبات عفو اللَّه جل وعلا عن المؤذنين، ورواه ابن خزيمة في الصحيح، باب ذكر دعاء النبي ﷺ للأمة بالرشاد، حديث رقم (1528) [3/ 15] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم (853) ورواه مسلم في صحيحه، باب فضيلة الإمام العادل. . ، حديث رقم (1829) [3/ 1459] ورواه غيرهما.

نفسه الرحماني، ومدده الربَّاني عنه التحق بالعدم، وذلك بتقدير الله تعالى وقضائه.

إذ لولا ذلك؛ لامتدَّت الحياة، ولمَّا كان آخر الدنيا هو الفناء والهلاك؛ ناسبه فقدان الصلاة التي بها الحياة، فاعرف هذه الجملة، وتبتل إليه تبتيلاً، وكن حاضراً دائماً، فإنك حينما كنت غائباً؛ مِتَّ عن عالم الحسِّ الحيواني، والتحقت بأهل البرزخ، واجتهد أن يتَّصل نفسك الجزئي بنفس حافظ من الحفاظ الكلي، فإنه إذا مات جسدك، حيَت روحك بالحياة الطيبة، الحمد لله بكماله.

* * *

61 ـ **في الحديث: «نُصرت بالصبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور»**[1]:

أشار ﷺ إلى أن الأصل في النصرة؛ هو المتبوع؛ ولذا لم يقل: نُصرت أمتي مع موافقته لمقابله، كما أنه الأصل في الأمر أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1] من قبيل تأديب الصغير بالكبير، فإن الأمر بالاتِّقاء في معنى النهي عن المخالفات وكذا غيره، ويجوز أن يكون نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: 1] من قبيل التثبيت: أي اثبت على عدم الإطاعة لهم، ثم إن الرياح واحدة في الأصل، وإنما اختلفت من حيث مهابتها، فجُعلت بعضها من قبيل الرياح النافعة، وبعضها من الضارة كالمياه، فإنها في الأصل على طبع واحد أيضاً، وإنما اختلفت من مجاريها، وكذا جوهر العالم واحد، فمنهم جواهر نفيسة، ومنها أحجار خسيسة.

وقد قال تعالى: ﴿كُنتُمْ بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ [الرعد: 4] أي: ومع تجاروها تختلف أحكامها.

ألا ترى إلى اللبن حيث يخرج من بين فرث ودم، ولا يتروَّح من الفرث، ولا يتلوَّن من الدم؛ كذا الابن بين الخبيثين، وكل ذلك راجع إلى أحكام الكون المضافة إلى الأسماء الجلالية، لا إلى حكم التجلِّي الأحدي الساري، فإنه على قُدسه وطهارته أزلاً وأبداً.

ألا ترى إلى نور الشمس كيف يقع على القاذورات، وهو غير متدَّنس بها؛ لعدم حلوله فيها.

---

(1) رواه البخاري في الصحيح، في أبواب عدة منها: باب قول النبي ﷺ نصرت بالصبا، ورواه مسلم في الصحيح، باب في ريح الصبا والدبور، حديث رقم (900) [2/ 617] ورواه غيرهما.

ثم إن النصرة بالصبا: إشارة إلى كمال هذه الأمة، ومحافظتهم التجلِّي الإلهي، فإن الصبا تهب من المشرق حين يستوي الليل والنهار، والاستواء اعتدال، تصبو إليه القلوب وتميل، وكذا المشرق محلُّ شروق النور وطلوعه، فإن الإنسان يتوَّحش من الظلمة، ويميل إلى النور؛ ولذا لا يخلو عن إيقاد السراج في الليل، كما أن الآفاق لا يخلو عن القمر فيه.

والشمس: إشارة إلى الروح الأمري الإضافي، وطلوعها من المشرق؛ إشارة إلى بقاء نور الروح في الوجود، واستمرار التجلِّي في القلب؛ ولذا جعل الله طلوعها من المغرب من أشراط الساعة؛ لأن طلوعها منه؛ إشارة إلى زوال حكم الروح الإنساني؛ والتجلِّي الإلهي، وظهور حكم الروح الحيواني، وإدبار أمر التجلِّي، وارتداده إلى الأصل؛ ولذا قال: بالدَّبور، فإنه كما أن المشرق محلُّ الإقبال؛ فكذا المغرب محلُّ الإدبار، ومثل ذلك الروح الإنساني، والروح الحيواني، وكذا القالب والقلب.

وأشار قوله ﷺ: **(نصرت)**[1]: إلى أنه ﷺ سبب النصرة بالأصالة؛ وإنما الصبا نَفس من أنفاسه الرحمانية.

وأمَّا ورثته فسبب النصرة بالتبعية، فكل جند ليس معهم أحد من الورثة، فهم مخذولون؛ لأن النفس الرحماني معهم أين ما كانوا من الآنيات المختلفة، وهذا قد غفل عنه سلاطين الزمان؛ لاحتجابهم عن الله تعالى بحجاب الكون، فكان أكثر حالهم الخذلان، ثم لا يكفي أن يكون معهم واحد منهم؛ بل لا بد من المبايعة، وحسن الاعتقاد، وإليه الإشارة بقوله: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي**»[2]، وهو سرٌّ عظيم لم ينتبه له كثيرون، فبقوا حيارى، وليس محلُّ الحيرة بالنسبة إلى الخبير البصير، والله الغيور.

* * *

62 ـ **في الحديث: «سافروا؛ تصحُّوا وتغنموا»**[3]:

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) جزء من حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في إدامة ذكر اللَّه عن وجل. . ، حديث رقم (550) [1/ 406] ورواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بدون كلمة (حسن).

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب قول اللَّه تعالى: ﴿ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً. . ﴾، حديث رقم (13366) [7/ 102] ورواه الشهاب القضاعي في المسند برقم (622) [1/ 364] ورواه غيرهما.

اعلم أن السفر إمَّا سفر صوري من مكان إلى مكان، وإمَّا سفر معنوي من مقام إلى مقام.

وأمَّا الصحة في السفر الصوري: فقد يكون الإنسان مريضاً محتاجاً إلى تبديل الهواء، والبقاع مختلفة من حيث العفونة، والكثافة، والاعتدال، واللطافة، فإذا صادف الهواء المعتدل؛ اعتدل مزاجه، وسرى حكم الصحة إلى جميع أجزائه.

فقد حُكي: أن بعض الملوك خرج من بغداد إلى بعض النواحي فمرض هناك؛ فلم يصح حتى جيء إليه بماء بغداد، وهوائها في زقٍّ منفوخ؛ فظهر الاختلاف بين ماء وماء، وهواء وهواء، ومكان ومكان.

وأمَّا الغنيمة: فقد قيل: إن في الحركات البركات، فقد يكون المرء بحيث يربح في تجارته في الغربة ما لا يربح فيها في الوطن، لمَّا أن الله تعالى بثَّ النفع والضرَّ، والخير والشر في أقطار الأرض، والمرء لا يدري أي قطر هو خير له؟ وقد يكون بعض البلاد بحيث يغلب عليها حكم بعض الكواكب؛ كالثريَّا في الشام، وسهيل في اليمن، وقِس عليها ما هو نحس منها؛ كالمريخ، والزحل، ووقت السعد والنحس من الاقتران؛ فيصادفه في السفر، فهذه غنيمة متعلِّقة بالمال، والأولى صحة متعلِّقة بالبدن وَقَدَّمها؛ لأن الصحة أصل في انتفاع البدن بالمال إذ لا ينتفع المريض بماله؛ ولو كان قنطاراً.

ولذا ورد: «**العلم علمان: علم الأبدان، ثم علم الأديان**»[1]، إن الدين وقوامه تابع لصحة البدن واعتداله، فكذا المال والانتفاع به.

وأمَّا الصحة في السفر المعنوي: فإن المسافر الخارج إلى الله تعالى من اسم له إلى اسم مريض من جهة أوصاف نفسه المضرَّة، وأخلاق قلبه الذميمة، فباطنه سقيم مجروح، وله قروح لا تُحصى، محتاج إلى طبيب وجرَّاح، وهذا السفر يعين على صحته المعنوية؛ لأن باليقين يزول الشك، وبالتمكين يذهب التلوين، وبالشهود يغيب الاحتجاب، وبالعلم يضمحل الجهل، ولا يزال في كل نَفس من أنفاسه يسافر إلى حال من الأحوال، وإلى مقام من المقامات إلى أن ينتهي إلى آخرها بحسب استعداده.

فإن المنتهى وإن كان واحداً كما قال تعالى: أَن﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ﴾ [النجم:

---

(1) أورده الغزالي في الإحياء من كلام الحكماء، كتاب العلم [1/ 49].

42]؛ لكن نقاط الدائرة مختلفة بالنسبة إلى المركز، فالتفاوت إنما هو في الكيفيات.

ألا ترى إلى الأبصار فإنها لا تدرك إلا بقدر قوتها وضعفها، وإن كان المرء قريباً.

وأمَّا الغنيمة في هذا السفر: فالاستكثار من العلوم الإلهية، والمعارف الربَّانية، والحكم اللطيفة، والحقائق الرقيقة، والأذواق الشهية، ومعانقات العذارى المقصورة في خيام ومواصلات حور عين؛ كأمثال اللؤلؤ المكنون في أصداف البحر.

وأية غنيمة فوق هذه الغنيمة؟ فهذه غنائم الفقراء السالكين، فإنهم قلَّلوا الأغذية الجسمانية، واختاروا السهر، والصمت، والخَلوة حتى أغناهم الله من فضله الكثير، ومننه الوفيرة، وأراهم جماله حين قام الخلق، وكالمهم، وكان معهم حيث كانوا، نسأل الله سبحانه أن يسلك بنا مسالك أولئك الواصلين، ويرزقنا من نعيمهم، ومزيدهم في كل حين.

* * *

63 ـ **في الحديث: «مَن أهان سلطان الله؛ أهانه الله، ومَن أكرم سلطان الله؛ أكرمه الله»**[1]:

الإهانة ضد الإكرام، كما يُعرف من المقابلة، وسلطان الله أعم من أن يكون القرآن، أو القائم بالقرآن بظاهره ومعناه، والإمام الظاهر بصورة السلطنة.

أمَّا الأول؛ فلأنه حُجة الله وبرهانه على المنكرين، فمَن أهانه بترك العمل به؛ أهانه الله بالعذاب المهين، وكان عمر رضي الله عنه يُقبِّل المصحف كل صباح، ويقول: هذا كلام ربي؛ يعني: يُعظِّم ظاهره بالتقبيل، وباطنه بالعمل بموجبه.

ولا شك أن تعظيم الكلام تعظيم للمتكلِّم، وكذا الإهانة به، واستحقاره إهانة، واستحقار للمتكلِّم، واستحقار العظيم عظيم؛ ولذا كان جزاؤه الإهانة من الله تعالى على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾ [البقرة: 15].

ومن إهانة القرآن؛ إهانة ما يدلُّ عليه من الآثار، ويُخبر عنه من أحوال الأخيار والأشرار.

وأمَّا الثاني؛ فلأن القائم بالقرآن بظاهره وباطنه؛ هو خليفة الله ووارث

(1) رواه الترمذي في السنن، باب 47، حديث رقم (2224) [4/ 502] ورواه الشهاب القضاعي في المسند، برقم (419) [1/ 259] ورواه غيرهما.

رسوله ﷺ، وكان خُلق رسول الله؛ هو القرآن؛ بل كان هو بنفسه عين القرآن؛ هو الكلام التنزيلي، والإنسان الكامل؛ هو الكلام التكويني.

فكما أن الكلام التنزيلي مشتمل على الحروف، والكلمات، والآيات، والسور؛ فكذا الكلام التكويني مشتمل على ذلك، فحروفه الشؤون الذاتية، وكلماته الأعيان العلمية، وآياته الحقائق المجرَّدة الأرواحية، وسوره الآثار المثالية الجسمانية، فهذه هي حروف كتاب الوجود الظلِّي، وكلماته، وآياته، وسوره.

وأمَّا كتاب الوجود الحقيقي؛ فحروفه الأسماء الذاتية الأحدية، وكلماته الأسماء الصفاتية الواحدية، وآياته الأسماء الأفعالية، وسوره الآثارية.

فظهر أن الإنسان الكامل؛ هو القرآن من حيث إنه كتاب جامع لحقائق الأشياء كلها، وله كلام يصدر عنه؛ فهو كلام الله أيضاً؛ لأنه مظهر الحق، ومظهر أسرار القرآن، فمَن أهانه بعدم الإصغاء إلى كلامه، وحُجته، وبرهانه؛ أهانه الله بتركه في الحجاب المانع عن سماع الخطاب الإلهي، ومَن أكرمه بأن يقبل كلامه لعلمه بأنه كلام الله حقيقة؛ أكرمه الله بكرامات المكالمة، والمناجاة، والتحقق بحقائق الكلام، وفيه إنذار عظيم للغافلين المحجوبين، وتبشير جسيم للمتيقِّظين المكاشفين.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**اللّهم أرنا الحق حقاً، وأرزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وأرزقنا اجتنابه**»(1)، فمن الحق أولياء الله، ومَن والاهم، ومن الباطل أعداء الله، ومَن والاهم.

فإن الأولين يلزم موالاتهم؛ لحقيَّتهم، والآخرين يجب مُعاداتهم؛ لبطلانهم.

وأمَّا الثالث فلأن السلطان سرُّ الله الرحمن؛ القيامة بوحدته مقام وحدة الحق، ووجوب وجوده، وشمول ظلَّه على جميع الرعايا؛ كشمول رحمة الله على جملة البرايا، فهو ظاهر على صورة اسم الله الأعظم، فمَن أهانه بترك المبايعة له، والخروج عن حكمه، وسلطانه؛ أهانه الله بإقامته في دائرة المبتدعة الشاردة عن حكم الجماعة، ومَن أكرمه بالدخول تحت لوائه؛ أكرمه الله بالنصرة على الأعداء الظاهرة والباطنة.

فإن قلت: فكيف الإكرام إذا كان خارجاً عن حكم الله في أكثر أحواله؟ قلت:

---

(1) أورده ابن كثير في التفسير، سورة البقرة [1/ 252].

قد ثبت أن الطاعة اليسيرة من السلطان بمنزلة الطاعة الكثيرة من غيره؛ فهو مظهر اسم الذات، ولذا كان قائد الخلق.

كما أن الاسم الأعظم يقود جميع الإلهية، وكذا مَن هو من رجال السلطنة تحت يده، فإنهم أيضاً مظاهر الأسماء الذاتية الكلية؛ لكليتهم بالنسبة إلى سائر الأسماء الجزئية ومظاهرها، ولهم ملائكة متعيِّنة في السموات تلهمهم الحق ليعملوا به.

ومنه قولهم: أرباب الدول ملهمون، فربما يوجد عندهم من العلم ما لم يكن هو عند العلماء؛ بل منهم أمي لا يعلمون الكتاب؛ لكن ما باشر به من الأفعال؛ يكون موافقاً له بتوفيق الله تعالى، هذا إذا كان صحيح النية في سلطانه، وإلا فيعسر الوقوف عند الحق، والوصول إليه؛ لغلبة حجاب الكون.

ألا ترى أن السمع إذا كان مسدوداً، أو كان القائل وراء حجاب غليظ؛ فإن السامع محروم عن السماع، فكذا إذا كان القلب محجوباً بحجب العوائق، والتعلُّقات الكونية، والخواطر الفاسدة؛ فإنه عين العمى، والأعمى لا يُبصر شيئاً، وكذا أعمى القلب لا يدرك شيئاً مع أجود الإلهام، والإلقاء، والتجلِّي على حاله، إذ ليس عند الله بخل وإمساك؛ بل جود وفيض.

فالمانع من طرف العبد؛ فهو محجوب لا من طرف الحق تعالى؛ إذ هو محتجب بصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وذلك بحجاب له في الحقيقة؛ لأنه كقناع العروس؛ فهو حجاب للغير للإلهام، ولا غير هنا بالنسبة إلى أحدية التحلِّي، فإن الغيرية الحاصلة في مرتبة الواحدية إنما هي باعتبار التعيُّنات، وصور الحقائق، واختلاف التجليَّات، وذلك لا يضرُّ بالعينية في المرتبة الأولى.

واعلم أن وجود الإنسان الكامل؛ هو حرم الله تعالى، ويمينه بمنزلة الحجر الأسود، فكما أن مَن استلم الحجر الأسود؛ فقد بايع الله ورسوله في مرتبة الشريعة؛ فكذا مَن استلم يمين الإنسان الكامل؛ فقد بايع الله ورسوله في مرتبة الحقيقة، ولمَّا كان السلطان الأعظم ظلَّ الله أي: صورة الحقيقة الإلهية الجامعة للحقائق كلها؛ كان استلام يده، والمبايعة له بمنزلة استلام يمين الإنسان الكامل، والمبايعة له، ومنه يظهر أن المراد الاستلام بحقائق الإيمان، والإسلام، والتوحيد لا بمجرَّد التقليد.

فرُبَّ كافرٍ يستلم الحجر الأسود، ولا ينفعه ذلك في الباطن، وإن نفعه في

الظاهر، وكذا رُبَّ منكرٍ يستلم اليمين مطلقاً سواء كانت يمين باطن الحقيقة الإلهية؛ وهو يمين الإنسان الكامل، أو يمين ظاهر تلك الحقيقة؛ وهي يمين السلطان الأعظم، وقد يكون السلطان خليفة الله تعالى؛ فيكون له يمينان؛ يمين ظاهر السلطنة، ويمين باطنها، فيكون استلام يمينه بمنزلة استلام اليمنين؛ كالخلفاء الأربعة، ومَن تبعهم في طريقتهم، وسيرتهم.

وأمَّا إذا كان ظاهراً في صورة الظلِّ؛ فلا بد له أيضاً من مبايعة مَن هو في مرتبة الخلافة الكاملة، ومتابعته؛ كمتابعة الظلِّ للمظلول، وإلا لم يكن متصوراً؛ بل مخذولاً هكذا، فإنه مطابق لنفس الأمر، ومن لُباب المعرفة الحاصلة في أواخر العمر.

* * *

64 ـ **في الحديث الصحيح**: «**الرؤيا الصالحة يراها الرجل، أو تُرى له**»[1]:

الرؤيا الصالحة هي الصادقة التي توافق الواقع، وهي ما لم تكن من غلبة الخيال، ولا من مداخلة وسوسة الشيطان، فإنها إذاً تكون كاذبة خيالية أو شيطانية، ومنها الاحتلام وقد تكون للسالك حين سلوكه، وقد تكون من ضعف المزاج والقوى، ولذا قد تقع من الكُمَّل، ولا تقدح في مرتبتهم.

ومنها: ما رُوي: «**إن آدم أبا البشر احتلم، فخلق الله من نطفته يأجوج ومأجوج**»[2]، إن صحَّ فإن بعض العلماء ذهب إلى عدم صحته بناءً على أن ساحة أعراض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مصونة عن مثل ذلك التلوث، وليس بذاك على أن الله تعالى إن كان قد قدر خلق يأجوج ومأجوج من نطفة آدم، لم يلزم أن يكون ذلك عن شهوة خيالية، بل على وجه غير ذلك، فكان من حكمته الخفية أن خلق حواء من ضلعه، ويأجوج ومأجوج من نطفته من غير علوق في الرحم، إشارة إلى خساستهم في نفوسهم، وسائر الذرية بعلوق الرحم، إشارة إلى شرفهم في نفوسهم؛ لكونه طريق التناسل، حتى إن أفضل الأنبياء جاء على هذا الطريق.

ثم إن قوله: (**يراها الرجل**): إشارة إلى الرؤيا الأنفسية.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة يونس، حديث رقم (3302) [2/ 370] ورواه الطبراني في الكبير برقم (3051) [3/ 179] ورواه غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وقوله: (**أو تُرى له**) على المجهول: إشارة إلى الرؤيا الأفاقية، والرجل عالم لكل رجلٍ معهود في الذهن: أي رجلٍ كان، والتخصيص مبني على الغالب، أو على أن المرأة تابعة له في الأحكام، وذلك أنه إذا صفا الوقت كالأسحار، أو ارتفع الموانع، واعتدل المزاج فإن المرآة الإنسانية مطلقاً تقبل الصور المثالية.

* * *

65 ـ في الحديث: «اللّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك»[1]:

اعلم أن الإنسان إما أن يكون مع الحق فقط، بأن يكون غائباً عن الخلق رأساً، وهو حال الجمع والفناء التام، والمحفوظ منهم من يعود إلى الحس وقت أداء الفرائض، فلا يجري عليه لسان ذنب بخلاف غيره، وإما أن يكون مع الخلق فقط، بأن يكون غائباً عن الحق وشهوده، وهو حال أهل الفرق الأُول، والمحفوظ منهم من تداركه الله تعالى في حال الصلاة بالشهود في الجملة، ولو خياليّاً.

وإمَّا أن يكون مع الحق والخلق جميعاً، وهو حال أهل جمع الجمع والبقاء، والفرق الثاني، والمشروح الصدر، فمن كان حضوره دائماً مع الله تعالى سواء كان من أهل الفناء، أو من أهل البقاء، فهو مصون عن النفس والشيطان، وعن كل ما سوى الله؛ لأن الحضور والغيبة لا يجتمعان، ومن كان غائباً عن الله تعالى، كأهل الفرق الأُول، فهو موكول إلى النفس والخلق؛ لما ذكرنا للنبي ﷺ من كمال رحمته على أمته، دعا بما ذكر من الدعاء، فهو إما تشريع، لهم بأن يدعو الله تعالى، هكذا حذراً عن الغفلة والحجاب، وإما أن التقدير: اللّهم لا تكل أمتي إلى نفوسهم، فإن النبي نفسه معصومٌ مع بقاء الإمكان الذاتي؛ لأن العصمة امتناع بالغير، وهو لا ينافي في ذلك والله العاصم الحافظ.

* * *

66 ـ في أحاديث الجامع الصغير: «**عليك بالهجرة فإنه لا مثل لها**»[2]:

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس عن ابن عمر، حديث رقم (2008) [1/ 492] ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء من حديث مسعر بن كدام [7/ 238].

(2) رواه النسائي في السنن الكبرى، الحث على الهجرة، حديث رقم (7790) [4/ 426] ورواه الطبراني في المعجم الكبير، من يكنى أبا فاطمة، حديث رقم (809) [22/ 321] ورواه غيرهما.

إن قلت: قد ثبت في الجامع الصغير أن الصوم لا مثل له أيضاً، فكيف التوفيق؟

قلت: فيه جوابان:

الأول: إن ما لا مثل له من الأعمال كثير، **فمنه**: الصوم، **ومنه**: الهجرة.

والثاني: إن الصوم من باب الهجرة في المعنى، فإن الهجرة ترك الوطن والمألوف، فالهجرة من دار إلى دار من باب ترك الوطن والمألوف جميعاً، والصوم من باب ترك المألوف فقط؛ لأن عادة الطبع، الأكل والشرب بحيث لا يكاد يصبر عنهما، فإذا صام؛ فكأنه ذبح الطبع، وأحيى القلب، وأتى بعمل لا مثل له، وكذا الهجرة من دار إلى دار، فإن فيها مهاجرة المألوف، وقطع، السكون إليه.

ولا شك أن الاستئناس والائتلاف بالمخلوق؛ بل بما سوى الله تعالى انقطع عن الله، كما أن قطع العلامة عنه اتصال بالله، وقد أمر ﷺ بذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: 91]، فإنه إذا وجب مقاطعة صحبة الإنسان؛ وهو صورة الحق في الحقيقة؛ فما بالك بغيره من الأشياء، وقال تعالى: ﴿ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً﴾ [المزمل: 8].

* * *

67 ـ وفي أحاديث الجامع الصغير: «**لا تذهب الدنيا حتى تصير إلى لكع ابن لكع**»[1].

أراد باللكع؛ اللئيم؛ وهو ضد الكريم.

فإن الدنيا تقوم بكرم الكرماء، فإذا صارت إلى اللئيم البخيل؛ كان ذلك من أشراط الساعة على أن اللئيم يُخطىء غالباً؛ إذ ليس بأصيل بخلاف الأصل، فإنه لا يُخطىء كما ورد في الأثر.

والحاصل: إن الكرم من شأن الأصيل غالباً، كما أن البخل من شأن غير الأصيل غالباً، وقد جُرِّب كل منهما مراراً في كل عصر، فوجد كذلك، وصيرورة الدنيا إلى اللئيم؛ بمعنى انتقال الدولة والمناصب إليه، كما نشاهد في زماننا هذا.

فإن الأصيل مُبعد، والداعي الدخيل مُقرَّب، وذلك مبغوض عند القلوب،

(1) رواه الداني في السنن الواردة في الفتن، باب ما جاء من أشراط الساعة، حديث رقم (407) [4/ 802].

والبغض من علامات التفرقة؛ ولذا قلَّما اتفق نصرة اللئام، ولو اتفق تحت راياتهم ألوف، ثم إن اللئيم في الحقيقة؛ هو البخيل بذكر الله، كما دلَّ عليه قوله ﷺ:

«**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[1]، حتى ينقرض أهل الذكر المتَّصل؛ وهو ذكر أهل الله الاستغراق.

فاتصال أهل الذكر في جميع الأوقات يُعدُّ من الكرم، كما ورد أنه ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه؛ ولذا وُصف بالجود والعطاء بحيث لا غاية له، وأمَّا انقطاعه في بعض الأوقات؛ فيُعدُّ من البخل، كما عليه أهل الغفلة والنسيان.

ومن أعظم النسيان: منع مَن ذكر الله تعالى عن الذكر، وفي مثله ورد: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ وَنَزَعْنَا﴾ [التوبة: 67]؛ يعني: نسوا الله في أنفسهم حتى لم يرضوا في حق غيرهم إلا النسيان؛ ولذا مُنعوا من الذكر، وحملوا الذكر على الترك، والنسيان؛ فنسيهم الله حيث لم يذكرهم في ملأ خير منهم؛ وهم أهل النور أصحاب المكانة المثلى.

اللّهم إني أسألك الذكر الكثير، والخير الوفير، والحضور الدائم، والوِرد القائم، والوارد الملائم.

* * *

68 ـ **في المرفوع: «عليكم بالشام»**[2]:

لم يُرد ﷺ بالشام دمشق فقط؛ بل أعمَّ منها، ومن غيرها من الشامات إلى آخر الأرض المقدَّسة.

وفي الحديث أيضاً: «**الشام صفوة الله من بلاده يجيء إليها صفوته من خلقه**»[3]، وفيه من التحريض على الإقامة في الشام.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، حديث رقم (148) [1/ 131] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن هذا الخبر تفرد به عبد الرزاق، حديث رقم (6849) [15/ 263]، ورواه غيرهما.

(2) جزء من حديث رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (8556) [4/ 555] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الأمر بسكون الشام في آخر الزمان. . ، حديث رقم (7305) [16/ 294] ورواه غيرهما.

(3) نصه عند الحاكم: «الشام صفوة اللَّه من بلاده يسوق إليها صفوة من عباده من خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخل من غيرها فبرحمته». المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (8555) [4/ 555] ورواه غيرهما.

ما في الحديث الأول: فإنه إذا كان المجتبي إليها والمجموع صفوة الخلق؛ فليرغب العاقل في الهجرة إليها، والإقامة فيها؛ ليكون من صفوة الخالق، ومختار الناس، فإن قلت: إن الشام لا تخلط من أجلاف العرب والترك ونحوهم.

فكيف يكونون من صفوة الخلق؟ قلت: قد ورد في بعض الأحاديث: «إن لله ملكاً ينقل الأموات، فمَن استأهل بالشام؛ فهو فيها حيّاً وميِّتاً، ومَن لم يستأهل لها؛ فهو في الشام حيّاً، وفي غيرها ميِّتاً، فإن الله يضم كل مجانس إلى مجانسه؛ كما يضم من عمل عمل قوم لوط إليهم».

كما ورد في الحديث الصحيح.

وقوله ﷺ: «**ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين**»[1]، فإن ذلك إنما هو بالمستأهل في الجملة.

فإن الأرض المقدَّسة لا تُقدِّس أحداً بلا عمل، واعتقاد الصالح لا يشفع في الطالح إذا كان ممّن أذن له في الشفاعة، وهو المؤمن الغير المتعمِّد المعظِّم للشريعة في الجملة، فإن قلت: لِم حرَّض على الإقامة بالشام مع فضل الحرمين الشريفين عليها.

قلت: الأمر **الأول**: إنها نهاية مقام الصفات، وفيها يطيب عيش الناس.

فإن المدينة أول مقام من مقاماتها، وفيها عيش الناس؛ لقربها من مقام الذات الذي هو حرم الله تعالى.

والثاني: إن من الفتنة الكبرى في آخر الزمان؛ فتنة بني الأصفر؛ وهم لا يدخلون الشام، وحلب، فهما مأمنان للخلق في ذلك الزمان؛ لكن الشام أفضل من حلب؛ لقرب حلب من أرض الروم بالنسبة إلى الشام.

والثالث: إن الشام والقدس أرض المحشر، فالأمر بالهجرة إليها رحمة من الله تعالى لخلقه؛ حتى يكونوا يوم القيامة محشورين من محلِّ الشفاعة؛ لأنها محفوفة بالأرواح الطيبة من الأنبياء، وكُمَّل الأولياء.

فمن الأول: الجد النبوي؛ وهو الخليل، وابنه إسحاق، وابنه يعقوب، وموسى، وزكريا، ويحيى، ويوسف وغيرهم عليهم السلام.

ومن الثانية: حضرة الشيخ محيي الدين العربي ـ قُدِّس سرّه ـ فإنه كان يُسمَّى

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (337) [1/ 102].

عليه السلام من اسم أبيه زكريا، وفي الدنيا ذبح كبش الموت في الآخرة، ولذا بحضرة الشيخ وبعلومه وحقائقه حُييت القلوب، وبإرشاده وتربيته ماتت النفوس، وكانت آثاره باقية إلى قيام الساعة، وبها حَيى اسمه كما قال هو نفسه في الفتوحات: ولكل عصر واحد يسمو به، وأنا لباقي العصر ذاك الواحد.

ولا شك أن الإقامة في بلدة كانت الكُمَّل فيها بأجسامهم وأرواحهم أقوى من الإقامة في بلدة كانوا فيها بأرواحهم فقط، ومن هذا رغب في زيارتهم أينما كانوا؛ كأنها لزيارة الأحياء.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: 169].

فإنه إذا كانت الشهداء الصورية أحياء عند ربهم؛ كانت الشهداء الحقيقية أَوْلى بذلك؛ لأنهم فانون في الله، باقون بالله، والله هو الحيُّ القيُّوم؛ فكذا نفوسهم في أبدانهم، فكانت محفوظة عن التفسُّخ والانحلال، والله يقول الحق على لسان الحقي بلا وهم ولا خيال.

❊ ❊ ❊

69 ـ قوله ﷺ: «**إن الله قِبَلَ أحدكم**»[1].

اعلم أن جميع الأينيات قِبلة عند العارفين على ما أفاده قوله تعالى؛ ﴿ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [البقرة: 115]؛ لكن الأدب؛ هو التوجه إلى أين الكعبة كما أفاده قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 149].

ثم إن الله تعالى نصَّ على المعيَّة الذاتية في قوله ﴿ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [الحديد: 4]، وقد حملها العارفون على معنى معيَّة الشيء إلى نفسه، ونصَّ رسول الله ﷺ إلى أن الله في جهة قِبلة المصلِّي، وبينهما تدافع.

والتوفيق هو أن كون الله تعالى مع عبده؛ إشارة إلى التجلِّي الوجودي، والنفس الرحماني، فهو مظهر نوره تعالى، وعامل سرَّه، وكونه في قِبلته؛ إشارة إلى القلبي من باطن الغيب إلى ظاهره في العلماء التفضُّلي، فإنه تعالى متين في تلك المرتبة بين الفاعل، والقابل، والمؤثِّر، والمتأخِّر، والمفيض، والمستفيض، فكانت

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يجوز من البصاق. . ، حديث رقم (1155) [1/ 406] ونصه كاملاً: عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما أن النبي ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد فتغيظ على أهل المسجد وقال إن اللَّه قبل أحدكم فإذا كان في صلاته فلا يبزقن أو قال لا يتنخمن ثم نزل فحتها بيده.

الحقيقة الواحدة حقيقة فاعلية من حيث باطنها وقُدسها، وحقيقة قابلية من حيث ظاهرها وتعيُّنها.

وهذه نسبة معتبرة بين الحقائق الإلهية، والحقائق الكونية؛ لتمييز المراتب على ما يستدعيه الأسماء المختلفة الحقائق، فكان الله تعالى ساجداً ومسجوداً في الحقيقة من حيث أحدية الوجود، والفيض الأقدس، ومسجوداً فقط من حيث اعتبار الوحدة، والفيض المقدَّس.

فالعبد ساجد في هذه المرتبة الذاتية، فلا تحصل أي: المناجاة، ولا تتحقق إلا بينهما، ومن مقتضياتها الفهوانية[1] والمشافهة على ما يستدعيه الخطابات القرآنية لا سيما ما وقع في الفاتحة؛ ولذا اقتضى الحال المحاذاة والمقابلة؛ ليصحَّ الخطاب والمناجاة، وهي بكون العبد متوجهاً إلى القبلة.

وكون الرب متوجهاً إلى العبد؛ فيكون الحق هو القبلة في الحقيقة، كما أنه هو المجيب لمكالم غيره منه تعالى حتى لا يكون توجه العبد إلى ما سواه تعالى لا صورة ولا معنى، أمَّا المعنى فلا بحث عنه؛ لكونه مما لا يدرك إلا بالذوق بعد الدخول في دائرة البساطة، وأمَّا الصورة؛ فلأن الله تعالى في حالة المناجاة والمكالمة يتجلَّى في صورة مثالية يحصل فيها الكلام والخطاب، وأمَّا باعتبار تجرُّد ذاته، وغناه عن العالمين؛ فلا صورة له أصلاً، وكذا لا يكون في جهة ونحوها على ما أفاده الحقائق، فاعرف، فإنه من لُباب المعرفة.

* * *

70 ـ وأمَّا قوله: «**مَن ثبت نبت**»؛ فإنما هو في حال التلوينات أو غيرها.

واعلم أن أحسن الأخلاق بين الله وبين عبده؛ هو الرضا والتسليم، وأحسنها بين العباد؛ السخاء وحُسن الخلق.

كما ورد: «**إن لله ثلاثمائة وستين خُلقاً**»[2]؛ أحسنها السخاء؛ لأن فيه تخلُّقاً بسرِّ الوجود والفيض الذي هو من عين المنَّة، فمَن كان جوَّاداً في ماله؛ كان في نفسه، كذلك كحال الخليل عليه السلام.

(1) الفهوانية: يعنون بها خطاب الحق بطريق المكافحة في عالم المثال. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام مطبوع في الدار بتحقيقنا).

(2) أورد إسماعيل حقي البروسوي في تفسير روح البيان بلفظ: «إن للَّه ثلاثمائة وستين خلقاً من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة». (سورة الذاريات، آية 19).

ولا شك أن كلاًّ من المال والولد والنفس حجب كونية لا بد للسالك من خرقها، والولوج في عالم الجبروت والمعاني، أيَّدنا الله تعالى وإياكم في طريقه، وأذاقنا حلاوة فيضه. وتوفيقه، آمين بجاه النبي الأمين.

ظهر لي ليلة الخميس التاسع من شهر المولد النبوي من سنة ثلاثين ومائة وألف: أن كتب الهداية لا تُباع وأعظمها القرآن، ثم الحديث، ثم التفسير، ثم ما يتوسَّل إلى ذلك من العلوم النافعة، ومن ثم ذهب العلماء إلى كراهة بيع المصحف، والتلاوة بالأجرة ونحو ذلك؛ لأن ما كان من الأمور الأخروية؛ فله قدر عند الله تعالى، وما له قدر عنده كيف يُباع بثمن بخس دراهم معدودة؟ فما رفعه الميزان الإلهي لا يُخفض ولا يُوضع.

ثم إن المراد من كتب الهداية من طريق الإشارة؛ هي كلمات الله التامات؛ وهي الأرواح الخيِّرة؛ كالأنبياء، وكُمَّل الأولياء، فإن وجوداتهم كتب إلهية مشتملة على الحروف، والكلمات، والآيات، والسور الإلهية الحقيقية، وكلها لدعوة الناس، وهدايتهم إلى الله تعالى كما قال تعالى ﴿ٱلۡبُيُوتَ أَبۡوَٰبِهَاۚ صِرَٰطٍ وَلَهُۥ﴾ [الشورى: 52].

ولا شك أن هذه الكتب؛ هي سرُّ الله الأعظم؛ ولعظمها لو بيعت؛ لبيعت بالله تعالى، والله لا يُباع بالله، فليست هذه الكتب ما يقابلها من الثمن، فمَن وجدها؛ فقد اهتدى؛ ولذا وصَّى الكُمَّل بمبايعة الكُمَّل، وبذل المال والوجود لهم؛ حتى يكون لهم قدر عند الله تعالى مثلهم، وأين هذه المعرفة الكاملة من عقول العوام وقلوبهم؟ فإنما يهتدي إلى الخواص مَن يهتدي بالله، لا بالنفس، فإن كان دين صحيح؛ فلا بد لك من الكتاب مطلقاً، فإن الدين لا ينفك عنه قطعاً.

* * *

71 ـ **في الحديث**: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[1].

أشار ﷺ إلى فتح مكة الوجود بحصول المشاهدة للقلب، فليس بعد ذلك

(1) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب لا يحل القتال بمكة. . ، حديث رقم (1737) [2/ 651] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة منها: باب تحريم مكة وصيدها. . ، حديث رقم (1353) [2/ 986] ورواه غيرهما.

هجرة: أي تعب ومحنة، وإن كان فبالإضافة.

ألا ترى أن أهل الله مبتلون بأنواع البلاء بعد الوصول إلى مقام، وكشف حجاب الحسِّ، والخيال بتجليَّات نور الأفعال والصفات، فإن ذلك من باب التتمَّة، والتكميل، والتهيؤ إلى تجلِّي نور الذات بإزالة حجاب الوهم، فللسالك هِجر مرة بعد مرة لكن بعض ذلك من قبيل الفرائض، وبعضها من قبيل النوافل، وأكثر غير الملائم في الدنيا متوجه إلى الأماثل والأفاضل؛ ليتسع القلب لظهور التجليَّات المتنوعة.

فمَن عرف هذا السرَّ؛ لم يبكِ من البلاء، فإنه إنما ابُتلي به؛ لأجل الترقِّي والإعراض عن الأسباب، الترقِّي تنزُّل جداً، والسفر من بواعث الإقبال إدباراً قطعاً، ثم إن الله تعالى يبتلي عبده بما شاء، كيف شاء، متى شاء.

ولا ينبغي للعبد أن يسأل ذلك، فربما لا يتحمله؛ بل الواجب عليه عند جريان القضاء طلب الصبر والسكون والرضا؛ حتى يُهوَّن عليه ذلك، ولا يشقى به كما شقى الكفار، ومَن يليهم من المحجوبين.

نعوذ بالله من الجهل والغرور والمكابرة، ونسأله العفو والعافية والمصابرة.

بعض الواردات

وارد المرشد والمريد

اعلم أن المرشد الكامل كالمَلَك الذي ينفخ الروح في الجنين؛ فإنه ينفخ، صورة اشتعال حطب الجسد بنار الروح، ولمَّا كان ظهور تلك النار في المحلِّ من تربية النافخ؛ جُعل المرشد كالنافخ، وليس إلا المظهر، ففيه سرُّ الخلافة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، وإنما كان الله أحسنهم؛ لأنهم إنما يخلقون على صورة ما خلق الله؛ فهم الفرع في ذلك، والله هو الأصل والمبدأ.

فظهر أن المريد ولد المرشد وفرعه أي: في الظهور؛ لأنه لولا ظهور المرشد قبل ظهور المريد، كما أنه لولا ظهور الحق بذاته لذاته في ذاته؛ لما ظهر الخلق أبداً، فكان ظهور الحق؛ هو المبدأ في جميع الظهورات؛ ولذا وصف نفسه بالأولية والظاهرية، ولمَّا كان ظهور الإنسان بالمعنى أَوْلى من ظهوره بالصورة؛ لأن المعنى حق، والصورة خلق؛ كان الأستاذ أحق بالتعظيم من الأب، والمرشد أولى بالتقديم من الوالد.

ومن العجائب أنه كما أن للمرشد والوالد فضلاً على المريد والابن من حيث التربية والوالدية؛ فكذا للمريد والابن فضلاً على المرشد والأب؛ لأن كلاًّ منهما في حكم المعين لهما؛ فالمرشد مثلاً كالأنثى الحاملة، والمريد المستعد كالقابلة، فإن ما يلد منه إنما يلد بمباشرة المريد، ولولا المريد لما وُلد مولود من المرشد، ففيهما سرُّ قول مَن قال من بعض الأكابر: فلولاه ولولانا؛ لما كان الذي كان.

فظهر أن مرتبة الأُلوهية من الإضافات؛ فإنها نسبة بين الإله والمألوه، والنسبة لا ترتفع ما دامت المرتبة باقية، ومنه يعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]؛ يعني: إن علمك إنما يتعلَّق بمرتبة الأُلوهية.

وأمَّا ما فوقها من مرتبة الغنى عن العالمين؛ وهي مرتبة الذات البحت؛ فلا

shaziliaassemia.com

يدخلها علم؛ لأنه لا اسم، ولا وصف، ولا رسم هنالك؛ ولذا يُقال: إن الله هو المحيط بكنهه.

ومما قررنا يُعرف سر طلب مقام الوسيلة لنبينا ﷺ؛ فإن ذلك من باب الغَيرة الإلهية؛ فهو كنصب السلطان من قِبل الرعية مع أن السلطان؛ هو الحاكم الآمر الناهي، فليس الكمال المطلق إلا الله تعالى؛ ولذا كان أعلم مطلقاً.

وأمَّا النبي ﷺ فقد قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهَ وَنَزَعۡنَا مَا صُلۡوۡرِهِم مِّنۡ﴾ [الإسراء: 85].

وإن كان علم الكائنات بجنب علمه ﷺ قطرة من سبعة أبحر، ولم يزل الإنسان الكامل في الدنيا يطلب مرآة لكماله، فإن بتلك المرآة يظهر لكماله في المريد، وأيضاً يحصل صورة كمال من المريد ينتفع به المرشد، وقد جُرِّب إنه كلَّما كان المريد أكمل استعداداً، وقرر عند الشيخ أمراً من أموره؛ فإن للشيخ ترقياً بحصول معارف زائدة من تقريراته.

وإن كان المريد لا يعرف ذلك، ونظيره علم الكيمياء فقد يدخل المتحيِّر في العلم من تقرير بعض مَن لا يقدر على علمه، وبيد الله الحل، والعقد، والقبض، والبسط، والعطاء، والمنع، ونحن نستفيد إلى الآن من الأرواح الطيبة، ولهم الاستفادة منَّا أيضاً بما شاء الله تعالى.

وارد الداخل والخارج

اعلم أن الإنسان صورة العالم وبالعكس؛ لكن الأول من قبيل الإجمال، والثاني من قبيل التفصيل.

فكما أن للإنسان ظاهراً؛ هو قالبه، وباطناً؛ هو قلبه؛ فكذا للعالم ظاهر؛ هو عالم الكون والفساد؛ وهو من مقعر السماء السابعة إلى تحت الأرضين، وباطن؛ وهو عالم الكرسي والعرش، وما فوقهما من عالم اللوح، والأرواح.

والقلب من كل منهما لا يُبلى ولا يغنى أبداً؛ لأنه مما يلي عالم الأمر والملكوت، وأمَّا القالب فيبلى ويفنى؛ لأنه مما يلي عالم الخلق والملك.

---

(1) رواه مسلم في الصحيح، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ. . ، حديث رقم (2363) [4/ 1836].

ولا شك أن عالم الخلق والملك عالم الكثافة، وعالم الأمر والملكوت من عالم اللطافة، فكما أن من شأن الكثيف الفناء؛ فكذا من شأن اللطيف البقاء؛ فالجواهر والمواد باقية من كل من العالمين، والصورة والأشكال فانية؛ ولذا تُطوى السموات السبع يوم القيامة، وتنشق على ما نطق به النص.

فإذا عرفت هذا؛ اعلم أن ظاهر الإنسان لا يدركه إلا الحسَّ، كما أن باطنه لا يدركه إلا العقل، فكما أن الحسَّ لا يدخل عالم العقل؛ فكذا العقل والخيال لا يدخل عالم الملكوت، فمَن نظر إلى ظاهر الإنسان؛ فليس له عدوى الدخول في باطنه، فإن النظر الحسِّي ليس من طرق الدخول في الباطن.

وكذا مَن نظر إلى ظاهر العالم؛ فليس له الدعوى المذكورة؛ فإن الحس إنما يدرك الصور، والأشكال، والخيال، والعقل المعاني الجزئية المتعلِّقة بالسبع الطباق، وأمَّا عالم الملكوت فلا يدخله إلا القلب السليم من تعلُّقات الكونين[1]، والروح المحلَّى بزينة المعرفة، المكحَّل بنور الشهود.

ولذا أعيَى الفلاسفة وأهل النجوم إدراك حقائق عالم الملكوت، بل صوره النورانية أيضاً؛ لأنه ليس لهم إلا التصرُّف الحسِّي؛ كأهل الرصد، والتصرُّف العقلي الفكري الخيالي القياسي، كما لعامة الفلاسفة، وهم في ذلك ملحقون بأهل الكشف الخيالي، فإن أهل هذا الكشف ليس سيرهم إلا في ظاهر الكون وخارجه لا في باطنه وداخله، وإن كانوا يَدَّعون أنهم دخلوا عالم العرش والأرواح؛ خُوطبوا بالخطابات الإلهية، وورد عليهم الواردات الغيبية، فإن ذلك كشف من ظاهر العالم، ومعارف ظنية؛ بعضها مطابق للواقع الذي عليه أهل الكشف الصحيح القلبي، وبعضها مخالف له.

وكم في بعض كتب التصوُّف من السقطات؛ كواردات الشيخ بدر الدين المصلوب، وكتاب إخوان الصفا وغيرهما من كتب أهل الضعف والتلوين، وما يُعقل ما فيها إلا العالمون، فإن أردت الكشف الصحيح؛ فعليك بكتب الشيخين محيي الدين، وابنه الشيخ صدر الدين قُدِّس سرُّهما، ويلي تلك الكتب الجليلة تأويلات الشيخ نجم الدين الكبرى، وكتب الشيخ الحكيم الترمذي، وكتب شيخي

(1) الكونين: عالم الدنيا والآخرة (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرزاق القاشاني بتحقيقنا.

وسندي الشيخ السيد عثمان الفضلي الإلهي، كشرح تفسير الفاتحة لصدر الدين، وكتاب «اللائحات البرقيات» وغير ذلك.

فعليك بنحو ذلك من الكتب السماوية، وإياك والكتب الأرضية، فإن كنت دخلت في عالم الكتب السماوية أي: من طريق الذوق لا من طرق التصرُّف، والتَّتبع العقلي؛ فقد عرفت الحق، وميَّزته من الباطل، ودَرَيتَ الغثَّ والسمين، وتخلَّصت عن الخيال والظن والتخمين، ونجوت من أوهام البرانيين العشريين.

وادي المكر

هذا وادٍ في دمشق معنوي لا يُشار إليه بالإشارة الحسِّية إلا بمحلِّه الذي هو دمشق عرَّفنيه الله تعالى ليلة الخميس العشرين من صفر الخير من سنة ثلاثين ومائة وألف، وذلك الوادي يقوم بشخصين ماكرين.

أحدهما: مظهر الاسم الظاهر من أهل الرئاسة الشامية.

والثاني: مظهر الاسم الباطن من أهل السلوك الانحرافي في تلك البلدة.

وكلاهما معلوم لي باسميهما؛ لكن لا أفشيهما لِما لا يقتضي الحال والموطن، ذلك لِما فيه من المفاسد الكثيرة؛ فهو كوادي محسِّر في طريق عرفات الذي ظهر فيه تصرُّف الشيطان؛ ولذا أقول: إن الشخصين المذكورين شيطانياً نفسانياً صورة ومعنى؛ لكون تصرُّفهما من حيث الظاهر والباطن شيطانياً ونفسانياً.

وحول ذلك الوادي جنود مجنَّدة تحفظه أي: تحفظ الصالحين من الوقوع في دائرة، ومكر الماكرين.

ولولا العسكر الأرواحي هناك؛ لكان ما كان من المفاضح.

وذلك الوادي صورة النفس الأمَّارة مع الشيطان، والهوى، والأرواح العالية الحافظة من القوى الخيَّرة فاعرفه جداً، فإن المكر لا يجيء من الخارج؛ وإنما الخارج هو صورة الداخل، ثم في قرب ذلك الوادي جبل صالح يلتجىء إليه الصالحون لِما فيه من روح علي محمَّدي واحد.

وهو بمنزلة آلاف الأرواح العالية.

بل أقول: إن ذلك الجبل عين ذلك الروح العلوي، فإن رجال الله على صورة الجبال حيث إنهم كهوف الله تعالى.

ولولا ذلك الجبل في قرب ذلك الوادي، والالتجاء إليه حين ما أُريد لأهل الله بسوء؛ ما نجا أحد منهم؛ ولكن الله ذو فضل على المؤمنين حيث لا يكلهم إلى أهل المكر الممكورين؛ بل يحفظهم عن المكر بردِّه على نحور الماكرين، وهذا بسبب ذلك الجبل.

ولذلك صور كثيرة في كل زمان؛ لكن زمام الكل، وعرقه بيده.

ولو شئت لصرَّحت به لكن استره حتى لا يقع فيه الماكرون والممكرون.

وإذا عرفت هذا وقفت على البلاد وما فيها من الصلاح والفساد وأنها لا تقوم إلا بالمحافظة المعنوية إلى أن يأتي الله بأمره.

ولذا يُقال: الأبدال السبعة للأقاليم السبعة، والأوتاد الأربعة للجهات الأربع.

هذا ما أظهره الله تلك الليلة للفقير حقي.

وارد في وجود الخضر عليه السلام

اختلف في حياته الدنيوية: هل هو باقٍ إلى هذا الآن، وإلى قيام الساعة؛ كإلياس، وإدريس، وعيسى أم لا؟ فذهب إلى نفيه وحمله على الصفة الغالبة على الرأي حضرة الشيخ صدر الدين القونوي، وذهب إلى إثباته وحمله على الحقيقة حضرة الشيخ محيي الدين العربي قَدَّس الله سرَّهما، وكثير من أهل السلوك، ومَن يدَّعي المعرفة الإلهية لم يقفوا على مرادهما، وإنهما على الاتفاق في الحقيقة.

وذلك أن حمله على الصفة الغالبة لا ينافي وجوده الحسِّي في نفس الأمر؛ فهو حي الآن؛ كالأنبياء المذكورين؛ لكنه لمصا كان من المتروحنين يتمثل للرأي على حسب صفته الغالبة، فالذي يراه؛ فإنما يراه على الصفة الغالبة عليه غالباً كما يرى ملك الموت حين الموت، فملك الموت هو عزرائيل على الحقيقة، ولا ينافيه كونه مرئياً على صفة العمل الغالب على المحتضر.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام كان يتمثَّل في صورة البشر مع كون الحقيقة حقيقة الملك، فكونه على صورتين لا يقدح في وحدة حقيقته، وكذا كون الشيء على صورته الحقيقية في مواضع مختلفة في وقت واحد؛ كالأبدال فإنهم يتمثَّلون في أمكنة شتَّى في زمان مع وحدة صورهم الأصلية، ومن قبيل التمثُّل على صورتين مختلفتين نحو التمثُّل الجبرائيلي تمثل إدريس المرفوع إلى السماء.

فإنه على ما ذهب إليه حضرة الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه تمثَّل في الصورة الإلياسية، وأرسله الله تعالى إلى قرية بعلبك من نواحي الشام، ثم لمَّا تمَّ الأمر؛ ركب على فرس من نار؛ فغاب عن أعين الناس، وصحب الملائكة بحسب نشأته الروحانية، فهو عند تمثُّله بصورة إلياس؛ هو إدريس الذي بُعث قبل نوح عليه السلام.

فإذاً كون الصورة متعدِّدة ومختلفة لا يقدح في وحدة الحقيقة.

ألا ترى أن النبي ﷺ يُرى في وقت واحد لكثير من أمته؛ وهو هو إذا كان مرئياً على حليته الأصلية مع أنه دفين في روضة لا ينتقل منها إلى قيام الساعة، وإن روحانيته في أعلى علِّيين، وإن كان له السير في العوالم كلها؛ لكن تعدُّد صوره؛ إنما كان بطريق التمثُّل المتصل إلى حقيقته، فكما إن مَن رآه؛ فقد رآه على الحقيقة في صورة المثال المتجسَّد؛ فكذا مَن رأى الخضر ونحوه؛ فإنما رآه على الحقيقة، وإن كان في صورة المثال المتجسِّد بحسب عمله، وقد رأيته مراراً، ولقيته كراراً مرتين في اليقظة؛ كالمنى، وكشف عمَّا في قلبي، وأعانني على ما قصدته.

ومرة سمعت صوته بتعريف منه، ولم أرَ شخصه، ودعا لي بالخير، ومرتين بين النوم واليقظة، وفي كل ذلك على صورة واحدة عليه عباء أبيض، وعلى سجاية العرب، فما شككت في أنه هو، وإن كان بطريق المثال لِما ورد: عليّ من التعريف الإلهي الذي لا يكذِّبه النفس بوجه من الوجوه، فكُن على الإيمان حتى تصل إلى الإحسان، فإنك أنت الإنسان الذي ظهر على صورة الحسان.

جهنم لها سبعة أبواب

وقال في سورة الحجر ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: 43، 44].

ـ **الباب الأول**: **باب الكبر**: وقد أبى إبليس واستكبر، وسنّ الشرك فكان أول مشركٍ وأول من يدخل النار، ورئيس أهل السجن، فإن جهنم سجن الله في الآخرة، فاحذر من مشاركة إبليس في الكبر وكن مع أهل الحق في التواضع.

ـ **الباب الثاني**: **باب الحسد**، وهو صفة ثانية لإبليس وأهلها، كافر في الحقيقة لأن الحسد مكابرة الحق ومعاندته في علمه وحكمته، والله يفعل ما يشاء ويصنع ما يشاء، وكيفما شاء، فاعرف جداً.

ـ **الباب الثالث: باب الغضب**: وهو صفة إبليسية أيضاً لأنه لم يرض بقضاء الله الذي هو الخلافة، فغضب على ربه في ذلك، وخرج عن باب الرحمة مغضوباً ملعوناً، فكل فاسد رديفه وتابعه حين رفع الكتاب، وذلك في يوم القيامة.

ـ **الباب الرابع: باب الحقد**: وهو إرادة الانتقام، وهو صفة إبليسية أيضاً، حيث لمَّا طرد عن باب الرحمة نصَّب نفسه لإغواء بني آدم، إرادة الانتقام لكن الله عزيز ذو انتقام، ينتقم لأولياء من أعدائه في الدنيا والآخرة.

ـ **الباب الخامس: باب العجب**: وهو رؤية العمل والاحتجاب عن التوفيق كما رأى إبليس عمله الذي وقع منه في المدة المتطاولة، وجعله من أسباب حيرته، ولم يعرف أن الكمال إنما هو في الفناء أو رؤية التأثير من الله، وهو التوحيد الحقيقي؛ جعلنا الله وإياكم من أهل التوفيق.

ـ **الباب السادس: باب حب المال**: لأن الإنسان به يميل عن الحق فهو من أقوى الحجب الكونية، وأعظم حجب المال التعبد له، ولذا قال تعالى حكاية ﴿ لَايُبْدُونَلَكَ يَقُولُونَ لَوْ﴾ [إبراهيم: 35] قال بعض أهل العرفان: أي الحجرين: الغفلة والذهب.

ـ **الباب السابع: باب حب الجاه**: وهو أن يكون وجيهاً بين الناس يلتفت إليه ويسمع قوله، ويطاع له من كل الجهات والوجوه، سواء كان من أرباب الأموال ـ وهو أكثر ـ أو لا، كما كان شأن أبو طالب في مكة، وكان من فقراء قريش ولا بد من الفناء عن هذا الحب، كما لا بد من بذله، فإن المراد من التحقق بالاسم الظاهر العمل بمقتضاه.

الجنة لها ثمانية أبواب

ـ **الباب الأول: باب القلب**: إنما كان أول الأبواب لأنه محل الإيمان والاعتقاد اللذين هما أول الأمر في باب الدين، فإذا تحقق القلب بالدين فقد فتح باب الجنة الأول ودخله مع الداخلين، ومآله ربض الجنة، لأن علو الصورة إنما هو بكثرة الأعمال وهي مفقودة الآن.

ـ **الباب الثاني: باب السمع**: لأن القلب إذا تهيأ للإيمان والاعتقاد انتفع بسماع أهل الوحي والتبليغ، ولم يكن ممن ذمهم الله تعالى بأن لهم آذاناً يسمعون بها، فإنهم صمٌّ في الحقيقة.

ـ **الباب الثالث: باب البصر**: لأن البصر من أسباب الرؤية والشهود، وهي محاضرة القلب، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سماع الإذن والخطاب الغيبي، لأنه طريق المعاينة، وقد ذمَّ الله من لا يبصر بعد النظر كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ يُخْفُونَ فِىٓ﴾ [الأعراف: 198].

ـ **الباب الرابع: باب حفظ اللسان،** لأن اللسان محل الكلام، وهو آخر الصفات السبع، التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، كما النشأة الإنسانية هي آخر المراتب والأطوار الكونية؛ فعليك بحفظ اللسان تكن حقّاً إنساناً.

ـ **الباب الخامس**: باب حفظ البطن لأنه بعد اللسان في الترتيب الوجودي وهو محل الشهوات الطبيعية التي لا بد من إصلاحها من مرتبة الشريعة.

ـ **الباب السادس**: باب حفظ الفرج لأنه مرتب على حفظ البطن ولذا كان أهل الرياضة مصونين عن آفات الفرج بخلاف غيرهم من أهل الأكل حراماً أو حلالاً.

ـ **باب حفظ اليدين**: لأنها في الأزل تتجاوز عن حد البطن وأكثر الكذب بهما ولذا قال تعالى: ﴿ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الشورى: 30] وهم كالجناحين للطائر فلا بد من الطير بهما إلى المقامات الجنانية.

ـ **الباب الثامن**: باب حفظ الرجلين لأنهما تابعان لليدين، وبهما يكون السعي من محل إلى محل كالسعي من البيت إلى المسجد وإلى مجلس العلم ونحو ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ [النجم: 39].

وقال تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: 66] فإنهم إشارتان إلى الفيض بواسطة وبغير واسطة.

❊ ❊ ❊

وارد في الوصل

المراد بالوصل؛ ضد الفراق وهو الأصل، فإن الفراق إنما هو بأمر عارض، كالبعد الحاصل من السفر من بلد إلى بلد، ومن عالم إلى عالم، ومن اسم إلى اسم وذلك كالوصل في القرآن، فإنه لولا العارض الذي هو انقطاع النفس، كان الأصل في التلاوة؛ هو الوصل.

وإنما قلنا: من عالم إلى عالم؛ لأن عالم الأزل ليس فيه وصل ولا فصل، فلمَّا فارق الأعيان من العلم إلى العين، وذلك بصورها وظلالها لا بحقائقها وماهياتها، جاز أن يُقال: عالم العلم وعالم العين.

ولا شك أنه فرق بين عالم وعالم، وإن كان بصورهما، فإن الجوهر واحد في الأصل، وكذا فرق بين عين وعين، كعالم الأرواح، وعالم المثال، وعالم الأجسام، فإن تعيُّن الأرواح غير تعيُّن المثال، وكذا تعيُّن المثال غير تعيُّن الأجسام، وكذا تعيُّن كل جسم وجسم سواء كان من نوع واحد، أو من أنواع مختلفة.

ولولا اختلاف التعينات، لم يظهر حقائق الأشياء.

ولولا حقائق الأشياء، لم يظهر هويَّات الأسماء.

ولولا هويَّات الأسماء؛ كان المُسمَّى مجرَّداً عن النعوت والإضافات.

وظاهر العالم لا يقتضيه، فإنه وحدة صرفة؛ بل يقتضي الكثرة، وإن كانت الكثرات مغلوبة في الوحدات، والوحدات مستغرقة في وحدة واحدة؛ هي وحدة الهُويَّة الذاتية التي هي أول التعينات، ومَن استجمع الأسماء، وجعل بحر الإمكان والوجوب بحراً واحداً؛ لم يكن عنده وصل ولا فراق، كما لم يكن عنده ليل ولا نهار؛ لأن نوره من أنوار ليلة القدر التي هي أنوار الذات الأحدية التي ليست في مقابلة الكثرة، فإن الوحدة المقابلة لها، هي الوحدة المقيَّدة الإضافية المخلوقة، وتعالى الله الخالق أن يكون وحدته وحدة مجعولة مخلوقة.

وأمَّا الذي بقي في تفرُّق الأسماء، ولم يحصل على ساحل عين الجمع، فإنه على الفراق ما دام باقياً في ذلك التفرُّق، فهذه الدنيا صورة التفرُّق لأهل الحجاب

والأسماء، وصورة الوصل لأهل الكشف والمسمَّى.

فإن الواصل إلى المسمَّى لا يحول بينه وبينه عالم من العوالم أصلاً، فإن كل عالم من العوالم شواهد التوحيد، ومجالي الموحد الحقيقي، فالمسمى لا يغيب عنه في عالم الأرواح والأجسام؛ بل الأرواح والأجسام كالمرائي، وكذا وجوده الذي هو رداء الكبرياء.

فطوبى لمن كان في عين الجمع وهو في الفرق صورة، فمَن وصل إلى هذه العين فلا حجاب عنده، كما لا كفر ولا معصية عند الأرواح.

ألا ترى أن مَن كان على قوة الإيمان، وغاية التمكين؛ فإنه أينما كان لا يتحوَّل عنه، فإن كفر الكافر، ومعصية العاصي لا يحوله عن حاله، والحال ظاهر على أرباب الكشف، فكُن على يقين من ربك، واحمد الله على التوفيق والهداية الخاصة.

❊ ❊ ❊

وارد في شُرب الدُّخان والقهوة

كان مرجع الطريقة الجلوتية ـ بالجيم ـ الشيخ الشهير بإفتائه، المدفون في بلدة «بروسة» أوصاني في المنام بألا أتعرض في مجلس الوعظ وغيره لمَن شرب الدخان، ولأهل القهوة، وللطائفة الشهيرة بالمولى، بناءً على أنهم مصرُّون على أفعالهم، وأنه لا يجتمع فيهم الوعظ.

فالتعرض لهم ولأفعالهم ليس من مقتضيات الزمان، وإن الحكمة الإلهية لا تُعطينا ذلك، وقد كان من أحفاده بعض مَن يشرب الدخان، ويظن بعض الناس فيه الظنَّ الحسن.

فرأيت في المنام أن الشيخ أفتاه ـ قُدِّس سرُّه ـ بشرب الدخان، مع أنه ليس من شأنه تجويز ذلك فضلاً عن شربه، فأولت ذلك بأمرين:

الأول: أن الشيخ إشارة إلى الروحانية، واشتعال الروح بملاحظة الدخان وشربه؛ بل هو من المباحات.

قلت: لا إنما هو من المساوىء، ولغو الأفكار، فإنه لا شك في كونه من الخبائث، وأن مَن شربه كان مشاركاً لأراذل العوام؛ بل للكفرة الفجرة في أرذل الأمور الخسيسة الطبيعية، ومشاركتهم في ذلك مما يوجب التنزُّل والانحطاط عن المنازل العالية، ومن ذلك أجاز أهل الرياضة إفطارهم إلى قرب العشاء؛ حذراً عن المشاركة مع أهل الطبيعة في الطعام بعد المغرب.

والثاني: إنه من قبيل الاستبعاد، فإن مثل القدوة لا يجوز له أن يشرب الدخان، مما يستبعد في حق غيره من الأولياء؛ لأنهم على سنن واحد في الأذواق والحالات، وقد كان في الشام رجل أعور يدَّعي المعارف الإلهية، ويشرب الدخان.

وسمعت من شيخي الإلهي الفضلي: إن شاربه، وشارب القهوة من أهل الطريقة نفساني وشيطاني، ومعارفه معارف شيطانية نفسانية؛ لأن المعارف الإلهية ما كان من طريق التقوى، والعمل الصالح، والتقوى على ما نصَّ عليه حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر في الفتوحات المكية، ومع أني على يقين من ذلك، خطر

ببالي أمر ذلك الرجل حين هاجرت إلى الشام، فرأيت في المنام أيضاً حضرة الشيخ الهدائي المدفون في الإسكدار من سواحل القسطنطينية أنه يشرب الدخان.

وأنا أقول: إن مثل سير ذلك خيال لأنه يشرب الدخان، فسيره إنما هو في ظاهره العلم لا في باطنه هكذا.

يعني أن بعض السائرين يسير في ظاهر العالم ومسلكه؛ وهو السير الخيالي، فيظن أنه يدخل في باطن العالم وملكوته؛ وهو السرُّ القلبي الروحاني، فيغلط في ذلك، ويقع في الدعوى، ويحسب أنه قد عرج في المعارج العُلى من طريق القلبي العيني، وأنَّى له ذلك وقلبه وروحه متلوَّث بالألواث الكونية، والأدناس الخيالية، ومثل ذلك خيال ومضل يُحشر مع الزناة يوم القيامة؛ لكونه من الهالكين المهلكين.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

فما كان وسيلة إلى العبادة الواجبة؛ فهو الحلال الواجب، وما كان وسيلة إلى تركها واستثقالها؛ فهو الحرام المحظور.

ولا شك أن الدخان وأمثاله من القبيل الثاني، ولا يشك فيه أحد من العقلاء، هذا ما يعطيه الحقائق، فعليك به، وإياك والأوهام والخيالات؛ فإنها طريق البدع والضلال.

رأيت بعض الهنود من أهل الرياضة يشرب الدخان، ويقول: وجدته أنه لا يعوقني عن المعارج العُلى، وإني أدخل كل ليل في الملكوت، وأسير في العرش، وإلى كلمات جليلة أسمعها في ذلك السير، فسألته عن بعض أحواله، وعن صيامه، وقيامه، كيف كان هو؟ فأقرَّ بأنه كان يترك الفرائض لا سيما الصلاة، ولا يشتغل بها بناءً على أن الاشتغال بها من القيود الكونية، ولا حاجة لها للأرواح العُلوية.

فعرفت من ذلك أنه نفساني شيطاني وأن سيره إنما هو في ظاهره الكُمُون من طريق السير الخيالي.

وخطر ببالي ما قاله حضرة الشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه في الفتوحات المكية من أنه أكثر أولياء بغداد ماتوا على المكر والاستدراج، وذلك أنهم كانوا يتوارد عليهم الفيض الإلهي مع إصرارهم على الإخلال ببعض الشرائع، فكانوا يظنون أن ذلك لا يضرُّهم، وما عرفوا أن ذلك من قبيل المكر الإلهي، والاستدراك القهاري، نعوذ بالله من ذلك.

ونِعْمَ قول مَنْ قال: المجاهدات تُوَرِّث المشاهدات، فكل فرض وواجب وسُنَّة من الفرائض والواجبات والسنن، فهو داخل في المجاهدات.

ولا شك أن الاشتغال به مما يورث المشاهدات الصحيحة القلبية الروحانية التي عليها أهل الله تعالى من أهل الكشف.

وارد في السفر

خرجنا من بلدة بروسة بطريق الهجرة إلى الشام يوم الإثنين الخامس والعشرين من شهر رجب الأصم من سنة تسع وعشرين ومائة وألف، ودخلنا الشام يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان، فرجع العود إلى البدء، كما قيل: إن النهاية هي الرجوع إلى البداية، وذلك أن يوم الأحد الذي هو نهاية السفر متصل بيوم الإثنين الذي هو بدايته، والخمسة المفهومة من الخامس، والخميس التي هي مدة السفر إشارة إلى الحضرات الخمس التي لا يتم سير الموجودات الخارجية إلا بالوصول إلى نهايتها طوراً بعد طور.

وقد كان مدة مكثي في القسطنطينية في سفر الحج خمسين، وكذا مدة الوصول إلى مصر، وكذا وقع لي في السفر الأول للحج في الألفات الأربعة أنه ظهر لي، وأنا واقفٌ في عرفات شكلان.

فقلت: ما هذا؟ فقيل: إنه خمسون، فقد غفر الله لك ما تقدَّم منك منذ خمسين سنة، وقد كنت إذ ذاك ابن خمسين، ووقع الهجرة إلى الشام بالإذن السماوي العيني، وأنا ابن سبع وستين، فللَّه الحمد على سير الحضرات صورة ومعنى، والوصول إلى المقامات العالية ظاهراً وباطناً.

وكان قائدي وسائقي في هذا السفر الشامي: حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأذفر، والكبريت الأحمر قُدِّس سرُّه الأظهر، ولمَّا زرت قبره المنيف، قلت: يا حق، فقيل لي: أنت الحق، وسرُّ سرِّي، والحمد لله على أن جعلني من أولاده المعنوية، وساقني إلى جواره في الأرض المقدَّسة الشامية.

وحين زرتُ قبر حضرة الشيخ صدر الدين ـ قُدِّس سرُّه ـ في بلدة قونية، وهو ربيب حضرة الشيخ محيي الدين، ووارث علومه، وناقله في كلماته، ظهر لي في لوح قبره نقش ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا ۝١ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [الإخلاص: 1، 2]؛ إشارة

إلى سرِّ الأحدية في الفناء الذاتي، وسرِّ الواحدية في البقاء الصفاتي وهو الذي يليق بمقام الكُمَّل؛ لأنهم أهل التبليغ والإرشاد، ولن يقوم ذلك لهم إلا بما ذُكر من الفناء والبقاء؛ وهو الإرشاد من الحق إلى الحق، ومن اسم إلى اسم، كما يقتضيه السفر المعنوي، وإلا فالمبدأ والمنتهى واحد.

ولذا قيل: لا موجود إلا الله، وليس في الدار سوى الله؛ وهي إشارة إلى وحدة الوجود، وقلَّ مَن نال إلى معرفتها وذوقها وشهودها، حتى طعنوا في القائل بها، ونسبوه إلى مذهب الوجودية.

وفرق بين الوجود بشرط لا شيء، والوجود لا بشرط شيء فهو الله تعالى مطلق بالإطلاق الذاتي الحقيقي الذي ليس في مقابلة شيء من التقييدات لا بالإطلاق العارضي إلا أنها في الذي في مقابلة القيد، إنه جاءت اعتبارية تنزَّهه تعالى عن مثل ذلك الإطلاق، وجلة الوجود وجود ظلِّي ناظر إلى الوجود الحقيقي؛ كوجود الأنوار النيِّرة المستفادة من نور الشمس، فإنه ناظر إليه، ومنعكس منه؛ ولذا قيل: لم يُنقل الأحيان الثابتة، والوجود الحقيقي على حاله الآن، فسبحانه من ظاهر وباطن، لم يره أحد بهذه العيون؛ وإنما رآه بالبصائر من مرائي شواهده.

وارد في الاسم المطلق

أيها الاسم المطلق سجد وجهي لوجهك الحق، لقوله عن سلطانه:

﴿ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ﴾ [فاطر: 15].

وهو السرُّ في قوله ﷺ: «**اللَّهم اغنني بالافتقار إليك**»[1] أي: إلى ذاتك من جميع وجوه الأسماء الإلهية خصوصاً من وجه الاسم الأعظم، ثم إني رأيت حضرة الوزير أيَّده الله القدير في مشهد لي لا أشكُّ فيه؛ كأنه يسألني عن الفرق بين هو وأنت.

فقلت: أمَّا هو فأشار إلى غيب الهُويَّة نحو لا إله إلا هو، وأمَّا أنت فرمز إلى شهادة الصفات نحو لا إله إلا أنت، فصاحب القوس أو أدنى يشهده في الحضرتين بلا فرق.

---

(1) أورده الألوسي في التفسير، سورة الضحى، آية 8 [571] وعزاه أبو سعيد السمعاني في كتاب الأنساب إلى أبي بشر عبد اللَّه بن محموية الزاهد الخياط من أهل نيسابور [2/ 425].

كما ورد: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم أبداً دائماً سرمداً**»[1]؛ وهذا مقام الخلافة المثلى؛ كحال حضرة الوزير مع السلطان، والرغبة، وإليه التلويح بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1].

فطوبى لمن اختار اليقظة الدائمة؛ وهي التي لا مستقرَّ للكُمَّل دونها، هذا ما جرى بين حضرة الوزير علَّى الله شأنه، وبين الفقير حقي صانه الله عمَّا شانه.

وارد

لمَّا شارفت دخول الشام، وأنا على الدابة؛ رأيت أنه استقبلني أربعون رجلاً على ألبتَّة؛ بيضٌ في صورة الفقراء السالكين، فقبَّل كل واحدٍ منهم يدي، فعرفت، والحمد لله المتعال.

وارد

من أحسن ما يُحكى عن أبي الفرج بن الجوزي أنه وقع النزاع ببغداد بين أهل السُنَّة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما فرضي الكل بما يجيب به الشيخ أبو الفرج، فأقام شخصاً يسأله، وهو على الكرسي، فلمَّا سأله قال: أفضلهما مَن كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك، فقال: السُنيَّة: هو أبو بكر، وقال الشيعية: هو علي، وهذا من لطائف الأحمدية، ولو حصل هذا بعد التأنِّي، وإمعان النظر، كان في غاية الحسن فضلاً عن البداهة من عيون الأبناء القضاء مجبر الدين أبي اليمن عبد الرحمن العمري الحنبلي.

وارد

دخول ـ طاغ تكوري ـ عشر من جُمادى الآخرة يوم الإثنين، والخروج من بروسة يوم الخميس الثامن من الشهر المذكور سنة 1129هـ.

لمَّا طَعن برهان الدين البقاعي في الشيخ عمر بن الفارض نفاه السلطان إلى دمشق، وقال فيه بعض الفضلاء: مُصران البقاعي بها، قد قاله مطالب لا تحسبوه سالماً، فقلبه يُعاقب.

(1) رواه الطبراني في الدعاء، حديث رقم (624) [1/ 200].

وارد عن الشام

محلّ الكون أي: الوجود والكثرة بالفعل؛ ولذا كانت الثريَّا شامية؛ لكثرتها، وسهيل يمنياً؛ لوحدته، كما أشار إليه قوله ﷺ: «**إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن**»(1)؛ لأن النفس الرحماني؛ هو التجلِّي الساري في جميع الموجودات، وهو أحدي لا كثرة فيه بالفعل؛ لأن الأحد الواحد الصمد يأبى أن يكون تجلِّيه على حدِّ الكثرة، والكثرة في التجلِّي اعتبارية بحسب المجالي والقوابل، لا حقيقة، وإلا يلزم أن يكون الحق تعالى محلَّ الكثرة سبحانه هو هو على وحدته ووجوبه، والأشياء أشياء على كثرتها وإمكانها.

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ﴾ [الأنفال: 62].

يدلُّ على الكثرة في النفس الرحماني والتجلِّي الإلهي، فإن المراد بالمؤمنين؛ هم الأنصار اليمنيون، وقد أيّد الله تعالى بهم حبيبه ﷺ.

ولا شك أن التأييد بالجموع إنما هو من شأن الواحدية التي هي مبدأ الكثرة.

قلت: جوابه مفهوم مما ذُكر آنفاً، وهو أنهم وإن كانوا أكثرين، فالتجلِّي لهم واحد فظهر أن التجلِّي الواحد ينبسط في مراءٍ مختلفة حقيقة، ويتفضَّل في مكان واحد؛ هو اليمن باعتبار المتمكنين، فإن قلت: إن المدينة المنوّرة لدلالتها على مقام البقاء؛ هي محلُّ الكون لا الشام؛ قلت: نعم؛ لكن لمَّا كان اتصالها بمكة المكرّمة أشدَّ؛ جُعلت في حكمها؛ كأنها أيضاً وادٍ غير ذي زرع، وأرض قفر لا ماء فيها ولا كلأ نحو مقام الأحدية الذاتية.

ولذا قلنا: إن الشام محلُّ الكثرات، وكذا ما دونها من بلاد العرب والروم ونحوها، وفيها سرُّ المحفل الحنفي في حرم الله تعالى، فلينظر العارف لنفسه حرماً آمناً، وذلك بنظر الله تعالى لا بنظر نفسه، فمَن كان من أهل البقاء، وأهل الدعوة والتبليغ؛ فالأداني والأقاصي له سواء، هذا والله يفعل ما يشاء.

وارد في الجامع الأُموي

بدا في الجامع الأموي في صباح العيد الفطري سرُّ قوله ﷺ: «**مَن صام**

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (659) [1/ 251].

رمضان، ثم اتبعه ستًّا من شوّال كان كصيام الدَّهر»[1].

وهو أن الدهر هو الآن الغير المنقسم الساري سرُّه في جميع الأوقات والآنات.

منه: قيل إن الدهر هو الله، يعني: أن المتجلِّي بذلك الدَّهر هو الله وهو التجلِّي البرقي الذي نوره مبدأ الأنوار العالية.

ومنه: نور ليلة القدر؛ فإنه ليس من أنوار الدنيا، فإنه في مقابلة الظلمات، وكل منهما مخلوق بل هو من جنس النور الشعشعاني الذي يختطف البصر وإنما تستره الظلالات الكونية، كما يستر الشمس العماء وهو الحجاب الأبيض، والسحاب الرقيق.

ومنه: يُعلم سرُّ قوله: «**فإن الله تجلَّى في عماء؛ ما فوقه هواء، ولا تحته هواء**»[2] أي: لا تعينات إلهية، ولا تعينات كونية بل هو التعيُّن الأول الذي استترت شمس الذات البرقية في ظلِّها، وتلك الشمس بجليَّة إلى الآن من المجالي والمرائي؛ ولكن لا يراها الخفاش؛ لِما على بصره من حجاب الكون؛ وهو الضعف والعمش، وكذا حجاب القلب؛ وهو حجاب الكون، ولولا الكون لظهر المكوِن بالكسر على بصر كل بصير في الظاهر؛ ولكن لا يراه إلا مَن كشف الحجاب مطلقاً جسمانيه وروحانيه.

فالأولى: حجب ظلمانية؛ وهي من المواليد إلى نهاية العالم الطبيعية الذي هو عالم الملكوت العرشية، وهو إلى غاية الغايات التي لا يجوز كشفها من قبيل الحجب النورانية.

والوجود الإنساني معدن لكل نور، ومنبع لكل ظلمة؛ وهو اللوح الأصلي الذي كان اللوح المحفوظ صورته، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الله تعالى تجلَّى بالنور البرقي الشعشاني ليلة القدر لنبينا ﷺ، واستمرت تلك الحالة في وجوده إلى ست

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال أتباعاً لرمضان، حديث رقم (1164) [2/ 822] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (3908) [4/ 135] ورواه غيرهما.

(2) يشير إلى قوله ﷺ فيما رواه ابن ماجة عن أبي رزين قال قلت يا رسول اللَّه أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وما ثم خلق عرشه على الماء». (سنن ابن ماجة، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (182) ورواه الترمذي في السنن، باب ومن سورة هود، حديث رقم (3109) [5/ 288] ورواه غيرهما.

شوّال، فألحق صومها بصوم رمضان، فلمَّا كان ظهور تلك الليلة في ما قبلها وما بعدها، والمجموع ست وثلاثون؛ كان صومها؛ كصيام الدهر؛ وهو صيام العمر كله؛ لسرِّ السرِّ البائن المذكور.

فإن قلت: بالسريان والمستقبل لم يوجد بعد، والماضي قد مضى؛ قلت: لاتصال أجزاء الحال بأجزاء المستقبل والماضي؛ فكان الكل بمنزلة زمان واحد، ونظيره قوله: «**مَن مات؛ فقد قامت قيامته**»[1].

فإن أجزاء زمان الموت لمَّا كانت متصلة بأجزاء زمان البرزخ، وهي بأجزاء زمان الحشر؛ كان الميت كأنه قامت قيامته على أن الماضي والحال والاستقبال اعتبارية عند العارفين، فإنهم لا يدرون الليل والنهار؛ بل هم الآن في عالم الأزل الذي لا نور هناك، ولا ظلمة؛ لأن النور من خواص الأجسام الكونية؛ وهم خارجون عن هذا العالم؛ بل عن عالم الأرواح، داخلون في عالم غيب الغيب الذي لا ليل فيه ولا نهار.

فإن قلت: هَب إن مَن كان من أهل ذلك التجلِّي؛ كان صيامه كصيام الدهر، وأمَّا مَن لم يكن من أهله؛ فكان أمره التقليد، والتقليد لا يوصله إلى ما شاء والتحقيق، قلت: إن فيه سرَّ المتابعة والتشبُّه، وقد ورد إن: «**مَن تشبَّه بقومٍ؛ فهو منهم**»[2]، فهذا من طريق الإلحاق لا بالأصالة.

وقد قال تعالى: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: 21].

ومما قررنا يُعرف أن الأفضل الاكتفاء بإفطار اليوم الأول من شوّال، وإلحاق صوم الست بصوم رمضان؛ لمراعاة الموافقة في الوقت فرع أقوال الفقهاء في ذلك، واعمل بالأفضل؛ فإنه عمل الكل.

فطوبى لمَن كان من أهل الأنوار والأسرار، وحافظ على أوقات الليل والنهار،

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء وقال: قال في المقاصد له ذكر في أكثروا ذكر هادم اللذات ورواه الديلمي عن أنس رفعه بلفظ إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته وللطبراني عن المغيرة بن شعبة قال يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته ومن رواية سفيان بن أبي قيس قال شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال أما هذا فقد قامت قيامته وروي عن أنس أكثروا ذكر الموت فإنكم ان ذكرتموه في غنى كدره وان ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم الموت القيامة إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته يرى ما له من خير وشر.

(2) رواه أبو داود في السنن، باب في لبس الشهرة، حديث رقم (4031) [4/ 44] ورواه الطبراني في الأوسط، من بقية من أول اسمه ميم. . ، حديث رقم (8327) [8/ 179] ورواه غيرهما.

وكان شاهد القربة في الليالي والأسحار مشهوداً للملائكة المقرَّبين الأخيار، فكان حافاً محفوفاً لطيفاً ملطوفاً، والله تعالى على كل فيض قدير، وهو العليم الخبير يعلم حيث يجعل كرامته، ويفيض عليه رحمته.

وارد في شأن المرض

المرض نوعان:

مرض ظاهري: يُخرج المزاج عن الاعتدال، ويُهلك ظاهر الوجود.

ومرض باطني: يُوجب الميل والانحراف، ويُفسد باطن الوجود.

وكل ذلك بطريق الجبر والقهر من الأسماء الجلالية، وضده الصحة والعافية، وذلك بطريق الجذب واللطف من الأسماء الجمالية ولكن كما أن في الجلال جمالاً وهو جمال الجلال، فكذا في الجمال جلال؛ وهو جلال الجمال.

فجمال الجلال باطن الجلال، وكذا جلال الجمال باطن الجمال، فكل من الجمال والجلال ظاهر وباطن.

والجمال الظاهر؛ هو جمال المؤمنين، كما أن جلال الظاهر؛ هو جلال الكافرين، وكل ذلك بالفعل.

وأمَّا الجلال الباطن في المؤمنين، وكذا الجمال الباطني في الكافرين؛ فهو بالقوة، فالأول لا يُضرُّ بالمؤمن، والثاني لا ينفع للكافر؛ لأن الاعتبار بالظاهر لا الباطن، كما أن التأثير للباطن لا للظاهر، والجمع بين الجمال الظاهر، والجلال الباطن كمال، وليس ذلك في الملك؛ فإن ظاهره وباطنه جمال من حيث إنه مخلوق من النور؛ ولذا كان البشر أقوى إحاطة وجمعية، وإن كان الملك أعلى مكانة ومرتبة، وسرُّ الكمال هو ظهور التجلِّيات كلها من مرآة الإنسان الكامل.

ولذا قالوا: إن المتروحن أنقص حالاً من غير المتروحن؛ لأن المتروحن بسبب غلبة الروحانية ملتحق بالملك، فالكامل هو الذي يرى في مرآته جميع الصور بحسب التجليَّات الإلهية المختلفة، ثم الهلاك إمَّا بالاضطرار؛ فذلك إهلاك الباقي بالطبع؛ وهو الموت الطبيعي، وصاحبه مقهور مردود إلى الله تعالى بالقهر الجلالي كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] بضم التاء أي: تُردَّون ردّاً عنيفاً.

وإمَّا بالاختيار؛ فذلك هلاك الفانين عن الطبع؛ وهو الموت الفنائي، وصاحبه مجذوب إلى الله تعالى بالجذب الجمالي كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]. بفتح التاء أي: رجوعاً خفيفاً، وكل منهما مقبوض من الكثرة إلى الوحدة، ومن الفرع إلى الأصل، ومن الواحدية إلى الأحدية، ومن التفصيل إلى الإجمال؛ وهو السرُّ في قيام الساعة؛ لأن كل شيء يرجع إلى أصله.

فالهالك الاضطراري؛ كالعبد الآبق يرجع إلى مالكه، وهو مغلول، والهالك الاختياري؛ كالقادم من الحج مثلاً يرجع إلى أحبابه، وهو ملتفت منظور، فعليك بعلاج المرض الباطني؛ ليصحَّ روحك بالانقطاع من التعلُّقات، والانفصال عن الميل إلى الكائنات؛ حتى يكون قدومك إلى الله تعالى قدوم الغائب إلى أحبِّ أهله.

وذلك أن العافية من التعلُّقات تُصحِّح المناسبة الذاتية؛ لأن التجلِّي الإلهي الساري في الموجودات صافٍ خالص عن الكدورات، وإذا اتَّحد بالمحلِّ في تلك الصفوة لم يبقَ له سوى الجمال؛ إذ الجلال إنما ينشأ من الكدورات الحاصلة من التعلُّقات، وغلبة الجمال تُقابل الجلال الذي يحصل بالموت؛ لأن العبد يكره الموت بالطبع، فإذاً ليس للإنسان الحقيقي إلا أنوار الجمال، وسرُّ الكمال، وليس له نار القهر والجلال؛ ولذا كان حاله أيسر من حال غيره في الانتقال من موطن إلى موطن، وإن كان أشدَّ البلاء على الأصفياء في النشأة الأولى، فذلك لا يؤثِّر في بواطنهم؛ لكونهم مع الله تعالى في عليين، والله المعين.

وارد في المرسلين

اعلم أن المرسلين على أنواع:

فمنهم: مَن أرسله الله تعالى إلى الخلق لإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ إذ فيه سلامتهم في الدَّارين، فيسري سلامة المرسلين إلى المرسل إليهم؛ فالكل سالمون داخلون تحت الاسم السلام؛ لأن المطيع لمَن أرسله السلام سالم، وهؤلاء المرسلون هم الأنبياء عليهم السلام، وإرسالهم إرسال حقيقي من الوجهين الخاص والعام؛ وهم مؤيدون منصورون، إمَّا بالحُجة والسيف جميعاً، وإمَّا بالحجة فقط.

قال تعالى ٱلۡجَٰهِلُونَ هَل لَنَا﴾ [الأنعام: 149]، ومنه يُعلم إن المقصود الأصلي: إلزام الدين بالبرهان.

وإمَّا السيف: فإنما هو لدفع شر الأعداء، ولولاه ما ظهر السيف في العالم أبداً؛ لأن الإنسان بُنيان الله، فلا يُهدم إلا بناءً على ضرورة قوية.

ومنهم: مَن أرسله الله تعالى إليهم أيضاً لذلك المعنى؛ وهم أيضاً سالمون بفضل الله تعالى، وهم ورثة الأنبياء، والعلماء بالله، وإرسالهم إنما هو من الوجه الخاص فقط؛ لأن المَلك لا يُرسل من الوجه العام إلا إلى النبي، فدعوتهم كدعوة الأنبياء كما قال: ﴿ أَمِنۡ بِهِـصِرَٰطِ وَلَهُۥ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ ﴾ [يوسف: 108].

ودعوتهم إلى التوحيد الأفعال، والصفات، والذات، وإن كانوا لا يجابون إلى جميع هذه المراتب في كل زمان بحسب اختلاف المشارب، وضعف الاستعدادات إلا ورثته هذه الأمة المرحومة؛ فإنهم أهل المراتب جميعاً، ولهم دعوة مطلقة، وإجابة مطلقة إلى آخر الزمان لقوة استعداد الأمة، وكمال قابليتها، ولله درهم في كل عصر كثَّرهم الله تعالى، وإن كانوا تحت القباب مستورين، فهؤلاء المرسلون داخلون في المرسلين من طريق الإشارة، والعبارة، والإشارة واحدة عند أهل الإشارة.

وإنما جعلوا كلماتهم من طريق الإشارة صيانةً لأنفسهم، وكلماتهم من الأعداء؛ وهم أهل الرسوم الطاعنون الخارجون عن حدود الله، وحدود العقول أصلحهم الله تعالى.

ومنهم: مَن أرسله الله تعالى من نومه الحسي؛ لإحياء الليل، فلهم في ذلك سلامة؛ لأن الروح يتخلَّص به من الأمراض المعنوية، إذ المناجاة، وما يفيض من الله تعالى من العلوم والآثار تُحيي النفوس؛ فتكون اليقظة الحسِّية مؤيِّدة إلى اليقظة المعنوية، فويلٌ للغافلين النائمين، وطوبى للمتيقِّظين في الأسحار من العارفين العابدين.

ومنهم: مَن أرسله الله، وبعثه من نومه المعنوي؛ وهم أهل الحياة الباقية، والتجليَّات العالية، فوصلوا إلى صباح التجلِّي، وإشراق النور في ليل البشرية، وظلمة الطبيعة؛ فكانوا في الدنيا كأنهم في الآخرة؛ لأنهم في مقام صدق عند مليك مقتدر، فكان كل من المتيقِّظين سواء كانوا متيقِّظين من النوم، أو من الغفلة، سالمين من شرور النفوس، وكدورات الطبيعة.

والثاني أقوى من الأول؛ إذ ليس كل متيقِّظ صورة من أهل المناجاة، ومن

أهل النجاة مطلقاً بخلاف المتيقِّظ معنى، ولكل من هؤلاء المتيقِّظين آثار وعلامات يعرفون بها كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: 29]، فالوجه واحد، والنظر متعدد؛ لأن الفراسة الحقيقية لم تُعطَ الكثير من الناس، وإنما لهم الفراسة الطبيعية؛ بل ليس لكثير منهم فراسة ونور أصلاً؛ ولذا لا يُبصرون أهل النور، والسرور، والحبور.

وارد في الأذكار المقبولة

استغفر الله: هذا طلب المغفرة، والستر للمعصية إن كان المستغفر من أهل الشريعة. وطلب المغفرة والستر للتلوين إن كان المستغفر من أهل الطريقة.

وطلب المغفرة والستر للهيئات المظلمة إن كان المستغفر من أهل المغفرة.

وطلب المغفرة والستر للوجود الخلقي الفرقي إن كان المستغفر من أهل الحقيقة.

ومنه ما في سورة النصر من قوله تعالى: (واستغفره) أي: اطلب من ربك ستر الوجود الخلقي الفرقي، فإنه قد تمَّ أمر التبليغ، وانقطعت العلاقة بينك وبين الخلق، ولو كان الخلق سبّحك الشريف اللطيف النوراني الروحاني، فكن بعد ذا معي بالوجود الحقي الجمعي؛ لدنو انتقالك من عالم الملك، ورجوعك من الصورة إلى المعنى، ومن الجسد إلى الروح.

وهكذا حكم الكُمَّل من الورثة، إذ انتقالهم من هذه الدار إلى الدار الآخرة، ولما كان السين للطلب، والطلب قد يكون باللسان، وهو لا يتم إلا بالرجوع القلبي حقيقةً أُضيف إلى الاستغفار التوبة.

فقيل: استغفر الله وأتوب إليه على ما نطق به القرآن، حيث قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [المائدة: 74]، وعلم ما قرَّرنا أن الاستغفار، ورد لا ينقطع، ولا يسقط إلى آخر العمر، لا عن نبيٍّ، ولا عن وليٍّ، فإنه أمر جارٍ في كل مقام بحسب كل حالٍ.

سبحان الله: تنزيه الله تعالى عن ملابسته للكون، وملابسة الكون له، وهو في تجلِّياته غنيٌّ عن العالمين، فالله هو هو، الأشياء أشياء، فالله لا يكون عبداً، كما أن العبد لا يكون ربّاً.

ولذا قال بعض الأكامل: كُنْ عبد ربٍ، ولا تكنْ رب عبدٍ، إشارة إلى التنفير عن الظهور بالصفات الإلهية بين الخلق، كما عليه أهل المكر، ولا يعرفه إلا أهله. فقد اختار الكُمَّل الستر، وترك التصرف، والظهور بالعجز والضعف والافتقار.

والحمد لله أي: على إظهار كماله في تجلِّي ألوهيته؛ إذ به يظهر المراتب لكل متقدمٍ ومتأخرٍ ومسخرٍ ومسخرٍ له، وبه ينتظم أمر العالم، ويتم النعمة.

ولله الحمد على ذلك، فإن كل ما أظهره وأوصله فنعمةٌ محمودةٌ محبوبةٌ، وليس فيه أمر مكروه إلا بحسب الطباع، وذلك لا يستلزم كراهته في نفسه، وكونه مكروهاً بحسب الطباع من الحكمة الإلهية؛ إذ به يظهر مقام الصبر، كما أنه بالمحبوب يظهر مقام الشكر.

ولا إله إلا الله أي: في كل مقام التسبيح والتحميد والتنزيه والتشبيه، والخلق والحق، فمن كان محققاً أخذ بالتوحيد والتجريد والتفريد، ومن كان خلافه وقع في الإلحاد والتقليد، وما نجا إلا المحقق، فعليك بطريقه، والأخذ من ثمرات تحقيقه، فقد كنت واصلاً إلى سر وحدة الوجود، وأدمت الشهود، وأقمت السجود.

والله أكبر أي: له الكبرياء الزائدة البالغة، وله العظمة الكاملة الجامعة، ومنه قول المصلِّي: الله أكبر في جميع الأفعال والانتقالات؛ إشارة إلى تنزهه تعالى عن التقيد بالقيام والقعود، ونحو ذلك، فإن التقيد يوهم التغيُّر، ولا تغير على الله في ذاته وصفاته. ولا حول أي: عما سوى الله، ولا قوة أي على الإقبال إلى الله. إلا بالله.

فإن أعانك فلك التحول والإدبار، ولك القوة على الإقبال، فإن كل كمال إنما هو بالله، كما قال: ﴿ أَقَلَمَّتَهُمْ أَنفُسُهُمْنَّونَ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127]، العليّ ناظر إلى ظرف التنزيه، وجانب الكبرياء العظيم ناظر إلى ظرف التحميد والأُلوهية، فاعرف.

لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله، الجلالة مع الاسم محمد، كقوله تعالى: رسل الله، الله، وإن كان الاسم (محمد) مقدماً على الرسول، فإن المعنى واحد في صورة التقدُّم والتأخُّر.

فإن قلتَ: ما ذكره لمساعدة الإعراب.

قلتُ: هذا الذي ذكرته من قبيل الإشارة الخارجة عن اعتبار الإعراب، لا من قبيل العبارة المقتضية لذلك، نحو قول صاحب القصيدة البردية: أمن تذكر، فإنه في

صورة آمنت الذي هو المطلوب؛ لكون الناظم مقلِّدها، فمثل هذه الصورة يعتد بها عند أرباب الإشارة، وأهل النقول.

وسرُّ هذا دقيق لا ينتهي إليه إلا الأولياء، وذلك أن أصل محمد أحمد، وأصل أحمد أحد، فما فرق بينهما إلاّ ميم الإمكان، وبهذا الميم الإمكاني كان أحد أحمد، وأيضاً أحمد محمد، فمحمد رسول الله وأحمد هو ولايته، ونبي الله، فإنه إنباء الله ووحدته، وأيضاً من كمالات نفسه، وذلك في عالم الأرواح.

كما قال: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»(1)، فإن كل نبوة لا تستلزم الرسالات، بخلاف العكس.

أمَّا أحد: فهو الله لا رسول الله، ولا يكون أحد رسول نفسه، إلا بالاعتبار، والجهتين المختلفتين كما ينبىء عنه قوله ﷺ: «**السلام عليك أيها النبي**»(2)، فإنه يسلم من جانب ولايته على جانب نبوته، ومن ملكيته على بشريته، ومن جمعه على فرقه، ومن أصله على فرعه، فلا يلزم منه التعدُّد إلا بالاعتبار.

فإذا عرفت هذا السرَّ العظيم، والمعرفة الجليلة، فاعلم أنه كما أن الله تعالى واحد بالوجود والأُلوهية، فكذا محمد ﷺ واحد بالوجود والرسالة، فإن وجودات الأنبياء عليهم السلام قبله، إنما هي صور وجوده الشريف، وهممهم في حكم أمته لا حقيقة لتقدم زمانهم، وكذا نبواتهم ورسالاتهم صور نبوته ورسالته؛ لأنه ما من شريعةٍ من الشرائع الأُوَل، إلا وسرها موجود في القرآن الذي هو معدن هذه الشريعة الناسخة.

فكما أنه لا إله إلا الله، فكذا لا رسول إلا محمد، وكما أن صور الكُمَّل مظاهر الحق فكذا صور الأنبياء مظاهر محمد الرسول، وإنما ظهرت نبوته ورسالته فيهم بحسب استعداداتهم ومراتبهم، كما أن نور الشمس إنما يتجلَّى في القمر بحسب جلائه، وكذا نور القمر إنما تجلَّى في سائر النجوم بحسب مراتبها.

ومنه يُعرف سر قوله ﷺ: «**أنا من الله، والمؤمنون من فيض نوري**»(3)، فالقمر

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2017) [2/ 173].

(2) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب التشهد. . ، حديث رقم (797) [1/ 286]، ورواه مسلم في صحيحه، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (402) [1/ 301] ورواه غيرهما.

(3) أورده إسماعيل حقي البروسوي في تفسير روح البيان، سورة الأنبياء، آية (107) [5/ 527].

شمس، لكن قيل له: قمر، باعتبار خصوص التجلِّي والإشراق، وهو أيضاً سراج؛ لأن نوره ممدود من نور الشمس، كامتداد نور الفتيل من الزيت.

وكذا الشمس، فإن نورها مستفاض من نور الله تعالى، فالأصل إذاً واحد، والفروع متعددة، والنظر إنما هو للأصل في صورة الفرع.

ولذا ورد: «**طوبى لمَن رآني، ولمَن رأى مَن رآني، ولمَن رأى من رأى مَن رآني**»[1].

فإذا وقفت على هذا عرفت أن لله ألف اسم كوني أيضاً هي الأسماء المحمَّدية، وأن جميع الموجودات الخارجية راجعة إلى وحدة كونية، هي وحدة الوجود المحمَّدية، كما أن جميع الأسماء راجعة إلى اسم واحد وحدة حقيقية، هي وحدة المسمَّى، فانظر فإنه ليس في الوجود الحقيقي إلا الله، وليس في الوجود الكوني إلا محمد رسول الله.

وارد في كلمة التوحيد

لا إله إلا الله

نفى أُلوهية الغير مع أنه لا تحقق لها في نفس الأمر، إنما هو بالنسبة إلى الأوهام نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، فإن إثبات الأحدية إنما هو نفي لزعم المشركين من الشركاء، وإلا فقوله: (**هُوَ الله**) بل لفظ (**هُوَ**) منفرداً يكفي في إثبات المقصود، ولذا قالوا: إنه ليس في العالم إلا سر الوحدة، سواء علمه الخلق وأثبتوه، أوجهلوا به، فإن من جهله لا يتغير الأمر عما هو عليه، ولما خلق الله النور الأحمدي.

فإن أول ما قال: لا إله إلا الله، شرَّفه الله تعالى بأن يقول: محمدٌ رسول الله، فظهر أن الرسالة إنما هي تعيينٌ من الله تعالى، ونحوها الخلافة المتوارثة بين أهل الطريقة، فإنها إنما تتعيَّن من الله تعالى، إما بلا واسطة وذلك نادرٌ، وإما بواسطة وهو الشيخ؛ لأنه صورة النبي ﷺ، فأمره أمرٌ من الله، ومن الرسول ﷺ، فإنه تعالى قال: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾ [النساء: 80]، فإن الرسول يدخل فيه ورثته من

(1) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ذكر من اسمه حسان، حديث رقم (4359) [8/ 258].

طريق الإشارة، ثم إن إثبات الأُلوهية ماضٍ من أول دور السنبلة إلى آخره، وهي جمعة من جمع الآخرة.

وأما إثبات الرسالة المحمَّديَّة بخصوصها، فلا يجري إلا في الألف الأخير من السبعة، وقد يتحقَّق واحد من هذه الأمة المرحومة ببعض الأسرار، فيكون في حكم من عاش من أول الزمان إلى آخره، فيكون ورده في تلك المدة: لا إله إلا الله عليه، وفي الألف الأخير: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

فانظر ما أشرف هذا المقام، فالعمر القصير قد يمدَّه الله ويبسطه، بحيث يستوعب الدهر، والله على ما يشاء قدير، فالآخر يحيط بالأول، والآخر دون الأول، وإن بعض الأولية سارية في الأزمنة كلها، ولذا عمل الشافعي بقوله أول الوقت: رضوان الله، فبكر بالصلوات غير المغرب، فاعرف هذا الشيء الجليل.

لا إله إلا الله:

نفي الأُلوهية عن الغير يستلزم وحدة الوجود؛ لأنه إذا كان الإله متعدداً كان الوجود أيضاً كذلك، فصحَّ أن المعبود بالحق إله واحد، لا إله غيره، ولا وجود سوى وجوده، وهو سرُّ قول مَن قال: ليس في الدار غيره ديار.

ومَن ألحق هذا القائل بالنصارى فقد تنصَّر في المعنى؛ لأن من رضي لأخيه المؤمن ما رضي فقد اشترك فيه، وعلى ما ذكرنا يدور سرُّ قول مَن قال من الأكامل[1]:

---

(1) القائل هو الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن عربي الحاتمي في كتابه الفتوحات المكية، في الباب الخامس والثلاثون وثلاثمائة في معرفة منزل الأخوة. . ، ونصه:

عقد الخلائق في الإله عقائداً   وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه

وتتمة الأبيات هي التالية:

لما بدا صوراً لهم متحولا   قالوا بما شهدوا وما جحدوه

ذاك الذي أجنى عليهم خلفهم   بجميع ما قالوه واعتقدوه

إن أفردوه عن الشريك فقد نحوا   في ملكه ربا كما شهدوه

فقد أعذر الشرع الموحد وحده   والمشركون شقوا وإن عبدوه

وكذاك أهل الشك أخسر منهم   والجاحدون وجود من وجدوه

والقائلون بنفيه أيضاً شقوا   مثل الثلاثة حين لم يجدوه

أجنى عليهم من تأله حين ما   أهل السعادة بالهدى عبدوه

لو وافق الأقوام إذ أغواهم   وتنزهوا عن غيه طردوه

عـقـد الـنـاس فـي الإلـه عـقـائـداً وأنـا اعـتـقـدت جـمـيـع مـا اعـتـقـدوا

فإن مراده ليس إثبات الشريك لله تعالى، بل إثبات أن الأشياء مظاهر الأسماء فالأُلوهية ثابتة لله تعالى، وليست هذه النسبة لغيره، ومن نسبها إلى غيره ألحد وأشرك، ولم يعرف أن المسمَّى إذا كان واحداً كانت الأسماء كلها خدامه، ومن مظاهره بحسب المراتب، فالوزير اسمٌ من أسماء السلطان، ولا يلزم منه أن يكون السلطان متعدداً، فإن الوزارة مرتب من مراتب السلطنة، وكذا الفتوى والقضاء.

فإن الاسم العليم الذي اتصف به المفتي، والقاضي الذي اتصف به الحاكم، كل واحدٍ منهما من أسماء السلطان في الحقيقة، وإنما ظهر حكمهما في ملخصين مختلفين؛ إظهاراً للمراتب التي تقتضيها مرتبة السلطنة الجامعة، فكثرة الوجودات لا تغرنك، فإن تحتها وحدة إمَّا إضافية، وإمَّا حقيقية، وأردنا بالوحدة الإضافية التي تقتضيها كل كثرة، وبالحقيقيّة الوحدة التي تجمع الوحدات كلها، فالوزير مثلاً واحد بالنسبة إلى سائر المراتب، لكن مرتبة السلطنة التي وحدتها وحدة حقيقية، تجمع وحدته ووحدة غيره، ونظيره أيضاً النواة، فإنها نواة واحدة حقيقية، وبدن الشجرة واحد إضافية، وكذا الأغصان كلها، وقد آل هذا التكثر إلى وجود الوحدة التي هي النواة في كل ثمرةٍ.

فظهر أن كل ثمرةٍ مثمرة تحوي نواة نواة على حدة ووحدة النواة الأولى هي وحدة كل نواة متفرعةً على ذلك، فمن رأى بالنظر الظاهري ما رأى في ظاهر الشجرة إلا الكثرة، ومن نظر بالنظر الباطني ما رأى في باطن الشجرة إلا الوحدة، فإذا الوجود وجود واحد ظاهر في صورة الكثرة، كما إذا قام إنسان في بيتٍ من زجاجٍ، فإنه يرى من كل جانبٍ، مع أنه لا يقدح في وحدته، وعلى هذا سرِّ التمثُّلات الواقعة من الروحانيين، فتلك التمثُّلات بمنزلة الظل لذي الظل، فالظل مع أنه يُرى اثنين، وليس الظل معه إلا في صورة الخيال.

وإنما قلنا في صورة الخيال؛ لأن الكون خيال، وهو حقٌّ في الحقيقة، يعني في مرتبته؛ لأنه من التجليات، ولا باطل في التجليات إلا الباطل الإضافي؛ إذ الباطل الحقيقي هو العدم المحض.

ومن هنا قال الحلاَّج: أنا الحق لأنه رأى الحق في صورة الخلق، وذلك الظل في صورة الظل، فسجد، ومن آثار سجدته أنه أثبت إلهاً واحداً، هو إلهية الظاهر،

فهو أي: المتصور خارج من البين، وإنما الظاهر صورة العين، كشف الله عن بصائرنا وبصائركم الغين، وحفظنا وإيَّاكم عن الرّين.

وارد

الورقة النشافة غير مقبولة؛ لأن الكلمات الواقعة تُبطل، وتؤدي إلى بطلان المعاني المقصود، فلا بُدَّ من النجابة؛ ليتطابق الإنسان وأجزاؤه في الخارج، وذلك أن نور التجلي في الأصل نور شعشعاني، فلا يضبطه الروح الإنساني إلا بكثافة الجسد، ولذا خلقه الله تعالى من العناصر الكثيفة.

فالجسد كالظل الذي على ظهر المرآة، فإنه لولاه لم تقبل المرآة صورة للطافتها، وهكذا الأوراق ونحوها، فهذا من أسرار الله تعالى في العالم، قل من اهتدى إليه من بني آدم، والله اللطيف الخبير الأعلم بما يشاء وأعلم.

وارد قبل صلاة عيد الفطر

ورد قبل صلاة العيد الفطر، وأنا في الجامع الأموي في الشام:

«**إن مَن لم يشهد الله، خسر الدنيا والآخرة**»؛ والمراد الشهود المعنوي بالبصيرة.

أمَّا خُسران الدنيا: فلأن الشهود مبني على المعرفة الإلهية؛ إذ لا شهود للجاهل، ولو شهد لم يُعتدَّ به؛ لأنه غافل عن المشهود، كما إذا رأى أحد السلطان، وهو متنكر، فإنه لا يعرف أنه السلطان، فلا يزال يطلبه، ويشتهي رؤيته، ثم المعرفة الإلهية إنما تحصل في الدنيا إذ ما لم يحصل من الكمال في الدنيا لم يحصل في الآخرة.

فظهر أن مَن لا بصيرة له؛ لا معرفة له، ومَن لا معرفة له؛ فقد خسر الدنيا؛ لأن التحصيلات الأخروية مبنية على تحصيل تلك المعرفة، فمَن لا معرفة له؛ لا تجارة له ولا فائدة من عمره؛ وهو عين الخُسران.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: 12].

أي: بالكفر والمعصية والحجاب.

وأمَّا خُسران الآخرة: فلأنه إذا لم يكن له معرفة في الدنيا؛ لم يكن له شهود في الآخرة.

فظهر أن الشهود: شهود في الدنيا بالبصيرة، وشهود في الآخرة بالبصر، والثاني مبني على الأول، وكذا الأول مبني على المعرفة الإلهية.

ولذا قالوا: ألذُّ الأشياء؛ معرفة الله تعالى مع أن ألذَّ الأشياء هو مشاهدة الجمال، وحالة الوصال لِما أن ذلك موقوف على المعرفة.

فظهر أن المعرفة في الأصل معرفة واحدة وهي معرفة الله تعالى المؤديَّة إلى الشهود في الدنيا؛ وهو الشهود الحجابي الباطني القلبي المؤدِّي إلى الشهود الكشفي الظاهري القالبي؛ لأن القلب يتصوَّر في الآخرة بصورة القالب، فيكون الشهود بالقلب والقالب جميعاً، وذلك للطافة الأبدان بلطافة العناصر والأركان بخلاف الأبدان الدنيوية، فإن العناصر فيها لا تخلو عن الكثافة، والحجاب.

ومصداقه أن الغيب إذا انكشف، وورد الموارد منه، فقد لا يسع القلب، ويرجع بعضه إلى ما بدأ منه، ولا يعرفه إلا أهل الذوق، ومن الله تلطيف العناصر، وترقيق الباطن والظاهر.

خاتمة الكتاب

حرَّره الفقير المذنب العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة ربه الغفور، الحاج حافظ محمد منيب من تلاميذ الشيخ علي المصري ـ غفر لهما ذنوبهما ولجميع المؤمنين والمؤمنات ـ سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف من الهجرة مَن له العزِّ والسعادة والشرف.

الصور النُّورانية الدَّقائق

المشاهدة بمرآة الحقائق

لشيخ الإسلام العلاّمة المفسر سيدي إسماعيل حقي البرسوي
المتوفى ١١٣٧هـ

- صورة الإنسان الكامل.
- صورة البرزخ المثالي الذي بعد الموت وهو من عالم الابتلاء.
- صورة التجلي للنور الأحمدي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللطائف فيما جرى على لسان الشيخ عثمان من المعارف

بعض الكلمات الواقعة بين المصنف سيدي إسماعيل حقي وبين حضرة شيخه سيدي عثمان الفَضْلي الجلوتي

قال المصنف: اعلم أن لي زيارات كثيرة لحضرة الشيخ سأذكرها من الكلمات في هذا الفصل، وهي كلمات الزيارات السبع الواقعة في أواخر عمره.

بعضها في بلدة «أدرنة».

وبعضها في القسطنطينيّة.

وبعضها في جزيرة قبرص حين كان منفيّاً في قلعة «ماغوسة» المشتملة هي عليها، فجاءت عدد الأسماء السبعة.

* * *

الزيارة الأولى

وقعت هذه الزيارة في بلدة «أدرنه»، وكان حضرة الشيخ مدعواً من طرف السلطان محمد الرابع للوعظ والتذكير، وكنت وقتئذٍ في قصبة «استرومجة» من القصبات الرومية كما سبق تفصيلها فأرسل إليَّ ورقةً فاستدعاني إلى أدرنه فلما قدمت مرضت من الحمى أياماً لكثافة الهواء، فلم يتفق لي الصحبة على المراد لما أشير إليه بنقلي وهجرتي إلى بلدة «بروسة» أشار بالعود إلى القصبة، ونقل البيت منها إليها؛ ففعلت وحين مجتازي بـ«أدرنه» أقمت عند حضرة الشيخ نحواً من ثلاثة أشهر أقرأ عليه «الفصوص» كل يوم، وجرى بيننا كلمات من المراتب فما كان منها للسر سترته، وما كان بخلافه أبرزته وأظهرته كما قال في «المثنوي»: [. . . .][1].

قال حضرة الشيخ: الحياة طبعها الحار، والعلم طبعه الرطب، الإرادة طبعها البارد، والقدرة طبعها اليابس فهذه الطبائع الأربع لها حكم وأثر في هذه الصفات والأسماء الإلهية عند أهل الحقائق، لكن الصفة التي طبعها الحرارة مثلها تشتمل على باقي الطبائع ولو بالقوة؛ فالحرارة في الحياة الظاهرة غالبة، والباقية باطنة مغلوبة، وكذا التي طبعها الرطوبة بالنسبة إلى باقي الطبائع، وعلى هذا قياس الآخرين، ولكون هذه التعينات مظاهر هذه الطبائع والصفات بحسب الغلبة، والعقل، والمغلوبية، والقوة جاءت مختلفة الآثار.

ألا ترى أن بعض الأولاد صورية أو معنوية جاء قابلاً مستعداً لغلبة الحرارة والرطوبة في منشئه، وبعضهم بخلافه لغلبة البرودة واليبوسة فيها، وعين ما اقتضاه عينه الثانية، ولذا أظهر الله في هذه النشأة على ما هو عينه من الحال في عالم العلم، ٱلْبُيُوتَ أَبْوَٰبِهَاۚ صِرَٰطِ وَلَهُۥ ثُمَّ﴾ [آل عمران: 117].

قال حضرة الشيخ: الألسنة ثلاثة: لسان ظاهر، ولسان حال، ولسان استعداد؛ فلسان الظاهر في الفم، وسؤاله السؤال اللفظي، ولسان الحال في الروح وسؤاله السؤال الروحي، ولسان الاستعدد في الأعيان الثابتة وسؤاله السؤال

---

(1) بياض في الأصل.

الاستعدادي، فهذه مراتب الألسن، ومراتب الأسئلة، فلكل سؤال مقال.

قال الله تعالى: ﴿أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [الحجر: 21] وهي الأعيان الثابتة فلا يفيض شيء إلا منها، فارجع في سؤالك إلى عينك الثابتة؛ فإن كنت ممن وقف على سر القدر، وما سألت إلا ما اقتضيته، وإلا فما بعثك على السؤال إلا استعمال الطبيعي.

والمراد بالقدر هو القضاء الإلهي، والشأن الغيبي، وبسره ما اقتضته العين الثابتة.

قال حضرة الشيخ: إن الصور الحسية مظاهر الصور المثالية، وهي مظاهر المجردات، وهي مظاهر الصور العلمية، وهي مظاهر الأعيان الثابتة، وهي مظاهر الأسماء، وهي مظاهر الصفات، وهي مظاهر تجليات الذات الأحدية؛ فالحقيقة كانت جمعاً قبل هذه الآثار، وصارت فرقاً بعدها ثم كانت جمعاً في آدم عليه السلام؛ لأنه المظهر الكامل الجامع بين الجمال والجلال.

ثم كانت فرقاً في أولاده ألا ترى أن قابيل كان مظهر الجلال، وهابيل مظهر الجمال، ثم ظهرت الجمعية الأولى في شيث عليه السلام، ولذا جعله آدم عليه السلام وصيّاً.

فسُنَّة الله مذ تجليه بأسمائه وصفاته إظهار الباطن، وابطان الظاهر، إلى انتهاء العالم، فآدم هو الكون الجامع، وهو بمرتبة الذات الأحدية، وحواء بمرتبة الصفات، والأولاد بمرتبة الآثار، فالأثر يقع مرة جامعاً بين سوء الأبوين، ومرة فارقاً بعينه بأن تكون الغلبة في نشأته للذات أو الصفة، والجمال، والجلال، والذات الأحدية لها المرتبة العليا، والصفة لها الفضيلة العظمى، ومرتبة الجمع لها الجمعية الكبرى؛ فلآدم عليه السلام المرتبة العليا؛ لأنه بمنزلة الحمد لله، ولحواء الفضيلة العظمى؛ لأنها بمنزلة رب العالمين لتربية رحمها، وشرف الصفة أيضاً لا يخفى.

ولذا ذهب أهل الحقائق إلى أن المرأة وإن كانت عند أهل الشريعة ناقصة لا يصح الاقتداء بها لكنها عند أهل الحقيقة كاملة وإلى كمالها يشير قوله تعالى في قصة حفصة وعائشة ـ رضي الله عنهما: ﴿يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4] حيث جعل الله تعالى نصرته، ونصرة جبريل، وصالح المؤمنين، والمقابلة تظاهر امرأتين، وهو من شواهد كمالها، وقدمها في الغاية.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: 11] المثل عند أهل الظاهر زائد لئلا يستلزم وجود المثل له تعالى، وليس بزائد عند أهل الحقيقة، فإن الهاء إشارة إلى الهوية الذاتية، والمثل إشارة إلى التجلي الأول أي: تجلي حضرة الاسم الجامع جميع الأسماء والصفات؛ فإن أول مثال من هذه التمثلات آفاقية ونفسية فالمعنى ليس كالتجلي الإلهي الذي هو أول التجليات شيء إذ هو محيط بكل التجليات الباقية المرتبة، وهي كلها تحت حيطه.

واعلم أن تعين التجلي الذاتي من الحضرة الإلهية لا من الذات الأحدية؛ فإنه لا رسم ولا اسم فيها.

قال حضرة الشيخ: ورد في القرآن: ﴿ أَمَنَةً﴾، و﴿ كُنتُمۡ﴾، ﴿ نُّعَاسًا﴾، ﴿ بَعۡدِ﴾ بالإفراد والجمع.

وسرُّه: أن الإفراد بالنظر إلى الذات، والجمع بالنظر إلى الأسماء والصفات.

وقال حضرة الشيخ: الولاية المطلقة تختم بعيسى عليه السلام وعند ذلك يتسارع الفساد إلى عالم الكون لكن بقاء الكفار أياماً بعد عيسى عليه السلام إنما هو لقرب مفارقة الكون من الروح الذي هو الإنسان الكامل.

ألا ترى أن الجسم يبقى أياماً في القبر بعد مفارقة الروح لقرب عهد المفارقة، فالبقاء من تأثير الروح، ثم يتسارع إليه الفساد فيبلى يوماً فيوماً، وتنحل أجزاؤه إلى أن يصير كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، وأمراً موجوداً معلوماً.

قال حضرة الشيخ: إن أبا بكر رضي الله عنه لما تصدق بجميع ماله في غزوة تبوك حين حث النبي عليه السلام الأصحاب على الصدقة، وتجهيز الجيش، وجاء النبي عليه السلام وليس عليه إلا سترة خَلِقَة من السرة إلى الركبة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: الله ورسوله**» ثم جاء عمر وقد تصدق بنصف ماله، فقال له النبي ﷺ ما قال لأبي بكر، فقال عمر: أبقيت نصفه، فقال عليه السلام: «**ما بينكما كما بين كلاميكما**»[1].

(1) صح الحديث بلفظ: عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يقول أمرنا رسول اللّه ﷺ يوماً أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً فجئت بنصف مالي فقال رسول اللّه ﷺ ما أبقيت لأهلك فقلت مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك فقال أبقيت لهم اللّه ورسوله فقلت لا أسابقك إلى شيء أبداً. رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الزكاة، حديث رقم (1510) [1/ 574] ورواه غيره.

ومنه يُعرف فضل أبي بكر رضي الله عنه على عمر رضي الله عنه لكن الفاضلية من وجه آخر ألا ترى أن أسارى بدر رأى أبو بكر فيهم أخذُ الفدية منهم والإطلاق، ورأي عمر فيهم ضرب رقابهم فأنزل الله الآية موافقة لرأي عمر وهو قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [الأنفال: 67] فظهر من هذا الوجه فضل عمر على أبي بكر، ومن هذا الباب قصة تأبير النخل، فانظر التقدم والتأخر في رتب العلم بالله لا في الكشف والكرامات الكونية، وإصابة الرأي في الأمور، وظهور الفِراسات.

أقول: العلم بالله أعلى من كل كشف وكرامة، ويكفيه شرفاً للولي سواء صدر منه خارقاً للعادة أم لا؛ فإن صدوره ليس من وظائف الولاية، وأكثر ما يصدر من أهل البرازخ، ومن هنا يقع لهم اليقين من جهة العامة لمكان المناسبة بينهم ولو في الجملة بخلاف العلماء بالله أهل الفناء؛ فإنهم لما انقطعوا عن علاقة كل اسم ووصف، وتجاوزوا عن حد الجمهور، ومجانستهم انقطعت العلاقة بينهم وبين العامة.

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

قال الشيخ: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فأخذت أمص من فِيه عليه السلام حتى شبعت، قال: فبينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ إذ طائفة من الهرات وبجنبها طائفة من الكلاب فأخذت الهرات تشير بأيديها إلى كلمة الشهادة، والكلاب ساكتة، فعرفت منه سر قوله عليه السلام: «**حُب الهرة من الإيمان**»[1] وسر إخراج الكلب من البيت، وعدم الاعتناء به؛ لأنه ظهر منه أن الهرة مؤمنة بالله وبرسوله ﷺ ولذا كان حبها من الإيمان؛ لأن حب المؤمن من الإيمان، وأن الكلب خلاف ذلك، ولذا أمر بالكراهة، وعدم الحب؛ لأهل البدعة والكفر أيضاً.

قال حضرة الشيخ: أهل الدعوى وهم المتشيخون سوف يغشيهم الحياء يوم تُبلى السرائر، ويرهق وجوههم قترٌ وذلة؛ فإنه لا معنى لادعاء التحقيق بما ليس له.

قال: انظر إلى كلمات حضرة الشيخ الهدائي ـ قُدِّس سرُّه: حيث لا دعوى أصلاً، ولا رائحة إلا نية قطعاً، وقد كفى الله مؤن الإظهار في حق الأخيار من غير دعوى وإقرار.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (1104) [1/ 415].

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 124] ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [صٓ: 26] فما عرف من عرف إلا إظهار الله وعلائمه.

قلت: ما معنى قول الهدائي في بعض إلهياته التركية: [. . .][*].

قال: هو ليس بدعوى بل هو كالشرط والجزاء، والمراد هو الجسد فكما أن الميت المقبور في لحده قد فنى ذاته وأفعاله وصفاته فلا يصدر منه لفظ ولا ينبىء عن شيء فكذا الحي المقبور في جسده، وهو الذي مات بالاختيار قبل الموت الاضطراري ولم يبق له أثر من ذاته وصفاته وأفعاله، بل وصل إلى عالم المحو[1]

(*) بياض في الأصل.

(1) المحو: رفع أوصاف العادة، ويقابله الإثبات الذي هو إقامة أحكام العادة.

محو أرباب الظواهر: هو أن تمحو عن نفسك ما قد اعتدته من الخلال الذميمة، ثم تستعيض عنها بالخصال الحميدة، فإن فعلت ذلك فأنت صاحب المحو والإثبات، الذي يقتصر عليه نظر أهل الظواهر.

محو أرباب السرائر: هو إزالة العلل والآفات، ويقابله الإثبات الذي هو إثبات الموصلات، وإنما سمي هذا المحو بمحو أرباب السرائر، لأن العلل متى زالت عن السرائر كان في محوها إثبات الموصلات، كما كان في محو الذات عن الظواهر إثبات المعاملات، وهذان المحوان وما يقابلهما من الإثبات محو وإثبات بشرط العبودية، وفي ذلك محو رسوم الأعمال لفناء العبد عن نفسه فضلاً عما منه، ولا إثبات الحق له بما أنشأه له من الوجود به. فهو بالحق لا بنفسه لإثبات الحق له، مستأنفاً بعد أن محاه عن أوصافه.

قال ابن عطاء: يمحو أوصافهم، ويثبت أسرارهم. أي: يمحو الجهر ويثبت السر، الذي هو حصة العبد من وجود الحق، كما عرفت ذلك في باب السر، فذلك هو محو أرباب السرائر.

محو الجمع: عبارة عن فناء الكثرة في الوحدة.

المحو الحقيقي: يعني به رؤية الأشياء بعين أحدية الجمع الماحية للأعيار والغيرية، لانتفاء التفرقة والمعاندة بين الذات، وبين جميع شؤونها في المرتبة الأولى التي هي مرتبة ؟أحدية الجمع.

محو العبودية: هو المحو بشرط العبودية، وقد عرفته. وقد يعني بمحو العبودية محو عين العبد من الوجود على الوجه الذي فهمه أهل الخصوص من العلماء، كما سنذكره.

محو وجود عين العبد: ويسمى محو أهل الخصوص، وتقريره إنه لما كان من مقتضى ذوق أهل الكمال أن الأعيان الثابتة ما ظهرت في الوجود، ولا تظهر أبداً لأنها لذاتها لا تقتضي الظهور، وإنما الظهور للوجود، لكن بشرط التعدد مع آثار الأعيان فيه، وأن الممكنات باقية على أصلها من العدم، وأنها مظاهر الحق الظاهر فيها، فلا وجود إلا للَّه، ولا أثر إلا لها، فإنها بذاتها تكسب الوجود الظاهر ما وقعت به الحدود في عين كل ظاهر، فهي أشبه شيء بالعدد، فإنه معقول ولا وجود له، وحكمه ثابت في المعدودات، والمعدودات ليست سوى صور الموجودات كانت ما كانت، والموجودات سبب كثرتها أعيان الممكنات، وهي أيضاً سبب اختلاف صور الموجودات، والعدد حكمه مقدم على حاكم يحكم على الممكنات بالكثرة، وكثرة الممكنات حكمت باختلاف استعداداتها على الظاهر فيها مع أحديته، فكثرته كثرة الممكنات.

والمحق[1]، لكن لما أخذ الله منه الفناء أعطى بدله البقاء، فذهبت الحياة الحيوانية، وجاءت الحياة الحقانية، وفنى اعتبار الوجود، وبقي الوجود عين الجود، وانطمس آثار الصفات البشرية النفسانية، وتجلت أنوار الكمالات الربانية.

قال حضرة الشيخ: ينبغي للعارف أن ينظر إلى الخلق بنظر الجمع والتوحيد، وإلى نفسه بنظر الفرق والشريعة، فإذا فعل ذلك سلم من المكر، والأذى؛ فإن هذا النظر يمنعه عن الإطالة، فيسلم الناس من لسانه ويده، وينظرون أيضاً إلى فرقه وشرعه فيسلمون من الاعتراض، فيحصل النفع لكلا الجانبين، هذا مما ينبغي أن يحفظ بين أرباب الطريقة.

قال حضرة الشيخ: في قول حضرة الشيخ الشهير باقتادة ـ قُدِّس سرُّه ـ في بعض إلهياته التركية: [أهل عرفان ديديلرسن جقما ينجه اره دن بلمزسن كيمدد كندنى ينهان ايلين].

المراد بقوله: «سن» الإضافة إلى الكون، والمراد من قوله: «جفما ينجه» إسقاط تلك الإضافة؛ لأن التوحيد إسقاط الإضافات مطلقاً وجوداً وذاتاً، وصفةً وفعلاً، فافهم.

وأيضاً المراد بقوله: «سن» هو النسيان كما هو مذكور فيه بطريق التضمن، وهو برزخ بينك وبين المعرفة، فإذا خرج من البين ظهر العين وانفتح العين وارتفع العين، وليس للعبد حجاب غير الغفلة والنسيان.

قال حضرة الشيخ: الجمع في قوله: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا﴾ [آل عمران: 54] هم مظاهر الأسماء الجزئية، وجملة هذه تحت حيط اسم الله؛ فمكر الله غالب؛ لأنه يحيط ويحير؛ لأنه يمكر من حيث لا يدري الممكور، والممكور يمكر ولا

---

(1) المحق: فناؤك في عينه، أي في عين الحق، وذلك أنهم يشيرون بالمحو والطمس والمحق إلى مراتب الفناء الثلاثة.
فالمحو: فناء الأفعال، بحيث تنمحي نسبتها إلى غير الحق تعالى.
والطمس: فناء الصفات كذلك.
والمحق: في العين، بحيث لا يرى سوى ذات الحق، وإنما اصطلح على هذه المعاني بهذه الألقاب، لكون المحو في اللغة زوال الأثر، والطمس مبالغة فيه، والمحق العدم بالكلية.
فلهذا اصطلحوا بالمحو على فناء الأفعال والطمس على فناء الصفات، والمحق على ذهاب الذوات.
(لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

يدري أنه يأخذ ذلك المكر من الماكر الحقيقي فأين هذا من ذلك!

قال حضرة الشيخ: التوحيد جحود في الحقيقة وإنكار؛ لأن توحيده سبحانه يوهم أن يكون له شريك ونظير وليس الأمر كذلك، فالنفي في كلمة: (لا إله إلاَّ الله) نفي الموجود المتوهم من الكثرات، أما في نفس الأمر فلا نفي ولا إثبات، ورأى بعض أحباب حضرة الشيخ في المنام حضرة الهدائي فقال له: إن قولنا (لا) بالنسبة إلى عالم الفرق، فليس له أي: لـ«لا» وجود في الحقيقة؛ لأن النفي متوهم.

قال حضرة الشيخ: النفس مطية كل سالك، وحق المطية أن يُعطي علفها في الليل والنهار بعد قطع الطريق في النهار، وكذا النفس يُعطي حظها من الغذاء على الاعتدال في الليل والنهار بعد الإمساك في النهار.

فالمطية الأولى تقطع الطريق الصوري على أقدام الصورة فتصل إلى المنزل.

والمطية الثانية تقطع الطريق المعنوي على أقدام المعنوي فتصل إلى المطلوب، فلا بدَّ من الحركة؛ فإن الفرق في السكون.

كنت عند حضرة الشيخ في ساحل النهر في دار السلطان محمد الرابع قبيل المغرب، وكان مدعواً للوعظ والتذكير، فقلت: الحمد لله على أنه ليس لي رائحة لدعوى أصلاً وإنما بضاعتي الآن العجز والافتقار.

قال حضرة الشيخ: نعوذ بالله من النفس ودعواها الجلية والخفية، فتفطنت على الفور أن في كلامه هذا نوعاً من التأديب لي خفيّاً، وذلك لأن مكر النفس وحيلها أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء، فالدعوى عدم الدعوى، و«القول ما قالت حذام»[1].

قال حضرة الشيخ: من عرف نفسه من حيث إنه إجمال لتفصيل العالم، وفيه ما فيه، وعرف أن الأكوان صور الأسماء الإلهية عبارة عن الذات المطلقة عرف ربه عرفاناً لا يتداخله وهم ولا خيال، ولا يعتريه شرك ولا ضلال.

---

(1) القول ما قالت حذام أي القول السديد المعتد به ما قالته وإلا فالصدق والكذب يستويان في أن كلاً منهما قول. يضرب في التصديق. قال ابن الكلبي: إن المثل للجَيْم بن صَعْب والد حنيفة وعِجلٍ، وكانت حذام امرأته، فقال فيها زوجها لجيم: إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام ويروى "فأنصتوها" أي أنصتوا لها، كما قال اللّه تعالى ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ ذُرِّيَّتَهُمۡ أَوۡ ٱلۡبُيُوتَ﴾ أي كالوا لهم أو وزنوا لهم.
(معجم الأمثال والحكم لأبي الفضل أحمد الميداني).

وقال حضرة الشيخ: التلوين تلوينان: تلوين قبل التحقيق وهو تلوين أهل الحجاب، وتلوين بعد التحقيق وهو تلوين أهل الكشف.

والتمكين أيضاً تمكينان: تمكين في التحقيق بعد التلوين وهو تمكين أهل الفناء، وتمكين في التلوين بعد التحقيق وهو تمكين أهل البقاء.

قال حضرة الشيخ: إن المريد في الشريعة من لا إرادة له؛ لأن الشريعة تثبت الإرادة لغير الله تعالى، والمريد في الحقيقة من لا إرادة له لأن الحقيقة في الباطن، وأثبت ما أثبتته الشريعة في الظاهر، ونفي ما نفته الحقيقة في الباطن حتى يكون عبداً معتدلاً متوسطاً على مشرب الأنبياء العظام، ومذهب الأولياء الكرام من السابقين المقربين، لكن اجتهد في أن تكون مريداً في الحقيقة فانيّاً عن إرادة الدنيا والعقبى مطلقاً حتى تكون عبداً مخلصاً وفانياً عن إرادة المولى حتى تكون عبداً مخلَصاً بالفتح، فإذا كنت كذلك كنت عبداً حقّاً مطلقاً حرّاً عن الرق جميعاً معدوماً بنفسه، موجوداً بربه، وكيلاً له ربه في الإرادة مطلقاً، يريد له ربه الدنيا والعقبى والمولى، ويحصل له الكل بلا احتمال هلاك، ولا خطر، ومن كان كذا فأولئك هم المفلحون الفائزون الناجون مطلقاً، وهم الخالصون المخلصون ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾ [الزمر: 3] ﴿ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ كَهُمُ ٱللَّهُ هُنَا﴾ ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ﴾ [البينة: 5] وهم الذين ورد فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42].

قال حضرة الشيخ: إن إبراهيم عليه السلام له التحقق بجميع مراتب التوحيد من الأفعال، والصفات، والذات، وذلك؛ لأن الحجب الكلية ثلاث هي: المال والولد والبدن، فتوحيد الأفعال إنما يحصل بالفناء عن المال، وتوحيد الصفات بالفناء عن الولد، وتوحيد الذات بالفناء عن الجسم والروح، فتلك الحجب على الترتيب بمقابلة هذه المقامات عن التوحيد، فأخذ الله عن إبراهيم المال تحقيقاً للتوحيد الأول، وابتلاه بذبح الولد تحقيقاً للتوحيد الثاني، وبجسم الروحي حين رمى به في نار نمرود تحقيقاً للتوحيد الثالث؛ فظهر من هذا كله فناؤه في الله، وبقاؤه بالله.

قال: واستلام الغنم أقوى من استلام سائر الحيوانات، وكذا كان الكبش فداء إسماعيل عليه السلام، ولذا أيضاً من رأى في المنام شاة من أرباب النهاية والوصول فرؤياه تدل على كمال الانقياد والتسليم، ومن رآها من أرباب البداية، فذلك يدل

على حال الطبيعة والشهوة؛ لأن الطبيعة غالبة في الشاة، ومن رآها من أرباب التوسط؛ فإن أردت أن يحصل له الترقي والانجذاب إلى ما فوق مرتبته فعبرها بالاستلام، وإن أردت أن يحصل له الطهارة والتزكية فعبرها بالطبيعة.

ومثل هذا من اللطائف الجارية بين المريد والمرشد فشاء المريد الاستلام التام لشيخه كاستلام الشاة للذبح حتى ينال الفيض والحياة الحقانية.

قال حضرة الشيخ: جميع الأطعمة والأشربة يعبر بما هو كثيف ولطيف، فالكثيف إشارة إلى العلم الظاهر؛ لأنه مكون كالقشر من اللب كثيف، واللطيف والألطف إشارة إلى العلم الباطن؛ لأنه كاللب من القشر لطيف، ووجه التعبير بذلك هو أن الأغذية الجسمانية تقوي البدن على الأعمال والطاعات.

والأغذية الروحانية تقوى القلب والروح على التوجه إلى حضرة الذات.

والعلم الصوري كالغذاء الجسماني من حيث إن نفعه في ظواهر الأحكام.

والعلم الحقيقي كالغذاء الروحاني من أن نفعه في بواطن الأمور، فشرب اللبن في المنام بالنسبة إلى علماء الرسوم يعبر بزيادة العلم من حيث الظاهر، وبالنسبة إلى علماء الحقيقة يعبر بزيادة من حيث الباطن، ويعبر النفس اللبن بالنسبة إلى الطائفة الأولى، والزائد المشتمل هو عليه بالنسبة إلى الثانية.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿ غِلٍّ وَظِلَـٰلُهُم﴾ [الحديد: 27]: إن السنن النبوية مستنبطة عن الكتاب، وسنن أهل الولاية من السنة، والمقصود من الكل استكمال النفس علماً وعملاً.

فإن قلت: ما وجه الزيادات الصادرة من مشايخ الطريقة؟

قلت: لأنه لما تباعد العهد منه عليه السلام بعدت الأفهام عن درك الحق، وتضاعفت الحجب، وقست القلوب، وضعفت الاستعدادات، فزادوا هذه الزيادات عوناً للضعفاء على تحصيل مطالبهم، وإرشاداً إلى ابتغاء الوسيلة بحسب المراتب، وما فعلوها من عند أنفسهم بل بإلهام الله تعالى، ولذا قال بعض الكبار: ما يصدر عن الواصل من الأفعال شريعة، وكذا الباقي فاعتبروا حفظ الإجمال لتنقل منه إلى تفصيل الحال.

قال حضرة الشيخ: المرئي في المرآة هو الوجود الظلي، والمرآة مجلاة، لكن الوجود الظلي أيضاً مرآة لحال المرآة من الاستدارة والاستطالة وغيرهما، فكما أن

الوجود الظلي لا يرى إلا في المرآة، فكذا لا يشاهد حال المرآة إلا في الوجود الظلي، ومن هنا قال العلماء بالله: إن الأكوان مرائي للوجود الظلي للأعيان الثابتة، فلا يشاهد فيها إلا ظل تلك الأعيان.

وكذا الموجودات الظلية مرائي للأكوان فلا تعطي إلا حالها وصورتها، والوجود واحد في كل مظهر، لكن بحسب الرائي تختلف الأحوال فاختلافها لا يستلزم اختلاف الوجود، فكل من الوجود الظلي والمرائي خيال معدوم في حد ذاته كالمرآة والمرآة فيها، وإنما الوجود الحقيقي للأعيان بل للذات الأحدية فافهم.

ولا يتوهم أن الوجود قد انتقل من الأعيان إلى الأكوان والمرائي هو الوجود الحقيقي؛ فإن الأعيان على ما كانت عليه، وليس في البين إلا الظل والخيال.

قال حضرة الشيخ: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، وكانت مدتها ستة أشهر على ما هو أدنى مدة الحمل، ثم جاء الملك فعبر عن المثال المقيد إلى المثال المطلق، ولذا نقول: إن تعبير الرؤيا إنما هو في النفس الأمارة واللوامة، فإذا وصل السالك إلى المهمة قل احتياجه إلى التعبير؛ لأنه حينئذٍ يكون ملهماً من عند الله كما هو صريح قوله تعالى: ﴿ مِّنْ غِلٍّ وَظِلَٰلُهُم﴾ [الشمس: 8] فمرتبة الإلهام له كرتبة مجيء الملك للرسول عليه السلام.

ويقال لعالم الرؤيا: عالم المثال المقيد بالنوم لتمثل الأشياء فيه، ويطلق على عالم الأرواح أيضاً لكنه لطيف بالنسبة إليه، كما أنه لطيف بالإضافة إلى عالم الأجسام.

واعلم أن الخيال هو في لسان القوم هو الحقيقة، فالخيال المطلق، والمثال المطلق شيء واحد، وهو ما تراه في اليقظة بالبصر، وهو العرش وما دونه من العناصر والمواليد، وكذا الخيال المقيد والمثال أمر واحد وهو عالم المنام وعالم الانسلاخ وعالم البرزخ، والانسلاخ قرن المنام في الرتبة؛ فإنه حال الكُمَّل.

ثم كان رسول الله ﷺ لا يأخذ الوحي إلا في حضرة الخيال المطلق أو المقيد بالانسلاخ، إلا أنه لا يبقى لأهل الانسلاخ إحساس لمعنى عنده أصلاً، ويعرض لجسده فتور، فإذا تم الأمر رجع إلى حاله وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: 245] فالقبض إشارة إلى الانسلاخ، والبسط إلى العود إلى الحياة الأولى، فإذا قبضه بالانسلاخ بسط في حضرة المثال القيد، وإذا بسط بالرجوع قبضه

في حضرة المثال المطلق، أو نقول: يقبضه من المثال المطلق، ويبسط في القيد، ويقبض في القيد، ويبسط في المطلق.

سألت حضرة الشيخ عن التوفيق بين قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [هود: 56] وبين قوله ﴿شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ يَنَّهُمۡ وَأُتُواْ﴾ [الملك: 22] الآية.

فأفاد أن الأول إطلاق حقيقي، والثاني تقييد إضافي بالماشي مكبّاً على وجهه على صراط مستقيم في الحقيقة، يمشي به ربه إلى غاية ما، وإن كان في الصورة على الضالية دون الاستقامة.

والحاصل أن الفرق يعتبر الضلال، والجمع يرفع الإشكال، والأول بحسب البداية، والثاني بحسب النهاية، ولا يلزم من الضلالة في البداية عدم الهداية في النهاية، فإن البداية والنهاية واحدة، كما أشار إليه قوله: «**سبقت رحمتي غضبي**»[(1)].

وقول حضرة الشيخ الهدائي في بعض الإلهيات التركية: [...][(2)] وفيه تفصيل عجيب يحال على الذوق، فافهم، وأثبت على الصراط المستقيم، ولا تكن من المكبين على وجوههم، واعتبروا الضلال ضلالاً، والهدى هدى؛ فإن الشريعة هادية إلى كل منهما، وإياك وسوء الظن في حق الصوفية؛ فإن مقالاتهم تحصيل معاني لا تدرك بالعقول، وإن كانت مستنبطة من النقول، والله الهادي، وعليه اعتمادي واستنادي.

قال حضرة الشيخ: في قوله عليه السلام: «**إن الله فرد يحب الفرد**»[(3)]: إن مقام الفردية يقتضي التثليث، فهو ذات وصفة وفعل، وأمر الإيجاد يبتني على ذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ يُخۡفُونَ أَنفُسِهِم مَّا لَا﴾ [النحل: 40] إرادةً وقولاً، والقول بعد الإعلان باللقاء، فليس عند الحقيقة هناك قول، وإنما هو لقاء الموجد ـ اسم فاعل ـ بالموجَد ـ اسم مفعول ـ وسريان هويته إليه، وظهور صفته وفعله فيه، فافهم هذه الدقيقة، فإنها إرادة عن مقام الحقيقة.

قال حضرة الشيخ: إذا قلت: **لا إله إلا الله**، فشاهد بالشهود الحقاني فناء

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب 55 قول اللّه تعالى ﴿يُدۡعَوۡنَ... هِم مِّنۡ غِلٍّ لَهُمۡ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾..، حديث رقم (7114) [6/ 2745] ورواه أحمد في المسند حديث رقم (7297) [2/ 242] ورواه غيرهما.

(2) بياض في الأصل.

(3) أورده إسماعيل حقي البروسوي في تفسير روح البيان، سورة يس، آية 1 [7/ 364].

أفعال الخلق، وصفاتهم، وذواتهم في أفعال الحق سبحانه، وصفاته، وذاته وهذا مقتضى الجمع والأحدية، وتلك الكلمة في الحقيقة إشارة إلى هذه المرتبة.

وإذا قلت: **محمد رسول الله** فشاهد بالشهود الحقاني أيضاً بقاء أفعالهم وصفاتهم وذواتهم بأفعاله تعالى وصفاته وذاته وهذا مقتضى الفرق والواحدية، وتلك الكلمة أيضاً في الحقيقة إشارة إلى هذه المرتبة، فإذا كان توحيد العبد على هذه المشاهدة فلا جرم أن توحيده يكون توحيداً حقيقيّاً حقانيّاً لا رسميّاً نفسانيّاً، وفي تحت هذه العبارة من الإشارات الخفية ما لا تعد ولا تحصى، هدانا الله وإياكم إلى فتحها وذوقها.

قال حضرة الشيخ: في قول الهدائي ـ قُدِّس سرُّه ـ في بعض إلٰهياته التركية: [غالب اولوب حب وطن، وحدت ديارنه كيدن، صيغمز ارايه جان وتن سريله سيرايتمك كرك] المراد بلفظ «جان»: عالم الأرواح، وبلفظ «تن»: عالم الأشباح، وبلفظ «السر»: عالم الأمر الإلهي الذي يقابل الخلق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54] أشباح من الأجسام لكثافتهما بالنسبة إليه فلا يمكن سيره والدخول فيه إلا بعين السر أو القدم، فلا يصل إلى اللطيف إلا الألطف.

قال حضرة الشيخ: الليل إشارة إلى النفس الأمارة، والصبح الصادق إلى اللوامة، والإسفار جدّاً إلى الملهمة، وطلوع الشمس إلى المطمئنة.

وآية الأولى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ﴾ [يوسف: 53].

وآية الثانية قوله تعالى ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ هَٰهُنَاۗ قُلۡ﴾ [القيامة: 2].

وآية الثالثة قوله تعالى: ﴿مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الشمس: 8].

وآية الرابعة قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ﴾ [الفجر: 27].

ولا يصل السالك إلى مرتبة النفس المطمئنة إلا بعد التجلي اليقيني الذي هو كطلوع الشمس، فكما عند طلوعها لا يبقى أثر من ظلمة الليل أصلاً فكذا عند التجلي العيني لا يبقى أثر من ظلمة النفس أبداً بل تنكشف الحقيقة كما هي، وتطمئن النفس اطمئناناً تامّاً كما قال عليّ ـ كرّم الله وجهه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» وذلك؛ لأن غطاء الكثرة لا يحجب الواصل عن مشاهدة الوحدة؛ لأنه قيامه دائماً، وأنه يرى عرش الرحمن بارزاً، والنعيم والجحيم ظاهراً، فالتجلي العيني يعطي هذا

الكشف والشهود بخلاف التجلي العلمي؛ فإن له برازخ كثيرة، وصاحبه لا يأمن العاقبة؛ لأنه لم يتخلص من ظلمة ليل النفس قطعاً فله بقية النفس مطلقاً، وإذا تيقنت هذا، فاعلم أن سلوك الأنبياء ـ عليهم السلام ـ النفس المطمئنة إذ آخر مراتب الولاية أول مقامات النبوة، ولا يكون الولي ولياً إلا بعد التجلي العيني، وهو مرتبة النفس المطمئنة، وهذا لا ينافي أن تكون نفوسهم أمارة بالقوة.

ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام: ﴿أَبْوَابِهَا صِرَاطِ وَلَهُ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ﴾ [يوسف: 53]، وقول نبينا عليه السلام: «**فإن شيطاني قد أسلم**»(1) وكل منهما قرين الآخر.

أقول: زلت في هذا أقدام أكثر السلاك، ويؤيد ما ذكرنا ما في «التأويلات النجمية» عند قوله تعالى: ﴿لَقَتْلُ مَضَاجِعِهِمْ لِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا﴾ [آل عمران: 159] وهو أن النفس أمارة بالسوء، وإن كانت نفس الأنبياء ـ عليهم السلام ـ انتهى.

وكذا قول المولى الجامي في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَبْتَرُ يَنَهُمْ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا صِرَاطِ وَلَهُ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ﴾ [الفرقان: 70] يعني: في الحكم؛ فإن الأعيان أنفسها لا تتبدل، ولكن تنقلب أحكامها، انتهى.

أي: كما ينقلب النحاس عن النحاسية إلى الفضية، والفضة منها إلى الذهبية بعلم الإكسير والعين واحدة، ومن فهم هنا رزق علماً كثيراً، هذا، ولا مراء مع أهل المرية، وليس وراء عبادته قربة.

قال حضرة الشيخ: الكامل الواصل إلى الله الفاني والباقي به مجرد عن كل لباس ومع ذلك فهو عند أهل لباس جسمانيين أو روحانيين، وهو التفاوت الحقيقي الذي صاحبه في الدرجة العليا من الجنة، كما أن صاحب النفاق الأصغر الحجازي في الدرك الأسفل من النار، وبين رفيع الدرجات وخفيض الدركات تقابل تام.

فإن قلت: ما معنى النفاق الحقيقي؟

قلت: إظهار الوجود المختلف للتعينات المتكثرة بحسب نشأته، وإحاطة أسمائه وصفاته كما أن النفاق الشرعي إظهار الإيمان بوجه آخر.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: إن الله تعالى كان عنده،

(1) ورد بلفظ: عن ابن عمر قال قال رسول اللّه ﷺ" «فضلت على آدم ﷺ بخصلتين كان شيطاني كافراً فأعانني اللّه عليه حتى أسلم وكان أزواجي خيراً لي وكان شيطان آدم كافراً وزوجته عوناً عليه».

وهو وكيله، وخليفته في جميع أموره مما يأتي به ويذر، ومقتضى آداب العبودية أن يترك التصرف لله تعالى، ولا يتحرك بهمته إلى شيء لا إلى جانب وجوده، ولا إلى جانب عدمه، فاشتغال بعض الرجال بالاسم القهار مثلاً لحصول بعض آثار القهر كهلاك شخص ومرضه ونحو ذلك من الأغراض الفاسدة، والمطالب النفسانية ذهول عن حقيقة الأمر، ونزاع الملك، والعياذ بالله تعالى.

أقول: اتفق لي مرة في دار السلطنة القسطنطينية أن أجلس مجلس الوعظ في مجمع عظيم من مشايخ وفيهم حضرة الشيخ فصدر مني كلمات زاجرة تُكْلَم منها النفوس والقلوب القاسية، فتألم منها بعض أهل الدعوى من الشيوخ الذين لهم الشهرة التامة الكاذبة.

وقال: أما يخاف هذا الواعظ الشاب وله شيبة من توجهنا المستأصل له، فبلغني ذلك منه.

فقلت: ما أخاف؛ فإن المحيي والمميت هو الله، ودمر الله الباطل منا، فلم يلبث الخبيث كثيراً حتى نفاه السلطان محمد الرابع بعد أن أراد قتله لكلمات كفرية صدرت منه ثم أهلكه الله، ودفع ابتلاء الناس به فإنه كان قد أفسد قلوب كثير من المسلمين.

قال حضرة الشيخ: في القول الشهير: «من لم يؤدبه الأبوان أدبه الملوان»: الليل بمثابة الأم كما قيل: الليلة حبلى، والنهار بمنزلة الأب، فالليلة كأنها حاملة، فإذا أصبحنا فكأنها ولدتنا، وسلمنا إلى تربية النهار، فلا يزال المرء يتقلب في نهاره على أنواع من التربية إلى مجيء الليل، فمن لم يؤدبه أبواه في الليل والنهار يؤدبه الحق فيما يقتضي الجمال والجلال.

سأل المولى خليل الشهير بـ«عرب زاده» من علماء بلدة «أدرنة»: لِمَ كان الكمال الملكي حضورياً، وحصوله وقعيّاً خلقيّاً لا مكتسباً والكمال الإنساني تدريجياً اكتسابيّاً؟

فأجاب حضرة الشيخ: بأن كمال الإنسان بجميع الجمال والجلال، دون كمال غيره، وأسماء الله تعالى إما جمالية متعلقة باللطف، وإما جلالية متعلقة بالقهر، وظهور أحكام الأسماء في الإنسان الكامل تدريجي لا دفعي ألا ترى أن الله تعالى لما تعرف لآدم بالإيجاد ناداه: «يا قدير» ثم تعرف له بتخصيص الإرادة، فناداه: «يا مريد»، وهكذا فكمال الإنسان كمال تدريجي يعني بالنسبة إلى النشأة العنصرية دفعي

بالاعتبار إلى النشأة الروحانية، ومنه يعرف كون العلم حضوريّاً وحصوليّاً؛ فإن كونه حضورياً بالنسبة إلى مرتبة الروح، وكونه حصوليّاً بالنسبة إلى مرتبة الجسم، وإلى الأول يشير قوله تعالى حكاية عن إقرار العبودية: ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ [البقرة: 31]؛ فإن هذا التعليم تذكير لما نسبه بعد تعلق الروح ببدنه ونزوله من عالم الأمر إلى عالم الخلق، فالعلم والكمال موجود بالفعل في الروح بالنسبة الأولى، وبالقوة بالنسبة الثانية، وبالكسب يتوصل إلى إخراجه بالقوة إلى الفعل.

ثم سأل: لماذا يطلق على النطفة الملقاة في الرحم نفسها جنيناً؟

فأجاب حضرة الشيخ: بأن من أسمائه حينئذٍ الأحد الجامع، والظاهر، والخالق، والباري وغيرها مما يناسب لتعينها، ونعني بالنطفة ما فيها من المادة الإنسانية قدر خردلة؛ فإن تلك الحبة هي التي يحصل منها العلوق، ولولا ذلك في أجزاء النطفة ما تكون الولد، وكذا عجب الذنب، وهو جزء من الأجزاء الإنسانية قدر خردلة بل أصغر لا يبلى ولا يفنى، وإن فنى سائر الأجزاء، ومنه يبدأ التركيب في النشأة الآخرة؛ فسبحان القادر القوي أنشأ الإنسان في النشأتين من جزء لا يتجزأ إشارة إلى أحديته، وتطبيقاً للآخر بالأول.

وإلى هذه الحبة إشارة في قوله تعالى: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف**»[1] فإن لفظ «**أحببت**» مشتمل على الحبة، ونفى بالحبة ذلك الجزء قدر أصغر خردلة.

قال حضرة الشيخ: المعرفة والمحبة يتفاضل أحدهما على الآخر بالاعتبار، فبينهما فرق، وذلك أن المعرفة بحسب التنزل الرحماني كما يشير إليه قوله: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف**»[2] «قوله» تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] «ليعبدون» تفسيره بـ«يعرفون»؛ فكونه تعالى معروفاً باعثاً للمحبة، وعلة غائبة للخلق، والمحبة باعتبار الترقي الإنساني، وكون المرء عبداً حقّاً، ولذا كان رسول الله ﷺ حبيب الله فلا رتبة فوق كون العبد محبوباً لأن المحبة باعتبار الفناء، والمحبوب باعتبار البقاء، وللبقاء فضيلة عظمى.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

قال حضرة الشيخ: الفرق والجمع على مراتب، فأهل الغفلة والحجاب في الفرق الأول، وهو شهود الخلق بلا حق وبعد الجمع والفناء الأول، وهو شهود الحق بلا خلق، ثم بعده الفرق الثاني والبقاء الأول ثم بعده جمع الجمع والفناء، والبقاء الثاني وهو شهود الخلق في الخلق، وشهود الخلق في الحق من غير احتجاب بأكثر عن الوحدة وبالعكس، وعنده يظهر سر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1] وهذه ـ أي: مرتبة جمع الجمع ـ مرتبة جمع الذات والصفات، والأفعال بالفعل، والتحقق بأسرارها.

قال حضرة الشيخ: إن إسرافيل مظهر الحياة، وجبرائيل مظهر العلم، وميكائيل مظهر الإرادة، وعزرائيل مظهر القدرة، وكذا الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة على الترتيب والحياة بمنزلة الذات بالنسبة إلى سائر الصفات؛ لأنه لا واسطة بينها وبين الذات، والباقي تابع لها.

واعلم أن أكثر الأسماء إضافية، فالأول باعتبار الآخر، وبالعكس، والظاهر باعتبار الباطن وبالعكس، والمنتقم باعتبار العفو والغفور وبالعكس، وعلى هذا، وفي الحقيقة لا اسم ولا رسم ولا نعت، ومن هنا يقال: [الذات] البحت والمجهول المطلق، وغير ذلك.

فإذا حصل للسالك الكمال التام، ووصل إلى مرتبة المخلصية بالفتح تجرد عن جميع الألبسة المعادية، وتعرى عن جميع الأسماء، ولكن المجازية، فذاته إذاً غنية عن العالمين لأنه عبد من كان غنياً عن العالمين، ومن كان عبد الغني فلا جرم يكسب من غناه غنى يستغني به عما سواه، وإذا ارتفعت الكثرات اتحدت الحضرات، وإذا اتحدت الحضرات ارتفع الظهور والخفاء فكان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء، وصلنا الله وإياكم من العلم والغنى، وجعلنا وإياكم مجمع البحرين، وكشف عنا وعنكم غطاء الوجود، وحققنا وإياكم بحقيقة الشهود، فإنه مفيض الخير والجود.

وقال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285]: إن كل ما دخل تحت الوجود من الجماد والنبات والحيوان والملك والجن والإنس وغيرها فهو مرسل من الله تعالى، أرسله بالفيض الأقدس الأقدم أي: عالم المعاني ثم بالفيض المقدس المقدم إلى عالم الأرواح والمثال والأجسام، فأهل التوحيد والشهود لا يفرقون في الحقيقة بين أحد من هذه الرسل؛ لأنها آثار، والآثار

تستند إلى الأفعال، وهي إلى الصفات، وهي إلى الذات المرشد، فلم يبق إلا الهوية السارية في جميع الموجودات سريان المطلق في المقيد، لا على جهة الحلول والاتحاد، فلا موجود إلا هو.

قال حضرة الشيخ: في قول الهدائي ـ قُدِّس سرُّه ـ في بعض إلهياته التركية: «ايتمزسنك عاشقلرك ملك سليمانه تظروا»: إنما لا يتعلق نظر العاشق الصادق إلى مُلك سليمان لأنه لا يليق بشأنه أن يؤثر المفضول على الفاضل، والسوى على المولى؛ فإن آثر فقد زاغ بصره وطغى، فلم يتحقق بالمعراج الحقيقي الأعلى في مقام: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: 9].

أقول: وداود عليه السلام لم ينظر إلى ملك سليمان، ولذا رجح التسبيحة على ملكه العظيم، فهو في ملكه في عين التجرد، وأما التلبس بحسب الظاهر، فقد كان بإرادة الله تعالى، ومن دخل في أمر الحق فهو بالحق دائماً فلا يشغله شأن عن شأن.

وأما صاحب المحمدية: [دانه كيم يدى كر كوهرا ولسه ياتميم، يايتميم هركز نظر كوررايسم زرين جبال] فلا يقدح في شأن آدم عليه السلام كما يزعمه بعض العامة.

والمقصود من هذا الكلام بيان همته العالية، وكذا قول الحافظ: «يدرم روضة جثت بدو كندم بفروحت ناحلف باشم لكز من بجوى نغروشم»، فإنه يشير إلى أن المطلب الأعلى هو الوصول إلى الله تعالى، فمن كان مطمح نظره ذلك فهو لا يلتفت إلى الجنة ونعيمها، فضلاً عن الدنيا ونسيمها؛ فإن ما سوى الله لا قدر له عند الله إلا قدر ما أذن الله، فافهم. ومنه يعرف معنى قول الشيخ الشهير بـ«يونس أمره»: [جنت جنت ديد كلرى برقاج اوله، برماج حورى اسنينه وبرسون إلى بكاسنى كرك سنى]. فإن مراده تعظيم المولى الذي أنشأ ما شاء، لا تحقير الجنة، فمن قنع بالدنيا خسرت تجارته، ومن قنع بالآخرة ربحت صفقته، ومن قنع بالله عظمت بضاعته، واتسعت دولته، واستغنى غناءً يستصغر عنده الدهر وقيمته، وإياك والطعن في أولياء الله؛ فإن تحت عباراتهم معاني مقصودة، وإن كان تنبىء بعض العبارات على غير ما ينبغي بالاعتبار الظاهر.

قال حضرة الشيخ: كان السلف يعدون سوء أخلاق نسائهم من سوء أخلاق أنفسهم، وذلك لأن المرأة إشارة إلى الطبيعة، والنفس والرجل إلى القلب والروح،

والقلب قطع الوجود الإنساني، فمتى صلح، صلح الجسد بجميع قواه، ومتى فسد فسد الجسد كله بجميع قواه أيضاً، فسوء الأدب من طرف المرأة إشارة إلى بقية الوجود في طرف الرجل، فيحتاج إلى المجاهدة القوية إلى أن تحصل التزكية المعنوية والموافقة الأنفسية والآفاقية، ألا ترى أن النبي عليه السلام لما قوي توجهه بروحه إلى التسبيح والتحميد، سرى ذلك إلى أعضائه وقواه في الخارج، فلا جرم كانت تسبح تسبيحه عليه السلام.

قال حضرة الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه الأطهر: قد يظهر من الخليفة الأخذ لحكم من الله ما يخالف حديثاً ما في الحكم فيخيل أنه من الاجتهاد وليس كذلك، وإنما هذا الإمام لم يثبت عنده من جهة الكشف ذلك الخبر عن النبي، ولو ثبت الحكم به، وإن كان طريق الإسناد العدل بمقصوم الوهم مبدأ السهو والنسيان، ولا من النقل على المعنى الذي هو مبدأ التأويلات والتحريفات، فمثل هذا يقع من الخليفة اليوم، انتهى كلامه.

قال حضرة الشيخ في هذا المقام من كلام الفصوص: إن المريد الحقيقي لا يتخلص عن حقيقة الاعتراض إلا بعد إيمانه الكامل بأن مرشده له الخلافة والكشف؛ فإنه يجوز أن يكون المرشد ممن له حظ أوفى من هذا المقام، فما يأتي ويذر إلا بما أعطاه الكشف الصحيح.

أقول: ذكر أن حضرة الشيخ المدعو بـ«وفا القسطنطينية» ـ قُدِّس سرُّه ـ كان يصلي الظهر في آخر وقتها، وكان يجهر بالبسملة في الجهرية مع كونه حنفي المذهب لكن شأنه العالي يأبى أن يخالف الظواهر، فإنما فعل ما فعل بحسب الكشف الإلهي لا من عند نفسه، وكان فوق الكل في زمانه، فالطعن لمثله لا يثمر إلا التعب في الدنيا، والتنزيل في العقبى، عفا الله المولى.

قال حضرة الشيخ: الكلام مقلوب الكمال فآخر الكمال الكلام، كما أن أول الكلام الكمال؛ لأن أول التعينات الإلهية هو الهوية الذاتية، وآخرها الكلام، ولذا يقال الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام على الترتيب إلا أن أول ما يبدو في الجنين حسن السمع، ولذا منع في الشرع من وطء الحامل المطلقة أو المتوفى عنها زوجها إلى أن تلد؛ لأن بالوطء يزداد حس الجنين، فيكون كالسقي لحرث الغير، ثم بعد أن ولد يظهر حس البصر والكلام فآخر ما يظهر

بعد الولادة هو البيان [. . .][1] يجرى في عالم الغيب، ومن فقد حسّاً فقد علماً، ومن فقد علماً فقد عياناً، ومن لا عيان له لا حضور له، ومن لا حضور له لا حلاوة لطاعته.

قال حضرة الشيخ: النور والنار حقيقة واحدة إلا أن النور إذا اشتد ظهوره يسمى ناراً، فالنار مؤنث، والنور مذكر، وكما أن في آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ سر البطون والظهور، وإن اختلف التشخص، فكذا في النور والنار، وإن تنوعت الصور، يعني أن حواء بطنت في آدم ثم ظهرت بزيادة صفة، والنار بطنت في النور ثم ظهرت كذلك، واختلاف صورتهما لا يقدح في كون أحدهما عين الآخر في الحقيقة، وهنا سر عظيم في حق أهل النار ينفهم من قوله: «**سبقت رحمتي غضبي**» ففي النار والغضب بطن النور والرحمة؛ لأنه في الفرع ما في الأصل، فافهم.

قال حضرة الشيخ: إن سهل بن عبد الله التستري ـ قُدِّس سرُّه ـ تمَّ له أمر السلوك في صباوته لكمال لطافة حجابه، فلم يحتج إلى مدة طويلة بمجاهدة ورياضة عريضة، فإنه يختلف السلاك في الوصول إلى الله سرعةً وبطئاً بحسب لطافة الحجاب وكثافته، فروح الكامل سريعة التعلق ببدنه في التنزيل الرحماني، فلا يمكث في العوالم مكث أرواح الناقصين ثم إذا تعلق ببدنه لا يسرع له الانتقال إلى المقصود من غير تعب، كما قال حضرة الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه ـ: المجذوب من اختار الله له في الأزل البلوغ إليه بلا كسب ولا تعمل فوقع مفطور مع الفطر إليه بلا اجتهاد بدفع غيره عن متقتضى قصده، والمجذوب بعد السلوك هو من شغلته الأغيار عن الله زماناً فلم يزل في علاج وجودها بتوفيق الله حتى أفناها، ولم يبق له سواه سبحانه، انتهى الكلام الأكبري في كتاب «تلقيح الأذهان».

قال حضرة الشيخ: الجلال عند الصوفية ما جاء من حيث لا يحتسب، بحيث لم يكن في حصوله حركة لا صورية ولا فكرية، ولا يشترط فيه أن يكون من صالح أو غيره، وإليه الإشارة بقول حضرة الهدائي؛ [كله بريسنه كيم من غير طلب انى حقدن بيلور ارباب ادب].

قال حضرة الشيخ: في قول الهدائي في بعض إلهياته التركية: [كجوب فرما نيله بونجه عوالم كنور كن عالم انسانه كلدك]: إن الإنسان يعبر إلى المنازل حين

(1) بياض في الأصل.

نزوله إلى هذا العالم، ويتعين بتعينها، ولا يقدح هذا التعين في حقيقته، ومثاله الأصلي، وآخر ما يصير إليه بعد عبوره من المولدات النطفية، والمتعين بتعينها، ثم يسويه الله بتركيب خاص في رحم الأم.

قال حضرة الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه الأطهر: قرأ بعض أصحابه «إحياء العلوم» في مكة المكرّمة وأنه خطَّأ الإمام الغزالي في موضع من الإحياء مما يتعلق بالاعتقاديات، لكن يدل هذا التدريس والقرآن على عظم شأن ذلك الكتاب ومؤلفه، ولا يقدح فيه القدح المذكور بناءً على تفاوت مقامات العارفين، وقد شهد له في بعض كتبه بأنه من رؤساء هذه الطريقة.

قال حضرة الشيخ: الاسم الثاني مجازي من حيث كونه ملفوظاً ومكتوباً، وحقيقة الأطعمة والأشربة والمعاجين المتخذة للمريض من العقاقير المختلفة، كما أن قطب الوجود نفسه هو الاسم الأعظم في الحقيقة؛ فإن الاسم في الحقيقة هو التعين، والله تعالى مبجل في كل تعين بما يناسبه من الأسماء والصفات.

أقول: من أعجب ما قيل في هذا الباب قول «يونس أمره» الذي شهد له الرجال بالكمال في بعض كلماته التركية: [بتوردم يوسفي كنعان ايلنده بولندى يوسفم كنعان بولنمز].

فإنه يريد بهذا الكلام أنه قبل أن ينكشف عنه الغطاء كان محجوباً عن إدراك جمال يوسف الحقيقي في أرض كنعان الكثرة، فلما ارتد بصيراً بإلقاء قميص تجلي أنوار الجمال على وجه يوسف، ورأى جماله المنير، وغابت عنه كنعان يعني لم يرَ بعد هذا التجلي في المظاهر إلاَّ الهوية السارية في جميع الموجودات، ففقد ما وجده، ووجد ما فقده، بل كان المفقود عين الموجود، والموجود عين المفقود، وما ثم إلا كشف الغطاء، وإزالة الحجاب.

أقول: ضرب لهذا مثل، وهو أن الحيتان قال بعضها لبعض: سمعنا أن في المحل الفلاني حوتاً رأى الماء، فاجتمعت عنده، وسألت عنه: إنه قيل في حقك إنك رأيت الماء؟ فقال: أروني أن في هذا المحل غير الماء حتى أُريكم، فافهم الإشارة؛ فإنه «ليس وراء عبادان قرية»[1].

(1) عبادان: جزيرة تحت البصرة قرب البحر الملح وعبادان في هذه الجزيرة وهي مثلثة الشكل وإنما قالوا ليس وراء عبادان قرية لأن وراءها بحراً. وصارت هذه الجملة مثلاً يضرب على البعد. (آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ومجمع الأمثال للميداني).

واشتكيتُ إلى حضرة الشيخ يوماً عن كثافة الحجاب فقال ـ من وجه العتاب: هذا ليس من كلام أهل الطريقة، وإنما اللائق بك أن تنظر إلى قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: 29] فتعبده وأنت عبدٌ حق لا أن تعبده لإزالة الحجاب، وظهور الحرارة للقلب، وحصول الكشف والعلوم والأذواق؛ فإن دنيا أهل الطريقة العلم الظاهر من القوانين والرسوم، وآخرتهم العلم الباطن من الأذواق والكشف والتقيد بكليهما.

حجاب الأول: حجاب ظلماني.

وحجاب الثاني: حجاب نوراني، وأهل كل منهما محجوبون عن الحق، فإن الدنيا والآخرة حرامان على أهل الله، وإنما المنع والعطاء بيد الله، وينبغي لعبد الحق أن يكون المنع والعطاء، سواء عنده، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْبُيُوتَ أَوْ بِهِ صِرَٰطٍ وَلَهُۥ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ﴾ [الحديد: 23] فإن جذب المحبوب، ودفع المكروه من الشهوات عند أهل الله، فاترك التصرف بتصرف الحق فيك بما أراد، اللّهم اجعلنا عبيداً مطلقين، وبحقيقة العبودية متحققين.

قال حضرة الشيخ ـ بطريقة التوجه: عليك بالصوم كل يوم؛ فإنه طريقة أهل الحق، وحافظ على أوقاتك لا سيما الغدو والرواح فلا تغفل عن التوجه الإلهي عند الصباح إلى وقت الضحى، ومن العصر إلى وقت المغرب بمقتضى ظاهر قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ﴾ [الإنسان: 25].

فإذا جاء زمان الإفطار افطر بما تيسر لك من الحلال الطيب، ثم صلِّ المغرب صلاة الأوابين، ثم لا تشتغل بعدها إلاَّ بالذكر والفكر بالقلب الهيولاني الوجداني، وأَخِّر الأكل إلى أن يقوم أهل الغفلة عن مائدتهم، وعنده كُلْ قَدر ما يعتدل به مزاجك، ويسكن قلبك، ويقوى بدنك على الطاعة إلى المساء الآتي، وما بين العشاءَين وقت شريف وزمان فتح وفيض ينبغي أن يصرف إلى المعاد لا إلى المعاش، وأن مخالفة الجمهور في وقت الطعام فهي مفيدة لنا إذ لا بدَّ من مخالفتهم في عاداتهم وأحوالهم؛ فإن طريقنا طريق الأصحاب رضي الله عنهم لا طريق أهل العُرْف.

قال حضرة الشيخ: إني إذا وصلت إلى مدينة «بروسة» فالزم مكانك ثلاث سنين وأَخِّر الزيارة إلى تمام هذه المدة؛ فإن في التثليث سر الفردية ومن ثبت نبت.

أقول: كان يوصى بهذا جميع الخلفاء رعاية لهذا السر، وربما نسخ هذا بحسب المصلحة كما سيجيء، ووصَّى أن يكون وردي كل يوم جزءاً كاملاً من القرآن على ما هو عادته الشريفة، وهذا ما عدا الأوراد التي عينها لي حين المبايعة، وسمعت منه قبل وفاته بشهور أنه قال: لم أترك إلى الآن الورد الذي ألزمنيه شيخي، وأنا الآن كما كنت في خدمته قبل ولا أعرف لنفسي رتبةً وفضلاً، وإن طال الأمد وكان ما كان.

أقول: انظر إلى هذا الكامل كيف نظر إلى نفسه بالنظر الأول، وكيف حافظ على العهد المأخوذ إلى آخر العمر، فإن الطريق طريق النفس، وملازمة العلم والعمل واتباع الشيوخ وفي مدة العمر.

وفي الحديث: «**أفضل الأعمال أدومها وإن قل**»[1].

قال حضرة الشيخ: إذا تمَّت الحركات يحصل السكون، وعنده يعد السالك كاملاً؛ لأن أول الأمر كان سكوناً محضاً، وإلى أوله يرجع آخره قال تعالى في الحديث القدسي: «**كنت كنزاً مخفيّاً، فأحببت أن أعرف؛ فخلقت الخلق**»[2] فالخلق إنما يكون بحركة معنوية، فمنه تعتبر الحركة، وأما ما قيل لم يصل إلى سرِّ المبدأ.

واعلم أن عبارة السكون والحركة إنما هي للتفهيم وإلا فليس هناك شيء منها.

❊ ❊ ❊

(1) رواه ابن خزيمة في الصحيح، باب ذكر الدليل على أن نهي النبي ﷺ..، حديث رقم (1277) [2/ 261].

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

الزيارة الثانية

هذه الزيارة وكذا ما بعدها وقعت بعد استيطاني في بلدة «بروسة»؛ فإن حضرة الشيخ استخلفني منها، وحدد الزيارة ثلاث سنين، ثم لما مضى سنة ونصف نسخ ذلك وأشار إليَّ بالقدوم، فسرت إلى جانب القسطنطينية فلما وصلت إليها لم أجده ـ قُدِّس سرُّه ـ في داره، وصادفتُه في ساحل القلعة المعروفة بـ«حصار روم إيلي» وهو يتهيأ لدخول السفينة لحضور دعوة في بعض السواحل؛ فلما رآني تبسم واستبشر ورحب ودعا لي بالخير هنا؛ فقبَّلت يده الشريفة، ودخلت معه في السفينة، ثم سرنا إلى المقام المعروف بـ«يوشع» والحديقة المعروفة بـ«توقات» وسأل عن أحوالي وأحوال أهالي بروسة؛ فشكرت الله في ذلك، فقال: لا تكن زمانياً ولا مكانياً ثم تلا قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [البقرة: 115]، وسأل عن كيفية الوعظ، فقلت: تبعثني نفسي في بعض الأحيان على مقابلة بعض الوعاظ في مقالاتهم الفاسدة، قال: لا تفعل؛ فإن الله هو الذي يتولى الرفع، فادفع العمل باختيارك، وفوض أمرك إلى الله تعالى، ولا يصح إليهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ ﴾ [الأنعام: 112]، فإذا جاء الوقت يرتفع الكدر بالكلية بأمر الله، دخلت مع حضرة الشيخ والمخاديم الكرام، وبعض الخواص في السفينة بعد العصر لزيارة بعض المقامات الساحلية فلمَّا غربت الشمس، قال: هذا الوقت إشارة إلى التنزل من المطمئنة إلى مرتبة الملهمة، وما بين العشاءَين إشارة إلى التنزل إلى مرتبة اللوامة، ثم ما بعده إشارة إلى التنزل إلى مرتبة الأمارة، ووقت الشافعي إشارة إلى الترقي من الأمارة إلى اللوامة، ووقت الحنفي إشارة إلى الترقي إلى الملهمة، ووقت الطلوع إشارة إلى الترقي إلى المطمئنة بحسب مراتبها إلى أول الغروب، ثم يعود الأمر على ما كان عليه، قال: آخر الليل إشارة إلى السكون الذاتي، والنهار إلى الحركة الصفاتية؛ فعند الليل يحصل التنزل الجمال الذاتي، وعند النهار يحصل الترقي الصفاتي؛ لأن كل شيء يترقى من السكون إلى الحركة.

قال حضرة الشيخ: اعلم أن الخلق في إثبات ما سوى الله ونفيه على أربعة أقسام: قسم يثبتونه مطلقاً اعتباراً وحقيقةً على أنه غير الحق مطلقاً أي: على أنه ليس

الموجود أصلاً لا حقيقةً ولا اعتباراً، وهم العارفون المكاشفون، وقسم ينفونه حقيقةً، ويثبتونه اعتباراً على أنه أصل الحق سبحانه، وهم المشاهدون والمعاينون، وقسم ينفونه حقيقةً، ويثبتونه اعتباراً أيضاً لكن على أنه عين الحق سبحانه، وهم المحققون الواجدون، وهذا من مزالق الأقدام قبل التحقق بحقيقة هذا المقام هدانا الله وإياكم إلى قوم سبيل السلام، وبيده أزمة الأمور والأحكام.

قال الشيخ: كن هيولانيّاً ووحدانيّاً ثم انتظر الفيض الإلهي، ولا تنظر إلى شيءٍ أصلاً حتى مقامات الأنبياء والأولياء؛ فإنها تجليات بحقيقة، بل توجه إلى عالم الإطلاق، وصفِّ باطنك عن علاقات الأنفس والآفاق؛ ليحصل تجلي الجزيل بحسب استعدادك، وأفض من الظاهر قدر مبلغ علمك كالبحر المالح، وأفض من الباطن حسبما يساعده عرفانك كالبحر العذب، ولكن كُن غنياً عن الجملة غير الله تعالى ألا ترى أن الله تعالى أفاض على كلِّ شيء من الأشياء الموجودات ما هو مستعد له بحسب مرتبته مع أنه غني مطلق.

قال حضرة الشيخ: المرشد الكامل كتاب ناطق فما دام أمكن الوصول إليه وإلى صحبته ينبغي أن يكتفي بالكتاب الساكت؛ فإن تأثير الناطق أبلغ، وشكوت عن سوء الحال، فقال: لا تقل فإني تفكرت مرة في أحوال الكُمَّل فهانت عليّ نفسي، واستولى عليّ الخوف العظيم، واستمر مقدار شهرين، وقيل لي وأنا في سُنَّة الجمعة: لا تخف؛ فإن الله تعالى لو لم يرد بك الخير لما وفقك لرؤية جمال وليه، وقد كنت خادم نعله زماناً، وصحبت به أعواماً، واعتقدته اعتقاداً تاماً فذلك من العناية الأزلية في حقك يا حقي، فزال عني ما بي من الخوف الغالب، واعتدل حالي، والحمد لله تعالى، وأراد بالولي من هو مستغنٍ عن التعريف ـ أعني: حضرة الشيخ قُدِّس سرُّه.

قال حضرة الشيخ: هذا الزمان زمان سكوت؛ فإنه قلمَّا يوجد من يصلح للمكالمة من الفناء الصرف، ونظر إلى الأشجار في حول البحر؛ فقال: إن هذه الأشياء على ما كانت عليه في القدرة العلمية لا يجوز أن تكون على خلاف ما هي عليه فيها، لكن كان ظاهر الحق باطناً في الحضرة العينية، وباطنه ظاهراً فظاهر الخلق باطن الحق، وباطن الخلق ظاهر الحق، ثم قال: انظر إلى هذه الأشجار؛ فإنها ثابتة في مكانها منذ ما خلقت، وهي على هذه الحالة إلى وقت فنائها، فلا بدَّ من ترك الحركة الإرادية في طريق الحق، ذكر حضرة الشيخ مراتب النفوس ومثَّل لها

بالأوقات المخصوصة من الليل والنهار ثم تلا قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ظِلَالُهُمۡ ءَايَٰتٖ هُوَ ﴿١٩٠﴾ ٱلۡأَبۡتَرُ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأُولُو ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ صِرَٰطٖ﴾ [آل عمران: 190، 191]، فقال: المراد بالذكر القيامي توحيد الأفعال، وبالقعودي توحيد الصفات، وبالجنوبي توحيد الذات وتحقيقه أن القيام المستلزم الحركة إشارة إلى ما أشار إليه النهار، والقعود والاضطجاع المستلزمين للسكوت إشارة إلى ما أشار إليه الليل وقد سبق.

وسرنا إلى حصار روم أيلي في القسطنطينية، فأمرني حضرة الشيخ الوعظ والتذكير في جامع في السواحل فامتثلت، ثم لما تمَّ المجلس وكان حاضراً فقَبّلت يده الشريفة فدعا لي بالخير ثم دخلنا السفينة، فجاء وقت المغرب فخرجنا إلى بعض السواحل فأشار إليّ الإمام، ولما فرغنا من الصلاة أخذ يكلم من المعارف، وأنجز الكلام إلى ذكر السلطان، واختلال الزمان بالظلم والعدوان والفساد والطغيان، وقرب زمان المهدي، وانقراض السلاطين العثمانية، فصلينا في جامع الحصار الذي بناه السلطان محمد الفاتح على شكل اسمه محمد، وأمر حضرة الشيخ خليفة الشيخ حسين أن يعظ الناس في ذلك الجامع ففعل فلمَّا جئنا إلى المنزل أحضر الشيخ جملة الإخوان، وقرأ عليهم رسالتي التي ألفتها في حق حضرة مخدومه السيد محمد الجودي ـ أبقاه الله تعالى ـ فسرَّ واستبشر، ودعا لجملة الإخوان بالخير والسعادة، ثم قال مخاطباً الخليفة المذكور: أنتما كعيني هاتين، وأشار بيده إلى عينيه المباركتين، ثم أمرني بقراءة القرآن ثم بقراءة بعض إلٰهيات الهدائي، ثم بالتلاوة ثانياً ففعلنا فلمَّا جاء وقت الدعاء توقفت فيه، وعرضت ذلك على جنابه حتى يكون هو الداعي والباقي هو المؤمِّن، فقال: لا تفعل فإني استخلفتك، ومن مواضع الخلافة مثل هذا الدعاء؛ فقبلت، وكان له في ذلك اليوم زيادة انبساط، فكان يوم عيد لنا أعطاني حضرة الشيخ ريحانة، وقال: فكن روحاً وريحاناً إلى أن قال: تكن بالله إنساناً، ورمى حضرة الشيخ إلى بعض الوادي حصاة، وذلك بعد الإياب من بعد السير، فرميت أيضاً حصاة تحقيقاً للمتابعة والاقتداء جعلني الله تعالى وإياكم من السابقين في عبادة الاتباع، وساقني وإياكم إلى منازل الاتفاق والاجتماع.

واعلم أني لم أكتب في هذه الزيارة إلا قدراً يسيراً لقدر المدة؛ فإن حضرة الشيخ إنما استدعاني للملاقاة المحضة ثم أشار بالعود بعد ثلاثة أيام مع أن الكلمات ما هو مطوي عن البين لله الحمد [كده جان من معتكف حضرة. . . .].

الزيارة الثالثة

وقت هذه الزيارة في أوائل شوّال من سنة ثمان وتسعين وألف، ووجدت حضرة الشيخ في البيت الفوقاني من مسكنه الجناني، فقال ما قال من المعارف، والنصائح الجليلة بعد سؤال الخاطر، وأفاد أن السلطان محمد رغب له وهو رغب عنه، وإن التعزز والتمدح بالملوك وصحبتهم لا يغني شيئاً؛ فإن العزة لله ولرسوله، ولن تمسك بما أمر به لا للمعرضين عن الحق والقاصرين نظرهم إلى ما سواه، أقول كان أكثر علماء القسطنطينية المنتسبين إلى السلطان مفتخرين به غافلين عن الله حتى ألقوا على التزين بالزِّي المتلونة في مراكبهم وملابسهم ومساكنهم، ورأيت منهم من يقيم في داره ليلاً ونهاراً؛ ليجدوه عند الطلب من قبل السلطان ولوزرائه أحد يقول مفتخراً: هذا البساط اللطيف مثلاً أعطانيه السلطان أو الوزير، والحمد لله على تجرد حضرة الشيخ؛ فإنه لم يقبل من أحد شيئاً ولو حصيراً فإنه بلى حصير البيت الخارج فأراد بعض الزوار أن يجدده فلم يقبل فبقي إلى أن مات ـ روح الله روحه ـ وإنَّ السلطان محمد أراد أن يبني له خانقاه فلم يقبل، فقال: يكفيني ما أنا فيه من المسكن، وإن بعض أمراء البحر كلفه مرة بأن يدخله في سفينته الصغيرة المخصوصة به فلم يدخل لكونها مزخرفة منقشة بماء الذهب، وأنواع الأصباغ، وقال: يدخل فيها مَن كان حظه من الاسم الظاهر أوفر كالأمراء والأعيان، ولم أره قد ركب مركباً وحوله جمع من الصوفية احترز عن الاحتشام واحتقار الدنيا، ولا قدر لها ولأهلها عند الله تعالى.

قال حضرة الشيخ: اكتب ما لاح ببالك، ولكن احترز شهرة الكلام والكتاب؛ فإن الخاطر بالبال يقتضي الظهور في وقت من الأوقات كالمطر سواء وقع في بلدة طيبة أو لا فلك إظهاره فقط.

قال حضرة الشيخ: إنَّ الكدر لا يرتفع عن الدنيا، وإنما يرتفع الكدر من قلوب أهل الحضور والصفاء. مثلاً: إن النار لا يرتفع إحراقها، وكذا الماء وإغراقه كما في حق إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ ثم تلا قوله تعالى يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ

shaziliaassemia.com

ٱلۡأَمۡرِ﴾ [البقرة: 35] المراد بآدم وحواء ـ بطريق الإشارة ـ هو آدم: الروح، وحواء: الطبيعة، وقد نهاهما الله عن التقرب من شجرة تدبير النفس في قوله تعالى: ﴿ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ﴾ [الأعراف: 19] فإنه ظلم، فظلمه كما قال تعالى: ﴿ كَانَ لَنَا مِنَ﴾ [الأنعام: 52] فإن تدبير النفس تدبير سيىء وتدبير حسن فلا بد للسالك من أن يخرج عن تدبيره، ويكل الأمر إلى الله فيعرض عن المعاش، ويقبل إلى المعاد تمسكاً بالشريعة، وإلا فالعارف مجرد عن الإدبار في نفس الأمر.

وقال: إذا وقع القحط والغلاء؛ فإن الله تعالى يفتح من خزائن غيبه قدر ما يكفيه كما كان يفتح له حال الرخص؛ فإن المنة لله تعالى، ولا ينبغي للعبد أن يتوكل في فكر المعاش، ويغتم له؛ فإنه من الفضلة.

قال حضرة الشيخ: إنه محيط بالعوالم كلها، وهو أول ما ينكشف للسالك، قال: إنَّ سورة الإخلاص إشارة إلى حال النزول، وهو حال المجذوب فأولاً بقول: مَضَاجِعِهِمۡۖ ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾... [الإخلاص: 1ـ 4] إلى آخر السورة، وحال الصعود يعتبر من الأُخراني، جانب، «هو» فيقول أولاً: ﴿ عَلَىٰ بَعۡضٍۭ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ نَسُوٓاْ﴾ [الإخلاص: 4] ثم يترقى إلى أن يقول: «هو» لكن لا ينبغي للسالك أن يكتفي بوجدان هو في القرآن بل ينبغي له أن يترقى إلى القرآن الفعلي فيشاهد هو في القرآن.

عرضت على حضرة الشيخ بعض اللوائح فدعا لي، وقال: جعل الله خيالك ولسانك مورد الكلام الإلهي، ولكن احترز أنت عن شهوة الكلام، قرأ القوال عند حضرة الشيخ الهدائي في بعض الإلهيات التركية: [كجوب صحراى عالمدن كذر قيل عرش اعظمدن خلاص أول درد ايله غمدن دكل ياهو وبامن هوٍ].

فقال: المراد من العبور من صحراء العالم هو التجاوز عن عالم الملك وسيره، وهو العالم الظلماني، ومن المرور من العرش الأعظم هو التجاوز عن عالم الملكوت وسيره، وهو العالم الروحاني، والكل من الكون في التعبد بكل منها كدر وغم لكونه ما سوى الله، والحضور في الوصول إلى المولى، والتجاوز إلى حضرة اللاهوت، ولذا قال: [خلاص أول دردله غمدن] ثم مدح حضرة الشيخ الهدائي، وأقواله الجامعة، وأثنى عليه بما يليق بمقامه، ثم أنجز الكلام إلى أن قال: إن النفس الأمارة نفس النفس الكافرة، والمؤمنون من أهل العموم ترقوا منها بإيمانهم إلى اللوامة، وعلماء الظاهر من أهل النظر والاستدلال عموماً بقوا في اللوامة والملهمة،

ولم ينحطوا إلى المطمئنة؛ لأنها نفس الأنبياء وكمل الأولياء، فإنهم تشرفوا بالوصول إليها، وإلى الراضية المرضية والصافية والفانية والباقية ثم تلا قوله تعالى:

﴿ٱرۡفُقۡلۡنَبَعۡضَهُمۡ ﴿٢٩﴾ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الفجر: 29، 30]، وقال: المراد من دخول الجنة: هو بقاء نفوس الكُمَّل لكونها فانية في الله باقية بالله هي النفوس الباقية، ولا أقول شموسهم في الدارين.

وقرأ البعض قوله تعالى: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 115]؛ فقال: أي: المشرق الروحاني والمغرب الجسماني فأينما تولوا وتوجهوا وجوهكم من تنسمك بالجهتين مشمة ذاته المتجلية بجماله وجلاله.

قال حضرة الشيخ: من ولد في الليل يكون مظهر الذات الأحدية؛ لأن الليل محل الفناء والسكون، ومن ولد في النهار يكون مظهر الصفات؛ لأن النهار محل الظهور والحركة، وقد اختلف في أن رسول الله ﷺ ولد في الليل أم في النهار.

ثم قال: اليمين مظهر سر النهار؛ لأن أكثر البطش والأخذ بها، واليسار مظهر سر الليل، ولذا قل عملها وكفا الجنة مع النار والبدن مع الروح حيث إن الجنة والبدن مظهر الظهور في النار، والروح مظهر خلافه؛ فافهم جدّاً.

قال حضرة الشيخ: لا تحصل هذه الطريقة بالفنون بل بالجنون، ولا بد للسالك من الموت قبل الموت، والدخول في البرزخ والحشر والجنة حتى يحصل البقاء، ثم قال باللسان التركي: [بيلمك بولمق، والمق].

الأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

سأل بعض الجلساء عن أحوال السفر؟

فقال حضرة الشيخ: النصر بيد الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا﴾ [آل عمران: 26]، وقال: إن لفظ «مَنْ» عام يتناول المؤمن والكافر، فتارة يمتحن المؤمنين، وتارة يشدد البلاء على الكافرين، وفي كل ذلك حكمة ومصلحة كما قال الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ [آل عمران: 26]؛ فإنه لا شر بالنسبة إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلى العباد، وجاء رجل يدعي تكميل الفنون؛ فسأل عن قوله عليه السلام في دعاء الاستخارة: «**إن كنت تعلم**»[1].

(1) رواه البخاري في صحيحه، أبواب التطوع. . .، حديث رقم (1109) [1/ 391] ورواه أبو داود في السنن، باب في الاستخارة، حديث رقم (1538) [2/ 89] ورواه غيرهما.

فقال حضرة الشيخ: إن هذا الشك بالنسبة إلينا لا بالنسبة إلى الله؛ فإن العلم بالنسبة إليه وجد إذ لا رابط لا يطرأ عليه النسيان والشك.

ومعنى العبارة المذكورة: إن تعلق علمك وإرادتك، فلمَّا كان تعلق هذا العلم مشكوكاً بالنسبة إلى العبد عبر بكلمة الشك فسكت المدعي المنصف كأن القمر الحجر الصلد، وفي فتح الباري: قوله: «**اللّهم إن كنت تعلم**»[1] فيه إشكال؛ لأن المؤمن يعلم قطعاً أن الله تعالى يعلم وأجيب بأنه تردد في عمله ذلك هل له اعتبار عند الله تعالى أم لا فكأنه قال إن كان عملي ذلك مقبولاً فأجب دعائي انتهى.

فما فضلوكم بهما من الغدوة تلا حضرة الشيخ قول تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ [الأنفال: 29].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: 79] فقال: إن الله تعالى أشار في هذه الآيات إلى ما يعود إلى جانب العبد حيث أسند إليه العبادة والتقوى والتهجد، وإلى ما يعود إلى جنابه تعالى، وهو إتيان اليقين منه والجعل والبعث؛ فلا بد للسالك من التقيد بما أمر به سواء حصل الموعود وهو مضمون الجزاء، أو لم يحصل، مثلاً لو فرض أن عمره ألف سنة وأمر بالعبادة خمسمائة سنة ولم يحصل في هذه المدة اليقين في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] ينبغي ألا يجد لذلك في قلبه كدراً أصلاً لمقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلۡبُيُوتَ أَمۡوَٰلِهِ صَلَٰطِ وَلَهُۥ﴾ [الحديد: 23].

ولو حصل له ذلك في الخمسمائة الأخرى إلى تمام الألف ينبغي ألا يجد لذلك صفاءً قطعاً، بوفق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ﴾ [الحديد: 23] فالمنع والعطاء بيد الله، وليس للعبد إلا العبودية المحضة، ثم قال: ولقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99]، وأمثاله فائدة، وهي التشريف.

قال حضرة الشيخ: علم الظاهر دنيا أهل السلوك، وعلم الباطن عقباهم، فلا بُد من الفناء عن الكل؛ لأن مطمح نظر أهل الله هو الله بل لا مطمح هناك؛ فإنه القيود، ثم قال: أهل الدنيا كثير وأهل العقبى قليل، وأهل المولى أقل من القليل

(1) رواه البخاري في صحيحه، أبواب التطوع. . ، حديث رقم (1109) [1/ 391] ورواه أبو داود في السنن، باب في الاستخارة، حديث رقم (1538) [2/ 89] ورواه غيرهما.

وذلك كالسلاطين والملوك فإنهم أقل بالنسبة إلى الوزراء، وهم أقل بالنسبة إلى الأمراء، وهم أقل بالنسبة لسائر أرباب الجاه، وهم أقل بالنسبة إلى الرعايا.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي التي عينها لي مدة إقامتي في داره العالية في هذه الزيارة وذلك يوم الخميس بعد العصر، فجلس إلى قريب من المغرب، وقال ما قال من المعارف العربية، ثم قال في آخر المجلس: قلت محبة مني إليك، ولذا جئت هناك يشدني بإرشاده يكفيني في الدنيا والآخرة، ودعا لي بالخير، ورأى حضرة الشيخ عندي مجموعة فيها بعض منظومة لي فقال لي: ما هذا؟ قلت: إنه لا مضايقة لي للكلام المنظوم والمنثور إلا أنه مزخرف؛ فقال: لا تقل هكذا؛ فإنه كفران للنعمة التي أنعم الله بها عليك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: 11]، وقال: كل ما خطر ببالك من علم فاكتبه منظوماً أو منثوراً، ولكن لا تلتفت إليه، فإن المطلب غيره: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: 5] وتخلص من مصائب الطلب.

قال حضرة الشيخ: لا علي إلى صحبة أحد إلا أن يكون الإقبال من جانبه فأصحب به حينئذٍ لكن دع في الصحبة ما يليق بمقامه من الكلام وغيره؛ فإن الحضور فيه، قال تعالى: أ﴿هَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ [المؤمنون: 96].

جلس حضرة الشيخ مجلس الوعظ والتذكير في جامع السلطان سليم الأول يوم الجمعة من شوّال لسنة ثمان وتسعين وألف؛ ففسر قوله سبحانه وتعالى:

﴿مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ﴾ [المائدة: 100]؛ فقال: أمر الله تعالى حبيبه ببيان عدم مساواة الخبيث، وهو المال الحرام بالطيب، وهو الحلال؛ لأن الحرام مردود، والحلال مقبول فهما لا يستويان أبداً فكما أنهما كذلك فكذا طالبهما إذ طالب الخبيث خبيث، وطالب الطيب طيب، والله تعالى يسوق الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث كما قال: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: 26] والله تعالى لا ينظر إلى قلة الخبيث والطيب، ولا إلى كثرتهما، وإنما ينظر إلى الجودة فالطيب جيد وإن كان قليلاً، والخبيث رديء وإن كان كثيراً.

ثم قال: والإشارة أن من العلوم والأخلاق والأعمال ما كان خبيثاً وما كان طيباً فلا يستوي ما كان منها خبيثاً بما كان طيباً كالعلم الغير النافع والنافع، والأخلاق

الحسنة وغير الحسنة والأعمال الصحيحة والفاسدة.

ثم قال بعد كلام طويل: إن الطيب في عرف أهل التصوف ما كان بلا فكر ولا حركة نفسانية سواء سبق من طرف صالح أو من طرف طالح لأنه ذَوق من حيث لا يحتسب وهو مقبول وخلافه مردود، ولا يعد في هذا الآن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم قال: رائحة الجنة تُشم من مسيرة خمسمائة عام، ولكن مجرد الشم لا يستلزم دخول الجنة، وكذا جنة الحقيقة تُشم رائحتها من بعيد وبمجرده لا يلزم الوصول إلى الله تعالى؛ فإن بداية هذا الأمر ترى نهايته مع عدم التحقق بحقيقة بعد، والخلاص من النفس والشيطان على الحقيقة إنما يحصل في الدائرة السابقة وهي النفس الفانية، وهذا إنما يحصل في أربعين سنة، فلا تظنوا أيها الصوفية أن الأمر سهل.

أقول: كان المجلس روضة من رياض الجنة وأرجو من الله ألا يحرقني بنار الجلال، فإن داخل رياض الجنة ينبغي أن يكون أميناً على كل حال.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿لَكَ يَقُولُونَ لَوۡ﴾ [يوسف: 39]: هذا ترتيب أنيق؛ فإن الذات الأحدية تدفع بوحدتها الكثرة، وبقهرها الآثار فيضمحل الكل فلا يبقى سوى الألوهية.

قال حضرة الشيخ: أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، وإنه يفعل من قبيل لا علة ويرد لا لعلة ويتوهم القاصرون من ترتب بعض الأمور على بعض من حيث الظاهر كونها معللة لكن الأسباب لا تعتبر عند الحقيقة؛ لأن الأمور أسبابها مقدرة أزلاً فلا تأثير للأسباب بالاستقلال.

قال عند ذكر بعض الحاضرين امرأة محبوسة في السجن: فأفاد أولاً أن كونها محبوسة مقدر أزلاً وإن لم يكن لها جرم، والحبس وإن كان له سبب صوري عند العوام لكن لا علة له عند الخواص.

ثم قال ما قال حضرة الشيخ في قوله: إذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه مثلاً إذا أراد الله نصرة قوم يجعل لهم وزيراً له قابلية الغالبية وكذا أتباعه، وإذا أراد هزيمتهم يجعل لهم والياً له قابلية المغلوبية.

ثم قال: إذا وقع الفتح والنصرة ترى الناس فرحين مستبشرين، وإذا وقع

خلافه تراهم مغمومين منقبضين وليس لهم في الحقيقة إلا الشكر عند ظهور اللطف والجمال والصبر والاستغفار عند ظهور القهر والجلال؛ فإنهم مأمورون بهذا لا بالفرح والغم على خلاف غيرها.

ثم قال: هذا آخر الزمان الذي يغلب الجلال فيه على الجمال، ولا حضور فيه إلا للمجرد رأى لصاحب تجريد وتفريد وهو الكامل المنتهي في المراتب؛ فإنه ينظر إلى القضاء الأزلي، وإن الله تعالى يحكم في ملكه دون ملك غيره وأنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ويقول الناس: إن مرادنا لم يحصل من جهة الفتح، وينقبضون من وقوع خلاف مرادهم مع أن الدافع من الكون مطلقاً هو ما تتعلق به الإرادة الإلهية فيلزم الاتباع بمراد الله تعالى فإنه خير محض كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ [آل عمران: 26] أراد بالخير ما سبق من الإيتاء والنزع والإعزاز والإذلال فالكل بالنسبة إليه تعالى خير محض وإن كان الإيتاء والإعزاز خيراً بالنسبة إلى الناس والنزع والإذلال شرّاً.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡمُلُوتَ مِنۡ أَبِهَاۚ﴾ [الأنعام: 65]: لم يقل ليذيق الكافرين بأس المؤمنين، أو ليذيق المؤمنين بأس الكافرين، أو ليذيق الكافرين بعضهم بأس بعض أو ليذيق المؤمنين بأس بعض، بل أطلق في النظم ليتناول كل فريق، فإن الكل في ملكه، وهو يحيي ويميت أيّاً من كان في أي بلدة كان، فالمؤمنون والكافرون كاليدين لا ترجيح لإحداهما على الأخرى، ولا تأثير في الغلبة إلا بمرجح، فالله تعالى تارة يشدد المحنة على المؤمنين، وأخرى على الكافرين لحكمة ومصلحة كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ هُنَاۗ قُل لَّوۡ﴾ [آل عمران: 141] أي: ليميز المؤمنين من الكافرين والمخلصين من المنافقين على حسب أحوال بمقتضى علمه الأزلي القديم.

ثم قال حضرة الشيخ: ليلة بعد الطعام: هذا الطعام ينبغي أن يراه العين وقت الأكل، ولا يخطر بالبال قبل الحضور إلا لكان شركاً خفيّاً، وربما رأى في المنام ما يتعلق بالمعاش، ولا يظهر أثره لكون مبناها الحركة الفكرية، وهي خفية جدّاً فربما ينكرها لخفائها، ذكر بعض الخلفاء بلدة صوفية وكون بعض النفوس الشرر متسلطاً على أهاليها؛ فقال حضرة الشيخ: إن التسخير مكر لأهل الشرّ خير لأهل الخير أقول في عبارته الوجيزة لطافة؛ لأن المكر قلب الكرم.

قال حضرة الشيخ: حروف التهجي بمرتبة الوجود في الشأن الغيبي، والحروف المركبة إلى أبجد بمرتبة الوجود العلمي، وأبجد بمرتبة الوجود في عالم الأرواح، وسائر المركبات بمرتبة الوجود في عالم الأجسام.

قال حضرة الشيخ: سلوك بعض السالكين مرتب كما في بعض الرسائل للشيخ الأكبر وسلوك بعضهم غير مرتب فالانفتاح أولاً على تقدير الترتيب يبدأ من عالم الكون والفساد واستماع كلام الجماد والنبات والحيوان وحركات الأفلاك والملائكة ثم يظهر عالم الغيب، والمعاني والمعتبر هو هذا الظهور الثاني؛ لأن ما عداه يتعلق بكون، فلا لطف في الكثافة بل هو قيد للأكثر.

ثم قال: وقد وقع سلوكي على غير ترتيب حيث انفتح أولاً حقائق الأفعال والصفات والذات وسر الحياة السارية في جميع الأكوان.

قال حضرة الشيخ: النار ترق في صورة التنزل؛ لأن باطن الجلال جمال فأهل النار أحديون، والجنة تنزل في صورة الترقي لأن باطن الجمال جلال، فأهل الجنة صفاتيون؛ لأن التنعم من مرتبة الصفات، وهي دون مرتبة الذات.

قال حضرة الشيخ في شرح بعض أهل الذوق جَفْر سيدنا علي رضي الله عنه وكرّم وجهه ـ وقع الاتفاق على أن الله تعالى «**يبعث في رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**»[1] كما في الحديث، وهم أهل الخير والتقى، وصاحب السيف، قال: إذا ظهر صاحب السيف يدفع فتنة القوم أولاً ثم الكفار، وأراد بالقوم السلطان وأتباعه السفهاء الأشقياء الظالمين المصادرين.

قال الشيخ: إن آدم كاشف عن شأنه الذاتي فسلك طريق الأدب حيث قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]؛ فأسند الظلم إلى نفسه.

وأمَّا إبليس فلم يكن له ذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 16] حيث أسند الإغواء إلى الله مع أن تلك العداوة كانت تأتيه في عينه العلمي وشأنه العيني فاقتضت فلذا أظهرها الله، ومن المحال أن يظهر الله ما ليس بثابت ولا مقدر. وقولهم: السعادة الأزلية والعناية الرحمانية قولُ من طريق الأدب، وجاء على طريق التفهيم وإلا فالاقتضاء أن تظهر لا محالة من الأزل إلى الأبد كل يعمل على شاكلته.

(1) أورده السيوطي في شرح سنن ابن ماجة، باب الجوامع من الدعاء..، حديث رقم (4075) [1/297].

قال حضرة الشيخ: لا يصح الاقتداء بالجُنب، ويكره بالأعمى لعدم شرائطه وإنما يصح بالجنب الباطني، والأعمى بصيرته لوجود الشرائط في الظاهر، وقد ورد: «**صلوا خلف كل برٍّ وفاجر**»[1].

قال حضرة الشيخ: الجيش جيشان؛ جيش في الظاهر، وجيش في الباطن، فجيش الظاهر صنفان؛ مؤمن وكافر فهما على التقابل والمقاتلة دائماً.

وكذا جيش الباطن نوعان: ملك، وشيطان، ونفس فهما أيضاً على التضاد مهما يجد أحدهما الفرصة في ميدان القلب يستولي عليه.

قال حضرة الشيخ: سرُّ الإنسان يلزم من طور إلى طور إلهياً كان أو كونياً إلى أن يتعين سوياً ويأخذ من جميع الأطوار خواصها وكيفياتها، وينصبغ بانصباغها فهذا هو النزول الأول، وفيه غفلة لغلبة الأحكام إلى الصبغ بها في مردوده على الأطوار ثم السالك الموفق يترقى من طور إلى طور، ويؤدي في كل طور ما أخذ منه قبل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: 58] ويصل إلى الفناء في الله وهو الخلوة مع الله، ومنه طريق الخلوتية فمن واقف هناك كأبي يزيد البسطامي، ومن نازل، والنازل أعلى من الواقف وبالعكس فعند نزوله يسير الأطوار كلها لكن بالوجود الحقاني فيحرز في مرتبة فنائه مرتبة الله أحد، وهي في بقائه مرتبة الله الصمد، فالفناء هو الجمع والبقاء هو الفرق الثاني، ويقال للمرور الأول على الأطوار: التحصيل؛ لأنه ينحل عن وجوده جميع ما عقد عليه قبل من الخواص، وللنزول الثاني: التقييد؛ لأنه يعقد عليه جميع ما حل عنه قبل، ثم مَثَّل مثالاً بالهلال؛ فإن أول ما يبدو إشارة إلى الفناء، وكذا البدر إلى البقاء، ولا يزال في كل شهر من كونه هلالاً وبدراً، وكذا لا يزال الكامل من الفناء والبقاء والصدر والنزول فحاله عين مظهر التجليات فيه حال الجلال حيث ينمحق عنه آثار الخلق وحين إفاقته وعوده منها حال البدر.

وقال: إن الكامل ينزل من الفناء إلى البقاء، ويقال له: الخلق الحقي، ثم قال بطريق اللطف: فاجتهد أنت يا حقي حتى تكون هكذا، ثم تبسم، وقال: إن شاء الله لا يضيع مخلصك الخفي، وفي كونك متقلباً به حكمة ومصلحة.

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب الصلاة على من قتل نفسه غير مستحل لقتلها، حديث رقم (6623) [4/ 19] ورواه الدارقطني في السنن، باب صفة من تجوز الصلاة معه والصلاة عليه، حديث رقم (10) [2/ 57].

وقد كنت قرأت عليه شيئاً من المعارف فأخذ يقرر الأسرار من العصر إلى صلاة المغرب حتى امتلأت القلوب والصدور بالذوق الروحاني والحمد لله تعالى.

قال حضرة الشيخ: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يا إبراهيم، خف مني كما تخاف من السبع الضاري ـ وذلك أن السبع الضاري يفترس من غير تفرقة بين نفاع وضرار، ومن غير مبالاة، والله تعالى إذا قدر شيء وأمضاه في الأزل؛ فإنه يجريه في عالم التدبير من غير مبالاة، ولو على ولي أو نبي، عند تنفيذ قضائه يستوي الكل، ثم تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿أَظُهُورِهِنَّ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ﴾ [الإنسان: 1].

فقال: الحين حينان: أزلي وأبدي فهو لم يكن شيئاً مذكوراً في الحين الأزلي إلا أنه لا ينافي كونه شيئاً غير مذكور، يعني أنه وإن كان مذكوراً إلا أنه كان شيئاً ولذا أرسله الله تعالى إلى حين الأبد ليكون شيئاً مذكوراً.

قال حضرة الشيخ: عبد الله فوق عبد الرحمن، وهو فوق عبد الرحيم، وهو فوق عبد الكريم، ولذا جعل رسول الله ﷺ عبد الله، وكذا عبد الحي وعبد الحق أفضل الأسماء؛ لأن بعض الأسماء الإلهية يدل على الذات، وبعضها على الصفات، وبعضها على الأفعال، والأول أشرف من الثاني، وهو من الثالث.

قال حضرة الشيخ: بعضهم يسكر من الشرب من بيت الخمر، وبعضهم من رائحة الخمر، وفرق بين من يسكر من الخمر عينها، وبين من يسكر من رائحتها؛ فأهل البداية من أهل المكاشفة لم يسكر من الرائحة، وكذا كثير فيهم المدعون.

قال: الأفعال حجب ظلمانية، والصفات نورانية، والمتجاوز عن كلها واصل إلى الذات.

قال: ولا سلامة إلا في علم الصوفية؛ فإنه حق كله، بخلاف ما عداه؛ فإنه مشوب بالصواب والخطأ، وأكثر من ضلَّ من الفرق الضالة فهم أبعد من الحق خصوصاً المعتزلة، وأقرب من الحق هم المتكلمون.

قال حضرة الشيخ: ليس كل من رأى رسول الله ﷺ وكان مخاطباً عرف حقيقة المراد منه، وإنما عرفه الخواص فكيف من بعد من القرون الأولى فجاء في آخر الزمان وأواخر القرون فاستشمامه رائحة الحق، ووصوله إلى السر المطلق بعيد إلا من ساعدته العناية الأزلية.

قال حضرة الشيخ الأكبر: إن حضرة القرآن قد بقي بكراً ومراده بالنسبة إلى علماء الظاهر؛ فإن الذي فهموه من القرآن إنما هو ظاهره ومفهومه الأول وأما علماء الباطن فانتقلوا من المعاني الأول إلى الثواني ثم إلى الثوالث ثُمَّ وثُمَّ إلى أن وصلوا إلى الباطن السبعين، وعلماء الرسوم يحتاجون إلى ترتيب المقدمات فعلمهم تفكري، وعلماء الحقيقة لا احتياج لهم إليه فعلمهم تذكري، ثم مثَّل مثالاً بأن الطالب للماء، فإما أن يصل إلى الماء أو لا، فإن وصل فإما أن يكون ذلك الماء مالحاً أو عذباً، فعلى تقدير كونه عذباً فليس كالمطر بلا أسباب؛ فإنه طيب خالص فالأنبياء والأولياء ملهمون من عند الله تعالى ولا خطأ في الوحي والإلهام، ولذا نقول: إن علم التصوف هو العلم الصواب الحق كله ثم وصَّى بخلوص المحل وألا يكون العبد أجيراً بل عبداً محضاً كما قال تعالى ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ٱلصُّدُورِ نَسُوا﴾ [الشعراء: 109] فالعبد الحق لا يرجو الأجر من عمله ولا يترقبه، بل من ربه، والأجير يرجوه من عمله ولو علم الأجير أنه لا يعطي لترك العمل ولو علم العبد ذلك لا يترك فهو من الخدمة والعبودية سواء أعطي أو منع.

قال: ومن السالكين من يأخذه الله في أوائل عمره، وبعضهم يجذبه في أواسطه، قلت لحضرة الشيخ: ذهب العلماء إلى صدور بعض السهو عن النبي عليه السلام كما نقل تلك الغرانيق الأولى، وأن شفاعتهن لترتجى ونحو ذلك، فقال: يفعل الله بهم ما يفعل ﴿يُبْدُونَ لَيَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا﴾ [الأنبياء: 23]، ولم يقع سهو منه عليه السلام في الحقيقة، وكونه سهواً بالنظر إلى أرباب النظر لا يستدعي كونه سهواً بالنظر إلى أصحاب الأعيان.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي في داره العالية، وكنت مفطراً بعذر الضيافة فجاء بعض المسافرين، ووضع كوز الماء في جنبي، فثقل ذلك علي، وأحسَّ الشيخ منه كوني مفطراً، ثم لما حضر الطعام بعد المغرب وجلست جنب حضرة الشيخ على الوجه المعتاد، قال في أثناء الطعام مخاطباً لهذا الفقير: كُلْ من الطعام على نية الصوم، والصلاة، وإحياء الليلة فعرفت أن فيه تأديباً لي وتنبيهاً لطيفاً.

قال المولى الجامي: [. . . .][1].

قال الشيخ: الآخرة قلب الدنيا فالبصيرة الباطنة ظاهرة، وسألت عن قولهم في

(1) بياض في الأصل.

قوله تعالى﴿الْبُيُوتَ مِنْ﴾ [الأعراف: 143] أي: ببشريتك ووجودك؛ فقال: إن البشرية تنافي الرؤية، وموسى عليه السلام سأل الرؤية بالنظر إلى ظاهر البشرية والوجود وهي لا يمكن أبداً بل لو تعلقت الرؤية بذات الله تعالى لتعلقت حالة الفناء في الله، واضمحلال الوجود والبشرية.

فقلت: يرد عليه ما وقع ليلة المعراج؛ فقال: إن حبيب الله عليه السلام رأى ربه في تلك الليلة بالسر والروح في صورة الجسم هناك؛ لأنه تجاوز في سيره من عالم الأجسام كلها بل من عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر، فقلت: يرد أن الأنبياء والأولياء مشتركون في الرؤية بالبصيرة حالة الفناء فلا فرق إذاً بين موسى عليه السلام ومحمد عليه السلام فأي فائدة في قوله تعالى﴿الْبُيُوتَ مِنْ﴾ [الأعراف: 143].

وأيضاً في عروجه عليه السلام إلى ما فوق العرش؛ فإن تلك الرؤية تحصل في مقام العينية والقلبية لا في الغيرية والقالبية؛ فقال: إن أمر الرؤية وإن كان محتاجاً إلى الانسلاخ التام عن الأكوان مطلقاً إلا أن الانسلاخ بالقلب والقالب مختص بنبينا عليه السلام؛ لأن موسى عليه السلام لو رأى ربه بالانسلاخ رأى وقالبه في عالم العناصر، وأمَّا محمد عليه السلام فقد تجاوز بالقلب والقالب عن عالم العناصر، ثم من عالم الطبيعة فأنى تكون هذه الخيرة، وفي هذا المقام تحقيق آخر جرى بيني وبين حضرة الشيخ، وذلك أن حضرة الهدائي ـ قُدِّس سرُّه ـ قال في مجلسه الشريف: استدل المعتزلة على مذهبهم بما ورد في الصحيحين عن أبي موسى: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[1].

قالوا: إن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا يمكن الرؤية، ولكنهم حجبوا من أن المرتدي لا يحتجب عن الحجاب إذ المراد بالوجه الذات، وبرداء الكبرياء هو العبد الكامل المخلوق على الصورة الجامعة للخلائق الإمكانية والإلهية والرداء هو الكبرياء وإضافته للبيان والكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله فافهم انتهى كلام الهدائي في نفائس المجالس.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم. . ، حديث رقم (180) [1/ 163] ورواه الترمذي في السنن، باب ما جاء في صفة غرف الجنة، حديث رقم (2528) [4/ 673] ورواه غيرهما.

وحله على ما تلقفت من حضرة الشيخ أن قوله: ولكنهم حجبوا من أن المرتدي يحتجب عن الحجاب معناه أن المرآة لا تكون حجاباً للناظر، كما أن اللباس كذلك بالنسبة إلى البدن نفسه إذ لا واسطة بينهما، فالرداء من المرتدي بمنزلة المرآة من الناظر، وكذا المرتدي من الرداء بمنزلة الناظر من المرآة، إذا المراد بالوجه الذات بطريق إطلاق اسم الجزء على الكل كما في علي ـ كرّم الله وجهه ـ ونحوه فالمرتدي هو الذات لا يحتجب عن حجابه عن الغير كالقناع للعروس، فإنه كشف بالإضافة إليها إذ لا حائل في البين وحجاب بالنسبة إلى غيرها لكونه مانعاً عن رؤية وجهها وبرداء الكبرياء هو العبد، وهي الحقيقة المحمدية التي هي حقيقة الحقائق، ولكل موجود حصة من تلك الحقيقة بقدر قابليته لكنها في نفسها حقيقة واحدة إذ الواحد لا يصد عنه إلا واحد، وهي الوجود العام الشامل والهوية السارية في جميع الموجودات كالحيوان الناطق؛ فإنه معنى واحد عام شامل لجميع أفراد الإنسان، وكثرته بالنسبة إلى الأفراد لا تنافي وحدته الحقيقية وبالاستثناء في قوله عليه السلام:

«**وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه**»[1] صورة إنتاج تفيض المقدم على تقدير استثناء نقيض التالي؛ فمعناه إلا رداء: الكبرياء إن كان ذلك حجاباً لكنه ليس بحجاب فما بينهم وبين النظر حجاب أصلاً أي: لا حقيقة كل منهم التي تجلى الذات فيها بحسب صفاء مرآتها ومعرفتها وتلك حقيقة ليست بحجاب بين القوم وبين الذات الأحدية إذ ما وراء تلك الحقيقة مع قطع النظر عن التجلي فيها وكونها مرآة له إطلاق صرف لا يتعلق به رؤية راء أيّاً كان فكل ناظر ينكشف له جمال الذات من حقيقة ينظر إليه من تلك الحقيقة وهي ليست بحجاب للنظر ولا للذات إذ هي كالمرآة للناظر فالنظر الظاهري قيد تام، وما وراء تلك الحقيقة من الذات إطلاق بحت فلا مناسبة بينهما بوجه من الوجوه، وتلك الحقيقة بين التقييد والإطلاق برزخ جامع لها كما قال عليه السلام:

«**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[2] فالعارف إذا لم يتعلق عرفانه بنفسه الكلية وحقيقته الجامعة لا يتأتى منه عرفان ربه؛ لأن ربه مطلق عن القيود والنسب، والإضافات، وهو بهذا الاعتبار لا تتعلق به المعرفة.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

وأمَّا نفسه المتجلي فيها الرب بحقائق أسمائه فيتعلق بها تلك الرؤية من حيثية التجلي، فيكون حقيقة نفسه ومعرفتها مرآة ربه ومعرفته هذا، وإنما غلط من غلط بقياس الغائب على الشاهد، وهو ممنوع باطل إذ فرق بين الملك والملكوت، وكذا بين الملكوت والجبروت واللاهوت والكبرياء رداؤه الذي يلهمه عقول العلماء بالله أي للتفهيم لا لمعنى آخر، فلا رداء هناك حقيقةً، والعجب أن مثل هذا الإطلاق التشبيهي كثير في القرآن والحديث، وقد فهمه العرب بسليقتهم ولم يترددوا في ذلك أصلاً، ثم إن أهل الاعتزال قالوا لعمى بصيرتهم وسوء فهمهم ما قالوا، فأولئك هم المحرومون من الجمال الحقيقي إلا أنهم في مرية من لقاء ربهم.

الزيارة الرابعة

الزيارة في شوّال من سنة تسع وتسعين لما دخلت السفينة من قصبة «مدانية» غلبني القيء، فعرفت أن زيارة حضرة الشيخ كما أنها سبب لزوال الأمراض الباطنة، كذلك سبب لزوال الأمراض الظاهرة؛ لأنه يحصل لي من قيء الصفراء المجتمعة على خفة بدن واعتدال مزاج.

ولما دخلت على حضرة الشيخ وذلك وقت تهيئته للجمعة قبيل الزوال عامل معاملة جميلة وذهبت معه إلى جامع السلطان سليم، فلما خلع نعليه عند باب الجامع أخذهما بيديه ورفعهما ووضعهما تحت الكرسي، وذلك من دأبه في أكثر الأيام فأشار به إلى أمور.

الأول: أنه فعل ذلك توصفاً كما فعل مثل هذا رسول الله ﷺ على ما هو اللائق بخلقه العظيم.

والثاني: إرشاد في رفع الكبر.

الثالث: تربية لمن خلفه من الصوفية فكان ذلك صورة غضب لما أن بعضهم تحادثوا خلفه ولم يك ذلك من الآداب، ولما جلس مجلس الوعظ قال عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الأنفال: 15]: إن المراد هو الإيمان المطلق سواء كان رسمياً بيانياً أو شهودياً عيانياً.

فالأول: إيمان أهل الشريعة.

والثاني: إيمان أهل الحقيقة، وكلاهما معتبر مقبول يمنع صاحبه عن المهالك.

وقال أيضاً: القيام الصلاتي إشارة إلى التقدير الأزلي، وهو التفويض والركوع إشارة إلى التدبير الأبدي، وهو التسليم والسجدة إشارة إلى الفناء الكلي عنهما إذ كما لا بد من التخلق بمثل هذه الصفات لا بد من الفناء عنها.

دعاني حضرة الشيخ يوم السبت قبل الظهر إلى بيته الفوقاني، فسأل عن أحوالي فأظهرت الشكاية عن ضعف البدن وبعض الموانع الصورية؛ فقال: إن هذا

حكم الوقت، والشيء إذا ثبت ثبت بلوازمه، وكل ذلك من لوازم ذلك.

ثم قال: اجتهد في طريق الحق حق الاجتهاد، وقُلْ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33].

وكُنْ يوسف ثانياً؛ فإن تفرقك سبب لانتظامك وجمعيتك، وما دبَّر الله لك من الاضطراب فيعود إن شاء الله إلى السكون ويكون عاقبتك خيراً.

عرضت على حضرة الشيخ بعد طعام العشاء قدومه الشريف إلى مدينة بروسة؛ فقال: لا، والنفس، وإن كانت تأمل ذلك وتحتظ منه إلا أنه ليس من حظ الروح وإلى الآن لا يقدم لي إلا الإقامة في داري وقد حصل لي ملال من الخروج؛ فقلت: أحبابكم منتظرون، فتبسم، وقال: من الأحباب فاتهم؛ لأنه واحد لا اعتبار لهم، ثم قرأ قول حضرة الهدائي في بعض الإلهيات التركية [...][1] فقلت: كلامهم حق، فإن أهالي بروسة وإن كانوا على محبة في الظاهر لكن ليس في هذا الزمان قابل الألفة والاختلاط، فقال: منتقلاً إلى أسلوب آخر: لا نرجو الألفة والأنس من الخارج؛ فإنها لا تغني شيئاً بل تضمحل جميعاً، واجتهد أن تجد ذلك في نفسك؛ فإن من وجد ذاته واستأنس به لم يبق له حاجة إلى الخارج أصلاً بل يفنى عن السموات والأرض وما فيها ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «**إن الله اتخذني خليلاً**»[2] وهو في الحقيقة اتخاذ ذاته في ذاته خليلاً ووجد أن ذلك الحضور في باطنه.

سأل حضرة الشيخ عن الأولاد، وقال: لِمَ لَمْ تجيء بولدك إسحاق؟

فقلت: إن والدته تمنعني من ذلك لصغره ولأنها لها علاقة به، ولقد كان لي علاقة بابنة لي، وكان يخطر ببالي إلى أن رأيت الانكسار من كل وجه، ووجدت كل ألم في الدنيا غير ألم موت الأولاد وانكساره، فماتت تلك البنت أيام هذه الخاطرة، فوجدت منه ما وجدت، فقال: تلك الخاطرة كانت من الرحمن؛ فإنه يحرك القلب ويفيض إليه أشياء، ويصدقه بعد ذلك وله الحكم في كل أمر.

(1) بياض في الأصل.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر إبراهيم النبي ﷺ...، حديث رقم (4018) [2/ 559] ورواه ابن ماجة في السنن، فضل العباس بن عبد المطلب رضي اللَّه عنه، حديث رقم (141) [1/ 50] ورواه غيرهما.

قال حضرة الشيخ: الطريق الأسلم هو أن تحسن الظن إلى كل أحد، فإن كنت صادقاً فهو صادق، وإن كان كاذباً فقد نجوت أيضاً وهلك هو.

قال حضرة الشيخ: الوصول في هذه الطريق لا يحصل إلا بالإخلاص ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾ [الزمر: 3]، قال: ابن الوقت لا بدَّ له أن يلازم وقته ولا ينظر إلى ما بين يديه وما خلفه، والسالك وإن كان يلاحظ التحرز عن كل شيء ولكن لا بد له من وقت في المستقبل فما دام لم يجيء وأنه لا يتخلص عن الاضطراب فالاضطراب واقع، ولكن السكون مرهون بوقته لا يحصل قبله وإن قاسى كل شدة فإذا كان بالوقت فله التصرف في كل شيء والزمان تابع له حينئذٍ، وشكوت عن تعنت أهل البيت، فقال: إن الله يحملك على الصبر، والتحمل، فإذا تزكي نفسك عن الرذائل، واتصفت بالفضائل ترتفع الموانع مطلقاً.

سألت حضرة الشيخ أحوال أولاد المشايخ الكرام وأحفادهم حيث إنهم يقولون: إنَّا أولاد فلان العزيز فهل لهم فائدة في الافتخار بمجرد كونهم ذوي القربى من غير أن أحسابهم كأنسابهم؟ فقال: أما تعرف قوله تعالى في حق كنعان بن نوح: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ﴾ [هود: 46].

وفي المثنوي في حقه: [. . . .][1].

قلت لحضرة الشيخ: هل يكون خليفتان في محل واحد؟

قال: ليس هذا من دأب السلف؛ لأنه كنفخ روحين في جسد واحد.

أقول: هذا إذا كان الخليفتان لشيخ واحد، وإذا كانا لشيخين فلا بأس.

قلت لحضرة الشيخ: يجب الهجرة في رأس المائتين؛ لأنه يقرب فناء العالم حينئذٍ.

قال: الأصح أنها في رأس المائة الثالثة بعد الألف.

وقال: إن أمر الدنيا كالبدر وكالهلال من آدم إلى نبينا ﷺ ثم امتلأ الهلال فصار بدراً، ثم عاد إلى مرتبة الهلالية قليلاً قليلاً، ولهذا ترى العالم على الاضطراب والفناء والزوال.

وأظهر حضرة الشيخ وجع السنّ والنزلة؛ فقال: إن الله ابتلاني به منذ ثلاثين سنة، وذلك من تجلي الجلال.

(1) بياض في الأصل.

فقلت: إن حضرة الشيخ الشهير باقتادة ـ قُدِّس سرُّه ـ ابتلي بوجع الكعب إلى آخر العمر، فقال: إن الله تعالى مرة يتجلى بالجمال، وأخرى بالجلال، وكلٌّ من بديع صنعه محبوب بكل وجه.

قال حضرة الشيخ: الكامل لا يخرج عن حكم الطبيعة والقلب والروح كسائر الناس لكن لا تلذذ بالنسبة إليه، ولا تألم بل هو مجرد عن القيود مستقر في مقام السر المحيط بالكل، قال: أول الأمر تجريد وآخره تجريد بل تفريد، ولا تخلق شيء أصلاً إلا أن يكون أهل برزخ وحجاب فيعلق.

قلت لحضرة الشيخ: أريدأن أقرأ عليكم «مفتاح الغيب» للصدر القونوي ـ قُدِّس سرُّه ـ فقال: لا حاجة فإنه للتشريف، وقد أعطاك الله الفهم والذوق فعليك بمطالعته.

قلت لحضرة الشيخ: إن الجلوتية في بروسة خلطوا الدور والرقص بطريقتهم فغيروها عن أصلها، فهل يكون دور الصوفية في هذا الزمان ورقصهم توحيداً على الصفة التي كانوا عليها؟ فقال: لا فإن من لا أهلية له للدور مثل المرد وأهل الهوى كيف يكون فعلهم توحيداً؟ وقد خلطوا الهوى بالهوى فاسد منه الحال.

أقول: كان حضرة الشيخ يرى الدور، ولكن ينكره في هذا الزمان، ويقول: قلَّ الأهل من القوال، وأهل التوحيد. ولذا ترك الكل في أواخر عمره، فلم يلتفت لا إلى الأقوال، ولا إلى عقد مجلس الذكر والتوحيد.

قال حضرة الشيخ: إن التمكن والسكون بعد اليقظة والوصول، فأهل الغفلة والدعوى يضربون الحديد البارد وتلذذهم مشوب بحكم الطبيعة والنفس، وهو حرام ولا اعتبار للعلم والعرفان التالي بل للحالي، وتقليد أهل الحقيقة في حكم الطبيعة مقبول؛ لأنه لدين مستحسن مجرد عن الحظوظ بخلاف تقليد أهل الطبيعة في حكم الحقيقة، فإنه مردود؛ لأنه تلوين مستقبح مشوب بالحظوظ، والتلوين غير جائز.

قال حضرة الشيخ: من كان متوجهاً إلى الله فالإمامة والخطابة ونحوها قيد له مانع عن توجهه، ومن استأنس بالحق تعالى لم يحتج إلى الاستئناس بالخلق؛ فالواعظ المعرض عن الحق يطلب كثرة الخلق في مجلس الوعظ، وكذا المدرس في حلقة درسه وكذا غيرهما، وأمَّا المقبل إلى الحق فليس له حاجة إلى الخلق أصلاً سواء قبلوا أو لم يقبلوا.

أعاد حضرة الشيخ وجع سنه، وقال: إن الله تعالى حفظني عن الأمراض مطلقاً إلا وجع السن فابتلاني؛ لأن به وفيه حكمة بالغة له فانظر من أين يجيء هذا الوجع؟ وكيف يجيء؟ وكيف ظهوره في أسنان الإنسان؟ فقد أسهرني ثلاث ليالٍ بحيث ما نمت قط إلى الصباح.

قال حضرة الشيخ: في حق خليفة الشيخ حسين الفرائضي: وقد كان هاجر مع أهل بيته وقت استيلاء الكفار على [البلاد الرومية] فاستخلفه في قصب إزميدان الآن في علم المجاهدة وحكمة التجلي بالقبض، فإذا جاء وقت البسط يبسط الله بحيث يسخر الروح، والنفس إذا كانت مغصوبة بقي فيها أثر غصب لا يخلوها عن انقباض، وإذا كانت مرحومة يتوسع رزقها من الاسم الرحمن.

قال حضرة الشيخ في وعظه عند قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ﴾ [المائدة: 11]: لما أن الله تعالى كف شر الأعداء عند همتهم على الأنبياء، كذلك كف عن الأولياء فلكل ولي حصة من هذه الآية، وهو داخل في حكمها.

أقول: قرر حضرة الشيخ المقام بحيث أنفسهم منه أن ظلمة الزمان لا يقدح دون أن يهموا إليه بالقتل وكان كذلك؛ فإن الله عصمه من كيد الأعداء إلى آخر عمره مع زيادة جسارته على الكلام الحق من غير تفرقة بين وزير وسلطان وقاضٍ وأعيان، ولذا كان يمدحه بعض الوزراء في خلواتهم بالشجاعة.

فإن قلت: كيف عصمه الله، وقد نُفِيَ في آخر عمره ومات منفياً؟

قلت: حفظُ البدنِ كافٍ في العصمة، وقد اضطر النبي ﷺ إلى الهجرة مع العصمة والورثة كالرسل في أكثر الأحوال.

قال حضرة الشيخ بعد الطعام والدعاء ليلة الجمعة: مرضت مرة في سالف أيامي فرأيت كأن الروح تخرج من الجسد، فكان هو في محل والجسد في محل، ورأيت أن العلاقات جميعاً انقطعت عني وأن القوانين والعلوم الرسمية، فارقتني فلم يبق في دائرة الوجود شيء يشار إليه، وهكذا يكون وقت الاحتضار؛ فإن الرسوم تفنى وقتئذٍ بالكلية، وما يقال: حسن الخاتمة وسوء الخاتمة؛ فهو إشارة إلى الأُنس والوحشة عن الله فلا بدَّ من التجرد عما سوى الله بالكلية، وهو ما كان غير الذات مطلقاً سواء كان من التعينات الإلهية والكونية، فإن التعينات الإلهية يقال لها أيضاً ما

سوى ولو بالنسبة فكل ما يطلق عليه ذلك قيد في نفس الأمر، ويظهر كونه قيداً ولو بعد حين.

قال: وأنا نرى أكثر أهل الطريق في هذا الزمان ممكورين بحسب الأتباع والكراسي والوظائف والخانقاهات، ولم يتخلص إلا الذين جازوا الأوهام إلى العلوم، ومن المعلوم إلى العرفان، ومن العرفان إلى العيان، ومن العيان إلى العين، ومن العين إلى الحق؛ فما دام لم يصل السالك إلى الحق اليقين فهو ناقص، وإن كان كاملاً بالإضافة إلى غيره، والكامل والأكمل الذاتي هو أهل الهناء والبقاء فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون فتح العلم والعرفان الغير الحالي ثم تبسم، وقال قول الهدائي في بعض إلهياته [. . . .][1].

وقال: فأنت يا إسماعيل حقي تسمي نفسك سمي الذبيح، فهل كنت كذلك؟ ثم تبسم، وقال: تكون كذلك إن شاء الله تعالى.

قرأ حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ يَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ﴾ [المائدة: 54] ثم قال: انظر كيف ذكر الله الموصوف وهو القوم فوصفه بالمحبة المطلقة وبغيرها من الأوصاف الجميلة وتخصيصها يستدعي أن أهل الحق هو من اتصف بها وخلافه من تخطاها.

ذكر حضرة الشيخ كرامات بعض الأولياء حتى قال: يحكى أنه في مرقد إبراهيم بن أدهم ـ قُدِّس سرُّه ـ ثقبة يخرج منها نحل، ويدخل غيره، فإذا أراد بعض ظلمة البلدة بسوء يتسلط ذلك النحل عليه إلى أن يتوب ويرجع عمَّا كان نوى، وضع الله عجيب.

قال حضرة الشيخ: بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ مَطْلُفِرِكُمْ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [الحج: 5]: إن السالك إذا وصل إلى الحق لا يبقى له سوى الحق ويصير علمه جهلاً فيضمحل عنه اعتبار ما سوى الله تعالى وهو أرذل العمر في الحقيقة، فما دام لم يفن السالك عن القيود والاعتبارات، فهو ليس بهالك ولا يرى له كل شيء هالك، ثم قرأ قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [. . . . . .][2].

﴿بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [القصص: 88].

(1) بياض في الأصل.

(2) بياض في الأصل.

قال: المراد بالملك ملك الذات وملك الوصلة؛ فإنه لا يقدر أحد خذه عن يد صاحبه، ثم قرأ قوله أيضاً [. . . . .][1].

وذكر حضرة الشيخ وفاة أبيه وحاله عند الاحتضار؛ فقال: بلغ إليّ حيث لم يحس من نفسه أصلاً، وكانت والدتي تقطر في فيه بقطن مبلول ففتح والدي عينيه، وقال: يكفي يكفي مرتين؛ فإن الأنفاس قد نفدت، ثم قال: يا الله، وقبض تلك الساعة، قال: في الوجود الإنساني بذل خفي من الشهوات يظهر الشيطان عند الاحتضار وَيُمَنِّيْه نعوذ بالله من ذلك إلا أن يكون قد قطع عرق كل هوى وشهوة فلم يبق له تمنٍ أصلاً.

قال حضرة الشيخ: جاءني بائع من مدينة إزمير يحكي أنه وقع فيها في هذه السنة زلزلة عظيمة وإحراق كثير، وانهدام الأبنية بحيث بقى الخمس منها تحتها عشرون ألفاً من الرجال والنساء، قال: هذا من آثار قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلَ مِّنۢ بَعۡدِهِم ٱبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا صُدُورِكُمۡ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ﴾ [الإسراء: 58]، والقهر الإلهي لا بد منه إذا قدر مضيه ونفاذه، وأهل التسليم لا يرون إلا القضاء والقدر.

وقال حضرة الشيخ: أحب لجميع الناس ما أحب لنفسي حتى إني أرضى لنفسي ولم ينبغِ من الأهل والعيال الجوع والفقر، ولا أرضى لسائر الناس، فقد امتلأ بهذا المعنى صدري، ولا أقول إلا حقّاً.

قال حضرة الشيخ: ففوض أمرك يا بُنيّ إلى الله تعالى لكن على حقيقة الإسلام والإيمان لا على مجرد العلم والعرفان؛ فإن الشيطان قادر على أن يفسر القرآن سبعين مرة مع أنه لا يغني عنه ذلك شيء ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19] عَيَّن حضرة الشيخ خليفة هو عثمان الجانيقي للقصبة التي يقال لها ـ بكى شهر ـ في نواحي بروسة، وقال لي بطريق المزاح: اذهب به إلى بروسة، وطهره تطهيراً، وقد فوضت أمره إليك فاكسر أنف نفسه بالتربية.

قال حضرة الشيخ لبعض خدامه من الصوفية: قد يجيء إلى هنا بطريق الزيارة، بعض الناس المتعممين بالسواد، فلا تردوهم على أعقابهم خائبين، وكانوا كالبحر في التحمل ولا يضرنا مجيئهم.

(1) بياض في الأصل.

أقول: وجه هذا أن بعض المتعممين بالأسود ممن له شهرة كاذبة كان يجيء حضرة الشيخ أحياناً فدفعه بعض الصوفية مرة أو مرتين فشكا هو إلى الشيخ من معاملة الخدام فقال ذلك.

قال حضرة الشيخ: حادث كل شخص مبني على قديم فلا انقباض أصلاً، فال: الكامل من الإنسان يحيط بجميع المراتب فتارة يدخل في الظلمات وتارة يخرج إلى النور مع أنه لا يتقيد بشيء من ذلك أصلاً.

مثلاً: ينزل إلى مرتبة الطبيعة والنفس، وهي ظلمة ويترقى إلى مرتبة القلب والروح، وهي نور مع أنه مطلق من الكل؛ لأن الله تعالى مطلق بالإطلاق الذاتي الحقيقي فلو تجلى على هذا الإطلاق لم يظهر وجود بل هو يتجلى على حسب حال المتجلى له.

وقال: الكامل لو لم يدخل في مراتب أهل القيود بل جلس في مرتبة الإطلاق لم يظهر تربية وتكميل أصلاً.

وقال: لو أن الله تعالى أدخل الليل في النهار، فجعل كل زمان نهاراً وكذا لو أدخل النهار في الليل فجعل كل وقت ليلاً لم يحصل للإنسان الكامل تلذذ ولا تكدر أصلاً؛ فإنه مطلق عن الكل قاعد في مقام التسليم.

قال حضرة الشيخ: قوله: ﴿ يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 72] إن جعل التنوين للعوض يكون المعنى: ورضاء العبد من الله تعالى أكبر.

* * *

الزيارة الخامسة

سببها أن حضرة الشيخ دعاني على العجلة إلى جنابه، وذلك في أوائل جمادى الآخرة لسنة مائة وألف؛ فلما قدمت وجدته قد ذهب إلى جامع السلطان سليم للوعظ والتذكير فوقفت عند الباب حتى جاء؛ فقبَّلت يده التي هي يمين الله، ثم صلَّى العصر وسألني عن الشيخ إبراهيم خليفة في قصبة بوداينه، فقلت: إنه مات مقتولاً في محاربة حسين باشا مع كدك باشا في الجبل الذي وراء بروسة، فأشار بيده إلى أن كونه مقتولاً قد كنت رأيت على اللوح الأزلي، ثم قال: قد حملني على دعوتك الاشتياق إليك، ولكن إنما أحبك حقيقة إن كسرت صنمك ثم كسر الله صنمك ثم تبسم، وقال: هلا تدعوني بهذا الدعاء أيضاً، قرأ قوله تعالى: ﴿ لَا يُبْدُونَلَكَ يَقُولُونَ لَوۡ﴾ [إبراهيم: 35].

قال حضرة الشيخ: لا ينبغي في ديارنا أكل السخلة[1] قبل إدراك الموسم الذي يقال له: روز خضر؛ لأن لها مع أمها علاقة كلية فذبحها قبل وقتها قبيح.

وسئل عن حضرة الشيخ هل يحل أكل حرام يتبدل وصفه؟

قال: إن تبدل الوصف وإن كان في تبدل العين في الفتوى، فإذاً يحل أكله لكن عند التقوى خبيث؛ لأن تبدل الخبيث خبيث.

وسُئل أيضاً: إن التكاليف السلطانية التي يأخذونها من الناس هل تقع موقع الزكاة إذا نواها أصحابها؟ قال: إن كان بطريق الكره والغصب كما في زماننا يصرفون إلى من ليس بمستحق له.

قال حضرة الشيخ: هل لك علاقة من بروسة أم أنت بائن منها؟

قلت: أسعى في البينون والفراق عن كل شيء سوى الله تعالى، قال: كن هكذا ولتكن علاقتك صورية بحسب الاقتضاء.

قرأ حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿أَبْوَابِهَا صِرَاطٍ وَلَهُۥ ثُمَّ أَنزَلَ﴾ [النحل: 112] ونرجو منه تعالى أن ينزعه، ويلبس لباس الأمر.

---

(1) السَّخلة: ولد الشاة من المَعَز وذكراً كان أو أنثى.

shaziliaassemia.com

أقول: وجهه، وقع القحط في القسطنطينية سنين ثم رفعه الله، ووقع استيلاء الكفار على البلاد الرومية فلم يندفع إلى هذا الجمع.

قال حضرة الشيخ: أنا راضٍ عنك أشد الرضا منذ قدمت إلى بلدة بروسة؛ لأنك اخترت طريق الفقر وتركت الترفه والتنعم، وطريقتنا هذه ليست طريقة الزينة والشهرة والعيش والعشرة؛ فإن بقيت على هذه الحالة فسترى ما ترى.

أقول: لما أراد الشيخ أن يستخلفني في بلد الإسكوب من الديار الرومية، وهي بلدة كبيرة كما سبق، دعاني ودعا لي ووصى لي بوصايا غريبة حتى تلا قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 3] فقال: أنا أوصيك بالحق والصبر كما أوصى بها السلف، ولا أَقول لك: اذهب إلى الإسكوب واطلب المعاش، واتخذ الضيعة والحديقة والرحى، وابنِ خانقاها، وأكثر الأتباع، وكن إماماً أو خطيباً أو نحوهما؛ فإنه ليس بطريق الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ بل أقول لك: كُنْ على الحق واصبر كما صبروا واظفر كما ظفروا؛ فإن انسدت طرق المعاش فاخدم للناس بالأجرة قدر ما يندفع به الضرر، وكن مستغنياً عما في أيدي الناس، وعليك بالإبكار في كل مادة، فإن وسع الله عليك الدنيا فالبس من الحلال ما شئت بعد أن كان لباس الطريقة التجريد، واجعل زينتك لباس التقوى، وإني أرجو منك خدمة في باب الدين عظيمة.

ولما قدمت بلدة الإسكوب ساق الله إليَّ أرزاقاً كثيرة من حيث لا احتسب، وكنت وقتئذٍ ابن ثلاث وعشرين فأخذت ألبس لباس الرخصة على ما رخص لي حضرة الشيخ بمقتضى الحداثة والشبيبة، وصبوة الشبيبة، واستمرَّ ذلك عشر سنين إلى أن زرت حضرة شيخي في بلدة أدرنه، وعليَّ ثياب جُدد وألبسة فاخرة، فأراني يوماً شرحه على مفتاح الغيب للقونوي، وقال: طالع هذا إلى آخره؛ فانكشف لي أثناء المطالعة بعض المعاني الغيبية، وأخذني مرض مجهول، فكنت لا أقدر على الحركة أياماً، وأراني الله وقتئذٍ رؤيا غريبة متعلقة بسر الخلافة، فكتبتها كتابة غريبة على ورقة، وعرضتها على حضرة من بيده بعد الخلفاء إذ كنت في بيت آخر بسبب المرض، فاستحسنها غاية الاستحسان، وتعجب من حسن الاستعداد، ومدحني عند الحاضرين لطفاً وكرماً، وقال: ما شغلته بها عن الله إلا أنه له حب الزينة الآن، فبلغني ذلك؛ فقلت: قد كان أجاز لي قبل عشر سنين من لباس الرخصة، فأخذت

بقوله، فإن هو أمر بالترك ولم يرض بالزينة، فأنا عامل بإشارته قائل بوصيته، فنويت إن عافاني الله من مرضي أن أستبدل بما علي الذي هو خير منه، فلما شفاني الله وعدت إلى مهاجري ومراعي قصبة «استرومجة» خلعت ما علي كله، واخترت العباء ثم لما هاجرت إلى مدينة «بروسة» ووقعت الزيارة القبرصية كما سبق.

قال حضرة الشيخ: لا يخرج من هذه العباء على آخر العمر، وكان عليَّ عباء أسود أكساني بالكسوة البالية، وتحت عبائتي همم عالية، وإن ثيابي صوف من المثال، وهمته كالدر الغالية.

ونقل حضرة الشيخ حسد الأعداء له حين كان بمدينة (فلبه) حتى اجتمعوا له مراراً فلم يغن ذلك منهم شيء، ثم بين ما أضره من الفقر مع مجيء النقود والهدايا من الأطراف وأنه لم يقبل من الدنيا غير عباءة بالية.

قال حضرة الشيخ: ترك أبناء الزمان خصوصاً منهم المشايخ العمل بالكتاب والسُنَّة وجعلوا قراءة الإلهي بدلاً من تلاوة القرآن وإلى الأمر على أن كل شاعر أخدان ينشيء إلهيّاً، فاقتضى الحال أن نترك السنن التي كانت شعاراً لأهل البدعة والهوى والعرف والعادة، قال: ولذا تركت الرسوم.

قال حضرة الشيخ: الفرق بين الولي وغيره هو أن الولي كالمتيقظ الذي يحفظ متاعه من السارق كذا أهل الغفلة.

قال حضرة الشيخ: الإنسان الكامل كالبحر فمن أذاه واغتابه أو قصد إليه بسوء فإنه تحمله، ولا يكون مراعاة خاطره مغيراً منه، ألا ترى أن البول إذا وقع في البحر فالبحر لا يتنجس منه، وكذا من أجنب إذا دخل واغتسل فيه؛ فإنه يطهر ولا يتغير البحر فهو على حاله في الطهارة.

قال: قد شابت لحيتنا فلا يليق بنا أن نتألم من شيء أصلاً، قال: ليكن مطمح نظرك الحشر؛ فإنك ترجع إليه ثم ليكن الصراط لأنك تعبر عنه، ثم ليكن الجنة لأنك تدخلها، ثم ليكن الكثيب الذي يكون عنده الزيارة الكبرى فهو الغاية ثم اجتهد أن تكون في دائرة الفناء التام فإن المقصود هو المعية مع الله لا بالجنة وغيرها.

قال: من أخذ السلوك يكون غريباً في العالم كما قال عليه السلام:

«كنت يتيماً في الصغر، وغريباً في الكبر فطوبى للغرباء»[1].

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وقد انتخب النبي عليه السلام الخلفاء الأربعة، ثم انتخب منهم الوزيرين، ثم أعرض عن الكل؛ لأن الله تعالى اتخذه خليلاً فلم يبق إلا الله.

قلت لحضرة الشيخ: أنا قد رأيتكم لكن رؤية اعتقاد، لا رؤية عمل وحال، قال: هذه الرؤية باب لرؤية العمل والحال والمقام؛ فإن العمدة هي الاعتقاد التام، فإذا حصل للمرء فقد وصل.

قلت: أنا لا أطلب الاستقلال في الدنيا والآخرة، ويكفي لي شرفاً أن أكون تحت لوائكم، قال: إن الاستقلال مخصوص بالله تعالى، والشرف في الاتباع، وزمان بدايتي أشتغل به الآن، وأنا الآن كما كنت في خدمته قبل، قال: الاعتقاد أمر عظيم حتى إِن المرء يعرف الله ولا يعرف البشر، ومن سبَّ الله تعالى ربما تقبل توبته ولا يقبل توبة من سبَّ النبيَّ عليه السلام، والله تعالى يعرف بوساطة دلالة الأنبياء والأولياء، وحقيقتهم لا تعرف إلا بعد الوصول إلى الله، ثم قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ناظر إلى الصورة والظاهر، وأمَّا في الحقيقة فمن عرف ربه عرف نفسه إذ لا يعرف النفس إلا بعد معرفة الله.

قال: إن الله إنما ستر الأولياء وحجبهم عن أبصار الخلق رحمة منه لهم، إذ لو عرفوهم لوجب عليهم الاعتقاد والإقرار والاتباع بهم، وعلى تقدير عدم القبول يلزم الهلاك ففي كونهم محجوبين عنهم رحمة لهم.

قال حضرة الشيخ: هل لك حضور في بروسة وأُنس بأهلها؟

قلت: كان في اعتقادي أن أموت فيها، ولا يقع هجرة أخرى، وقد أذنتم في المهاجرة إلى المدينة أو مكة ـ شرفها الله تعالى ـ قال: ليكن القسطنطينية وبروسة وغيرها للخلائق، واجتهد ألا يكون لك أُنس بغير الله، وليكن نظرك إلى هنا، وأشار إلى صدره المنشرح؛ فإن ألهمك الله الإقامة فأقم وإلا فهاجر؛ فإن العمل في الطريقة بالإلهام والاستخارة لا بوساوس النفس الأمَّارة.

قلت لحضرة الشيخ: لم يبق لي ابتلاء غير المرأة وسُوء خُلقها، وأنا لا أريد أن أخلو عن الابتلاء بالمرأة؛ فإنه من باب التربية، قال: نعم فاصبر؛ فإن الصبر مفتاح الفرج.

قلت: فقد انقطع عني داعية التأهل منذ ما قلتم في السنة الماضية اختر التجرد أن تحب أهلك.

قال: ذلك من فضل الله حيث وفقك الله لقطع التعلقات، وجذبك بجذبات العناية، فأنت غالب على شهوتك، وهو مُراد الله تعالى.

قال حضرة الشيخ: إنكار العوام للأولياء كالشرك الجلي، وإنكار الخواص ـ يعني: أتباع المشايخ ـ كالشرك الخفي والاجتناب واجب عن كل منها، ولا يصدر مني إلا ما يتعلق بمرتبة كل أحد؛ فإن بعضه من بعض في صدر أتباعنا، غلب عليه إنكار لنا، فلذا وجب السر.

قلت: حفظني الله تعالى من عنفوان عمري عن إنكار شيء من أقوالكم وأفعالكم؛ فإنه قيل: كل ما يصدر عن الواصل فهو شريعة، فاعتقادي على أن كل ما يصدر منكم فهو شريعة جديدة، قال تعالى: ﴿ مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [المائدة: 48] وكيف لا نقبل هذه الشريعة الجديدة؟ وقد فضّلنا الله بإرسالكم إلينا، فتبسم حضرة الشيخ، وقال: أنت من هذه الطريقة على حقيقة فلا نكتم منك شيئاً.

قلت: كلامكم معي من تربيتي فيجوز أن تكتموا ما فوقها، وهو مرتبتكم، فتبسم أيضاً، وقال: الواصل هو الحاصل عند الله، وهو حقيقة الوصول وكل سالك إنما يتصور مرتبة الوصلة بقدر معرفته وحاله واستعداده، وأمن له فوت ذلك؛ فإن معنى الحصول لا يعرفه إلا من تحقق بهذه الرتبة، وكثير من السلاك يحل له العلم والعرفان، ولكن التحقق بالمقامات أمر آخر لا يتيسر إلا لواحد بعد واحد والمقصود هو المعرفة لا مجرد المعرفة.

قال حضرة الشيخ: الإيمان هو الله تعالى؛ لأنه اسم، وقد أعلم الله في هذا الشتاء كفري على الحقيقة.

قلت: هذا الكفر مما يغبط به أهل الإيمان قال الله سبحانه وتعالى:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 256] فتبسم، وقال: إن مرتبة الصلاح مرتبة عظمى ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ طَآئِفَةٌ قَدْ﴾ [الأعراف: 196].

قال حضرة الشيخ: لا يزول الابتلاء ما دام الإنسان في عالم الإمكان قال تعالى: ﴿ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ﴾ [الأعراف: 168] فكما أن الإمكان لا يزول فكذا الابتلاء لكن محله الدنيا فالإمكان لا يزول عن الممكن ولو كان في الجنة إلا أنه لا ابتلاء فيها، فباطن الإنسان الكامل وإن كان على سير غير سير العوام لكنه في

الظاهر دائرتهم، فلذا يبتلى بما ابتلوا به من الأمراض والأوجاع والموت والحشر.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي التي عينها لي في داره العالية، فجرى ما جرى من الصحبة، ثم قال: هل لك مسواك؟ قلت: نعم، قال: إن لم يكن لك مسواك أعطيتك مسواكاً رقيقاً لطيفاً يناسب ظرافتك ولطافتك؛ فإني أستعمل غليظاً.

قلت: أعطوني فإني أتبرك به بل أوصي بأن يجعل في كفني بعد وفاتي تبركاً؛ فإنه قد مس يدكم المباركة التي حرمها الله على النار؛ فقال ما قال، والحمد لله الملك المتعال أقول: ذلك المسواك الشريف النظيف عندي الآن جعلت عليه علامة ليجعل في كفني، قال في «الأسرار المحمدية»: لو وضع شعر رسول الله ﷺ أو عصاه أو سوطه على قبر عاصٍ لنجا ذلك المذنب ببركات تلك الذخيرة من العذاب، وإن كان في دار إنسان أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركاتها، وإن لم يشعروا به ومن هذا القبيل ماء زمزم والكفن المبلول به وبطانة أستار الكعبة والتكفن فيها.

قال الإمام الغزالي: إذا أردت مثالاً في الخارج؛ فاعلم أن كل من أطاع سلطاناً وعظم، فإذا دخل بلدته ورأى فيها سهماً أو سوطاً له، فإنه يعظم تلك البلدة وأهلها فالملائكة يعظمون النبي عليه السلام فإذا رأوا ذخائره في دار أو بلدة أو قرية عظموا صاحبها، وخفضوا عنه العذاب، ولذلك السبب ينفع الموتى بوضع المصاحف على قُبورهم، ويُتلى عليهم القرآن ويكتب القرآن على القراطيس، وتوضع في أيدي الموتى انتهى.

قال حضرة الشيخ: العلم في قوله تعالى ﴿صُدُورِهِم مِّنْ وَغِلٍّ اللهُمَّ إِنَّكَ هُوَ﴾ [فاطر: 28].

وفي قوله عليه السلام: «**العلماء ورثة الأنبياء**»(1) مصروف إلى الفرد الكامل، وهو علم الشريعة والحقيقة معاً؛ فإن حقيقة الخشية وحقيقة الوراثة إنما تحصل لمن جمع بين العلمين فهو العالم حقيقة ومن سواه من علوم الرسوم عالم صورة، والعالم الحقيقي يرى جميع ما في الكون كأعضاء بدنه فلا يقصده بسوء ولا يحسده؛ لأن المرء لا يرضى أن يعرضه آفة على عضو من أعضائه، وأن تزول نعمته، والعالم الصوري ليس كذلك.

(1) جزء من حديث رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل. . ، حديث رقم (88) [1/ 289] ورواه أبو داود في السنن، أول كتاب العلم. . ، حديث رقم (3641) [3/ 317] ورواه غيرهما.

وعظ حضرة الشيخ في جامع السلطان بايزيد الواقع في القسطنطينية فحقق قوله تعالى: ﴿ٱلَّوَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [التوبة: 111]، ورغَّب الناس إلى الجهاد ترغيباً بليغاً، وقال: إن الله تعالى جعل ذاته مشترياً، وعباده المؤمنين لا الكافرين بائعين، والأنفس والأموال سلع بيعه والجنة ثمناً، ووعد وهو لا يخلف وعده كما قال تعالى: ﴿ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: 111] ولا كلام فيه، وإنما الكلام في وفاء العباد؛ فإنهم قبلوا هذا العقد في عالم الأزل والأرواح ثم نقضه من نقضه.

قال: لا يكفي للمرء أن يقول: أصف بالله تعالى بدون أن يحقق إيمانه بما أمر به من قبل الله تعالى من الجهاد وغيره؛ فإذا امتثل إلى الأمر، وخرج إلى الجهاد، ووفى بعهده فقد خرج عن عهده الذي ألزم عليه فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه، فلذا لا حساب على الشهيد ولا سؤال؛ لأن الملكين أنما يسألان الشخص عن دينه وما يتعلق به، فإذا كمل دينه لم يبق للسؤال وجه أصلاً.

قال حضرة الشيخ: العرش وما حواه من العوالم كلها تعينات جسمانية، وما فوقه تعينات روحانية وكل منها حادث، وما فوقها مرتبة الأعيان الثابتة، وما وراءها عالم الغيب والشؤون، قال: الهوية المنفهمة من قوله تعالى «هو» في: ﴿مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا﴾ [الإخلاص: 1]، وهو الله محيط بالكل إحاطة لا يحيط بها إلا أهل المكاشفة والمشاهدة والمعاينة، لكن لا تعين ولا تعين في الحقيقة؛ فإن الله تعالى منزه عن كليهما كما قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهيات التركية [. . .][1].

قال المولى الكبير الشيخ محمد الجودي ابن حضرة الشيخ مخاطباً له: يا أبي إن إسماعيل حقي يُشير إلى هذا الفقير قد وعظ اليوم في جامع سلطان سليم مقامكم كما أمرتم، قال داعياً: جعله الله مباركاً وأيده وقواه وجعله من أهل عنايته، ثم التفت إليَّ فقال: كنت قبل الهجرة إلى بروسة في طرف يمني والآن في سويداء قلبي، يعني: كملت العلاقة والمحبة بسبب تلك الهجرة، وأخذك بطريق الفقر والفناء، والمأمول منك هو الخير يعني: الإيمان والإسلام الحقيقي، فاجتهد حتى تتخلص عن القيود الظاهرة والباطنة، وكُنْ فانياً عن جميع ما سوى الله، ثم دعا لي مراراً،

(1) بياض في الأصل.

وقال: إن شيخي قد دعا لي، وقال مرة: يجيء منك أنفاس الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه ـ والحمد لله تعالى قد يسر الله لسان الشيخ، وأسلكني مسلكه، ثم قال مخاطباً لي: جعل الله حالك وقولك فوق هذه وأشار إلى حاشية في يده المباركة، وهي حاشية تفسير الفاتحة للقونوي كما سبق.

قال حضرة الشيخ: راع المراتب مما سماه الله تعالى غيراً، وعلى التعينات والظهورات فسمِّه أنت أيضاً غيراً، وما سماه الله تعالى عيناً، فسمه أنت أيضاً عيناً، ولا يخلو أحدهما بالآخر، وراع الجمع والفرق حتى لا تقع في ورطة الإلحاد والزندقة، ثم قال: أيدني الله تعالى من أول سلوكي إلى الآن بالكتاب والسُنَّة؛ فعلمي هو العلم الظاهر والباطن لا غير، ولم يقع مني بفضل الله إلحاد غير أنه وقع لي مرة نحو الفرق في الجمع، وكان مقدار طرفة عين، ثم أُيدت من عند الله، فجئت إلى الفرق، ثم قال: فإن كنت تسأل عن شيخك وحقيقته، فإن له كرامات علمية لا مكاشفات كونية فليس لي اطلاع على أحوال أهل القبور، ولا على الضمائر ونحوها، ولا أعرف مني بعزل السلطان أو الوزير أو غيرهما ومتى يموت، ولا أعرف ماذا يكون غداً؟ قال: إن واحداً من السادات أراد أن يعلمني علم الجفر فلم أرد؛ لأنه لا فائدة في معرفة ما سيقع بعد أربعين سنة، وكان حضرة الشيخ الأكبر جفاراً وفاقاً جدّاً لو كان حياً، وأراد أن يعلمني الجَفْر والوِفِقْ ما طلبت؛ لأنهما وأمثالهما لا يتعلقان بالعلم الإلهي، ولم يخلق الله في قلبي ميلاً إلى مثل هذا أصلاً.

قال حضرة الشيخ: إني لا أرى رؤيا حسنة إلا قليلاً، رأيت النبي ﷺ مرة، ورأيت حضرة الشيخ الهدائي مرتين، قال في الأولى: أنا راضٍ عنك يا بني؛ لأنك أحببت طريقي ومسح يده بظهري، سألت في الثانية عن قوله في بعض إلهيات التركية: [. . . . .][1].

قال حضرة الشيخ: إذا أراد الله أن يُخلِّص عبداً من الأغيار يؤيده ويفتح له الطريق وإن لم يكن له مرشد، وإنما بغى من بغى في وسط الطريق وفي الحيرة لعدم الاستعداد للأخذ من الله بلا واسطة، قال: اختر الفناء التام؛ فإني الآن كالذي كنت زمن شيخي في بابه، إني معترف بعجزي وقصوري فمن وفق لهذا العجز فسيهديه الله وإلا فلا، ثم قال: هذه الحاشية، وأشار إلى حاشية على تفسير الفاتحة في يده،

(1) بياض في الأصل.

ليست عندي كجناح بعوضة، وإنما أذن الله لي في ذلك، فكيف ثم لا يخطر ببالي أصلاً؟

قال: إن الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين القونوي ـ قُدِّس سرُّهما ـ لا يجيء مثلهما أبداً، وإن كان الله قادراً على مثلهما، وتفسير الفاتحة بديع جدّاً في أسلوبه وترتيبه ومعانيه وحقائقه، وإنما علقت عليه الحاشية بحسب مرتبتي لا بحسب مرتبته.

قال حضرة الشيخ: الأولياء متفاوتون بعد الوصلة كالسلاطين بعد الجلوس؛ فإن منهم من له سطوة غالبة وقدرة كاملة ومعرفة كلية مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم الأول والسلطان سليمان الثاني من الخواقين العثمانية، ومنهم من ليس له ذلك كسلطاننا، وأشار إلى سلطان سليمان؛ فإنه كان على الفتور والضعف في ضبط الممالك، وحفظ الأقطار، وتفتيش الأمور، وتمييز الخير والشر؛ لقلة عقله ورشده.

طلب الابن الكبير لحضرة الشيخ جرموقاً جديداً وألح؛ فقال حضرة الشيخ: إن هذا الإلحاح باطل، فقال ابنه مشيراً إلى الفقير: إن الحقي يشفع في هذا، فقال حضرة الشيخ: الحقي منسوب إلى الحق لا إلى الباطل، فقاموا إلى صلاة العصر.

قال حضرة الشيخ: نسبة الخلوتية إلى «لا إله» ويندرج فيه الإثبات، ونسبة الجلوتية إلى «إلا الله» ويندرج فيه النفي.

ومعنى الخلوة: ترك ما سوى الله، ونفيه، واندرج في النفي الصفات السلبية.

ومعنى الجلوة: التنَور بنور الله، واندرج في الإثبات الصفات الثبوتية.

قال حضرة الشيخ: مخاطباً لهذا الفقير: قد كتبت حاشية تفسير الفاتحة بخط خفي، فكيف تقرؤه إذا صرت إلى الشيخوخة؟ قلت: لا احتياج حينئذٍ إلى القراءة من الكتاب، قال: تكون أنت كتاباً إن شاء الله تعالى، قال: صلّى بنا حضرة الشيخ صلاة المغرب، وبعد الفراغ منها ومن صلاة الأوابين دعا، ثم تأوه فقام وخاطبني، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: 125]، وقال: فليكن نظرك إلى هاهنا، وأشار إلى الصدر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: 1، 2] ثم ذهب إلى جانب الحرم.

أقول: قول الهدائي عامة وخاصة؛ فالعامة هداية الكافر إلى الإيمان، والعاصي إلى التوبة، وهو الإيمان والإسلام الصوري، والخاصة هداية المؤمن المطيع إلى الإيقان والمشاهدة والعيان، وهو الإسلام الحقيقي، يعني: أن الله إذا أراد أن يهدي عبداً من عباده إلى جنابه؛ يشرح صدره للقبول والتسليم، ويجعله على صراط مستقيم، فبذلك الشرح يرتفع عند الانقباض والاعتراض، فيقبل على الحق بالقبول، ولا يطرأ له إنكار أصلاً فيكمل انقطاعه، فيتصل بالله تعالى.

قال حضرة الشيخ: الجلوتية ـ بالجيم: ثمرة الخلوتية بالخاء المعجمة؛ لأن التجلية بعد التخلية، وكلا الطريقين واحد في الحقيقة إلا أن المقلد كثير، والمحقق قليل، قال: لا إلحاد ولا زندقة في طريق حضرة الهدائي ـ قُدِّس سرُّه ـ وقال: إن الوصول إلى الله لا يحصل إلا بالتقلد لمذهب إمام من الأئمة الأربعة فكل ولي لا بد له من التقلد، قال: إن الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين القونوي ـ قُدِّس سرُّهما ـ أفضل الأولياء، وكتبهما أدق الكتب، وقد عرفني الله لسانهما بعد ثلاث وثلاثين سنة.

قال: إن محبتي إنما هي إلى القرآن والحديث، وإرشادي أيضاً بهما، فعلمنا هذا أي علم حقائق القرآن لا يحصل لكل سالك ولا اعتبار بالكرامات الكونية، وعدم الاحتراق، والغرق في النار والماء، والمشي في الهواء ونحوها ليس بشيء عند أهل الله تعالى؛ لأنه يقدر عليه الشيطان والكافر.

قال حضرة الشيخ: إن لنا ميراثين من أبينا آدم عليه السلام؛ العصيان والاستغفار، فإذا عصينا يلزم علينا التوبة والاستغفار، وأكثر الناس يعصون ولا يستغفرون، نسأل الله الطهارة الكبرى والعناية العظمى.

❊ ❊ ❊

الزيارة السادسة

وقعت هذه الزيارة في جمادى الآخر من سنة إحدى ومائة وألف.

خرجت من السفينة يوم الأربعاء بعد العصر، فوصلت إلى دار حضرة الشيخ قريباً من المغرب فلما صليت المغرب في الغرفة التحتانية أقبل حضرة الشيخ، وجامل في المعاملة، وسأل عن السفر وحال البحر؛ فقلت: بهمتكم العلية دخلت السفينة وقت الضحى، وخرجت بعد العصر من هذا اليوم، فاستبشر ثم سأل عن التنور الذي كان قد أرسله من صوفيا في دفع تكاليف داري في بروسة، فقلت: قد وصل، فقال: هل كان معمولاً به؟ فقلت: نعم، استبشر به أهل المدينة كلهم فضلاً عن أهالي المحلة، ثم أقبل إلى خليفة بوداني المسمى بـ«قُرة مصطفى أفندي» وكان رفيقي في هذا السفر، فسألت عن حاله ثم ذهب إلى حرمه.

ولما كان يوم الخميس دعاني بعد الإشراق إلى غرفته، فقبلت ركبته، فأشار إليَّ بالجلوس إلى جنبه، فكان أول كلامه دينك غالب أم دنياك؟ فقلت: بل دنياي؛ فقال: جعل الله دينك غالباً على دنياك، وسأل عن صيامي وقيامي؛ فقلت: صومي صوم الدهر إلا أن يقع الإفطار بعذر، وقيامي دائم إلا إذا ضعف البدن يمنعني من طول السهر، فقال: «**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها**»[(1)].

فإذا كنت أدمت هذا، فقد حصل المقصود، ثم سأل عن أحوال الدرس والوعظ.

فقلت: قد رفعت الدرس من قدومي إلى بروسة فهو من عنايتكم الكبرى؛ لأنه غسل التعلق بالعلم الظاهر عن لوح الخاطر، وازداد التوجه إلى تلاوة آيات التوحيد مع أن الوجود ليس الوجود الأول، فقد ضعفت الأركان والقوى.

وأما الوعظ فقد تركته مقدار شهرين لأختبر تعلق نفسي به، فلم أجد الميل إليه

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (6099) [5/ 2373] ورواه مسلم في صحيحه، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم (783) [1/ 541] ورواه غيرهما.

والحمد لله، فاستبشر حضرة الشيخ وحمد الله، ثم قال: كيف تجدك؟

فقلت: أجد نفسي ألا تعلق لها لا بالخانقاه ولا بالوظائف ولا بالصوفية والأحباب، ولكني أبكي دماً من أخلاق النفس، فقال: إصلاح الأخلاق مما يتعلق بالباطن وهو صعب جدّاً، ثم أنجز الكلام إلى ذكر أهل البيت.

فقلت: شكايتي منهما كلية عظيمة، وإنما أشتكي إليكم لا إلى الغير، فقال: اصبر قليلاً؛ فإن الله تعالى سيجعل لك فرجاً ومخرجاً، فإن هذا الوقت وقت الصبر، فإن من ذهب بغير صبر يكون بعده متأسفاً على فواته، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [النساء: 19].

وقال: إن الله تعالى لم يرد بك إلا خيراً فلو رفع هذا الابتلاء لابتلى بنوع آخر، وإني الآن تزوجت سبع عشرة وثماني عشرة فلم أجدهن عليَّ إلا ابتلاء، ثم دعا فقال: ليجعل الله بلاءك مباركاً، ومعنى المبارك: أن يكون موفقاً لصبره؛ فإن البلاء الغير المبارك هو البلاء الفارغ لصبره.

ثم **قال**: مات الشيخ السيد عبد الباقي في أدرنة، وهو أول خلفائه.

فقلت: كيف وجدتموه عند مجتازكم إلى أدرنة من صوفيا؟

قال: كان قد نحل جسمه، وضعف من وجع الصدر، وظني أن له حسن الخاتمة لبعض الأمارات من الانقطاع والاستسلام.

فقلت: قد كان بيني وبينه تباغض قديم مع أنه كان أستاذي سبع سنين.

قال: إني أعرف ذلك أنه لم يكن من جهة نفسك بل من جهة الغيرة الإلهية؛ فإنه كان له بعض أمور متفرقة.

قال: كُنْ شاهداً أني وهبت له جميع الحقوق من حيث إني أستاذه وشيخه، وإني لا أريد أن يكون معذباً أو مسؤولاً لأجلي؛ فإني أريد أن أدخل الجنة بفضل الله لا بأخذ الحق من الناس، وقد شاب رأسي ولحيتي فلا يليق بمن في هذا السنِّ أن يكون بصدد طلب الحقوق.

قال: وأشهد أيضاً أني وهبت لك ما كان قديماً وحديثاً من الحقوق بل إلى آخر العمر، فلا تكن مسؤولاً من جانبي أصلاً، فقبَّلت ركبته.

و**قلت**: أرجو شفاعتكم، وقد قام ديني ودنياي لكم.

قال: شفاعتي الدعاء بالخير، والمتصرف في الكل هو الله، وما أنا إلا واسطة من الوسائط، وحقيقة الأمر أنك إن شئت كن مُقِرّاً أو إن شئت منكراً، فلا احتياج لي إلى الإقرار والإنكار، واللائق أن يكون المرء بريئاً مما سوى الله لكن اشكر الله على نعمه الوافرة في حقك، فقد هداك إلى الإيمان بطريقة أهل السلوك، وكشف القناع في هذا، والإيمان أمر عظيم.

قلت: أجد الانسلاخ من الكون صعباً.

قال: إذا كان الله جعلك طالباً له فهو يتولى الصالحين، وسينتهي الطلب والبرهان إلى المطلوب والعيان، لكن الأمور مرهونة بأوقاتها والمزيد في الشكر فكن شاكراً راضياً.

قلت: إني أظن أن يقع لي الهجرة خامسة؛ فإن هجرتي إلى بروسة رابعة.

قال أيضاً: إني كذلك قد هاجرت أربع مرات لكني الآن لست بمأذون إلى الخروج إلى أرض الحجاز أو غيرها؛ فإن أذن الله في ذلك بشيء جريت عليه فكن أنت أيضاً على ذلك، وأخرج من الباطن فكر الغير؛ فإنك الآن في أرض السلامة، ومن فعل أمراً بنفسه لا بإذن من الله وجد عقيبه ابتلاءً عظيماً.

قال حضرة الشيخ: العلم قيد، والحكمة إطلاق.

أعنى بالعلم: علم الشريعة والأدب، فإذا نظرت إلى اللغو والعبث أي: بنظر العلم كنت منكراً، وإذا نظرت بالحكمة كنت سالماً، ثم قرأ قوله تعالى﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الفرقان: 72]، ذكر حضرة الشيخ شيخه عبد الله أفندي الشهير بذاكر زاده، ومدح تقريره وتفسيره عند الوعظ والتذكير، وقال: إنه كان غالباً في ذلك على الشيخين أَعني: محمد، باقتادة، ومحمود الهدائي ـ قُدِّس سرُّهما، قال: ولكنه لم يوفق للتحرير.

و**قال**: إن الله يعامل بعض عباده بالفضل فيبسط لها التقرير والتحرير، وبعض عباده بالعدل فيقبض له ذلك، والمعتبر هو العلم بالله؛ فإن علم الظاهر وسيلة لعلم الحقيقة، وهو مقصود بالفرض كالإيمان، وعلم الحقيقة مقصود بالذات كالسلف ولا يعلم الذات حقيقة إلا الذات الأحدية فمن عرف أن نسبة العلم له عرضة سَلِمَ، ومن ظن أصالتها هلك، فإذا سلَّم السالك الذات إلى الذات، والصفات إلى الصفات والأفعال إلى الأفعال كان فانياً عن الكل ومؤدياً أمانته إلى صاحبها، فإذا جاء الموت

الصوري لم يبق له سؤال ولا حساب ولا أخذ ولا إعطاء؛ فإنه دخل في دنياه في الجنة المعنوية، واستراح من كمد المكاليب.

قال: إن السالك لا يصل إلى الله حقيقةً إلا بعد أربعين سنة؛ فإن الخلاص عن الأكدار مطلقاً، إنما يحصل بعد هذه المدة كما أن كمال العقل وتحصيل الصوري أيضاً إنما هو بعدها، ثم وصى بالمجاهدة إلى أن يأتي اليقين، وهو الموت ثم تلا قوله تعالى: ﴿بَعْضٍ بِلَكَلْقُتِدُورِ نَسُوْاْ ٱلَّوَتَزَعْنَا مَا...﴾ [النساء: 100] الآية.

قال حضرة الشيخ: إن إبليس لما أبى عن السجود، قال الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [صّ: 75]، قال إبليس: قضاؤك، قال الله: لو شاهدت سر القضاء قبل الوقوع لقبلتك، ولما كان قولك هذا بعده.

قال حضرة الشيخ: انظر إلى قوله تعالى: ﴿لَنَا مِلِّأَمْرِ شَىْءٍ مُّكَفِيكَهُمْ ٱللَّهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي﴾ [الكهف: 110] كيف أثبت الشركة في البشرية، وجمع ثم فرق بالوحي، فالإلهام جبريل الأولياء وتميزهم عن غيرهم من الأغيار، وعن أحكام أهل البشرية الغالبة.

قال حضرة الشيخ: إن الواصل إلى الله تعالى لا يتكدر من شيء أصلاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَلْقُلُوبُ﴾ [التوبة: 40] كيف علل عدم الحزن بالمعية فهي دافعة للحزن أينما كان المرء من سهل أو إلى جبل أو بر أو بحر أم حديقة أو شوك فعلى المرء ألا يطمع في شيء سوى الحضور مع الله؛ فإنه لو لم يكن مع الله لم يحصل له مطلبه.

قال حضرة الشيخ: إن الموجود موجود، والمفقو مفقود؛ فمن فرق بينهما فرقاً تاماً ولم يثبت للموجود فقداً ولا للمفقود وجوداً واصل إلى الصفا والحضور، وتخلص عن الكدر والشرور.

قال حضرة الشيخ: سمعت مر من أقول ابن الأشرف الأزنيقي: [ينم أول دائم وباقي كورندم صورتا إنسان] وكنت وقتئذٍ في بلغراد، وكان الحال غالبة علي فكوشف لي بسر قوله:

«قال الله تعالى على لسان عبده: سمع الله لمن حمده»[1].

وهو قرب الفرائض بحيث امتلأ وجودي من نور ذلك التجلي ثم غلبني البكاء

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

الشديد بحيث تحير الحاضرون في المجلس، قال: ولعل ابن الأشرف قال القول المذكور عند غلبة الحال، ومثله لا يبحث عنه إلا في الخلوة وعند أهل الحضور والقبول؛ فإني أتنفر عن كلام الحقيقة مع الأغيار أشد من تنفري من النجاسة.

قال: وكان شيخي يتكلم من المعارف عند الوعظ بقدر ما تقبله العقول، ولا يذكر شيئاً في مجلس في بيته، سألت حضرة الشيخ عن النوافل التي يشتغل بها الصوفية؛ فقال: المعتبر عند كبار السلف كما رأيت في وصايا الفتوحات أن صلاة التهجد اثنتا عشرة ركعة، وصلاة الإشراق أربع، والضحى ثمان، وصلاة الأوابين ست، لكن مع سنة المغرب على الاختلاف الواقع فيها، قال: إن أهل الأدب يشتغلون بالعمل إلى الموت؛ فإن طريق العمل الأنبياء والأولياء، وليكن بشرط حضور القلب، وأدنى الحضور في الصلاة أن يعرف ما يقرأ، قال: إن بعض السلف كان لا يخطر خاطر كوني أصلاً لغلبة الخاطر الإلهي فاللازم على المتوجه عند وجود الوسوسة رفعها من طريقه؛ فإن الحضور روح العمل، ولا خير في جسد لا روح فيه.

قال حضرة الشيخ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 255]: هي الأبديات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255]: هي الأزليات.

قال حضرة الشيخ: هذا زمان الاضطرار؛ فادع الله بالاضطرار خصوصاً في أمر ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]، ودعاء الاضطرار إنما هو بالذلة والافتقار، ودعاؤنا مشوب بالعزة، ولذا لا يظهر أثر الإجابة.

ثم حكى قصة الجنيد مع امرأة حيث جاءت إليه، فقالت: يا شيخ، قد أسر ولدي، فماذا ترى؟ فقال: اذهبي واصبري فمضت، ثم عادت فقالت له مثل ذلك إلى أن جاءت مرة، وقالت: يا شيخ، لم يبق لي طاقة بعد هذا، فقال: إن صدقت فقد جاء ولدك؛ فذهبت فوجدت ابنها في البيت.

أقول: وفيه تعريض لهذا الفقير؛ فإني كنت قد اشتكيت إلى حضرة الشيخ قبل أيام سُوء خلق أهل بيتي، وادعيت أنه قد بلغت القصوى في المحنة، فأمر حضرة الشيخ بالصبر، قال: اصبر؛ فإن هذا زمان فسيجيء زمان متأسف فيه على عدم صبرك حين يذهب الله بليتك.

قال حضرة الشيخ: كل كلمة تخرج من في الواعظ تحفظ وتنشر صحيفتها بين

يديه يوم القيامة، وأقسم بالله أنه لو عرفت قبل عشر أو عشرين أن الأمر هكذا، وأن أمر الآخرة فوق ما يعرفه عامة الناس لما قبلت الوعظ، ولا الشيخوخة، وقد عزلت نفسي منها إنما أدري إذا يطلب الناس مني، وأنا من أفراد الناس عاجز.

أقول: شدد في الأمر حتى تبرد في قلبي من الموعظة والتذكير، وعزمت على الانقطاع التام، وكان حضرة الشيخ قال ما قال من إرشاد إلا أنه خائف من البرازخ.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى سلب من قلبي الميل إلى اللسان الفارسي منذ أربعين سنة، وملأه بالعربية، فأنا الآن لا أدعيه أصلاً.

قال: إن المكروه طبعاً بداية يكون محموداً حقيقة نهاية، فعلى المرء أن يتقيد بالصبر والهضم ولا يجري على مقتضى طبعه.

قال: بلغني عنك قول مستحسن هو أنه واحد من أتباع خليفتنا في صوفيا أراد أن يكون عندنا فلم يرض الخليفة، فقلت له أنت: إنك يا شيخ لا ترضى أن يكون مرادك مريداً لشيخك، فمتى تكن أنت مريداً له، ثم قل هذا القول منك إلهام من الله وكلهم حق والأمر كذلك، ثم خاطب ابنه الكبير محمد الجودي بأن تعلم الفارسية أنت، وكن معموراً من كل جانب، ثم استأذنه ابنه أن يذهب إلى بروسة ويقيم هناك شهراً بطريق التفرج والزيارة فلم يرض حضرة الشيخ.

و**قال**: ليس هذا أوانه؛ فإنه زمانه الطلب لا زمان السير فإذا جاء أوان السير فلتفعل.

قال حضرة الشيخ: لا راحة قبل الموت، فإذا جاء الموت ارتفع الكدر، ألا ترى إلى حال أهل القبور ليس لهم انقباض ولا انبساط، ولو كان العالم مملوءاً منهما.

سألت حضرة الشيخ عن غاية الأمر أن اختلاف الزمان بالظلم والهزيمة إلى ماذا ينجر، هل كَتَبَ علماء الحقيقة شيئاً يفصح عنه غاية الأمر ولو تقريباً؟

قال: يا ولدي سلب الله من قلبي الميل إلى مراجعة الكتب في مثل هذا، فالله يفعل ما يشاء وإنَّا نفرُّ من قهره إلى لطفه، فإن كان القضاء هو القضاء المطلق فيدفعه الله عنا، وإن كان هو المبرم فلا دافع له أترى إلى أهل الابتلاء من الأنبياء والأولياء كزكريا ويحيى والحسن والحسين وأمثالهم ـ عليهم السلام ـ لكن الاحتياط لازم في مرتبة الشريعة، وقد فقد الناس السلطان في هذا الزمان ونصبه واجب عليهم جعلوا

السلطنة ميراثاً مع أن لها شرائط ولوازم، ولفقدانها وقع ما وقع من كل بلاء.

قال: وقد رأيت المكتوب المرسل إلى السلطان من جانب أمير الكفار المسمى بقرال، وفيه: أيها السلطان، إن كان لكم عسكر كثير، فحسبنا الله ولا اعتماد لنا على عسكرنا، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ [فصلت: 21].

ولا شك أن هذا إنطاقٌ من الله تعالى؛ فإن الكفار، وإن كانوا مردودين في مرتبة الشريعة لكن محركهم في الحقيقة هو الله.

قال: إذا أراد الله شيئاً لا يحول بينه وبين مراده شيء فيجري قضاؤه على الأنبياء والأولياء فلا يمنعه عزيمة أولى العزم، ولا رسالة الرسل، ولا معرفة العرفاء، ولا إيمان المؤمنين اليوم، وهو يوم الإثنين آخر جمادى الآخرة من سنة ألف ومائة وواحد.

ونكح حضرة الشيخ عندي وعند خليفة إزميد الفرائضي وابنيه محمد ومصطفى من زوجته المطلقة، وهي الوالدة الكبيرة والدة ابنه الكبير محمد الجودي، وكان طلقها قبل أربعة أشهر لسبب يطول شرحه، وجعل المهر اثني عشر ألفاً.

قال حضرة الشيخ: ظهور النبي ﷺ وانشقاق القمر من الأشراط الأولى، وهذه الأشراط التي ظهرت في زماننا هي الأشراط الوسطى، لكنها قريبة من الآيات الكبرى، وكان الناس قبل هذا اليوم بقدر، والقسطنطينية، وإرامة سلامة، فلهذا كان المهاجرون من الأقطار إليها، وأما الآن فيرتحلون عنها إلى الأطراف.

قال: وفتنة هذه البلدة لا يقاس عليها فتنة أخرى؛ فإنها تشابه الحشر والنشر، فقال خليفة الشيخ حسين الفرائضي: كنا نرى حين الهجرة من (أينة بختى) أن كثيراً من الناس طرحوا أولادهم على الطرق لاشتغالهم بنفوسهم، فقلت: لعل هذا داخل في قوله تعالى طَآئِفَةً مِّنكُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التكوير: 8]؛ لأن هاهنا خطرين، وهلاك الأولاد ليس بأهون من هلاك نفسه، فقال حضرة الشيخ: نعم ينبغي للآباء والأمهات أن يسعوا في إخراج الأولاد من المهلكة بأي وجه كان، وإني لرعاية جانب الأولاد أقيم الآن في هذه البلدة، ولولا ذاك ما أقمت ساعة، لكني إلى أين أذهب مع الأولاد والجم الغفير؛ فنسأل الله العفو والعافية.

قال حضرة الشيخ: ما وقع في هذه السنين من القتل والهزيمة في جانب المسلمين قصاص لما فعلوه سنة الخروج إلى طرف قلعة «بج» فإنهم أسرفوا وقتئذٍ في القتل بغير موجب شرعي.

وقد قال تعالى: في سورة بني إسرائيل:

﴿أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [الإسراء: 33]، فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض كتب الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه ـ أنه قال: لكل نبي دعاء مخصوص به، والدعاء المخصوص بنبينا ﷺ قوله تعالى في آخر البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

قال حضرة الشيخ: ما يقال في ألسنة القوم مرتبة الإنسان هي عدم وقد تجلى الله للإنسان في تلك المرتبة بالوجود فكما أنه ليس مثله تعالى في القوة والبطش، فكذلك مثل الإنسان في العجز والضعف، فوجوده ظلي، فكما بسط الظل كذلك يقبض، فأهل الشهود يرون الحركة في القبض والبسط من الله؛ فإنه هو الفعال فلو أراد أيضاً يكون كل ذرة مظهر اسم القهار، ولا يمنعه شيء.

قال: وقد أمر الله بالصبر حيث قال: ﴿ قَدْ﴾ [النحل: 127]، ولكن قال بعده ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127].

فأشار بالأول إلى الوجود الظلي الذي يرى منه الحول والقوة.

وأشار بالثاني إلى أن الصابر في الحقيقة هو الله تعالى، فتارة يجذب عبده إلى عالم القدس فيخلع عنه كل صورة.

وتارة يرسل إلى أسفل السافلين وهو عالم الحس والدنس فيبتليه بأدنى حيوان ذلك العالم كالبعوض الداخل أنف نمرود فعلى العاقل ألا يستند إلا إلى الله.

ويقول دائماً لا ملجأ ولا منجى إلا منك.

قال: قوله تعالى ﴿أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 131]: هو أمر بالصفة والحقيقة، وكذا قوله تعالى في الجواب: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [البقرة: 131] فوجد المجازات الكاملة بين الصفتين في الظاهر والباطن، ولذلك رُمي بالمنجنيق، ولم ينفعل أصلاً فلو أراد العبد دفع القضاء المبرم لا يجد إليه سبيلاً فلا سبيل إلا الاستسلام.

قال حضرة الشيخ: تجلى الله في آدم بالولاية، والنبوة تعين خاص، وكان

لبعض عبادة سمعاً وبصراً، فشاهد العوالم بعد مرتبة علم بذلك السمع والبصر، ولكن كذلك لا يدفع القضاء المبرم ألا ترى أن حبيب الله لم يكن له عديل في مرتبة الحقيقة مع أن ذلك لم يدفع عنه شجع الوجه، وكسر السن في غزوة أُحُد.

قال: ﴿بِٱللَّهِ عَلَى ٱلۡحَقِّ [illegible] هَل﴾ [الأحقاف: 9]، وإنما أعرف الآن، قال: ورد إذا جاء القضاء عمي البصر، فإذا جاء القضاء يفعل الله بعبده فلا ينفعه نبوته ولا ولايته إذ كل مقضي لا بد أن يكون، ثم أنشد قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [. . . . .][1].

قال: إن أهل البصيرة والشهود يرتعدون عند ميدان القضاء كالأوراق وقت الخريف لما يعلمون كمال بطشه وقوته، وأما أهل الغفلة فلا قدرة لهم على مشاهدة الجلال في صور الجمال اليوم وهو اليوم الثاني من رجب سنة إحدى ومائة وألف.

دعا حضرة الشيخ كاتباً من طرف نائب محكمة أخي جلبى الواقع في القسطنطينية ليكتب حجة متعلقة بابنته الصغيرة السيدة خيفة، وذلك أن حضرة الشيخ كان زوجها الحاج صالح من أتباعه، ثم صدر منه قبل الدخول خيانة عظيمة فأراد الشيخ تطليقه لابنته فاختفى ولم يفعل، فشهد خليفة الشيخ عبد الله الساكن في القسطنطينية وهو أعلم خلفائه وأزهدهم، وكذا الابن الكبير لحضرة الشيخ أن الحاج صالح كان قد صدر عنه ما يوجب تجديد النكاح قبل أيام، فراجعنا في تجديد النكاح، فلم يتفق لنا ذلك بحسب الموانع، فبقي الأمر على حاله إلى الآن، فلا ضرر في اختفائه، فإن زوجته كانت مطلقة قبل مجيء الكاتب، فادعى حضرة الشيخ ذلك، وشهد شاهدان بذلك فكتب حجة بالأخبار؛ فقلت للشيخ عبد الله: ما فائدة هذه الحجة الإخبارية؟ قال: فيها ثلاث فوائد:

الأولى: أن فيها حفظاً للمقال أي مقال الحاج صالح بأنه قد صدر مني ما يوجب تجديد النكاح.

والثانية: أنها حل لها التزوج إلى آخر.

والثالثة: أن فيها إلقاء الرعب في قلب الخصم.

قلت: أهم حضرة الشيخ في باب البيت المذكور حتى أرسل مكتوباً من جزيرة قبرص حين نفى إليها في آخر عمره، وفيه عدم رضائه بإنكاحها إلى الحاج المذكور

(1) بياض في الأصل.

بحيث إنه فعل ذلك حضرة الشيخ في حبيبه يوم القيامة.

قال حضرة الشيخ: هل لك مرض جسماني؟ قلت: نعم، قال: إن الصحة الكاملة تسقط المرء إلى المرتبة الطبيعية والنفس، وأما مبتلي من قديم بريح البواسير، قال: العبد عبد ليس فيه شوب من الربوبية، والرب رب ليس فيه شوب من العبودية؛ فالكامل الأكمل الذي فرق بينهما فرقاناً ما ولم يخلط بين المراتب، ولذا كان الأكمل أعجز العاجزين صورة فكما كان بصيرته وروحانيته في غاية العلو هكذا كانت جسمانيته في غاية السفل، فهو لا يدري أوضع من نفسه وعجز في الخلائق؛ فالفيض الكامل يعطي التعبير بالشريعة والأدب بحيث يجد صاحبه لذة كاملة في العبادة لا يشبهها شيء من اللذات، ثم مَثَّلَ الفيض؛ فقال: كما أن صاحب الزراعة ينبغي له التقيد بكِراب الأرض، وهو لا يدري حتى ينزل المطر فكذلك صاحب المجاهدة ينبغي له التقيد بالأعمال والأخلاق، وهو لا يدري حتى ينزل الفيض؛ فإذا نزل يصيب محزَّة، فمن تجل في آنٍ غير منقسم لكنه يعطى علوماً غير متناهية، ومن تجل في يوم وأسبوع وفي شهر وفي أزيد يعني يمتد، وكل ذلك ليس في يد العبد، فكما أن في المطر الصوري رعداً وبرقاً، فكذا في الفيض المعنوي ما يشبهها.

والتجلي على أنواع؛ فتارة تنكشف أسرار النسخة الإلهية، وتارة أسرار النسخة اللفظية المكتوبة المنقولة عنها بالقرآن اللفظي، فهذه أربعة مصاحف غايتها الرابعة، فلذا ترى الكُمَّل لا يشتغلون في أواخر أعمارهم إلا بالقرآن، وليس شيء يصلح أن يكون مورد فيضهم وعلومهم سُوى القرآن.

ثم **قال**: وقد أعطاني الله في هذا الكتاب إيماناً كاملاً بحيث لو اتفق الملأ الأعلى والأسفل على خلافه ما زاغ قلبي ما دام التثبيت من الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [آل عمران: 8].

قال: إن شيخي كان رجلاً ساكناً متأدباً لا يغره بما يغر به أرباب الدعوى في هذا الزمان، وهو المقبول عندي أيضاً.

قال حضرة الشيخ: إن بعض الناس يطلب مني خارق العادة، وليس عندي غير الكرامات العلمية الباطنية وبعض من الخواص يعطي له الطرفان لكن المقبول هو ما يتعلق بالباطن والإله، لا بالظاهر والكون، فمن أراد أن يكون مريداً إليّ فليقبلني بهذه المرتبة، ومن أراد الخوارق والكشوف فليطلب من غيري، فإني لست بشيخ،

ثم تلا قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ عَلَىٰٓ ٱلۡحَقِّ ٱلۡجَٰهِلُونَ هَل﴾ [الأحقاف: 9].

قال: ما أدري ما يتعلق بالكون إلا أن يشاء الله، وأنا في ذلك كسائر الناس.

قال حضرة الشيخ: المريد والمرشد لا يتفقان في المشرب غالباً، وإن كان بينهما نوع مشابهة كما أن الابن لا يكون عين الأب من جهة الصورة، وإن كان بينهما نوع مماثلة فكل شخص لا يعطى إلا بقدر حاله واستعداده الأزلي والمرشد واسطة في البين وله التربية والعقول.

قال حضرة الشيخ: فرق بين الحضور والاستحضار، فالحضور لأهل النهاية والاستحضار لأهل البداية؛ فإنه لا نسيان للفرقة الأولى أصلاً فلهم الجمعية الكبرى، وأما الثانية فإذا طرأ عليهم النسيان يستحضرون، وعلامة الحضور مطلقاً الانجذاب من طرف الخلق والكون إلى طرف الحق والإله ومصداقه بالعبودية الكاملة فمن لا تعبد له فهو نسيان كامل لا حضور معه أصلاً فله سوء الخاتمة وهو فكر الغير، وخروج الروح معه، ومن له تعبد ناقص فهو في حضور ناقص وأهله على خطرٍ أيضاً، ومن له تعبد كامل بلا تكلف فله حضور تام، وكيف لا يكون له الحضور الباطني يعطى ذلك التعبد بالأعمال والأخلاق في الظاهر ثم وصى بالعبودية إلى أن يخرج الروح من الحلقوم.

وأمرني حضرة الشيخ بالإمامة في صلاة الرغائب ليلة الجمعة الأولى من رجب لسنة إحدى ومائة وألف، فلما صلينا المغرب، قال مخاطباً للحضَّار من الخلفاء أو غيرهم: ما تقولون في حق القرآن؟ فقلت: تخفيفاً لبعض الضعفاء، فقرأ في الأولى الفاتحة وسورة القدر، والثانية بسورة الإخلاص مرة، وهكذا إلى أن تم اثنتا عشرة ركعة.

وقال بعض الخلفاء مخاطباً لحضرة الشيخ: رأيته يعلمكم سورة القدر ثلاث مرات، وسورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة، وذلك في كل ركعة منها.

فقال حضرة الشيخ: هذا على وجوه لكن المختار الأولى والأقوى الذي هو العزيمة والتقوى فأمر بما كتبه؛ فقال بعضهم: هل يلزم المنذر؟ قال: لا، بل هو لإسكات العوام لكن لا بأس بالنذر فصلوا بأي وجه شئتم، فصليت على هذا الوجه إماماً لمن تبعني ممن حضر في دار حضرة الشيخ من الخلفاء وغيرهم، فلما تمَّ الصلاة والدعاء، قال حضرة الشيخ: تقبل الله ووصَّى أيضاً لوكيله في جامعه قبل أن يصلي هذا الصلاة هناك.

shaziliaassemia.com

ثم قال حضرة الشيخ: صلِّ بنا بعد العشاء صلاة التسبيح.

فقلت: نعم، فصلينا بالحمد لله، والرجاء الواثق على أن هذه الليلة كانت ليلة المغفرة والرحمة لأنا قد وجدنا ببركة حضور الشيخ خفة في الأبدان، وتوجهاً في الأرواح، ورقة في القلوب، وطمعاً في عفو الذنوب، واعلم أن صلاة الرغائب والبراءة والقدر صلاها العلماء الكرام والمشايخ العظام إلى هذا الآن، وحكم الإمام الغزالي باستحبابها، وأمر السلاطين في منشور أوقافهم أن يصليها أئمة جوامعهم بعد الإجماع من علماء زمانهم، والأمة لا تجتمع على الضلالة، و«**ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن**»[1]، فلا يضر بك الألفاظ المموهة لأهل الإنكار؛ فإنهم يزيدون في طنبورهم في كل عصر نغمة وصوت الطبل، وإن كان يبلغ بعيداً لكنه مجوف خال.

قال حضرة الشيخ: أصل السماع حق، ولكن هذا الوقت ليس وقت السماع. قال: هلا نكتب شرحاً على الطريقة المحمدية لمحمد البركوي، ثم قال: لا حاجة في هذا الزمان، فسكت من كان عنده، وقال: الحق ظاهر لأهله، قال: أهل الحق لا يرى الباطل، والدنيا عند أهل الحقيقة تبقى في مقام الاعتبار لا مقام الحقيقة.

أرسل حضرة الشيخ دراهم إلى الفقير في محلته، فقال: إن هذا وقع في قلبي هذه الليلة، فهذا الرزق لها من الوجه الذي لا يحتسب، فهو حلال طيب.

ورأيت هذا الصباح يوم الإثنين كأني صليت الترويح في جامع كبير على رأس جسر عظيم، فخرج حضرة الشيخ من الجامع فتبعته، فلما أخذنا نجرُّ إلى الجسر التفت إليَّ، وقال: أنا أريد منك أن تكون خدمتك لي كخدمة الأولياء للأنبياء فتفكرت أن الخدمة أشق فوجدتها متابعة الشيخ، وذلك؛ لأنه كان من دأب الشيخ أن يصلي التهجد فيه ثم يخرج عابراً الجسر إلى البلدة العظيمة التي كانت مقره، وهي في الرأس الأخير من الجسر، فعزمت على أن أتابع حضرة الشيخ في الصلاة والقيام ثم الخروج معه إلى تلك البلدة من ذلك من الجسر، فلما قرب انتهاء الجسر ورؤى البلدة التي وراءه استيقظت، والحمد لله على ما في هذه الرؤيا من بشارة المتابعة التي هي دين الأنبياء والأولياء أجمعين.

قال حضرة الشيخ: من عرف نفسه فقد عرف ربه: صعود.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2214) [2/ 245].

وقولنا في العكس: من عرف ربه فقد عرف نفسه: نزول.

فالأول إشارة إلى حال الفناء، والثاني إلى حال البقاء.

قال حضرة الشيخ: للمريد أن يتزوج بنت شيخه شريعة وطريقة، وأما نكاح زوجته مطلقة أو متوفًّى عنها زوجها؛ فهو وإن كان له مساغ شرعي لكن ليس له مساغ طريقي، ولا يجد الناكح ميمنة في ذلك النكاح أصلاً في الدنيا والآخرة ومثله الأستاذ في الصناعة؛ فإن الأستاذ والشيخ هو الأب المعنوي، وقد قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6].

قال حضرة الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه ـ في أواخر «مواقع النجوم»: احترام الشيوخ واجب، ومن احترامهم ألا يلبس ثيابهم، ولا يقعد في مكانهم، ولا ينكح المريد امرأة شيخه إن طلقها أو مات عنها، ولا يرد في وجوههم كلاماً، ويبادر لامتثال ما يقولون، ومن احترامهم تعظيم من عظموه، فعظم من عظم شيخك، وتلمذ له إن قدم عليك، وإن كنت أعلم منه؛ فإن الشيخ أعرف بالمصلحة لك منك، ولا يحجبك ما ترى من بعضهم عن تقديم الشيخ له عليك وتهذيبه انتهى.

قال حضرة الشيخ: يا إسماعيل، إنك ذبيح، ولا بد في الذبيح من التسليم، وليس لنا حقيقة التسليم لكنا نجتهد إلى الموت، ومن مات في الطريق؛ فقد وصل.

قال حضرة الشيخ: في هذا الباب شيخ وخادم؛ أما الشيخ فحقه التربية، وأما الخادم فشأنه الخدمة بالصدق والخلوص، ثم قال: إن شيخي أراد مرة أن يرسل واحداً من المريدين إلى الكرم فاختفى كل واحد منهم كراهة للخدمة، فخرجت من الحجرة؛ فقلت: أرسلوني، فقال شيخي: يا سيدي، إن لك درساً فيضيع وقتك، فقلت: لو علمت أن جميع العلوم تنكشف لي اليوم ما اخترت إلا الخدمة، فاستبشر ودعا لي واستخدمني، فكان ما كان بمقابلة هذا الخلوص والصدق.

قال: والرضا لا يدركه إلا من حصل له ثمرته، ثم قال: إن محمد دده كان رجلاً معتمداً عليه في أوائل حاله فاستصحبه الشيخ حين خرج إلى الغزو، فلما وصل إلى بلدة صوفية وقع محمد دده في الطمع، فأخذ ليلة سرق دراهم من كيس حضرة الشيخ.

قال حضرة الشيخ: فاطلعت عليه وهو قد ظنَّ أني نائم فأمسك بيده، فخجل، ثم انقطع عن الشيخ، وتغير حاله، وذلك أن بعض الأمراء كان قد أسرت له بنت،

فوعد لمحمد دده حين كان في خدمة الشيخ أن يزوجه بنته إن خلصها الله من الأسر فخلصها الله تعالى وأنجز الأمير وعده لكن ماتت البنت قبل الدخول؛ فلحق محمد دده ببعض القرى، وتغير دينه ودنياه نعوذ بالله، وقد سبق نظيره.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض الكتب أن حضرة شيث ـ عليه السلام ـ مرض مرة، فأرسل إليه حُورية بطبق من مأكولات الجنة، وزوجها إياه؛ فوُلِدَ، فكان أصل العرب جميعهم.

فقلت: هل يقع الازدواج بين أهل الدنيا وأهل الجنة في هذه النشأة كما يقع بين الإنس والجن؟ قال: نعم.

أقول: الملائكة والحور والجن أرواح لطيفة بينها وبين الكثيفة نوع تباعد؛ فالازدواج بين الإنس والجن والحور يحتمل أن يكون بعد التلبس بملابس هذه النشأة كما أن حكومة الملكين هاروت وماروت كذلك.

وأما آدم عليه السلام كان يأتي حواء في الجنة، وإن قابيل كان من أولاد الجنة؛ فليس بصحيح عندي إلا أن يحمل الجنة، على الجنة الأرضية كما عليه أهل التحقيق إذ الأولاد إنما كانوا بعد الهبوط والعلوق للتعارف الذي لا يحتمل النشأة الجنانية، ويدل عليه أن حواء كانت لا تعرف ما المنكر قبل الهبوط كما في روضة الخطبية.

كلف حضرة الشيخ خليفته الشيخ حسين الأزميدي أن يقرأ في محضر شريف ابنه الكبير السيد محمد الجودي الفارسي فتوقف ولم يجسر عليه، وزعم أن النسخة مختبطة، فجرى ما جرى من الكلمات بيننا حتى قال الشيخ متبسماً: إنكم أشغلتمونا، وكان السيد المذكور يقرأ: «يندعطار» فبدلوا بالنسخة السقيمة المستقيمة، أو «يندعطار بوستان، أو كلدستان» أو غيرهما؛ فقال بعضهم: إن في «يندعطار» يمناً وبركةً؛ فإن التواتر على أن حضرة الشيخ ابن العطار ـ قُدِّس سرُّه ـ دعا لمن ابتدأ الفارسية بكتابة ذلك: أن يكون عارفاً في ذلك اللسان.

فقال حضرة الشيخ: بخٍ، بخٍ؛ فقام إلى الحرم.

فقال حضرة الشيخ: بعض الناس وقع لي الهيبة فاستولى عليه الخوف، وبعضهم في الأنفس فاستولى عليه الرجاء والاعتدال إلى أن يكون المرء بين الخوف والرجاء لكن الله تعالى يفعل ما يشاء، استأذن بعض الفقراء في الذهاب إلى مكة

المكرّمة فدعا له بالرشد وقال له: قل حين خروجك:

﴿رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: 80].

وحين النزول: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ﴾ [المؤمنون: 29]، وهكذا في كل مرحلة، ثم قال ممثلاً: إن أهل التجريد الصوري كالذباب يليق بفمه من غير تلطيخ رجليه فتسليم فإذا لطخ رجليه منع الطيران؛ فأهل التجرد يطير إلى حيث شاء كالذباب، قال: قيل للحطاط أرجل؟ فوضع أبرمة على رأسه فرجل، ولو حيل بلا جواب الذي علق بلباس بدنه اخلع لباسك، هان عليه ذلك؛ فإنه تعلق به كالغير.

قال: التجرد الصوري مدار للتجرد المعنوي، وأما قوله: لا يضر التعلق الصوري إذا وجد التعلّق المعنوي فسقط من وجه.

ثم قال: أنت من أهل الهداية حيث كنت وراء البحر، ونحن من أهل الخبرة حيث كنا هاهنا، والخوف غالب علينا؛ لأن هذه البلدة محل الخطر الآن.

أقول: هذا الكلام صدر منه بحسب المقام فليس له خوف عمَّا سوى الله.

قال حضرة الشيخ: بعد صلاة العصر مخاطباً لابنه الكبير السيد محمد الجودي: إن الأب أصل، والابن فرع، والأب فرد، والابن جمع، والأب مظهر يد الله، والأبناء مظاهر الأبد، والأيدي وإن كانت في غاية القوة بحسب التظاهر والتجمع لكنها إنما تستفيض القوة كأغصان الشجرة من الأصل كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ﴾ [الفتح: 10]؛ فخافوا من الأب، فإن الحل والعقد والرد والقبول في يده بالنسبة إلى الأبناء لا في أيديهم أقول هذه الكلمات، وإن جرت بحسب الملاطفة لكنها في نهاية المعنى.

قال حضرة الشيخ: إن الدنيا دار ناز يعني: من طرف الله، ودار نياز يعني من جانبك والجنة دار ناز، فلك ناز، ومن الله نياز يعني: الإنعام والإحسان، والمتوجه إلى جنابك هكذا قال: ناز باللسان الفارسية.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض الكتب المعتبرة أن الغزو فرض والحج فرض إذا اجتمعا يرجح الأول، ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم﴾ [التوبة: 36].

قال حضرة الشيخ: ذلة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وافتقارهم أشد من غيرهم، فهم الكُمَّل الظاهر في الباب والأعز منهم وأقدرهم أشد خوفاً من الله من غيرهم ثم تلا قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ﴾ [المائدة: 44]، فقال: إنما ينهى عن الخشية من الناس؛ لأنهم صور وأشكال ولا ينبغي الخوف من الصور، وأما الله سبحانه فهو المحرك بتلك الصور فينبغي الخشية منه؛ فإنه إذا أراد أن يوصل البلاء من وجه ذرة وبعوضة، وهو على ما يشاء قدير.

قال حضرة الشيخ: دعاء العبد إنما هو لإظهار العبودية والذل والافتقار والامتثال لأمر الملك الغفار لا لحكم على أحكام الله ومداخلة أمر من أموره؛ فإن الله لا معقب لحكمه، ويفعل ما يريد.

قال حضرة الشيخ: مخاطباً لخليفة الشيخ حسين الإزميدي: إن اللسان شريعة، والجنان حقيقة، والنظر إلى الظاهر في مرتبة الشريعة؛ فمن ادَّعى من أهل بيتك محبة الله ومحبة رسوله وأجرى كلمتي الشهادة على لسانه فاحببه أنت، سواء أحبك أو لا، ومن لم يحب الله ورسوله بل أبغضهما فابغض إليه أنت، سواء أبغضك أم لا؛ فالأول: هو الحب في الله، والثاني: هو البغض لله؛ فمن أحببته لحبك، فهذا هو الحب للنفس لا لله، ومن أبغضته لبغضه لك؛ فهو البغض للنفس لا لله، وكلاهما مذموم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾ [الزمر: 3]؛ فالخالص هو الأولان، والمشوب هو الأخيران ثم فرق بين الخالص، والمخلِص بكسر اللام، والمخلَص بفتح اللام ورجح الأول؛ لأنه خالص أصلي بالنظر إلى أنه ثلاثي، والمجرد مقدم على المزيد، وهو المتخلص والمخلص.

ثم **قال**؛ صبيان الحقيقة كالخنثى فله ذكورة وأُنوثة، واللائق أن يكون المرء من الرجال لا الخناثى والإناث ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 36]، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ [النساء: 34].

وقوله: ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا﴾ [النساء: 32]، وبعد بسط كثير الكلام.

قال حضرة الشيخ: هذه الكلمات ببالي وقت السلام الصلاتي، فأردت أن أخاطبك بها يعني هذا الفقير ثم صرفت العنان إلى الشيخ حسين، أقول ذلك؛ لأن الشيخ حسين كان ضجوراً متنفراً من أهل بلدته إزميد، فأراد حضرة الشيخ تربيته

بهذه الكلمات فخاطبه، وكان الشيخ حسين مهموماً من حيث إن واحداً من أتباعه كان ذهب إلى مدينة أدرنة لمصلحة له مهمة فعند تكلم الكلمات ورد البشير والورق بأن المصلحة قد تمت، فاستبشر حضرة الشيخ والحاضرون، فقرأ حُسين أفندي قوله تعالى: وَﭐلنَّهُ ﷺ هُوَٱلأَبْتَرُ ذُرِّيَّتَهُمُ ٱلبُيُوتَ أَبْوَٰبِهَاۚ صِرَٰطٍ وَلَهُۥ ثُمَّ أَنزَلَعَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [النمل: 40].

و**قوله**: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]. قال: تمَّت مصلحتك ولو لم تكن مهموماً لها تجده خيراً لك؛ فإن الأمر بيد الله، وتدبير النفس لا يغني شيئاً وما تعده عسيراً فهو يسر بالنسبة إلى الله تعالى، بل العسر واليسر بالنسبة إلى العبد واللازم على العبد تفويض الأمر إلى الله تعالى فلو أدخله في الجحيم ينبغي أن يعدها نعمة؛ لأنه بصنع الله الذي هو المبتلي لا بصنع الغير.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾ [النساء: 11]: من جهة المال في مرتبة الشريعة كذلك من جهة العلم في مرتبة الحقيقة؛ لأن الذكر الحقيقي هو أهل الحقيقة الوارثون لعلم الظاهر والباطن والأنثى الحقيقية هي الشريعة الوارثون لعلم الظاهر فقط فالرجال حقيقتهم الذكورة وإن كانوا في صورة الإناث كمريم وآسيه وفاطمة وخديجة ـ رضي الله عنهن ـ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَنفُسِهِم مَّا لَا﴾ [التحريم: 12] حيث لم يقل: من القانتات إشارة إلى بلوغ مريم مبلغ الرجال.

ثم **قال**: إن الله يفتح لبعض الأولياء من العلم اللدني ما لم يفتحه للأنبياء، ولكن لا يلزم من ذلك كون الولي أفضل من النبي؛ لأن كماله كمال من وجه دون جميع الوجوه، ولا يوجب إلى ذكر عائشة ـ رضي الله عنها، وكلام الشيخ الأكبر ـ قُدِّس سرُّه ـ في حقها، وفي حق سائر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فقال: إن الشيخ مأذون في الكلام في حق الكُمَّل أنبياء أو أولياء، وليس لغيره ذلك الإذن.

قال حضرة الشيخ: عالم الدنيا خيال بالنسبة إلى عالم الآخرة، وهو أيضاً خيال بالنسبة إلى عالم الأمر؛ فاليقظة في الدنيا نسبية وكذلك في العقبى واليقظة الحقيقية وراء ذلك، وإنما قيل: لعالم العقبى عالم اليقظة من حيث إنه ناظر إلى عالم الأبد باقٍ كبقاء الأرواح وإلا فالإمكان لا يزول، وإن كان المرء في الجنة.

قال حضرة الشيخ: ليس لله تعالى ند ونظير إذ هو عين واحدة وشيء واحد، ولا وجود للأعيان والأشياء والأعيان، وإن كانت متضادة من حيث التعينات لكن ليس بين التعين والتعيين ضدية كالموصوف له أوصاف يضاد بعضها بعضاً لكن لا تضاد بينها وبين الموصوف فإذا لم يكن في الوجود سواه تعالى فكيف يوجد له نظير وند، ثم قرأ قوله تعالى ﴿وَظِلَٰلُهُمۡ كَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ يَنَّهُمۡ وَأُلُوالِيُوتَ﴾ [فصلت: 54] أي: لقاء العين بالمتعين وغافلين عن ذلك، ﴿ٱلۡنَزَعۡنَا مَا فِى﴾ [البروج: 20] لأن صور الموجودات تعيناته تعالى لا تعينات الغير نسأل الله اليقظة والشهود والوصول إلى معرفة وحدة الوجود، أقول: هذا المعنى قد انكشف لي سابقاً فعرفت به بطلان قول من قال: إن الله عالم بالكليات لا بالجزئيات، وذلك لأن الآثار المختلفة مستندة إلى التعينات، وهي ملاقية بالتعين الذي هو الفاعل الحقيقي فلا يعزب عن دائرة علمه وإحاطته تعالى مثقال ذرة في السموات والأرض، فكما أن الله يعلم ذاته فكذا صفاته المتجلية بها في صور الموجودات مطلقاً وأفعاله الصادرة عنها في كل زمان وهو كل يوم في شأن، وهذا مذاق معنوي عياني لا مدرك عقلي برهاني،ومن هنا يعرف وجه كمال هيبة الأنبياء والأولياء وخشيتهم من جلال الله تعالى ولو في صورة الفطرة والذرة إذ هي كالبحر وكالشمس مجلى ومظهر لسانه من الشؤون الإلهية، فلذا كانت مراقبتهم دائمة باقية، ثم إنه لا بد للسالك من الله بين هذا الموجود الساري فيه لئلا يرد وما هو أخس المظاهر الكونية مع أنه قيل لا تنكر البال في طوره؛ فإنه بعض ظهوراته فافهم؛ فإنه من مزالق الأقدام.

فرق حضرة الشيخ بين الكسب وبين أكل الوظيفة المتعينة، فرجح الأول على الثاني؛ لأن الأول يقول حين تعوده في حانوته مثلاً؛ يا رب أرسل إليَّ من يشتري متاعي، فيذكر الله دون غيره.

وأما أهل الوظيفة فيعدون الأيام، ويعمدون على ما عين لهم من المال، ولا يتكلمون على فضل الله الملك المتعال.

قال: رأيت في «شرح المناسك» للشيخ علي الفناري أنه قال: ارتحل أهل الله من الحرمين منذ ظهرت صلاة السلاطين للفقراء السالكين حينما صلّى حضرة الشيخ صلاة المغرب والأوابين ليلة المعراج من سنة إحدى ومائة وألف؛ فقال مقبلاً على الأتباع: ليجعل الله ليلتكم هذه مباركة عليكم فرددناه بما قال.

و**قال**: أوصلنا الله إلى سرِّ المعراج، وهل تدرون ما سره؟ مثلاً قوله تعالى:

ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ﴿٨﴾ ٱللَّهُ هَٰهُنَا قُل لَّوۡ كُنتُمۡ﴾ [النجم: 8، 9].

و**قال**: قوله: ﴿ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ إشارة إلى العروج والوصول ليلة المعراج، وقوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾ إشارة إلى النزول والرجوع.

و**قوله**: ﴿ ٱللَّهُ هَٰهُنَا قُل﴾ بمنزلة النتيجة إشارة إلى الوصول إلى العالم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [الإخلاص: 2].

و**قوله**: ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ﴾ إشارة إلى الوصول إلى عالم الذات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ مَا﴾ [الإخلاص: 1]، وذلك في سورة الأخلاص.

ثم **قال**: هذا المعراج كان في الليل دون النهار؛ لأن الليل سر الفناء كما أن النهار سر البقاء، وكان أيضاً في صورة الصعود والهبوط؛ لأنه وقع بالجسم والروح معاً، ثم فصَّل وقال: المعراج إما بالجسم والروح معاً، أو بالروح والعلم، والأول مخصوص بالنبي ﷺ؛ فإنه عرج بروحه ثلاثاً وثلاثين مرة، وبجسمه وروحه مرة، والثاني يوجد في الأولياء أيضاً إلا الضعفاء؛ فإنهم يعرجون في المنام والأقوياء في اليقظة حال الانسلاخ التام، ومنهم من لا ينفك عن المعراج كل لحظة، وذلك بالعلم الإلهي الكلي؛ فإنه تعالى يكاشف عن أسرار آياته الأنفسية والآفاقية؛ فيريها له كما قال: ﴿ مَا صُدُورِكُمۡ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا﴾ [فصلت: 53]، والرائي في المعراج الروحاني عين البصيرة لا عين البصر فإن للكاملين عينين ظاهرة وباطنة فيرى بالظاهرة عالم الملك والشهادة ويعطي بها ما يستحقه ويرى بالباطنة عالم الملكوت والغيب ويعطي بها حقه أيضاً مثلاً ينظر إلى أهل الظاهر بالعين الظاهرة ويعاملهم بما يناسب حالهم، وينظر إلى أهل الباطن بالعين الباطنة ويجاملهم بما يناسب بحالهم فلا يحجب بواحدة منها عن الأخرى كما احتجب أهل الظاهر عن رؤية أهل الحقيقة؛ لأنه ليس له العين الباطنة، وأهل الباطن احتجوا عن رؤية أهل الظاهر؛ لأنه ليس له العين الظاهرة أي: النظر الكامل بمرتبتها والكمال فإن صاحبه ينفق على كل واحد من الفريقين حقه.

ثم **قال**: المرء إما واصل، وإما غير واصل إلى هذه الأسرار.

أما الواصل فلا كلام فيه.

وأما غير الواصل؛ فإن كانت عزيمته على عدم الانقطاع من المجاهدة إلى الموت فذلك كالواصل؛ لأنه في طريق الوصول.

ثم **قال**: الصلاة إما لأجل الثواب أو لله تعالى فما كان للثواب لا يكون لله تعالى، وصاحبه أجير، وما كان لله فصاحبه عبد حق وأجره أوفر وأكثر.

ثم **قال**: أيكم يؤم لنا ويصلي بنا صلاة التسابيح بعد العشاء، وقد قال قبل يوم: أيكم يصلي بنا ليلة المعراج صلاة التسابيح؟ وكنت قد اعتذرت بالزكام فاختاروا هذا الفقير فصليت بهم تلك الصلاة على الرواية الراجحة، وهي التي ليست فيها جلسة الاستراحة بعد السجدة الثانية من الركعة الأولى، والحمد لله تعالى.

ذكر حضرة الشيخ خليفة الشيخ حسين الإزميدي؛ فقال: إنه قد دخله الشك في أمر الرزق والتردد والإنكار في الاعتقاد، ولكن يلزم للمريد الطاعة لأمر الشيخ والثبات في الأرض التي استخلفه فيها؛ فإن الشيخ من أولي الأمر للمريد، ولا بد من المتابعة للقضاء والاقتفاء والتسليم ولا يكون القضاء تابعاً له، والمريد من لا إرادة له والمؤيد من عند الله تعالى، وإن وقع اضطراب من جهة النفس في بعض الأحيان كما يقع لأرباب النفوس البشري لكنه لا يستقر عليه بل يتحول إلى السكون والأنس وهذا غير مضطر في طريقه لقبوله الزوال، وإنما ذلك تربية له، ثم تلا قوله تعالى على هذا التأويل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: بالله عما سوى الله ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [الأعراف: 201] إما بحسب الدنيا أو بحسب العقبى، والشيطان، والنفس، والحلال أمر واحد في الحقيقة، لكن الأول بحسب الشريعة.

والثاني بحسب الطريقة.

والثالث بحسب الحقيقة إذ لكل مقام عبادة مخصوصة به ولا بد من الاعتبار، فنصوا بحسب الظاهر إذ لا تردد في اعتقاده فقد تمسك ما تمسك باعتبار أنه حق وصدق واقع بخلاف التردد؛ فإنه مذبذب وليس ذلك إلا بمقتضى استعداده، ثم أخبر عن نفسه فقال: إني كنت ابن سبع عشرة حين دخولي في الطريق، ومنذ قد دخلت انحل العقد الأول بالتقوى لأمر الله تعالى، وإن الله إذا أراد بعبده خيراً وجذبه إلى جانبه زاد في تجرده وانقطاعه إلى آخر العمر، قال: لا نفع له من إقرار واحد كما لا ضر من إنكاره.

و**قال**: المريد لا يعرف حال شيخه ولا يعتقده حق الاعتقاد ما دام لم يصل إلى مرتبته إلا أن يعرفه الله قبله، وهذا الشأن لا يكون من خارج بل من داخل فلا بد للعبد من الافتقار ورد التردد والإنكار من العلم والعرفان والشهود والعيان والتذكير

والبيان وكثرة الصوفية والإخوان قيد لأهل الحق ولا بد من التجرد من القيود، قال: من وصل إلى الله فهو قائم بالحق، دائر بأمره مستمر، فلو أدخل الله كل الخلائق الجنة دونه لم يتألم منه أصلاً؛ لأن الأنس بالله لا يتفاوت بالدخول والخروج والمقصود هو الأنس.

قال حضرة الشيخ: الابتلاء لا يزول إلى آخر العمر، وإني إلى الآن مرة ابتليت بالبسط ومرة بالقبض والانقباض؛ لأن الكل قضاء الله تعالى، قال في حق موسى عليه السلام: ﴿ بَعْضٍ بِذَاتِ﴾ [طه: 40].

قال أحد العلماء: أي: وطحناك طحناً، قال: إن يونس عليه السلام كان له إذن في أمر الخروج بحسب الحقيقة لكنه لما لم يكن مقارناً بالإذن الصوري ابتلاه الله بالحوت فالاحتياط لازم.

قال: إن بعض المريدين بل الخلفاء لو أظهرت لهم ما أنعم الله به عليَّ من الأسرار والحقائق لفروا مني كما يفرون من الأصنام لعدم ثباتهم في أمر الاعتقاد، ولا بد من الفرار إلى الله تعالى من كل قيد وعلاقة وترك الحق خلفه كما قال تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً﴾ [المدثر: 11] فإن الحضور في ذلك.

قال حضرة الشيخ: إن بعضهم يتسارع انكشافه وبعضهم يحصل له على التأني ثم أنشد قول الهدائي في بعض مفرداته التركية [. . . .][1].

قال حضرة الشيخ: رأيت شيخي الصغير في المنام، وقلت: هل أنت راضٍ عني؟ قال: نعم، فكررت اطمئناناً فلم يزل يشير بالرضا ثم أمرني باجتناء من بعض ثمرات حديقة، فاستيقظت.

قال حضرة الشيخ: أولاد العرب أشد كبراً وفخراً من غيرهم فمن قابلهم بالتقدم أخروه، ومن قابلهم بالتأخر قدموه، وفيه سر «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله».

فقلت: هذه المعاملة تحتاج إلى سعة الأخلاق؛ فإنه لا يتحمل أوضاعهم إلا القليل من أفراد الرجال، قال: نعم، وجاملناهم غاية المجاملة حين مررنا بمصر في طريق الحج فعظمونا، وبجلونا وشيعنا حين الخروج منها قريب من أربعمائة من شيوخهم وعلمائهم، خصوصاً إبراهيم اللقاني شيخ الحديث، وصاحب السلسلة،

(1) بياض في الأصل.

ومختار الكل، وبكوا علينا بكاءً شديداً.

وتلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ﴾ [البقرة: 249]، وقال: إن أهل الإسلام كثيرون بالنسبة إلى الجانبين كما ترى أن كفار «نمجة» وهم كثيرون بالنسبة إلى كفار فرانسز، فأسوته تشير إلى الجانبين كما ترى، وكما أن كفار نمجة محاربون مع فرانسز، كما كانوا محاربين مع أهل الإسلام، وقد هزموا أهل الإسلام مرات وهزمهم ـ أي: نمجة ـ كفار فرانسز مراراً، والكل بيد الله.

قال حضرة الشيخ: ليس الوصلة بيني وبين خلفائي إلا من الوصية؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 3] فالوصية بالحق والصبر لا بد لي منها في حق الكل خصوصاً في حقهم.

قلت لحضرة الشيخ: أصعب شيء عندي أمر إصلاح الأخلاق.

قال: أين نحن من ذلك؛ فإن المصلح هو الله ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي﴾ [النساء: 49]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: 21] فالكل من عند الله.

كان حضرة الشيخ قد أشار إليّ بالمكث إلى آخر رجب فلما تمت المدة عين يوم السبت للخروج، وهو الرابع من شعبان فقبلت يده الشريفة بعد صلاة الفجر من ذلك اليوم فدعا لي دعاءً جامعاً دنياويّاً وأخراويّاً، وقال في آخره: هذه العبارة التركية.

[................](1).

* * *

(1) بياض في الأصل.

الزيارة السابعة

هذه الزيارة آخر الزيارات وهي قبرصية، وقعت في هلال سنة اثنتين ومائة وألف، وقد سبق سببها، وبعض كلماتها على التفصيل فلا نعيده ولا علينا أن نشير إلى البعض الآخر منها.

قال حضرة الشيخ: إن استناد الكفار إلى الأحجار ألا ترى على القلاع والحصون، واستناد المؤمنين إلى لا إله إلا الله ألا ترى أنهم لا يتحصنون بحصن سوى التوكل عليه تعالى وهو يكفيهم، قال: «**لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي**»[1].

قال حضرة الشيخ: إن حسام أفندي المدفون في «استانكوي» من أجلة مشايخ الطريقة، وقد مضى منذ مات قريباً من المائة، وهو أستاذي المعنوي؛ لأنه قد قرأت منه في المنام.

قال حضرة الشيخ: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14] الآية إشارة إلى أصحاب الشمال، وقوله تعالى بعده: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: 14] إشارة إلى المقربين من أصحاب الميمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّـٰتٞ﴾ [آل عمران: 15].

الآية إشارة إلى الأبرار من أصحاب الميمنة، ومقام العندية المأخوذة من قوله تعالى، والله عنده أفضل وأعلى كأنه تعالى أشار بتعقيب الجنة بذلك أنكم إن كان لكم ميل إلى ما سوى المولى فليكن ذلك إلى الجنة لا إلى متاع الحياة الدنيا.

قال حضرة الشيخ: لا ينفخ الروح ما لم يكمل الجسد والجسد هو الشريعة والطريقة والروح والمعرفة والحقيقة فإذا كمل شريعة السالك وطريقته فليرتقب نفخ روح المعرفة والحقيقة وإلا فلا.

---

(1) أورده المناوي في الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية، حديث رقم (45) [1/ 26] ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة جعفر بن محمد الصادق، [3/ 192].

قال حضرة الشيخ: أستاذ المرء وشيخه أعلى وأفضل من الأب الطيني؛ لأن الأب الطيني موجود للكفار وأهل الإسلام مشتركون فيه، ويمتاز المسلمون منهم بالأب الديني، وهو المعلم والمرشد، ثم قال: خير الآباء من علمك، ووصى حضرة الشيخ بأن يقرأ المؤذن بعد إحدى وأربعين الصلوات على النبي ﷺ في أعقاب المكتوبة على ما في وصايا حضرة الهدائي فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ . . . إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 18، 19].

وَٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 26، 27] ثم يسبح ويحمد ويكبر، وذلك في دُبر كل صلاة على ما في معالم التنزيل.

قال المشايخ: اتخذوا الخانقاهات لأجل أن يشتغلوا فيها باتباعهم بإحياء مثل هذه الأمور، ومعنى الإحياء: ترك الإهمال، والأخذ بالاستعمال، ثم وصى بترك القيل والقال، وترك أسباب الاشتهار، وبأخذ الخمول والمجاهدة مع النفس والطبيعة.

و**قال**: إن القوى الطبيعية والنفسانية ككفار الإنس والجن، والقوى القلبية والروحانية كمسلميهم والملك، فكما أن الجهاد في الظاهر بين المسلم والكافر ماضٍ إلى يوم القيامة، فكذا الجهاد في الباطن بين القوى، وإن الله لا يجرد العبد من كل علاقة في كل زمان، بل يسلبه في بعض الأحيان، وإن كان إنساناً كاملاً يبقى على المجاهدة؛ فإن الإنسان لم يترك سدى.

قال حضرة الشيخ: معنى نداء المؤذن: صلوا على النبي عليه السلام إحدى عشرة صلاة، أن الأفلاك سبعة وبالعرش والكرسي واللوح والقلم، يصير المجموع أحد عشر، والصلوات بعدها إشارة إلى نزول الفيض من هذا المذكور، ولا تعين فوق هذا روحانياً أو جسمانياً، ولهذا انحصرت الصلوات عند البعض في العدد المذكور، ثم حضرة الهدائي اختار إحدى وأربعين مرة فنحن على الامتثال، ولا شغل لنا غير الطاعات والأعمال؛ فاجتهدوا أنتم حتى تكونوا متبعين لنا في هذا

الباب، وحتى يقول الرسول ﷺ يوم القيامة: (خوش كلدك)؛ والله (خوش كلدك خاصة قوله) فإن المراد بإحياء ما أهمله الناس من السنن والمستحبات أن يكون المرء عبداً خاصاً صاحب عزيمة وتقوى، والله تعالى قال: ﴿يُخْفُونَ أَنفُسِهِم مَّا﴾ [التغابن: 16] إشارة إلى أرباب الرخصة من المؤمنين.

وقال أيضاً: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: 102] إشارة إلى أصحاب العزيمة منهم فكل ضرر في الدنيا والآخرة إنما يأتي من الإهمال، ثم دعا مرتين دعاءً جامعاً.

وجاء إلى حضرة الشيخ واحد من الأطفال بخبرين فلاطفه، وقال: إن الطفل قريب العهد إلى عالم الذات، وفيه رائحة ذلك العالم، ولذلك يستأنس به الشيوخ، وينزلون إلى مرتبته في التكلم وغيره.

جمع حضرة الشيخ الصوفية، وهم أربعة أنفار غير ولده السيد مصطفى والفقير؛ فقال اعلموا أن أول من ابتلى بالاحتلام أبونا آدم عليه السلام فإذا وقع لأحد منكم فاغتسلوا تحت هذه الغرفة في المحل المهيأ للوضوء والاغتسال، ولا تستحيوا، وارفعو التكلف من البين في الدخول والخروج؛ فإني لا أرضى بغير ذلك، أقول: إن روح الله روحه تنزل نفسه في أواخر عمره منزلة واحد من الناس ـ يعني: عند أتباعه ـ فلذا رفع الكلفة بل الخدمة؛ فإنه كان لا يستعين أحداً في وضوئه أصلاً.

قال حضرة الشيخ: إن عالم الفناء عالم القدس، والتجرد بخلاف الرد إلى البقاء؛ فإن الله تعالى يبتلي صاحبه بما يبتلي به أصحاب الطبيعة، والنفس لكنه على اليقظة والعرفان وأصحابهما على الغفلة والجهل يعني: أن المردود إلى البقاء وإن كان مبتلى بأنواع البلايا لكنه على الله مع الله، فلا يعتريه جزع ونحوه بل يحمده على النعمة والمحنة ويستغفر عند الذلة بخلاف غيره من الباقين في الفرق الأول، ثم قال: كما أن الوجود لله تعالى حال الفناء فكذا حال البقاء، وإن كان مضافاً إلى العبد صورة ألا ترى أن من ركب دابة، فقد يقال: إن له دابة لكن ليس له دابة فكما أنه مسلوب عنه تلك الإضافة حال عدم الركوب، فكذا في حال الركوب وهذا من مزالق الأقدام، قلت: هل ترفع الانقباض من أخلاق النفس؟ قال: لا ولو كان نبيّاً؛ فإن الله تعالى لا يدع العبد في الدنيا على يد واحدة وهي الجمال الصرف، وإنما يكون ذلك

في الجنة إذ الابتلاء يرتفع هناك، وكل ورد التزم يحتمل السقوط إلا ورد الاستغفار؛ فإنه باقٍ إلى آخر العمر بمكان الابتلاء بالمجاهدة ما دام حياً ولو عين رسول الله ﷺ الاستغفار كل يوم مرة وعرف أنه يستغفر ربه كل يوم هذا العدد، قال: ومن هذا ظهر أن الاستغفار ليس في ترتيب الأسماء السبعة لعدم خلو كل مقام عنه ولو كان فيه بخلاف نفسه عن بعض المقامات وليس كذلك.

قال حضرة الشيخ: قوله تعالى ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [القارعة: 6] إشارة إلى أهل اليقظة حسناتهم غالبة على سيئاتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل﴾ [القارعة: 8] إشارة إلى أهل الغفلة لما أن سيئاتهم غالبة على حسناتهم والحكم للغالب في الفريقين فظهر أنهم مشتركون في فعل السيئة ولو بحسب مراتبهم، ولا يرتفع ذلك الابتلاء عنهم، ولذا قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه:

«**يا عليُّ، إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة**»(1) لما أنه مقتضى اسم الغفور.

وقد كان عليه السلام يعلم أنه يعمل السيئة، ولو في بعض الأحيان، ولو بحسب الفكر، ولذا وصى بالحسنة، وإنما قلنا بحسب الفكر؛ لأن ما يدور في جنان أرباب العزيمة مأخوذ به.

ثم **قال**: والحاصل أن توارد الليل والنهار إشارة إلى توارد السيئة والحسنة فكما أن الدنيا لا تبقى على الليل وحده أو النهار وحده بل هما على التعاقب دائماً فكذا العبد المؤمن لا يخلو من نور العمل الصالح وظلمة العمل الفاسد والفكر الفاسد فإذا كان يوم القيامة يلقي الله الليل في جهنم والنهار في الجنة، فلا يكون في الجنة ليل كما لا يكون في النار نهار. يعني أن النهار في الجنة هو نور إيمان المؤمن ونور عمله الصالح بحسب مرتبته، والليل في النار هوظلمة كفر الكافر وظلمة عمله الفاسد فكما أن الكفر لا يكون إيماناً فكذا الليل لا يكون نهاراً، والنار لا تكون نوراً فيبقى كلٌّ من أهل النور، والنار على صفته الغالبة عليه، وأما القلب وحاله بحسب التجلي فهو على عكس الحال الغالب؛ فإن نهاره المعنوي لا يتعاقب عليه الليل، وإن كان يطرأ عليه استناد في بعض الأوقات.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24]: إن من حيلولته تعالى بين المرء وقلبه أن يحب بعض العباد

الشغل بالعلم والمعرفة وغيرهما وبعضهم الشغل بخلاف ذلك ولو عرض على أحدهما شغل الآخر لتنفر وأعرض، وقلب المرء بين أصبع من أصابع الرحمن.

قال حضرة الشيخ: أنا في عالم الغربة عند ست سنين، قلت: ورد فطوبى للغرباء قال: من هو في عالم الغربة كمن بقي وحده في البحر المحيط، وإلى هذه المرتبة أشار عليه السلام: «**كنت يتيماً في الصغر، وغريباً في الكبر**»[1].

قال: ومعنى الغربة أن ينسلخ عن كل صورة ومعنى وينقبض عن جميع الاستهالات والتنزلات ليبقى وحده.

قلت: هل شيء وراءها يكون مطمحاً للعارف؟ قال: هي غاية الغايات، ولا مطمح وراءها.

قلت: الغربة كحال النقطة حيث يضمحل عندها تفاصيل تعينات الحروف والكمالات والسطور، قال: نعم وإنما يحصل ذلك فوق التعينات علمية أو عينية، قال: وفقني الله من أسرار الحروف المقطعة على ما لا يوصف، قال: إني ما وجدت علم الظاهر والباطن إلا بخدمة الشيخ، وحسن الاعتقاد؛ فإن تأثير الخدمة وحسن الاعتقاد فوق تأثير المطالعة والاجتهاد.

قال حضرة الشيخ: فسَّر ابن عباس رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ﴾ [طه: 114] أي: إيماناً ويقيناً بك، وهو أجلُّ التفاسير وأدقها، وذلك لأن علو الإيمان واليقين به دون غيره، وهو أصعب الأمور.

قال حضرة الشيخ: مخاطباً لهذا الفقير: كيف حالك؟ قلت: طيب.

قال: في السكون أو في الحركة؟ قلت: في الحركة.

قال: البركة مع الحركة، وكنت عند هذه المقاولة أكتب كلماته الشريفة التي سمعتها منه في ذلك اليوم وذلك وراء سبحات الذي كان عينه لي في بيته المنيف توضأ حضرة الشيخ فمسح ذراعيه لأمن إسالة الماء الجديد عليها فخطر ببالي منع الفقهاء من ذلك وأن المناسب بحال حضرة الشيخ وصَّى التقيد بأحكام الشريعة غاية التقيد أن يكون على خلاف ما رأيت منه وهذا قد مر على خاطري من غير اعتراض؛

---

(1) رواه ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل، حديث رقم (34325) [7/ 78] ونصه: قال معاذ بن جبل أي رسول اللّه أوصني قال أعبد اللّه كأنك تراه واعدد نفسك من الموتى واذكر اللّه عند كل حجر وشجر وإذا عملت السيئة فاعمل بدنبها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانية.

لأنه لم يكن من شأني الاعتراض قديماً لكنه لما كان في صورة اعتراض أراني الله في المنام تأديباً وتربية كأني مشرف من محل مرتفع، وإذا مدرّس مذموم بين الناس استقبلني من الطريق، وأرى أن لحية حضرة الشيخ كأنها مصفرة وكذا لونه، وقد كان أبيض فانتبهت فعرفت الحال، وأستغفر الله الملك المتعال؛ فالمدرّس إشارة إلى المسألة الشرعية التي خطرت ببالي، واصفرار اللون إشارة إلى النظر بالنقصان وعلى الله التكلان، ونعوذ به من الخذلان.

طالع حضرة الشيخ حاشية على تفسير الفاتحة التي نسختها من نسخته المباركة، ثم قال بطريق الملاطفة: شدوني واضربوني مائة سوط؛ فإن الله تعالى أنعم عليَّ بمثل هذه النعمة الجليلة، وأنا على كفران نعمه.

قلت: إن وقع ذلك فقد ذكركم الله نعمه السابقة، فقال: أستغفر الله من الكفران والعصيان.

قال: إن السالك لا يخلو من إجمال وتفصيل إلى آخر عمره، وحقيقة التفصيل تظهر عند احتضاره ثم هذا التفصيل إجمال بالنسبة إلى التفصيل البرزخي وهو إجمال بالنسبة إلى التفصيل الكشفي الذي يظهر عند الرؤية ثم لا نهاية للتفصيل.

شكوت إلى حضرة الشيخ من أخلاق النفس، قال: لا يتخلص العبد من الانقباض من أخلاق النفس إلا في مرتبة الأحدية الذاتية؛ فإن فلكها واسع وإحاطتها كاملة وعندها ينجلي قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ﴾ [البقرة: 247]، وكلُّ خيرٍ وشرٍّ تعين في جميع التعينات إلى أن ينزل إلى تعين جنانه أو لسانه أو أعضائه فيظهر الفكر والذكر والفعل فأصحاب تلك الرتبة الأحدية بدون ذلك ولا يتأذون في صورة الشر؛ لأنه أمر فاشٍ من استعداده خارج من كيس تعينه، والله تعالى لا يتأذى أصلاً، وهو أصبر على أذى يسمعه فكذا من ذاق من مشرب المرتبة المذكورة، وأما مرتبة الواحدية الصفاتية فليست في الإحاطة كالأولى.

قال: إن حقيقة الإسلام أمر مشكل صعب لا يتحقق به إلا الأفراد فلا تعجل إذا كان إيمان بأرباب هذا الشأن؛ فإن الله تعالى لما عجل في إظهار وجودك في هذه النشأة وكل أمره تدريجي فترقب المقصود ولو بعد حين، ويلزم عليك الآن حسن الاعتقاد في الباطن والقيام والصيام في الظاهر، فوظيفة الظاهر التعبد بأحكام الشريعة ووظيفة الباطن قطع الميل إلى ما سوى الله، وعند وقوع زيغ أو زلّة يلزم الاستغفار.

قال حضرة الشيخ: إن الله أيدني فلم يصدر مني ما يخالف ظاهر الشرع مع غلبة الحال المحرقة سنين، ثم قرأ قوله عليه السلام: «**إن الله أدبني فأحسن تأديبي**»(1).

قال: إني أحب سماع تلاوة بعض السور كسورة الضحى والانشراح والنصر؛ فإنها جاءت على حسب حالي، والله تعالى وفقني لمطابقة القرآن أنفساً وآفاقاً، وأعطاني ما أعطاني من جهة القرآن.

قال حضرة الشيخ: إن الملك والشيطان كالقلمين اللذين يرسم أحدهما بالمداد الأبيض، والآخر بالمداد الأسود وحركتهما مستندة إلى الكاتب، ولا صنع لهما في الحقيقة؛ فالله تعالى يحول بين المرء وقلبه وقلم الخير وقلم الشر بيده والملك والشيطان من قبيل الوسائط لكن الأدب إسناد الشر إلى النفس والشيطان والخير إسناده إلى الله الملك المنّان وهذا الفرق لا ينافي ذلك الجمع بل هو عين التوحيد والمراتب متفاوتة فمن مشى على المراتب أمن من العثور.

أقول: رأيت في المنام حضرة الشيخ، وهو يقول: إنه من لم يقاسِ مشاق هذه الطريقة فهو يموت بلا دين ولا إيمان.

فقال خادمه القديم علي دده مثالاً لذلك: الحمار يتحمل مشقة الحمل الثقيل مع كونه حيواناً كذلك الإنسان إذا لم يتحمل المشقة مع كونه إنساناً يكون أنزل درجة منه.

قال حضرة الشيخ: رأيت في المنام حضرة الشيخ الأكبر مع ابنه صدر الدين القونوي ـ قُدِّست أسرارهما ـ واعتذرت إليهما بأني أريد أن أزوركما لكن لا أعرف مكانكما فأشار أن أثبت في مقامك ومكانك إننا لا نفارقك أينما كنت فقلت: رأيت حضرة الشيخ الأكبر بقلنسوة (ناتازيه)، يقال لها بالتركي: [قلياق].

قال: لا ضير إنه مجرد عن كل لباس، وظاهر في كل صورة، وصى حضرة الشيخ الصوفية الحاضرين بالاستغفار قبل الغروب؛ لأن المرء لا يخلو يوماً مما يخالف رضاء الله تعالى، وذلك اليوم شاهد على ما فعل.

قال حضرة الشيخ: حالة النوم وحالة الانتباه إشارة إلى الغفلة ويقظة البصيرة فوقت الانتباه كوقت انتباه القلب في أول الأمر، ثم قال: الحركة إلى الوضوء إشارة

(1) عزاه ابن حجر العسقلاني في الإمتاع بالأربعين المتباينة إلى ابن عساكر [1/ 97].

إلى التوبة والإنابة، ثم التكبيرة الأولى إشارة إلى التوجه الإلهي، فحاله ومدة الانتباه إلى هنا إشارة إلى عبوره عن عالم الملك، وهو الناسوت ودخوله في عالم الملكوت، ثم الانتقال إلى الركوع إشارة إلى تجاوزه إلى الجبروت، ثم الانتقال إلى السجدة إشارة إلى وصوله إلى عالم اللاهوت، وهو مقام الفناء الكلي، وعند ذلك يحصل الصعود الكلي إلى وطنه الأصلي ثم القيام إلى السجدة إشارة إلى البقاء؛ فإنه رجوع الولاء ففي صورة النزول عروج وبالعكس فافهم، والركوع مقام قاب قوسين وهو مقام الصفات أي: الذات الواحدية، والسجدة مقام أو أدنى، وهو مقام الذات الأحدية، والحركات الست هي حركة القيام إلى الركوع ثم منه إلى السجدة الأولى ثم منها إلى الجلسة ثم منها إلى السجدة الثانية ثم إلى القيام إشارة إلى خلق الله السموات والأرضين في ستة أيام، فالركعة الواحدة من الصلاة محتوية على أول السلوك وآخره، وغيره من الصور والحقائق الدنيوية والأخروية والعلمية والعينية والكونية الإلهية.

قال حضرة الشيخ: أمهات الأسماء سبع وهي: الحي والعليم والقدير والمريد والسميع والبصير والمتكلم، وكل منها ينقسم إلى سبعة باعتبار أنه الحي يؤخذ فيه الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والتكلم لكن لما كانت الصفة الغالبة هي الحياة أخذت هي لكونها بالفعل ولم يعتبر المقلوب وبالقوة، فإذا كان الحي سبعة بهذا الاعتبار فقس البواقي عليه.

فالسبعة بسبع مرات يبلغ إلى تسعة وأربعين ثم باعتبار الظهور والبطون يكون المجموع ثمانية وتسعين ثم باعتبار المجموع والإفراد يصير تسعة وتسعين ثم باعتبار أحدية المجموع والإفراد يصير مائة؛ فالأول إفراد حقيقة وعدد حقيقي، والثاني والثالث فرد وعدد اعتباريان.

ثم قال: والسموات السبع بإزاء هذه السبع، وهي ما ذكر في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: 14].

فهذه الشهوات السبع المفصلة قد جعلها خمساً في آية أخرى، وهي قوله تعالى: في أواسط سورة الحديد: ﴿ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ [الحديد: 20].

ثم جعل هذه الخمس في أمرين وأدرجها في آية أخرى، قال تعالى: ﴿بَعْدِ ٱلْغَمِّ

أَمَنَتَنُّغَاسَلَيغَشَطِلَآيِفَةَ مِّوَكُلَّهُآيِفَةٌ قَدۡ﴾ [النازعات: 40] جامع لأنواع الشبهات، فمن تخلص عن الهوى فقد تخلص عن كل قيد مانع للسالك من الوصول إلى المطلب الأعلى.

خاطب حضرة الشيخ هذا الفقير بلسانه أن حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي، قد أعجبتني فإني منذ صنفتها لم أطالعها إلى الآن، وإنها جاءت بحمد الله كدرر منظومة بحيث لا تُوصف، وإنها من فضل الله وقد صنفتها في مائة وعشرين يوماً، وبقي ورق من أوراق من آخر التفسير غير محشى؛ لأنه وقع لقلبي الأستار هناك فأمسكت عن التحرير، وكان فيض الله عليَّ حين التحرير بحيث لا يوصف فلم ينقطع عن تلك المدة ولو لحظة.

قال: إني أُحب خطك لتعليقي، لكن هذه النسخة التي بخطي.

قلت: الكل لكم، ثم قلت: قد استغرب حضرة الشيخ الشهير باقتادة ـ قُدِّس سرُّه ـ فهم تفسير الفاتحة فضلاً عن تعليق الحاشية عليه، وهذا التفسير قد صنف، وهو أكثر من أربعمائة سنة بقي بكراً إلى الآن، وإن الله فتح على يديكم.

ثم **قال**: إن خلفائي كثيرون بعضهم في الحياة، وبعضهم قد مات، وإن هذا النَفَس والتأثير يصل بعدي إليك لا إلى غيرك؛ فإن لك إحاطة بهذا العلم، ولك تحريراً لطيفاً، قال: وإني وجدت ما وجدت بنفس شيخي ودعائه وقد أعطيتك هذا النَفس والدعاء بإذن الله تعالى، فسارعت إلى تقبيل طرف ذيله وأخذت دعاءه ونفسه النفيس ويكفيني شرفاً وسعادة في الدنيا والآخرة، وقد كرر حضرة الشيخ المقال المذكور في مجالس مختلفة في أواخر عمره وعد زياراتي له في جزيرة قبرص من الوراثة.

و**قال**: إنك لم تبلغ الآن إلى نصف من السلوك ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: 5]، والحمد لله حمداً كثيراً يستوعب الأوقات ويستغرق جميع الحالات.

قال حضرة الشيخ: المجاهدة طريقة مسلوكة لأهل البداية والنهاية، أما أهل البداية فيجتهدون تربية، وأصلاً، وأما أهل النهاية فشكراً، ولذا قال عليه السلام: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1] فالفتور في المجاهدة يؤدي إلى تقوية القوى

(1) رواه البخاري ف صحيحه في أبواب عدة منها: باب قيام النبي ﷺ، حديث رقم (1078) [1/ 380] ورواه مسلم في صحيحه، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (2819) [4/ 2171] ورواه غيرهما.

الحيوانية، وتضعيف القوى الروحانية مع أن السالك مأمور بالإمداد إلى طرف الروح؛ فإنه كالإمداد إلى عسكر الإسلام في الظاهر، منهي عن الإمداد إلى طرف الجسم، فإنه كالإمداد إلى جيش الكفار في الظاهر، وكل منها مذموم، وإنما الممدوح إلى ظاهر الدين الحق وباطنه إلى أن يغلب أهله عدوه في الظاهر والباطن، والنشاط ليس بشرط في المجاهدة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: 41].

قال: وأرى بشرتك غير ما رأيتك قبل.

قلت: وقع الفتور في المجاهدة منذ سنة بسبب أني أفرطت فيها؛ فقيل لي: (هداي أو ليحق تقدير كار ايلمز اكاندبير)؛ فقال: كن على الاعتدال في كل حال من غير إفراط وتفريط ولتكن همتك في العبودية التذلل المحض دون ظهور فيض أو غيره؛ فإن العمل الصالح هو ما ابتغي به وجه الله تعالى دون غيره من العلوم والمعارف والأسرار والحقائق وغيرها، وكل نشأة فهو بذر ما يليها كالدنيا؛ فإن من حرث فيها يحصد في الآخرة ومحصول هذا البذر الدنيوي ظهر في النشأة الأخروية، قال: إن كل نشأة فهي بذر ما يليها كالدنيا تخالف ما قبلها وما بعدها؛ فإن الله لا ينشىء شيئاً مرَّتين في صورة واحدة، فإنه عبث، وهو منزه عنه؛ فهذا الظهور الدنيوي إذا ذهب إلى البطون فلا يعود أبداً بل ينتقل على المثال البرزخي وهو تخيل آخر ثم المثال البرزخي ينتقل يوم النشر إلى الوجود العيني الحشري، وهو غير البرزخي باعتبار، إذ اتحاد الحقيقة في كل نشأة كحقيقة الإنسان لا ينقلب إلى حقيقة أخرى لا ينافي الغيرية، ولو من وجه فحقيقة الوجود متحدة، والظهور مختلف فافهم؛ فإنه من مزالق الأقدام، قلت: لم أدرك كيفية الوجود البرزخي هل هو كما في الدنيا؟ قال: نعم؛ وإنما الفرق أن البطون في هذه النشأ يكون ظهوراً هناك فيكون الغيب شهادة، والشهادة غيباً.

قال حضرة الشيخ: أصل كل شيء هو الحرف، فإذا انضم إليه خاصتان له يصير كلمة إما اسماً أو فعلاً أو حرفاً، وهذا التركيب جارٍ في العوالم.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى ألقاني هنا، ومن قلعة ماغوسة كلمة بديعة له أني كنت أرجو أن يظهر من السلطان أو الوزير أو غيرهما واحد فينصح بكلامي ويصلحني ويكون سبباً لنظام العالم، فالآن عرفني الله أن ليس في سلطان الزمان

وأتباعه استعداد لقبول النصح ومداراته لحياة العالم، فجردني عن القسطنطينية وأهلها تجريداً لا يوصف غير أن الأطفال في البيت يمرون على الخاطر في بعض الأوقات التي لست بمغلوب، وإنما يجيء الخاطر، ويذهب ويذهب من غير توقف.

قال حضرة الشيخ: بأن الله تعالى أراك بقاء بلدة بروسة فاشكر الله؛ فإن العزيز الكبير مدفون هناك، وهو حضرة الشيخ الشهير باقتادة ـ قُدِّس سرُّه ـ والعزيز الكبير وهو خليفة حضرة محمود الهدائي ازسكداري القوجحصاري نشأ فيها وقد ورثك الله تحريره ثم دعا دعاءً جامعاً حلواً يحيى من أتباع الفقير رأس حضرة الشيخ يوم الجمعة.

قلت: احتجم النبي ﷺ مرة فشرب بعض الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ ما خرج من الدم، وهو ممنوع من حيث ظاهر الشريعة، ولذا حمله بعض العلماء على الإفراط، قال: إن سكت النبي ﷺ بعد شرب الدم؛ فهو إذن له وإلا فإن كان من أهل الفرق ففعل ذلك محظور، وإن كان من أهل الجمع ففعله مباح.

وقد ذكر العلماء أيضاً أن من خصائصه عليه السلام طهارة ما هو غير طاهر من غيره ولو كان فضلاته.

وأيضاً إن الله طيب، والرسول أيضاً طيب بجميع أجزائه من غير تفرقة بين جزء وجزء، وظهر من رأس حضرة الشيخ بعض دم من الموسى فمسحه، وقال: يجيء يوم يبلى هذا الرأس وجميع أجزاء الوجود، فقلت: لا تبلى إن شاء الله، قال: بأي دليل تقول؟

قلت: لأن التوحيد الحقاني يزيل العفونة البدنية الموجبة للتفسخ، فتبسم، فخطر ببالي أن حضرة الشيخ لو قال: ما علامة الوصول إلى التوحيد الحقاني؟

فإذاً أقول له: فخطر من تلعثم أن نور وجهك المبارك وكمال تعبده بالأحكام الظاهرة وتخلقه بالأخلاق الحميدة الباطنة وكراماته العلمية التي عجز عنها مشايخ الزمان ومشاهيرهم فضلاً عن إتيان مثلها أهل الرسوم فكل ذلك علامة للمقصود، والحمد لله تعالى.

دعا حضرة الشيخ لهذا الفقير بعد رؤية بعض آثاري؛ فقال: جعل الله قلبك واسعاً ولسانك جامعاً، وجاء في هذا اليوم ـ أي: يوم الجمعة ـ درويش من الفقراء القادرية بطريق الزيارة، فسأله الشيخ عن أحواله وسياحته، ثم قال: [اكر تلرار لره

ايرمش اوتوراتلرار لرايمش] وكون المرء رجلاً كاملاً أولى من كونه واصلاً إلى الرجل الكامل.

ثم قال حضرة الشيخ: الحدث أصغر وأكبر، وهما في الشريعة ظاهران، وأما في الطريقة فالحدث الأصغر هو حب العقبى، والحدث الأكبر هو حب الدنيا، وأيضاً الأصغر حب العلوم الباطنة والتقيد بمرتبتها، والأكبر هو حب العلوم الظاهرة، وأيضاً الأصغر الشرك الخفي، والأكبر الشرك الجلي.

وأيضاً الأصغر الميل إلى التعينات الباطنية الروحانية.

والأكبر الميل إلى التعينات الظاهرة الجسمانية.

وأما في مرتبة الحقيقة فالأصغر الارتباط بالشؤونات الغيبية التي هي مرتبة الأحدية، والأكبر التعلق بالتعينات العملية التي هي مرتبة الواحدية كما قال تعالى: ﴿ لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ﴾ [الواقعة: 77، 78] فالكتاب هي مرتبة الواحدية التي ترتسم في مصحفها نقوش مرتبة الأحدية التي هي القرآن الإجمالي فأهل الميل إلى الشيء مما ذكر كونية أو إلهية عينية أو علمية أهل الركون إلى ما سوى الله يلزم ترك صحبته؛ لأنه جنب في مقامه المطلق عن رق كل قيد هو أهل الحق وهم المخلَصون بفتح اللام، وهم أعلى من المخلِصين بكسر اللام قيد الإخلاص ونسبه إلى نفسه بخلاف المخلَص بالفتح بل هو حر عن جميع القيود، فيكون الحق إذا طاب للحق في مرتبة العبد، وعابداً له في مرتبة فتضمحل جميع النسب فلا يبقى إلا الحق ومجملاً.

ولذا قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهياته التركية: [حقي حقله شهودايت أي كوكل] فإن الوجود والشهود قيد بالنسبة إلى العبد؛ فإذا فنى عن إضافة الكون كان الشاهد والمشهود هو الله لا غير كما كان هو لا غير، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ﴾ [الواقعة: 79] أي: لا يمس الهوية إلا المطهر عن جنابة التعلق بكل من المقامات المذكورة، والمطهَّر بالفتح لا بد له من المطهِّر بالكسر، وهو الله تعالى فالعبد لا يطهر نفسه ولا يزكيه، وإنما يطهره الله تعالى ويزكيه، قال: قطع اللهعن قلبي كل علاقة حتى إني صاحبت السلطان سنين، وكان انقطاعي في تلك المدة أشد من الانقطاع قبل الصحبة فللَّه تعالى الحمد على ذلك، وقد غير مثل هذه الصحبة حال كثير ممن تزيَّا بهذا الزِّي.

shaziliaassemia.com

قال حضرة الشيخ: أعجبني حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي أنها من النوادر.

قال: وهذا الفيض فضل الله العظيم عليَّ حيث أنعم بمثل هذا على مثل هذا الفقير، قال: قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 285] بالنسبة إلى الوحي الظاهر، وأما بالنسبة إلى الإلهام؛ فنقول: صدق وارث الرسول ما ألهم عليه من ربه، والمؤمنون به.

قال حضرة الشيخ: النظر الصحيح يؤدي إلى معرفة الحق وذلك بالانتقال من معلوم إلى أن ينتهي إلى الحق لكنه طريق التصور والفكر لا يتخلص من الاثنينية، وأما المكاشفة فليس منها الانتقال المذكور وطريقها المذكور، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْأَبْتَرُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأُتْلُوٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا صِرَٰطٍ وَلَهُۥ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ﴾ [آل عمران: 191] كيف قدَّم فيه الذكر على الفكر؛ فطريقة الإشراقيين تخالف هذا؟ قلت: إن صاحب الكشاف خاتمة أهل العربية حيث لم يأت بعده بمثل عربيته، قال: نعم، ولكن القشر المجرد لا يفيد كثيراً؛ فإن العلم هو الذي أخذ من الداخل، لأنَّ الخارج علم علماء الرسوم مأخوذ من الخارج، وعلم علماء الحقيقة مأخوذ من الباطن، والمرء إذا لم يأخذ البيان من الله كيف يفسر القرآن ويؤوله بل هو في حجاب وخجل يوم القيامة من مقاله، ولو نجا برأسه لكفى، قال: مثل أبي السعود وغيره، له عين واحدة لا عينان والمعنى في الحقيقة هو الذي له عينان، قال: علماء الرسوم كالعميان يستند بعضهم ببعض.

قال حضرة الشيخ: الابتلاء جار في زمان آدم عليه السلام إلى هذا الآن، وإن النبوة عينها معه من الابتلاء، ولا تحول بينه وبين النبي عليه السلام، وكذا الولاية ألا ترى إلى حال الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما، قال: إن الشبلي ـ قُدِّس سرُّه ـ بكى مرة لوفاة ولده فتنبه أن مثل هذا البكاء إنما يصدر من النساء، فحلق لحيته حياءً من الله تعالى، قال: إن الله تعالى إذا أراد لعبده الترقي يتجلى له في يوم واحد بألف صورة ويبتليه بأنواع البلايا، وإذا أراد له التنزل يبقيه أربعين سنة على حالة واحدة.

قال حضرة الشيخ: علم الشريعة يبقى هناك لأن متعلقه على الفناء، وإنما يذهب إلى الآخرة ثوابه بحسب العمل بالإخلاص.

وأما علم الحقيقة فيذهب إلى الآخرة؛ لأنه على البقاء، وهو أزلي أبدي لا

زوال له في كل موطن ومقام.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى ألحق هذه الدار أهل اليقظة الواصلين بأهل الغفلة المحجوبين في التعبد والتقيد بالأحكام والآداب، ولذا وجب الاغتسال من غير تفرقة بين أهل الجمع والفرق.

وأما في الدار الآخرة فعكس الأمر بأن ألحق أهل الحجاب بأهل الكشف في دفع القيد، ولذا لم يُوجب الاغتسال في الجنة، ولو جامع كل يوم ألف مرة.

أقول: هذا من لطائف الأسرار وفيضه عن الأغيار.

قال حضرة الشيخ: وراء الجسم روح مجرد فوقه عين مجردة، وفوقها سر مجرد، ومنه يظهر قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [...][1].

قال حضرة الشيخ: من قال في حقنا قولاً فاحشاً أو إذا آذانا بفعله أو تركه فهو في حل؛ فإن إرادة الانتقام له أو وقوعه في أمر مكروه من باب الشرك في طريقنا فنحن لا نلتفت إليه أصلاً بل إلى ما دبر الله لنا في علمه، وكل تدبير خير ومحبوب، وإن كان في صورة المكروه؛ فإنه قد أخفى جماله في جلاله، ولطفه في قهره، ونوره في ناره، ألا ترى إلى حال إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19] أي: التسليم في جميع المراتب بالقلب والقالب واللسان كما قال تعالى: في حق إبراهيم عليه السلام﴿أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل﴾ [البقرة: 131]؛ فهذا القول بالإسلام إنما كان بالإسلام بالقالب والقلب والروح والسر، وإلا فالإسلام القولي لا يفيد، ألا ترى أن كثيراً من الناس يقول: إني أسلمت للّه تعالى، ولكن عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان؛ فجميع الابتلاءات إما لإظهار الغل والغش، وهو لأرباب التسليم الصوري، وإما لإظهار الخلوص والانقياد، وهو لأصحاب التسليم الصوري والمعنوي؛ فإن بالابتلاء يظهر من معادن نفوسهم جواهر هي عند الله على الجواهر كما أن من معادن نفوس غيرهم يظهر ما ليس عند الله بشيء بل موجب لسخطه وغضبه كالغضب والاضطراب والقول الفاحش بالدعاء لسوء وغيرها.

قال حضرة الشيخ: إذا ما مت فافعل ما بدا لك؛ فإن الأمر إذاً بينك وبين الله، وقد انقطع القيد الصوري، وهو الاستعداد.

(1) بياض في الأصل.

أقول: ظهر من هذا أن الشيخ ما دام حيّاً، فالرجوع إليه في المهمات فنفسه النفيس كالوحي الظاهر بالنسبة إلى المريد؛ فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يبلغون الوحي في الباطن من الوجه الخاص أولاً، ثم يجيء جبرائيل عليه السلام من الوجه العام ثانياً، وهم ينتظرون ذلك المجيء فالشيخ كجبرائيل للمريد وجبرائيل عليه السلام مرشد لرسول الله ﷺ، ألا ترى أنه أرشده إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى، ثم انقطع ذلك وكان الأمر بينه وبين الله صورة ومعنى؛ فإن سر العبد لا حكم عليه لأحد إلا لله، ولهذا جاء في أدب أهل الطريقة أن المريد إذا أراد أن يذهب لحاجة ولم يجد الشيخ في مكانه يتوجه إلى روحانيته ويستأذن من الباطن، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولمقصود المتابعة، وهي حاصلة في كلتا الصورتين أي: في صورة وجود الشيخ وعدمه؛ فإن انعدام وجوده في مكانه في الظاهر لا يستلزم عدم وجوده في الخارج، والحاصل أنه فرق ما بين الحياة والممات، وإن كان الأنبياء والأولياء أحياء عند الله في جميع النشئات.

قال حضرة الشيخ: العلم يسوق إلى العرفان، وهو إلى المحبة، وهي إلى التعبد؛ لأن من له محبة الله يجهد في خدمته ويعبده لا لغرض، والمجاهدون في سبيل الله أفضل من القاعدين بالنص، قال: صاحب شيخي بعد ظهور هذا العلم ـ أي: علم الطريقة والمعرفة لقلبي ثلاث ثم استخلفني فصرت غريباً وبقيت يتيماً لكن الله ألبس وأنعم وأغنى وله الحمد، ألا ترى أن أحوال اليتامى في الخارج متفاوتة؛ فمنهم من يبقى على الغذاء والجوع، ومنهم من يخلف له من يحتضنه فيراعيه كما يراعي الأبوان أولادهما، وإن الله حفظني عن الرخصة إلى الآن، وذلك في المطعم والملبس وغيرهما، وحبب إليَّ الزهد وبغض التجمل، ومع هذا فأين نحن من كبار السلف في المجاهدة من تقليل الطعام والكلام والمنام والتكثير في الصيام والقيام.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى يبتلي بعض العباد بالطلب من تحصيل المطلوب، وبعضهم يبتلي به مع حصول المطلوب المشروط به إما مقارناً بطلبه، وإما بعده؛ لأن وقت الدعاء قد يفارق حصول المطلوب فيستجاب الدعاء في وقت ويحصل المطلوب في وقتٍ آخر، وبعضهم لا يبتلي به بل يرسل فيضه بلا طلب ما لا شيء، والثاني طلب وشيء، والثالث شيء لا طلب.

قال حضرة الشيخ: كما أن الرزق الصوري ينقطع عند الموت الصوري وليس بعده إلا الحياة الأبدية كذلك الرزق المعنوي ينقطع عند الموت وليس بعده إلا الحياة

الباقية، يعني: أن السالك إذا وصل إلى الفناء الكلي يستكمل حظه من جميع المقامات، ويأخذ نصيبه من جميع التعينات، وهي تجري مجرى الغذاء لروحه؛ فإذا استوفى من كل مقام حظه كان كأن قد مات وآل إلى صورة أخرى لا تشبه حاله الأولى أصلاً، وذلك إنما يكون بعد أربعين سنة من أول سلوكه حين تسخير قواه الطبيعة والنقصانية بالكلية ومجيء الإمداد الملكوتي فليس المراد من هذا الفناء هو الذي يحصل قبل الفناء بل بعده فافهم.

قال: وهذا كما أن أهل الجنة يصلون لمقتضى الاستثناء الذي هو فعله إلا ما شاء ربك إلى مقام لا يشبَّه بالذي قبله أصلاً وذلك بعد طول العهد من دخول الجنة وعنده يظهر سر الأزل في مرآة الأبد، فكما أن مبدأ التعينات وهي الشؤونات الغيبية هو أزل الآزال كذلك ما بعد هذا المقام الذي وصلوا إليه بالتجلي المخصوص هو أبد الآبدين فالأبد المضاف هو ما بعد هذا التجلي والمضاف إليه ما كان قبله مذ دخولهم الجنة، وكذا الأزل فإن ما فوق هذا المبدأ هو الأزل المضاف وما تحته هو الأزل المضاف إليه، وهذا السر جارٍ على أهل النار لكنهم أهل الجلال ومقام الفردية، ولذا تزوج لهم ولا تنعم بنعم أهل الجنة أهل الجمال ومقامهم مقام الصفة مقتضاها التنعم والتلذذ فالفرق بين أهل الجنة وأهل النار أن لأهل الجنة ظهوراً بالصفات، وفي الظهور بطون، وهو سر الذات، وأن لأهل النار بطوناً، وليس في البطن ظهر.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى يُشاهد الأشياء بعين الإنسان الكامل، وإن الإنسان الكامل إذا انتقل إلى البرزخ بالموت الصوري يزداد حظه من مقامه فهو في الترقي أبداً في كل موطن.

قلت: تأخر ظهور المهدي إلى رأس المائة الثالثة.

قال: أكثر العلماء على هذا؛ فالظاهر أن الله يريح عباده قرناً وهو إلى ثلاثين سنة ثم يضعف الحال بعد الخمسين إلى أن يظهر ما يظهر إلى ظهور المهدي.

قال حضرة الشيخ: إن أهل الجمال يتنفرون عن أهل الجلال بما اختصوا به من عنايته وبالعكس فكل منهما محجوب عن صاحبه في هذه الدار، وكذا في الدار الآخرة، وأما أهل الكمال فلهم إحاطة وسعة في الدارين ليست لغيرهم، فالمقربون واقفون على أحوال الأبرار ومكاشفون عن مقاماتهم ومواطنهم وهم محجوبون عن

حال المقربين وكذا الأبرار واقفون على أحوال أصحاب المشأمة، وهم محجوبون عنهم وعن كل واحد من الأبرار وصاحب المشأمة متنفر عن صاحبه بخصوص مقامه، محجوب عنه بما اختص به.

قال حضرة الشيخ: إن الشيخ في هذا الزمان يرشد المريد إلى طريق العلم والعمل ثم يستخلفه من غير استحكام الحال إذ ليس لأبناء الزمان ملازمة باب المرشد أربعين سنة لعسرتها فينتفعون بأقل قليل لكن الخليفة إذا ثبت في طريق الاجتهاد وصل إلى المراد ولو بعد حين، ومعنى زيارة الخليفة لشيخه النصح القولي والفعلي وتجديد النشاط لا تفرج البلدان ونحوه كما يفعله عامة الخلفاء في هذا الزمان، قال: هل وجدت مذ ما قدمت إلى الإسكوب وهو خمس عشرة سنة من يصاحبك على الحق؟ قلت: لا، قال: فعليك نفسك واستر حالك عن الأعيان ولا تكن من الخلفاء الذين يقبل الناس أيديهم، ويطمع لهم في الدنيا فينسون الحال التي كانوا عليه قبل فيردون إلى أسفل السافلين ولا يبقى عندهم من العلوم التي حصلت لهم في البداية إلا الخيال.

قال حضرة الشيخ: إن حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي لا يضيعها الله وسوف تكون مدداً لأصحاب هذا الشأن إن شاء الله المنّان، وإن الله الأكبر أنعم على مثل هذا العبد الأقل الأفقر بمثل هذه النعم الجليلة.

قال: وإني أقل وأفقر العبيد إلى الله الغني الكبير؛ فالإضافة إليه لا إلى غيره، قال الإمام عليّ رضي الله عنه: كفاني شرفاً أن تكون لي رباً وأن أكون لك عبداً كما قال تعالى هو خالق العبد، فكذا جاعل للعبد عبداً، وذلك يرفع هواه لا هو وهذا وقت الأصل، وهو وقت مبارك نسأل الله أن يجعل كل خاطر في المجلس عبداً له حقيقياً، ثم قال الفاتحة ثم بكى، وقال: لا تقنطوا من رحمة الله ألا ترون أن الصبي إذا لوث ثوبه وأرادت أمه وأبوه ضربه فإنه يلتجىء إليه لا إلى غيره فيرحمه ويغسل ثوبه ودرنه فنحن نلتجىء إلى الله بالتوبة والاستغفار كل حين وهما طهارة لنا عن كل دنس من الذنوب، ثم بكى شديداً حتى قام إلى سُنَّة العصر، وكان ذلك المجلس روضة من رياض الجنة، وقد شرف الله الحاضرين بدعائه المستجاب فللّه الحمد.

دعا حضرة الشيخ من عنده للإفطار فجلسنا له، وبين أيدينا ماء وكعك مبلول؛ فقال بعد الإفطار: لهذا الخبز روح حقاني فظاهره يرجع إلى الجسد وروحه يرجع إلى الروح فيتقوى به الجسم والروح جميعاً، ولكل موجود روح إما حقاني أو

حيواني؛ فجسد الميت له روح حقاني أي: غير روحه الحيواني الذي فارقه ألا ترى أن الله تعالى لو أنطقه لنطق بإنطاق الله تعالى إنما هو روح حقاني، وقد جاء أن كل شيء يسبح بحمده، وما هو إلا لكونه ذا روح سواء كان حجراً أو شجراً أو غير ذلك.

قال حضرة الشيخ: عند قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]: إن مشيئة الله واحدة، ومشيئة العباد كثيرة، والوحدة مبدأ الكثرة فكل مشيئتهم من مشيئة الله وتحريك قلة ليس بأهون عليه من تحريك جبل بل الكل عنده سواء.

قال حضرة الشيخ: ميقات الحج إشارة إلى الحد الفاصل بين عالم الملك والملكوت فمنه إلى الحرم ملكوت أفعالي، ومن الحرم إلى الكعبة صفاتي، والكعبة إشارة إلى الذات والحجر الأسود إلى النقطة، والمراتب الكونية مرتبة على ترتيب المراتب الإلهية، فهذه الرسوم والآثار، موافقة لتلك المعاني والأطوار، فالتعين الأول الذي هو تعين بالقوة وهو مرتبة الشأن الغيبي لا غاية وراءه في الإلهيات كما لا غاية للكعبة في الكونيات، والتوجه إلى القبلة رعاية للأدب الشرعي، وإلا فالحق مطلق عن الجهات والعارف متوجه بظاهره إلى الكعبة وبباطنه إلى الله تعالى، فهو مطلق عن كل قيد في الحقيقة وفات عن إضافة كل مرتبة حتى عن التعين الأول فلا يبقى بالنسبة إليه إلا الله.

قال حضرة الشيخ: الظاهر والمظهر وجود الفارق، وهو الشريعة والعمل، ولا فرق في الحقيقة والعلم الشريعة، والعمل يصعد إلى جميع الحقيقة والعلم، ولا جمعها ينزل إلى فرقها وبه يتخلص السالك عن الإلحاد والزندقة، ثم ساق كلاماً آخر لا أذكره للعهد المأخوذ.

قال حضرة الشيخ: الشريعة فرقت بين الطيب والخبيث؛ فإن أكل الخبيث عائق من العروج إلى المبدأ، ولذا اختار السلطان التقوى والتزهد في المطعم؛ فإن له نفعاً لأنفسهم ولما ولد من أصلابهم.

قال حضرة الشيخ: لا بد للسالك من أن يكون في التجرد كتجرد الجنين في الرحم، وأما الكُمَّل فظهر بعضهم بالاسم الظاهر، وهو بإذن الله، ألا ترى أن حضرة الهدائي ـ قُدِّس سرُّه ـ كان في الظهور التام بالنسبة إلى شيخه الشهير باقتادة ـ قُدِّس سرُّه ـ وهو في الخمول، وإنما جاءت الشهرة له من شهرة خليفته وهو الهدائي وظهورهم وتجملهم ليس لحظ النفس إذ ليس فيهم النفس الأمَّارة حتى يكون لها

حظ بل الذات الأمَّارة فافهم، وقوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن﴾ [صٓ: 35] حكاية عن سليمان عليه السلام مبني على هذا؛ فإن الله تعالى خلق الداعية في قلب سليمان عليه السلام لهذا الدعاء فدعا به فاستجاب الله تعالى دعاءه وأعطاه الملك والسلطنة كما أعطاه الخلافة والنبوة، وهو قد امتثل لأمر الله تعالى في ذلك؛ فقيل: في الدنيا، وقيل: دخول الجنة بعد خمسمائة سنة من دخول الفقراء، ولم يطمع في الدخول معهم وامتثل في ذلك لأمر الله.

قال: وأما أنا فقد سلب الله عن قلبي التجلي بالكلية حتى أني لو ركبت دابة ومعي جمع من الصوفية كان ذلك أشد عليَّ من عذاب جهنم؛ لأن الله تعالى لم يخلق الداعية له.

قال حضرة الشيخ: تحديثاً لنعم الله تعالى عليه: إن الله تعالى لم يعط لحضرة الهدائي ما أعطاني من الآثار؛ فإن الله تعالى وفقني لتصنيفات في علم الشريعة والحقيقة وبث مني خلفاء يزيدون على مائة كلهم قادرون على الوعظ والتدريس، وإحياء الدين بحسب ظاهره وباطنه بقدر الإمكان وذلك لطف عظيم من الله تعالى إذ كان العلم قد مات في هذا الزمان في أكثر البلدان فأحياه الله تعالى بي؛ فالحمد لله على ذلك.

قال: إن مثلك لم يظهر بين خلفاء الهدائي أقول هذا الكلام إظهاراً للطف في حقي، وأنا بفضل الله أفتخر لا بغيره، وأسأل الله تعالى ألا يوقعني في ورطة الكبر والعُجب.

قال تعالى: ﴿ قُل لَوۡ كُنتُمۡ فِي﴾ [الأحزاب: 8] أي: عنده لا عندهم كذا فسره الجنيد، وهو معنى لطيف فإن الصدق والإسلام عند الخلق سهل، ولكن عند الحق صعب؛ فنسأل الله أن يجعل إسلامنا وصدقنا حقيقياً مثل حضرة الشيخ التعينات بقوله: إذا قلنا الكلام إما خبراً وإنشاءً، كان أصل الخبر الكلام، فله تعين بالكلامية لكن الكلام في نفس الأمر مجرد عن هذا التعين في صورة الخبر فقس عليه حال التعين الأول مع التعينات الأُخر.

قال حضرة الشيخ: إن السالك حين صعوده إلى المبدأ الأعلى ينحل عن كل عقد وقع له في المراتب والأطوار، وهو عقد التعين بتلك المرتبة إلى أن ينتهي إلى التعين الأول ثم ينسلخ عنه فيحصل له الفناء التام؛ فإن أعيد إلى حيث ما ابتدأ منه

يتلبس بلباس البقاء ثم يمر على تلك المراتب جميعها فلا يبقى له غير وجود الحي ولكونه عين الحق فيبصر به وسمعه يسمع به وهكذا فالعابد والمعبود والشاهد والمشهود إذا هو الله لا غير.

أقول: ظهر من هذا سر قولهم: الفقير لا يحتاج إلى الله، وذلك لأن مثل هذا الفقير كان غنياً بالله أو لا وجود له سوى وجود الله فلا غناء له إلا غناء الله فيرتفع إضافة الاحتياج كما أن من كان خزانة السلطان بيده كيف يحتاج إلى شيء بل إلى السلطان غناهما غناء واحد، والشيء لا يحتاج إلى نفسه فافهم؛ فإنه مزالق الأقدام.

قال حضرة الشيخ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: 26] فإذا كان «من» فانياً فكل ما يتبع «من» فهو فانٍ أيضاً.

ثم **قال**: من خدم، أي: خدم في الدنيا والآخرة؛ فإن الله تعالى لا يضيع الخدمة، استأذن يعقوب دده الإسكوبي من أتباع هذا الفقير للذهاب إلى حضرة الكعبة من البحر وقد جاء معي من بروسة إلى زيارة حضرة الشيخ في ماغوسة، فقال حضرة الشيخ: هل لك مائة دينار؟ قال: لا، قال: فاسمع، إن الشيطان إذا لم يقدر على إضلال الإنسان وإذلاله من طريق الباطل؛ فإنه يجيء من طريق الخير، مثلاً يعلم لو كلفك بالقتل وشرب الخمر ونحوهما أنك ما تساعده في ذلك فيوسوس في الحج ليقطعك عن طريق العلم والعمل؛ فإنك قبل أن تصل إلى مصر يحصل لك ملاك من الطريق فيتشوش البدن والخاطر، ثم يزداد ذلك يوماً فيوماً فيحصل الفتور في العبادات بل تترك بعض الأوراد المعتادة فلو أقمت في حجرتك وكنت على العلم والعمل مواظباً لكان خيراً لك؛ فإن ما أردت من ثواب الحج يحصل في تلك الحجرة أيضاً والمقصود العبودية والاشتغال بالعلم والعمل والحضور أعون شيء لذلك.

ثم **قال**؛ جاء إلى شيخي مرة واحد من العلماء من أتباعه، يقال له: مصطفى أفندي فاستأذن للخروج إلى مكة كما استأذنت أنت، فقال له: يا مصطفى أفندي ما دامت هذه النفس وصفاتها فيك لا تفيد لك الكعبة، ولو اتخذتها حجرة تسكن فيها صباحاً ومساءً، فالمرء بإصلاح النفس يستريح لا بغيره، ولها مكر خفي لا يقف عليه إلا من وقفه الله تعالى.

قال: احمد الله تعالى يا يعقوب دده على أن وفقك لتلاوة كتابه، وجعل

مشيئتك إلى مثل هذا، وأشار إلى الفقير وجردك عن علاقة الأهل والأولاد في هذا الزمان الهائل.

ثم **قال**: هل قبلت؟ قال: قبلت، واستسلمت؛ فإن المقصود هو الرضا.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى إذا أراد إظهار شيء يجعله من جهة المظاهر أي: إن القلم لا يكتب بنفسه، وإنما يكتب به الكاتب فالقلم آلة لظهور فعل الكتابة، فإذا أراد الكاتب تبديل الكتابة بكتابة أخرى يأخذ قلماً آخر ويترك القلم الأول أو لا يترك بل كتب به غير ما كتب في المرة الأولى.

أقول: أراد أن الله تعالى أرسلني إلى هنا لا لوزير وهو بمنزلة القلم في ذلك؛ فإذا أراد نقلي من هنا يجدد الوزير فيكون الجديد بمنزلة القلم في الآخر ويليهم إليه من غير تجديد فيجدد الكتابة في حقي بأن يكتب الإثبات بدل النفي.

تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ﴾ [الحديد: 20] فدعاني فأراني نباتاً مصفراً في محل مرتفع فقال: كان هذا قبل قدومك إلى هنا أخضر غضّاً يعجب الرائين الناظرين، فآل أمره إلى ما ترى.

أقول: إن قلت: ما فائدة البيان وهو معلوم؟

قلت: إن الرؤية ليست كالإراءة، وفي الإراءة سر قوله تعالى: ﴿ مَا صُدُورِكُمْ تِلْكَ﴾ [فصلت: 53] ففارق بين الخبر والنشأة هذه هي الإراءة.

قال حضرة الشيخ: إن أهل النار يدخلون النار بقدر طاقتهم أي: عذابهم فيها؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وليس الأمر كما يزعمه أهل الرسوم.

قال حضرة الشيخ: لا تدعُ على أحد؛ فإنك إن تجاوزت الحدَّ فيه فأنت ظالم والمدعو عليه مظلوم، وإن عدلت وساويت؛ فهو رخصة كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي﴾ [الشورى: 40]، وإن عفوت؛ فهو أولى ألا ترى إلى قوله تعالى: بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ [الشورى: 40]، ولا يجوز الشكاية من الحق إلى الحق ولا من الخلق إلى الخلق واللازم مشاهدة المؤثر الحقيقي؛ فإنه هو الفاعل لا غير.

قال حضرة الشيخ: إن للإنسان أفكاراً مختلفة؛ فإن فكراً غلب عليه، فهو على صورته يموت ويغلب عليه في حال احتضاره، والإنسان الكامل يختم له بالأُنس بالله

إذ ليس له فكر غير الله، وهو الذي يُراد بحسن العاقبة وحسن الخاتمة.

وهذا آخر كلمات الشيخ روح الله روحه في الزيارة القبرصية، وقد اختصرت في كل زيارة على إنشاء بعض كلماته دون كلها إذ لا نصية الأوراق، وقبل هذه الزيارة أُخر لم أكتب كلماتها أصلاً، وإذا أردت أن أكتب ما هو أُنموذج الكلمات وثمرات معارف الشيخ والقطرة تدل على الغدير، وقد كتب قبلي حضرة الهدائي الكلمات الواقعة بينه وبين شيخه باقتادة البرسوي، لكنها تشتمل على حشو وتكرار كثير، والحمد لله على ما أنعم به عليَّ في الباب؛ فإن كتابي هذا جاء مشتملاً على قواعد كثيرة من أنواع، فإن افتخر الأماثل بشيوخهم وكلماتهم، فأنا أفتخر بفضل الله تعالى، وقد أراني من الأولياء، ولو كان الهدائي وباقتادة في الحياة لكانا أول المبايعين له ـ فرضي الله عنهم، وعمن سلك مسلكهم، وتابعهم في طريقتهم ـ وشم رائحة من بساتين معرفتهم وحقيقتهم، وجعلني وإياكم من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، وأراني وإياكم آياته الآفاقية والأنفسية بالبصيرة والبصر؛ إنه الهادي ومنه التوفيق الخاص، والالتحاق بأهل الاختصاص.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم كثيراً

* * *

shaziliaassemia.com

المحتويات

محتويات الجزء الأول

محتويات الجزء الثاني

shaziliaassemia.com